البشرية في مفترق طرق:

دين، أو لا دين؟



أودو شيفر

Udo Schaefer

الطبعة الألمانية الأصلية

Der Bahá'í in der modernen Welt

Bahá'í-Verlag GmbH Hofheim-Langenhain 1981

2nd revised edition 1986

الطبعة الإنجليزية

The Imperishable Dominion

The Bahá'í Faith and the Future of Mankind

George Ronald, Publisher

46 High Street, Kidlington, Oxford OX5 2DN

First edition 1983
Reprinted 1986

ترجمه من الإنجليزية إلى العربية
جمال حسن

تصميم الغلاف
وجدي علي فرج

تصميم غلاف الفصل السادس
الفنان الخالد
حسين أمين بيكار

المحتويات

مقتطفات من نداءات بهاء الله للبشرية وملوكها ورؤسائها ج
ديباجة المؤلّف للطبعة العربية ح
مقتطفات من ديباجة الطبعة الإنجليزية ص
مقدمة المترجم ظ

الفصل الأول – أَهِيَ نهايةُ الدين؟ 1
مكانة الدين اليوم في عالم الغرب 1
ظهور العلمانية وانتشارها 2
علامة العلمانية المسجّلة - صَيْحة ‘قد مات الله! ’ 5
هدم التقاليد والعادات الدينية 10
ظهور ‘الخلاص’ العَلَمانيّ 16
أزمة المسيحية في الغرب 22
ظهور اللاهوت السياسي 24
المزيد من الشطط في الأوساط الكنسية الغربية 30
وماذا عن الكنيسة الكاثوليكية؟ 32
هل نحن أمام مستقبل بغير دين؟ 36

الفصل الثاني – نظرة متفرّسة في وجه عالم الغرب العلماني: 37
هل هذا هو وقت النهاية؟ 37
الدول والأقطار - كيانات صغيرة تعبث في غير زمانها 45
انهيار منظومة القيم والأخلاق 48
الثورة اللغويّة 56
المدينة الفاضلة في مجتمع فوضوي 59
مجتمع بلا قيود 63
الولع بالبراءة 71
البدائل العلمانية للقيم والأخلاق 78
النّزعة إلى الهروب من الواقع 90
تفشّي الجريمة 95
وصْمَتَيْ هذا الزمان: الإرهاب والعنف 101
أهذه هي نهاية حضارتنا؟ 110

الفصل الثالث ـ الدين والعلم: شريكان أم خصيمان **115**
مسالة الهدف من وجود الإنسان 115
مسألة القيم الأخلاقية 118
الدين: منبع الهدف ومصدر القيم 121
تلازم الدين والعلم 125

الفصل الرابع ـ الله حيّ لا يموت **128**
هل هبّت رياح التغيير؟ 128
إعادة اكتشاف الدين 131
هل تفتحت الأعين على الدين من جيد 136
تجديد الدين والوحي الجديد 138
بهاء الله: محيي العالم 147

الفصل الخامس ـ الوحي الإلهيّ على مرّ العصور **152**
الذات الإلهية 152
المظهر الإلهي 156
وحدانية المظاهر الإلهية 159
المظهر الإلهيّ بوصفه الداعي إلى ‘شَيْءٍ نُكُرٍ’ 160

الفصل السادس ـ ما هو الحق؟ **164**
كثرة عروض الخلاص 167
الجديد: ذلك ‘الصغير المختلف’ 171
قاعدة الفصل والتمييز 175
شروط بلوغ الحقيقة 178
طهارة القلب 179
محك الاختبار 181

الفصل السابع ـ وحدانية الأديان **183**
تتابع الرسالات 183
التجديد الإلهي 187

الفصل الثامن ـ المجتمع الجديد **191**
البعد الأفقيّ 191
حاجة المجتمع ككلّ إلى الخلاص 192

الدين أس أساس النظام الاجتماعي 197
نظام بهاء الله العالمي 198
وحدة الجنس البشري 199
الدين – هل هو سبب الاتحاد والائتلاف؟ 200
الوحدة في التعدد والتنوع 203
يوم الدينونة 204
ملكوت الله 207
الصّلح الأعظم 212

الفصل التاسع – موقف البهائيين من النّظُمْ القديم 216
الانحلال والتجديد 216
دور البهائيين 219
هل من للسياسات الحزبية جدوى؟ 220

الفصل العاشر – الموازنة بين السلطة والحرية 226
سلطة المظهر الإلهي 226
سلطان الله 227
التنزيل السماويّ والفلسفات المادية 229
التسليم بالإرادة الإلهية 232
الإنسان والحرية 235
أثر ونفوذ التربية والتعليم 238
مفهوم الشر والعذاب 245
رأي البهائية في العيش من أجل الملذات 253
في معاداة القانون 263
في معارضة إلغاء قانون العقوبات 269
القانون الإلهي 276

الفصل الحادي عشر – مسؤولية الإنسان 280
في مسألة الموت 280
في الحياة الدنيا بوصفها استعداد للحياة الأخرى 284
في مسألة الانتحار 292
ساعة الصدق: الموت 295
في مسألة الولع بالبراءة 298

الفصل الثاني عشر – الإنسان الجديد **304**
هل من ضرورة لوجوده؟ 304
البعث الروحي 307
المنهاج الجديد 308
عن أخلاقيات العمل 314
الاعتدال 320
‘الميزان’ – ذلك المعيار الجديد 323
عن أصل المعايير الأخلاقية ومنشأها 328
عملية التنقية والتطهير وترقّي الفرد 333
محبة البشر كافّة بغير قيد أو شرط 336
ما الذي يحفز البشر؟ 338
دين سرور وحبور 341
الأعمال والمثل الحيّ 343

الفصل الثالث عشر – المجتمع البهائيّ **353**
أهل البهاء 353
انتماء من صميم الفؤاد 356
الهيكل التنظيميّ للمجتمع البهائيّ – ضرورته والغرض منه 358
هياكل المجتمع البهائي 361
الانتخابات البهائية 362
المشورة في البهائية 366
الوسائط المادية اللازمة لعمل المؤسسات البهائية 370
ترويج الدعوة ونشرها 372
التبليغ بالاعتدال والحكمة 375

الخاتمة – استشرافات المستقبل **379**

قائمة ببعض الأعمال الرئيسية الأخرى للمؤلف **387**

"كَذلِكَ نُزِّلَتْ آياتُ رَبِّكَ الكُبْرى تارَةً أُخْرى لِتَقُومَ عَلى ذِكْرِ اللهِ فاطِرِ الأَرْضِ وَالسَّماءِ في تِلْكَ الأَيَّامِ الَّتي فِيها ناحَتْ قَبائِلُ الأَرْضِ كُلُّها وَتَزَلْزَلَتْ أَرْكَانُ البِلادِ وَغَشَتِ العِبادَ غُبْرَةُ الإِلْحادِ إِلاّ مَنْ شاءَ رَبُّكَ العَزِيزُ الحَكِيمُ، قُلْ قَدْ أَتَى المُخْتارُ فِي ظُلَلِ الأَنْوارِ لِيُحْيِي الأَكْوانَ مِنْ نَفحاتِ اسْمِهِ الرَّحْمنِ وَيَتَّحِدَ العالَمَ وَيَجْمَعَهُمْ عَلَى هذِهِ المائِدَةِ الَّتي نُزِّلَتْ مِنَ السَّماءِ. "

من لوح بهاء الله إلى نابليون الثالث

"يَا سُلْطانُ إِنِّي كُنْتُ كَأَحَدٍ مِنَ العِبادِ وَرَاقِداً عَلَى المِهَادِ مَرَّتْ عَلَيَّ نَسَائِمُ السُّبْحانِ وَعَلَّمَنِي عِلْمَ مَا كَانَ لَيْسَ هذا مِنْ عِنْدِي بَلْ مِنْ لَدُنْ عَزِيزٍ عَلِيمٍ، وَأَمَرَنِي بِالنِّدَاءِ بَيْنَ الأَرْضِ وَالسَّمآءِ وَبِذلِكَ وَرَدَ عَلَيَّ مَا تَذَرَّفَتْ بِهِ عُيونُ العَارِفِينَ، مَا قَرَأْتُ مَا عِنْدَ النَّاسِ مِنَ العُلُومِ وَمَا دَخَلْتُ المَدَارِسَ فَاسْئَلِ المَدِينَةَ الَّتِي كُنْتُ فِيها لِتُوقِنَ بِأَنِّي لَسْتُ مِنَ الكَاذِبِينَ، هذا وَرَقَةٌ حَرَّكَتْها أَرْياحُ مَشِيَّةِ رَبِّكَ العَزِيزِ الحَمِيدِ هَلْ لَهَا اسْتِقْرارٌ عِنْدَ هُبوبِ أَرْياحٍ عَاصِفاتٍ؟ "

من لوح بهاء الله إلى ناصر الدين شاه

"أنْ يا پاپا أن اخْرِق الأحجابَ قد أتى ربُّ الأربابِ فى ظُلل السّحابِ وقُضِي الأمرُ مِن لدى اللّه المقتدرِ المختار... إنّه قد أتى يومُ الحَصَاد وفُصِّل بين الأشيآء خَزَنَ ما اختارَ في أواعي العدلِ وألقى فى النّارِ ما ينبغى لها كذلك حَكَم ربُّكم العزيزُ الودودُ في هذا اليوم الموعودِ إنّه هو الحاكمُ على ما يشآء. "

من لوح بهاء الله إلى البابا بيوس التاسع

"إِنَّا نَنْصَحُ الْعِبَادَ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ الَّتِي فِيهَا تَغَبَّرَ وَجْهُ الْعَدْلِ وَأَنَارَتْ وُجْنَةُ الْجَهْلِ وَهُتِكَ سِتْرُ الْعَقْلِ وَغاضَتِ الرَّاحَةُ وَالْوَفَاءُ وَفَاضَتِ الْمِحْنَةُ وَالْبَلآءُ وَفِيهَا نُقِضَتِ الْعُهُودُ وَنُكِثَتِ الْعُقُودُ. لاَ يَدْرِي نَفْسٌ مَا يُبْصِرُهُ وَيُعْمِيهِ وَمَا يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ. "

بهاء الله في لوح الحكمة

ديباجة المؤلف للطبعة العربية

‘الكتاب بعد ثلاثة عقود ونيف من طبعته الأولى’

كما يشير إليه عنوان طبعته الأولى التي صدرت باللغة الألمانية عام 1978[1]، يرمي هذا الكتاب إلى تقديم صورة عن البهائية من منطلق الخواء الروحيّ لزماننا الحاضر. أما لبّه فهو رسالة بهاء الله على خلفية حقيقة العالم الذي نحيا فيه وهياكله وأفكاره ونظرياته ومثله العليا. وبما أنه قد انقضى منذ ذلك التاريخ ما يربو على خمسة وثلاثين عاما، وهي فترة طويلة نوعا ما في أزمنتنا هذه التي تتميّز بسرعتها في التقلّب والحركة، فلا يكون الكتاب حديثا من وجوه عدّة سنشرحها فيما يلي.

فأولا – قد نما كَمُّ المعرفة المتاحة عن الدين البهائي نموّاً عظيماً خلال تلك الفترة. كما حدثت طفرة كبيرة لا يستهان بها في تلك الأثناء في عدد الآثار المنشورة لبهاء الله بلغات أهل الغرب. وأهمها ظهور طبعة إنجليزية معتمدة للكتاب الأقدس صار تداولها متاحا منذ عام 1992. أما سورة الملوك وسورة الهيكل وغيرها من ألواح بهاء الله إلى ملوك العالم ورؤسائه، وهي التي لم يكن متاحاً منها [للقارئ الغربيّ] سوى مقتطفات من هنا وهناك، فقد تم ترجمتها وصارت متوفّرة بكاملها باللغات الغربية. كما ظهرت طبعة إنجليزية لأثر عرفانيّ آخر هام من آثار بهاء الله، وهو كتاب ‘جواهر الأسرار’. وعلى صعيد آخر، تأسست روابط للدراسات البهائية في عدد من الدول بهدف دراسة البهائية من زواياها التاريخية والفلسفية والاجتماعية والقانونية والسياسية. ويصدر في هذه الأيام عدد لا بأس به من الدوريات الأكاديمية البهائية[2]، وهي التي تساهم في زيادة فهمنا للدين البهائي. أما الأبحاث الفكرية الأساسية فقد قطعت شوطاً كبيراً – ويرجع الفضل هنا لعوامل عدة، منها الحوار الدائر بين الأديان، وهو حوار بدأ يلقى رعاية نشطة منذ تسعينيات القرن العشرين. وأخيراً وليس بآخر، فقد قُدِّمت رسائل

---

[1] عنوان الطبعة الألمانية لهذا الكتاب هو *Der Bahá’í in der modernen Welt. Strukturen eines neuen Glaubens* طبع دار النشر الألمانية البهائية في Hofheim

[2] ومنها دورية الدراسات البهائية التي تصدر في كندا بعنوان The Journal of Bahá’í Studies، ومجلة الدراسات البهائية التي تصدر في الولايات المتحدة بعنوانBahá’í Studies Review ، والدورية المعنونة Zeitschrift für Bahá’í Studien التي تصدر في ألمانيا

عديدة لنيل الدرجات العلمية من شتّى الجامعات تناولت الكثير من المواضيع في الدين البهائي خلال العقدين الماضيين.

أما العوامل الأوضح والأسهل على الفهم من ذلك، فهي هذا التحوّل الهائل الذي مرّ به عالمنا خلال تلك العقود الأربعة الماضية. إذ أنّ موضوع انهيار المجتمعات الذي تناولناه في الفصل الثاني من الكتاب قد ازدادت وتيرة تسارعه بشكل ينذر بالخطر. فشرور مثل الانحطاط الخلقيّ والجريمة وإدمان الخمور والمخدرات قد استشرت بشكل هائل في كل صقع من أصقاع العالم، ناهيك عن أفلام العري وممارسة الشذوذ مع غير البالغين وإجبار الفتيات والفتيان على البغاء وتجارة المخدرات التي صارت جميعها رائجة على مستوى تجاريّ في عديد من الدول. أما الفساد فقد صار سوسا ينخر في عظام مؤسسات المجتمع حتى في تلك الدول التي نسميها بالدول المتقدمة. وإذا ما تناولنا حال النشاط المصرفيّ والشركات العابرة للقارات في العالم لوجدنا أنها قد تعرّضت لخسائر معنوية ومادية كبيرة على يد مدراء اتخذوا من الغش والتزوير زادا ومنهاجا. أما سماسرة الفساد والساسة النفعيون فإنهم لا يجدون حرجاً في ملء جيوبهم على حساب عامة الناس والفقراء، مفسدين بذلك كل المحاولات المبذولة لتحسين حال البشر.

وعندما نشر هذا الكتاب أول مرة، لم تكن الحاسبات الشخصيّة معروفة إلا لدائرة صغيرة من الاختصاصيين. أما الآن فإن ربط كوكب الأرض كله عبر الإنترنت قد أحدث ثورة عالمية في الاتصالات. كما أن عالم السياسة الذي كانت تقتسمه في الماضي كتلتان سلطويتان قد تعددت أقطابه إثر انهيار الاتحاد السوفييتي. ومنذ ذلك التاريخ بدأ الفكر الماركسيّ في الانحسار بغير توقّف: إذ حدث تهميش لدور الشيوعية في كل مكان في العالم فيما عدا كوريا الشمالية وكوبا والصين حيث مازالت الشيوعية هي دين الدولة فيها (ولو كان هذا على الورق فقط في دولة مثل الصين).

وتبخرت الآمال في أن تجلب نهاية الحكم الاستعماري في إفريقيا ومناطق أخرى من العالم الحرّية والرفاهة والأمان للشعوب التي خرجت للتو من نيّره. فقد تسبب نظام اقتصاديّ عالميّ عار تماماً عن مبدأ العدل وتكافؤ الفرص في إفقار دول بأكملها. فصرنا نرى العدل في معظم أنحاء العالم، كما يقول بهاء الله "تحت مخالب الظلم"[3]، حيث انتهج فساد الحكم في آن واحد منهجين متضادين، في نقيض منهما نرى دولا شمولية صارت شعوبها ضحية لا حول لها ولا قوة لبطش الدّولة وتسلّطها، وفي النقيض المقابل نرى

---

[3] لوح البرهان، مجموعة ألواح حضرة بهاء الله، طبع القاهرة عام 1920، ص 61

الفوضى في أصقاع قد انهار فيها حكم الدولة وتولّى زمامها أرباب الحروب والعصابات التي تشبه المافيا وتبثّ الرّعب في قلوب شعوبها. والأسوأ من ذلك ما أحدثته العصبية الإيديولوجية في كمبوديا والكراهية القبلية في قلب القارة الإفريقية [رواندا] إذ تسببت كلتاهما في إبادة شاملة لملايين من البشر. زد على ذلك ما فعلته النعرات القومية إذ تأججت من جديد على نطاق خطير في اتّساعه، وتسببت إبان حروب البلقان في تسعينيات القرن العشرين في طرد مجموعات سكانية بكاملها (وهو ما صار يعرف بالتطهير العرقيّ) وذلك في أعمال إبادة جماعية تقشعر لها الأبدان. ناهيك عن مرض الإيدز الذي ضرب كل ركن من كوكب الأرض، بل تسببت عدواه في تدمير هياكل اجتماعية بأسرها، إذ اكتسح المصابين به بأعداد كبيرة.

وعلى صعيد آخر، ضعفت هيئة الأمم المتحدة بفعل غزوات عسكرية شُنّت من طرف واحد. وفشلت رؤية جورج بوش (الأب) في 'نظام عالميّ جديد' فشلاً ذريعاً. أما الأصولية الدينية التي أخذت شعبيتها الآن في الارتفاع الحثيث، فأصبحت تجد ترجمة لها في أجزاء كثيرة من العالم على هيئة التعصب والكراهية المنبعثة من العقائد الدينية والعنف، بل والحرب. ووقع العالم الإسلامي – من جزيرة ميندناو بالفلبين المطلّة على المحيط الهادي بأقصى الشرق إلى دولة المغرب المطلة على المحيط الأطلسيّ في أقصى الغرب – وقع ضحية لسلسلة من الهجمات الدموية. وتُصمِّم منظمة 'القاعدة' الإرهابية الآن على جر العالم نحو الهاوية. وما الهجمات على برج التجارة العالميّ في نيويورك، وعلى قطارات المترو في كل من لندن ومدريد، إلّا ظواهر لكمّ كبير من الإرهاب لم يكن يخطر قبل ذلك على عقل بشر. بل لقد أصبحت قوى جديدة ينقصها الاستقرار الداخلي في بلادها، وتعوزها المعرفة الصحيحة للمسئولية الكونية – أصبحت إمّا مالكة لأسلحة نووية أو هي في السبيل إلى ذلك. وصار سيناريو الرعب الذي سينجم عن حرب نوويّة في الشرق الأوسط محلّ نقاش يأخذ هذا الاحتمال بكل جدّية. هذا، وكأنما كل هذه الكوارث التي ذكرناها ليست بكافية، صار الخطر المُحْدِق لكارثة مناخية شاهداً على أن البشرية قد دخلت أكثر المراحل حرجاً في تاريخها منذ بداية ذلك التاريخ حتى الآن. ولقد شرح بهاء الله هذا الحال بالفعل لمعاصريه بلغة فيها من القتامة ما يكفي – إذ قال:

" تَهُبُّ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ أَرْيَاحُ الْيَأْسِ. وَالْفَوْضَى وَالاخْتِلاَفُ فِي تَزَايُدٍ مُسْتَمِرٍّ وَآثَارُ الْهَرْجِ وَالْمَرْجِ مَشْهُودَةٌ لأَنَّ الأَسْبَابَ حَالِيَّاً لاَ تَبْدُو مُنَاسِبَةً."[4]

[4] كتاب [مجموعة من ألواح حضرة بهاء الله النازلة بعد الكتاب الأقدس] ص 152

وها نحن الآن غارقون في أحلك ظلمة للوقائع التي استشرفها بهاء الله في تلك الكلمات. وإليكم المزيد مما تنبأ به:

"ان العالم منقلب وانقلابه يزداد يوماً فيوماً، ووجهه يتّجه نحو الغفلة واللامذهبيّة، وسيزداد ويشتد ذلك على شأن لا يقتضي الحال ذكره الآن. وستمضي أيام على هذا المنوال **وإذا تمّ الميقات يظهر بغتة ما يرتعد به فرائص العالم إذاً ترتفع الأعلام وتغرّد العنادل على الأفنان.** "[5]

وإذا نظرنا إلى كتابنا هذا على خلفية هذه التطوّرات التي شملت كل الجبهات، فإننا نجده لا يتماشى مع الوقت الحاضر. ومن هذا المنظور لا يكون مجرد تحديث الاحصائيات التي تضمنها الكتاب والتوسع في المادة العلمية التي تناولها كافيا للتعامل مع التطورات التي استجدت في العالم عبر العقود الثلاثة الماضية، لأن ما يلزم هنا هو أعادة كتابة الكتاب كله من جديد. ولكنني وبكل أسف غير قادر الآن على مهمة كهذه. سيّما وأنني قد مررت ذات مرة بتجربة عرفت منها مقدار الجهد والوقت الذي تتطلبه مهمة التحديث هذه، عندما أعدت عملية إخراج نفس هذا الكتاب عام 1988 بغرض ترجمته إلى اللغة الصينية.

فالسؤال الذي يطرح نفسه الآن إذن هو: هل لازال من المجدي ترجمة عمل كهذا إلى لغة جديدة، وهو سؤال له وجاهته حتى بعد مرور هذه الفترة إذ إن الطبعة البرتغالية منه قد صدرت عام 2008.[6] فعلى الرغم من ازدياد عدم تماشي الكتاب مع مجريات اليوم، إلا أن هناك أسباباً عديدة تجعل هذا الكتاب قادراً حتى الآن على الإيفاء بالغرض الذي كتب من أجله حتى ولو ترجم بصورته الأصلية إلى لغة أخرى.

فبادئ ذي بدء، علينا أن نأخذ في الاعتبار أن هذا الكتاب لا يزال فريداً في بابه في مضمار المؤلفات البهائية المعتادة. فالنسخة الألمانية التي صدرت عام 1978 ما زالت تشترى وتقرأ. أما فيما يتعلق بكون الكتاب قد تناول بالدراسة أحوال ‘العالم المعاصر’، فما تناوله هو ‘لقطة فوتوغرافية’ للحظة معينة في تاريخ البشرية. بيد أنه عندما صدرت الطبعات الألمانية الأولى منه، اعتبر البعض أن الصورة التي رسمها المؤلف فيه عن حال العالم العلماني والأبعاد القياميّة للأخطار الماثلة أمام البشريّة هي صورة ‘مبالغ فيها’. وجميع هذه الأصوات قد صمتت الآن من جراء ما حدث في

---

[5] كتاب [منتخباتي أز آثار حضرت بهاء الله] المقتطف رقم61

[6] وقد صدرت الطبعة البرتغالية بعنوان *O Domínio Imperecével A Fé Bahá’í e o Futuro da Humanidade*، عن دار النشر البهائية بالبرازيل

العالم من وقائع متسارعة أثبتت جميعها صدق التحليلات والاستنتاجات التي تضمنها هذا الكتاب ساعتها.

فالحدث القياميّ وما يدور حوله من لبّ الموضوع الذي تناوله الكتاب هو نهاية 'النظام القديم' وزواله، كما أعلن عنه بهاء الله في عدد من آثاره، وهي عملية أصبحت تتجلى الآن للأعين أكثر من أيّ وقت مضى، على يد الانهيار الذي يحدث الآن لمنظومة الأخلاقيات والقيم.[7] وبما أن هناك من القراء من ينسب تقييمي هذا للموقف إلى أنني أعتنق المفهوم البهائي عن سير مجريات أحداث العالم، فإنني أنصح هؤلاء أن يضعوا في الاعتبار أنني لست وحيداً في ذلك. فستوضّح الصفحات التالية من الكتاب بالتفصيل حقيقة أن هناك من مفكّرى وفلاسفة القرن التاسع عشر أمثال الألمانيّ فريدريش نيتشه Friedrich Nietzsche والروسيّ فيودور دوستويفسكي Fyodor Dostoevsky ممن توقعوا قيام العدمية بالفعل. وفضلاً عن ذلك فإن هناك العديد ممّن يرون أنه لم يبق سوى أقل القليل من الأخلاق الموروثة. فها هو الفيلسوف هانز يوناس Hans Jonas على سبيل المثال يتناول في كتاباته وصفاً 'للفراغ الأخلاقيّ' الذي خلّفته عملية 'الإزالة الكاملة'[8] لكل ما هو مقدّس. كما أن الفيلسوف ألاسدير ماك-إنتاير Alasdair MacIntyre يرى في حقيقة الأمر ما يلي:

"لقد فقدنا مفاهيمنا عن الأخلاقيات بكل من شقّيها النظريّ والعمليّ، بصورة كبيرة، إن لم يكن ذلك بصورة كاملة... ويبدو أن كل السبل العقلانية قد أوصِدت أمام توصلنا لاتّفاق على مكانة الأخلاق في حضارتنا الراهنة."[9]

---

[7] وهي مسألة قد تناولها الكاتب في عدد من أعماله الحديثة، ومنها كتاب 'مقدمة في الأخلاقيات في البهائية على ضوء الآثار المباركة *Bahá'í Ethics in Light of Scripture. An Introduction*، طبع أوكسفورد عام 2007، وكتاب 'ما بعد صدام الأديان – ظهور نموذج حواريّ جديد *Beyond the Clash of Religions. The Emergence of a new Paradigm*} ، عن دار النشر البهائية بألمانيا، عام 2004

[8] في كتابه 'المسئولية التي لا مهرب منها – في البحث عن أخلاقيات لعصر التكنولوجيا *The Imperative of Responsibility. In Search of an Ethics for the Technological Age*' طبع شيكاغو عام 1984، ص 22 وما بعدها

[9] في كتابه 'ما بعد الفضائل – دراسة في النظرية الأخلاقية *After Virtue. A Study in Moral Theory* '، الصادر عن مطبعة جامعة نوتردام، عام 1984، ص 2، و ص 6

كما يوضّح هذا الفيلسوف بكل جلاء أن كافة المحاولات الرامية إلى إحلال الأخلاقيات التقليدية بقانون أخلاقي يتم وضعه على أساس عقلاني بحت وبأسانيد فلسفية هي محاولات مقدر لها "أن تفشل فشلا ذريعا".[10]

بيد أن هناك من يرفضون، مهما سمعوا من حجج وبراهين، استبانة الكارثة الماثلة أمام البشرية في الشواهد والعلامات الدالة على تفسّخ الأخلاقيات الموروثة وتداعيها. فهم يرون هذه الظاهرة، التي يصرّون على وصفها بأنها 'عملية تغيير في القيم'، بأنها عملية طبيعية – ولم لا؟، على حد قولهم، فكل شيء حادث يخضع للتغيير، كما قال الفيلسوف الإغريقي هرقليتوس[11]Herakleitos: 'كل شي يتدفق في سيولة *Panta rhei*' أي لا شيء يبقى على حاله. بيد أن من يرقب هذه العملية من منظور نابع عن الاعتقاد بأن عالم القيم والأخلاقيات الشخصية مرتبط بالغيبيات، ولذا فهو غير قابل للتعديل تماما مثل الطبيعة الإنسانية نفسها، يتبين له أن هناك شيئا صارخا لم نعهده من قبل آخذ في الحدوث، وهو أن سياقة الحجج على أن كافة القيم نسبية – لا في القيم الاجتماعية والسياسية فحسب، وإنما فيما يتعلق أيضاً بقيم السلوك الفرديّ – قد صارت هي الفلسفة السائدة هذه الأيام، ووضَعَها المنظّرون والمفكّرون في مصاف العقائد العلمانية. ولكن إذا ما صحّ القول بأن كافة القيم نسبية، وأنه لا وجود بالمرة للخير أو الشر، وإذا ما كانت الغلبة من نصيب الحجة التي ساقها أنصار العدمية القائلة بأنه ليس في العالم ما هو صحيح بغير قيد أو شرط، يكون الحاصل هنا هو تلك الحالة التي تكلم عنها البابا بينيدكت السادس عشر (في أحد أعماله الألمانية التي سبقت تنصيبه، وكتبها باسمه السابق وهو جوزيف راتسنجر)، وهي أن الأخلاقيات "قد فقدت كل التزام بها".

ولقد خصّص من سبق راتسنجر مباشرة في اعتلاء كرسي البابوية، وهو البابا يوحنا بولس الثاني، منشوراً بابوياً كاملاً لمسألة تدهور الأخلاقيات المسيحية، وهو منشور عام 1993 المعنون 'بهاء الحقيقة *Veritatis Splendor*'، وهو منشور تكلم فيه بكل صراحة عن 'النزعة المتفشّية نحو اعتناق أفكار مذاهب الذاتيّة *subjectivism*، والنفعيّة *utilitarianism*، *والنسبية relativism* (التي تجعل المبادئ والأخلاقيات مشروطة بتقبل الثقافات والمجتمعات لها). وتحدث فيه أيضاً عن وجود "صدع خطير مفسد... يفصل الإيمان عن الأخلاقيات"، وأعلن عن حزنه بسبب حدوث "ذبول أو طمس للحسّ الأخلاقيّ". ورأى في ذلك التطور "أخطر الأزمات التي قد تحلّ

---

[10] المرجع السابق، ص 52

[11] المولود سنة 550 والمتوفي سنة 480 قبل الميلاد

بالإنسان: ألا وهو خلطُهُ بين الخير والشر أو التباسهما عليه". ورَبَط ذلك الحَبْر الأعظم ما بين علّة هذه الأزمة وبين عملية 'العلمنة المتزايدة'، و' هَجْر المسيحية' من جانب دول 'كانت يوما ما غنيّة في إيمانها وفي حياتها المسيحية'، دول يعيش فيها "الكثير، بل الكثير جداً، ممن يفكّرون ويعيشون، وكأن الله لا وجود له".

إلا أن عمليّة التداعي والأفول هذه لم تمسك بتلابيب الديانة المسيحية وحدها دون ما عداها من الأديان. فكلّ الأديان قد استنزفت بقدر أو بآخر زخمها الروحيّ الفاعل، لأن أوانها قد وصل إلى نهايته في إطار خطة الخلاص الإلهية.[12] وصار أتباعها إما راضخين لروح العصر في رغبة منهم ألا يفوتهم القطار، وإما متّخذين لمواقف أصولية واضعين أنفسهم تحت خطر أن يصبحوا أداة تحركها السياسة، ويكونوا منبعا للكراهية المذهبية، بل وفي أكثر الحالات شططاً، أن يكونوا مصدر إرهاب تحرّكه العقائد. وإذ كان بهاء الله يجود بآثاره الكتابية في منطقة كانت ولا زالت حتى هذا اليوم تتسم بتعصّب دينيّ مظلم، فلقد تنبأ بوقوع أزمة في الإيمان بالله من جرّاء تداعي كل القيم وانهيارها، فكان مما قاله:

" قد تغيّر وجه العالم. ولم يعد لصراط الله ولا لدين الله في نظر الناس قيمة[13]... إن قوة وبنية الإيمان قد ضعفت في أقطار العالم، ولهذا يلزم الدرياق الأعظم... ما يمكنه تبديل هذه القوة هو أعظم من الإكسير. وهذا المقام وهذه القدرة منوطان بالكلمة الإلهية".[14]

---

[12] وهي حقيقة جاءت في الكتاب المقدس "فَإِذْ قَالَ «جَدِيدًا» عَتَّقَ الأَوَّلَ. وَأَمَّا مَا عَتَقَ وَشَاخَ فَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ الاضْمِحْلاَلِ." في الرسالة إلى العبرانيين، ح 8: 13، وقد ذكرها بهاء الله أيضا بقوله: :"إن الحكماء يعتبرون العالم بمثابة جسد الانسان، فكما يلزم للجسد رداء فكذلك يحتاج العالم إلى رداء العدل والحكمة. وعليه، فدين الله هو ثوب العالم، وكلما غدا عتيقاً يمدّه بثوب جديد. وكل عصر له منهج مستقل، ودين الله دائماً ما يتجلّى ويظهر بما يليق ويناسب ذلك العصر". " كتاب [منتخباتي...] المقتطف 34

[13] نص أورده شوقي أفندي في توقيع 'جاء اليوم الموعود *The Promised Day is Come*' الطبعة الإنجليزية ص 117، مترجما

[14] كتاب [منتخبات من آثار حضرة بهاء الله *Gleanings from the Writings of Baha'u'llah*] المقتطف رقم 99، والأصل فارسيّ

ولقد تناول حضرة شوقي أفندي بالتحليل الواضح، منذ أكثر من سبعين عاماً مضت "علامات الانحطاط الخُلقيّ الناتج من خلع الدين عن العرش" التي باتت "تغزو ربوع الشرق والغرب."[15]

ويؤمن البهائيون بأن بهاء الله قد أعاد الحيوية إلى الإيمان بالله، وأتى للبشرية بألواح نَظْم أخلاقيّ لعصر جديد، تماما كما أتى موسى بالألواح لأسباط إسرائيل في طور سيناء. وهذا الاعتقاد نفسه هو الذي يستمد منه هذا الكتاب منظوره الإدراكيّ ومعياره الحُكْميّ في محاولته تقديم رسالة بهاء الله على خلفية الحالة الروحية لعصرنا الحاضر. وتظل المعضلة التي يتناولها هذا الكتاب باقية في محلها كما كانت تماما منذ ثلاثة عقود مضت. ومن الواضح اليوم، بقدر أكبر عما كان عليه الحال من قبل، أن رسالة بهاء الله هي العلاج الوحيد الناجع لعالم قد سرت في أوصاله علل غياب الأخلاق.

ولطالما كنت مفتوناً باللغة العربية، وهي لغة وحي وتنزيل إلهيّ. إلا أنني، وعلى الرغم من تمكنّي عبر السنين من جمع كمّ لا بأس به من المصطلحات الدينية بلغة الضاد، إلاّ أنه لم يتوفر لديّ الوقت أبدا لتعلّم هذه اللغة بصورة منهجية. وإنه لمصدر فرح بصورة خاصة بالنسبة لي أن أعلم أن محاولتي المتواضعة لتقديم الدين البهائي في إطار من الفكر الغربيّ المعاصر ستنتشر بهذه اللغة. وأشعر بامتنان عميق لصديقي جمال حسن، الذي أخذ على عاتقه القيام بهذه المهمة بالغة الصعوبة التي تستهلك الكثير من الوقت – ألا وهي مهمة ترجمة هذا النص من الطبعة الإنجليزية إلى العربية.

أودو شيفر

هيرشبيرج (ألمانيا)، يوليو 2014

---

[15] توقيع ،جاء اليوم الموعود *The Promised Day is Come* ، الطبعة الإنجليزية ص 119

مقتطفات من ديباجة الطبعة الإنجليزية

ليس هناك من ينكر بصورة جدّية أننا نحيا في عصر انقلاب شامل. فكل مظاهر وجودنا قد انقلبت رأساً على عقب وطالتها يد التحويل الثوريّ. ولا يخفى عن الأعين تلك الشواهد متعدّدة الجوانب الدّالة على وجود أزمة روحية لا سابق لها في صفحات التاريخ. فيا ترى ما هو السبب في هذه العملية الخطيرة، وإلى أين ستأخذنا؟

لقد كان الدافع من تأليف هذا الكتاب هو القناعة بأن الخراب والعنف المحيطيْن بنا من كل جانب، وكذلك الأخطار اللائحة بكل وضوح فيما نحن مقبلون عليه من أيام، أخطار صارت تصبغ أفق مستقبلنا بظلام وقتام، تعود جذورها جميعا إلى حدث روحي لا يزال مجهولا لأهل العالم بشكل كبير. وما هذا الحدث إلا مجيء ما أسماه الإغريق كيروس (*Kairos*) وهو الوقت الذي تمّ التنبؤ به في العصور الغابرة (ووصفه الكتاب المقدّس بوقت النهاية، والقرآن الكريم بالواقعة*) وتحقّق الآن بمجيء بهاء الله، تلك الساعة المعيّنة التي اعترض فيها الخالد الأزليّ المطلق مسار التاريخ مرة أخرى وتدخّل في مجريات هذا العالم العابر. وسوف يبرهن هذا الحدث، الذي به 'اختلّ الترتيب'[1] – كما يقول بهاء الله – على أنه منعطف تحوّل تاريخيّ: فالنّظْم القديم قد اختلّ وأخذ في التلاشي شيئاً فشيئاً، بينما تشرق علينا حقيقة جديدة بدأت تتكشف للأعين يوماً بعد يوم.

وإذ يستهل الكتاب بوصف لا مناص من أن يكون وصفاً عاماً غير شامل عن اضمحلال الدين والإطاحة بالقيم التي كانت محلّ اعتبار واحترام فيما مضى من الزمان (أي بوصف لعالمنا العلمانيّ الذي يتغير ويتبدّل بوتيرة متسارعة)، فإنه يحاول أن يقارن ويقابل الملامح الجوهرية لهذه الحقيقة الجديدة بوجهات النظر والتصرفات السائدة في مجتمع اليوم الحاضر. ومن شأن هذه المقارنة، التي تضع المفاهيم التقليدية في المسيحية تحت دائرة الضوء من آن لآخر، أن تتيح للقارئ الوصول إلى فهم أعمق لرسالة بهاء الله.

والدين البهائي يختلف في عديد من الأوجه والاعتبارات عن وجهات النظر والأفكار والقيم والنظريات السائدة في مجتمع اليوم الحاضر، بل إنه

---

* إضافة للمترجم [وسيلاحظ القارئ أن الحواشي التي أضافها المترجم لما هو موجود أصلا في الكتاب قد تمت الإشارة إليها برموز غير رقمية مثل هذا الرّمز]

[1] بهاء الله، في الكتاب الأقدس، فقرة 181

على الضد تماماً من العديد منها. وكما لا يحصل شعاع الضوء على اللون الذي يصطبغ به إلاّ من الشيء الذي يسقط عليه، كذلك تتجلّى الكلمة الإلهية الجديدة وتتكشّف من جراء وضعها وجهاً لوجه أمام توجهات فكرية هي بعيدة كل البعد عما أسماه بهاء الله 'شقائق حقائق العلم والمعرفة'.[2] ولذا فإن الكاتب لا يسعه إلا أن يتخذ موقفاً حازماً، لأنه في عالم فقد البوصلة الموجّهة له، وفي عصر يستسيغ اللغة الفجّة، لن يكون مفيداً للقارئ ألا يجد في هذا الكتاب سوى مقارنات ومقابلات باهتة فاترة. وهنا تكون المواجهة ألزم من مجرد المقارنة، حتى ولو ترتب على هذا المنحى أن يتحقق صدق قول ليختنبرج Lichtenberg: "من المستحيل تقريبا أن تمضي حاملاً شعلة الحق بين جمهرة من الناس دون أن تطال النار لحية أحدهم."

ويلزم القليل من التوضيح بشأن ما جاء في هذا الكتاب من نصوص، ذلك لأن القارئ قد يتعجّب من غزارة الاستشهاد بها. والسبب في ذلك هو أنه بالنسبة لعمل يتناول بالنقد والتحليل كُلاًّ من الدين والحضارة والمجتمع، يكون من المفيد أن نجعل الكُتّاب والمفكّرين الذين تناولوا هذه المواضيع يتكلّمون بلسانهم. كما أن ذلك يسمح لهذا الكاتب في الوقت نفسه أن يردّ على أيّ اعتراض بأن النتيجة التي توصّل إليها تمثل تبريراً غير موضوعيّ لمحاولة البرهنة على صحة ما يعتقد فيه مسبقاً: ألا وهو أن أوان العصر القديم قد ولّى وضاعت كل فرصة أمامه للبقاء. وفي تلك المواضع التي يتمحور الحديث فيها حول البهائية، فإن الكاتب قد فضّل عدم الاكتفاء بسرد المراجع التي وردت فيها نصوصها الأصلية، وإنما أورد هذه النصوص نظرا لأنها ليست في متناول معظم القرّاء. كما أنه لا توجد وسيلة لنقل انطباع مباشر متّصل عن الروح التي تسري في آثار بهاء الله الكتابية أفضل من إفساح المجال لهذه النصوص أن تتحدّث عن نفسها بنفسها.

وهذا الكتاب هو نتاج إعادة صياغة مسهبة لمقالة نشرت لهذا الكاتب منذ بضع سنوات بعنوان 'ما الذي يعنيه أن تكون بهائياً' أوردها في كتابه [النور يلمع في الظلام *The Light Shineth in Darkness*][3]. ولأنه لا يعطي القارئ سوى النّذَر اليسير من المعلومات عن تاريخ الدين البهائي، فليس المقصود منه أن يكون مقدمة لذلك الدين. إلا أن القارئ يُحال في طول الكتاب وعرضه إلى مختلف المراجع التي تذخر بها المكتبة البهائية. كما يجمل بالقارئ الذي يرغب في التعرف على أصول التعاليم البهائية بالكيفية التي وردت في عديد من الأعمال التي هي شاملة وموجزة في الوقت نفسه

---

[2] كتاب الإيقان، ص 42

[3] جاءت في الصفحات من 19 إلى 52 في الطبعة الإنجليزية للكتاب المشار إليه

(مثل كتاب ‘بهاء الله والعصر الجديد *Bahá’u’lláh and the New Era*’، للكاتب جون إسلمنت، وكتاب ‘ما الأرض إلا وطن واحد *The Earth is But One Country*’ للكاتب جون هادلستون ’) أن يرجع إلى مثل تلك الأعمال.[§]

أودو شيفر

خريف عام 1982، بمدينة هايدلبرج (ألمانيا الغربية)

[§] سيجد القارئ العربيّ اختيارات أخرى من هذا النوع من المؤلّفات البهائية الموسّعة وقد صدرت حديثا منذ بداية القرن الواحد والعشرين مثل كتاب ‘الدين البهائي بحث ودراسة’ للكاتبين دوغلاس مارتن ووليم هاتشر، ترجمة عبد الحسين فكري، من منشورات دار النشر البهائية في البرازيل، سبتمبر 2002، وكتاب ‘جنّة الكلمة الإلهية’ للكاتبين سوسن حسني وعبد العزيز الهادي، دار الفرات، بيروت، عام 2011. وكتاب ‘البدء الجديد’ تأليف محسن عنايت، طبع ‘سنباكت’ بتونس، عام 2015، وبعض هذه المؤلّفات متاح للتنزيل على موقع المكتبة البهائية الإلكترونية:

www.reference.bahai.org

مقدّمة المترجم

من هو الدكتور أودو شيفر؟

وُلِد أودو شيفر في مدينة هايدلبرج الألمانية لأب كان عضواً في أوركسترا الفيلهارمونيكا لبلدية تلك المدينة، فتأثر منذ نعومة أظفاره بالموسيقى وبرع في عزف الموسيقى الكلاسيك وصار شغوفا بعضوية فرق موسيقى الغرفة، حيث التقى بشريكة حياته سيجرونSigrun التي تزوجها عام 1952. وعندما دخل التعليم الجامعي اختار أن تكون دراسته في الموسيقى أيضاً، إلا أنه بعد عامين من تلك الدراسة تحول إلى دراسة القانون، وحصل على درجاته العلمية في هذا التخصص من كلية روبرتو كارولا بجامعة هايدلبرغ، عُين بعدها قاضياً ثم رئيسا للنيابة في محكمة ولاية هذه المدينة، وظل يشغل ذلك المنصب حتى تقاعده عام 1988. وكانت اهتماماته في سن الشباب منحصرة في الآداب والفلسفة، وكان نهجه الفكريّ مما يمكن تسميته باللاأدرية. فلما التقى بالبهائية بعد سنوات الحرب العالمية الثانية لفت نظره انفتاح مجتمع أتباعها على العالم ونظرتهم له كوطن واحد، وغاياتهم التي لا تستثني أحداً وتتناول العالم بأسره، فضلاً عن رفضهم للعنصرية – وهي سمات كانت جميعها على النقيض تماما من الإيديولوجية النازية التى سممت أفكاره أيام شبابه. وانتهت مسيرة التحرّي هذه باعتناق أودو للدين البهائي عام 1948. وفي خطّ مواز لدراساته القانونية زاد إلمام أودو بعلوم الأديان والدراسات الإسلامية والدين المقارن – وهي اجتهادات أكاديمية منحته قدرات هامة ونظرة ثاقبة فيما يتعلق بالديانة التي اعتنقها حديثا. فكان البحث الذي نال عنه درجة الدكتوراة يتناول القوانين المنظمة للمجتمع البهائي مقارنة بالقوانين الكهنوتية التي تنظم المجتمع المسيحيّ.

ولقد ألقى أودو شيفر عبر الثلاثين عاماً الماضية عدداً لا بأس به من المحاضرات في ألمانيا وخارجها، استهدفت في المقام الأول الأوساط الأكاديمية استجابة لدعوات من الجامعات وغيرها من معاهد التعليم العالي. ومنذ البداية الأولى لازدياد الحوار الحاليّ الدائر بين الأديان كان محاضراً دائماً في منتدياته العالمية. وتولّى تمثيل الجامعة البهائية العالمية لدى منظمة الأمم المتحدة في مؤتمرين دوليين، كان أولهما مؤتمر الجريمة ومنع الجرائم المنعقد في ميلانو بإيطاليا عام 1985، ثم الملتقى الذي تناول مسألة تأسيس محكمة جرائم دولية من أجل تنفيذ قوانين جنائية دولية وقوانين حقوق الإنسان المنعقد عام 1992 في مدينة سيراكوز الإيطالية. كما كان عضواً في الوفد الألماني الحكومي الذي توجّه إلى إيران عام 1994 للتداول مع

وفد إيراني مماثل في مسألة حقوق الإنسان، وهي مناسبة حضرتها أعلى القيادات الدينية في إيران (من آيات الله إلى حجج الله) وثارت فيها جلبة عظيمة عندما ندّد أودو شيفر بكل جسارة باضطهاد الجمهورية الإسلامية للبهائيين من مواطني إيران.

ويتّخذ الإنتاج الفكريّ لأودو شيفر أوجها عديدة منها – بخلاف تأليف الكتب – كتابة المواد لدوائر المعارف العالمية، وكتابة المقالات والآراء للدوريات المتخصصة والأكاديمية، وأصبح أول من يدلي بدلوه الأكاديميّ في مضمار أصول الشريعة البهائية وقواعد الأخلاقيات فيها. ولقد تُرجم كمٌّ لا بأس به من كتاباته إلى سبع لغات هي الإنجليزية والفرنسية والهولندية والبرتغالية والروسية والفارسية والعربية إلى جانب لغته الأم الألمانية. وسيجد القارئ في نهاية هذا الكتاب ملخصاً بأهم أعماله التي صادفت رواجاً عالمياً.

الترجمة العربية للكتاب

استغرقت هذه الترجمة سنوات عديدة، ابتداء بالفصل السادس ‘ما هو الحق؟’، الذي كتبه المؤلّف بكيفية تجعله صالحاً لأن ينشر ككتيب بذاته، ومن هنا كان تفضّل الفنان العظيم الراحل الأستاذ حسين بيكار بإهداء تصميم غلاف لهذا الفصل، بعد أن قرأ العمل بلغته الإنجليزية واستحسنه كثيراً، وتم نشر الفصل السادس مصدّراً بهذا الغلاف المميّز على موقع الدكتور أودو شيفر على الإنترنت.[§] وسيجد القارئ الكريم هذا التصميم في بداية الفصل السادس ممهورا بشرح للرمزية العميقة التي تضمنها على بساطته.

وسيتبين القارئ أن هذا الكتاب هو عملٌ فريد في بابه، إذ إنه يخاطب في المقام الأول طبقة من الباحثين لم تكن موجودة بكثرة في ربوع العالم العربيّ حتى بدايات القرن الواحد والعشرين – أي أولئك العقلانيين الذين يزنون كل شيء بميزان العقل والمنطق، سواء كانوا مؤمنين بدين من الأديان، أو مؤمنين فقط بوجود الله دون الانتماء لأي دين، أو ملحدين لا يؤمنون بدين أو خالق لهذا الكون. ومع مطلع القرن الحالي بدأت هذه الفئة العقلانية في التزايد عاما بعد عام، ثم أخذت هذه الزيادة أبعاداً فلكية في الأعوام الخمسة الأخيرة بما لا تخطئة عين أو أذن. ومن هنا، فإنه بالإضافة

[§] رابط تحميل الفصل السادس من موقع المؤلف هو:

http://www.udoschaefer.com/fileadmin/pdffiles/U_Schaefer_-_The_Imperishable_Dominion_What_is_Truth_-_AR.pdf

للأسباب التي ذكرها المؤلف في ديباجة هذه الطبعة العربية، قد زادت أهمية نقل هذا العمل الفريد إلى منطقتنا العربية.

وقد واجهت مهمة الترجمة العربية صعوبات كثيرة، وعلى رأسها محاولة العثور على الترجمات العربية المعتمدة أو المنشورة لمئات المراجع التي يزخر بها الكتاب – البهائيّ منها وغير البهائيّ. وكان من السهل نسبياً تأصيل النصوص البهائية العربية الأصل، وإيجاد الترجمات العربية المعتمدة لما هو غير عربيّ منها، أما ما لا يوجد له ترجمة عربية معتمدة حتى الآن فقدّ تمت ترجمته اجتهاديا. وبالنسبة للمراجع العامة، فكان أمام المترجم سبيلان، إما قضاء وقت طويل مضنٍ لمحاولة تأصيل كل هذه المراجع، أو القيام بترجمة اجتهادية لها مع المحافظة على دقة المضمون قدر المستطاع، فاختار المترجم السبيل الثاني، فيما عدا استثناءات قليلة، وذلك اختصاراً للوقت. ونستسمح القارئ الذي قد تكون بعض هذه المراجع متاحة له بطبعتها العربية إن هو وجد اختلافاً في هذه الترجمة الاجتهادية، وعزاؤنا أنه اختلاف أسلوب لا اختلاف مضمون. ونأمل أن تكون الفرصة متاحة للمزيد من التأصيل عندما يتم تحديث هذه الطبعة العربية في المستقبل.

أما عن مراجعة الكتاب فإن المترجم مدين بالشكر للجهات المختصة بمراجعة المطبوعات البهائية العربية لإيلائها هذه العملية عناية فائقة كان من غير الممكن بدونها ظهور هذا العمل بالصورة التي تليق بمكانته. كما لا يفوت المترجم أن يبدي امتنانه لصديق عمره الفنان وجدي فرج على إنجاز تصميم غلاف الكتاب بالأسلوب الذي أشار به المؤلف نفسه.

وأخيرا نود أن ننوّه أنه، ولأن الدكتور أودو شيفر من خلفية أوروبية، فإنه كعادة أهل الغرب، لم يتبع لفظ الجلالة وأسماء رسل الله وأنبيائه (صلوات الله عليهم) بما تعارف عليه العالم العربي من عبارات التبجيل والصلاة والتسليم، اكتفاء بكتابة الحرف الأول من الضمائر العائدة عليهم بحرف كبير من باب التفخيم. وقد أبقينا على الأسلوب الأصلي المجرّد مع اعتذارنا عن هذا للقارئ الذي قد لا يرتاح إلى هذا الأسلوب. كما أن بعض النصوص البهائية – خاصة آثار بهاء الله، ومبشّره السيد علي محمد الباب – قد طبعت بوزن ثقيل، ليعرف القارئ أنها نصوص عربية الأصل، أما ما طبع بالوزن العاديّ فهو مترجم عن الفارسية أو الإنجليزية.

جمال حسن

يوليو 2016

الفصل الأول

أَهِيَ نـهايةُ الدين؟

مكانة الدين اليوم في عالم الغرب

لن يكون من نصيب من يجاهر بإيمانه بدين سماويّ هذه الأيام (سيّما في الغرب) إلاّ أن تنظر إليه الناس بمن فيهم رجال الكنيسة على أنه 'حالة استثنائية مثيرة للاهتمام'[1] أما من يقول بأنه مؤمن بدين جديد وأنه يكرّس حياته لذلك الدين فسوف يعتبره معاصروه – دون استثناء تقريباً – بأنه إنسان 'غريب غرابة نادرة'. وبات الفكر الدينيّ عند الكثيرين أثراً من آثار القرون الغابرة – أمراً قد عفا عليه الدّهر وسيؤول إلى الانقراض، وابتكارٌ شاعريٌ جادت به القريحة البشرية في زمان غاب عنه أيّ تعليل علميّ لحقائق الكون والحياة مبنيّ على العقل والمنطق، وصار الدين تَرَفاً لا داعي له في عالمنا 'المستنير' الذي صاغه العقل والعلم. وما كان في الماضي أسّ أساس حياتنا قد أزيح الآن من مكان الصدارة الى الكواليس. ولم يعد الله في عصرنا الحديث "قوّة لها القول الفصل في حياتنا على الأرض، بل صار لفظ الجلالة مجرد ذريعة وكلمة جوفاء تتسربل بها أغراض ومآرب أخرى وأصبح وجوده موضوع جدال لا كقوة دافعة لحياتنا. "[2]، وغَرُبت هذه الكلمة العليا عن سمائنا وأصبحت "كلمة أجنبية غريبة علينا"[3]

---

[1]. في مؤتمر لأساقفة فرنسا بمدينة لوردز عام 1975، صرّح ايتشيجاراي Etchegaray ، رئيس أساقفة مارسيليا بقوله: "لم يعد الاستثناء الذي يلفت الأنظار اليوم هو رؤية غير المؤمن، وإنما الاستثناء الحقيقي هو رؤية المؤمن" – عن جريدة *Süddeutsche Zeitung*عدد 31 أكتوبر 1975.

[2]. ماكس موللر Max Müller في كتابه 'تجربة الإحساس في عالم اليوم *Weisen der Sinnerfahrung des Menschen von heute*' ص 28

[3]. 'الله كلمة غريبة Gott ein Fremwort' كان هو عنوان مقالة نشرتها جريدة *Frankfurter Allgemeine Zeitung* في عدد 11 سبتمبر 1974، وتسرد المقالة نتيجة استطلاع أجراه على 550 من تلاميذ المدارس الابتدائية واحد من علماء اللاهوت بمدينة جيسين Giessen الألمانية يدعى هان Hahn. وأظهر ذلك الاستفتاء أن كلمات مثل 'الله' و 'المسيح' كانت غريبة تماما على معظم الأطفال الذين جرى سؤالهم.

ولا عجب إذن، فنحن نحيا عصراً جديداً يمكن للمرء أن يسميه ‘عصر التكنولوجيا’ أو ‘العصر النوويّ’ أو ‘العصر الكونيّ’ وما الى ذلك من المسمّيات المستحبّة التي تفصح عن كونه عصراً يحمل بصمات عاملين اثنين من طبيعتهما ألاّ يعيرا أدنى التفات الى أية قداسة أو حرمة – ألا وهما: عامل العلم، وعامل التكنولوجيا. فبعد أن حطّم الإنسان الذرة، ها هو يحاول الآن فهم خفايا تراكيب الذرة الدقيقة، ثم يهبط على سطح القمر، ويرسل المركبات الفضائية لاستكشاف كواكب نظامنا الشمسيّ البعيدة، وفي غرفة العمليّات الجراحيّة يُستبدل القلب البشريّ النابض بآلة صماء تقوم بوظيفة القلب لبضع من الساعات، وها هم علماء الكيمياء الحيوية يفكون شفرة بنيان الخلية الحية ويستعدّون لإدخال التعديلات على تركيبها. ولم يعد كافياً أن نسمي زماننا هذا ‘العصر التقنيّ’ لأنه صار بالفعل عصراً تكنوقراطياً: أي عصرٌ تحكمه التكنولوجيا، عصرٌ "أصبحت فيه التكنولوجيا قلب التاريخ ولبّه" وصرنا نحن مجرّد كائنات "تشارك التكنولوجيا في تاريخها".[4]

ظهور العلمانية وانتشارها

لقد بدأت جذور عالمنا الحديث في تلك الثورة الفكرية ‘الكوبرنيكية’ نسبة إلى العالم الإيطالي الذي أشعلها ‘كوبرنيكوس’ وهي الثورة التي أزاحت اللجوء الى المصادر المرجعية القديمة جانباً (وهو المنهج الذي كانت تسير عليه العصور الوسطى كأسلوب علمي) وجاءت هذه الثورة بدلاً منه بمنهج استقصائيّ الطبع قائم على التجربة والنظرية العقلانيّة، منعزل عن سوابق الماضي. فعالمنا الحديث يعمل بمقتضى مقولة ‘جاليليو’ الشهيرة: "قس كل ما يمكن أن يقاس، واجعل كل مالا يقاس مَقيساً" وصار هذا المنحى الفكريّ الجديد، الذي يقوم على التحرر من التعصب الفكريّ والأفكار المنقولة من ناحية، ويهدف من الأخرى إلى الالتزام بالمنهجية والموضوعية البحتة – صار قدوة للإنسان في ظل ما وصل إليه أخيراً من استقلال ونضج.

[4]. جونتر آندرز Günther Anders في كتاب ‘تقاليد الإنسان البالية *Antiquiertheit des Menschen*’ المجلد الثاني ص 9.

إنّ هذا الزحف العلميّ كان إشارة لتقهقر الدين، مما أدى الى علمنة[5] العالم وإلى تطوير مفهوم عَلَمانيّ عن ماهية الإنسان - مفهوم يعتبر الإنسان كائنا مستقلاً يحكم نفسه بنفسه، أو قل "إن اليقين ساد ألف عام ولكن الشك قد أخذ اليوم مكانه... وأُلقى الشك ظلاله على الحقائق التي كانت محل الاحترام عبر العصور، وأصبح ما كان مسلماً به على الدوام مشكوكاً فيه"[6]، وصار كل من التقدم العلميّ وفقدان الغيبيات – كما كانا – وجهين لعملة واحدة، وباتا هما المكوّنين المتلازمين في نفس العملية التاريخية التي تَمخّض عنها عالمنا الحديث. وببروز العلم وتقدمه انفتحت هوّة خطيرة شطرت ما بين الدين والعلم، وفصلت الاعتقاد عن المعرفة، ذلك لأن الكنيسة ادّعت أيضاً معرفة الحقيقة في مجالات تقع خارج سلطانها – ألا وهي مجالات العلم التجريبيّ الاستقصائيّ[7] – وصار كل من التفكير العلميّ والاعتقاد الدينيّ من ذلك اليوم فصاعداً قطبين لوعي حديث منقسم.

والتنوير هو تلك الحركة الفكرية العظيمة التي نشأت في أوروبا الحديثة وأدّت إلى علمنة المجتمع الغربيّ، وهي حركة بدأت في القرن السابع عشر وازدهرت في القرن الذي تلاه، وكانت ثورية في أساسها، موجهة ضد سلطة التقاليد والأعراف الفكرية والدينية، وكان الإصرار على حرية الفرد هو جوهر القوة المحوريّة الدافعة لهذه الحركة – حرية في الشئون الاجتماعية والسياسية والفكرية والدينية. ووجدت روح هذه الحركة أكبر متنفّس لها في اعتقاد جديد يؤمن إيمانا مطلقا بقدرة العقل. وتنحّى الإيمان بالمسلّمات والسلطات الموروثة التي كانت من قبل أمورا واسعة

---

[5]. راجع أيضا كتاب ‹النظرية العامة في العلمنة *A General Theory of Secularization*› لديفيد مارتن، وكتاب ‹العلمنة *Säkularisierun*› الذي أشرف على إصداره هانز شريي Heinz Schrey

[6]. بيرتولت بريخت Bertold Brecht في مسرحية ‹جاليليو *Galileo*› المشهد التاسع

[7]. يرى عالم اللاهوت الكاثوليكي هانز كونج Hans Küng أن إدانة جاليليو على يد البابا أوربان الثامن Urban VIII والمعارضة التي حدثت في عصر لاحق من جانب الكنيسة لنظرية داروين في النشوء والارتقاء لم تكن سوى دفاعاً عن الله، غير أن الكنيسة كانت في واقع الأمر تدافع عن علم الفلك والكون الإغريقي القديم الذي كان سائدا في القرون الوسطى كما كانت بذلك تدافع أيضا عن مرجعية الكنيسة نفسها في المسائل المتعلقة بالعلوم والحياة البشرية. وهذه المعارضة بعينها هي التي استمرت تسمّم العلاقة بين الدين والعلم حتى يومنا هذا. ويقول كونج أيضا "إن الهوّة التي تفصل ما بين الكنيسة وثقافة عصرنا الحديث – وهي هوّة لا تزال واسعة لم يتم تقريبها حتى الآن – ناجمة بالدرجة الكبيرة عن هذه الحقائق". في كتابه ‹هل لله وجود؟ *Existiert Gott*?› ص 89.

القبول لا يرقى اليها الشك، لتحلّ محلّه روح الشك والانتقاد. فأصبح الطريق الذي يؤدي اليوم الى الإيمان هو طريق الجدل، وصار الاستدلال المنطقيّ، مثلما كان يحدث أيام إقليدس الإغريقيّ، هو الأساس الكافي الأوحد للاقتناع، ومن ثم رَفَع العقل راية الاستقلال ونصّب نفسه محكمة استئناف وحيدة. "وبتحصن العقل في هذا الموقع أصبحت الحياة وأسرارها العميقة وتلك الأمور التي تستعصي على التفسير والحصر تلقى اهتماماً طفيفاً وغضّ عصرنا الطرف في معظم الأحيان والأحوال عن القيم الدينية البحتة. وصار كل ما اعتبره العقل محاطاً بهالة من الغيبيات محلاً للتشكيك والارتياب؛ وصار الناس يمتعضون من أمور مثل مشاعر الإنسان وعواطفه وأحاسيسه. وهكذا انتهجت حركة التنوير برودة متزمّتة عقيمة لاقت في البداية استحسان من خنقتهم حرارة الوادي لأول نسيم هب عليهم من الجبال، إلاّ أن برودتها جمّدت مع مرور الوقت أوصال الناس وعادت بهم مرة أخرى الى تفهّم جديد للجوانب المشمسة الدافئة في الحياة البشرية ".[8]

وكان الشغل الشاغل لحركة التنوير التي "جاءت مباشرة في أعقاب الحروب الدينية التي نشبت في فرنسا وألمانيا" هو الإنسانية نفسها. "ولذلك اتسمت الحركة بالتصدّي لعدم التسامح والاضطهاد اللذين وصما جبين تلك الحروب ".[9]

وأخذ كل من الإيمان والعقيدة يذويان شيئاً فشيئاً، وسادت الشكوك حول تعاليم الدين المسيحيّ ونصوصه المقدسة جاعلة منها موضع شد وجذب، وظل الحال على هذا المنوال الى أن بلغ مذهب إلْحاد العصر الحديث أول ذروة له في ظلّ عصر التنوير في فرنسا القرن الثامن عشر، فاعتلى العقل والمنطق – على يد أعمال الفلاسفة العقلانيين أمثال دولباخd'Holbach وهيلفتيوس Helvétius وديديرو Diderot وفولتير Voltaire – العرش الذي كان يتربع عليه الدين قبلهما، وأُعلن على الملأ في صحن كاتدرائية نوتردام بباريس عام 1793 عن 'إقصاء الله عن عرشه'، وصار الالحاد منذ ذلك اليوم حركة سياسية، كانت برجوازية ليبراليّة إلحاديّة إلى حدٍّ ما في البداية، ثم تلاها شكلٌ عماليّ اشتراكيّ هو اليوم عماد مبدأ سيادة الدولة في البلدان الشيوعية.

---

8. تيودور جرين Theodor M. Greene في كتابه 'المحتوى التاريخي والدلالة الدينية لما يسمَّى بدين الفيلسوف كانط *The Historical context and Religious Significance of Kant's 'Religion'*' الصفحة التاسعة من المقدمة.

9. المرجع السابق – الصفحة العاشرة من المقدمة.

وحَمِيَ وطيس الصدام بين الدين والعلم وبلغ أوْجَه في القرن التاسع عشر، واشتدت هذه النزاعات وتسارعت متمخضة عن الاكتشافات العلمية العظيمة مع تشريح الدين على طاولة البحث الفلسفيّ وتحطيم المفهوم الديني للحياة، والإتيان بإيديولوجية لا تؤمن بوجود الله. ومن جهة أخرى فالقرن التاسع عشر يمكن أن يقال عنه وبكل ما في الكلمة من معنىً أنه بداية العصر الحاليّ، كما سيتضح لنا ذلك لاحقاً. فبنفس القدر الذي ترتكز به كل من حياتنا الحديثة وعالم التكنولوجيا على اكتشافات القرن التاسع عشر ونظرياته، فإن الفكر الإلحاديّ السائد في يومنا هذا ترجع جذوره هي الأخرى الى الآراء التي استنبطها ونادى بها الجهابذة من فلاسفة القرن التاسع عشر ذاته. وتردد أصداء صيحة 'قد مات الله!' في جنباته وأثّرت أكثر من أيّ شيء آخر في تشكيل ملامح زماننا المعاصر وصبّه في قالبه الحاليّ. أمّا المفكرون الذين قاموا في الحقبة الختامية لأديان الكور الآدميّ في ' وقت النهاية'[10] بإرساء القواعد الفلسفية التي يقوم عليها اليوم مذهب الإلحاد المنهجيّ فهم رباعي الفلاسفة (الألمان) المكوّن من لودفيج فيويرباخ Ludwig Feuerbach، وكارل ماركس Marx Karl، وسيجموند فرويد Sigmund Freud، وفريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche.

علامة العلمانية المسجّلة – صَيْحة 'قد مات الله!'

عقد لودفيج فيويرباخ العزم على إظهار أن الله ليس إلاّ من نسج خيال البشر. إذ كان من رأيه أن العلاقة بين الإنسان والله ليست في حقيقتها سوى علاقة بين الإنسان ونفسه – أو نفسه الأخرى *alterego* – التي أسبغ الإنسان عليها أسمى صفات نوعه، فيقول "إن ما ينسبه الإنسان الى الله إنما ينسبه فعلاً الى نفسه هو"[11] و الدين في رأيه "هو الطبيعة البشرية منعكسة في مرآة ذاتها"، والله "هو مرآة الإنسان".[12] ويخلص بذلك الى أن "الحياة الأخرى هي الحياة الدنيا منعكسة في مرآة الخيال"،[13] وأن "الإنسان هو أول الدين ووسطه وآخره".[14] ويقول فيويرباخ في وصف يقلب فيه قصة الخليقة

---

[10]. راجع أيضا إنجيل متى الإصحاح 24 – الآية 14، ورسالة تيموثاوس الثانية الإصحاح الثالث – الآية من 1 الى 9.

[11]. من كتابه 'جوهر المسيحية *The Essence of Christianity*' ص 28

[12]. المرجع السابق ص 62

[13]. المرجع السابق ص 181

[14]. المرجع السابق ص 183

كما جاءت في الكتاب المقدس رأساً على عقب: "في البدء خلق الإنسان ربّه بغير وعي وإرادة على صورته ومثاله، ثم خلق الله مخلوقه البشريّ بكل وعي وإرادة على صورته ومثاله"،[15] بل إن الإنسان – على حد قوله - "يحمل بداخله كيانه الأسمى وإلهه الأعلى".[16] فالإنسان عنده إذاً هو 'رب الإنسان'،[17] وهي فكرة عبر عنها بالعبارة اللاتينية *Homo homini Deus*[18]. ومن رأي فيويرباخ أيضاً أن هذه الفكرة كانت المنعطف الرئيسيّ في تاريخ العالم،[19] وأن علْم الأجناس أساساً ليس إذن سوى "أسطورة نسجها علم اللاهوت المسيحي"،[20] واعتبر أن الدين لون هادم من ألوان تغريب الإنسان عن نفسه وإقصائه عن ذاته".[21]

أما كارل ماركس، فقد زاد على ما قاله فيويرباخ، إذ أعلن في دراسته النقدية للدين، المسمّاة '*Critique*'، أن المؤثرات الاجتماعية هي التي تحدد ملامح الدين وترعاه، وأنّ جذور الدين متأصّلة في المصالح الاقتصادية المتنازعة. فإذا ما تمّ فض ذلك النزاع – مات الدين. ويرمي كارل ماركس بهذا التفنيد إلى تعرية الله والدين وإظهارهما كفكرة إيديولوجية و 'ابتكار نافع' للطبقة الحاكمة والأساس المشيد عليه بناؤها الإيديولوجيّ. فالدين عند كارل ماركس إذن هو طمأنينة غرست في قلب إنسان مستعبَد، ومعزول عن ذاته، ويجد مرتعاً له في تربة الفقر والاستغلال، ويرى أيضاً أن "العوَز الدينيّ ما هو إلا تعبير عن العوز الحقيقيّ وتمرداً عليه. فالدين هو زفير المخلوق المقهور، وقلب من لا قلب له، وروح أوضاع لا روح فيها. فالدين هو أفيون الشعوب". [22] ومن رأي كارل ماركس أيضاً أن الدين هو لون من الهروب من البؤس الاجتماعيّ إلى ما أسماه 'سعادة وهمية'. ومن هذا يتبين أن نقده للدين ليس سوى "نقد

---

[15]. المرجع السابق ص 117

[16]. المرجع السابق ص 275

[17]. المرجع السابق ص 82

[18]. في إشارة الى هوبزHobbes، على ما يبدو، وقد أشرنا الى هوبز ومقولته المشابهة في الحاشية رقم 81 من الفصل الثامن من كتابنا هذا.

[19]. المرجع السابق ص 268

[20]. المرجع السابق ص 337

[21]. المرجع السابق ص 43

[22]. 'دراسته النقدية في 'فلسفة الحق' عند هيجل *Critique of Hegel's 'Philosophy of Right'* ' ص 131

جنيني لوادي الدموع الذي يؤلف الدين هالة له. نقد السماء انقلب نقد الأرض، ونقد الدين تحول الى نقد القانون، ونقد اللاهوت إلى نقد السياسة".[23]

ويرى كارل ماركس أيضاً أن الله يجب أن يموت لكي يحيا الإنسان ويلقي بعكاكيز الدين جانباً[24]. ويخلص مقاله النقديّ كذلك الى أن الإنسان هو أسمى المخلوقات، وأنه المخلوق القادر على تسيير دفّة التاريخ في مسار إيجابي، إن هو استطاع أن يفهم العوامل التاريخية التي أعاقته عن اتخاذ قراراته بحرية، وعلى الأخص تلك 'الفكرة المُضلِّلة' بأن الله رب التاريخ. فبمجرد أن يخلّص الإنسان نفسه من هذه الخدع يصير قادراً على الإمساك بدفّة الأحداث بكل إحكام. ويخلص المقال أيضاً الى أن الاعتقاد في الله سوف يتلاشى فور التخلص من الاستغلال ومحو فقر البروليتاريا (اي الطبقة العاملة) وتأسيس ما أسماه 'مملكة الحرية'، أو "الإلحاد أولاً والشيوعية ثانيا هما الشرطان الأساسيان لأن يعتق الإنسان ذاته ويستردّها" بحسب قوله.

أما المفكر الثالث الذي يلي ماركس في الأهمية من حيث القيام بدور حاسم في تغيير ملامح عالمنا المعاصر فهو سيجموند فرويد، أحد آباء 'كنيسة' علم الاجتماع الحديث. وعلى الرغم من أنه عاش أيضاً في القرن العشرين إلاّ أن أفكاره تشكلت في رحم القرن التاسع عشر، إذ كان أيضاً واحداً ممن 'عرّوا' الدين، فكما يوضح لنا فالتر ديركس Walter Dirks[25] فإن نظرية الأنا العليا لدى فرويد ربما تهاجم الدين بشكل جذريّ أكثر مما فعله كارل ماركس. ففي بحث فرويد المسمى 'مستقبل الأخدوعة *The future of an Illusion*'[26] يُرجع نشأة الدين الى عجز الطفل وقلة حيلته. ويرى أن الدين نتاج رغبات طفولية لدى البالغين التوّاقين الى الاحتماء في ملاذ الطفولة. فالله عنده هو شخص تمّ تأليهه وإعطاؤه مكانة الأبوّة، مستشهداً بأن الناس يتوجهون في صلاتهم الى 'أبانا' كدليل على صحة استنتاجه هذا. ويتوصل التحليل النفسيّ عند فرويد إلى وجود علاقة وثيقة

---

[23]. المرجع السابق ص 131، 132

[24]. راجع كتاب فيتسلاف جاردافسكي - Vitezslav Gardavský المعنون 'لم يمت الله بعد *God is not yet Dead*' سلسلة كتب الناشر Penguin عام 1973.

[25]. كتاب 'حركة التبشير بعودة المسيح السياسية *Political Messianism*' ص 214 للكاتب ج ل تالمون J. L. Talmon.

[26]. في كتابه 'الاعتقاد في الله وإيديولوجية النقد *Gottesglaube und Ideologiekritik*' ص 226

بين عقدة الأب والاعتقاد في الله ويروّج لفكرة "أن الله في تصور الناس ليس سوى أب كبير[27] إذا ما نظرنا إليه بمنظار علم النفس".[28] كما يعتبر فرويد أن الدين 'خدعة هاذية'، و 'اضطراب عصبيّ هاجسيّ عموميّ' تستطيع البشرية أن تقضي عليه بمساعدة من العلم.[29]

أمّا ما كان كابوساً عند الشاعر جان بول فريدريش ريختر Jean Paul Friedrich Richter[30]، فقد كان هو اليقين بعينه عند (فيلسوفنا الألمانيّ الرابع) نيتشه، الذي طفق يعلن - كما يصف البعض - "بأسلوب لُغويّ آسر"، و "فكر فريد في بابه"[31] عن موت الله، فهو الذي ابتكر عبارة 'مات الله' التي صارت تستخدم منذ ذلك الوقت فصاعداً لجذب انتباه السامعين. ويَبتكر مشهداً مسرحياً ساخراً يظهر فيه 'مجنون' يبحث عن الله مستعيناً بمصباح يمسك به في رابعة النهار ويقول: "أين ذهب الله؟ أود أن أقول لكم بأننا قتلناه! أنا وأنتم! " ثم يعلن عن موت الله ويقيم قداسا احتفاء بموته في الكنائس التي لم تعد في نظر نيتشه سوى مقابر وأضرحة تحوي رفات ذلك 'الله'. فنيتشه يعتبر أن موت الله وما أسماه "تحوّل الاعتقاد في إله

---

27. 'الطبعة المرجعية للأعمال السيكولوجية الكاملة ليسجموند فرويد *The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud*' إصدار لندن عام 1910.

28. كتاب 'ليوناردو دافينشي وذكريات عن طفولته وصباه *Leonardo da Vinci and a Memory of his Childhood*' ص 123.

29. في كتابه 'التصرفات المتسلطة على فكر الإنسان والممارسات الدينية *Obsessive Acts and Religious Practices*' ص 34. وللمزيد راجع بادي بناهي Badi Panahi في مؤلفه 'أهمية التحليل النفسي في العلوم الاجتماعية *Die Bedeutung der Psychoanalyse für dieSozialwissenschaften*' ص 138 وما بعدها، كما يتناول هانز كونج، في كتابه 'هل لله وجود؟ *Existiert Gott*?' ص 299-363، مسألة التحليل النفسي الذي ينكر وجود الله. وينصبّ نقده الرئيسي لهذه المسألة على أن وجود الإسقاط المستحب لا يجيب بأي حال من الأحوال على التساؤل عن وجود الإسقاط من عدمه. وأن ما توقعه فرويد وأسماه 'استبدال' الدين بالعلم الإلحادي، والاعتقاد بأن مثل هذا العلم قادر على حلّ كافة المشاكل يعتبره الكثيرون اليوم أضغاث أحلام.

30. كما جاء في مسرحية 'سيبينكاس: حديث المسيح الميّت Siebenkäs. Rede des toten Christus'، والتي نشرت ترجمتها الإنجليزية في كتاب 'مختارات من أعمال جان بول فريدريك ريختر *Selections from the Works of Jean Paul Friedrich Richter*' طبع نيويورك للناشر American Book Company عام 1898.

31. هينريش فرايز Heinrich Fries في كتابه 'هل مات الله؟ *Gott ist tot*?' ص 25

المسيحية الى شيء غير جديد بالاعتقاد" هو "أهم حدث في الآونة الأخيرة".[32]

فما حدث إذن للإنسان المعاصر في عالم الغرب على يد كهنة اللادينية الأربعة هؤلاء ليس سوى ترجمة لرغبته في أن يحيا دونما ضابط أو رابط، بل في أن يتحكم في الأبدية التي هي من خصائص الملكوت، وأن يسعى لكي ينصّب من نفسه إلهاً ويصل الى مستوى 'السوبرمان'، وهي أيضاً رغبة من الإنسان في إقصاء الله عن عرشه، ولهذا يجب أن يموت الله ليحيا الإنسان. أما الاعتقاد في الحياة الأخرى فقد صار أمراً يتعلق 'بالمرضى والمحتضرين'. فالناس كما يقول نيتشه "قد ابتكروا الغيبيات... ثم بحثوا عن مهرب مما هم فيه من بؤس. فلما وجدوا أن النجوم بعيدة المنال قالوا في حسرة 'ليتنا وجدنا طرقاً سحرية ندلف بها الى عالم آخر أو نبلغ بها الى السعادة! ' ثمّ اتخذوا لأنفسهم ما ابتكروه من طرق ملتوية وألاعيب دموية". [33] ولكن الأمر المستغرب في مسرحية نيتشه هذه هو أن ذلك المجنون الذي طفق يعلن عن موت الله لم يكن في صوته أية نبرة تدل على السرور أو السعادة، بل كانت كلماته تبث الخوف والفزع مما حدث – إذ جعله نيتشه يقول: "ماذا جنينا عندما فككنا ما بين كوكب الأرض والشمس من رباط؟ أيتحرك كوكبنا الآن؟ أنتحرك نحن؟ هل نمضي بعيداً عن كل الشموس؟ ألسنا نمضي الآن بغير توقف؟ ننطلق خلفاً ويميناً ويساراً وأماماً وفي كل اتجاه؟ هل ما زال هناك أعلى وأسفل؟ ألسنا جانحين عن المسار وكأننا نركض في عدم لا نهائيّ؟ ألا نشعر بأنفاس الفضاء الخاوي؟ ألم تسر البرودة في كل الأوصال؟ ألسنا نمضي في ليل لا يعقبه فجر، ليل يزداد ظلاما فوق ما فيه من ظلام؟ ألسنا الآن في حاجة لأن نوقد المصابيح في رابعة النهار؟"[34]

فلقد تنبأ نيتشه، الذي يحتل في ثقافة العصر الحديث مكانة *كاسّاندَرَا Cassandra*[35]، بعواقب موت الله والتخلّي عن الغيبيات، تلك الفترة التي أسماها "فترة الظلام والقتامة التي من الأرجح أن الأرض لم تر مثيلاً

---

[32]. في مؤلّفه 'الحكمة الممتعة *The Joyful Wisdom*' الفقرتين رقم 125 و343.

[33]. كتاب 'هكذا تكلم زرادشت *Thus Spake Zarathustra*' الجزء الأول: الفصل المعنون 'أهل العالم الخلفي Backworldsmen'ص 30-31.

[34]. الحكمة الممتعة - فقرة 125.

[35] كاساندرا هي عرّافة أسطورة طروادة الإغريقية التي اشتهرت بنبوءاتها المشؤومة التي لم يصدّقها الناس في أيامها ثم صدقت توقعاتها فيما بعد

لها من قبل"،[36] إذ يقول: "إنّ الذي يجب أن ينهار بكامله الآن لامحالة هو ما قوَّض أساسَه هذا الاعتقاد، فالكثير مبنيّ ومرتكز عليه ومندمج فيه، كما هو الحاصل بالنسبة لناموسنا الأخلاقيّ الأوروبيّ بأكمله"[37] ولقد أدرك نيتشه تماماً أن موت الله شيء لا ينفك أبداً عن الإطاحة بمعاييرنا وقيمنا الأخلاقية، إذ يتساءل: "إن العدميّة على الأبواب؛ فمن أين أتى ذلك الضيف الذي يفوق كل الضيوف غموضاً وغرابة؟"[38] ثم ها هو تعريفه للعدمية: "عندما تتدنّى أسمى القيم وتبخّس نفسها ويعوزنا الهدف وتحار كلمة 'لماذا' ولا تجد جواباً"[39] وكأنه يعني بتعبير آخر "تهجر الناس أسمى ما في الخُلُق المسيحيّ من قِيَم كالمحبة والتواضع والكرم والتسليم والرضاء والعطف، وتأتي بقيم جديدة كالتسلط والتكالب على السلطة"، وقد استشرف نيتشة بلُغة ليس فيها لبس ولا غموض تبعات ذلك على البشرية، إذ قال: تلوح الآن سلسلة طويلة متّصلة من الهدم والتدمير والتخريب والإطاحة"[40] كما اكتشف أن التخلّي عن الغيبيات والمقدسات ليس سوى عملية بطيئة لن تبلغ ذروتها إلّا في المستقبل. وهنا يقول مجنون نيتشه "لقد جئت مبكراً جداً... ولم يحن الوقت الذي يناسبني بعد، فما يزال ذلك الحدث المهول في الطريق يذرع المسافات، ولم يصل بعد إلى أسماع البشر، فالبرق والرعد محتاجان للوقت (حتى نرى أولهما ونسمع الثاني) وكذلك الحال مع لمعان النجوم، كما أن إنجاز الأعمال أيضاً يحتاج وقتاً، بل إن الأعمال نفسها تحتاج للوقت حتّى بعد إنجازها كي نراها ونسمعها".[41]

هدم التقاليد والعادات الدينية:

وما وصفه نيتشة 'بالحدث المخيف' و 'الظلام الأعظم' قد بدأ يتراءى اليوم لناظريْنا: فلم يعد الإيمان التقليديّ بالله مقبولاً، كما يخبرنا جنرال أرُّبِي General Arrupe أحد أقطاب طائفة الجيزويت Jesuit

[36]. الحكمة الممتعة - فقرة 343

[37]. المرجع السابق

[38]. كتاب 'الرّغبة في السلطة *The Will to Power*' الفصل المعنون 'نحو رسم للملامح Towards an Outline' الجزء الاول

[39]. المرجع السابق، الجزء الاول - البند الثاني

[40]. الحكمة الممتعة – فقرة 343

[41]. الحكمة الممتعة – فقرة 125.

المسيحية وهو ينعي ما آل اليه حال الدين[42] قائلاً: "صار الإلحاد ظاهرة عالمية[43] واستبدل لفظ ‘العناية الإلهية‘ بلفظ ‘التقدم’، وحل الإيمان بالعلم محل الاعتقاد في التنزيل السماويّ؛ بل صار العلم ’ديناً بديلاً’، " تخدمه الناس وتُبذل في سبيله التضحيات"، واحتلت المعرفة العقلانية مكانة المعرفة الإصلاحية الدينية، وبالاختصار – قد أخذ العقل مكان النقل وصار عاملاً حاسماً في مسيرة تاريخ البشرية. أما المسائل التي لا يمكن إخضاعها للتحليل والبحث أو يستعصي التعبير عنها رياضياً أو حلّها بوسائل العلم الحديث – كالغرض من الحياة أو الهدف من التاريخ – فقد صارت محلاً للسخرية والاستهزاء بوصفها ’ مسائل مكشوفة‘ وأعراض ‘صداع نصفيّ نفسيّ’،[44] بل لقد صُرف النظر عنها تماماً على أنها مسائل تافهة وخاوية من أيّ معنى. فقد جُرِّدَ العالم من سحره وغموضه، وتحوّل الى عالم عقلانيّ تكنولوجيّ، فصار من جرّاء ذلك عالَماً نَفْعِياً، وما تبقّى لنا الآن ليس سوى فراغ هائل تمّ اقتلاع الإنسان فيه من جذوره الغيبية الروحية، وتُرك خالي الوفاض إلاّ من ’ أمور الدنيا‘ المادية التي تُركت له ليحصر همّه فيها: من اكتشاف واختراع وتقدم وإنجاز وإنتاج واستهلاك".[45]

ولقد دفعنا الاعتقاد بأن ما ينفع حياة الإنسان دون سواه هو ما يُعْقَل أو يُقاس أو يُخْتَبَر، والاقتناع بأن العلم "قادر تماماً بوسائله العقلانية على أن

---

[42]. في الاحتفال الثامن والثلاثين باليوم الكاثوليكي الألماني بمدينة تريير Trierعام 1970

[43]. تزايدت النزعة الى الشك في الدين بوجه عام لدرجة كبيرة بفعل الانقلاب الذي حل بالتفكير العلمي على يد نظرية داروين في النشوء والارتقاء، وكان هذا "انقلابا لا يقل في تبعاته ونتائجه عما يرتبط في الأذهان بإسم كوبرنيكوس" كما يقول جوزيف راتسنجر Josef Ratzinger (الذي اعتلى كرسي البابوية عام 2005 بإسم البابا بِنِدِيكت السادس عشر) في كتابه عن نظرية النشوء والارتقاء المعنون ‘*Schöpfungsglaube und Evolutionstheorie*’ ص 232 – ذلك لأن الاعتقاد بأصل الخليقة (كما جاء في الكتاب المقدس)، كان التوفيق بينه وبين نظرية داروين هذه يبدو مستحيلا.

[44]. كما جاء على لسان عالم الطبيعة النمساوي لودفيج بولتزمان Ludwig Boltzmann (المولود عام 1844 والمتوفي عام 1906) غير أن للفلسفة الوضعية هذه معارضين ممن يعتنقون فكر الفلسفة التأويلية، وعلى رأسهم الفيلسوف هانز جورج جادامر Hans-Georg Gadamer من مدينة هايدلبرج الألمانية، وذلك في كتابه ‘الحقيقة والمنهج *Wahrheit und Methode*’ الذي صدرت طبعته الثالثة عام 1972

[45]. ماريون كونتيسة دنهوف Marion Gräfin [countess] Dönhoff– في كتابها ‘هل يمكن الحياة بغير العقيدة؟ *Leben ohne Glauben*’

يخلق من العدم حضارة كاملة من جميع النواحي" – دفعنا إلى منزلق "التخلص من تراث المعرفة والحكمة الزاخر الذي حفلت به سجلات كل حضارة قديمة وكل دين من ديانات العالم العظيمة".[46] وصار العلم الى حدٍّ كبير مؤسسة مرجعية أو 'ديناً بديلاً' يسعى لكي يحل محل الأنظمة الدينية السماوية. أما عقلانية العلم فإنها توشك على أن تجنح لتصبح إيديولوجية غير عقلانية – أي تتحول من عقلانية وصفية اختيارية إلى عقلانية واصفة إجبارية، وتسعى لأن يكون لها القول الفصل في كافة المسائل؛ حتى فيما يتعلق بالهدف من الحياة. وترمي إلى أن تدّعي لنفسها الحق في حكم نفسها بنفسها، والحق في حيازة السلطة السياسية والأخلاقية.[47]

لقد أفضى الدور المسيطر للعلم في المجتمع الحديث إلى تحويل الاعتقاد الديني إلى مسألة شخصية وإقصائه عن المحيط الاجتماعي السياسي "وبذلك صار الإلحاد المنهجيّ وما يجلبه من عواقب هو القوة الصائغة الفاعلة الوحيدة للنظام السياسيّ والاجتماعيّ".[48]

ولقد أخذت الصلة بالغيبيات والاعتقاد فيها كحقيقة ذات معنى ومضمون في الاضمحلال شيئاً فشيئاً[49] بينما طفق تأصُّلُ الاعتقاد بأن الله لا

---

[46]. كونراد لورنز Konrad Lorenz في كتابه 'ثمانية ذنوب قاتلة لإنسان العصر *Civilized Man's Eight Deadly Sins*' ص 63-64.

[47]. مثل عالم فسيولوجيا الأعصاب الشهير الفرنسي بول شوشارد Paul Chauchard الذي يرغب في سبر غور الطبيعة الجوهرية للإنسان وتناولها بالقياس والتعريف – أي معرفة كيف تتجاوب طبيعة الإنسان الجوهرية مع طبيعته النفس- بيولوجية - وهو الذي يحاول أيضا أن يستنبط المعايير الأخلاقية من الاستقراءات البيولوجية، وقد كتب ما يلي: ''إن علم البيولوجيا البشرية في شكله الجديد لم يعد مجرّد علم وصفي فحسب، وإنما صار علما معياريا أيضا، بمعنى أنه علم يسعى الى تعريف ما هو إنساني في جميع الظروف البشرية – أي تعريف ما يوافق الطبيعة النفس- بيولوجية للكائن البشري أو ما يجعل الإنسان بشرا على وجه الخصوص، وذلك من منظور توسيع إمكانيات هذه الطبيعة، كما يسعى هذا العلم أيضا الى تعريف كل ما هو غير إنساني أي كل ما يحطّ من الطبيعة البشرية". [من كتابه 'علم الحيوان والأخلاق *Biologie et Morale*'. كما يعتقد العديد من جهابذة العلوم الإنسانية الأخرى أن كل ما يستعصي على الاستقصاء بالوسائل العلمية هو شيء إمّا غير ذي صلة أو غير موجود.

[48]. هوجو شتاودينجر Hugo Staudinger في كتابه 'الإلحاد كمشكلة سياسية *Atheismus als politisches Problem*' ص 10

[49]. يقول بيتر بيرجر Peter Berger في كتابه 'إشاعة ملائكية *A Rumor of Angels*' ص 7 أن من لا يزالوا يعتقدون أن الغيبيات لايزال لها ثمّة فائدة "سيجدون أنفسهم وقد صاروا ضمن الأقلّية".

داعي له ولا طائل منه يزداد يوماً بعد يوم. أما نظرتنا إلى العالم – وهي نظرة صاغها لنا العلم ورسم أبعادها "فلم تعد بحاجة الى فرضية أو ‘نظرية ‘وجود الله"، وسادنا الاعتقاد بأن "الاعتماد على النفس والترقّي المنهجيّ هما ضمانتان لمستقبل مقبول يمكن الارتكان إليهما أكثر من الاعتماد على الممارسات الدينية". [50] ويبدو أن البحث في وجود الله أو عدمه قد صار أمراً لا يتمشى مع واقع العصر، وهو ما تنبأ به أوجست كومت Auguste Comte فيلسوف القرن التاسع عشر سابقاً بقوله: "سيختفي الله تماماً حتى دون أن يترك وراءه أيّة علامة على التساؤل عنه من بعده".[51]

أما قرننا (العشرون) فقد كان قرناً لا وجود لله فيه (بين أهل الغرب)، كما يقول جين أمِري Jean Amery الذي توصل الى هذا الحكم المبرّر، إذ أشار الى أن جميع فلاسفة هذا الزمان من هوسيرل Husserl الى سارتر Sartre ومن كارنَب Carnap إلى هايديجِّر Heidegger، بل إن معظم كتّاب القرن العشرين المرموقين من أمثال بروست Proste و جويس Joyce ومانّ Mann و بيكيت Beckett لم تكن لديهم رغبة في أيّ شيء يمتّ بصلة الى الله، وقال أمِري أيضاً "إن الحركات الثقافية العظمى التي اتّسم بها قرننا (العشرون) هذا مجرّدة عن أيّ إيمان بالدين".[52] ويستعرض أمِري بكل اقتدار أن العَلْمَنَة قد أصابت قلب العقائد والأفكار الأساسية في المسيحية إذ وقعت فريسة لعدوى التحديث، وخاصة فيما يتعلق بالاعتقاد في الحياة الأخرى ومفهوم ‘الروح البشرية’ بقوله:

"لقد حطّم التحليل النفسانيّ فكرة الروح البشرية وقفزت نظرية النفس لتحتل مكانها، ولأن نظرية النفس هذه قد صيغت وربطت بإحكام في قاعدة تحتية مادّية فإن النفس البشرية صارت بدورها مجرّد ظاهرة جسمانية بدلاً من أن تبقى ظاهرة روحية. ثم ها هي الماركسية – دعامة التحديث الفكريّ وركيزته – تزيل الهالة عن الإيمان بالأخرويات والترقّب الألفيّ وتزجّ بهما في بوتقة العَلْمَنة. أمّا الله – وهو ذلك الكمّ المجهول الذي لا

---

[50]. ماكس سيكلَر: Max Seckler في كتابه ‘هل يمكننا الاستمرار بدون الله؟ *Kommt der christliche Glaube ohne Gott aus*?’ ص182

[51]. نقلا عن كارل ليمان Karl Lehmann في كتابه ‘ماذا تعنيه الحياة المسيحية بين الحماس الديني والمؤسسة الكنسية *Von Sinn der christlichen Existenz zwischen Enthusiasmus und Institution*’ ص 47

[52]. كتاب ‘الاستفزازات الإلحادية *Provokationen des Atheismus*’ ص 215.

ندري عنه شيئاً ـ فلم يعد له يدٌ في مسار التاريخ، لأن الإنسان ــ ذلك الكمّ المعروف ــ قد أمسك الآن بناصية التاريخ."[53]

وليست ظاهرة 'الخروج من الكنيسة'[54] ــ بكل بساطة ــ هي الشاهد الذي أبرز تفكك أوصال المسيحية وتدهورها (في الغرب)، بل فقدان الوعي الدينيّ وانهيار العقائد المتوارثة، ففي كتابٍ تناول بالتحليل نتائج استطلاع للرأي تم تحت رعاية السينودس الموحد لِأَبْرَشِيّات (ما كان يعرف) بألمانيا الغربية، تحدث عالِم الاجتماع الدينيّ جيرهارد شميدخِن Gerhard Schmidtchen عن عمليّة صامتة وقال إنها عمليّة "لا تظهر أهميتها في انخفاض عدد المنتسبين الى الكنيسة، مهما كانت العددية دليلاً مهما، بل في تحليل تركيبة الوعي البشريّ؛ ففي تلك التركيبة التي يكمن فيها تفكير الناس ومشاعرهم يختبئ 'غول' الكيان البشريّ، وهذه هي خشبة الدراما الدينية التي تعتليها الكنيسة ذاتها في هذه الأيام".[55] ثم يمضي جيرهارد ليقول إن الإنسان الحديث قد "دخل في عملية الخروج روحياً من ملاذ الروابط المتوارثة بدرجة مخيفة، وانصرف مرة أخرى لإجراء التجارب على نفسه

[53]. المرجع السابق.

[54]. بلغ عدد الذين استقالوا من عضوية الكنيسة عام 1974 فيما كان يعرف آنذاك بألمانيا الغربية 83,277 كاثوليكي و 210,000 بروتستانتيا (نقلا عن 'جريدة جنوب ألمانيا*Süddeutsche Zeitung*' بعددها الصادر 15 أكتوبر 1975) وتصف أحدى المقالات التي نشرتها الصحف المدى الذي تدنّت اليه عضوية الكنيسة في عديد من الدول الأوروبية الأخرى حيث ذكرت المقالة أن الأسقف السويدي إنجمار ستروم Ingmar Strom قد وجد في خواء الكنائس بمدينة ستوكهولم نفس الكآبة التي تبعثها في النفس زيارة المقابر، ولذلك اقترح على الكنيسة الرسمية في السويد أن تبيع بيوت الله أو تحوّلها الى مراقص أو معارض أو قاعات لعزف الموسيقى أو حمامات سباحة، ويشكو ذلك الأسقف من أن جمهور صلاة الأحد لا يعدو في الغالب عن زوجة الكاهن وقليل من نزلاء دار العجزة الملحق بالكنيسة ـ وهو ما يسبب الإحباط لكلّ من الكاهن وعازف الأرغن. نقلا عن 'جريدة جنوب ألمانيا*Süddeutsche Zeitung*' عدد 16 مارس 1982.

[55]. من كتاب 'استطلاع لرأي الكاثوليك: مستقبل العقيدة والكنيسة Befragte Katholiken—Zur Zukunft von Glaube und Kirche' ص 164، وطبقا لدراسة ميدانية أجراها معهد أبحاث السوق بمدينة تراونشتاين الألمانية Institute for Market and Social Research، Traunstein بتكليف من وكالة الأنباء الكاثوليكية Catholic News Agency أن واحدا فقط من بين كل ثلاثة من سكان ما كان يعرف بألمانيا الغربية يمكن أن يعتبر مسيحيا إذا ما طبقت المعايير التي وضعتها الكنيسة (لتعريف من هو المسيحي) نقلا عن 'جريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung*' عدد 23 ديسمبر 1979.

واستكشاف الإمكانات الكامنة بداخله، دون إدراك منه إذا ما كانت إمكاناته هذه بنّاءة أم هدّامة".[56]

فهكذا انكسرت سلسلة التوارث: أي عملية نقل الإيمان والعقيدة من جيل الآباء الى جيل الأبناء. فلم تعد العقيدة الدينية موضوع حديث في معظم العائلات، وكما أثبتت لنا تلك التجربة التي أشرنا إليها آنفاً لعالم اللاهوت هان Hahn، لم يعد الإيمان الضعيف الواهن لجيل الآباء في يومنا الحاضر كافياً لغرس وعي دينيّ في نفوس أبنائه. وغالباً ما يكون طقس العماد أو المناولة الذي يقصد منه تقوية إيمان الشباب بدينهم دافعاً لخروجهم من الكنيسة، فينقلب العماد من 'بركة ترحيب' الى 'مسحة توديع'. وخلافاً لهذه الظاهرة ما زلنا نجد بالطبع أمثلة حية على التجديد الدينيّ والورع الصادق، فهي أمثلة ستبقى موجودة على الدوام. ودائماً ما يتشبث بهذه الأمثلة الحية ويتلمس فيها السلوى من لا يريدون الإقرار بأن الإيمان بالله آخذ في الذبول، ولكن هذه الأمثلة ليست سوى جزر منعزلة في محيط عالم لا يؤمن بالله، أو واحة من الغيبيات العلوية تحاصرها وتزحف عليها كثبان رمال صحراء من انعدام الإيمان.[57]

فالإنسان الغربيّ المعاصر - كما يلاحظ بول تيليش Paul Tillich - "لا يحتفظ إلاّ بالنذر اليسير من نظرة عالمية واسعة الأفق، بل قد لا يحتفظ بأيّ نصيب من هذه النظرة على الإطلاق".[58] وأنه "لم يعد يتأثر بالرسالة المسيحية".[59]

ويتكلم هـ. ج. شوبس H. J. Schoeps عن ظاهرة أسماها 'حالة عالم ما بعد المسيحية'، وهي حالة يرى أنها ستخلو حتى من مجرد الاهتمام بالمحاورات الجدلية بين مناصري الأديان ومنتقديهم.[60] كما يقول كاتب

---

[56]. الكاتبان جوتليب هيلد وهيلموت آيشيلان Gottlieb Hild und Helmut Aichelin في كتابهما 'الدولة والكنيسة والمجتمع *Staat–Kirche–Gesellschaft*' ص 15.

[57]. يحدثنا بيتر بيرجر في كتابه المشار إليه سابقا، ص 17، عن وجود واحات منعزلة لم تُصِبْها عدوى التحديث "خاصة في المناطق الجغرافية أو السكانية التي لا تطالها وسائل الإعلام الحديثة."

[58]. نقلا عن هاينتس تسارنت Heinz Zahrnt في مؤلفه 'المسألة الإلهية *The Question of God*' ص 298

[59]. المرجع السابق

[60]. كتاب 'الحوار الديني بين اليهودية والمسيحية *Jüdisch-christliches Religionsgespräch*' ص 54

آخر: "بعد أن انزلقنا الى النزعات الّلاأخلاقية المحمومة أتينا بإلحاد وعدم اكتراث أصاب الضمائر بالشلل"،[61] ووضع المجتمع الحديث ما أسماه بالمثالية محل الدين – "مثالية لا تقوم على أية مثل عليا، وإنما هي مبنية على ما يتولد عن أحداث التاريخ، من تقدم وعقلانية وعلم، مثالية ترضع من ثدي التكنولوجيا، بعد ولادة على يد الثورة"[62]

ظهور ‘الخلاص’ العَلَمانيّ

يتسرب في الغرب الآن لون جديد من التديّن العلماني لملء الفراغ الذي خلّفه انحسار المسيحية التدريجيّ (في عالم الغرب) – لون يأخذ قالب عقيدة خلاصية ذات صبغة اشتراكية، وتعود جذور هذا الدين الدنيويّ الحديث الى أفكار وتعاليم فلاسفة فرنسا القرن الثامن عشر الذين توصلوا الى اقتناع بأن أفكارهم "مقدر لها أن تخلف المسيحية، وتصلح ما أفسده الدين (أو بتعبير البعض منهم: تفي بالعهد الذي قطعه الدين على نفسه دون الوفاء به) وتضع التاريخ في مساره الحقيقى".[63] واعتبر هؤلاء المفكرون أن رسالتهم هي تخليص للإنسان من تحقير ذاته وحمايته من اعتقاده الخاطئ بأنه عاجز تمامًا عن الوصول الى الخلاص بمجهوده الشخصيّ، بل لقد أكّد أكثر هؤلاء الفلاسفة بزهوة المنتصر أن الإنسان ليس بحاجة الى سلطة عليا كي يتحكم في دوافعه الغريزية، فقد ادّعوا توصلهم الى اكتشاف ثوريّ مفاده "أن الشمول والتكامل الاجتماعيّ يعتمد على قدرة الفرد على التعبير عن ذاته، وأن حرية الإنسان تواكب زحف التلاحم الاجتماعى، لأن الإحباط الذي عانى منه الفرد هو أس أساس الخلل الاجتماعيّ بأكمله، وأن التنافر الاجتماعيّ هو المسبب لعجز الفرد عن التوافق مع المجتمع". [64]

وكان هدف هؤلاء المفكرين الغربيين هو هدم الكيان الدينيّ القديم – أي المسيحية في هذه الحالة – وتقويض دعائم ما أسموه "بنيان الدجل العتيق، الذي شُيِّد منذ ألف وسبعمائة وخمسة وسبعين عاماً مضت (على

---

[61]. هـ ر موللر شويفي H. R. Müller-Schwefe في كتابه ‘الإلحاد *Atheismus*’ ص 30

[62]. دانييل بل Daniel Bell في كتابه ‘المتناقضات الحضارية في الرأسمالية *The Cultural Contradictions of Capitalism*’ ص 28

[63]. كتاب ‘حركة التبشير بعودة المسيح السياسية *Political Messianism*’ ص 506 للكاتب ج ل تالمون J. L. Talmon.

[64]. المرجع السابق

زمانهم)". [65] وهكذا "استقرّ الفأس في أصل الشجرة" [66]، فلم يكن لدى فلاسفة القرن الثامن عشر هؤلاء أدنى شك في أنهم كانوا "يروِّجون لدين جديد"[67] وانقلب ذلك الدين العلمانيّ – بحافز من الثورة الفرنسية التي وضعت الجماهير على اتصال بالأفكار الأساسية لذلك النفر القليل من الفلاسفة – انقلب من مجرد نظرية أخلاقية الى "عقيدة اجتماعية اقتصادية مبنية على قواعد أخلاقية، أما فكرة الخلاص (إذا ما شئنا مقارنة هذا الدين العلمانيّ بالأديان التقليدية) فقد صارت تعني للجماهير التي حرّكتها الثورة خلاصاً اجتماعيا بالدرجة الأولى". أما إيديولوجية الطبقة المتوسطة (البورجوازية) التي كانت آخذة في النهوض (عند بداية الثورة الفرنسية) فقد "أعيدت صياغتها وتطويعها لصالح طبقة العمال والفلاحين – أي طبقة البروليتاريا".[68] وعلى النقيض من المذاهب المسيحية الألفية (تلك المذاهب التي دعت الناس إلى ترقّب الهناء الألفيّ ولاقت رواجًا في القرن التاسع عشر) وكان محرّكها هو كلمة الله والأمل في خلاص على يد المسيح نفسه وليس على يد الكهنوت، فإن "مذاهب الخلاص العلمانيّ المبتكرة هذه كانت ترمي الى إحداث ثورة في المجتمع بكامله"[69] وكانت نقطتها المرجعية هي "عقل الإنسان وإرادته، أما غايتها فكانت هي تحقيق السعادة الدنيوية عن طريق التحول الاجتماعيّ. ومع أن نقطتها المرجعية كانت دنيوية إلاّ أن ادعاءاتها كانت مطلقة (لا تحدّها الحدود الدنيوية)".[70]

---

[65]. في رسالة من فولتير الى فريدريك الثاني ملك بروسيا بتاريخ 3 أغسطس 1775، وردت في كتاب ‘رسائل فولتير وفريدريك الأكبر *Letters of Voltaire and Frederich the Great*’ ص 365

[66]. في رسالة من فريدريك الأكبر الى فولتير في 5 مايو 1767 نشرت بالمرجع السابق ص 293

[67]. ج ل تالمون J. L. Talmon في كتابه ‘جذور الديمقراطية الشمولية *The Origins of Totalitarian Democracy*’ ص 21؛أنظر أيضا كتاب جان سيرفيير Jean Servier المعنون ‘تاريخ فكرة اليوتوبيا (المدينة الفاضلة) *Histoire de l’Utopie*’.

[68]. ج ل تالمون J. L. Talmon في كتابه ‘جذور الديمقراطية الشمولية *The Origins of Totalitarian Democracy*’ ص 5 و6

[69]. المرجع السابق ص 9.

[70]. المرجع السابق ص 10.

وكان أبرز تلك السلسلة من أنبياء التنوير هو كارل ماركس[71] الذي اختزل تاريخ البشرية بأسره وجعل منه مجرد "مسار اقتصاديّ يتجه نحو ثورة عالمية نهائية"[72] وهي فكرة خلاصية في جوهرها، إذ أن قائلها يرغب في خلق المجتمع المحرّر والإنسان المحرّر، وإلى استبدال ما أسماه ‘مملكة الاحتياج’ بـ ‘مملكة الحرية’ أو تحقيق ‘ملكوت الله على الأرض ‘مع استبعاد الله منها. أما طينة الخلق الذي ابتدعه كارل ماركس فقد أُخذت من معجنة الطبقة الاجتماعية الدنيا التي توسّم فيها كارل ماركس كونها "الأداة التاريخية العالمية لتحقيق الهدف القصاصيّ للتاريخ بأكمله عن طريق ثورة عالمية. فالبروليتاريا (عند كارل ماركس) هي ‘الشعب المختار’ في مذهب المادية التاريخية".[73]

ومن يتأمل في أفكار كارل ماركس يجد أوجه تشابه صارخة عديدة متنوعة في الشكل والمضمون بين الاعتقاد اليهوديّ/المسيحيّ في الخلاص من ناحية ومذهب الخلاص السياسيّ من الناحية الأخرى. فهناك في الماركسية ‘أبناء الظلام’ و ‘أبناء النور’ وهناك ‘الحساب الأخير’، و ‘كارثة النهاية للعالم البورجوازيّ الرأسمالي’، وهناك أيضاً ‘أس أساس الشرور في هذا الزمان ‘ألا وهو الاستغلال الذي يفسد قدرات الإنسان الأخلاقية والروحية. أما المانيفستو الشيوعيّ نفسه فهو أولاً وأخيرًا – كما أوضح لويث Lówith بكل جلاء – "وثيقة رسولية، وقصاص وتحريض على الثورة، وأنه ليس بأيّ حال من الأحوال مقالة علمية بحتة مبنية على دليل

---

[71]. يرى شيلسكي H. Schelsky أن استبدال الدين السماوي المنادي بالخلاص والاقتداء بالدين الاجتماعي الجديد هو شرخ صادع في تاريخ العالم، ويعلق في سخرية قائلا "إننا نجد أنفسنا في ظل ميلاد وتطور دين الصلاح الاجتماعي الجديد كما كنا في القرن الثاني أو الثالث بعد ميلاد كارل ماركس ‘محاكيا اصطلاح ‘بعد ميلاد المسيح’ ويستعمل اللاتينية للتعبير عن اصطلاحه المبتكر هذا *‘post Marxism natum’*، ومعنى هذا أن هيجل والتنوير يحتلان مكانة تماثل مقام يوحنا المعمدان أو غيره من الأنبياء". [من كتابه ‘آخرون يقومون بالعمل *Die Arbeit tun die anderen’* ص 100

[72]. كارل لويث Karl Löwith– في كتابه ‘معاني في التاريخ *Meaning in History’* ص 33

[73]. المرجع السابق ص 37

عقلانيّ يستند الى حقائق ثابتة"،[74] فليس هذا المانيفستو سوى وثيقة نسجت على المنوال الأساسيّ للاعتقاد الدينيّ – ألا وهو "الوعد بتحقيق الآمال". [75]

وإذا ما تطرقنا الى أوجه التشابه الأخرى لوجدنا أن الصراع الحتميّ بين البروليتاريا والبورجوازية في الماركسية مرادف للصراع الحتميّ بين المسيح والمسيخ في الاعتقاد اليهوديّ/المسيحيّ. وأن الخلاص الشامل للطبقة المقهورة يقابله فكرة ‘الصلب ثم القيامة’. كما أن فكرة تحويل مملكة الاحتياج إلى مملكة الحرية في نهاية المطاف تماثل الاعتقاد بتحويل ما يسمّى في اليهودية/المسيحية ‘مدينة الشر *Civitas Terrena*’ الى ‘مدينة الله *Civitas Dei*’. أما مسار التاريخ بأكمله كما يرسمه المانيفستو الشيوعيّ فهو يشابه خارطة استقراء التاريخ عند الاعتقاد اليهودى/المسيحيّ من حيث أنه ‘زحف تسوقه العناية نحو الغاية المرجوّة’. فمذهب المادية التاريخية – كما يقول لويث Löwith – هو ‘تاريخ ‘إنجاز وخلاص’ من منظور الاقتصاد الاشتراكى"، أما العقيدة الشيوعية فتبدو وكأنها "مستقاة من فكرة الخلاص اليهوديّ/ المسيحي". [76]

ولقد صرح المجدّدون من مُنظّري الماركسية باعتقادهم بأن معظم الناس غير قادرين على تبيّن ما هو حقيقيّ وصالح من تلقاء أنفسهم، وأن الظروف المعيشية التي خلقتها الرأسمالية أخيراً قد أفسدت الناس وأعجزتهم بدرجة لم يعد بمقدورهم فيها معرفة ما ينفعهم وما يضرهم. أي أن من رأي هؤلاء المنظّرين الجدد أن الجماهير التي تعيش بغير حول وقوة في ظلام روحيّ محتاجة الى أن تسوسها الصفوة الطليعية – أي يلزمها كهنوت عَلَمانيّ سياسيّ – "لكي تنتقل من الوعي الزائف الى الوعي الصادق ومن مصلحتها الوقتية الى مصلحتها الحقيقية".[77] فإذا ما تفحصنا هذا الرأي وجدناه لا يخرج عن كونه صيغة علمانية للاعتقاد المسيحيّ بوجود "حالة من الخطيئة تتبلد فيها قوى الإدراك وتضعف الإرادة، والاعتقاد في الاحتياج الى الافتداء، وفي وساطة الخلاص على أيدي كهنة التعليم

---

[74]. المرجع السابق ص 43

[75]. المرجع السابق ص 44 – وراجع أيضا بهذا الصدد الكتاب المقدس ـ الرسالة الى العبرانيين ـ الإصحاح الحادي عشر الآية الأولى.

[76]. كارل لويث – مرجع سابق ص 44 وما بعدها

[77]. هربرت ماركيوز Herbert Marcuse في كتابه ‘الإنسان أحادي البُعد *One-Dimensional Man*’ الصفحة الثالثة عشرة من مقدمة الكتاب.

الحق".[78] وقد خلص المفكّر تالمون Talmon من هذا التشابه إلى "أن الجاذب المميز للخلاص السياسيّ... يكمن ... في أن يكون ديناً".[79]

ويعكف هذا الدين الاشتراكيّ الجديد المتسربل في إزار من العلم على استئصال شأفة الأديان السماوية القديمة التي تنافسه في تقديم عروض الخلاص، وانقلب الوعد بخلاص يتم في حياة لم تأتنا بعد الى وعد ذي أهمية ومغزى في الحياة التي نحن فيها، أي الوعد "بنظام اجتماعي يسوده الوفاق والإنصاف ويأتي بالمساواة وتحقيق الذات. بمعنى أن هذه الاشتراكية السماوية قد أخذت مكانة الوعد المسيحيّ بالخلاص في الحياة الأخرى."[80] وبينما تعِد المسيحية بتخليص الناس في العالم الآخر من ذنب الخطيئة وتحريرهم من عناء عيش الحياة الدنيا ومتاعبها، يعِدنا ‘الدين الاشتراكيّ’ بحالة اجتماعية تأتي في نهاية المطاف يذهب فيها – بغير رجعة – الخوف والألم والعنف ولطمات القدر القاسية والقهر وسوء المعاملة، والفاقة والمرض والطغيان... (ولكي ينجح واضعو هذه النظرية في اجتذاب الناس فقد تعمّدوا الإخفاء المُمنهَج لحقيقة أن الموت أمر لا مهرب منه).[81] أما المبادئ المنادية ‘بالسموّ في الحياة الأخرى’ و ‘خلاص الروح’، فقد قُلِبت الى ‘السموّ في الحياة الدنيا’ – أي بلوغ كل من الفرد والمجتمع مرحلة الكمال في المستقبل المنظور.[82] أما كلمة ‘الخلاص’ فإنها قد استُبدِلت عند الاشتراكيين بكلمة ‘الثورة’ بوصفها نسخة علمانية من ‘يوم الدينونة’ – يوم فيه يخلص الإنسان إلى الأبد.[83]

ويستطرد تالمون في وصفه لدين الخلاص الاشتراكيّ هذا بقوله "إنه خليط معقد من الأفكار، والتسليم الغيبى، والإرادة، والشغف، والعاطفة،

---

[78]. ولفجانج برتسنكا Wolfgang Brezinka في كتابه ‘التعليم والثورة الثقافية *Erziehung und Kulturrevolution*’ ص 117.

[79]. كتاب ‘جذور الديمقراطية الشمولية *The Origins of Totalitarian Democracy*’ ص 254.

[80]. هيلموت شيلسكي في كتابه ‘آخرون يقومون بالعمل *Die Arbeit tun die anderen*’

[81]. المرجع السابق ص102

[82]. المرجع السابق ص 220

[83]. المرجع السابق ص 183

والأمل في الخلاص، والخطأ".[84] وهذه المكونات بعينها هي التي تجعل منه دينًا جذّابًا، ذلك لأن مجرد تقديم الحقائق والبراهين العلمية – كما يثبت لويث بشكل دامغ[85] - لا يحرك شعرة حماس واحدة في رأس الجماهير. فالخاصية الجوهرية في هذا الخلاص السياسيّ الذي أمسك بناصية التاريخ طوال قرن ونصف مضى هو "الاعتقاد بوجود مسئول واحد أخير عن كافة الشرور السائدة في جميع أنحاء العالم – مسئول يملك في الوقت نفسه زمام حلّها الوحيد، والإيمان بأن السرّ قد عُرف في النهاية، وأن الإنسانية تمضي الآن في زحف كاسح لا يقاوم نحو حلٍّ لهذه العقدة، وإلى انفراج عنيف يقودها الى ترتيب قَدَريّ متقن وحاسم لكافة أوضاع الحياة".[86]

ولقد قدّم لنا شيلسكي Schelsky وصفًا شاملاً لدين الخلاص الاشتراكيّ الجديد هذا، وهو دين وجد لنفسه أيضًا موطئ قدم في الدول الغربية الصناعية (إلى جانب تولّيه مقاليد دول شرق أوروبا والصين وغيرها من الدول الشيوعية [حتى بداية العقد الأخير من القرن العشرين])، وتغلغل في الكثير من المؤسسات المعاصرة مشيعًا فيها الفوضى. وقدم شيلسكي تفنيدًا قاسيًا لتطلعات هذا الدين الجديد نحو السلطة وتحليلاً صريحًا لآليات نفوذه الأخطبوطي، وهو تحليل يبيّن بجلاء كيف يحاول هذا المذهب إشباع ظمأ الإنسان المعاصر الذي فقد الصلة بالغيب عن طريق إعادة صياغة التعاليم المسيحية بأسلوب آخر والوعد بفردوس اشتراكي "بالتخلّص بشكل مُرضٍ من جميع أعباء الحياة"[87] تحت شعارات مثل ‘التحرّر من الاستعباد’، و ‘الثورة’. كما يقول إن الغرض من الحياة الذي كان الدين يعطيه للإنسان في السابق قد استبدل بتفسير إجتماعيّ للوجود. فالإنسان الذي يعتبر نفسه الآن مجرد ‘كائن إجتماعى’ ولم يعد يرى نفسه كائنًا من صنع الله لايهتم إلاّ بخلاصه الإجتماعيّ، فمسألة الروح البشرية وخلاصها لم تعد تعنيه في شيء، فروح "المادية غير المقيدة، والعمل، والتجارة، والصناعة، والتملّك" التي تفشّت في عصرنا الحديث لا تكترث بفكرة خلاص يأتينا في عالم آخر، وتَنفُر من كل شكل من أشكال الإنضباط

---

84. كتاب ‘جذور الديمقراطية الشمولية *The Origins of Totalitarian Democracy*’ ص 168-169

85. كتاب كارل لويث ‘معنى التاريخ *Meaning in History*’ ص 44-45

86. كتاب ‘جذور الديمقراطية الشمولية *The Origins of Totalitarian Democracy*’ ص 170

87. هيلموت شيلسكي في كتابه ‘آخرون يقومون بالعمل *Die Arbeit tun die anderen*’ ص 193

الروحي. ذلك لأنه وفقا لمنظور العلمانية الجديدة يجد كل من الفرد والمجتمع قاعدته ومحوره وهدفه ومعناه بداخله؛ أما الصلة بالحقيقة الغيبية فلا وجود لها.[88]

ولقد ترتب على هذا الاستغناء عن الإعتقاد في خلاص شخصيّ أخرويّ واستبداله ببرنامج يضمن السعادة في الحياة الدنيا – تغييرات واسعة النطاق في هيكل الدولة المعاصرة. فصارت الدولة "هي منظّمة الطاقة العقائدية العلمانية"[89] وراعية التقدم، وضامنة السعادة الشخصية، بل "أصبح لزامًا عليها – بوصفها المقابل الدنيويّ للكنيسة – أن تفي بالمطالب الإجتماعية وتلبي الرغبات العاطفية الجياشة وتهيّئ للشعب ظروف تحقيق السعادة. وهو وضع يؤدي الى شدّ الأوتار في احتداد دائم من جراء افتراض أن كل شيء يبدو ممكنًا، لا في مضمار العلم والتكنولوجيا فحسب، وإنما في دائرة المجتمع والسياسة أيضًا".[90] وبهذا التبسيط والإختزال لدور الدولة، بجعلها مجرد جهاز فنّيّ لتقديم الخدمات، تصبح الدولة عرضة للأزمات أكثر من ذي قبل. إذ ينظر إلى كل هفوة وكل أمل خائب وكل إعاقة للرفاهية العامة على أنها كارثة لا دواء لها.[91] وهنا يتبيّن لنا كيف أن انهيار الدين يؤدّي في نفس الوقت إلى "ازدياد زعزعة الأنظمة السياسية"، وكيف يؤول الحال بالدولة "بوصفها حامل القيم الروحية وبديلها" فتصبح "هيكلاً متوترًا". [92] ويكمن استعصاء حكم شعوب الدول الصناعية الغربية – وهو مثار لشكوى الحكومات في معظم الحالات – في هذه الحقيقة نفسها.

---

[88]. ألفونس أوير Alfons Auer في كتابه ‹المثالية التي تحكم نفسها بنفسها والعقيدة المسيحية *Autonome Moral und christlicher Glaube*› ص 21

[89]. راينير شميدت Reiner Schmidt في كتابه ‹الدولة المتحدة *Der geforderte Staat*› ص 161

[90]. المرجع السابق ص 162

[91]. المرجع السابق ص 161

[92]. المرجع السابق ص 161، كما يقول بهاء الله في ‹لوح الدنيا› "إنهم (أي البشر) لو يتمسكون بالصحيفة الحمراء (أي التنزيل الإلهي) ليجدنّ أنفسهم في غني عن قوانين العالم" (كتاب [مجموعة من ألواح حضرة بهاء الله النازلة بعد الكتاب الأقدس]– ص 107)

أزمة المسيحية في الغرب

ترجع شدة الأزمة الدينية في الغرب وحِدّتها إلى المحنة التي حاقت بالفكر المسيحيّ. ويصاحب فقدان الأرضية الظاهر، الذي يعاني منه الدين في الغرب، فقدان شيء آخر مستتر – وهو فقدان هوية العقيدة. فلقد تطرّق الشكّ الى الضّمائر وتزعزعت الحقائق واليقينيّات الموروثة. وما كان يعد عبر القرون ثابتًا ومتينًا بات محل شك وامتحان.[93] حتى الأعمدة الأساسية للإنجيل والفكر الدينيّ مثل 'الله' و 'المسيح' و 'الكنيسة' و 'التعليم'، فقد وضعت هي الأخرى على طاولة التشريح والبحث من قِبل العامة وعلماء اللاهوت على حد سواء.[94]

وكما أوضحنا في مؤلَّف آخر لنا[95]، فقد انقسمت المسيحية نفسها – منذ ما يسمّى بعصر الإصلاح – الى عدد متزايد من المدارس الفكرية ينفصل كل منها عن الآخر ويستقل بذاته، محدثًا بذلك التعددية اللاهوتية التي نراها اليوم ولا يبقى فيما بينها قاسم مشترك واحد، حتى في الأمور العقائدية الأساسية. ويرى هيرمان دييم Hermann Diem – أستاذ اللاهوت بجامعة توبينجين Túbengen الألمانية – أنه لم يعد بين أساتذة اللاهوت البروتستانتيّ الجامعيين "أية أرضية مشتركة تُذكر يستطيع فيها المتنافسون أن يتوصلوا الى أيّ قدر من التفاهم"[96] ويشتد أوار الجدل داخل المذهب البروتستانتيّ بدرجة يتحدث معها المرء عما إذا كانت هذه هي "نهاية الفكر اللاهوتي المسيحى"[97] وتنخر هذه الأزمة في هيكل بنيان كافة المذاهب الدينية التقليدية التي أفرزها الفكر الغربيّ دونما استثناء واحد،[98] إلاّ أن وطأة هذا الانشقاق كانت أشد على البروتستانتية أكثر من غيرها. وفي

---

[93] ...ماكس سيكلَر: Max Seckler في كتابه 'هل يمكننا الاستمرار من دون الله؟ *Kommt der christliche Glaube ohne Gott aus?*' ص 185

[94]. عبارة قالها بول تيتليش Paul Tillich وردت في كتاب هاينز زارنت H. Zahrnt 'المسألة الإلهية *The Question of God*' ص 299

[95]. أودو شيفر Udo Schaefer في كتابه 'النور يلمع في الظلام *The Light Shineth in Darkness*' ص 88 وما بعدها، والمرجع السابق ص 79 الفقرة رقم 224

[96]. من كتابه 'العقائديات *Dogmatics*' – مقدمة المؤلف

[97]. جيرهارد بتري Gerhard Petry في كتابه 'هل هذه هي نهاية اللاهوت؟ *Das Ende der Theologie?*' ص 17

[98]. بيتر بيرجر، إشاعة ملائكية ص 1

الوقت الذي صدر فيه مؤلَّف شلايارماخر Schleiermacher الشهير عام 1799 وعنوانه ‘مقالات في الدين لمن يحتقرونه من المثقفين’ بدأت سلسلة من التوفيق والتنازلات من أجل عدد يتزايد يومًا بعد يوم من ‘المثقفين محتقري الدين’ – أي من المتحررين فكريًا والعلماء الطبيعيين وذوي المدارس الفكرية المتباينة. كما حدث أيضًا – في خضمّ هذه التنازلات – إبعاد للأنظار عن فكرة الحياة بعد الموت، وتولّى الفكر المسيحيّ المتحرر، الذي أخذ زمام المسيحية من بداية القرن التاسع عشر حتى نشوب الحرب العالمية الأولى – تولى وحده مهمة استئصال الغيبيات من الرسالة المسيحية. وصحيح أن كارل بارث Karl Barth كاهن المذهب الأرثودوكسي الحديث *Neo-Orhodoxy* قد نادى بعد ذلك بالعودة الى الإيمان التسليميّ الذي تميّز به عصر الإصلاح المسيحيّ (البروتستانتيّ)، وهو الإيمان القائم أساسًا على الكلمة المنزلة وليس على العقل والتجربة، غير أن نداءه هذا لم يكن سوى استراحة قصيرة بين شوطين – استراحة لم توقِف تغلغل العلمانية في عقر دار الكهنوت المسيحيّ نفسه. بل إن كلاً من بول تيليتش Paul Tillich ورودلف بلتمان Rudolf Bultmann – اللذين يعتبران مع كارل بارث، نصير الإيمان التسليميّ هذا، قمم اللاهوت البروتستانتيّ الثلاث في القرن العشرين - قد احتفظا بالمسار الليبيراليّ واعتبرا أن المهمة الرئيسية للاهوت المسيحيّ، إذا أريد منه جعل الرسالة المسيحية مقبولة عند الإنسان المعاصر هي ما أسموه ‘بإيجاد الترابط *correlation*’ – أي التوفيق والتواصل فيما بين المسيحية والفلسفة.

وفي الحقيقة فإن المجهود الجبار الذي بذل في تطويع الرسالة المسيحية كي توافق روح العصر، والذي سعى الى التأليف بين العقيدة الدينية من جهة، وعصر يناصبها العداء من جهة أخرى، يعدّ مجهودا تولّد عن إدراك صحيح بأن المسيحية - بهيكلها العقائديّ والقانونيّ الذي تطرقت اليه يد التبديل والتغيير عبر عشرين قرن من الزمان – لم تعد قوّة حيّة نبّاضة مثلما كانت أيام ظهورها. صحيح أن الدين بوصفه تجسيد للكلمة الإلهية هو في جوهره جسم نابض وليس كيانًا جامدًا، وبذلك يكون تكيّفه مع الظروف المتغيرة أمرًا لائقًا وضروريًا. ألاّ أن مثل هذا التطبيع والتطويع يصبح أمرًا خطيرًا عندما نباشره بغير هوادة لاستعادة أرض مفقودة، أو نلجأ اليه للنجاة "من معسكر اعتقال العقيدة الدينية بالقفز على آخر قطار يغادرها" – على حد قول فريدريك تنبروك Friedrich Tenbruck (الذي يشبّه الذين يتمسكون بالعقيدة الدينية في الغرب بمن وقعوا ضحية الاعتقال

في معسكرات الإبادة النازية).[99] كما أنه إذا أدمجت الاتجاهات الفكرية المتقلّبة المتضاربة التي ما تفتأ تظهر على الساحة في صلب الدين بوصفها حقائق ملزمة، فإن خطر فقدان الدين لهويّته يكون على أشدِّه، ثم يتحول الدين شيئًا فشيئًا الى معادلة رياضيّة مفتوحة النهاية لا تخلص منها الى شيء محدد. ويحدثنا بيتر بيرجر Peter Berger عما أسماه 'التهافت الشغوف' من جانب اللاهوت البروتستانتيّ على روح العصر، ويصف نتيجته بأنها "تآكل جوهريّ في المضامين الدينية التقليدية يصل في الحالات الصارخة منه الى النقطة التي لا يبقى معها سوى العبارات الطنّانة الجوفاء". ثم يستطرد بيتر بيرجر قائلاً: "ويبدو أن الحالات الاستثنائية الصارخة قد أصبحت هي القاعدة في هذه الأيام[100]... فكما لو كان المؤمن، أو رجل الكهنوت المسيحيّ، واقفًا اليوم وسط ركام من الدمار يتصاعد منه الدخان".[101]

ظهور اللاهوت السياسيّ

تتضح فداحة كل من المدى الذي تهادنت فيه الكنيسة (في الغرب) مع العالم (العَلَمانيّ) والدرجة التي تشبث بها علماء لاهوتها "بِذَيْل رداء التقدم" [102]حاملين بذلك عقائدها الى مثواها الأخير - تتضح من ظهور ما يمكن أن نسميه 'اللاهوت السياسي' أو 'لاهوت الثورة' أو 'لاهوت التحرير' - بل قُلْ 'لاهوت موت الله' الذي ينتشر الآن على وجه الخصوص في الدول الناطقة بالألمانية (ألمانيا والنمسا وشمال سويسرا) والدول الأنجلوسكسونية (هولندا وانجلترا وبلجيكا).

فلقد اعتبرت المسيحية (في أوروبا) طوال قرون عدّة – وعلى الأخص مذاهبها البروتستنتية – أنها 'الصراط المستقيم' الى الله. وكان لُبّ

---

[99]. فريدريش تنبروك Friedrich Tenbruck في كتابه 'روح الجماعة والدين في مجتمع المستقبل *Ethos und Religion in einer zukünftigen Gesellschaf*' ص 42

[100]. بيتر بيرجر، إشاعة ملائكية ص 12

[101]. المرجع السابق ص 11

[102]. نيكولاوس لوبكويتز Nikolaus Lobkowicz من كتابه 'هل هذه هي نهاية الدين؟ *Am Ende aller Religion?*' فصل 'حمار يمشي على الثلج ومسيحي يقلّده Vom Esel der aufs Eis ging und dem Christen der es ihm nachmacht' ص 15

تعاليم الكنيسة هو النفس التوّاقة الى الرحمة الساعية الى التحرر من ذنب الخطيئة. وكانت المسيحية دين اهتمام حميم خاص وشخصيّ – دينًا يحصر همّهُ في علاقة الفرد بالله.[103] ولم يكن للمسيحية أيّ مقاصد تذكر فيما يتعلق بالمجتمع. وإزاء هذا الخلاص الفرديّ الذي تميزت به المسيحية وإغماض عينها الملحوظ عن الحقائق الإجتماعية ومطالب المجتمع الإنسانيّ، خرج كارك ماركس بمقالته النقدية في الدين، وخاصة ما جاء فيها من أن الدين قد حصر الفرد في ركن من السلبية والاستكانة، وخدّر الناس بوعود حياة أخروية أفضل، فتسببّ الدين بذلك في شلّ عزيمة الفرد على أن يمسك بزمام أمره بيديه، ولذلك صار الدين أفيون الشعوب. ومع أن رأي كارك ماركس هذا كان قابلاً للفهم والادراك، إلاّ أنه كان حكمًا خاطئًا ومُضَلِّلاً – ذلك لأنه رسم استنتاج فعلٍ وفاعل – أو ما يقال عنه باللاتينية *a priori* – عن طبيعة الدين ككلّ، استنتاج بناه على أحداث معينة وقعت للمسيحية في الغرب.

ثم تلى ذلك حدوث تبديل وتعديل في الفكر المسيحيّ - البروتستانتيّ منه والكاثوليكيّ على حد سواء – خلال العقود الأخيرة (أي التي سبقت الربع الأخير من القرن العشرين) تحت تأثير المبادئ الماركسية، تمّ بمقتضاه إعادة اكتشاف ‘المستقبل’ بوصفه عنصرًا حاسمًا في العقيدة المسيحية، والنظر الى المسار الأفقيّ للحياة بعين الاعتبار. فعلى النقيض من مارتن لوثر (رائد الإصلاح البروتستانتى) الذي كان يرى بوجود مملكتين منفصلتين، توَصّل عالم اللاهوت البروتستانتيّ يورجين مولتمان Júrgen Moltmann، وذلك باستقراء منه لملامح الحياة الأخرى (كالثواب والعقاب وغيرها) كما جاءت على لسان المسيح – توصّل الى نظرية جديدة في اللاهوت تأخذ الأبعاد الدنيوية السياسية في الاعتبار. وهذه هي إحدى عباراته التي يجد فيها القارئ صدىً لما قاله كارل ماركس:

"إن محور اهتمام عالِم اللاهوت لا يقتصر على مجرد إعطاء تفسير مختلف لثلاثية الدنيا، والتاريخ، والطبيعة البشرية، بل في إحداث التحول في هذه الثلاثيّة، بانتظار حدوث التحويل الإلهي".[104]

---

[103]. هناك المزيد من الشرح لهذه النقطة في بداية الفصل الثامن من كتابنا هذا

[104]. كتاب ‘لاهوت الأمل *Theology of Hope*’ وللمزيد راجع أيضا مولتمان Moltmann في مقالة له بعنوان ‘المستقبل كواحد من تعاليم الغيب Die Zukunft als neues Paradigma der Transzendenz’ نشرت في مجموعة الحوار الدولي*Internationaler Dialog* المجلد الثاني إصدار عام 1969 ص 2 وما بعدها.

أما عن ‘اللاهوت السياسى’ الذي ابتكره وأطلق عليه هذا الاسم عالم اللاهوت الكاثوليكيّ جوهان بابتيست ميتس Johann Baptist Metz - مستعينا بالأساليب الحديثة لعلم التغيير الإجتماعيّ – فقد حاول فيه أن يستقرئ المحتوى السياسيّ الإجتماعيّ للنص الإنجيليّ، وسعى أيضًا – كما يقول – الى "صياغة الأخرويات في الرسالة المسيحية في ضوء الأوضاع الإجتماعية السائدة في يومنا هذا".[105] ويرى عالم اللاهوت هذا أيضًا أن ترك العالم تحت رحمة القوى العلمانية يتعارض تمامًا مع جوهر الإيمان، ويرغب ميتز هذا في أن يولي المسيحيون قدرًا أكبر من الاهتمام بواجباتهم تجاه الأمور الدنيويّة. إلاّ أن هانز ماير Maier Hans – في تفنيد منه لفكرة اللاهوت السياسيّ– يعترض على ميتز بقوله إن هذا يعني "اعتناق المفاهيم الماركسية السائدة دون أدنى تمحيص"، كما أن الاتجاه الذي يرى أنه يرقى إلى حدّ "إعطاء كارل ماركس لقب أرسطو اللاهوت" سيجعل من ماركس صنمًا يركع الجميع أمامه.[106] غير أن دعاة ‘اللاهوت السياسى’ أنفسهم لا ينكرون في الحقيقة وجاهة هذا الاتهام. فعلى الرغم مما في النصوص المقدّسة من تحذيرات بأنه "لا يقدر أحد أن يخدم سيّدين"[107] يتساءل أحدهم – وهو إ. هوفْلِخْ E. Hóflich – بكل صراحة عما إذا يتعيّن على ما أسماه ‘بالأفكار الفلسفية’ لكارك ماركس ألا تُستخدم كمادة نقاش للحوار بين المسيحية والماركسية فحسب وإنما "كعقار يستخدم في علاج ما أصاب الكنيسة من أمراض وإعادتها لشبابها أيضًا، وبذلك يأمل هوفلخ في "استعادة حيويّة كل من تعاليم الكنيسة ووظائفها الإجتماعية".[108]

وهذا الفكر الدينيّ السياسيّ هو موضع خلاف شديد داخل الأوساط الكنسية، فبينما يصِمُه المحافظون من المسيحيين على أنه ‘تخريب لكرم الله’ فإن اللاهوت السياسيّ يوشك على "وضع الثورة التاريخية (التي أحدثتها أفكار كارل ماركس) على قدم المساواة مع التعاليم المسيحية في

---

[105]. مجموعة ‘لاهوت العالم *Theology of the World*’ ص 107، 111

[106]. كتاب ‘دراسة نقدية في اللاهوت السياسي*Kritik der politischen Theologie*’ ص 34، 53

[107]. إنجيل متى الإصحاح السادس: آية 24؛ رسالة بولس الرسول الثانية الى أهل كورينثوس الإصحاح السادس: آية 14-16

[108]. ج. ب. ميتز و إ. هوفليخ E. Höflich&J. B. Metz في كتابهما ‘كارل ماركس نصير الكنيسة: الرد على هجوم هانز ماير على اللآهوت السياسي *Karl Marx für die Kirche. Eine Antwort auf Hans Maiers Polemik gegen die politische Theologie*’ ص 777 وما بعدها، ص 785.

الغيبيات".[109] ولكن هذا المنحى المعتدل – على ما فيه من شطط – أهون بكثير مما حدث على يد ما يسمى بـ 'لاهوت الثورة' أو 'لاهوت التحرير'[110] الّذي ظهر إلي الوجود احتجاجًا على الخلفية الإجتماعية لنُظم الحكم الإقطاعيّ في دول أمريكا اللاتينية وما قامت عليه من استغلال وقمع. فالطريقة الوحشية التي تداس بها الحرية وتهان حقوق الإنسان وكرامته في عديد من تلك الدول أدّت إلى ظهور اعتقاد جديد بعيد تمامًا عن اللاهوت التقليديّ – وهو الاعتقاد بأن الافتداء يجب ألا يُنشد في غفران الخطايا في المقام الأول، وإنما في إحداث تغيير جوهريّ في العالم الذي نحيا فيه. فطبقًا لهذا الإعتقاد لم يعد الخلاص غاية أخروية وإنما صار هدفًا سياسيًا واجب التنفيذ في التوّ واللّحظة. أما أداة التنظير في 'لاهوت الثورة' فهي نفسها أداة التحليل الإجتماعيّ عند الماركسية، كما أن أسلوبه هو إيضًا الاستئصال الجذريّ لنظام امتلاك الثروة القائم، وغايته هي خلق ما يسمى 'بالإنسان الجديد' ومجتمع جديد يخلو من الطبقيّة. وحرب الطبقات من منظور 'لاهوت الثورة' هذا هو 'قالب المحبة الحقيقي' الذي سيُفتدَى به الجنس البشريّ كلّه، والثورة هي السبيل الأوحد لتغيير المجتمع إلى ما هو أفضل. فمن مفهوم هذا اللاهوت إذاً أن على المسيحيّ أن ينخرط في المعترك السياسيّ. ويصبح الافتداء من الآن فصاعدًا شيئًا مختلفًا في جوهره تمامًا: فكل من يسعى لتغيير العالم أو يحارب ضد الفقر والاستغلال إنما يقوم بواجبه نحو عملية الافتداء. وهذه فكرة يعلّق عليها عالم اللاهوت الأمريكيّ شول Shaull بقوله "اتّخذ الله هيكلاً بشريّاً خلال مسيرة تاريخ الإنسانية

---

[109]. الحُبّ عند ميتز هو "قوة فاعلة ضرورية في المجتمع قد تُملي في ظروف معينة "تصرّفات عنف ثوري"، كما هو مذكور في كتابه 'لاهوت العالم *Theology of the World*' ص 119 – 120،

[110]. للمزيد راجع (1) تروتس ريندورف وهـ إ تودت H. E. &Trutz R. Rendtorff Tödt في كتابهما 'لاهوت الثورة *Theologie der Revolution*' (2) هـ إ بار H. E. Bahr في الكتاب الذي أصدره بعنوان 'السلام العالمي والثورة: تسع تحليلات سياسية لاهوتية *Weltfrieden und Revolution. Neun politisch-theologische Analysen*'، هامبورج 1968. (3) إ. فايلE. Feil و ر. فيت R. Weht في كتابهما 'مناقشة لما يسمّى بلاهوت الثورة *Diskussion zur Theologie der Revolution*'' طبع مدينتي ميونيخ ومانيز عام 1969. (4) ر. شاولR. Shaull و ش. أوجلسبيC. Oglesby في كتابهما 'الاحتواء والتغيير*Containment and Change*'. (5) نوربرت جرايناخر Norbert Greinacher في كتابه 'كنيسة الفقراء ولاهوت التحرير *Die Kirche der Armen. Zur Theologie der Befreiung*' طبع مدينتي ميونخ وزيوريخ عام 1980

ودعانا الى أن نتبعه إذا شئنا أن نكون ملْح الأرض (كما جاء في إنجيل متى 5: 13-14) فمن نفس هذا المنظور فإن المسيحيّ مدعوّ لأن يشارك في الثورة عند اندلاعها. ومالم نضع أنفسنا في قلب هذه الثورة فلن يكون بوسعنا أن نرى التدبير الإلهيّ أو نفهم القالب الذي يتخذه الكفاح من أجل كرامة الإنسان وحقوقه وحريته، كما أننا لن نكون عاملاً مساعدًا في عملية تكفير الطغاة عن ذنوبهم.[111] والكثير من المفكّرين المسيحيين في الغرب هم الآن على قناعة بأنه إذا جاء المسيح مرة أخرى فسيأتي حاملاً بندقية.

صحيح إن على عاتق الدين مسؤولية حيال هذا العالم، والمكان الذي نحيا فيه، وهيكلية المجتمع. بيْد أن اكتشاف علماء لاهوت المسيحية وكهنوتها أن هذه المسئولية قد أُهملت إهمالاً مخزيًا لقرون طويلة، وكذلك إدراكهم أن للدين بُعدين: أولهما أفقيّ (أي يتعلق بالعالم الذي نحيا فيه واستمرار الحياة البشرية على هذا الكوكب) والبعد الثاني رأسيّ (أي يختص بحياة الفرد بعد الموت في العالم الآخر)، قد جرّهم الى منزلق قبول أهداف الماركسية ومبادئها (وإدخالها في لُحمة التعاليم المسيحية وسُداها)، وإلى الهبوط بالرسالة الإنجيلية من جراء ذلك الى المستوى الذي تصير فيه مجرد تعليم سياسى. فها هي نفس الديانة التي عكفت طوال قرون طويلة على العناية بالخلاص الشخصيّ الروحيّ قد أصبحت تنكبّ على شؤون التوّ واللحظة وتحصر اهتمامها في الأمور العلمانية البحتة. أي أننا حيال دين قد صار أداة من أدوات السياسة. ويهدّد هذا المصير بقلب مسار الدين الى النقيض الآخر: ذلك لأن فكرة الحياة الأخرى قد استُبدلت تمامًا بمفهوم الحياة الدنيا ومستقبل العيش فيها، وبلغ التركيز على ما يسميه إرنست بلوخ Ernst Bloch 'الرُّقيّ للأمام' – أي الترقي الماديّ – جعلنا نغفل تمامًا عن 'الرقيّ الى أعلى' – أي السموّ الأخلاقي والترقي الرّوحيّ. وأصبح اللاهوت أيضًا مجرد فرع من فروع علم تطور الأجناس البشرية ونظرية اجتماعية. أما يسوع الناصريّ فأصبح ثوريًا اجتماعيا مناوئًا للنظام، وباتت رسالته إنجيلاً اجتماعيا ينظم الحياة الدنيا فقط، وها هي قصة خروج موسى بشعبه من مصر وقد صارت تؤخذ على أنها نموذج تاريخيّ قديم من التحرير الشعبى.

---

111. مقالة بعنوان 'الثورة من منظور لاهوتي *Revolution in theologischer Perspektive*' نشرت في كتاب من إصدار رندتورفRendtorff وتيدت Tödt، مرجع سبق ذكره، ص 117 وما بعدها.

ولا تفوتنا ظاهرة أن ماركس وفرويد قد رفعهما الناس الآن الى مصاف القديسين.[112]

لقد تحوّلت بشارة الملكوت الى رسالة اجتماعية، وانقلب لاهوت الافتداء – على أيدي مفكري اللاهوت المسيحيّ ممن ناصروا في تحمّس شديد تعاليم الخلاص الإجتماعيّ (المادّي) في مهدها الأوّل – تحوّلت إلى نظرية في الخلاص الإجتماعيّ تنسحب على التوّ واللحظة. أو كما يشرح لنا شيلسكي Schelsky فإن المدى الذي بلغه اعتناق الكهنوت المسيحيّ لفلسفة التحرير وفكر النقد الإجتماعيّ يتجلّى في حقيقة أنه سواء نظرنا الى الكاثوليكية أو الى البروتستانتية لوجدنا، كما يقول، أن "اللاهوت (الدنيوى) الجديد قد استعار واستوعب كل الحجج والبراهين التي يسوقها علم الاجتماع الثوريّ - الذي أصبح هو الآخر ينادي بالخلاص والعقيدة، لكن من المنظور الماديّ الدنيويّ – بدرجة جعلت هذا اللاهوت يعجّ باصطلاحات وعبارات مثل ‘التحرير’ و ‘النضج’ و‘التلاعب’ و‘الإرهاب’ و‘العنف الطبقيّ’ و ‘الاستغلال’ و‘القهر’ و ‘الإحباط’، ولا يردد الكهنوت المسيحيّ شيئًا غير النقد، ولا شيء سواه."[113]

ولهذا التبنّي للنظريات العلمانية وإدخالها قسرًا الى صُلب التعاليم المسيحية، ولهذا الخلط القسريّ للعناصر المتنافرة آثاره الملموسة المباشرة على التصرفات والأفعال: فقد تلاشت المواعظ التي تحذر المؤمنين من نار جهنم وتلفت أنظارهم الى مغبّة المعاصي الفردية وحلّت محلها خُطب التنديد بالمجتمع لفضح بُؤَر المعاصي الإجتماعية والسياسية[114]، وانقلب رجال الكهنوت الذين كانوا عادة ما يتعهدون النفوس بالرعاية الى وعّاظ ومهندسين اجتماعيين. أما ما يحدث الآن من تخلٍّ للناس عن ميراث فكر دينيّ تم تطويره وإرساء قواعده عبر قرون عديدة وتفريطها فيه دون أن تعبأ بمغبة العاقبة وتبنّيها لمبادئ تعليم إلحاديّ ماديّ فهو أمر لا يجعل من الصعب أن نتذكر تلك العبارة التهكّمية التي قالها قائل: "مِن أَلْسِنَتِهِم الطويلة وصياحهم المزعج تعرفونهم إذ يقولون ‘ونحن أيضًا! ونحن أيضًا!’".

---

[112]. فيما يتعلق بالرأي المنادي بإعادة النظر الى بوذا ومحمد (ص) بوصفهما ثوريّان اجتماعيان، راجع بيتر جيرلتز Peter Gerlitz في كتابه ‘الأديان والأخلاقيات الجديدة *DieReligionen und die neue Moral*’ ص 135

[113]. كتابه ‘آخرون يقومون بالعمل*Die Arbeit tun die anderen*’ص 429.

[114]. وهو ما يحدث الآن على القنوات الفضائية الدينية في العالم الإسلاميّ أيضا [المترجم]

ولقد قام الكاردينال كونيج König، رئيس أساقفة فيينّا (بالنمسا)، بدراسة نقدية عن هذا المنحى[115]، يرى فيها "أن أيّة عقيدة عَريَّة تمامًا عن الغيبيات لا يمكنها أن تفي بحاجات الإنسان الأساسية في الدين". إلاّ أنه من الواضح أنه يعتبر أن هذا التطوّر يُعدّ اتجاها عصرياً في الكنسية أو حالة مؤقتة في 'بندول' يتأرجح تارة من الإيمان العاطفيّ الى الإعتقاد العقلانيّ وبالعكس. أما عالِم الاجتماع شيلسكي فله نظرة أكثر عمقًا إذ يقول: "إن بحر المسيحية لا يموج بين مدّ وجزر وإنما هو آخِذٌ في الانحسار تماما".[116]
ويرى فيما أسماه بـ 'الاقتباس الكبير *The Great Adoption*' من جانب الكنيسة لفلسفة الخلاص الإجتماعيّ ونظرية الحياة كما صاغها الفلاسفة (الماديون) – خطرًا لانحدار الكنيسة لتصبح مجرد 'نحلة' أو 'فرقة'، يقول إنها ستكون "فرقة دافعها مسيحيّ على وجه الخصوص وتمتلك مصطلحات مسيحية متعارف عليها منذ زمن طويل، ولكنها في الوقت نفسه ستظل فرقة تنتمي الى شكل دين إجتماعيّ إنسانيّ عام... وبذلك سيتمّ ابتلاعها في نهاية المطاف". [117]

المزيد من الشطط في الأوساط الكنسية الغربية

وبعد أن أعلن الفلاسفة الماديون عن موت الله، جاء دور مفكّري اللاهوت المسيحيّ ليقتفوا أثرهم. فمن رأي المفكّر الدينيّ هربرت براون Herbert Braun – على سبيل المثال – أن الله ليس سوى رمز للوصية القائلة 'أحبِبْ جارَك'، وأنه بينما تستهل رسالة يوحنّا اللاهوتي الأولى بعبارة 'الله محبّة' إلا أن هذه العبارة تكون صحيحة أيضًا عند هذا المفكّر إذا قيلت معكوسة - أي 'المحبة هي الله'. أو بتعبيره "إن الإنسان بوصفه إنسانًا، والإنسان بحُبِّه الأَخَويّ، هو الله"[118]، كما ترى الباحثة الدينيّة دوروثي سولّلي Dorothee Sólle هي الأخرى - في مقال لها بعنوان 'الإيمان بالله من منظور إلحاديّ Believing in God Atheistically' – ترى لونًا من

[115]. مقالة بعنوان 'من أجل ابتسامة من ماركس Für ein Lächeln von Marx' نشرت في جريدة *Deutsche Zeitung* عدد 30 أغسطس 1974.

[116]. كتابه 'آخرون يقومون بالعمل *Die Arbeit tun die anderen*' ص 423.

[117]. مرجع سبق ذكره لشيلسكي Schelsky ص 435

[118]. في كتابه 'دراسة مُجَمَّعة في العهد الجديد (الإنجيل) والمناخ الذي كتب فيه *Gesammelte Studien zum neuen Testament und seiner Umwelt*' ص 325.

الإعتقاد الدينيّ تتوقع فيه احتمالاً وصفته بقولها "ربما يتعين علينا فيه التخلي عن لفظ الجلالة"، وبأنه سيكون "أسلوبًا في الحياة لا يحتاج الى مفاهيم غير دُنيويّة لكينونة ربّانية". أما بول شولز Paul Schulz - وهو قسيس من هامبورج منعته الكنيسة أخيرًا من ممارسة الوعظ – فيرى أن 'الله' ما هو إلاّ "صورة رسمها الفكر البشريّ"، وأن الإنسان عندما يتحدث عن الله "فإنما يتحدّث عن نفسه هو".[119] وأن الله الذي هو تلك الكينونة السماوية التي تدبّر شئون الإنسان على كوكبنا لا وجود له – فالله بالنسبة له هو 'مبدأ المحبة'، ويرى أيضًا أن الله غير كائن وإنما هو حادث – ويشرح رأيه هذا قائلا: "حيثما يلتقي البشر سويًّا في محبة، يحدُث الله من جرّاء تلك المحبة". [120] كما أن الفرد المسيحيّ، في رأيه، لا يلزم أن يكون متديّنًا بالضرورة. ويرى أنه بينما كانت مهمة الدين في الماضي تقريب الحقيقة الغيبية الى فهم الإنسان بشرح تمثيليّ رمزيّ، فإن العلم يمدّنا هذه الأيام بالرسوم الهندسية والمعادلات التي تعيننا على فهم الحقيقة. ويعتقد أيضًا أنه في معرض تطوّر الوجدان البشريّ يصبح العلم، بماله من مختلف المعايير القياسية، وريثاً لكل من الدين واللاهوت. أي أن شولز يرى أن الكتاب المقدّس "ليس كلمة من عند الله، وإنما هو كلمة موجَّهة الى الله". [121] كما يعتقد أن الموت ليس إلاّ "ظاهرة طبيعية بحتة، فما يحدث عندما يموت الإنسان لا يختلف عما يحدث في التحلل المستمر لجميع الظواهر الطبيعية، فالحياة ظاهرة تسبق ظاهرة الموت".[122] وهو يرى أيضًا أن الإنسان "لا يتحلل عند الموت تحلّلا جسمانيًا فحسب وإنما يتحلل وجدانيًا كذلك". [123]

فها نحن نشاهد الآن نهاية العقيدة المسيحية القديمة – فجميع الطرق تؤدي الآن الى الحلول الماديّ *immanentism*. كما ينادي أيضًا توماس ألتيتسار Thomas Altizer – وهو من أبرز دعاة لاهوت موت الله في أمريكا – ينادي بالاعتراف صراحة بأن "موت الله هو حَدَثٌ تاريخيّ، وأن

---

[119]. قد يكون هذا المثل مأخوذا عن لودفيج فييورباخ Ludwig Feuerbach

[120]. في كتابه 'هل الله معادلة رياضية؟ *Ist Gott eine mathematische Formel*' ص 32.

[121]. المرجع السابق ص 143

[122]. المرجع السابق ص 236

[123]. المرجع السابق ص 233

الله قد مات من عالمنا الكونيّ وتاريخنا ووجودنا". [124] وفي تلخيص لما نراه الآن يقول عالِم الاجتماع الدينيّ بيرجر Berger: "إن تصفية المؤسسة اللاهوتية لنفسها بنفسها يتم بحماس هو أقرب منه الى الهَوَسْ، مما سيئول بهذه المؤسسة الى سخافات ما يسمى 'لاهوت موت الله' و 'الإلحاد المسيحيّ'". [125]

وماذا عن الكنيسة الكاثوليكية

أما عن الكنيسة الكاثوليكية فقد قاومت روح العصر ردحًا طويلاً من الزمن معارِضة إيّاها في اصرار وتحدٍّ، سواء في منشوراتها ووثائقها البابوية مثل المَنشور المسمّى 'خُلاصة الأخطاء *Syllabus of Errors*' الذي أصدره البابا بيوس التاسع Pius IX عام 1864، ومرسومه الآخر المسمّى '*الرثاء Lamentabili*' والمنشور الذي صدر في عام 1907 عن البابا بيوس العاشر Pius X المعنْوَن 'إطعام قطيع الرب *Pascendi*' ثم منشور عام 1950 للبابا بيوس الثاني عشر Pius XII المعروف بإسم 'الجنس البشري *Humani generis*'. وكانت الكنيسة حتى مؤتمر الفاتيكان الثاني قادرة على كبت تيار النزعات التحديثية المطالبة بتكيّف الكنيسة وتماشيها مع روح العصر. ولكن منذ ذلك المؤتمر فصاعدًا لم تعد صخرة الكنيسة الكاثوليكية نفسها قادرة على كبح جماح مدّ هذا التغيير المتزايد، ثم اشتعلت معركة المناداة بالتعدّدية (في الآراء والمنابر داخل الكنيسة) وبدأت عملية تصفية كل ما كان في السابق مقدسًا ومحصّنًا من هيكليّات. [126] فها هو بيرجر

---

[124]. الكاتبان توماس ألتيزر Thomas J. Altizer ووليام هاميلتون William Hamilton في كتابهما 'اللاهوت الأصولي وموت الله *Radical Theology and the Death of God*' ص 26

[125]. كتاب 'إشاعة ملائكية A Rumor of Angels' ص 14

[126]. كما يتضح ذلك أولاً: من حظر الوعظ الذي فرض على علماء اللاهوت (الكاثوليك) كونج Küng وهولباس Halbfas وهول Holl ودينتسلار Denzler وغيرهم، وثانيا: من الاحتجاج الذي صدر عن الأسقف المحافظ لوفيفر Lefebvre على الابتكارات التحديثية التي صدرت عن مجمع الفاتيكان الثاني the Second Vatican Council. باتت هذه المشاحنات تتزايد حدّة وعنفا يوما بعد يوم، وسَحْب العضوية التبشيرية (والتي يصطلح عليها في عرف الفاتيكان بالعبارة اللاتينية *missio canonica*) من هورستهيرمانHorst Hermann المحاضر في القانون الكنسي بجامعة Münster لنشره عملين دون إجازة الرّقابة الرّسولية وهما 'الزواج والقانون *Ehe und Recht*' عام 1972 و 'علاقة غير أخلاقية *Ein unmoralisches Verhältnis*' عام 1974، فضلاً عن وصفه للكنيسة بأنها 'جمعية من الذئاب' و

Berger يحدثنا عن تصريحات صدرت عن الأوساط الفكرية الكاثوليكية في الآونة الأخيرة (أي ثمانينيّات القرن العشرين) تتميّز، كما يقول، "بتحديث مخيف يكفي لأن يجعل أشدّ البروتستانتيين ‘أصولية’ يتوارى خجلاً".[127] بل إنه بات واضحًا في مؤتمر أساقفة فرنسا - الذي عقد عام 1975 بمدينة لوردز Lourdes – أن "القساوسة الشبان هذه الأيام لم يعودوا يعترضون على ما في الكنيسة من هيكل إداريّ ونظام كهنوتيّ هرميّ وطقوس تقليدية فحسب، وإنما امتد تبرّمهم الى التشكيك في العقيدة الدينية نفسها"[128] ويتجلى المدى الذي تزعزعت فيه العقيدة من أساسها في مقالة كتبها قسّ الدومينكان

‘نظام قائم على الظلم’ واتهامه لها بأنها ‘تفتقر الى الرّعاية الإنجيلية الصّالحة’ وأنها ‘فساد يختبئ تحت قشرة مسيحية لامعة’. وعلى النقيض الآخر - وكما ورد في كتاب ‘ثورة في الكنيسة *Revolution in der Kirche*’ تأليف لوفيفر وروم *Lefebvre und Rom* طبع برلين وميونيخ عام 1980 - فإن المفكر اللاهوتي رودلف كريمر بادوني Rudolf Krämer-Badoni يوجّه انتقادات جارحة لما أسماه ‘بالثرثرة الليبيرالية’ لمجمع الفاتيكان الثاني هذا، ويعتبر أن البابا يوحنا بولس السادس Pope John Paul VI رجل ‘متوسّط الذكاء والثقافة’ وينعته بأنه ليس سوى ‘خطيب رأس السنة’. وفي مقابلة صحفية مع مجلة دير شبيجل *Der Spiegel* (الألمانية الواسعة الانتشار) عبّر نوربرت جرايناخر Norbert Greinacher– عالم اللاهوت بجامعة توبنجن Tübingen– عن شكّه في أن يكون يسوع المسيح عضوًا في الكنيسة الكاثوليكية إذا كان حيّا يرزق في يومنا هذا. ومن جرّاء هذا الخطر الذي يحوق بالمنظّمة الكنسية على يد النقد الدائر بداخلها اعترف الكاردينال جوزيف هوفنر Joseph Höffner على مسمع الأساقفة الألمان في مؤتمر لهم عقد في مدينة فولدا Fulda عام 1982 – اعترف بأنه يدرك تمامًا أن كثيرًا من الكاثوليك هذه الأيام ينتمون للكنيسة بصفة غير كاملة، وعلّق قائلاً: "إن غياب الالتزام الكامل بالتعاليم العقائدية والأخلاقية سيُفضي في نهاية المطاف الى الانقسام". عن جريدة نهري الراين والنيكار الألمانية *Rhein-Neckar-Zeitung* عدد 29 سبتمبر 1982.

[127]. في مؤلّفه ‘إشاعة ملائكية’ ص 17 - وذلك مستشهدًا بقول عالم الدين الإجتماعي البريطاني ديفيد مارتن: "ولكن أثر ذلك مذهل على من لم يتعودوا إلاّ في الآونة الأخيرة على قبول أفكار واضحة ومحدّدة كالتي دعا لها مذهب توماس الأقويني Thomism (الذي ظهر في القرون الوسطى) أو على الرضوخ لسلطة حاسمة تمارس، وكما سيتجه الكاثوليك الذين ينبذون الأفكار التقليدية الى اعتناق الماركسية، فإن من يتبرّمون الآن من أفكار توماس الأقويني وعقائده سيرتمون أيضا في أحضان أشد الابتكارات الوجودية انحرافًا".

[128]. كلاوس آرنزبرجر Klaus Arnsperger في جريدة *Süddeutsche Zeitung* عدد 31 أكتوبر 1975.

Dominican آنسيلْم هيرتز Anselm Hertz[129]، يعلن فيها أن ما أسماه 'القالب الدينيّ العتيق في المسيحية' سيؤُول حتمًا الى الفناء. ويرى أنه لا يمكننا التوسل بالدعاء 'لإله يُخلِّصُنا' أو خالق يحكم عالمنا، ذلك لأننا نعلم تمامًا أن الله لا يتحكّم في مسار أحداث عالمنا المتشابكة، وأن من يفعل ذلك هو قوانين الطبيعة والإنسان نفسه. كما يرى أن الدين – بصفته قوّة موحّدة عمومية وفرديّة، أي أن بوسعها توحيد المجتمع والربط ما بين الإنسان وخالقه – قد مات، وأن كل ما بقي للإنسان الآن في سعيه عن معنى لوجوده هو في إمكانية – بل مسئولية – 'السموّ بنفسه'. [130]

وأثناء مناظرة بين القس هيرتز Hertz هذا ونيكولاوس لوبكويتز Nikolaus Lobkowicz – المحاضر في العلوم السياسية والفلسفة بجامعة ميونيخ الألمانية – وجّه نيكولاوس اللوم والتوبيخ لعلماء اللاهوت (من أمثال هيرتز) و أكّد أن أُفول الدين وضعفه لا يعالَجَ أبدًا بتمزيق الدين 'القديم' إرْبًا إرْبًا ثم تهدئة روع الناس بقولنا لهم : **"**والآن – فلتسمو بأنفسكم**!"**[131] وانبرى نيكولاوس للقس هيرتز أثناء تلك المناظرة قائلاً إن ما يزيد من ذبول الدين هم **"**علماء اللاهوت الذين نفترض فيهم الاستنارة ولكننا نراهم الآن في حاجة الى معرفة الحقيقة، فهم وحدَهم – وليس جمهرة المؤمنين – هم الذين يتسمّعون ضربات قلب العالم ويتحسسون نبضه الروحيّ؛ وهم وحدهم أيضًا – وليس عامة الشعب – الذين نبّأتهم آذانهم المرهفة بأن الله لم يعد قادرًا على المساعدة، لأنه يحيا بيننا كمجرّد كيان سام مجهول – بل ربما قد مات بالفعل.**"**[132] واليكم رأي عالم اللاهوت الكاثوليكّيّ أيريش كيلنَر Erich Kellner - مؤسس رابطة أسماها 'جمعية بولس الرسول Paulus

---

[129]. عنوانها 'هل أشرفنا على نهاية الدين؟ ?*Sind wir am Ende aller Religion*' تضمنها كتاب 'نهاية الدين *Ende aller Religion*' للمؤلفين لوبكفيتش Lobkowicz وهيرتز Hertz ص 19 وما بعدها.

[130]. نفس المقالة والمرجع السابق ص 27

[131]. نفس المقالة والمرجع السابق ص 29

[132]. نفس المقالة والمرجع السابق ص 36 – كما أن الكاردينال الألماني جوزيف راتزينجر Ratzinger (الذي اعتلى كرسي البابوية عام 2005 بإسم البابا بِندِيكت السادس عشر) وبّخ المسيحيين في قداس رأس السنة عام 1978 على "قبولهم وتساهلهم الطفولي لكل ما تمتدحه روح العصر وتمجّده على أنه شيء حديث مساير للموضة". نشرته 'جريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung*'عدد 2 يناير 1978.

Society'[133] - إذ يرى أن المسيحية "تمرّ الآن بأشد الأزمات قسوة في تاريخها، فجميع الأسس والقواعد تبدو وكأنها قد تزعزعت، وبدت كل الأمور التي طالما تشبث بها المسيحيون واعتبروها حقيقة يعتمد عليها طوال ألفين من السنين – من عقائد وآمال عاشوا وماتوا من أجلها – وكأنها قد ماتت ودفنت... لقد فقدت المسيحية هويتها". [134] ثم نرى قس طائفة الجزويت Jesuit ومستشار مجلسها السابق ماريو فون جاللي Mariovon Galli – نراه يعلن في ديسمبر من عام – 1976 وعلى مسامع اجتماع كاثوليكيّ كبير في مدينة مونستير Múnster - أن "الكنيسة بشكلها الحاليّ مآلها للهلاك، فهي تلفظ بالفعل أنفاسها الأخيرة."[135]

ويلاحظ القارئ أننا قد تناولنا على الصفحات السابقة ما حدث للمسيحية دون التطرق الى ما جرى لغيرها من الأديان، ذلك لأن المسيحية كانت أول دين يصطدم بروح التحديث، وأول دين يحتمل وقوعه في أزمة طاحنة من جراء ذلك الصدام. ولكن يلزمنا أن نذكر أنه لم تنج أيّ واحدة من الحضارات التي جاءت بها الأديان الآسيوية الكبيرة من الاتجاه العلماني هذا، مع فارق وحيد وهو أن الصراع بين القديم والحديث من الفكر قد نشب

---

[133]. وهي رابطة من العلماء الماديين وعلماء اللاهوت البارزين عالميا تأسست عام 1956 - واتخذت مقرها الرئيسيّ في مدينة موندسي Mondsee بالنمسا، وتهتم الرابطة بدور العقيدة الدينية في عصر علميّ وتسعى لخلق صيغة موحّدة جامعة للمذاهب الإنسانية عن طريق إدارة حوار عقلاني بين إيديولوجيات العالم المختلفة. ويحدو هذه الرابطة الأمل في أن تعبر المسيحية أزمتها الحالية بسلام وتدلف بذلك الى مرحلة استقرار مصيرية في السلسلة البعيدة المدى لعملية يطلق عليها "امتصاص وطرد العناصر التي أتى بها التاريخ". [عن أيريش كيلنر Erich Kellner في كتابه ' تجربة في المسيحية النقديّة *Experiment eines kritischen Christentums*' ص 10]. وتهدف هذه الرّابطة – كما يبين هذا الكاتب في ص 28 من كتابه هذا –لا "إلى دمقرطة democratization المسيحية الكهنوتية فحسب وإنما ترمي الى تجريد الجهاز الكنسي بأكمله من النظام الكهنوتي. فكنيسة تقدم نفسها للناس على أنها نظام يتسيّده شاغلو المناصب وأصحاب المقامات الرّفيعة - كنيسة تخنق الآراء وتحطم الأفكار بفرط تدابيرها وهيمنتها وثرائها – ليس لها إلاّ أن تُحلّ وتزول – لا أن يدخلها التطوير والتحديث ".

[134]. من مقدّمة كتاب 'تجربة في المسيحية النقديّة *Experiment eines kritischen Christentums*'

[135]. نقلا عن جريدة *Süddeutsche Zeitung* عدد 23 ديسمبر 1976.

في وقت لاحق للصراع المسيحيّ، إلاّ أنه كان ولايزال صراعًا يماثل الصراع المسيحيّ في شدته وقسوته.[136]

هل نحن أمام مستقبل بغير دين؟

والسؤال المطروح الآن على الساحة هو: ‘هل أشرف الدين على النهاية؟’[137] فمن رأي عالِم اللاهوت دييتريش بونهوفر Dietrich Bonhoeffer أن طوفان العقلانية وعَلْمَنَة العالم الحديث لا يمكن أن يتراجع، ويقول: "نحن نمضي الآن نحو زمان يخلو من الدّين تمامًا؛ والوضع بكل بساطة هو أن الناس بالحالة التي هم عليها الآن لا يمكنهم العودة الى التديّن". [138] أمّا فريدريش تنبروك Friedrich Tenbruck فهو يرى أيضًا – في محاولة منه لاستقراء المستقبل – أنّه لا محل للغيبيات "بصفتها نظام حياة روحيّ سام موصوف للإنسان" ويعتقد أنه "إذا ما حاولنا استقراء مسار العلمنة الجارية الآن فإننا إما أن نصل الى كنيسة دنيوية القلب والقالب، خالية من الله تمامًا، أو ستقودنا قدمانا الى النِّحَل والفرق الهامشية التي تسعى للتشعلق بنظام خارق للطبيعة". [139]

فها نحن، معشر البشر، قد أصبحنا في "موقف لا سابق له ولا مثيل" كما يقول جيرهارد إِبْلِنْج Gerhard Ebling[140]، موقف يوجزه عالِم اللاهوت هاينز تسارنت Heinz Zahrnt بقوله: "إن الوضع الجديد الذي أصبحنا فيه الآن من مسيرة تاريخ الدين هو أن ما يحدث ليس عملية انهيار دين معين، بمعنى أنها عملية يواكبها الانتقال من دين قديم إلى آخر جديد كما كان يحدث في الماضي، وإنما هي عملية تحطيم لجوهر الدين ولبّه،

---

[136]. يتناول بيتر جيرلتز هذه المسألة في كتابه ‘الأديان والأخلاقيات الحديثة: تأثير عَلْمَنَة شملت العالم *Die Religionen und die neue Moral. Wirkungen einer weltweiten Säkularisation*’.

[137]. وذلك من منظور الإعتقاد الغيبي التسليمي بالله

[138]. في كتابه ‘رسائل ومقالات من السِّجن *Letters and Papers from Prison*’ ص 279

[139]. كتاب ‘روح الجماعة والدين في مجتمع المستقبل *Ethos und Religion in einer zukünftigen Gesellschaf*’ ص 34

[140]. جبرهارد أيبيلنج Gerhard Ebeling في كتابه ‘تفسير غير ديني للمفاهيم الإنجيلية *Die nicht-religiöse Interpretation biblischer Begriffe*’ ص 331

فهناك ثمة شيء قد شارف نهايته بالفعل في هذه الأيام، ولن يعود الحال لما كان عليه من قبل أبدًا. "[141]

[141]. في مؤلفه ،المسألة الإلهية *The Question of God*، ص 139

الفصل الثاني

نظرةٌ متفرّسةٌ في وجه عالم الغرب العَلْمانيّ

لن تعود الأحوال أبدًا إلى ما كانت عليه في الماضي، ولن تغلبنا مشاعر الحنين والشوق لاستعادة ما كان. فلا يمكن أن تدور عجلة التاريخ إلى الوراء. ومع ذلك يبرز تساؤل عمّا إذا كان قد أصبح من المستحيل علينا بكل بساطة أن نفكر بعقلية دينية أو أن الحاصل لا يخرج عن كونه فقط أن الأديان التاريخية قد جاوزت عمرها الافتراضيّ. بيد أن الحقيقة التي لا جدال فيها هي أنه إذا مات الله والدين، فإن ما يتبقّى للإنسان من المصادر الخلاقة للمعرفة والابتكار، لكي يبقى حيًا على هذا الكوكب، هو مصدري العقل والعلم دون سواهما.

هل هذا هو 'وقت النهاية'؟

ليس هذا التوقع مشجعًا كما يظن البعض بأيّ حال من الأحوال، فعلى الرغم من أن المعرفة البشرية تضاعفت عبر المائة عام من سنة 1800 حتى 1900 ثم تضاعفت مرة أخرى في خمسين عامًا تلتها منذ 1900 حتى 1950، ثم مرة ثالثة منذ عام 1950 حتى وقت تأليف هذا الكتاب عام 1980. إلا أننا إذا ما تساءلنا عما إذا كان الإنسان قد صار أكثر انسانية وسعادة عن ذي قبل، فلا بد أن إجابتنا ستكون بالنّفي. فلم يجلب التقدم العلميّ الخير للبشرية ولا شيء سواه، لأن هناك إدراكًا عامًا بأن هذا التقدم يشبه الإله الإغريقيّ يانوس Janus ذا الرأسين، أحدهما يحمل الخير والآخر يأتي بالأخطار والمخاطر التي تهدّد كياننا ووجودنا ذاته. وقد أدى هذا الإدراك إلى اتخاذ موقف حيال العلم متناقض على نحو لافت. فهناك من ناحية ذلك الإيمان التام بالعلم الذي أشرنا إليه آنفًا – وهو الإيمان الذي يعتبر كل شيء يحمل البراءة العلمية حق لا ريب فيه. وهناك على النقيض الآخر شعور الشك والتخوف، بل قُلْ العداوة تجاه العلم والذي بلغ ذروته باتهام العلم بأنه هو المسئول عن كارثتنا البيئية من جراء استغلاله للطبيعة وإعماله لكل وسيلة علمية وتقنية في جسدها دونما أيّ تبصّر أو تَرَوّي.

وسيواجَه التقدم الماديّ للبشرية – على أية حال – في المستقبل القريب بقيود وحدود لم تكن تخطر على بال أحد من عشرين سنة مضت.

فالوعد العريض بنموّ اقتصاديّ لا تحُدّه حدود وبوفرة مادّية للجميع لن يتحقّق. فها نحن قد أفقنا من حلم العرّافين بحياة نقضيها في فردوس الخير الوفير، "ولم يعد المستقبل كما توقّعنا"[1]. فلن ننعم بمدد وافر من السلع، ولكن بالنذر اليسير منها في أحسن الأحوال.

لقد أصيبت ثقتنا المتفائلة في التقدم والرفاهية[2] بصدمة على إثر الحرب العالمية الأولى مما دفع بـ 'أوزوالد سبلنجر' Oswald Spengler إلى إحداث ضجة في العشرينيات (من القرن العشرين) بنظريته عن شيخوخة الحضارات وتنبؤه بأفول نجم الغرب. واليوم ترتفع الأصوات في جلبة حادة مدعَّمة بالأرقام والصور والاحصائيات، لتنذرنا بكارثة توشك أن تحيق بالكوكب الأرضيّ من أقصاه إلى أقصاه إذا لم يحدث تغيير شامل في الفكر والوعي وتحويل جذريّ في المسار والتوجّه. فلقد تخطى سكان العالم نقطة الأربعة بلايين نفس في مارس من عام 1976، ويتزايد سكان هذا الكوكب بمقدار مائتي ألف نسمة في كل يوم. وإذا بقي هذا المعدل على حاله فإن تعداد سكان العالم سيتزايد ثلاث مرات ليصبح اثني عشر بليونا بحلول عام 2030 وسيكون لهذا الانفجار السكانيّ الذي وصفه عالم البيولوجيا الانجليزيّ جوردون تيلور Gordon Taylor عام 1969[3] وأكدته توقعات دورية معهد أبحاث واشنطن Washington Research Institute المسمّاة

---

[1] قول منسوب لآرثر كلارك Arthur Clarke ورد في كتاب 'كيف تتحاشى المستقبل *How to Avoid the Future*' للكاتب تيلور Taylor ص3

[2] للمزيد من المراجع الألمانية التي تناولت خيبة الأمل هذه راجع مقالة 'بداية ونهاية المفهوم الحديث في التقدم Ursprung und Ende des neuzeitlichen Fortschrittsbegriffs' المنشورة في كتاب 'هل هناك أمل في أزمة التنازع على البقاء؟ *Hoffnung in der Überlebenskrise?*' لشاتس O. Schatz ص 88 وما بعدها؛ وكتاب 'وعد الترقي الكاذب يتحدى الدين *Die uneingelöste Verheißung des Fortschritts als Herausforderung für die Religion*'؛ والمرجع الذي ذكرناه آنفًا للكاتب ارنست بنتس Ernest Benz، ص 106 وما بعدها؛ ومقالة 'ماذا لدينا كبديل للاعتقاد في التقدم: بحث في الفوائد العلاجية لإفلاس العلمانية Was ersetzt uns den Fortschrittsglauben? Vom therapeutischen Nutzen der Apokalypse für die säkulare Gesellschaft' التي نشرت في جريدة جنوب |ألمانيا *Süddeutsche Zeitung* عدد 14-15يونيو 1980

[3] كتاب 'القنبلة السكّانية الموقوتة *The Biological Time-Bomb*' للكاتبين تيمز وهدسون Thames and Hudson طبعة 1968

‘ورلـد ووتـش *World Watch*’ [4] سـيكون لـه عواقـب وخيمـة فـي عـدد مـن المجالات مثل ارتفاع الأميّة، وتفشّي البطالة على نطاق واسع، وتزايد الفقر والفاقة، وتدني الأحوال المعيشية في المدن[5] وحدوث مجاعة عالمية يزيد من حدتها ووطأتها نقص متزايد في الغذاء في جميع أرجاء العالم. [6] واليوم هناك بليون نفس يتضوّرون جوعًا في كل من آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، منهم أربعمائة وخمسون مليونًا يترنّحون ما بين الحياة والموت وهم يقتاتون الكلأ. ويموت الملايين سنويًا في العالم الثالث من جراء سوء التغذية، في وقت تتمتع فيه دول الغرب الصناعية بوفرة في الغذاء، وتعاني من التخمة كواحدة من أكثر الأمراض تفشيًا فيها[7]. وبالإضافة إلى هذا فإن مأساة المستقبل ستتّسم بأزمة في المواد الخام، وما أزمة الطاقة[8] منها،

---

[4] كان هناك 200 مليون أمّيّ بالفعل (طبقا لإحصائيات الثمانينيات من القرن العشرين) ويبلغ هذا العدد الآن 774 مليونًا من بالغين لا يعرفون القراءة والكتابة طبقًا لآخر إحصائيات اليونسكو [المترجم]

[5] طبقا لما أوردته دراسة نشرت عام 1981 عن مؤتمر الأمم المتحدة للإسكان، فإن ثلثي سكان الحضر في الدول النامية يسكنون مساكن عشوائية

[6] حتى في ثمانينات القرن العشرين لم يكن مخزون الحبوب في العالم يكفي الاّ لاستهلاك 30 يومًا. راجع كتاب ‘كيف تتحاشى المستقبل How to Avoid the Future’ للكاتب تايلورTaylor ص 255 وما بعدها. (ولقد صدق هذا التوقّع بحدوث المجاعة الإفريقية الكبرى عام 1984، والتي راح ضحيّتها الملايين في دول الساحل الإفريقيّ بل وفي دول تقع ضمن حزام الأمن الغذائيّ في جنوب الساحل مثل إثيوبيا والصومال. [المترجم])

[7] طبقا لتقرير نشر في جريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung* الألمانية عدد 25 مايو 1980 وبمناسبة مؤتمر وزراء دول مجلس الغذاء العالميّ World Food Council الذي عقد في مدينة أروشا بتنزانيا من 3 إلى 6 يونيو 1980، وطبقًا لتقرير صدر عن حكومة دولة ألمانيا الاتحادية عام 1980 عن حالة التغذية فإن واحد من كل ثلاثة من المواطنين في الدول الغنية يعاني من الإفراط في الوزن

[8] إذا زاد استهلاك العالم للطاقة بمعدل 3 بالمائة سنويًا – وهو المعدل الضروريّ للمحافظة علي استقرار النظام المعيشيّ الحاليّ في نظر علماء الاقتصاد القوميّ – فإن مقدار الاحتياطيّ في خامات الطاقة الذي يمكن استخراجه اقتصاديًا طبقًا للتقديرات الحالية يكفي البشرية 23 عامًا بالنسبة للفحم الحجريّ (طبقا لجريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung*عدد 25 يناير 1980)، (أما آخر الإحصائيات بنهاية عام 2013 فهي تشير إلى أن مخزون البترول سينضب بحلول عام 2050، والغاز الطبيعيّ بعده بعشر سنوات، أما الفحم فسينتهي ما يمكن استخراجه منه قبل نهاية القرن الواحد والعشرين – [المترجم])، وعلى الرغم من العلم الكامل بهذه الأرقام من جانب الساسة وخبراء الاقتصاد فان الاستغلال المفرط لهذه الموارد والاسراف اللامسئول في استهلاك الطاقة مازال يجري على حاله.

بوصفها ضلعًا من أضلاعها، وسيصاحبها تدمير زاحف للطبيعة يهدد بكارثة بيئية شديدة، وستعتريها الفوضى في النظام التقدميّ العلميّ. فوضى تحمل في طياتها خطر كارثة مالية قد تأتي بنهاية اقتصادنا العالميّ[9] وسيواكبها فوق هذا وذاك خطر محدق لانتحار جماعيّ حال نشوب حرب نووية بين القوى العظمى[10] وفضلا عن ذلك فإن الملايين من البشر مستثناة من نعمة التقدم. إذ استحوذت الدول الصناعية على ثروات الأرض وأصبحت تستغلها بأنانية ذكية شرسة[11] ولن يتمخض هذا إلا عن حرب طبقية لا ينجو منها شبر واحد في العالم.

---

[9] يمرّ الاقتصاد العالميّ بأسوأ أزمة له منذ الحرب العالمية الثانية فطبقا لتقرير مفوضية الشمال والجنوب للتنمية الدولية North-South Commission for International Development فان الافلاس لا يتهدد دولا بمفردها وانما يحيق أيضا بمجموعات من الدول بأكملها. [وقد صدق هذا التوقع أيضًا بحدوث التدهور المصرفيّ الكارثيّ عام 2008، واقتراب اليونان من الإفلاس بحلول عام 2015، وزيادة عجز الميزانيات وتفاقم مديونية الدول، الغنيّ منها والفقير، وعلى رأسها الاقتصاد الأول في العالم – الولايات المتحدة (المترجم)]

[10] يقدر معهد استكهولم الدوليّ لأبحاث السلام أن إجماليّ القوة التفجيرية للأسلحة النووية الموجودة في ترسانات الدول المالكة لهذا السلاح يعادل 20 بليون طنا من المتفجرات التقليدية. وهو ما يعادل مليون قنبلة نووية مماثلة لتلك التي ألقيت على هيروشيما. وما يزال سباق التسلح النوويّ على قدم وساق رغم ذلك. (ودخلت النادي النوويّ دولٌ جديدة مثل الهند والباكستان وكوريا الشمالية، كما تلهث إيران، رغم معارضة المجتمع الدوليّ، للّحاق بهؤلاء الرفاق، بل إن هناك مخاوف من تملك منظمات إرهابية لأسلحة نووية [المترجم]) وعلى الرغم من هذه الترسانات المرعبة، فإن القطاع الاقتصاديّ الذي يتمتع بأسرع معدل في النمو هو صناعة السلاح، وطبقا للتقرير السنوي للمدير التنفيذي لبرنامج الأمم المتحدة لتنمية البيئة عام 1980 فان العالم ينفق مليون دولار كل دقيقة على افناء نفسه عسكريا (أوردته مجلة *Süddeutsche Zeitung*بعدد 10 يونيو 1980) [وقد زاد هذا الرقم إلى ثلاثة ملايين وثلث مليون دولار من الإنفاق العسكريّ في الدقيقة الواحدة بحلول عام 2012 (المترجم)]، وراجع أيضا بيان ‘نزع السلاح والسلام العالمي Disarmament and World Peace’ الصادر عن الجامعة البهائيّة العالميّة الذي نشرت الطبعة الألمانية له بمقدمة للكاتب Ulrich Gollmer عن دار النشر البهائية الألمانية Hofheim-Langenhainعام 1980. إلا أن أحد أبرز الدراسات عن النتائج المرعبة للحرب النووية هو التحليل الذي يشبه أحداث يوم القيامة الذي سرده المؤلف Jonathan Schell في كتابه ‘مصير كوكب الأرض*The Fate of the Earth*’ (طبع نيويورك عام 1982) وهو كتاب قفز إلى أول سطر في قائمة أكثر الكتب مبيعا فور نشره، وتسبب في مناظرات تضاربت فيها آراء العلماء والساسة والصحفيين.

[11] زاد معدّل الهوة الاقتصادية التي تفصل بين الدول النامية والدول الصناعية من نسبة 1 إلى 7 في عام 1850 إلى نسبة 1 إلى 9 (بعد مرور 110 أعوام أي بحلول) عام،

لقد انقضى زمن طويل على تحقق الأمر الذي جاء في قصة الخليقة بسفر التكوين (على لسان الله) "أثْمِرُوا وأكْثِرُوا واملأوا الأرض وأخْضِعوها"[12] وها هو الانسان الآن وقد جرّد الأرض من خيراتها في جشع منفلت لا كابح لجموحه، يوشك أن يحيلها إلى صحراء قاحلة.[13] ويهدد النشاط الصناعيّ - الذي يتسم بالكفاءة مع قِصَر النظر في آن واحد – بتدمير بيئتنا وأسّ أساس كياننا. وعلينا بكل جدّيّة أن نوجه السؤال التالي إلى أنفسنا فيما سيؤول إليه الحال بالنسبة للأجيال القادمة: ألن نترك لذرّيتنا من بعدنا سوى كوكب قد نهبناه ودمرناه بأيدينا؟

إنها حقًا لكارثة قد دبرنا لها بكل إحكام، ولا يمكننا أن نغضّ الطرف أبدا عما سيأتي به المستقبل من أحداث تُماثل أحداث 'يوم القيامة'. ولقد تحولت نظرة مشاهير الباحثين في مستقبل البشرية – وهم الذين كانوا منذ عشر سنوات مضت على تفاؤل تام بإمكان العثور على بدائل وحلول تحول دون وقوع هذه الكارثة – إلى نظرة شؤم مصيري. فهم يرون الآن

1960 (وبحلول عام 2000 زادت هذه الهوة إلى 1: 11، أي بمقدار عشرين بالمئة في بحر أربعين عامًا فقط [المترجم]) راجع مقالة 'الهوة الاقتصادية بين الأمم - أصلها وقياسها والنظرة المستقبلية عنها' للكاتب سورندرا باتيل Surendra Patel المنشورة في التقرير السنويّ 'الجريدة الاقتصادية *Economic Journal*' لعام 1964 ص 122 وما بعدها.

[12] الكتاب المقدس سفر التكوين1: 28

[13] تُقطع الغابات البكر وتحرق عامًا بعد عام بمعدل 20 هكتار (50 فدانا) في الدقيقة، وهي مساحة تعادل في جملتها السنوية مساحة الدانيمارك وهولندا وبلجيكا مجتمعة وتتسبب في انبعاث الغازات الكبريتية من دول وسط أوروبا الصناعية والتي تهبط على هيئة أمطار مشبعة بحامض الكبريتيك – تسببت في موت الكثير من الغابات في قارة أوروبا بأكملها بما في ذلك غابات الدول الاسكندنافية الواقعة في الدائرة القطبية في أقصى شمال القارة بعيدًا عن هذه الأنشطة الصناعية، وكذلك غابات كندا (الواقعة في أقصى شمال قارة أخري) بل إن بعضًا من الدول الاستوائية عانت من المشكلة ذاتها. وهناك تغير جذريّ حادث للمناخ في جميع انحاء العالم (لاحظ من هذه العبارة الأخيرة أن التغير المناخيّ اكتشفه العلماء قبل أن تصدّقه حكومات الدول الغنية بسنوات عديدة [المترجم])، وتزحف الصحراء على الأراضي المزروعة والغابات مما حوّل أقاليم شاسعة إلى أراضٍ جرداء قاحلة. وانقرض خلال قرن واحد 69 سلالة من الثدييات وهناك 200 سلالة أخرى مهددة بالانقراض (طبقا لجريدة *Heidelberger Tageblatt* في عددها الصادر في 1979/4/19). إن ما يوازي مساحة خمس الأراضي في العالم يهدده أخطار انجراف التربة وزيادة الملوحة والتصحّر والتعدين والاستخدام الصناعيّ (عن تقرير لهيئة الأمم المتحدة نشرته مجلة *Süddeutsche Zeitung* في عدد 1981/6/19)

أن ما سيحدد مسار الخمسين سنة القادمة هي الكوارث وليست التطورات الإيجابية.[14] إذ يقول أحدهم – وهو عالم أمريكيّ متخصص في شؤون المستقبل - جروفر فولي Grover Foley: "إن العالم يستعد الآن لنهايته"[15] وها هو هانز شوزتر Hans Schuster يقرر في أحد مقالاته بأنه "لم تعد تبدو القيامة والدينونة وكأنها خرافة مظلمة تتنبأ بأحداث مستقبل بعيد، بل صارت احتمالاً ذا طابع تاريخيّ يمكن قياسه بالأرقام."[16] ثم يتلوه العالم جونتر أندرز Günther Anders ليتهكّم على تسمية الكاتب روبرت يونكز Robert Jungks لأحد أعماله المتفائلة 'قد بدأ المستقبل فعلا'[17] فيسميها 'قد انتهى المستقبل فعلا'[18]. ولكن معظم الساسة لايزالون يرفضون هذه التحديات – تشاركهم في ذلك غالبية وسائل الإعلام العامة - على أنها كلام فارغ عن كوارث وهميّة وإثارة لا مسئولة لمخاوف لا داعي لها. وليس لدى غالبية الناس أية حيلة سوى مشاركة الساسة ووسائل الإعلام في هذا الرأي إذ ينكمشون عجزًا وخوفًا حيال جسامة التغييرات الجذرية بعيدة المدى التي يعرضها العلماء كحلول بديلة على الصعيدين الاقتصاديّ والاجتماعيّ. فلا يزال الناس على استعداد – كما يقول أحد الباحثين – 'للمخاطرة بالفرص المتاحة لهم في الحياة على المدى البعيد إذ ينكبون على اشباع رغبات المدى القصير، فما بالنا بمصالح أجيال المستقبل التي لا يفكر فيها أحد هذه

[14] يقول Taylor في مقدمة كتابه 'كيف تتحاشى المستقبل': "إن المستقبل، إذا نظرنا اليه بمنظار الواقع وتجنبنا الآمال العريضة فيه، يتوعدنا بالأخطار. فسيكون المستقبل عنيفا أكثر من أيّ شيء قد تعيه ذاكرتنا، ومليئًا بالاضطرابات الاجتماعية وباعثًا على عدم الأمان والاطمئنان أكثر من ذي قبل. وستكون الحياة أكثر مشقة واحباطًا. وسوف ينخفض مستوى المعيشة المادي، وستحدث كوارث مالية وتندثر طبقات اجتماعية بأكملها. وستحدث أزمة وندرة في الأغذية وتسوء مستويات الضوضاء والتلوّث. وستكون هناك مجاعات وحروب بكل تأكيد – الأهليّ منها وغير الأهلي وستكون الحياة أيضًا أشد برودة. وهذا واقع بطبيعة الحال – إذا ما لم نقم بعمل حاسم حازم ناجع لتحاشي هذا الوضع ابتداء من الآن"

[15] نقلا عن كتاب 'هل بلغنا نهاية المطاف؟ *Sind wir am Ende*' ص 741

[16] مقالة شوزتر هي بعنوان 'رؤيا لكابوس فلكي Planetarische Schreckensvision' نشرت في جريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung* عدد 1975/12/30

[17] وهي بالألمانية *Die Zukunft hat schon begonnen*.

[18] كتاب 'عصور البشرية القديمة *Die Antiquiertheit des Menschen*' المجلد الثاني ص 278

الأيـام؟'[19]. إلّا أن أعـدادًا متزايـدة مـن مشـاهير العلمـاء والفلاسـفة وعلمـاء اللاهوت يرفعون أصواتهم، التـي لا تجد لهـا سميعًا، بالتحذير من الانهيـار الوشيك[20].

[19] أوسكار شاتس O. Schatz في مقدمة كتابه 'هل لنا أمل في البقاء في أزمة الحياة؟ *'Hoffnung in der Überlebenskrise?* - المقدّمة ص 9

[20] أعطى المنتدي الإنساني الموسع الذي نظمه راديو النمسا في مدينة سالزبورج من 24 إلى 29 سبتمبر من عام 1978 – أعطى شعار 'هل هناك أمل في انفراج أزمة البقاء: التبعات الجسيمة للتقدم كتحدٍّ لكل من العلم والدين' وأدرجت مساهمات المشاهير على المستوى الدوليّ من العلماء والفلاسفة ومفكري الأديان وأساتذة علم الاجتماع في مجلد بإصدار من أوسكار شاتز وعنوانه كما ذكرناه تحت حاشية 19 أعلاه، وقد تم نشره في جراتس وفيينا وكولون عام 1979. وفي مؤتمر لمعهد دراسات المجتمع المدني المسمّى بـ CIVITAS عقد في ربيع عام 1980 أجرى مشاهير من الفلاسفة والعلماء من ألمانيا وخارجها ندوات ألقيت فيها الخطب عن موضوع المؤتمر وهو 'التطور العلميّ التكنلوجي: هل سيؤدّي بنا إلى المزيد من التقدم أو إلى طريق مسدود؟ '. وقد اختير موضوع هذه الندوات بالنظر إلى القلق الذي ينتاب البشرية من أن التقدم التكنولوجي ينمو بدافع تلقائيّ شاذ بما يهدد بخروجه عن طوع البشرية ويدفع بها إلى طريق مسدود. وفي هذا المؤتمر ألقى عالم الكيمياء الحيوية إروين تشارغاف Erwin Chargaff الذي يعيش في مدينة نيويورك – ألقى خطبة جاء فيها "إنني أعيش في مركز هزّه زلزال من العطب والتعفن، إلا أن نيويورك هذه على وجه الخصوص مثل برّاق على التقدم في العالم المتحضر. وتحيطنا من كل جانب المتناقضات التي أفرزتها ميكنة العالم التي تنطلق بكل جنون تدفعها أبحاثنا وابتكاراتنا. ويعلم جميع هؤلاء الباحثين جيدًا – أو البعض منهم على الأقل – أنهم قد وقعوا في مصيدة". (أورد هذ الخبر الكاتب الصحفيّ مالتي بوشبيك Malte Buschbeck في مقالة بعنوان 'ما الذي تخلّينا عنه في سبيل التقدم؟ 'Was ersetzt uns den Fortschrittsglauben?' في جريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung*عدد 14 – 15 يونيو 1980. أما عصا المقشة السحرية التي بعثها (جوته Goethe) للحياه في قصيدته القصصية 'صبيّ الساحر 'Der Zauberlehrling فان الكاتب Günther Anders يقول عنها "إن ما ابتكره جوته كحدث غير عاديّ مصحوب بالمغامرات يحدث لنا الآن دون توقف"، ويرى أن ما أسماه 'عصيان المقشات هذه التي تتحرك من نفسها' قاصدا بذلك المعدات الفنية التي تتألف منها محطات القوى النووية، والصواريخ الذرية، والمنشآت الصناعية الضخمة (ومصانع السيارات التي تعمل بالروبوتات) - تجعلنا جميعا عاجزي الحيلة من جراء ما تتميز به من قدرة واستقلال على العمل، ويرى أنها هي المكونات المتحكمة في هذا العالم. ويمضي ليقول: "بينما أخرج لنا جوته عصا مقشة واحدة (ثم أضاف إليها عصا أخرى في مشهد لاحق) وجعلها تتحرك بتلقائية مجنونة فإننا نرى اليوم غابة كثيفة متزايدة من 'عصيان مقشات' من نوع جديد. وبما أنه ليس أمامنا أية فرصة لتقطيع أشجار هذه الغابة أو الخروج منها فإن هذه الغابة هي العالم الذي كتب علينا أن نعيش فيه". في كتابه المشار إليه في الحاشية رقم 18 أعلاه، المجلد الثاني ص 402 – 403.

ولقد أصبح البعد الكامل لهذه الكارثة يتضح شيئًا فشيئًا. فيرى فيها عالم الفيزياء كلاوس موللرKlaus Muller "كارثة عالمية تهدد أس أساس حياة كافة مخلوقات الرتبة العليا على كوكبنا الأرضي" بدرجة تدعونا إلى أن "نعيد النظر في كل ما كنا نعتمد عليه في الماضي."[21] أما عالم الجينات الوراثية كارستين بريش Carsten Bresch فهو يرى أن كارثة البشرية الحالية هي "المرحلة الأخيرة في عملية تطور جذريّة ليس لها سوى نظير واحد حدث بالكوكب الأرضيّ منذ أربعة آلاف مليون عام مضى، مرحلة لا يفيها حقها تمامًا أيّ تحليل لتاريخ البشرية الحضاريّ، وإنما يمكن فهمها فقط بما لها وما عليها من منظور نظرية شاملة في النشوء والارتقاء"،[22] في حين أن العالم الطبيعيّ والمفكر الدينيّ جونتر ألتنار Günter Altner يرى فيها "عصرًا يزحف نحونا من الانهيار والمعاناة لم نمر بمثلها من قبل".[23] فإن كارثة مدنيتنا العلمية والتقنية تجعلنا ندرك للمرة الأولى في التاريخ أن الهلاك الجماعيّ لجنسنا البشريّ ما هو إلا "حدث محتمل يمكن التنبؤ به علميًا".[24] ويعود الفيلسوف جونتر أندرز Günther Anders ليصف الكارثة بعبارة أخرى فيقول: "إن عبارة 'كل الناس مآلها للممات' قد حل محلها اليوم تأكيد بأن 'الجنس البشريّ بأسره يمكن أن يُمحى من الوجود'".[25] فالحال إذن هو أن هذه التحذيرات ليست مجرد نظريات صاغتها الأوساط الأكاديمية. فالدليل على وقوع الكارثة لا يستند بأيّ حال من الأحوال، كما يقول شاتز Schatz، إلى استقراءات مستقبلية تحتمل الصواب والخطأ دائما بل هو مبنيّ على أحداث واقعية تماماً نراها جميعاً رأي العين وهي تجري أمامنا مندفعة في تسارع متزايد نحو الطامّة

---

[21] رأي أورده أوسكارشاتس O. Schatz في مقدمة كتابه المشار إليه في الحاشية رقم 19 أعلاه، ص 9

[22] في مقالة له بعنوان 'البشرية في المرحلة الثانية من النشوء والارتقاء Die Menschheit an der zweiten Schwelle der Evolution' – ظهرت في الكتاب الذي أصدره شاتز – مرجع سابق ص 44

[23] في كتابه 'بين المدنية والتاريخ الإنساني *Zwischen Natur und Menschen geschichte*' ص 161

[24] رأي كتبه شاتس في مقدمته – المرجع السابق ص 11

[25] في كتابه 'حفريّات البشر *Die Antiquiertheit des Menschen*' المجلد الأول ص 242

الكبري، ويحلّ هذا كله ببشرية لا تزال منهباً ممزَقاً لصراع مع الذات لا تنعم معه بأيّ سلام وجدانيّ".[26]

ولم تفلح هذه التحذيرات التي تنادي بالتغيير الجذريّ في أن تكون مجدية بدرجة كبيرة. وبرهنت أنظمتنا السياسية – لأسباب لا تحتاج إلى شرح – على عجزها عن اقناع الناخبين بقبول القيود القاسية وبذل التضحيات الكبيرة، التي لا بد وأن تصاحب أيّ تغيير جذريّ في المسار. أما الدوائر الاقتصادية – في الغرب والشرق على حد سواء – والتي ينصبّ اهتمامها الرئيسيّ على تحقيق أقصى عائد في المدى القصير واستمرار دوران عجلة نظام اقتصاديّ يرتكز على النمو الاقتصاديّ بدلاً من بناء مستقبل الأجيال القادمة، فهي تستنكر بكل شدة تلك الانتقادات التي أصبحت تزداد يوماً فيوماً جلبة وصخباً، وتنعت هؤلاء الوعاظ المقلقين 'بأنبياء الخراب' وتصف نظرياتهم بأنها 'قصص خيالية تجمد الدم في العروق'. وعلى النقيض الآخر نجد أن جونتر أندرز Günther Anders يسمّي موقف اللامبالاة الذي تتخذه الشعوب حيال الأسلحة النووية بأنه 'عمى القيامة'.[27] وهكذا فإننا نتسبب بكل عناد في انهيارنا ونندفع في طيش وتهور متسارع نحو الكارثة.[28] والأمل ضئيل جدًا في أن يستطيع الانسان بمفرده أن يتحكم في هذه الأزمة ويأتي بعملية تغيير تقينا شرّ الدمار والهلاك قبل فوات الأوان.

الدول والأقطار – كيانات صغيرة تعبث في غير زمانها

لسنا بمعرض مناقشة مستفيضة لكل مشاكل العالم المستعصية التي تهدد كياننا، ولكن هناك حقيقة مؤكدة لا جدال عليها: هو أننا، حيال هذه المشاكل، لا يوجد أمامنا سوى مهرب واحد من هذا الدمار ألا وهو اتخاذ اجراء حاسم ناجع تتضافر فيه معا جميع الشعوب. وقد اتضح منذ زمن

---

[26] مقدمة المرجع السابق ص 11

[27] المرجع السابق ص 235- 324

[28] لقد كانت هذه النظرة الثاقبة وادراك أن هناك موعداً محدداً قد ضُرب للبشرية هي الفكرة الرئيسية في مؤلف الفيلسوف جنتر آندرز Günther Anders المشار اليه آنفا والذي صدر مجلده الثاني عام 1980، ومن قبل ذلك بما يزيد على مائة عام كتب بهاء الله يقول: **"إنا قد جعلنا ميقاتا لكم فإذا تمت الميقات وما أقبلتم إلى الله ليأخذكم عن كل الجهات ويرسل عليكم نفحات العذاب عن كل الأشطار"** (كتاب [منتخباتي...] المقتطف 108

طويل أن مشاكل الاقتصاد العالميّ،[29] والأخطار الناجمة عن دمار البيئة، والمجاعات العالمية، وندرة الخامات والطاقة وسباق التسلح، وامتلاك الأسلحة النووية من قبل عدد متزايد من الدول، واختطاف الطائرات وغيرها من وسائل المواصلات، والإرهاب، وما إلى ذلك من مشاكل، فإنه يتعذر على الدول أن تتحكم فيها بمفردها دون تضافر عالمي. ولو أن الدولة هي إنجاز تاريخيّ على مسار تقدم الجنس البشريّ نحو شكل أسمى من النظام والحكم إلا أنها أصبحت اليوم كيانًا قد تجاوز زمنه ويحمل في طياته المخاطر. ويقول راينتش شميدت Reinec Schmidt "لقد تم – منذ زمن طويل – استبدال مبدأ الاكتفاء الذاتيّ الذي طالما ارتبط بفكرة السيادة القومية، منذ البدايات الأولى للنظريات الغربية في طبيعة الدولة، بظاهرة الاستيراد وتشابك المصالح، غير أنه تنقصنا الأدوات التي تمكننا من التحكم في هذه الاعتمادات المتبادلة"،[30] فليس لدى البشرية حتّى الآن أيّ قانون دوليّ يمكن تنفيذه بفاعلية، ذلك لأنه لا توجد سلطة عليا يتحتم على الدول ذات السيادة أن تخضع لها.

---

[29] كتاب ‘المتناقضات الحضارية في الرأسمالية *The Cultural Contradictions of Capitalism*’ للكتاب دانيل بيل Daniel Bell ص 206 وما بعدها، ثم ص 212 وما بعدها.

[30] في كتابه ‘الدولة المرغوبة *Der geforderte Staat*’ ص 160 - وفي مؤلف آخر له يوضح راينر شميت Reiner Schmidt أن شبكة العلاقات الدولية فيما يتعلق بالاقتصاديات والعملة – وهي التي من المفروض أن باستطاعة كل دولة ذات سيادة أن تعرف ما يجري بداخلها هي شبكة من المستحيل تقريبًا اختراقها، وهو وضع بغيض بمعنى الكلمة، ويرى أيضًا أنه لم يعد بمقدور المرء أن يرى للدولة أيّ وجود سواء على المستوى الاقتصاديّ أو القانوني. فالنظريات والتشريعات الاقتصادية لم تتطور بالقدر الذي يجعلها تتمشى مع ما يحدث على الساحة الدولية في مجالي الاقتصاد والعملة ويضرب على ذلك مثلا بقوله :"وحتى في يومنا هذا فإن حالة الاقتصاد العالميّ ينظر اليها بكل بساطة على أنها حاصل جمع الأنشطة الاقتصادية التي تقوم بها الدول ذات السيادة". كتابه المعنون ‘وضع الدولة الدستورية في العلاقات الدولية *Der Verfassungsstaat im Geflecht der internationalen Beziehungen*’ ص 67-71، 105

ولمراجعة المزيد من الأعمال التي تتناول مسألة الاعتماد المتبادل على الساحة الدولية – راجع مقالة هانز هوبر Hans Huber ‘الاعتماد المتبادل في العالم Weltweite Interdependenzen’ التي وردت في كتاب ‘مقالات مختارة في نظريات القانون العام والقانون الدستوريّ والقانون الدوليّ *Rechtstheorie, Verfassungsrecht, Völkerrecht. Ausgewählte Aufsätze*’ بإصدار هانز هوبر، طبع برن (سويسرا) عام 1971 ص 601 وما بعدها

أما شعوب العالم فإنها – من فرط قِصَر نظرها وعدم قدرتها على استبانة ما يخدم مصالحها – فإنها تتشبث بنظام سياسيّ يخدم فقط مصالح الدولة المنفردة. ونادرًا ما تمت مناقشة مسألة سيادة الدولة أمام منتدى دوليّ كما حدث في المؤتمر العالميّ للسكان الذي عقد في بوخارست عام 1974. ولكن الآراء التي طرحت آنذاك جعلت أحد المعلقين الصحفيين يقول: "يبدو أن هناك من الدول ما يفضل الهلاك كدولة ذات سيادة على مجرّد التضحية بالنذر اليسير من سلطتها لصالح الكل".[31] كما أن رجل القانون البلجيكيّ دوتريكورت Dautricourt قد صرّح في سخرية مريرة في مؤتمر قانونيّ دوليّ بأن الوعي الجماعيّ للجنس البشريّ لن يتكوّن إلا "في نهاية المطاف وبعد حرب نووية".[32]

وفي التقرير الثاني الذي تقدم به كلّ من ميساروفيتش Mesarovic وبستل Pestle إلى منتدى روما *Club of Rome* عن أحوال العالم، خلصا من تحليلاتهما العلمية إلى أن مشاكل العالم لا يمكن أن تُحلّ إلّا بتضافر دولي. ومن هنا دعيا إلى تكوين وعي عالميّ 'يدرك فيه كلٌ فرد دوره كعضو في المجتمع العالمي' واستطردا يقولان: "إنه يجب أن تستحوذ المجاعة في إقليم الساحل الإفريقيّ على نفس الأهمية والقلق لدى المواطن الألمانيّ الذي قد يشعر به تجاه حدوث مجاعة في إقليم بافاريا الألمانيّ".[33] وقالا أيضًا في تقريرهما: "إن التلاميذ الذين سيبدأون اليوم صفّهم الدراسيّ الابتدائيّ الأول لن يتسنى لهم أن يكونوا أعضاء فاعلين في المجتمع قبل حلول عام 2000 فالقرن الواحد والعشرون ليس بذلك البعد عندما ننظر إليه من زاوية التعليم الأساسيّ،[34] وأنه إذا لم ننجح في أن نجعل العالم يلتحم في نظام تعاونيّ عالميّ واحد فلن يكون أمامنا من البدائل سوى الفُرقة والشّحناء، والكراهية والدمار.[35] وستَدفع الفوارق الاقتصادية والاجتماعية في العالم بالجنس البشريّ من حافة الهاوية إلى الخراب في نهاية

---

[31] وهو الكاتب كلاوز ناتورب Klaus Natorp في مقالة له نشرت بصحيفة *Frankfurter Allgemeine Zeitung* عدد 22 نوفمبر 1974

[32] رأي نشرته جريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung* عدد 3 -4 نوفمبر 1979

[33] نشر التقرير بعنوان 'الجنس البشريّ في مفترق الطرق *Mankind at the Turning-Point*' وهذه الفقرة منقولة عن ص 147 منه

[34] مرجع ذكر آنفًا ص 148

[35] مرجع سبق آنفًا ص 157

المطاف."[36] وهكذا فإنه وعلى الرغم من التباينات الثقافية وتنوّع المنظور السياسيّ، فإن شعوب العالم تشترك في شيء واحد: فهم شركاء في نفس المصير، أي في نفس الخطر الذي يهدد وجودهم، وهو خطر يجب أن يتلاشى حياله – كما يتوقع المرء – كل خلاف ونزاع. وإذا لم يدفع هذا المصير المشترك بالبشر إلى التغلب على العداوات التي تفرّقهم والسعي إلى التضامن والوفاق فإنه لا يمكن عندئذ تفادي الكارثة القادمة.

وبالنظر إلى هذه الأخطار المُحْدِقة وإلى تزايد زعزعة العالم واضطرابه فقد صرح هنري كيسنجر وزير الخارجية الأسبق للولايات المتحدة في خطابين غاية في الأهمية ألقاهما عام 1974 امام مجلس الشيوخ الأمريكيّ، والجمعية العامة للأمم المتحدة بأن العالم على شفير نصل حاد وأن الحضارة الغربية – على حد قوله "من المحتمل أن يؤول بها المآل إلى الانهيار إذا لم نعترف باعتمادنا المشترك على بعضنا البعض". وقال في حديث له آنذاك عما أسماه 'آلام مخاض نظام عالميّ جديد' – أي أن هناك نظامًا قديمًا آخذ في الانهيار والتداعي، وآخر جديد، لا يزال من الصعب علينا تبيّنه، هو الآن آخذ في الظهور.

انهيار منظومة القيم والأخلاق

لكي يعمل الناس معاً يجب أولاً أن يكون هناك هدف مشترك وقيم مشتركة، وتكمن مصيبتنا في أننا لا نملك هذا الهدف أو تلك القيم. ولقد برهن العِلم الذي جعلنا نهبط على سطح القمر على عجزه بدرجة كبيرة في عالم نشاط البشر الاجتماعيّ. والاعتقاد بأن العلم بمقدوره أن يقضي على كل الشرور ما هو إلاّ 'خرافة' عند عالم الاجتماع السويسريّ تيودور لوينبرجر Theodor Leuenberger[37] فالعلم عاجز تقريبًا حيال القوى غير

---

[36] مرجع ذكر آنفًا ص 12 من المقدمة

[37] رأي أبداه في مؤتمر عُقد تحت شعار 'الإيمان والعلم والمستقبل Faith Science and the Future' بمعهد ماساشوستس للتكنولوجيا M. I. T بالولايات المتحدة، من 12 إلى 24 يوليو 1979 نظمه مجلس التقارب الكنسيّ Ecumenical Council of Churches نقلا عن جريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung* عدد 1979/7/18- وللمزيد راجع مقالة كتبها جونتر التنر Günter Altner بعنوان 'في الإيديولوجيات المكسورة Zwischen zerbrochenen Ideologien' نشرت في كتابه 'نظرة فوقية في التلاقي المذهبيّ والتعاون الدوليّ *Der Überblick. Zeitschrift für ökumenische Begegnung und internationale Zusammenarbeit*' طبع سبتمبر 1979 الصفحات من 2 إلى 9

العقلانية التي أصبحت تهدّد العالم بدرجة تتزايد يوماً بعد يوم. وإذا كان لدى العلم شيء فما هو إلّا النذر اليسير ليجابه به ظاهرة تفشي الجريمة وتعاطي المخدرات، بل ليس هناك نظرية علمية واحدة مقنِعة تَلقَى قبولاً عاماً في شرح أسباب هذه المشاكل، أمّا دمج كافة الشعوب في كيان واحد قادر على العمل فهو أمر قد أقر الكل على أهميته الفائقة – ذلك لأن مشاكل البشر الحياتية لا يمكن حلّها إلا على نطاق عالميّ إن شئنا لها أن تُحلّ، إلا أننا مواجهون في الوقت نفسه بخطر جديد يهدد بأن يسلبنا القدرة على العمل الموحد: وهو أن المجتمع آخذ في التداعي وفقد مقوماته بسرعة كبيرة. وأصبح التعايش مع الآخرين أمراً يزداد صعوبة يومًا بعد يوم، بينما ينشب المزيد والمزيد من الخلافات، وتضعُف الأواصر التي تجمع ما بين كيان المجتمع شيئًا فشيئًا، ولا يمكن لمجتمع تمزقه تناقضاته الذاتية ويفقد تماسكه أن يحل المشاكل المادية التي تواجه البشرية. فهذا بالطبع هو أشدّ الأخطار التي تتهددنا ضراوة إذ إنه يكبّل قدرتنا على العمل.[38] فما هو يا ترى السبب في هذه الظاهرة وما هي أعراضها؟

إن السبب في انهيار مجتمعنا يكمن في انهيار نظامنا الأخلاقيّ. فلقد حدث في بحر بضعة عقود تغيير في أسلوب التفكير لدى الناس، في سرعة تقطع الأنفاس. وهي ظاهرة يمكن أن نسميها بالثورة الحضارية بالنظر إلى تبعاتها الواسعة النطاق. فالقيم والمعايير التي جاءت بها الأديان، والتي تناقلتها الأجيال وحافظت عليها وآمنت بصحتها وضرورتها إيمانًا كاملاً لما لا يقل عن ألفي عام، بل وكانت تعد قيمًا عقلانية لدى العقلانيين إبان عصر التنوير في القرن الثامن عشر[39]، قد تمّت الإطاحة بها تمامًا خلال بضعة عقود، وحلت محلها تعددية من مفاهيم جديدة متباينة فيما يتعلّق بالأخلاق والقيم.

---

[38] ويرى تايلور أيضا أن لب المسألة هو في 'الترابط والتماسك الاجتماعي' – من كتابه 'كيف تتحاشى المستقبل *How to Avoid the Future*' ص31

[39] وحتى الفيلسوف الفرنسيّ بيير جوزيف برودون Pierre Joseph Proudhon (1809 – 1865) المناصر للعلمانية منذ بدايتها كتب يقول "مكتوب على الانسان أن يعيش بغير دين. في حين أن الناموس الأخلاقيّ أبديّ مطلق. فمن ذا الذي يتجاسر اليوم بالهجوم علي الأخلاقيات؟" – من كتابه 'عن خلق نظام داخل البشرية أو مبادئ النظام السياسي *De la création de l'ordre dans l'humanité ou principes d'organisation politique*' ص 38 الفقرة رقم 60 أما اليوم فإن مهاجمة الأخلاقيات لم تعد تجاسرًا.

وكما هو الحال في انتشار المرض حيث يوجد عاملان يتضافران في نقله وتفشيه – ألا وهما مدى قابلية الأجسام التي يهاجمها المرض ومقدار قوّة الجرثومة التي تسببه – هناك أيضًا علتان مسببتان للانهيار والتدهور الحضاري، أولهما هو ضعف الأنظمة الأخلاقية القائمة التي فقدت أساسها الروحيّ واضعة نفسها بذلك موضع تشكيك خطير، والآخر هو عقلانية تأخذ في الاعتبار عاملاً واحدًا دون سواه،[40] أي طريقة التفكير التي لا تسمح بصحة أيّ شيء إلا إذا ما أمكن برهنته بالوسائل العقلية. وهذا المنحى الفكريّ الذي أثبت جدارته في مجال العلم والتكنولوجيا والذي يفي بحاجاتنا المادية ويضمنها، يثير من المشاكل أكثر مما يحل عند إعماله في القيم والمعايير الحضارية. ولقد وصف بريتسينكا Brezinka ملامح عقلانية البعد الواحد هذه على النحو التالي: "إن الفكر العقلانيّ يقوم على التشكيك والمنفعية والانفرادية. ويشكك في الأشكال الموروثة من السلطة والدين والقانون والأخلاق والسلوك والعادات. وينكر على كل ما هو غير عقلانيّ صفة الالزام. ويفكّ الارتباط العاطفيّ بنظام الحياة "*Weltanschauung*" المتفق عليه اجتماعيًا، وبمُثله العليا وبأصحاب السلطة فيه. وبينما يُمارِس ذلك على أنه تحَرُّر أو كسب للمزيد من المعرفة والفاعلية، أو بوصفه تقَدماً ذهنياً وخلقياً، إلا أن لدى الإنسان في الوقت نفسه حاجة إلى نظرة مستقرة في الحياة والعالم وللأمان العاطفيّ الذي يعطيه مجتمع يشاركه في الأفكار والتطلعات، ولليقين فيما يتعلق بحالته الروحية والنفسية، وإلى هدف حياتيّ واضح كل الوضوح – والمنحى العقلاني سيترك هذا الاحتياج دون تلبية.[41]

وإذا كان الدليل العقليّ هو المعيار الوحيد الذي يقاس به أيّ نمط سلوكيّ فإنه يترتب على ذلك أنه لا يمكن الحكم بإيجابية أيّ نمط إلا إذا ثبت أنه نافع للجميع، وكذلك لا يمكن استبانة مثالب أيّ نمط غير مستحب إلا إذا اتضح للكل ضرره الاجتماعيّ.[42] ومثل هذه 'العقلية الانتقادية' التي لا تعترف إلّا بالعوامل العقلانية ترفض تلقائيًا ودون نقاش أيّ فكرة عن

---

[40] دانييل بيل – كتاب 'المتناقضات الحضارية في الرأسمالية' ص 4

[41] في كتابه 'التعليم والثورة الثقافية *Erziehung und Kulturrevolution*' ص 15

[42] إن هذه العقليّة الغربية كانت أهم تحوّل حدث في القرن الثامن عشر – وهي حقيقة تبينها تالمون J. L. Talmon وشرحها قائلا "لقد أتت العقلانية بمبدأ المنفعة الاجتماعية بديلاً عن التقاليد الموروثة كمحكّ ومعيار للمؤسسات والقيم الاجتماعية...عندما يستأصل كل ما لا يقبله العقل ولا يتمشى مع المنطق" من كتابه 'جذور الديموقراطية الشمولية *The Origin of Totalitarian Democracy*' ص3 وما بعدها - أما ما حدث على الساحة فهو عكس هذا التوقع.

الواجبات المسلّم بها أو وجود أنماط ملزمة للعموم. وفي هذه الحالة يكون كل كائن بشريّ هو المرجع الأعلى في الحكم على الأنماط السلوكية التي تتحكم في كل من أسلوب حياته الخاصة والنظام الاجتماعي. وهذا هو ما تعنيه المثالية الجديدة بالشعارات التي تنادي بها مثل 'تحديد الإنسان مصيره لنفسه بنفسه' و 'النضج'، ففي ظل هذين الشعارين يُنظر بازدراء إلى إيّ إقرار بسلطة لا تناقش، أو الالتزام بأوامر هذه السلطة ونواهيها، بوصفه 'عملاً غير ناضج'. وتعزّز الوهم بأنه سيكون بمقدور كل انسان – مستعينًا بجهوده العقلية – أن يدرك ما يجب عليه أن يفعله وأن يتخذ قراره الحر المؤيد أو الرافض لما يجب عمله... وهكذا يكون من حق الفرد برغباته الخاصة غير الموضوعية، وبخبرته التي تتغير بتغير الظروف، وبعلمه المحصور وبفهمه المحدود – أن يعتبر نفسه حكماً ومقياساً لكل شيء. هذا ما يقوله بريتسينكا Brezinka الذي يستطرد ليصف مغبّة ذلك قائلاً: 'وهنا يستبدل الاعتقاد بالواجبات الضرورية الملزمة بتكيّف محسوب مع احتمالات كل يوم وظروفه. أما عشق المثل العليا التي تستلزم أن يتغلب الانسان على أنانيته وفرديته فهو شيء لا يمكن أن يظهر أبداً في مجتمع يعتبر فيه التشكيك في كل شيء عملاً تقدمياً. وبذبول هذا العشق واضمحلاله يتلاشى الدافع للرقيّ في المسائل الأخلاقية والحافز على الإخلاص المتفاني في عظائم الأمور... وفي ظل مناخ روحيّ كهذا يجلب ازدياد الأنانية التشاؤم وينذر بالخراب. ويصبح المرء غير عابئ بمصلحة غيره وينحصر همه في الاستحواذ على أفضل منفعة لنفسه طالما كان ذلك ممكنًا".[43] وبالإضافة إلى نبذ المثل العليا فإن 'قدرة الواقع الفعليّ على فرض أنماطه'[44] قد أعملت أثرها في المعايير الأخلاقية. فبعد أن أدرك فلاسفة العقلانية ومنظّرُوها فداحة الفجوة التي تفصل ما بين الناموس الأخلاقيّ المعترف به والتطبيق الفعليّ لهذا الناموس[45] وصلوا لاستنتاج مفاده أن الناموس الأخلاقيّ القائم يطالب الناس بالكثير، وبذلك تنتفي عنه صفة القبول والالزام، فبعد أن برهن علم الأعراق البشرية وعلم الاجتماع على نسبية القيم والمفاهيم الأخلاقية آل بنا الحال إلى التنديد بفضائل كانت لها القداسة منذ الأزل كاللطف والتواضع، والطاعة والاحترام، والدماثة والانضباط والأدب، والتفاني،

---

[43] في كتابه 'التعليم والثورة الثقافية *Erziehung und Kulturrevolution*' ص 16 وما بعدها

[44] عبارة صاغها جورج يللينك Georg Jellinek استاذ القانون الدستوريّ بجامعة هايدلبرج

[45] كما توصل اليه كنزي Kinsey في تقريره، على سبيل المثال

والأمانة، والنزاهة وما إليها، وذلك تحت شعار 'التحرير'[46] ثم تطرّق بنا الحال إلى استئصال أخلاقيات الطبقة المستغلة بمصطلحاتها ومفاهيمها من قاموس العامة.[47] أما تنشئة الأطفال وتربيتهم على هذه المثل العليا فقد رُفضت بوصفها 'تطويع' و 'تلقين' و 'تسلط أبويّ'،[48] كما حدث استهجان للأسرة[49] على أنها شكل بالٍ وعتيق من أشكال التسيُّد، وأنها 'المؤسسة

---

[46] للمزيد عن شعار التحرير أو العتق *Emanzipation* راجع بريتسنكا W. Brezinka (مرجع سابق ص 151وما بعدها)، وهانز ماير Hans Maier في كتابه 'البروتوكول *Protokoll*' ص 41، وكتابه 'منتدى برجيدورفير *Bergedorfer Gesprächskreis*'، ص 9، ثم كارل شتاينبوخ Karl Steinbuch في مؤلفه 'العارف بالكثير *Maßlos informiert*' ص 190، وهانز يوخن جام Hans Jochen Gamm في مقالته 'التحرير: أهم مشاكل التربية والتعليم Emanzipation: Schlüsselproblem der Erziehung' التي تضمنتها دوريّة 'المدرسة الألمانية *The German School*' المجلد رقم 65 اصدار عام 1973 ص 683 - 675

[47] للأمثلة على المصطلحات والمفردات المرفوضة راجع بريتسنكا W. Brezinka - مرجع سابق ص 56

[48] هناك برنامج ضد التربية والتعليم يطبَّق بكل شراسة يدعو إلى التحرر من التربية ومن كل لون من ألوان التعليم الذي وصمه هذا البرنامج بأنه ليس سوى 'خداع' و 'تعدٍّ على الأطفال'، و'جريمة' يجب 'القضاء عليها' ويقول قائلهم: "إن المربّين مثلهم كمثل تجار المخدرات يبدؤون أولا باستدراج ضحاياهم إلى فخ الادمان ليصيروا تابعيهم المخلصين. بيد أن عملية التعليم هذه لم تكن ضرورية على الاطلاق. وحالما يختبرها المرء من البداية إلى النهاية فبوسعه أن يلجأ إلى وسيلة علاج يتخلص بها من هذا الإدمان شيئًا فشيئًا"، من أقوال إيكبرد برون Ekkehard v. Braunmühl نشرت في كتيب صدر عن الرابطة الألمانية لحماية الطفل Deutsch Vereinigung für den Schutz der Kinder بعنوان 'هل تريد أن تتربى وتتعلم؟ لا، شكراً. *Erziehung? Nein danke!* '

[49] فيما يتعلق بالعائلة والزواج فإن من رأي هاينش Haensch أن الزواج والأسرة في البرجوازية – من المنظار الرافض للسلطة والرابط بين ممارسة الجنس والدوافع الاقتصادية – هما "نموذج مصغر للمجتمع التسلطي، فهما يجبران من ينشأ في ظلهما منذ الطفولة على التعود على الظروف التحكمية". ويرى أن الأسرة تمنع الأطفال والنشء والكبار عما أسماه 'تنمية أعضائهم التناسلية في حرية' واضعة القيود بذلك على ما يعتبره 'احتياجاتهم الضرورية للحياة' وتجعل منهم 'رعايا خانعين يخشون السلطة' ومن رايه أن الأسرة تقلب الأطفال إلى ما يصفه 'بضحايا القمع الجنسي' – قمع يؤدي فيما بعد إلى ممارستهم للقمع ضد الآخرين – ويمضي هيانش هذا فيقول: "إن القمع الجنسيّ يحدّ من مقدرة الانسان على النقد، ويعوّد الذهن على قبول أوضاع هي في الحقيقة ليست في صالح الإنسان". نقلا عن كتابه 'أساليب التحكم والكبت في الأسرة *Repressive Familienpolitik*' ص37 وما بعدها. أما بريتسينكا

السيادية للتسلط الاجتماعي’، و‘العائلة الدكتاتورية البورجوازية’، و‘الفراغ التربوي’، و‘العفن الوراثي’ ونودي باستبدالها بما أسموه ‘بأشكال بديلة للمشاركة’ وأما الزواج فقد وُصف بأنه عائق لعلاقة حب أصيلة[50] ونُودي بوضعه في متحف شأنه في ذلك شأن ‘النّول اليدويّ’ إذ إنه – على حدّ قولهم – ‘مؤسسة تليق بالأوزّ الرماديّ لا بالبشر’[51]

Brezinka فيوضح (في صفحة 126 من كتابه المشار اليه آنفا) أنه طبقا لهذا الاستقراء الجنسيّ المتحرر عن الأوضاع التربوية في الأسرة فإنه ليس إلاّ بتر جذريّ لصلتنا بالتربية التقليدية في الأسرة كما نشاهدها فيما يسمى ‘بالعائلة الكبيرة’ أو ‘المجتمعات الأسرية’ أو ‘الكميونات’ – بمقدوره أن يمدنا بما أسماه ‘بأشكال تعايش جماعيّ (بديلة) تسعى إلى خلق انسان جديد في مجتمع ثوريّ’. للمزيد راجع أيضا ما كتبه بريستنكا في صفحة 185 من نفس الكتاب. وفي إشارة لما قاله جيمس راميه James W. Ramey يقول رولف شفينتر Rolf Schwendter في صفحة 412 من كتابه ‘نظرية الثقافة الفرعية *Theorie der Subkultur*’ أن شبكة من الصداقات الحميمة مكونة من أصدقاء تحيطهم ببعضهم البعض صلات قوية تجعلهم يكوّنون نواة اجتماعية ومن أصدقاء قريبين من هذه المجموعة بوسعها أن تحل محل الأسرة. ويبين استقصاء تم في الولايات المتحدة عن المدى الذي آل اليه تدهور الأسرة – فإن 37 بالمئة فقط من السكان يعيشون ضمن أسرة، كذلك فإن الرغبة في الزواج آخذة في الانخفاض أيضًا في جمهورية ألمانيا الاتحادية (الغربية آنذاك)، فطبقًا لبيانات مكتب الإحصاء الفيدراليّ بمدينة فايسبادن Wiesbaden كانت هناك 370,265 حالة عقد زواج فقط خلال عام 1974 في حين أن عام 1962 شهد اتمام 530,640 عقدًا. وزادت حالات الطلاق في نفس الفترة من 49,580 حالة (عام 1962) إلى 98,584 (عام 1974) نقلا عن جريدة نهري الراين والنيكار *Rhein-Neckar-Zeitung* عدد اكتوبر 1979

[50] يقول هيربرت أميند Herbert Amend في كتابه ‘الواجهة الجنسية *Sexfront*’، ص 78 : "أذا كان هناك من يرغب في الزواج أو يكون مستعدًا أو مستطيعًا له، فهم أولئك الذين عاشوا طفولة ممزّقة إلى حدٍ ما. إلّا أنهم يتمزّقون تماماً في الزواج، إذ إنهم لا يعودون يحققون رغباتهم واحتياجاتهم الجنسية حالما تتبدد الحداثة والنشوة الأولية للزواج" وبناء على ذلك فإنه يساوي ما بين الزواج وما يسميه ‘البتر الطوعيّ للاحتياجات الجنسية’. ولقد تناول ادوارد شورتر Edward Shorter تدهور الزواج في الغرب في مؤلفه ‘تكوين الأسرة الحديثة *The Making of the Modern Family*’- طبع نيويورك عن دار Basic Books عام 1975.

[51] أورده رولف شفينتر Rolf Schwendter في كتابه ‘نظرية الحضارة الفرعية *Theorie der Subkultur*’ ص 218. وبما أن الزواج يجري استبداله يومًا بعد يوم بالمعاشرة بغير زواج (أو زواج المتعة) فإن المرافقة هي الأخرى ستنتهي على يد تطور جديد. فالعزلة والانفرادية هي الموضة، إذ أن الناس لم يعد يقبلون التبعات التي يجلبها العيش مع شخص آخر. فهم يعيشون فرادى ولكنهم لا يأوون إلى الفراش فرادي، ويطلق عليهم لقب ‘طائفة العُزّاب’ ولا يجلب هذا ‘العيش من دون مشاكل’ – كما يحلو لهم أن يسمونه – سوى الوحشة والسأم، إلا أن هناك آراء جاهر بها البعض

وكذلك لم تعد العلاقة الجنسية مقصورة على الزواج،[52] فعملاً بشعار 'جسمك ملكك' أعلن أن إشباع الرغبات الجنسية أمر شخصيّ تمامًا. أما عن حفظ المقامات الطبيعية بين الناس كما هو الحاصل بين الأب وإبنه،[53] أو المعلم والتلميذ، فقد نُدّد به بوصفه عقبة تعطل المشاعر الحميمة. كما وصمت على أنها كبت لكل أشكال القيم الأخلاقية المنظّمة – إذ قال قائلهم "إن الأخلاق السائدة هي أخلاق الأسياد".

أخيرًا بما ينمّ عن وجود وجهة نظر آخرى. فقد أدرك عدد لا بأس به من الناس أن الانحلال الجنسيّ يجلب التعاسة بدلاً من السعادة، ذلك لأن الانحلال الجنسيّ – كما يبين إريك فروم Erich Fromm آنفا – ما هو الّا شكل آخر من أشكال الهروب والإدمان مثل الخمور والمخدرات (للمزيد راجع كتاب 'اللون الجديد للعزوبية *The New Celibacy*' لجابرييل براون Gabrielle Brown طبع نيويورك عن دار McGraw Hill عام 1979)

[52] بعد رفع الحظر على المعاشرة بغير زواج في الولايات الألمانية في ستينيات القرن العشرين، يجري الآن تمهيد الساحة لإعطاء زواج المرافقة نفس الصفة القانونية التي يتمتّع بها الزواج الصحيح فلقد أصدرت محكمة برلين الإدارية في 15 مايو يناير من عام 1980 قرارًا بمنح الموظفين الحكوميين الذين يعيشون في ظروف تشبه الزواج العلاوات التي تمنح عادة للمتزوجين بموجب لوائح المرتبات الفيدرالية. وهو قرار بني على تغير في وجهة النظر (إلى المعاشرة) في العشر سنوات التي سبقت إصداره – بمعنى أن اختيار المعاشرة في علاقة دائمة دون عقد زواج رسميّ أصبح أمرًا مقبولاً كقرار شخصيّ لشريكي هذه العلاقة. (نقلا عن دورية 'النشرة القانونية الأسبوعية *Neue Juristische Wochenschrift*' العدد 19 لسنة 1980 ص 6)

[53] ويتضح المدى الذي أصبح عنده الهجوم على القيم الموروثة يتحكم في الأهداف التعليمية ممّا تحتويه كتب القراءة المدرسية التي تعتمدها السلطات التعليمية في عديد من الولايات الألمانية. إذ توجد الفقرة التالية في الكتاب العمليّ لمادة الدراسات الاجتماعية المقرر على الصفوف السابع وحتّى التاسع (سلسلة فيشر K. G. Fischer) الطبعة الثانية، شتوتجارت عام 1973 في الصفحة 99 وما بعدها – فصل الأسرة: "إن الأسرة التقليدية (التي يعيش فيها الأبوان والأبناء في مكان واحد) مؤسسة تهدر قدرًا طائلاً من الوقت والمال...ولا يعلم كم هو غبيّ وقذر هذا النوع من الأسرة إلا من عاش فيها...ذلك الشعور بأنك مقيد الحرّية" وهناك أيضًا قصيدة في كتاب *Fischer-Taschenbuch* رقم 1147 (ص 300 وما بعدها) بعنوان بشارة الكريسماس Advent وهي من المواد الموصي بها للمستوي الثانويّ الأول طبقًا للإرشادات التعليلية في إحدى الولايات الألمانية – ويقول هذا الشعر: "أبشر! أبشر! – تحترق الغرفة – ببسطها وستائرها – أبي يحترق – وأمي تحترق – وأنا آكل برتقالاً – أبي وأمي يريدان حرماني من الميراث – ويوصيان بأموالهما لجمعية الرفق بالحيوان – فيجب الآن أن يموتا – ولأني ابنهما العزيز – فطالما وددت في سري – عندما تحين الفرصة – في الكريسماس أن أشويهما كما يشوى الدجاج".

ولقد حلت الآراء والمفاهيم القيَمية والأنماط السلوكية التي توصل اليها علماء النفس والاجتماع المتخصّصون في السلوكيات – حلت محل المعايير الأخلاقية التي جاءت بها الأديان. وصارت المدارس، التي طفق العلم التحرُّريّ الذي تلقّنه في تحرير الناشئة من الالتزام بمعايير واعتقادات دينية معينة، تعمل كأداة رافعة لإحداث التحول الاجتماعيّ المطلوب. فالمدارس قد أعدت الآن لتحرير الأجيال الصاعدة والأخذ بيدها نحو تقرير المصير والنضج،[54] ونحو حكم الذات والحرية، دونما تقيد بأية تقاليد أو مؤسسات، ودونما أيّ اعتراف بمراكز السلطة. ويسعى هذا النظام التعليميّ أيضًا إلى اعداد الشباب للعيش في مجتمع محرَّر يقرر فيه كل فرد مصيره بنفسه، ولكنه مجتمع من المفروض فيه – في الوقت نفسه – أن يضمن التماسك الاجتماعي. أما إذا لم يكن الخيال بخَلق ذلك الفرد المتحكم في نفسه ومصيره وارداً فإن هذا النظام التعليميّ يسعى في هذه الحالة إلى ربط الفرد بمن جلسوا حديثًا على مقعد السلطة[55] وبدلاً من إعطاء التوجيه الأساسيّ وخلق الوعي على أساس من معايير أخلاقية معينة فإن هناك نظامًا تعليميًا يسمّي نفسه 'التعليم الرافض للسلطة'[56] يلقِّن التشكيك العميق في القيم المتوارثة، وعدم الثقة بالمجتمع على طول الخط،[57] وبكل شكل من الأنماط

[54] لمعرفة المزيد عن مصطلحي 'تقرير المصير والنضج' من مفهوم العلمانية – راجع مؤلف برتسينكا Brezinka 'التعليم والثورة الثقافية *Erziehung und Kulturrevolution*' صفحة 148 وسنتحدث أيضًا عن هذين المصطلحين في موضع لاحق

[55] عن هذا الموضوع بأكمله راجع كتاب المؤلف كارل جونتسلر Günzler 'الأبعاد الأنثروبولوجية والسلوكية في المدرسة *Anthropologische und ethische Dimensionen der Schule*' طبعة فرايبورج وميونخ عام 1976.

[56] أنظر بريتسينكا في مرجعه المشار اليه آنفًا، ص 166 وما بعدها وكذلك فإن مونيكا زايفيرت Monika Seifert تطالب بالسماح للأطفال بان ينموا "في منأى عن أي شعور بالذنب أو ما نسميه بالأخلاقيات" على حد قولها في مقالة لها بعنوان 'التعليم غير المتسلّط Antiautoritare Erzichun' وردت في كتاب لفريبرج S. H. Fraiberg عنوانه 'يفهم الطفل ذلك *Das verstandene Kind*'، ص 306

[57] ينبع هذا الانتقاد للسلطة من معايشة مباشرة لسلطة بالية ومن ثم فهي غير حقيقية، وكذلك من جراء التحكم التكنوقراطيّ في الإنسان واستغلاله لحساب الجهاز الاقتصاديّ القائم على الصناعة. (أنظر ما قاله ماركيوز H. Marcuse في كتابه 'الإنسان الأحاديّ البعد *One-Dimensional Man*'

والمؤسسات والسلطة يفرض قيوداً على حرية الفرد.[58] إلا أننا لا نخرج من كل هذا سوى بعدم الأمان وفقدان التوجيه وتدمير القيم، والغرور الذي يصيب كل من تلقى هذا النوع من التعليم[59] والمزيد من التنازعات الوجدانية، والجديد من مشاعر الدونيّة، والكثير من مشاعر الخوف من الحياة. وهي جميعها أعراض تظهر ظهور العيان على جمع كبير من طلبة المدارس الثانوية والجامعات[60] وتفضي إلى الانحلال الخلقيّ للمجتمع. أما الحقيقة التربوية البسيطة فلم يعد هناك من يدركها وهي حقيقة مفادها: "لا يستطيع المرء أن يمتلك وعياً مستقلاً ومقدرة على تقرير مصيره بنفسه إلا إذا تمرّس لفترة طويلة على طاعة السلطة، وأجبر على الاستغناء عن إشباع نزواته، وانصاع للأوامر والنواهي، وخضع للمجازاة والمكافآة".[61]

الثورة اللغويّة

لقد صاحبت العملية التي دعا اليها نيتشه Nietzsche وأسماها ‘إعادة تقييم كل القيم’ عملية أخرى هي "إعادة تقييم كل المفردات اللغوية التي يرتكز عليها أساس الدولة والمجتمع". وكما يقول كارل شتاينبوك Karl Steinbuch فلقد "جَرّد هذا الخداع اللفظيّ مفردات اللغة الدارجة من معناها المتعارف عليه وصار يستخدم هذه المفردات بمكر ودهاء بكيفية أخري"[62] فاللغة قد أصبحت بذلك أداة من أدوات الصراع السياسي. فطبقًا لما يقوله

---

[58] كما قالها شيلسكي في كتابه ’آخرون يقومون بالعمل *Die Arbeit tun die anderen*’ ص 411

[59] يفرز هذا النمط من التعليم "شبابًا يقرّون ويسلّمون بغير مناقشة بأن تقرير الإنسان لمصيره يمكن أن يتحقق دون حاجة منه للتحسن والترقي. " (نقلا عن شيلسكي في مرجعه المشار اليه آنفا ص 414

[60] قالها شيلسكي في مرجع سابق ص 411، راجع أيضا الحاشية رقم 229 من فصلنا الثاني هذا، ويضاف إلى هذه الظاهرة ما يصاحبها من زيادة اللجوء إلى المخدّرات والهروب من الواقع باستخدام عقاقير الهلوسة، والزيادة الخطيرة في استهلاك المشروبات الكحولية (راجع ما سنذكره تاليًا تحت موضوع ‘الهروبية’)

[61] وردت في كتاب بريتسنكا ‘التعلم والثورة الثقافية *Erziehung und Kulturrevolution*’ ص 169

[62] في كتاب كارل ستاينبوخ Karl Steinbuch‘العارف بالكثير *Maßlos informiert*’ ص 299 – 300. أما جورج أورويل George Orwell في كتابه (سنة ألف وتسعمائة وأربعة وثمانين *Nineteen-Eighty-Four*) فيسمي من يصدر عنه هذا الخداع ‘أبو الكلام الجديد’Newspeak

شيلسكي Schelsky[63] الذي تناول بتحليله النقديّ عملية التسريب المنظم للغة في حلبة هذا الصراع، بقدر ما فعل زميله بريتسنكاBrezinka[64] "إن التناحر من أجل السيادة والصراع الطبقيّ اليوم في ألمانيا الفيدرالية يتخذان شكل التصارع على اللغة والمفاهيم" أي أن ثبات المصطلحات والفهم المتعارف عليه لمعناها ومضمونها – وهو أمر كان واقعًا مُسلّمًا به في المواجهات الدائرة بين الآراء الاجتماعية والسياسية المختلفة منذ ما لا يزيد عن بضعة عقود مضت من السنين – قد صار يذبل شيئًا فشيئًا تاركًا لنا ‘فوضى لغوية’[65] و "بلبلة بابلية متعمّدة في اللغة"[66] وخلخلة المصطلحات هذه لها من التبعات والأثر مثل ما لخلخلة النظام بفعل عدم الاكتراث والاهمال. وهو مآل وصفه كارل شتاينبوك Karl Steinbuch قائلاً: "في غياب أساس متين من المفاهيم والأنظمة والمصطلحات والهياكل لا يكون هناك تقدم يُذكر – فعندما تفقد المصطلحات والهياكل ثباتها نجد أنفسنا نهوي في الهاوية"[67]

وتزخر المكتبات بالمراجع والمؤلفات التي تتناول تحكم الايديولوجيات في اللغة والوصول من خلالها إلى التحكم في الانسان نفسه. وهي مؤلفات تكشف الأساليب الماهرة التي تستخدم في ذلك، فيعطينا برتسنكا Brezinka مثالاً توضيحيًا لتلك الأساليب بالتطبيق على مصطلحين اثنين هما ‘تحديد الذاتيّ للمصير’ و ‘النضج’، فيقول: "القصد الآن من عبارة ‘القدرة على التحديد الذاتيّ للمصير’ هو ‘القدرة على التحرر من التبعية’، و‘الحياة كإنسان محرّر’"[68] أي أن هذه العبارة تستخدم اليوم لتنفي تمامًا المفهوم الأخلاقيّ للتحديد الذاتيّ للمصير كما كان في الماضي – ألا وهو

---

[63] في كتابه ‘آخرون يقومون بالعمل *Die Arbeit tun die anderen*’ ص 318

[64] في كتابه ‘التعليم والثورة الثقافية *Erziehung und Kulturrevolution*’ ص 54 وما بعدها، ص 73، وص 108، وص 156

[65] على حد تعبير ويلهلم هينيز Wilhelm Hennis في كتابه محاورات بيرجدورفر عن المجتمع الصناعيّ الحر *Bergedorfer Gesprächskreis* المضبطة Protokoll رقم 41 – ص 20 – 21

[66] كارل شتاينبوخ Karl Steinbuch في كتابه ‘العارف بالكثير *Maßlos informiert*’ ص 202

[67] المرجع السابق ص 191

[68] أنظر كتاب بريتسينكا Brezinka ‘التعليم والثورة الثقافية *Erziehung und Kulturrevolution*’ ص 154

"القدرة على الانضباط والتغلب على الأنانية والاستحواذ، وكبح جماح النفس والهوى، والالتزام الطوعي بالناموس الأخلاقيّ".[69]

وحتى عندما كان عصر التنوير في بدايته وإبّان الفترة المسمّاه بالكلاسيكية الألمانية، فان التحديد الذاتيّ للمصير كان يعدّ من الفضائل الأخلاقية بوصفه المقدرة على الانضباط وقهر النفس إلى حد نكرانها". أما طبقًا للمفهوم الجديد فإن التحديد الذاتيّ للمصير هو "المقدرة على الاستمتاع بدلاً من الانتصار على النفس، والاستعداد للتمرد على المعايير الأخلاقية بدلاً من الالتزام بها، والتعود على مطالبة المجتمع بالإسعاد وتحيّن كل فرصة للتلذّذ بدلاً من الخدمة وتطهير النفس والقلب".[70]

فبينما كان المقصود بكلمة ‘النضج’ هو "قدرة الفرد على العيش معتمدًا على نفسه في المجتمع بأوضاعه الماثلة مع إدراكه لمسئوليته الأخلاقية"، فإن مفهوم هذه الكلمة اليوم هو القدرة النفسية على "إعمال النقد الجذريّ في المجتمع بأوضاعه الماثلة والمشاركة في تغييره طبقًا للمبادئ الاشتراكية المغايرة التي تحدّد ما يجب أن يكون عليه هذا المجتمع".[71]

ومن أحد الأساليب الماهرة التي استخدمت في عملية تغيير المفهوم اللغويّ للمصطلحات المتعارف عليها هو الجمع بين الأضّداد المتنافرة مثل استخدام المفكر هيربرت ماركيوز Herbert Marcuse لمصطلح ‘التسامح الكابت’، كذلك استخدام عالمة اللاهوت دوروثي سوللي Dorothee Sölle لعبارة ‘الكراهية الخلاقة’. ومن هذه الأساليب أيضًا إعطاء مفهوم مغاير لمصطلحات مثل ‘العنف’[72] و ‘الحَرِج’ والبرجوازية وغيرها. ويلعب تحريف المصطلحات السياسية الرئيسية والتمويه اللغويّ الذي يكسر المعاني الأصلية ثم يطلق المصطلحات المزيّفه داخل المجتمع لتحاكي انطلاق جنود الأعداء الذين اختبئوا داخل الحصان ليهزموا مملكة طروادة – يلعب هذا التحريف دورًا كبيرًا في عملية الانحلال والتفسّخ الاجتماعيّ التي نشاهدها

---

[69] بريتسينكا في مرجع سابق ص 156

[70] بريتسينكا في مرجع سابق ص 157

[71] بريتسينكا في مرجع سابق ص 148، وجونتر ايبرزولد Günther Ebersold في كتابه ‘النضج: في تاريخ أحد المفاهيم *Mündigkeit — Zur Geschichte eines Begriffs*’ طبع فرانكفورت عام 1980

[72] سيأتي المزيد عن ذكر العنف في موضع لاحق من هذا الفصل عندما نتناول مسألة العنف والإرهاب

ونمارسها في يومنا هذا. ولقد فَطِنَ أساطين الحكمة في الصين إلى العلاقة بين اللغة واستتباب نظام الحكم. إذ قال قائلهم "إن الموت المبكّر والانهيار والخراب لا يحدث من تلقاء ذاته وإنما يأتي من جرّاء خلط المصطلحات وتمويهها"[73]

ويصف كونفوشيوس تسلسل الأحداث التي تقع حيثما تفسد اللغة وتفقد تماسكها، بقوله: "حينما تكون المفاهيم والمصطلحات خاطئة. فعندئذ لا تتفق الأقوال مع الحقائق. وحينما لا يتطابق القول والحقيقة. فعندئذ تختل المعاملات. وعندما يختل التعامل. لا يزدهر النظام والوفاق. وعندما يذوي النظام والوفاق. ينقلب العدل قسرًا واجبارًا. وعندما يصبح العدل إجبارًا. يعجز الناس عن الحركة يداً وقدماً. ولذا فالحكيم يستطيع دوماً تعريف ما يقوله. وما يعرّفه يستطيع دوماً أن يمارسه... فالحكيم لا يسمح بأيّ حال بوجود إهمال فيما يُعرِّفه". [74]

وقال كونفوشيوس أيضًا في موضع آخر "إني أمقت الكيفية التي تطيح بها الألسن السليطة بكل من البلاد والعائلات". [75]

وهناك عبارة للفيلسوف الفرنسيّ كلود أدريان هلفتيوس Claude Adrien Helvétius تفيد إنه من الواضح أن هذه الظاهرة قد حدثت من قبل في فترات تاريخية أخرى، وهي قوله: "من يرغب في تنوير الناس بدلاً من أن يخدعهم عليه أن يتكلم بلسانهم". [76]

المدينة الفاضلة في مجتمع فوضويّ!

تتبوأ الحرية أعلى مكانة في ناموس القيم العَلمَانيّ. وهي بالفعل واحدة من القيم الأساسية، فمن دون الحرية لا يمكن للفرد أن يبني

---

[73] الفيلسوف لو بو وي Lü Bu We (عام 252 قبل الميلاد) في كتاب بعنوان ‘عندما تنقصنا ورقة التوت *Wenn ein Blatt sich bewegt*’ (أي عندما يختفي الحياء)، إصدار الكاتب هـ. تييك H. Tieck ص 82

[74] كتاب ‘الشذرات *The Analects*’ (منتخبات من أقوال الحكيم كونفوشيوس) المجلد السابع، الكتاب الثالث عشر، السفر الثالث، الفقرات من 4-6

[75] المرجع السابق المجلد السابع، الكتاب السابع عشر السفر الثامن عشر

[76] في كتابه ‘بحث في الإنسان: ملكاته الذهنية وتربيته *A Treatise on Man: His Intellectual Faculties and His Education*’ (عام 1774)، المجلد الأول ص 75 حاشية رقم 6

شخصيته. وعلى الطرف المضاد لقطب الحرية هناك قطب النظام، وهو أمر لا يستطيع الإنسان في نفس الوقت أيضًا أن يحيا من دونه. فالحرية المطلقة هي انتهاء الأمن والأمان إذ إنها تجلب الهرْج والمرْج، والنظام توأم الحرية الشقيق وهو أيضًا عدوّ الإرادة الإنفرادية اللّدود. فالعلاقة بين الحرية والنظام هي علاقة أشبه بحلبة شدّ وجذب، فالشدّ والجذب غير مستغربين بين الأشقاء. والمشكلة التي تعرض نفسها هنا تتعلق بمبادئ السلطة والهيكلية اللتين يجب أن يُبنى عليهما المجتمع كي يتسنى لهذين المنهجين المتنافرين أن يتعايشا في ظل رباط من الوفاق والتوازن.

ويبدو أن هذه النظرة لم تعد هي الرأي السائد *Communis Opinio* في يومنا هذا فلقد رأينا النزعة المنادية بتأليه الدولة والممارسة المطلقة للسلطة والفقدان الكامل للحريات في ظل الحكم الفاشستي، وما تبع ذلك من إشانة لسمعة القانون والنظام. فمن رأي عالم الاجتماع دارندورف Dahrendorf إذ يقول إنه "ليس النزاع والتغيير هما الحالة المرضية الخاصة في الحياة وإنما هو الاستقرار والنظام".[77] وينظر الكثيرون إلى ‘القانون’ و ‘النظام’ بوصفهما شعارين سياسيين لدولة تقمع الحريات، كما يعتبرهما الكثيرون أيضًا لفظين من ألفاظ قاموس القسوة اللاإنسانية. ومن هنا لقيت الدعوة إلى الفوضوية (والعيش بغير سلطة أو حكومة) – وهي فكرة مبنية على التحرر التام من كل القيود ولا يجب مساواتها بالإرهاب بشكله الحاليّ – لقيت استحسانًا أعادها للحياة.[78] وهناك هجوم دام سنيناً

[77] في كتابه ‘المجتمع والحرية *Gesellschaft und Freiheit*’ ص 81

[78] يعتبر ماكس شتيرنر Max Stirner (المولود عام 1806 والمتوفي عام 1856) الأكثر تطرفًا من بين المنادين بحركة التعليم التحريريّ المناوئ للسلطة السائدة اليوم – إذ نادى في كتابه ‘النفس وذاتها *The Ego and His Own*’ الصادر عام 1844 بخلق ما أسماه ‘الإنسان الحر’ (في صفحة 126 من هذا الكتاب، وبالتحرر من ألوان السلطة...الصفحات 129 وما بعدها، ثم 227 وما بعدها، ثم 235 وما بعدها ثم 238 وما بعدها). وقد اعتبر شتيرنر أن الاعتقاد في الله، والحرية، والأخلاقيات، والعدل، والفضيلة، والانسانية، هي ‘أفكار مسيطرة’ أو ‘أوهام’ (ص 44 من كتابه هذا)، وأن من يجعل هذه الأفكار جزءًا من حياته ما هو الا سجينها الأسير. واعتبر أن الضمير ‘عبودية داخلية’ أو ‘شرطيّ قابع في السّريرة’ (ص 89 من كتابه)، ويرى أن الناس كانت تتربّى على ‘إذلال النفس’ حيال المعايير الأخلاقية التي لم تكن عنده سوى ‘أشباح وخيالات’. (ص 82 من الكتاب) وصرح قائلا "إن الدولة والدين والضمير – هؤلاء الطغاة المستبدّون، يجعلوني عبداً" (ص 107) ومن رأيه أيضًا إن المرء لا يستطيع من جراء ذلك أن يحسن من الدولة والمجتمع، إذ إن كليهما – على حد قوله – "يجب الغاؤهما، وتدميرهما والاستغناء عنهما بدلاً من اصلاحهما" (ص235). فليس هناك ما يسمى ‘بالمصير’ عند شتيرنر إلا ما يتوهّمه المرء، ويرى أن الانسان غير

طويلة ليس لأشكال معينة من الحكم فحسب بل لفكرة الحكم من أساسها. ويقول المنادون بالفوضوية إن حكم الناس للناس ليس وضعاً طبيعياً وإنما هو تبعة ظلت تلازم البشرية منذ خروج الانسان من الجنّة (كما تقول قصة بدء الخليقة) وأفقدتنا فطرتنا الساذجة التي جُبل عليها الإنسان وهي الخلوّ من السيطرة، وهي الحالة التي يتوق اليها الفوضويون من كل العصور. وينظر من يأخذون بهذا الرأي إلى الدولة على أنها ‹الإرهابيّ الحاكم›.

ويعتبر هربرت ماركيوز وغيره أن كل شكل من أشكال السيادة أمر غير شرعي، وينادون بتطوير يشمل جميع البشر لا يعوقه أيّ عائق. ويدعون إلى صبغة للحياة على المشاع – صبغة تخلو من الحكم، فوضوّية بمعنى الحرف لا تتقيد بأية قيود تأتي بها أية مؤسسات قانونية متطفلة – بوصفها الشكل الوحيد المقبول للمجتمع، متطلعين بذلك إلى حالة اجتماعية ينتهي فيها ما يسمونه ‹تحكّم الناس في غيرهم من الناس›، وما يترتب عليه من استغلال الناس للآخرين، وتوفر ما يطلق عليه ‹العيش المسالم›[79]

مدعوّ لأيّ رسالة أو مهمة نبيلة وليس هناك أيّ هدف في الحياة (ص 326 من كتابه)، وأخيرًا اليك قولته الشهيرة "إن ما يهمني ليس هو السماويّ أو الانسانيّ، ولا هو الصحيح أو الصالح أو العادل أو الحر، بل ما يهمّني هو ما هو في يميني وملكي، وليس هذا شيئًا عاديًا وإنما فريدًا، ذلك لأني أنا فريد". (ص 5 من كتابه)

وعن أصحاب نفس هذا الرأي ومؤلفاتهم راجع أيضًا جيمس جول James Joll في مؤلفه ‹الفوضويّون *The Anarchists*› طبع لندن عام 1964 للناشر Eyre & Spottiswoode، (وطبع أيضا بنيويورك عام 1966 للناشر Grosser & Dunlap) ثم مايكل باكونين Michael Bakunin في مؤلفه ‹الله والدولة *God and the State*› طبع عام 1920في جلاسجو للناشر The Bakunin Press وطبع أيضا عام 1970 في نيويورك للناشر Dover Publication. ثم مارتن بوبر Martin Buber في مؤلفه ‹الاشتراكية اليوتوبية *Der utopische Sozialismus*› طبع عام 1967 للناشر الألمانيّ Hegner-Bücherei. ثم جان شاتيبول Jan Cattepoel في كتابه ‹الفوضوية، والشخصيات، والتاريخ، والمشاكل *Der Anarchismus. Gestalten*، *Geschichte*، *Proble*› طبع ميونخ عام 1979. وكذلك الكاتبة الألمانية إديث يوكن إردزيك Edith Eucken-Erdsiek في مؤلفها ‹سحر المبالغات – بحث في مصاعب التربية الروحية *Magie der Extreme. Von der Schwierigkeit einer geistigen Orientierung*› طبع فرايبورج عام 1981.

[79] هربرت ماركيوزHerbert Marcuse في كتابه ‹الإنسان الأحاديّ البعد *One-Dimensional Man*› ص 235

و'الحياة الناجحة'[80] ويتخيّل هذا الفكر اليوطوبيّ مجتمعًا يخلو من العوز والحاجة، مجتمعًا يتحرّر كل من فيه 'من الكدح اليوميّ للعيش والكسب'[81] أي أنه مجتمع لا حاجة لمن فيه إلى العمل. وستتوفر في أرض الخمول والترف هذه درجة أعلى من العقلانيّة والعدالة والحرية والجمال والسعادة والفضائل الانسانية، وسيتسنّى فيها للإنسان بلوغ 'التحديد الذاتيّ الصحيح للمصير'[82] والهدف من هذه النظرية هو خلق الإنسان الجديد – انسان تربّى في منأى عن السلطة ومجبول على الخلاّقية التلقائية. ويمكن أن يُفهم مبدأ عدم حكم الإنسان للإنسان في نهاية الأمر على أنه رغبة من الإنسان في المالانهائيات، كرغبته في التشبّه بالخالق: فالله غير محكوم *anarchos* لا يخضع لإرادة غيره.

بيد أن مفهوم اللامحكومية – أي تأسيس مجتمع يخلو من السيطرة ومن حكم الإنسان للإنسان - هي أضغاث أحلام.[83] فلقد كتب ماكس شتيرنر Max Stirner عن هذا الاشتياق المنفلت إلى الحرية إذ يقول: **"**يعود كل شيء إلى التساؤل عما هو مقدار الحرية التي يجب أن يكون عليها الإنسان. فكلنا جميعاً نؤمن بحرية الفرد وكلنا جميعاً ليبراليون والوضع لا يخرج عن ذلك. لكن أنّى لنا أن نشكم 'اللاإنسان *un-man*'[84] ذلك الشيء القابع في سريرة كل فرد؟ وكيف يتسنّى لنا أن نتخذ من التدابير ما يُبقي القيود على ذلك اللاإنسان في نفس الوقت التي نرفعها عن الإنسان؟ **"**[85] فلا يمكن للناس أن تعيش سويًّا دون نظام سياسي، أو بغير مؤسسات الحكم. ذلك لأن هناك خطراً دائماً من تضارب الآراء والخلاف عندما يعيش الناس معًا ويتفاعل

---

[80] يورجن هابرماز Jürgen Habermas في كتاب 'المعرفة والمصلحة *Erkenntnis und Interesse*' ص 164

[81] هربرت ماركيوز مرجع ذكر آنفا ص 4

[82] هربرت ماركيوز مرجع ذكر آنفا - ص 251

[83] وللمرء هنا أن يتساءل في جدّية "لماذا يتعين اعتبار الإيمان بالله أمرًا غير مقبول، بينما يكون الاعتقاد بإمكان محاكاة الانسان للخالق أمرًا مقبولاً؟".

[84] في ملاحظة لمترجم الطبعة الانجليزية لكتابنا هذا يقول: علينا أن نتذكر أنه لكي يكون المرء لاإنسانياً"UN-MAN" يتعين عليه أن يكون 'إنساناً' في البداية فهذا المصطلح يقصد إنساناً قد صار لا إنساناً أو أصبح لا إنسانياً، أي أنه بشر وليس ببشر، فالنّمر، أو الانهيار الجليدي، أو القحط، أو الكرنب – لا يمكن أن يكون لا إنساناً.

[85] كتاب 'النفس وذاتها *The Ego and His Own*' الجزء الثاني الفصل الثالث ص 139-140

كل فرد مع الآخر وينجم خطر الخلاف هذا – وهو ما لا يمكن تفاديه حتى في مجتمع وفرة وثراء يتقاسم أهله نفس الاهتمامات والمشارب – عما يصفه أحد المفكرين "بممارسة الإرادة الحرة مع مشاركة الآخرين في حيّز العيش والحياة"[86] ويصير هذا الخلاف خطرًا على النوع البشريّ إذ أن تسوية النّزاع – في غيبة وازع الضمير الذي ينهى الإنسان عن قتل أخيه الإنسان – قد يفضي إلى صراع دمويّ تزهق فيه الأرواح. ويستطرد المفكرّ في شرح هذا الوضع قائلاً: "طالما كانت هناك كائنات تُعمِل الفكر والعقل في شئون الحياة وتتفاعل فيما بينها سلبًا وإيجابًا في حيّز معيشيّ مشترك ولا تحيا في ظل قانون عام وإنما تتصرف بكل بساطة وفقًا لما تعتقد أنه صالح وصواب، فعندئذ لا يكون الأفراد بل والجماعات والشعوب بأسرها في مأمن من التشاحن أو التقاتل"[87] فالعيش المشترك في غيبة من القانون والنظام يفضي إلى حرب شاملة. أو بالمصطلح اللاتينيّ القائل: حرب الجميع ضد الجميع *bellum omnium contra omnes* و"ينقلب حق الفرد في أن يفعل ما يشاء – إذا ما رمقناه بنظرة فاحصة – إلى حق الفرد في ألا يفعل شيئاً"،[88] كما يصف هذا المفكر، ذلك لأن للحرية حدوداً ذاتية، وإذا لم تكن للحرية حدودٌ تحدّها ويضمنها القانون العام، وإذا لم يكن هناك قانونٌ راسخ ملزم يرتكن إلى سلطة سياسية، وإذا لم يكن هناك نظامٌ عام فإن "الحرية الفردية تبقى دائماً أبداً مهددة بخطر الانحدار نحو العدم".[89] فالحاجة إلى القانون والنظام إذن هي من الحاجات الأساسية عند البشر. ويجب إخضاع الرغبة في السلطة – شأنها في ذلك شأن سائر الرغبات – للقواعد والضوابط. فمراد الدولة من الحكم هو جَعل اللجوء إلى العنف هو الاستثناء، والتعايش في سلام هو القاعدة.

مجتمع بلا قيود

إن فكرة العيش المشترك بغير مؤسسات حاكمة هو الحلم الرائع لأقلّية مخدوعة. إلا أن المجتمع المعاصر بشكل عام ينزع إلى تحطيم الحواجز أو إزاحتها بالكيفية التي تفسح المجال للمزيد من حرية الفرد. فقد

---

[86] الكاتب أوتفريد هوفي Otfried Höffe في كتابه ‘حرية المُلك أم مجرّد الحكم؟ *Herrschaftsfreiheit oder gerechte Herrschaft?*’

[87] المرجع السابق

[88] المرجع السابق

[89] المرجع السابق

كان شعار ‘القدرة على *الخيال L’imagination au pouvoir*’ واحدًا من الشعارات السياسية التي نادت بها ثورة الطلبة عام 1968 في فرنسا. أما عاقبة هذا العمل فلم تكن تقلق أحداً، فقد حُطّمت جميع لوائح المنع فيما عدا لوحة واحدة هي ‘ممنوع المنع’ – أي قد صار العيب هو أن تقول ‘عيب’!

فالمجتمع الإباحيّ يبيح الآن – تحت سمع وبصر حكومة لا تكترث – أنماطاً من السلوك كانت محظورة لآلاف من السنين، ولا تزال عقيرة المناداة بالمزيد من التحلل عالية. ويصف هانز شيفرHans Schaefer هذه الحالة قائلاً "إن أصداء المناداة بالمتعة والتحرر تتردد في سماء عالمنا".[90] وهكذا باتت حضارتنا الغربية وكأنها تتحول تدريجياً إلى مدينة المتعة والسعادة التي تحكي عنها أوبرا ماهاجونّي Mahagonny[91] حيث يتصرف الإنسان كيفما يحلو له من أجل أن يعبّر عن حريّة تطوير شخصيته.

ويأتي على رأس القائمة بلا منازع المطالبة بالحرية في الأمور الجنسية *insexualibus* إذ أفضى مذهب التحليل النفسيّ عند فرويد – والذي ينزع إلى تأييد الرأي القائل بأن كبت الرغبات الجنسية يصيب الإنسان بالاختلال العصبيّ والمرض والبؤس والدناءة – إلى المناداة علناً بخلاص لا يحتاج المرء فيه إلا إلى تحرير غريزته الجنسية من مثاليات موروثة عفا عليها الدهر لكي يصبح صحيحاً مُعافىً سعيداً سليماً. وينادي عالم البيولوجيا الانجليزيّ ألكس كومفورت Alex Comfort بعقلية تخلو تماماً من كلمة ‘مشكلة’ لتحل محلها كلمة ‘استمتاع’، والعفّة في نظره لم تعد فضيلة وإنما هي سوء في التغذية.[92]

وبتأثير من هذه النظريات الرائجة في علم النفس ظهر منظور جديد في الكائن البشريّ: فالإنسان يُنظر إلى نفسه هذه الأيام على أنه كائن يسعى إلى المتعة ومن حقة الحصول عليها.[93] كما يُعتبر الإشباع الكامل لرغباته

---

[90] هانز شيفر Hans Schaefer في كتابه ‘الطّب والمناداة بالجنس *Die Sexualität unddie Medizin*’ ص725

[91] ‘صعود وأفول مدينة ماهاجونّي *The Rise and Fall of the City of Mahagonny*’ وهي أوبرا من تأليف بيرتولت بريخت Bertolt Brecht وكورت فايل Kurt Weillعام 1929، وكل شيء في تلك المدينة مباح ماعدا الإفلاس.

[92] في كتابه ‘الجنس في المجتمع *Sex in Society*’ص 13-54

[93] هلموت شيلسكي Helmut Schelsky في كتابه ‘علم الاجتماع والمناداة بالجنس *Soziologie der Sexualität*’ ص111

واحتياجاته حقاً طبيعياً من حقوقه كإنسان. وإذا ما قبل المرء بهذا الرأي في الكائن البشريّ بوصفه مجرد كائن بيولوجيّ فإن كل تدخل اجتماعيّ يقيّد التصرفات الجنسية ويخضعها للضوابط يعدّ أمراً 'غير طبيعي'، وفي برهنة منه على أن النزعة الجنسية الطبيعية لا تتمشى أبداً مع المبادئ المتعارف عليها في الأخلاقيات الجنسية يرغب 'كينزي' Kinsey في تغيير ناموس الأخلاق الجنسيّ بحيث تصبح الحقائق البيولوجية معياراً تقاس به الأمور. وبهذا تكون "المطالبة بقواعد السلوك الجنسيّ وبالتربية الجنسية قد تم التخلي عنها تماماً" كما يقول شيلسكي Schelsky بكل صدق.[94] وهكذا فإن أسوار الفضيلة التي كانت تعد حتى الآن صامدة منيعة قد صارت فريسة للهجوم والانتقاد.

ولقد عرضت منذ بضع سنوات مضت (أي في السبعينيات من القرن العشرين) على البرلمان في اثنين من الدول الأوروبية مشروعات قوانين تسمح بزواج المثليين، وبالزواج من أكثر من شخصين أي ما أسموه 'بزواج العائلة الكبيرة'. ولم تتم الموافقة على مشروعات القوانين هذه[§]، وهي التي تقدمت بها أقليات برلمانية، إلا أن تقديمها في حد ذاته دليل على الحدّ الذي وصل إليه الحوار، والمدى الذي بلغته عملية التآكل التي باتت تنخر في كيان القيم الأخلاقية الموروثة.

لقد حدث هذا التغيير في وجهات النظر بسرعة كبيرة، فما كان يُعد جريمة تستحق العقاب حتى وقت قريب أصبح يدرّس الآن للتلاميذ في المدارس بوصفه بديلاً له نفس القدْر من القابليّة.[95]

---

[94] في مرجع له ذكر آنفاً ص 53 - وطبقاً لهذا المنطق ذاته فإن سرقة المتاجر اثناء التبضّع يجب تقبّلها والسكوت عليها لأن عدداً كبيراً من الناس يرتكبها ولأن الناس في كافة طبقات المجتمع لم يعد لديها الوازع الذي يمنعها من ارتكاب هذا النوع من السرقة.

[§] بيد أن تشريعات السماح بزواج المثليين بدأت تسن بعد ذلك ابتداء من السنوات الافتتاحية للقرن الواحد والعشرين في بعض الولايات الأمريكية في أول الأمر ثم انتشرت هذه العدوى إلى دول عديدة أخرى [المترجم]

[95] اعتبارا من أبريل 1979 صار بإمكان طرفي العلاقة الجنسية الشاذة المقيمَيْن سوياً فيما يشبه الحياة الزوجية أن يحصلا على التخفيض الأسريّ في المواصلات العامة بهولندا (طبقا لخبر جاء في جريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung*عدد 23 ديسمبر 1978) وأظهر بحث ميدانيّ تولاه معهد الينزباخ لاستطلاع الرأي Allensbach Institute for Opinion Research تحت شعار 'الأخلاقيات عام 1978' – أظهر كيف أن تغيّر السلوك يسير بسرعة في أعقاب تغيّر الآراء. فبينما رأت 90% من النساء، اللائي شملهن استطلاع رأي مماثل عام 1963، أن الزواج أمر

وهناك خطيب آخر مفوّه من أنصار فكرة المجتمع الإباحيّ انتحى أيضاً منحىً مبالغاً فيه مدفوعاً بنزعته التحررية في التحلل من الأخلاقيات – ألا وهو الفيلسوف أرنو بلاك Arno Plack[96] فهو يسوق الحجج، بأسلوب أدبيّ أخّاذ، على أن عدوانية الفرد ليست واحدة من أنماط السلوك الفطري وإنما هي سلوك مكتسب يحدث إذا ما وقع كبت للدوافع الأساسية عند الإنسان. ويقول إن الإنسان يبلغ التحقيق الكامل للذات عندما ينفتح محبسه الجنسيّ وترفع عنه القيود تماماً، ويُسمح له بالتعبير عن غرائزه التلقائية، وعندما تتبنى تقاليدنا الدوافع الغريزية الحيوية، وتجعلها جزءًا من قاموسها بدلاً من أن تطالب الناس بالالتزام بأخلاقيات صعبة المنال بهذا القدْر. ويمكننا فقط فهم هذا البحث الفلسفيّ على خلفية تنظر إلى الانسان نظرة مادية تلذّذية جنسية بحته على غرار ما تفعله نظرية 'الغرائز' التي تم الترويج لها أخيراً. فطبقاً لمفهوم بلاك Plack يكون أصل كل الشر هو 'المجتمع الذي يكبت الغرائز الأساسية' ويشرح هذا الرأي قائلاً: "من المستحيل على الفرد أن يكون راضياً ومسالماً إذا كان مصاباً في الوقت نفسه بإحباط جنسيّ. فإذا ما طالبنا نفس الشخص بالدماثة وحب غيره من بني البشر والتخلي عن دوافعه الغريزية في آن واحد فإننا بذلك نطلب منه

ضروريّ، فإن نسبة من شاركوهن الرأي من النساء اللاتي شملهن استطلاع عام 1978 لم تزد عن 42 بالمئة. وزادت نسبة النساء اللاتي مارسن الجنس قبل بلوغ سن الثامنة عشرة من 31 بالمئة عام 1963 إلى 70 بالمئة عام 1978، وزادت نسبة من تعرّضوا لتجربة جنسية من الأولاد فيما بين سن الثالثة عشر والخامسة عشر من 8% عام 1963 إلى 22 بالمئة عام 1978، وزادت هذه النسبة في البنات من 3 بالمئة إلى 12 بالمئة في الفترة ذاتها. وكان تعليق مديرة هذا المعهد – معهد (Allensbach) اليزابيث نويل نيومان Elisabeth Noelle-Neumann هو: "إن هذه ثورة جنسية". (نقلا عن الجريدة نفسها - عدد 24 و25 مايو عام 1978). وأظهر استطلاع رأي أجري بين عينة كافية من الشباب بمعرفة وزارة شئون الأسرة في المانيا عام 1981 أن 82 بالمئة من بين جميع البنات بين الرابعة عشرة والسابعة عشر من العمر قد مارسن الاتصال الجنسي، وأن مثيلهن من بين الأولاد كانت نسبتهم 73% من جميع الشبان في ألمانيا (نقلا عن نفس الجريدة عدد 1981/7/10) ومن المحتمل أن يكون الحال مماثلاً في الدول الصناعية الأخرى. فقد أفاد استطلاع أجراه الكونجرس الأمريكيّ أن خُمس الشباب الأمريكيّ ما بين الثالثة عشر والرابعة عشر من العمر قد مارسوا اتصالاً جنسياً. كما أن نصف حالات الحمل غير الشرعيّ كانت بين البنات القصّر (نفس الجريدة عدد 1979/4/27).

[96] في مؤلفه 'المجتمع والشر: مقالة نقدية في الأخلاقيات المتحكّمة *Die Gesellschaft und das Böse. Eine Kritik der herrschenden Moraal*' طبع ميونخ عام 1967

الكثير على كل من الصعيدين الأخلاقيّ والعصبيّ".[97] ومن رأيه أيضاً أن فرصة الإنسان الوحيدة تكمن في قبوله وإذعانه لما أسماه 'بدوافعه الحيوية' والتخلص مما وصفه "بالإجبار على الانصياع لممنوعات تناصب العداء لغرائزه".

وها نحن نشاهد اليوم بالفعل أن التحرر التام من النواميس الأخلاقية الموروثة لم يجلب النتيجة التي كان يأملها دعاة هذا التحرّر – ألا وهو نيل الحرية، بل جاء بالنقيض من ذلك تماماً، أي أتى بعبودية من نوع آخر. فليس هناك أيّ سعادة ترجى، كما يتوقع نيتشه، من بلوغ ما أسماه بمرحلة 'ما بعد الخير والشر' وإنما ما يقبع هناك هو الفزع بعينه. فلم يَجن الانسان حرية تذكر من الانفلات... بل نال المزيد من الاحباط والاختلال العصبيّ... وكما يشرح هانز شيفر Hans Schaefer بكل صدق إذ يقول: "إن الفكرة القائلة بأن كبت الرغبة الجنسية يولّد العدوان هي محض افتراء لا يسنده دليل واحد، بل إن التاريخ برهن على أنها فكرة خاطئة من أساسها. فلم يحدث عبر قرون طويلة مضت أن كان المعيار الجنسيّ منفلتا كما هو الحاصل في هذا اليوم. وقد كانت الأخلاق الجنسية متدنية أيضاً بعد عصر الاصلاح الدينيّ (الذي بدأه البروتستانت) وإبان عصر التنوير (الذي بدأه العلمانيون). وسيكون من العسير على البشرية أن تضمّد الجراح التي نجمت عما حدث وما زال يحدث من عدوان وتَعَدٍّ في الأزمنة الحديثة التي توصف بأنها عهود 'الاستنارة الجنسية'.[98] حتى إذا ما تحدثنا عن مجتمعات السويد والدنمارك التي تخلو من أيّ كبت للحريات فهي لم تفلح أيضاً في خفض معدلات الاضطرابات النفسية الجنسية وجرائم الجنس. أي أن التحرر الجنسيّ الكامل له من الأضرار تماماً ما للكبت الكامل". وهنا يقول هانز شيفر "تنطوي الحرية الشاملة على عنصر دمار اجتماعيّ شامل"[99]

وإذا ما تطرقنا إلى السمات الأخرى لعالمنا المعاصر لوجدنا أن مجتمع اليوم قد اقتبس شعاره المفضل من مقولة (الروائي الروماني القديم) تيرينتيوس Terentius الشهيرة: "أنا بشر: إذ ليس هناك شيء بشريّ غريب عني". فالسلوك الشخصيّ تحدده إرادة الفرد طالما لم يقم هناك دليل على تضرر المجتمع من هذا السلوك. وتنزع هذه النظرة البشرية إلى التقبّل

[97] المرجع السابق ص 347 ثم ص 367 وما بعدها

[98] في كتابه 'الغريزة الجنسية والطب *Die Sexualität und die Medizin*' ص 725

[99] المرجع السابق

التام، فهي على حد قول أحد المفكرين ترمي إلى تقبّل كل تصرف يصدر عن البشر دونما استثناء واحد، بما يسمح لكل منحى من سلوك البشر، مهما كان شاذاً، أن ينال شرعية عامة وقبولاً أخلاقياً.[100] فمجتمعنا، كما يقول مفكر آخر، هو مجتمع يحترم كل الخصائل والصفات – ما عدا الروحيّ منها. فالصفات الروحية لا تلقى استهجاناً فحسب وإنما هي من السلع المحرّمة. فهذا المجتمع يُلزِمُنا بأن نبدي الصبر الطويل تجاه كل شكل من اشكال التفاهة، والسخافة، والهزْل، والبلادة، أما الفضائل والخصال الحميدة فعليها أن تطلب الصفح والمغفرة أو أن تبقى منزوية عن الأنظار.[101] فالتقبّل والتسامح اللذان كانا من المبادئ الانسانية صارا من الواجبات الملزمة إلزاماً صارما: أي الالتزام بالتقبّل والتسامح بغير قيد أو شرط. فمجتمع الإباحية لا يبيح كل شيء فحسب وإنما يُلزم كل شخص فيه على وجه الخصوص بأن يسمح لكل شخص آخر بأن يفعل ما يحلو له. وليس عدم الاكتراث الاجتماعيّ بالسلوك الانحرافيّ إلا نتيجة حذف فكرة 'الذنب' أو 'الخطأ' من كل القوانين والأحكام. ذلك لأن ما يطلق عليه المتدينون 'السوء' أو 'الشر' قد اتفقت المفاهيم الحديثة من سنين عديدة على أنه شيء لا وجود له سواء من منظور علم أصول الأجناس أو علم النفس أو علم الاجتماع، وبالتالي صار في الحقيقة أمراً لا يعاقب عليه أحد".[102] أما ما يجرّم علناً فهو أيّ شكل من أشكال الاعتراض على سوء التصرفات وتدني الأخلاق. وها هي كافة المصطلحات التي تنم عن أيّة إدانة لغياب الأخلاق قد حذفت تماماً من القانون الألمانيّ وجيء بدلاً منها بتعبيرات محايدة.[103]

---

[100] فريدريش تينبروك Friedrich Tenbruck في كتابه 'الروح الجماعية والدين في مجتمع المستقبل *Ethos und Religion in einer zukünftigen Gesellschaft*' ص 37

[101] آرثر شوبنهاور Arthur Schopenhauer في مؤلفه 'النصائح والحكم *Counsels and Maxims*' المجلد التاسع

[102] شيلسكي H. Schelsky في كتابه 'آخرون يقومون بالعمل *Die Arbeit tun die anderen*' ص 379

[103] فعلى سبيل المثال استبدلت كلمة زنا في قانون العقوبات الألمانيّ بعبارة 'تصرف جنسي sexuell Handlung' ذلك لأن كلمة 'زنا' تمثل إدانة مبنية على القيم الدينية والأخلاقية كما استبدل لفظا 'متشرد Stadtstreicher' أو 'هائم Landstreicher' بكلمة أخرى أخف وطأة من ذلك هي 'متجوّل Nichtseßhafter'، تجنبا لإيماءات التشهير والتمييز التي تنطوي عليها العبارتان الأوليتان، هذا في حين أن كلمة متجوّل تطلق في بلد مثل الصومال على الرّعاة الرّحل. ويميل علم الاجتماع بصورة عامة إلى استبدال العبارات والأوصاف التي تنم عن لوم واضح بمصطلحات اجتماعية أخرى مجرّدة ومحايدة. فلم يعد المرء يتفوه بألفاظ مثل 'سكّير' أو 'متسول' أو

وها هي المثل والأخلاقيات تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد قرن واحد فقط من بدء فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche حملته على الأخلاق[104] والحالة التي وصلنا اليها ليست مجرد هدم لناموس الأخلاق التقليديّ وفقدان لقوته الالزامية، وإنما هي حالة لم يعد ينظر فيها إلى الناموس الأخلاقيّ ذاته بوصفه نظاماً مبنيّا على أسس سليمة لها ما يبررها. فأزيح بالناموس الأخلاقيّ من الحياة العامة إلى الحياة الخاصة، وحتى في تلك الدوائر الخاصة نجد هناك العديد ممن يشعرون بأن الأخلاق نوع من البلاهة والغباء. بل إن كلمة 'أخلاقي' آخذة في الاختفاء شيئاً فشئياً من القاموس العام والألفاظ المتداولة. فبعد أن استُهجنت هذه الكلمة بوصفها أداة من أدوات القهر الاجتماعيّ لم تعد الآن سوى تسمية كما يقول أحد المفكرين "لتلك المفاهيم التي يتمسك بها الناس من جهة وتتنافى مع احتياجاتهم من جهة أخري".[105] بل عندما يتحدّث الناس عن الأخلاقيات فدائما ما يكون ذلك في معظم الحالات بنبرة تهكّمية.[106] فهناك مثلا من يسمون المناداة بالأخلاقيات

'مجرم' وإنما يستعمل بدلاً منها عبارات مثل 'الفئات المهمّشة' أو 'الجماعات المحرومة'، أو 'الطوائف الموصومة' أو 'العناصر التي تعاني من التفرقة' أو 'الأوساط المنبوذة' وما إلى ذلك من المصطلحات المبتكرة. ويوضح شيلسكي أن علم الاجتماع لم يغدِق على أيّ فئة اجتماعية أخرى من هذه العبارات السخية مثلما فعل بطائفة المنحرفين والمجرمين – (راجع كتابه 'آخرون يقومون بالعمل *Die Arbeit tun die anderen*' ص 432)

[104] في مؤلفه 'هذا هو الإنسان *Ecce Homo*'، ص 91، اعتبر نيتشة أن الأخلاقيات هي 'خطأ مفيد' (كما قال نفس الشيء عنها في باب 'الرغبة في السلطة The Will to Power'، الفقرة رقم402)، واعتبرها أيضاً 'جريمة إزهاق للحياة' (كما ذكر ذلك أيضاً في الباب نفسه الفقرة رقم 251)، كما وصف الأخلاقيات أيضاً بأنها 'مضادّة للطبيعة' (كتاب 'أفول الأصنام *Twilight of the Idols*' ص 42) وأنها أعظم الجرائم العقلانية منذ بدء الخليقة (كتاب 'أفول الأصنام' ص 47-48 كما نعت الأخلاق أيضاً بأنها 'ساحرة الفلاسفة' (في مقدمته لكتابه 'الفَجر *The Dawn of Day*' ص 3) واخيراً نعت الفضيلة بأنها 'لون محترم من ألوان الغباء والبلاهة' (باب 'الرغبة في السلطة' – فقرة 320) (وأرقام الصفحات هذه مأخوذة عن الطبعات الإنجليزية لأعمال نيتشه. [المترجم])

[105] وهو ديتريش هينش Dietrich Haensch في كتابه 'سياسة القمع في الأسرة *Repressive Familienpolitik*' ص 166

[106] هناك بالطبع مُثل وأنماط سلوكية متخلفة تنم عن ضيق الأفق وتتسم بالتكلّف السطحيّ وإشباع النزعات الشخصية في الأخلاقيات وهي ليست سوى صورة ممسوخة للفضائل الحقيقية، ومن الصعب على المرء حقيقة أن يتحمل النماذج التي تحيا بهذه الفضائل المصطنعة. فقد كتب الشاعر هينريش هايني Heinrich Heine وهو الذي سئم الفضائل المصطنعة التي راجت بين الطبقة الوسطى في أوروبا في الفترة المسماة

'تظاهراً بالفضيلة' أو يشبّهون من ينادي بها بشخصية بيكسنيف Pecksniff - ذلك المنافق الذي شخّصته لنا إحدى روايات تشارلز ديكنز (المعنونة *Martin Chuzzlewit*). أما دعاة التنوير والتحرير فيستعملون عبارة 'الأخلاقيات السائدة' بدلاً من 'الفضائل'. وها هو تينبروك Tenbruck يقول: **"فقدَت الأخلاقيات ضميرها الحيّ"** ثم يستنتج قائلاً **"غير أنه حيث لا يُستبان الشر لا يوجد الخير، وفي غيبة استهجان سوء السلوك لا يكون هناك حسن سلوك"**[107] أو بتعبير آخر، ذكره عالم سلوكيات الحيوان كونراد لورنز Konrad Lorenz، "إن الاحساس بما هو صواب وبالمبادئ الأخلاقية الراسخة لا غنى عنه في تفاعل أنماطنا السلوكية الاجتماعية شأنه في ذلك شأن الغدة الدرقية فيما يتعلق بإفراز الهرمون في الجسم"[108] أما أرسطو فيلسوف الإغريق فهو يصف الانسان العريّ عن الأخلاق والفضيلة والعدل والقانون بقولته الشهيرة التي ثبتت صحتها عبر العصور: "إذا اكتمل

Biedermeier) كتب أبياتاً جاء فيها: (آه لو عانيت حرماناً جسيماً – آه لو قاسيت إجراماً عتيّاً – لكان أهون من زيف الفضيلة – وأرحم من كَلَف التصرّف!) من ديوان الرومانسيات *Romances*، عام 1829 المنشور في الطبعة الانجليزية لأشعاره 'الأعمال الشعرية لهنريش هايني *The Poetical Works of Heinrich Heine*' المجلد الثاني ص 7. ولكن لو قدّر لهذا الشاعر أن يعود إلى عالم اليوم لتوقفت أشعاره في حلقه إزاء ما نحن عليه الآن. فقد ثبت بطلان الرأي الذي اعتنقه فلاسفة عصر التنوير - من أمثال ديديرو Diderot ودولباخ d'Holbach – من أن المبادئ المادية تعد دعامة للسير والسلوك أكثر من المبادئ الدينية المنادية بما يسمى بالنفس السامية – بعد ما حدث من تطورات تاريخية منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا. ولقد رسم كل من فايدو Feydeau ولابيش Labiche صوراً كاريكاتيرية لاذعة عن معايير البورجوازية المزدوجة. واوضحت مسرحياتهما الكوميدية أن الأخلاق التي سادت في الطبقة الوسطى عند نهاية القرن التاسع عشر، وهو ما يشار إليه بالفرنسية *le fin de siècle* لم تكن في معظمها سوى واجهة (تَسْتتر خلفها المفاسد). فقد كان المطلوب من الناس أن تحتفظ بمظهر خارجيّ لفضيلة لم يعودوا يشعرون بضرورة الالتزام بها. وتبخّرت الفضيلة منذ ذلك الحين في جوّ من فلسفات المادية والالحاد. وصار الحال كما يقول الفونس أوير Alfons Auer ، وهو يحكي عن المأساة التي ألمّت بالأخلاق في الوقت الحاضر: "إن 'عتق الفضيلة' من متصنّعي الفضيلة كما كان الحال عند بدء العصر الفكريّ الحديث، تبِعَه 'الانعتاق من الفضيلة' نفسها. " (من كتابه 'الأخلاق التلقائية والعقيدة المسيحية *Autonome Moral und christlicher Glaube*'ص 11)

[107] فردريك تينبروك في كتابه 'الروح الجماعية والدين في مجتمع المستقبل *Ethos und Religion in einer zukünftigen Gesellschaft*' ص 36

[108] في كتابه 'ثمانية خطايا قاتلة للإنسان المتحضر *Civilized Man's Eight Deadly Sins*' ص 52

الانسان يصير أفضل الحيوانات، أما إذا حُرم من القانون والعدل صار أسوأها جميعاً. وأسوأ أنوع الجور هو الجور المسلّح، والانسان مزود منذ ولادته بأسلحة (كاللغة مثلاً) التي جُعلت لخدمة أغراض مثل الحصافة والفضيلة، ولكنها أسلحة يمكن استخدامها طوعاً لأغراض منافية، ولهذا فإنه عندما يكون الانسان عريّاً عن الفضيلة يكون أشد المخلوقات فسقاً ووحشية، بل يكون أسوأها جميعاً شهوة ونَهماً."[109]

الولع بالبراءة

يصاحب الإباحية العمومية التي تسود مجتمعنا اليوم اتجاه آخر يظهر في تحوّل موقفنا من الجريمة ومسئولية الفرد عن تصرفاته. فعندما اختفى المفهوم المسيحيّ عن الانسان اختفى معه الاعتقاد في المسئولية الشخصيّة. ولا أَدَل على ذلك من تلك المسرحية الشهيرة التي كتبها المؤلف الألمانيّ جورج بوخنرGeorg Büchner[110]، وفيها يفصح بأسلوب شعريّ عن اعتقاده بأن الفرد يتصرف تحت جبر شديد لا فكاك له منه دون ان يكون له أية حرية في الاختيار. ولنقرأ سوياً عبارات بوخنر البليغة: "من الذي تفوه بكلمة 'يَجِب'؟ من؟ وما هو ذلك الشيء الدفين فينا، ذلك الشيء الذي يفسُق ويكذب ويسرق ويقتل؟ فنحن دمى مشبوكة بخيوط تحرّكها أصابع خفية ولا شيء، لا شيء أبداً يصدر عنا"[111] أما نيتشة فقد تكلم عن مفهوم الاختيار والارادة البشرية الحرة على أنه 'الأسوأ من بين الحيل اللاهوتية سمعة', ووصف المسيحيّة بسبب تأكيدها على مسئولية الفرد ومساءلته عن تصرفاته، بأنها 'غيبيات الجلاّد'. [112]

ولقد شجر خلاف مستمر عبر الثلاثين أو العشرين سنة الماضية (أي منذ خمسينيات القرن العشرين) حول الارادة الحرة ومسئولية الفرد سيّما في دوائر القانون الجنائي. استُنكرت فيه الارادة الحرة والمسئولية والذنب بوصفها أفكاراً سخيفة[113] ومع أن الانسان هو موضوع بحث العلوم

---

[109] سياسات أرسطو، *The Politics of Aristotle* المجلد الأول الفقرة رقم 1253-(أ)-26

[110] ولد جورج بوخنز Georg Büchner عام 1813 وتوفي عام 1837

[111] مسرحية 'مصرع دانتون *Danton's Death*' الفصل الثاني المشهد الخامس

[112] في كتابه 'أفول الأصنام *Twilight of the Idols*' ص 53 الفقرة السابعة.

[113] راجع كتاب كارل مييننجر Karl Menninger 'هل العقاب جريمة؟ *Die Strafe- ein Verbrechen?*' طبع ميونخ عام 1970، ومقالة 'تحديد الارادة

الاجتماعية الحديثة "إلا أن المفهوم الحقيقيّ عن الانسان قد ضاع منها"[114] كما استنتج أحد المفكرين. إذ إن العلماء والباحثين بجنوحهم إلى المفهوم المادي[115] أصبحوا ينظرون إلى الانسان كأنه مخلوق تتحكم فيه كل من دوافعه الغريزية والقيود التي يفرضها عليه المجتمع، وطبقا لهذا المفهوم فإن الانسان لا يملك الإرادة الحرة التي تجعله يسلك سلوكاً مستقلاً. أي بتعبير آخر – كما يقول فيكتور فرانكل Viktor Frankl، هناك لدى علماء الاجتماع تصوران عن الإنسان: أولهما إنسان لا يتصرف إلا كردّ فعل لما حوله(طبقا للتصور السلوكي)، وثانيهما إنسان يتصرف بدافع من غرائزه (من المنظور النفس-حركي)[116]

Bestimmtheit des Willens’ الصادرة عن الجمعية الألمانية لعلم الإجرام Kriminologische Schriftenreihe der Deutschen Kriminologischen Gesellschaft – تحت شعار ‘علامة على الطريق في علم الإجرام *Kriminologische Wegzeichen*’ – للناشر Husum عام 1977، وكتاب ‘أهي إرادة حرّة أم قدر؟ *Willensfreiheit oder Schicksal?*’ طبعة ميونخ عام 1939، وكذلك الكاتب سكينر B. F. Skinner في كتابه ‘ما وراء الحرية والكرامة *Beyond Freedom and Dignity*’، فهوينكر الخطيئة والمسئولية تماماً وينفي ايّ وجود للقيم الموضوعية.

[114] للكاتب ويلهلم ريفرز Wilhelm Revers ‘القصور العلميّ لمفهوم الحقيقة الحديث Die szientistische Einäugigkeit des modernen Realitätsbewußtseins’ في مجموعة ‘هل هناك أمل في أزمة البقاء *Hoffnung in der Überlebenskrise?*’ من تقديم أو شاتز O. Schatz ص 198

[115] إن ما يسمى بالمفهوم الجديد في ماهيّة الانسان مبنيّ على اكتشاف أن الانسان وهو في طريقة إلى الترقّي قد نتج عن أصل حيواني. وطبقاً لهذا المفهوم فإن الطبيعة الروحية للإنسان ونفسه الناطقة – التي هي في نهاية المطاف ذاته وكينونته – ما هي إلا هيكل خارجيّ شُيّد على طبيعة الانسان المادية، وتتحكم دوافعه الأساسية في تلك الطبيعة، وبالتالي فإن النفس لا تحتوي على أيّ معنى مستقل ولا تعطي أية أهمية لذاتها. (راجع أنطون جريفيل Anton Griffel في كتابه ‘هل الانسان عارٍ عن المسئولية؟ *Der Mensch - Wesen ohne Verantwortung?*’ ص 14، حيث يتناول هذا الكاتب هذه المسألة بشكل واف

[116] فيكتور فرانكل Viktor Frankl في كتابه ‘مسألة الاحساس في العلاج النفسانيّ *Die Sinnfrage in der Psychotherapie*’ ص 32، ويأخذ فرانكل على العلوم الاجتماعية أنها لم تفلح في تعريف حقيقة النفس البشرية ويقول إنها ليست علوماً انسانية بل هي علوم قِزميّة – أي أنها تتناول الأقزام بالتحليل بدلا من أن تتناول البشر.

ويصف أرنو بلاك Arno Plack الترويج لفكرة اللاحتميّة وهي فلسفة تقول بحرية الاختيار ونظرية تتمحور حول 'الأنا' بأنها تدعو إلى اعتبار الإنسان إلهاً مصغراً له الحق في أن يختار بين الخير والشر على حد سواء.[117] أما فكرة الإرادة الحرة بوصفها 'ركيزة للسلوك البورجوازيّ المهذّب' فإنها تبدو له وكأنها "تضخيم غير مفيد لمقدرة الفرد على التكيّف الذاتي، تتبع ما يلاقيه ذلك الفرد من تلقين مضطرد في طفولته المبكرة وتعرّضه لعملية تطبيع يحدثها الإجبار الدائم على الانصياع لمطالب اجتماعية تدعوه إلى المزيد من الانجاز والمزيد من الاستهلاك".[118] وطبقاً لهذا الرأي أيضاً يعجز الانسان عن التمييز بين الخير والشر حين ممارسته الإرادة الحرة لأنه ألعوبة تتنازعه دوافعه الغريزية وضغوطه الخارجية، وأنه لا يخرج عن كونه - كما يقول مفكّر آخر - "محوّل لقوى تمرّ من خلاله وتصيبه بالعمى"[119]

وهذا الرأي يرتكز على 'نظرية التحليل النفسي' التي ترى أن تصرفات الوعي تنبع من أعماق اللاوعي القابعة داخل الفرد. وهو رأي يترتب عليه ألا يُلام الانسان في تصرفاته فلا يكون هناك جُرم بل مجرّد إخفاق، كما يصبح كل فعل – سواء بالنسبة لفاعله أو للضحية – حدثاً قدَريّاً يصيب الفرد كالزكام أو الطاعون.

وأفضت استنتاجات علم النفس الباطنيّ إلى إعفاء الفرد أخلاقياً، وطبقاً لهذه الاستنتاجات – كما يقول شيلسكي – "تؤدي المغالاة في الانطباع بأن دوافع الانسان تتأثر بعملية 'التطويع الاجتماعي' التي تحدث له، مثل التعليم والبيئة والظروف الاقتصادية، إلى اعتقاد غير معقول بان لديه عذراً في القيام بأيّ عمل ينافي القواعد السلوكية أو القانونية أو السياسية،[120] فينادي عندئذ بتغيير ما يسميه 'بالظروف' أي الأحوال السائدة

---

[117] في كتابه 'مناشدة لإلغاء القانون الجنائيّ *Plädoyer für die Abschaffung des Strafrechts*' ص 210

[118] المرجع السابق ص 208

[119] راينهارد ماوراخ Reinhard Maurach في كتابه 'قانون العقوبات الألمانيّ القسم العام *Deutsches Strafrecht Allgemeine*' ص 359

[120] وما يعنيه الكاتب هنا من عبارة 'الاعتقاد غير المعقول' هو الاعتقاد من منظور 'الخلاص الاجتماعي' الذي حل محل منظور 'خلاص الروح' الذي كانت تنادي به الدوائر الدينية المحتضرة. أنظر مناقشتنا لمسألة 'الخلاص العلماني' في فصلنا الأول 'أهي نهاية الدين؟ '

فـي الأسـرة والمدرسـة والمؤسسـات التعليميـة والـدوائر الحكوميـة.[121] ومـا يترتب على هذه الحالة – التي لا يكون فيها الانسان كائنـاً مسئولاً يتصـرف وفقاً للأوامر والنـواهي (الأخلاقيـة والدينيـة والقانونيـة) وانمـا مخلوقـاً شكّلته العوامـل الطبيعيـة والاجتماعيـة ويتحـرك بـدوافع تلقائيـة – يترتـب عليهـا أن يصـير الانحـراف عـن الأنمـاط والمعـايير مجـرد لـون مـن ألـوان السـقم الاجتماعيّ أو انعكاساً للظروف الاجتماعية والاقتصادية السائدة وهي أمـور يكون المنحرف مسئول عنها جزئياً أو غير مسئول عنها بالكلية. ويوضـح لنـا شيلسـكي. Schelsky هـذه النتيجـة أيضـاً بقولـه: "لا يسـتقيم مبـدأ المسـئولية الشخصية والمبدأ الجنائيّ الأساسيّ للذنب والتفكير عندما يكون الفعل – أيّـاً ما كان – ناجماً عن عوامل اجتماعية غير مواتية تعرّض لهـا الفـرد. فـالفرد بوصـفه ‘الطَّـرَف المـذنب’ لا يمكـن هنـا أن يسـاءل عـن الفعـل، وإنمـا يلزمـه ‘تكيّــف مجتمعــي جديــد *resocialization*’ جديــد – أي تعــديل للظــروف الاجتماعية التي شكلت شخصيته".[122] ولقد أصبح الرأي الرائج بأن الجريمة تنجم عن الدوافع السياسية دون سواها وأنها ليست سـوى انعكـاسٍ للظـروف الاجتماعيـة – أصـبح هـذه الأيـام واحـداً مـن المـذاهب الاجتماعيـة والقانونيـة، فالنظرية التي استنبطت حديثاً – وهي التي تجعل الفرد صـالحاً علـى طـول الخط والمجتمع مذنباً فـي كل الحـالات – لا تقتصـر مناقشـتها علـى الـدوائر الأكاديمية فحسب وإنما نفذت هذه النظرية إلى الوعي العام كعذر يلاقـي كـل الترحيـب، وأصـبح هـذا المفهـوم فـي حـدّ ذاتـه مـن العوامـل المشـجّعة علـى الجريمـة. وهـا هـو فكتـور فرانكـل Viktor Frankl الأسـتاذ بجامعـة فيينـا يصرّح بأن هذه النظرية ‘التخفيفية’ توحي إلى الفرد بأنه ‘ضحية الظـروف’، وتكون دليلاً على غياب المجرم عن مسرح الجريمة، وبأنه من الممكن الآن الصـاق التهمـة لمـا يسـمى بالآليّـات الديناميكيـة النفسـية *psycho-dynamic mechanisms* أي العوامل النفسية التـي قد تعرض لهـا المجـرم فـي الطفولـة والصبا، أو القاء التهمة على ‘سوء التكيف الاجتماعي’.[123]

ولا يختلـف هـذا الـرأي كثيـراً عـن نظريـات علـم التحليـل النفسـيّ للأعماق البشرية، ومنها وجهـة النظـر التـي يبديها ميخلـر Mechler مـن أن المجرم "كبش فداء يسدد إليه المجتمع احساساته بالذنب وينفسّ عنهـا فيـه. "

---

[121] في كتابه ‘أخرون يقومون بالعمل *Die Arbeit tun die anderen*’ ص 382

[122] المرجع السابق ص 379

[123] كتابه ‘ مسألة الإحساس في العلاج الطبيّ *Die Sinnfrage in der Therapie*’ ص330

ومن رأي ميخلر في المجرم أيضاً أن "هذا الضعيف الأعزل الذي عانى الكثير من الضغوط التي تراكمت في نفسه واحدة تلو الآخرى من جرّاء حرمانه من غرائزه وميوله الأساسية" ينوب عن كل فرد في المجتمع وبذلك يجلب على نفسه العقاب "الذي يعتقد كل فرد أنه هو نفسه الذي يستحقه".[124] وطبقاً لهذه النظرية فإنه عندما يعاقِب المرء غيره من المقصّرين فهو يهاجم بالنيابة عنهم السّمات الاجتماعية وغير الاجتماعية البغيضة المكبوتة داخل نفسه هو. فهذه النظرية النفسيّة تُلمّح بذلك إلى أن بداخل كل واحد منا رغبة في السرقة والغش والسطو والحرق والاغتصاب. وترى أن العزوف عن هذه التصرفات يفضي مباشرة إلى التعدي على الشخص الذي يجاسر بإشباع رغباته. ومن هنا خلص بلاك Plack إلى أن قانون العقوبات ’نظام طائش مسعور‘ مبنيّ على ’تعصب أخلاقيّ‘ وأنه ’تورّم أفرزه مجتمع تَربى على العدوان‘.[125] ومن رأيه أيضاً أن ’كراهية الإنسان لأخيه الإنسان‘ تتولد على وجه الخصوص في مجتمع "يتألف من أناس يعانون من كبت وضغوط شديدة ويحتاجون إلى التعبير عن تبرّمهم من الانصياع لهذه الضغوط إما بارتكاب صريح لعمل عدوانيّ يلحق الضرر بالمجتمع أو بعمل عدوانيّ من نوع آخر: ألا وهو إنزال العقوبة بالآخرين".[126] ثم يطالب بلاك Plack بإلغاء قانون العقوبات بكافة أشكاله.[127] كما يقيم موتس Mauz نفس الحجة إذ يقول: "إن العدالة الجنائية هي عدالة مبنية على التحيّز الطبقيّ ... حتى في المجتمع اللاطبقيّ فإن العدالة لا تخرج عن أن طبقة الأخيار تُدين طبقة الأشرار... وإذا شئنا القضاء على العدالة الطبقيّة فعلينا بإلغاء العدالة الجنائية".[128] أما البديل الذي يقترحه موتس Mauz للقانون الجنائيّ الذي يريد إلغاءه، وهو ما يسميه ’بالتضامن الشامل‘،[129] فهو بديل يكشف انعزال صاحبه عن الواقع: فلا يجد المرء إلا شعارات طنّانة جوفاء في أقواله،

---

[124] في كتابه ’المجرم: كبش فداء المجتمع *Der Verbrecher als Sündenbock der Gesellschaf*‘ ص 1

[125] في كتابه ’مناشدة لإلغاء القانون الجنائيّ *Plädoyer für die Abschaffung des Strafrechts*‘ ص 19

[126] المرجع السابق ص 23

[127] أنظر أيضا ماكس شتاينر Max Stirner في كتابه ’النفس وذاتها *The Ego and His Own*‘ ص 238 وما بعدها

[128] في كتابه ’لعبة الذنب والتكفير *Das Spiel von Schuld und Sühne*‘ ص 132

[129] المرجع السابق ص 133

ومنها: "إن ما يلزمنا فقط هو أن نكفّ عن الحكم على الآخرين، وأن نتّخذ القرار معهم ولهم وبالتالي أيضاً لصالحنا في سعينا لإيجاد الحلول"[130].

ولا تقتصر هذه الآراء بأيّ حال من الأحوال على التنظير الأكاديميّ بل إنها وجدت لها بالفعل صدى يتمثل في مطالب صدرت عن قاض هو هيلموت أوسترماير Ostermeyer Hellmuth بمحكمة مدينة بيليفيلد Bielefeld (الألمانية) الذي يعتبر أن العقاب ما هو إلّا 'انتقام المجتمع' ويستطرد قائلاً: "إن العقاب هو ردٌ عدائيّ ضدّ الجريمة: أي لا يختلف في طبيعته عن الجريمة نفسها إذ أنه يقابل العنف بالعنف. صحيح إن العقاب يختلف عن الجريمة في الدافع والمدى والصيغة ولكن إذا ما غُصنا إلى ما دون الوعي – وهذا هو مربط الفرس – نجد أن الجريمة تماثل العقاب، وأن العقاب هو عين الجريمة، فهما قيدان متقابلان في حساب واحد:(أحدهما في الجانب الدائن والآخر في الجانب المدين)... فالعقاب هو الذي يحوّل سوء التكيف السلوكيّ إلى عمل إجرامي، أما السجن فهو أشد الأعمال الاجرامية صرامة، لأنه أشد ردود الفعل قسوة". وبذلك المفهوم فإن 'أوستير ماير' هذا قد تكلّم أيضا عن الأخلاقيات. وطالب هذا القاضي - مثلما طالب بلاك Plack - بإلغاء العقاب وإغلاق السجون ومعالجة المجرمين وهم خارجه أحراراً طلقاء. ويصف هذا الإجراء المقترح بأنه "رد فعل يخلو من توجيه اللوم ومن نعت المتهم بإنه مجرم، ومن أيّ تنديد أو استنكار أخلاقيّ، ومن إلصاق أية وصمة."[131] ويرى أنه "باختفاء السجون سيختفي المجرمون تدريجياً"[132] أما شعاره فهو 'عالج، ولا تعاقب!'.

---

[130] المرجع السابق ص 7

[131] لم يعد يحكم على الجاني من منظور أخلاقيّ، بل إن الأعمال الاجرامية لم تعد تحول دون تلقي التكريم والمكافأة من العموم، فلقد حدث في يناير عام 1980 أن أنعم نائب الثقافة في مجلس بلدية بريمين بألمانيا بجائزة تبرعت بها جمعية هانز الحرة بالمدينة تشجيعا للشبان من المؤلفين – والمبالغ قيمتها 5، 000 مارك ألمانيّ – على كاتب مناصر للإرهاب سبق الحكم عليه بالحبس 15 عاماً لمحاولة قتل اثنين من رجال الشرطة. أما الكتاب الذي نال عنه هذا الكاتب الإرهابيّ جائزته فهو يصف كيفية اشعال النار في منزل أحد القضاة او رجال النيابة. فبينما كان دخول السجن وصمة عار في الماضي - فإن المجرمين اليوم يحاولون أن يستفيدوا مادياً من جرائمهم، فيطوف الذين أمضوا عقوبة في السجن بالمنازل من باب إلى باب ملوحين بأوامر الإفراج أو يتجولون في الشوارع معلقين على صدورهم لوحة كتب عليها "لا أريد أن أسرق" وهي عبارة تعني في حقيقتها: "إن لم تعطني شيئا فسآخذ بنفسي ما أريد".

[132] راجع مقالته المنشورة في مجلة *Kanal 22* السنة الرابعة العدد الأول عام 1976 ص 5-2 بعنوان: 'معلومات عن مجموعة عمل *Lübecker* المختصة بالمعاونة في

وما هذه النظريات إلّا تبعات نهائية لإساءة فهم مبدأ المساواة: فالناس عندهم سواء - الصالح منهم والطالح. أي لم يعد هناك أيّ اعتراف لديهم بفروق أخلاقية بين الناس، ذلك لأن التقييم الأخلاقيّ لم يعد له وجود. ويترتب على هذا المنحى الفكريّ تبعات خطيرة على الفرد الذي يعتقد بصحة هذه الاستنتاجات من جهة، وللمجتمع الذي يعامل الأفراد بمقتضاها من جهة أخرى. فإذا كانت التراكيب الاجتماعية – أي المجتمع والوسط الإجتماعيّ – هي المسببات الوحيدة للسلوك الضار بالمجتمع بل وللسلوك الإجرامي أيضاً، فلا عجب إذن من ندرة عدد الذين يعترفون بالذنب الناجم عن أخطائهم ويقرّون بتقصيرهم وإخفاقهم. ويصاحب هذه الندرة ازدياد مضطرد في أعداد من يتعذر عليهم استبانة الخطأ من الصواب – وهذا هو أحد مظاهر ما نسمّيه بالولع بالبراءة. وعندما يُقنع شخص ما بأن ما فعله من خطأ ليس سوى عدم تكيف سلوكيّ ناجم عن مؤثرات الوسط الاجتماعيّ وبالتالي لا يكون له أية تبعات أخلاقية تذكر، وعندما يقال للمخطئ أنه لم يكن بوسعه التصرف بشكل آخر، فإنه يُحرم بذلك من كل ما تبقّى في نفسه من وازع يحثه على الالتزام بالمعايير السلوكية مستقبلا – أي يُزال عنه الاحساس بالذنب أو إدراك مدى تقصيره والشعور بالندم عليه.

ولم تسلم هذه المفاهيم الأخلاقية أيضاً من تنظير 'التّنويريّين' الذين أتي بهم زماننا فقد اعتبر نيتشه الشعور بالذنب 'مرضاً'،[133] كما لا يمكن إقناع بلاك Plack بالعدول عن رأيه التالي الذي لا يعير الأخلاقيات أدنى التفات: **"إنه لمن أقسى درجات الذلّ للإنسان أن يُجبَر على الإحساس بالخطيئة أو الذنب من جرّاء خضوعه لتربية تناصب غرائزه الأساسية العداء، أو من غسيل مخ صارخ. وذلك على الرغم من أنه لم يفعل إلا الصواب، إذا ما تناولنا عمله هذا من وجهة نظر أخرى لها وجاهتها، أو قسناه بتقاليد اجتماعية أخرى".**[134] أي أن من رأي بلاك هذا أن من يعاني من الشعور بالذنب أو الندم هو مريض يلزمه علاج.

عملية إعادة التأهيل الاجتماعيّ للمجرمين *Information des Lübecker Arbeitskreises Resozialisierungshilfe*'، وكذلك كتابه 'المجتمع المعاقِب – مسببات ونتائج النُظم القضائية الخاطئة *Die bestrafte Gesellschaft. Ursachen und Folgen eines falschen Rechts*' طبع ميونخ وفيينا عام 1976

[133] في كتابه 'سلالة الأخلاق *The Geneaology of Morals*'، الجزء التاسع عشر

[134] في كتابه 'مناشدة لإلغاء قانون العقوبات *Plädoyer für die Abschaffung des Strafrechts*' ص 214

وينتشر الآن هذا الشطط الفكريّ – الذي سيترتب عليه عواقب اجتماعية جسيمة بدرجة لا يمكن تخيلها في المستقبل – بين الكثير من المعلّمين والأخصّائيين الاجتماعيين، والمحلّفين بل ومفكّري علم اللاهوت، كما يسري على وجه الخصوص بين الأطباء النفسانيين وعلماء علم النفس. ولكن لايزال هناك، لحسن حظ البشرية، من يخالفهم آراءهم هذه، فقد بيّن عالم التحليل النفسيّ فيكتور فرانكل Victor Frankl مؤخراً أن المفهوم السيكولوجي للتعدي عند فرويد، أو حتى المفهوم البيولوجيّ للاستقصاء السلوكيّ المقارن لدى كونراد لورينز Konrad Lorenz، لا يمكن تطبيقه على حياة الإنسان الغريزية والعاطفية إذ أن التعدّي هو إفصاح عن قصد الإنسان ونيته؛ ويشرح فرانكل هذا الاستنتاج قائلاً: "أيّاً ما كانت الدوافع البيولوجية أو السيكولوجية للعدوان فإن النفس البشرية تترجمها إلى شيء آخر: ألا وهو الكراهية. والكراهية تختلف عن التعدي إذ أنها تُوجَّه نحو شيء نكرهه. فالكره والحُبّ هما ظاهرتان تتميز بهما النفس البشرية لأنهما نابعان عن القصد والإرادة". ويعني فرانكل هنا أن الكراهية هي التي من خصائص النفس البشرية وليس العدوان، وأن الانسان - كما يشرح فرانكل- "لن يكفّ عن الكراهية إذا ما أُدخل في ذهنه أنه مخلوق مُسَيَّر، تحرّكه التراكيب البيولوجية والدوافع النفسية. فهذه النظرية القاتلة لا تدرك أنه عندما يكون المرء عدوانياً فإن ذلك لا يكون بفعل ما بداخله من تراكيب ودوافع وإنما يكون بفعل الأنا السفلي، إذ أن الإنسان نفسه هو الذي يكره، ولا تواجه الكراهية بالتماس العذر وإنما بالمساءلة والحساب".[135]

البدائل العلمانية للقيم والأخلاق

لقد ظهرت الآن ثمار تدهور نظام القيم والأخلاق. إذ اختفت فكرة أن على الإنسان واجبات بجانب ما له من حقوق، وأنه مدين للمجتمع. فالتأكيد السائد الآن هو أن للإنسان حقوق – أي ما يستحق له من المجتمع. بيد أنه لا يمكن أن يكون هناك حقوق في معزل عن الواجبات[136] فعادةُ الدأب على المطالبة بالحقوق التي تتفشّى الآن – وهو ضرب من ضروب السلوك وصفه أحد الكتاب بأنه لا يترك أية مساحة تذكر للعمل السياسيّ – هي عادة تتفاقم كما يقول رينر شميدت Reiner Schmidt "من جراء

---

[135] في كتابه 'الفراغ الوجوديّ *Existentielle Vakuum*' ص 92

[136] تايلور Taylor في كتابه 'كيف تتفادى المستقبل *How to Avoid the Future*' ص 99

رضوخ من هم في موقع المسئولية من الساسة والاقتصاديين والباحثين لهذه الظاهرة العامة لأسبابهم الانتهازية الخاصة"،[137] ويتلاشى الدفء البشريّ واستعداد الناس لخدمة بعضهم البعض بمرور الأيام. ولم يعد لنكران الذات قيمة تذكر، ليس لمجرد أن الناس لم يعودوا يحضّون على تنمية هذه الفضيلة وإنما لأن هذه الفضيلة، شأنها في ذلك شأن سائر الفضائل، قد صارت محلاً للاستهزاء، على الرغم من أن الناس لا يستطيعون أن يحققوا النجاح بالعيش سويّاً في غيبة نكران الذات هذا.

وها هو، 'آين راند Ayn Rand' أحد أقطاب العلمانية يعتبر أن إثرة الإنسان للآخرين هو من أكبر الأخطاء السلوكية فداحة في زماننا هذا. ويصرّ بكل شدة أن "على الناس أن يسعَوْا وراء مصالحهم الشخصية وأن يحيوا لعواطفهم دون الاكتراث بالآخرين".[138] فلقد استبدل العلمانيون الواجب والانضباط بالتلقائية والانفعال، بل إن عدداً كبيراً ممن يقال عنهم مثقفون ويعيشون في سعة حققتها الوفرة التي ينتجها غيرهم ينددون بنفس الفضائل التي هم مدينون لها براحتهم ورخائهم في نهاية الأمر – ألا وهي الانتظام والاجتهاد والإتقان والإحساس بالواجب. غير أن أيّ مجتمع لا يمكنه البقاء بغير قدر معلوم من الانضباط والاحساس بالواجب، ناهيك عن مجتمع مثل مجتمعنا الغربيّ الذي يعتمد على المهارات التقنية العالية ويكون بذلك عرضة للخلل والارتباك أكثر من المجتمعات الأخرى. ولقد أصاب تايلور Taylor كبد الحقيقة عندما قال إنه حتى أشد الناس كسلاً وتراخياً لا يريد أن يرى الجرّاح الذي يستأصل له زائدته الدودية لا يرتق الجرح بعناية، أو يجد أن الميكانيكيّ الذي يغير الزيت في سيّارته ينسى أن يغلق الغطاء (الطّبّة) بإحكام. فهناك تناقض صارخ في عقلية أولئك الذين يديرون ظهورهم لمجتمع الإنجاز والاجتهاد منكرين عليه ولاءهم وتعاونهم وهم في نفس الوقت مدينون بحياتهم لنفس هذا المجتمع. وعلى نفس الوتيرة فإن أولئك الذين يلعنون مبدأ الكفاءة ويرفضونه ينددون بمجتمع هم أنفسهم يجنون منه من المنافع التي "تمنحهم سلطة الرفض هذه وتزيد عليها رخاء

[137] في مقالته 'الدولة المُتحَدّاة Der geforderte Staat' المنشورة في دورية: الأسبوعية القانونية الجديدة *Neue Juristische Wochenschrift* طبع عام 1980 ص 161

[138] أوردها تايلور في كتابه 'كيف تتفادى المستقبل *How to Avoid the Future*' ص 100

العيش ورغد الحياة"، كما يقول شيلسكي.[139] بل ولا يقضّ لهم هذا التناقض مضجعاً بأيّ حال من الأحوال.

ويأتي على قمة هرم ما يسمى بالقيم العلمانية – بعد 'فضيلة' المطالبة بالحرية غير المحدودة – رباعيّ فضائل 'الشك' و 'النقد' و 'الاحتجاج' و 'التنازع' ليحل محل جميع القيم التي هي وحدها تشكّل الضمان لعملية تماسك المجتمع وسلامته. و'عصابة الأربعة'، أو'الفضائل الأساسية'[140] المبتكرة هذه، آخذة في إزاحة الفضائل القديمة عن عرشها والتربّع عليه بدلاً منها. فالشعارات الأربعة هي (1) 'شكّك في كل شيء'[141] و (2) 'انتقدْ كل شيء' و (3) 'احتجّ في كل مناسبة'[142] و(4) 'تحيّنْ كلَّ فرصة للنزاع'.

ولا ينكر المرء أن الشك والنّقد لا غنى عنهما وأن لهما تأثيراً يساعد على الاستقرار في المعيشة الجماعية في المجتمعات المزدهرة. ولكن هذه المواقف السلبية تصير خطراً عندما لا يكون هناك أيّ صلة بينها من جهة وبين هيكل القيم من جهة أخرى، ثم تنال مثل هذا التغليب السائد بما

---

[139] هلموت شيلسكي H. Schelsky في كتابه 'آخرون يقومون بالعمل *Die Arbeit tun die anderen*' ص 252

[140] أنظر تناولنا للفضائل الأساسية عند قدماء الفلاسفة ابتداء من الحاشية رقم 84 من الفصل الثاني عشر 'الإنسان الجديد' وما يليها من تعليق في الفصل نفسه

[141] يبدي هلموت شيلسكي وجهة نظر تهكّمية في هذه المسألة مفادُها أن ذلك الشعار الواثق المسمّى 'مَحِّصْ كلَّ شيء' هو "واحد من أهم ما يعزّز شعور الانسان بالثقة" ويلاحظ أنه لم يعد يبقى هناك شيء لم 'يُمحَّصْ'. وهناك اليوم مؤسسات بكاملها لا تقوم بشيء سوى 'التمحيص' المستمر. إلا أنها لا تملك ما تقدمه من حلول للمسائل التي تتناولها سوى وابل من الآراء المتناقضة والأفكار المعادة تسميها 'حواراً' - جاءت هذه الملاحظة في كتابه 'آخرون يقومون بالعمل *Die Arbeit tun die anderen*' ص 124 و407

[142] يحُضّ البرنامج التربويّ لعملية التحرير على المعارضة. فطبقا للإرشادات التي وضعتها وزارة التربية والتعليم في إحدى الولايات الألمانية أنه يجب على الشباب والناشئة "أن يصبحوا قادرين على تناول القوانين السارية الآن في الولاية إما بالقبول أو بالرفض، وذلك من تلقاء أنفسهم وعلى مسئوليتهم" وهي مسألة وصفها شيلسكي في حواره بأنها "إذا ما وصفناها بأحسن ما في الأسلوب الانسانيّ لدعاة التحرير، فهي ليست إلا عملية تنشئة الناس على الخروج على القانون والتمرّد إذا ما اعتقدوا أنهم على حق" – كتابه 'آخرون يقومون بالعمل *Die Arbeit tun die anderen*' ص 409

يجعلها بديلاً لتلك القيم التي تكبح نزق الانسان وتربّيه وتهذّبه، ومن ثمّ تنقلب أداة لعدوان وتَعَدٍّ لا تخضع لأيّ ضابط. فالتماسك والترابط الانسانيّ لا يمكن بناؤهما أبداً على الشك والنقد والاحتجاج.

والخلاف هو أيضاً من لوازم الحياة البشرية الجماعية، ذلك أن أفضل الأنظمة الاجتماعية الممكنة – بما في ذلك 'ملكوت الله على الأرض' بوصفه فكرة يمكن تحقيقها على هذا الكوكب وليست بحسب ذلك المفهوم الساذج الشائع عنه – لن تُخلّص العالم من تنازع البشر واختلافهم. فستبقى الخلافات دائماً أبداً، ولن تبلغ أكثر المجتمعات مسالمة حالة الهدوء المسالم الذي يسود القبور والمدافن، ولكنها ستضع في متناول أيدينا الوسائل التي يتسنى لنا بمقتضاها التعامل مع هذه الخلافات بأحسن كيفية، كاسرة بذلك سلسلة العنف الوحشيّ، ضامنة للنزاعات حلولاً سلمية. ولم يكن جون جالتونج John Galtung على خطأ عندما اعتبر أن الخلاف هو 'ملح الحياة' و 'أعظم مانح للطاقة'. وقال "إننا نشعر بأكبر قدر من الحياة عندما نواجَه بخلاف يتحدانا بمعنى الكلمة ثم ننجح شيئاً فشيئاً في تسيّد هذا الخلاف وتملك ناصيته".[143] بيد أنه عندما نرحّب بالخلاف بوصفه كما يقول جالتونج Galtung أيضاً 'لون من ألوان الحياة'[144] ونعطيه دوراً حاسماً، كدافع على التقدم نحو مجتمع أفضل، وكذلك عندما نتصيّد الخلاف أو نصطنعه ونحياه حتى نكشف ما يسمى 'بالتناقضات الإجتماعية' وننبش المشاحنات الدفينة[145]، وعندما نوسّع الصدوع والشقوق بين الناس – وهي صدوع يستحيل إحداثها دون تحريض خارجيّ – وعندما لا نكتفي أيضاً بإبراز الخلافات القائمة، بل نصبّ عليها مزيداً من الزيت لنزيدها تأججاً، وعندما نلقّن الناس كيفية خلق الخلاف بواسطة تعليمهم نظريات تربوية تندّد بكل شكل من أشكال الحكم ولا تثق بالتعاون الاجتماعيّ وتساند اختلاق

---

[143] جون جالتونج John Galtung في كتابه 'العنف الطبقيّ *Strukturelle Gewalt*' ص 12، أما (الشاعر الألماني) جوتة فقد كان من رأيه أيضا "أن الظاهر والباطن يظلان في عراك دائم طول الحياة، وأن على الانسان تبعا لذلك أن يتزود في كل يوم بما يُبقي على هذا الصراع الذاتي متجددا" في رسالة منه إلى توماس كارلايل Thomas Carlyle بتاريخ 14 مارس 1828 نشرت في كتاب 'الرسائل المتبادلة بين جوتة وكارلايل *Correspondence between Goethe and Carlyle*'، ص 77

[144] في كتابه 'العنف الطبقيّ *Strukturelle Gewalt*' ص 129

[145] عن هذه المسالة بكاملها راجع كتاب 'التربية والتعليم والثورة الثقافية *Erziehung und Kulturrevolution*' للكاتب بريتسينكا، ص 59، 70، 117 وما بعدها

النزاع وتُربي النشء على عدم الثقة والتمرّد، وكذلك عندما تُلقَّن الفتنة وتُمارَس بدلاً من التدرّب على احتواء الخلاف – يكون التعدي والاستقطاب والدّمار واقعين لا محالة.[146] وفي تهكم ساخر من هانز هايجرت Hans Heigert على ما يحدث من حولنا الآن، نراه وقد صاغ 'الوصايا العشر الجديدة' كما يلي: "(1) لا تمتثل لأية أوامر أو نواهي بل كن أول من يعارض ويقاوم؛ (2) افصح دائماً عما يدور بخَلَدك وعبّر عن مصالحك؛ (3) لا تجعل أحداً يقنعك بشيء؛ (4) لا تثق بأحد، خاصة فيمن يحكم سواء في المنزل أو في المدرسة أو في الدولة؛ (5) افضح ما حولك من أوساط اجتماعية؛ (6) افهم كل تلاعب؛ (7) كن جسوراً في مواجهة الأنظمة والمؤسسات؛ (8) اكسر كل ممنوع؛ (9) فنّد المعايير السائدة عند كل فرصة؛ (10) اكشف مصالح الآخرين، وتبيّن دورك في المجتمع. أي: 'استفز، وارفض، وحقق ذاتك!'" ويضيف هايجرت أيضاً أن "من ينشّئون ذريتهم على هذا المنوال لا يجب أن يندهشوا إذا ما برزت أمامهم في النهاية ثمرة أخرى عكس الحرية، وأقصد بذلك التعصب الذي دائماً ما يصاحب استعداد المرء لوضع نفسه تحت تصرف الآخرين بغير قيد أو شرط أو – بتعبير آخر – 'استعباد النفس'.[147]

---

[146] ضمن ما يسمى – على سبيل التضليل – بـ 'التعليم الحَرِج من أجل السلام'، وهو ينادي صراحة بـ 'التعليم من أجل العدوان'، ويرمي دعاته إلى ما أسموه 'استنباط أنماط تربويّة لاستخدام العنف يتم التحكم فيها جماعيا وإبقائها في إطار قواعد ديمقراطية' (قاموس التعليم الحرج *Wörterbuch kritischer Erziehung* – للمؤلفان إبرهارد رواخ Eberhard Rauch و ولفجانج انزنجر Wolfgang Anzinger أوردها بريتسنكا في مرجعه المشار إليه آنفا ص 118، وهناك أيضا من ينادي بالسلوك المبنيّ على أساليب النزاع ضمن علماء اللاهوت – راجع على سبيل المثال مقالة الكاتب' هانز ايلهارد باهر Hans-Eckehard Bahr' ' المعنونة تعليم النزاع وهدف التقريب .Konfliktorientierung und Versöhnungsziel والمنشورة في مجلة 'الأخلاقيات Instrumentellc Protestgewalt' البروتستانتية *Zeitschrift fur evangelische Ethik*' العدد الأول يناير 1975 ص 59 وما بعدها، وكتاب 'النزاع من وجهة نظر علم لاجتماع *Soziologie des Konflikts*' للكاتب كريمانزكي Krymansky للناشر راينبك Reinbek، عام 1971، وكتاب 'أخرون يقومون بالعمل *Die Arbeit tun die anderen*' للكاتب شيلسكي ص 394-398

[147] في مقالة بعنوان 'المُهَدّد Das bedrohte Pfingsten'، نشرت في جريدة *Süddeutsche Zeitung*، الصادرة في عام 1973. راجع أيضاً كتاب 'شباب بلا مبادئ: جيل يبحث عن شيء مفقود *Jugend ohne Normen? Eine Generation auf der Suche*' للكاتب هانز هايجرت Hans Heigert طبع دسلدورف عام 1978، وكتاب 'ليس لديك الفرصة، ولكن انتهزها ـ الشباب يترك

وهناك تزايد مستمرّ في أَعداد من يتربّون على الشك اليائس وعدم الثقة والاستعداد الدائم لإثارة القلاقل، إذ نشأوا في مناخ يتّسم بغياب التوجيه الدينيّ وعدم التعوّد على نكران الذات أو الاستعداد الطوعيّ للتضحية، أو الاحساس بالواجب أو المقدرة على التكيف مع الظروف، فيرفضون بذلك المجتمع (الغربيّ العلمانيّ) الذي هو على درجة عالية من التطور التكنولوجي، كما هو في الوقت نفسه على درجة أعلى من القابلية للخلل والاضطراب – ويعزفون عن الانخراط فيه ويحبّذون 'الرسوب الإجتماعي'، أو بتعبير رولف شفيندتر Rolf Schwendter "لا يريدون أن يكونوا زيتا في آلة المجتمع (كي تدور بنعومة وسلاسة) بل رَمْلاً (يعوق حركتها ويفسدها)"[148]

فلم تذهب خطبة هربرت ماركيوزHerbert Marcuse أدراج الرياح - وأقصد هنا مناداته 'بالرفض الكبير'(كما يسمّيه منتقدوه) لمجتمع الإنجاز، وتنديده بالأداء ورفضه للمناداة بمزيد من الأداء بوصفه كما يقول: "لوناً من ألوان اللاإنسانية الحديثة تتسم به مجتمعاتنا ونظمنا الاقتصادية".[149] وها هو

التعليم *Du hast keine Chance, aber nütze sie. Eine Jugend steigt aus*' للناشر ارينبك عام 1981، ومقالة 'اجتماع الشباب وأزمة الحضارة السياسية' للكاتب انجست K. Angst في جريدة *Neue Züricher Zeitung* عدد 3 سبتمبر 1980، وكتاب 'المجتمع المضاد - انماط الحياة البديلة *Die Gegengesellschaft. Alternative Lebensformen*'، طبع Reinbek عام 1981، ومحاورة 'الشباب والمجتمع الصراع المزمن- هل من التزام جديد Jugend und Gesellschaft. Chronischer Konflikt — neue Verbindlichkeiten?' من سلسلة حوار برجندورف في مشاكل المجتمع الصناعيّ *Bergedorfer Gesprächskreis* المضبطة رقم 63 لعام 1979، ومحاورة 'ما الذي تبقى من إجماع المواطن؟ احتجاج الشباب وتغيّر القيم – أزمة الحضارة السياسية Was bleibt noch vom staatsbürgerlichen Grundkonsens? Jugendprotest, Wertwandel. Krise der politischen Kultur' من نفس السلسلة – المضبطة رقم 70 لعام 1981، ومجموعة 'الثقافة المضادة هذا اليوم – الحركة البديلة *Gegenkultur heute. Die Alternativbewegung*' من مؤتمر وودستوك إلى مؤتمر تونس*von Woodstock bis Tunis* اصدار J. Gehret ; طبع امستردام عام 1979

[148] في كتابه 'نظرية الثقافة التّحتية *Theorie der Subkultur*'، ص 10

[149] أوردها شيلسكي في مؤلفه 'آخرون يقومون بالعمل' ص 244 وما بعدها. وعن هذه المسألة بكاملها أنظر كتاب 'هل الأداء أمر شائن؟ *Ist Leistung unanständig?*' للكاتب هلموت شويك Helmut Schoeck ، ومقالة يوهانز جروز Johannes Gross 'ملاحظات مرجعية عن مجتمع الانجاز 'Fußnoten zur

المستقبل يطالعنا بالنذير المشئوم بمجتمع يحيا بشعار ‘لم يعد هناك ما يُعمَل *rien ne va plus*’، وها نحن نشاهد التدهور الأخلاقيّ لمجتمعنا يتجلّى من كل صوب وحدب.

ولقد وصف شوقي افندي هذا التدهور في رسالة له غداة نشوب الحرب العالمية الثانية، مُرجعاً إياه إلى إقصاء الدين عن عرشه – إذ يقول: وأما إذكاء التعصب الديني، والعداء الجنسي والنعرة القومية الحادة والشواهد المتزايدة الدالة على الأنانية والارتياب والخوف والرياء والزيف، وتفشّي الإرهاب والخروج على القوانين والعربدة وارتكاب الجرائم والتعطش المُلِحّ إلى الزخارف الدنيوية، والجري المحموم وراء الثروة والشهوات والملذّات، وانهيار تماسك الأسرة وارتخاء رقابة الوالدين، والإسراف في استكمال الكماليات، والمسلك الطائش نحو الروابط الزّوجية، وما نتج عن ذلك من ارتفاع منسوب الطلاق، وتدهور الفن والموسيقى، وتلوّث الأدب، وفساد الصحافة، وتغلغل تأثير فعاليات "أنبياء السوء" الذين يؤمنون بزواج المتعة والصداقة، ويبشرون بفلسفة العري، ويصفون العفة بأنها خرافة عقلية، ويرفضون أن يعدّوا إنجاب الذرية هو الهدف الأول المقدَّس للزواج، والذين ينددون بالدين فيصفونه بأنه أفيون الشعوب، والذين لو أطلق لهم العنان لتقهقروا بالجنس البشري إلى الهمجية والفوضى والفناء النهائي – أما كل ذلك فيبدو من أبرز خصائص مجتمع متهالك – إما أن يُولَدَ من جديد أو يموت ويَفنى..."[150]

وها هي تلك الملامح، التي استبانتها تلك الأقوال بوضوح مذهل آنذاك، قد ازدادت حدة واستفحالاً في يومنا هذا في مجتمع آخذ في الانحلال والهدم. فلقد قطعت عملية إشاعة الهمجيّة والغوغائية في حياتنا وإعطاب حضارتنا وتقاليدنا[151] شوطاً بعيداً، وتربّعت على الساحة حضارة

‘Leistungsgesellschaft المنشورة في جريدة *Frankfurter Allgemeine Zeitung* بعددها الصادر في 25 مايو 1972

[150] في رسالة ‘تكشف المدنية العالمية *The Unfoldment of World Civilization*’ التي صدرت عام 1932 للبهائيين في الغرب –نشرها المحفل الروحاني المركزي للبهائيين بمصر والسودان بعنوان[الكشف عن المدنية الإلهية]عام 1947، وقد أخذت ترجمة هذه الفقرة من سلسلة هداية اليوم والغد، العدد الثاني، ترجمة طيب الذكر الدكتور السيد محمد العزاوي، طبع القاهرة عام 1955

[151] للمزيد راجع مؤلف هاينز فريدريش Heinz Friedrich ‘كارثة الثقافة عن الحدث *Kulturkatastrophe. Nachruf auf das Abendland*’

مضادة[152] - حضارة وُضِعت فيها الخيانة والشطط والتعصب وعدم التسامح والهمجية والعنف والتدمير على رأس قائمة القيم الانسانية على ما يبدو، وفيها تعرّضت الأمانة في الوقت نفسه، هي وغيرها من فضائل مثل المعقولية، والإنصاف، والموضوعية، والتسامح، والأدب، والعناية، وبذل الجهد، والخلاّقية – تعرضت جميعها للإشانة والتشهير، بل اعتُبرت 'قيما مضادة' كما يقول تايلور Taylor، الذي يزيد على ذلك قائلاً "إن هذا الارتداد التام لم يسبق له مثيل في تاريخ الحضارة الغربية".[153] وليس أدلّ على الدرجة المزرية التي آلت إليها كل من الروح المجتمعية والأخلاقيات العامة، من احتياج الدولة المتزايد لأن تحكم بكمٍّ متراكم من اللوائح والقوانين. فأصبحت الحكومات مضطرة للتدخل أكثر فاكثر في شئون شعوبها بإصدار المزيد من اللوائح والأوامر والنواهي – بينما كان الإحساس بالأصول الأخلاقية وبالصالح العام في الماضي متأصلاً في المجتمع بدرجة أن المواطن كان يحسن التصرف دون توجيه من الآخرين. وأحد أسباب تضخّم أجهزة الحكم والإدارة هو طوفان القوانين الذي صار اليوم ضرورياً بسبب غياب التوافق، وهو طوفان قد خَنَق الديموقراطية تحت ضغط البيروقراطية، وتسبب في تزايد يأس الشعب من الدولة. ولقد أقيم الدليل والبرهان منذ عصور طويلة على أن غياب الأخلاقيات لا يعوّضه سن القوانين – فلقد قال الفيلسوف الصينيّ لاوتسي Lao Tse: "حيثما تزداد نصوص القوانين إسهاباً يكثر اللصوص والناهبون"[154]

ولا أدل على الحالة الأخلاقية التي تردّى إليها مجتمعنا من ظاهرة تفشّي الكذب. والكذب بطبيعة الحال قديم قِدَم تاريخ البشرية – فكما يقول صاحب المزامير (داوود النبيّ) "كل انسان كاذب"[155] وكذلك أفرد القديس

---

[152] تايلور Taylor في كتابه 'كيف تتجنب المستقبل *How to Avoid the Future*'، ص 94 وما بعدها، ويشاركه في هذا الرأي دانييل بل في كتابه 'المتناقضات الحضارية في الرأسمالية *The Cultural Contradictions of Capitalism*'، ص 72 وما بعدها ثم ص 143-144. وللمزيد عن هذه الآراء راجع كتاب 'نظرية الثقافة التحتية *Theorie der Subkultur*' للكاتب رولف شيفينتر Rolf Schwendter طبع فرانكفورت عام 1980 والفصل المعنون 'المسيحية، والدين المدني، والثقافات التحررية المضادة Christianity, Civic Religion and Free Counter-Cultures' من مجموعة 'محنة الأديان المعاصرة *The Dilemmas of Contemporary Religion*' ص 1 – 19، للكاتب ديفيد مارتن David Martin

[153] كيف تتجنب المستقبل ص 99

[154] كتاب 'الملك الطاوي ته *The Tao Teh King*' الفصل السابع والخمسون

[155] سفر المزامير 116:11

أوغستين سفراً كاملاً عن الكذب[156]، وهناك نزعة قديمة لدى الإنسان لأن يسيء استخدام اللغة لغرض إخفاء الأفكار بدلاً من توضيحها.[157] ولكن لم يسبق للكذب أبداً أن تملّك ناصية الإنسان بهذه الحدّة كما هو حادث هذا الزمان. ويتجلّى المدى الذي ترامى إليه الكذب على المستوى الفرديّ والاجتماعيّ والسياسيّ في دراسة أجراها حديثاً سيسيلا بوك Sissela Bok المحاضر بجامعة هارفارد[158]. ولقد تحكم المبدأ المكيافيلليّ – الذي يبيح الكذب للوصول إلى الأغراض السياسية – في تصرفات الساسة في الشرق والغرب، وفي السِّلم كما في الحرب. بل إن هناك ملاحظة لتاليراند Talleyrand يقول فيها: "عندما يسلِّط الضوء كثيراً على نزاهة أحد الساسة، كلما ازداد شك الناس في كفاءته". ولا يمضي يوم في عالم السياسة لا تصدر فيه بلاغات رسمية يكتشف كذبها فيما بعد، أو أن ينفي متحدث رسميّ صحة أنباء يتبين صدقها في النهاية. ومن المعتاد أن تُسحب الوعود الانتخابية فور كسب الانتخابات مباشرة.[159] وكل هذه الظواهر تعزّز وجهة النظر واسعة الانتشار القائلة بأنه ليس من الضروريّ أن نعطي الحقائق للناس كما هي. ويؤدي بنا هذا التقبّل لعدم الأمانة إلى فقدان الثقة ببعضنا البعض والتشكك في كل من المؤسسات والسّاسة. أما في المجتمعات القائمة على الخيانة والغش والشك، بدلاً من الصدق والأمانة والثقة، فإن التربة تكون خصبة لنمو الشعور بعدم الأمان وكثرة المخاوف.[160]

وحضارة اليوم هي حضارة لا دم يجري في عروقها، تتوق إلى نفخة حياة جديدة بينما هي تصارع الموت. وبدلاً من انتشار القيم الجمالية والروحانيات الجديدة تسري في أوصالها قوى العطب والتفسخ. والأعراض التي تدل على هذا التعفّن الحضاريّ كثيرة، وهي تتراوح من تداعٍ متزايد

---

[156] وهو كتابه المعنون باللاتينية *De mendacio* أي الأكاذيب

[157] وهنا نتذكر قول الفيلسوف الفرنسيّ تاليراند Talleyrand المأثور: "وُهِبت الكلمات للإنسان لإخفاء أفكاره" وهي كلمة استشهد بها بوخمان G. Büchmann في كتابه 'كلمات لها أجنحة *Geflügelte Worte*'، ص 650

[158] ضمّنتها في كتابها 'الكذب: الفضيلة المفضلة في الحياة العامة والخاصة *Lying: Moral Choice in Public and Private Life*' طبع نيويورك عام 1978

[159] نقل عن السياسيّ الألمانيّ بسمارك Bismarck قوله "لا يكثُر الكذب مِثلما يحدث قبل الانتخابات وبعد العودة من رحلات الصيد"

[160] عن فضيلة الصدق راجع المراجع المذكورة في الحاشية رقم 29 في الفصل الثاني عشر 'الانسان الجديد' – وكتاب 'روشتة الحياة *A Prescription for Living*' للسيدة روحية ربّاني ص 46 وما بعدها

لكل المُثُل الاجتماعية العليا إلى مناظر القباحة والقذارة التي تحيطنا من كل جانب[161]، ومن 'بهدلة الهندام' واهمال الملبس والشعر والنزعة الجماعية إلى السوقية وألفاظ الحواري[162]، التي لا يتورع حتى المثقفون والمفكرون عن استخدامها في مناظراتهم 'الأدبية'، إلى قوة الاقناع التي يضفيها المتعلمون من الشباب على المصطلحات الخارجة والكلمات الجنسية الفاضحة التي يقصُد بها الطلبة بكل وضوح دمج هويتهم الطبقية مع الطبقة العاملة،[163] ناهيك عن استخدام الكلمات المتعلقة بالوظائف الشرجية أو التناسلية التي لم يعد معظم الكتاب والمؤلفون المسرحيّون يستغنون عنها في أعمالهم الأدبية. وفي مجتمع يخلو من التحريم والمنع لا يبقى هناك ما يصدم

---

[161] مثل حركة البونك Punks - حليقي الرؤوس التي ابتُدعت في طبقة العمال في سبعينيات القرن العشرين، بين شباب الأحياء العشوائية في انجلترا طفقت تنشر الإرهاب والاشمئزاز في المدن الألمانية أيضاً، حيث يتجول الأحداث بِسِماتهم المرعبَة – كرؤوس حلقت بالموسى، وخصلات صبغت بألوان زاهية، ومكياج شيطانيّ دميم، وسلاسل تزين أعناقهم مما يُربط به الكلاب عادة، ودبابيس مشبك تتدلى من ثقوب في الآذان، وملابس مُزّقت عن عمد، - مثيرين سخط الجمهور إذ ينزلون على الشوارع نزول الكوارث، معلنين عن ازدرائهم للمجتمع بألفاظ وإيماءات فجة استفزازية يصاحبها العنف البدنيّ أيضاً، وشعارهم 'من أجل لا شيء – ضد كل شيء *For nothing — against everything!*'- وتعبّر هذه الموجة الساخطة الجديدة المناوئة للسلطة والدولة عن نفسها صوتياً بموسيقى البونك روك التي تشبه في صريرها الصاخب نعير وحوش في الأدغال صادر عن جيل قد فقد المستقبل. ولكن المهرة من رجال الأعمال – في الوقت نفسه – اكتشفوا هذه الموجة الهابطة وعرفوا كيف يجنون الأرباح الطائلة من هذا الأسلوب التخريبيّ في الحياة. فهم يبيعون الآن آخر صيحات الموضة على هيئة ثياب تتخللها الثقوب قد يصل ثمن القطعة الواحدة منها ستمائة دولار، وقلادات تتدلى منها أمواس الحلاقة أو إبر الحقن الطبّية. وأقراط للأذن صنعت من أغلفة شرائط حبوب منع الحمل أو الدبابيس المشبك.

[162] وهي ألفاظ امتدحها هيربرت ماركيوز Herbert Marcuse في مؤلفه 'بحث في التحرر *An Essay on Liberation*' ص 35 – بوصفها – على حد قوله – "تدمير منهجيّ للعالم اللغويّ للمؤسسة الحاكمة" – إذ يقول: "إن الألفاظ التي يقال عنها نابية والتي تعوّد عليها الراديكاليون من السود والبيض يجب أن ينظر اليها من منظور كونها تدمير منهجيّ للعالم اللغويّ للمؤسسة الحاكمة ... فالاستخدام المنهجيّ لما يسمى 'بالألفاظ النابية' في الأسلوب اللغويّ السياسيّ عند الراديكاليين هو محاولة مبدئية منهم لإعطاء مسميات جديدة للناس وللأشياء، مزيلين بذلك المسمّيات الزائفة التظاهرية التي كانت تتشدق بها – داخل النظام ومن أجل النظام – تلك الشخصيات التي أطلقت عليها المسميات الجديدة، كما وأنه إذا ما اقتبست هذه المسميات من عالم الجنس، فإن هذا جزء من المخطط العظيم الذي يهدف إلى كسر الهالة التي تحيط بالحضارة والثقافة، وهي عملية يراها الراديكاليون واحدة من أهم جوانب التحرير".

[163] ملاحظة لهلموت شيلسكي في كتابه 'آخرون يقومون بالعمل ' ض 334

المشاعر، ولا يفي التلميح اللطيف بالغرض، وإنما يلزم استخدام الغَثّ والفظّ من الكلام.

أما المسرح[164] والسينما والرواية فقد هلهلت نفسها بنفسها. فجميعها صار يجنح أكثر فأكثر إلى ما وصفه دانيل بيل Daniel Bell "بالتعبيرات التي تصدم المشاعر والتطرّق إلى مشاهد الشطط والتلذّذ الممل بالمجون"[165] كما يغلب على هذه الأعمال استخدام أسلوب الصدمة والإثارة في التعبير، ويتسلّط عليها منافاة العقل وتمجيد الدناءة والعنف والقسوة والانحراف الجنسي ...

وإذا تكلمنا عن مشاهد العنف والقسوة في الأفلام، فإن دانيل بيل لا يرى أن الغرض منها هو "الترويح عن النفس أو التنفيس عن المشاعر وإنما هو الرغبة في الإفزاع والتهشيم والإسقام"[166] وصار الجنون[167] موضة روايات الستينيات (من القرن العشرين) بدلاً من رجاحة العقل والسويّة، وأصبح الخَبَل والعُتْهُ هما ‘محك الحقيقة ومعيارها’[168] فخذ على سبيل المثال الكاتب جان جنيت Jean Genet[169] - الذي حُكم عليه بالسجن مدى الحياة لجرائم كثيرة ارتكبها ثم صدر العفو عنه بشفاعة من جان بول سارتر Jean

---

164 يُعَدّ المسرح واحداً من تلك القوى الفكرية التي تعكس زمانها بكل دقة. أما اليوم فهو أبعد ما يكون عن كونه "تلك المؤسسة الأخلاقية" التي طالب شيللر Schiller بوجوبها ان تكون كذلك. وصار المسرح الألمانيّ مكاناً لإقصاء الأعمال الأدبية العالمية وتزويرها. فصار يُسخَر فيه ويُستهزأ من كل ما يمتّ للقيم والمُثل، ويحطَّم فيه قاموس الأخلاقيات ويُمزّق إرباً. ويتوصل جورج هنزل Georg Hensel في تقييمه للمسرح الألمانيّ خلال فترة ما بين الأعوام 1967 و1980 – المُعَنْون ‘مسرح السبعينيات *Theater der siebziger Jahr*’، طبع شتوتجارت عام 1980 – يتوصل إلى استنتاجات مثيرة للكآبة، واصفاً إيّاه بتفاهات مخرجين مصابين بالنرجسية (حب الذات)، يقدمون أعمالاً فنية سقيمة، ويحسبون أن تقديم كل ما هو مريض أو مشوّه أو متهالك من أرقى التعبيرات الفنية.

165 في كتابه: ‘المتناقضات الحضارية الرأسمالية’ ص 108، ص 144

166 المرجع السابق ص 122

167 كان أحد الأفلام الألمانية التي انتجت عام 1980 بعنوان ‘الجنون: الحياة جنون *Wahnsinn, das ganze Leben ist Wahnsinn*’

168 دانييل بل – مرجع سابق ص 137

169 من أعماله ‘يوميات لص *The Thief's Journal*’ لندن عام 1973، ‘سيدتنا أم الزهور *Our Lady of the Flowers*’ طبع نيويورك عام 1963. والعمل الأخير هذا هو عبارة عن ترنيمة تمجد الشذوذ الجنسيّ وأنشودة تمتدح جريمة القتل.

Paul Sartre بالنظر إلى الأعمال التي ألّفها في السجن – وأسبغ سارتر هالة من الخيال الممتع على تلك الشخصية الماجنة الفاسقة قالِباً السُّلّم الأخلاقيّ بذلك رأساً على عقب. فعالم اللصوص والمغتصبين والقتلة في نظر سارتر هو عالم الأمانة بلا منازع. أما القصص التي تشطح بالقارئ إلى أكل لحوم البشر فهي عنده 'أصدق وصف للرغبات البشرية'[170]. ومن بين الألقاب التي حازها هذا الكاتب عن أعماله ألقاب مثل 'صائغ الشرّ البارع' و 'مفكر اللاهوت الناسوتي' و'خالق عالم الجريمة المقابل لعالم الخير'. ويرى دانيل بل في إحساسات هؤلاء الكتاب أنها "نذير هزة أرضية مدمرة أو سرب من طائر الخطّاف يحوم أمام العاصفة ينذرنا بوشوك وقوعها، وهي جميعها على ما يبدو شواهد قرب إيقاد محرقة هائلة تلتهم القرابين البشرية".[171]

ويتصرّف الإنسان ويعمل إلى حد بعيد بمقتضى الصورة التي تنطبع في ذهنه عن نفسه وعن المجتمع الذي يعيش فيه. وهذه الصورة ترسمها الآن وتحدد معالمها الأفلام والروايات بدرجة كبيرة. ويعطينا برتسنكا Brezinka قائمة بما أسماه 'حصادنا الحضاري' – فيقول: "إنها قائمة تتصدرها الغرائز الحيوانية، والأنانية، والسلوك الفج والعنف، والفردية المتغطرسة، والنّزعة إلى تبرير السلوك الشخصيّ أيّا ما كان، ومعارضة كل لون من ألوان السلطة، والسخرية من كل فضيلة، ومعاداة المجتمع والحضارة – قائمة عنوانها الرئيسيّ هو تجسيد الشر والسقم والقبح. فهو عالم من الجنون والجريمة والافساد الجنسيّ والجفاء الكامل، والقسوة واليأس والانتحار – عالم عريّ عن الجمال والنظام والنّبل والمحبة، عالَم نقدم فيه لمعاصرينا الممارسات السلبية النزقة التي يرتكبها الخارجون على النظام والمجتمع، والقصص الخيالية الحاقدة التي جادت بها قريحة المخبولين عن إخفاقاتهم وأوهامهم كصور مشوهّة عن استقرائهم الخاطئ لماهيّة الإنسان؛ عالَم رُفع فيه الدنيّ إلى مصاف السويّ، وخُسف بالنبيل، عالم سُخر فيه من السّعي إلى بلوغ المثاليات. ولا محالة لمن يتعرض ليل نهار إلى هذه الممارسات المتشائمة المنذرة بالخراب، من جراء مطالعة البارز من الأعمال الأدبية في يومنا هذا (وهي أعمال تنتقد حضارتنا بغير

---

[170] دانييل بل، مرجع سابق ص 139

[171] المرجع السابق ص 137 – ولا شك أن لـ 'زلزال القيامة' هذا علامات أخرى منها على سبيل المثال أفلام مثل 'الزلزال' و 'القيامة الآن'، أو ظاهرة السينما الأمريكية المسمّاه 'المتحدّيون للموت'، وهم أولئك الأبطال المسلحون من أجل البقاء، الذين يهجرون المدينة إلى الأدغال والأحراش.

هوادة)، أو قراءة الفلسفات أو ارتياد المسرح والسينما ومشاهدة الفنون المرئيّة دون أن يكون لديه بديل آخر – لا محالة ألّا أن يصاب هو الآخر بهذه الحالة النفسية.[172] فعندما لا يبقى في الساحة ما هو مقدّس وسامي، وعندما يتحتّم كسر الأوامر والنواهي، وتَخطّي كل الحدود، فعندئذ يتولد بصورة تلقائية الميل إلى عبور الخط الفاصل ما بين الخيال والواقع، فيصبح الاشتياق إلى العنف على خشبة المسرح في البداية، ثم في مظاهرات الشوارع بعد ذلك، علاجاً نفسياً ولوناً من ألوان الإدمان لا غنى عنه".[173]
وهي حالة حدَث بالبابا يوحنا بولس السادس، أثناء زيارة له لمدينة ميونخ الألمانية عام 1980، بأن يوجّه تساؤله التالي إلى أهل السياسة والفن فيها: ‘أليس من الجائز لهذه العَدَميّة التي تنعكس على مختلف أشكال الفن المعاصر أن تشجع الناس على التماس المتعة في السيّء من الأمور، وفي التدمير والانحطاط؟ وألا يمكن أن تؤدي إلى استهجان وازدراء كل ما يحقّق مصلحة الجنس البشري؟’

النزعة إلى الهروب من الواقع

إن ما يُسمَّى ‘بالفراغ الوجوديّ’ الذي نحياه يُفضي بنا إلى الشعور بأن ‘لا شيء له معنى’. وهذا بدوره يؤدي إلى الأمراض العصبية والإدمان[174]. فلا عجب أن يفشل العديدون في دراستهم وأعمالهم ويهربون من مجتمع ليس لديه ما يقدمه لهم من مُثُل ولا يعطي قيماً أو احساساً بأيّ معنى في الحياة. وقد يفضل هؤلاء بكل ارتياح ان يحيوا حياة متقلّبة طفيلية لا تنطوي على أيّ التزام كالهيبيز[175]والمتشردين والهائمين[176] بدلاً من حياة

---

[172] في كتابه ‘التعليم والثورة الثقافية *Erziehung und Kulturrevolution* ’ ص 19-20

[173] على حد قول دانييل بل، في كتابه المشار اليه آنفا ص 143

[174]أنظر الفصل الثالث [الدين والعلم: شريكان أم خصيمان؟] بند: "مسألة الهدف من وجود الإنسان"، وما يليه

[175] يَعتبر دانييل بل أن ظهور حركة التشرّد الجماعيّ المصحوبة بتعاطي المخدرات والرقص على موسيقى الروك hippy-drug-rock هو "تحطيم للهيكل الاجتماعي" (مرجعه السابق ص 54). أما عن ‘مذهب الطفيلية’ فانظر كتاب ‘الطفيلية كأسلوب في الحياة *Schmarotzer kommen. Parasitismus als Lebensform*’ للكاتب جيرد–كلاوس كالتنبرونر Gerd-Klaus Kaltenbrunner، طبع فرايبورج عام 1982

المجتمع المنتظمة، أو يبحثون عن الحياة البسيطة باشتياق مهيمن على المشاعر، أو يجربون الأشكال البديلة من العيش الجماعي سواء في الحضر أو الريف، بُغية العثور على الذات وتحقيقها، أو هروبا من واقع الحياة العمليّ[177]، والتماساً للأمان والدفء الذي تعطيه الحياة الجماعية. وقد يفضّل هؤلاء أيضاً اللجوء إلى المخدرات أو الخمر بل الانتحار في نهاية الأمر. وأيّاً ما كانت وجهة هؤلاء الهاربين فإن القاسم المشترك بينهم هو السلوك الرافض لكل شيء. فهم يقاومون كل أشكال الضبط الاجتماعي، ويلعنون التقدم التكنولوجي، ويسخرون من المبدأ البورجوازيّ القائل بأن الأمن والنظام يجب أن يستتبا في الحياة.

وفي مجتمع فقد ركيزته الروحية، ولا يقدم سوى كم وفير من سلع استهلاكية غالباً ما لا تكون هناك حاجة لها، وذلك بدلاً من أن يعطي هدفاً في الحياة وقيماً مثالية، فإن الشوق يزداد إلى الجديد من المتعة والمزيد من طريف الإثارة. فيجد الشباب على وجه الخصوص ضالتهم المنشودة في

---

[176] ويقدر عددهم في بداية ثمانينيات القرن الماضي فيما كان يعرف بألمانيا الغربية بما يقرب من مائة ألف، وكان أربعون بالمئة منهم تحت سن الثلاثين (طبقا لجريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung*– عددي 4 أغسطس و31 أغسطس 1982)

[177] من المؤلفات التي تتناول هذه الظاهرة ‘الكميونات: خلق وإدارة الحياة الجماعية *Communes- Creating and Managing the Collective Life*’، طبع نيويورك عام 1973 بإصدار روزابيث موس كانتر Rosabeth Moss Kanter ، و ‘عائلات جنة عدن *Families of Eden*’ تأليف جيروم جادسون Jerome Judson طبع لندن عام 1975، وكتاب ‘الارتخاء التام في الحياة الدنيا *Total Relaxation in the Here-and-now*’ للكاهن الهندوسيّ سوامي ساتياندا Swami Satyanda، الطبعة الألمانية الصادرة في رينبيك عام 1979، وأنماط جديدة من العيش معا *Neue Formen des Zusammenlebens*’ للمؤلف ديتر كورزاك Dieter Korczak ، طبع فرانكفورت عام 1979، و‘اجتماعيات الكميونات *Sozialisation in Wohngemeinschaften*’ للمؤلف جوردون شيبريان Gudrun Cyprian، طبع شتوتجارت عام 1978، وكتاب ‘أهو خروج إلى الجنة؟ - الحركة البديلة وهذا السؤال الموجه إلى المجتمع - *Aufbruch ins Paradies? Die Alternativbewegung und ihre Fragen an die Gesellschaft*‘ للكاتبة كلوديا مازت Claudia Mast، طبعة أوزنابروك Osnabrück عام 1980 وكتاب ‘المجتمع المضاد وطرق الحياة البديلة *Gegengesellschaft. Alternative Lebensformen*’ للكاتب هولشتاين W. Hollstein طبع راينبك Reinbek عام 1981. ومجموعة ‘فاشل أو متمرد: شباب ضد المجتمع والدولة *Aussteigen oder rebellieren. Jugendliche gegen Staat und Gesellschaft*’ بإصدار م هايلر M. Hailer طبع راينبيك Reinbek عام 1981

عوالم الخيال المخلَّقة كيميائياً. فلقد دمرت موجة المخدرات[178] التي روّج لها المنتفعون الذين لا يكنون للجنس البشريّ أيّ احترام أو مودة ويعملون على المستوى الدوليّ – دمرت الصحة الجسمانية والنفسية لآلاف من الشباب في جمهورية ألمانيا الإتحادية (ألمانيا الغربية آنذاك)[179] وهي ظاهرة صارت تهدد بإحداث حالة طوارئ على مستوى الدولة. ولقد دخلت العقاقير التي تعتبرها دوائر طبقة الإدمان غير مضرة، بل تشيد بمفعولها وتطالب بوضعها تحت تصرف الناس بالمجان[180] – دخلت هذه العقاقير

---

[178] راجع 'الشباب والمخدرات والإجرام *Jugend-Rauschdrogen-Kriminalitat*' للكاتب آرثر كروزرArthur Kreuzer ، طبع فايسبادن عام 1978 ومقالة الكاتب عبد الميثاق قيديريان Abdul-Missagh A. Ghidirian بعنوان 'مأساة تعاطي المخدرات The Dilemma of Drug Abuse' في مجلة النظم العالميّ *World Order Magazine*، طبع وكالة النشر البهائية بالولايات المتحدة، مدينة Wilmette، ولاية Illinois، عدد الربيع والصيف عام 1981 ص 31-46

[179] بلغ عدد مدمني المخدرات فيما كان يُعرف بألمانيا الاتحادية عام 1979 ما يقرب من 80,000 شخصا، ومات 623 شخصاً في نفس العام من جراء تعاطي جرعات عالية، أما عن أمريكا فقد جاء في تقرير لمكتب المراجع العام بالكونجرس أن ما يقرب من 453,000 أمريكيّ يتعاطون الهيروين بصفة يومية، وأن ما يقرب من عشرة ملايين أمريكيّ قد استنشقوا الكوكايين، وثلاثة وأربعين مليوناً قد دخنوا الحشيش. وطبقا للتقرير نفسه فإن المتورطين في تجارة المخدرات المحرمة بالولايات المتحدة، والتي تتعامل في بلايين الدولارات – هم مواطنون ينتمون إلى كل الطبقات والمهن بما فيهم أطباء ورجال قانون، وخبراء ضرائب ورجال أعمال، وعاملون في مجال التلفزيون والسينما وعمال وموظفون، وتلاميذ بالمدارس. أوردت هذا التقرير جريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung* في عددها الصادر في 9 نوفمبر 1979. وطبقا لأرقام نشرتها 'الدائرة الأمريكية لتطبيق قوانين تحريم المخدرات Drug Enforcement Administration' فإن نطاق تجارة المخدرات (في الولايات المتحدة) يقدر بمائة بليون دولار أمريكيّ سنويا (نشرته نفس الجريدة في عدد 9 سبتمبر 1981) [وقد تضاعف هذا الرقم بسرعة مخيفة ليصل إلى أربع تريليونات دولار بحلول عام 1997 – (المترجم)]

[180] يتعالى النداء الآن بإطلاق تعاطي القنّب (أي الحشيش أو المار جوانا) على وجه الخصوص على الرغم من أن الدراسات المدعمة بالحقائق قد أثبتت أنه هو المخدر الذي يتعاطاه مدمنو الهيروين في بداية رحلة الإدمان (طبقا لما ذكره كارل لودفيج تاشنر Karl Ludwig Täschner في كتابه 'مشكلة القنب – تضارب الآراء بشأن الحشيش والمار جوانا من الناحية الطبية والاجتماعية *Cannabisproblem. Die Kontroverse um Haschisch und Marihuana aus medizinisch-soziologischer Sicht*' طبع فايسبادن عام 1979. وهو مرجع مدعم بمصادر شاملة. وأيضا المؤلف ويلهلم فيورلاين Wilhelm Feuerleinفي كتابه ' القنب في الوقت الحالي: حصر لمشكلة الحشيش *Bestandsaufnahme*

الساحة مع موجة الجنس والعري. وجميعها تعبير عن أعلى درجة في سلم المناداة بتحقيق الفرد لذاته بعيداً عن الواجب والانضباط والحس الاجتماعيّ التي تعد جميعها في نظر المتحلّلين أفكاراً بورجوازية قد عفا عليها الدهر[181]. ولا يقل انتشار إدمان الخمر ضرراً عن تفشّي المخدرات والجنس والعري. وتشير كل الدلائل إلى أن إدمان الخمر صار أكبر مشكلة أمام برنامج التأمين الصحّي أصابت القرن العشرين. فقد أهدرت 39 بليون مارك ألمانيّ (أي ما يزيد على خمسة عشر بليون دولار أمريكي) خلال عام 1979 وحده على المشروبات الكحولية في ألمانيا الاتحادية. وهو ما يعادل 635 ماركاً ألمانياً (أو 250 دولار) لكل نسمة[182]. وطبقاً لتقارير الصحافة فإن 37 بالمئة من البالغين في ألمانيا "يشربون حتى الثمالة"[183]. وأن عدد المدمنين على الكحول يتراوح ما بين مليون ونصف ومليونين من الأنفس، منهم مائة وخمسون ألفاً من الشباب بين الرابعة عشر والخامسة والعشرين من العمر. أما عدد الذين تتأثر صحتهم من شرب الخمر فيقدر بنحو ثلاثة إلى أربعة ملايين نفس. وتضاعف عدد الذين وصل بهم الإدمان إلى حد أعجزهم عن البقاء في أيّ عمل ثلاث مرات خلال العشر سنوات التي سبقت هذا الإحصاء. والإحصائيات عن الدول الأوروبية سواء في غرب القارة (الرأسمالي) أو شرقها (الشيوعيّ آنذاك)[184] مضافاً إليها الولايات المتحدة هي إحصائيات لا تقل خطراً عن مثيلتها الألمانية.

---

zum Haschischproblem' طبع فايسبادن دار النشر الأكاديميّ عام 1980 (ومع بداية العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين، وبعد السماح بتعاطي الحشيش في كثير من ولايات أمريكا والدول الأوروبية، صارت تعقد معارض دورية لمنتجي الحشيش في أهم العواصم والمدن الغربية يعلن عنها مسبقا لجذب العملاء، وصار لرجال الأعمال المنخرطين في هذا المجال مواقعهم على الإنترنت التي يمارسون عن طريقها توزيع منتجاتهم ومبتكراتهم المستخرجة من نبات القنّب هذا [المترجم]).

181 إليكم مثالا عن وجهة النظر المتحررة والمتسيبة تجاه تعاطي المخدرات، فقد دأبت محطة إذاعة هيلفرسم Radio Hilversum المملوكة للحكومة الهولندية ابتداء من عام 1977 على إذاعة سعر بيع جرام الحشيش في سوق مخدرات امستردام، يوم السبت من كل أسبوع، في مساهمة منها لما أسمته "كشف وضع السوق الحقيقي".

182 جريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung* عدد 30 اكتوبر 1980

183 نفس الجريدة في أعدادها الصادرة في 26 يوليو 1977 و19 سبتمبر 1977 و15 يوليو 1980

184 كان يُنظر إلى ادمان الكحول في الاتحاد السوفيتيّ زهاء ما يقرب من خمسين عاماً على أنه "من بقايا الماضي البورجوازي الذي سينتهي ويموت شأنه في ذلك شأن الدعارة والاجرام"، إلى أن أفاق الناس اليوم على حقيقة أن المواطن السوفيتيّ يحتسي ثلاثة أمثال ما كان يشربه أسلافه من الخمر أيام القياصرة (جريدة عدد 13 مارس

أما أبرز الدلائل وضوحاً على عجز الناس المتزايد عن الخروج بأي معنى من حياتهم هو حقيقة أن ثاني أكبر مسبب للوفيات – في مجتمعات الرخاء والوفرة والدول التي تقدم كل أوجه الرعاية الاجتماعية لمواطنيها بالمجان – هو الانتحار. ويرتفع عدد المنتحرين على وجه الخصوص في الدول الصناعية التي تمتاز بدرجة عالية من الضمان الاجتماعي. فيُنهي 13,000 شخصٍ حياتهم بأيديهم في جمهورية ألمانيا الفيدرالية كل عام – وهو ما يوازي تقريباً عدد من يموتون في حوادث الطرق.[185] وذلك بالإضافة إلى حوالي 200,000 حالة من محاولات الانتحار سنوياً. بل إن عدد المنتحرين في سويسرا يفوق عدد ضحايا حوادث الطرق فيها.[186] وفي اليابان زاد معدل حالات الانتحار بين النشء والشباب حتى سن الثامنة عشر خلال عام 1978 بمقدار 11 بالمئة عن العام الذي سبقة. ويُلقي علماء الاجتماع باللائمة على التغيّر الشديد الذي طرأ على تركيبة المجتمع في السنوات الأخيرة. فمن رأيهم أن انفكاك عُرى الروابط الأسرية التقليدية يُفضي إلى شعور بالوحدة والعداء نحو الآخرين.[187]

وعلى النقيض من ذلك فإن معدلات الانتحار في الدول النامية حيث تتفشى الفاقة والعوز أقل من هذا بكثير. وهو ما ينافي كل التوقعات، ذلك لأنه لا تزال بتلك الدول أنظمة اجتماعية تفرض الالتزام على الناس وتعطيهم احساساً بمعنى الحياة – وهذه ظاهرة في حدّ ذاتها دليل آخر على

1980) وقارن هذا أيضاً بما ذكره ديفيدمارتن David Martin في مقالته 'الماركسية: المعادل الوظيفيّ للدين Marxism: Functional Equivalent of Religion' في كتاب 'محنة الدين المعاصر *The Dilemmas of Contemporary Religion*' ص 83. ولقد صرّح سكرتير عام الحزب الشيوعيّ في المؤتمر السادس والعشرين للحزب الذي عقد في شباط/فبراير عام 1981 بأن ما يسمّى 'الانسان الجديد' لم يولد بعد. وندّد في حديثه هذا بما يراه من أنانية، بل وبالتحديد، الكحولية التي أصبحت متفشّية على نطاق واسع (نشرته جريدة *Süddeutsche Zeitung* عدد 25 فبراير 1981) [أما بعد سقوط الشيوعية وتفكك الإتحاد السوفييتي عام 1990، فإن السنوات الخمسة عشر التي تلت ذلك شهدت تضاعف الإدمان على الخمور ثلاث مرات في روسيا، طبقاً لمقالة نشرتها جريدة التايمز اللندنية، عدد 13 أبريل 2007 (المترجم)]

[185] بلغ عدد حالات الانتحار فيما كان يعرف بألمانيا الاتحادية عام 1977 أربعة عشر ألف ضحية (14,000) وذلك طبقا للإحصائيات الحكومية آنذاك

[186] جريدة نهري الراين والنيكار *Rhein-Neckar-Zeitung* عدد 17 ابريل 1976

[187] نفس الجريدة عدد 28 مارس 1979

أنه ليس كل تصرف يحدث من الفرد يكون بتدبير من المجتمع (كما يدّعي المولعون ببراءة المجرمين). وهنا يسوق فيكتور فرانكل Victor Frankl حجة دامغة إذ يقول: "عندما يجد الإنسان إحساساً بمعنى الحياة فهو يكون أيضاً على استعداد للتحمّل والمعاناة في العيش إذا لزم الأمر. أما على النقيض من ذلك إذا لم يجد الفرد أيّ معنى للحياة فإنه لن يقدّر هذه الحياة حق قدْرَها، حتى ولو كان يحيا حياة ناجحة في الظاهر، فيكون وارداً عندئذ أن يتخلص من حياته رغم الرخاء والوفرة."[188]

تَفَشِّي الجريمة

وهناك خاصّيّة أخرى من خصائص حياة اليوم، وهي التزايد المتسارع في التصرفات الضارة بالمجتمع وتصاعد الإجرام خلال الربع الثالث من القرن العشرين. ولكي تكون الصورة أمامنا كاملة، هناك من يشكك في هذه الحقيقة من آن لآخر متعلّلاً بأن هذه الزيادة 'المزعومة' في معدل الإجرام ما هي إلا انعكاس لتحسن كفاءة الشرطة في اكشاف الجرائم والتوصل إلى مرتكبيها، وأن وسائل الإعلام صارت تفرد للمخالفات الجنائية مساحة دعائية أوسع من ذي قبل.[189] أما حقيقة الأمر فإن هناك انخفاضاً على كل الجبهات في عدد الجرائم التي يتوصل المحققون إلى مرتكبيها، كما أنه لا أدل على هذا الانفجار الإجراميّ من التزايد المطّرد في المؤسسات العقابية - كمّاً كان أو نوعاً – وهي التي لم تعد الآن قادرة على استيعاب طفرة عالم الجريمة.[190] ويقدر تايلور جرائم حرق المنازل والمتاجر في الولايات المتحدة بأنها بلغت في عام 1975 عشرة أمثال ما كانت عليه عام 1950، وثلاثة عشر مثلاً في المملكة المتحدة عن نفس الفترة[191]. أما أشد الدلالات مدعاة للانزعاج من هذه الظاهرة فهو أن عدد

---

[188] في كتابه 'مسألة الإحساس في العلاج النفسانيّ *Sinnfrage in der Psychotherapie*' ص 317

[189] راجع أيضا ما كتبه تايلور Taylor في كتابه 'كيف تتجنب المستقبل *How to Avoid the Future*' ص 92 وما بعدها – حيث يتناول هذه الحُجة بمزيد من التفصيل

[190] ونضرب لذلك مثلاً هو أن عدد القضايا الجنائية السنوية التي تقام في ولاية بادن فورتمبرج Baden-Württemberg قد ازداد بما يعلو على الضعف في تسعة أعوام، إذ تصاعدت من 88,166 قضية عام 1970 إلى 182,280 قضية عام 1979. في حين أن عدد القضاة والمدّعين لم يزد بمقدار العُشر خلال نفس تلك الفترة.

[191] 'كيف تتحاشى المستقبل' ص 93

الأطفال والأحداث الذين تشملهم هذه الإحصاءات متضخّم بشكل غير عادي.[192] ولا يقتصر الأمر هنا على دول الغرب وحدها، فهناك تقارير عن موجة عارمة من جنوح الأحداث في الدول الإفريقية أوردتها جريدة 'الدورية الدولية للجريمة والشرطة المتخصصة *Revue International de Criminologie et de Police Technique*'[193]. فقد جاء تغلغل المدنية الغربية في إفريقيا بعواقب مدمرة، فالقرى قد أصبحت تخلو من سكانها، بينما تنمو المدن نموّاً جامحاً، وكثير من الشباب الأفارقة يهجرون منزل الأسرة ويهيمون على وجوههم في المدن حيث لا يجدون عملاً، فيلجؤون إلى الجريمة أو يقعون ضحية لإدمان المخدرات والشذوذ الجنسي. كما أن حالات انهيار الزواج والأسر تتزايد في الحضَر الإفريقيّ مما يفضي إلى تخلّيها عن عدد متزايد من أبنائها من مختلف الأعمار ووقوعهم تحت غواية الجريمة.

ولقد أعلن في أول انعقاد لمؤتمر الشرطة الأوروبية للشباب بمدينة آخن Aachen بألمانيا في أكتوبر سنة 1977 أن عدد المتهمين بجريمة أو أكثر قد زاد بمقدار 77 بالمئة في الفترة من عام 1963 حتى 1976 وذلك بالنسبة للشباب ما بين الثامنة عشر والواحد والعشرين من العمر. وبلغ معدل هذا الارتفاع 104 بالمئة في الأطفال (القصّر) الذين لم يبلغوا سن التمييز الجنائي. أما للأحداث بين الرابعة عشر والثامنة عشر، فقد بلغت الزيادة 132%. وقد تسيدت جرائم السرقة والعنف هذه القوائم. ومن بين كل خمسة وعشرين مواطناً في ألمانيا الغربية هناك ثلاثة منهم قد أدينوا بجريمة أو بأخرى – (طبقاً لإحصاءات عام 1976)[194] وبحلول عام 1980 كانت ألمانيا الغربية قد ضربت رقماً قياسياً جديداً في الجرائم. فقد بلغ عدد مرتكبي الجرائم 3,800,000 نسمة بزيادة قدرها 380,000 مرتكباً (أي 10%) عن العام الذي سبقه.

---

[192] ولمن يرغب في المزيد من المراجع الألمانية عن دخول الأطفال عالم الجريمة: مؤلف ولفجانج ساليوسكي وبيتر لانز Wolfgang Salewski and Peter Lanz 'العنف الجديد وكيف نواجهه *Die neue Gewalt und wie man ihr begegnet*' - طبع Droemer & Knaur عام 1978 ومقالة أرمان ميرجين Arman Mergen 'الاجرام بين الأطفال Kinderkriminalität'، التي نشرت في حولية الجنايات *Kriminalistik* المجلد التاسع عام 1979 – ص 399 وما بعدها.

[193] بعددها الثاني ابريل / يونية 1980 الصادر في جنيف

[194] نشرته جريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung* عدد 24 اكتوبر 1977

وهذه الظواهر متفشية في جميع أنحاء العالم بغير استثناء، سيّما في الدول الصناعية المتقدمة. فتطالعنا احصائيات الجريمة في الولايات المتحدة عن عام 1978 بأن عدداً قدره 60,900 من المعلمين والمعلمات قد تعرضوا لضرب مبرّح من تلاميذهم بما يستلزم علاجاً طبياً.[195] ولم تسلم اليابان هي الأخرى من ظاهرة تعدّي التلاميذ على معلميهم التي أصبحت - بين عشية وضحاها – خطراً اجتماعياً وأفردت له جريدة أساهي *Asahi* سلسلة من المقالات نشرتها عام 1980.

وإليكم المزيد من الإحصائيات: فبينما كانت هناك 3,424 حالة من حالات جنوح الأحداث بمدينة نيويورك خلال عام 1950، فقد بلغ عددها 26,153 حالة عام 1975[196] وزاد عدد جرائم العنف المفضية إلى الموت بالمدينة بمقدار 10% بين عامي 1978-1979، وزادت جرائم الاغتصاب بالمدينة بمقدار 13% عن الفترة ذاتها. وبحلول عام 1979 على الولايات المتحدة أصبحت تحدث حالة سرقة في أقل من خمس ثوان، وجريمة سطو كل 10 ثوان، واغتصاب كل 7 دقائق، وقتل كل 24 دقيقة.[197] وأثبتت دراسة قامت بها السلطات الصحية لمدينة نيويورك أن أكثر أسباب للموت عند سكان المدينة من الذكور فيما بين الخامسة عشر والأربعة والأربعين من العمر ليس هو الحوادث أو المرض وإنما القتل. وتوصلت احصائية معهد ماساشوستس للتكنولوجيا *M. I. T.* إلى أن كل طفل ينشأ ويشبّ في نيويورك يواجه خطراً مقداره طفلٌ من كل 65 لأن يموت مقتولاً ذات يوم من أيام عمره.[198] وفي حديث شهير له بمدينة نيو أورلينز الأمريكية في سبتمبر من عام 1981، وصف الرئيس رونالد ريجان الجريمة في الولايات المتحدة بأنها ‘وباء’ قد عجز الجهاز القضائيّ الأمريكي حياله. وتحدث ريجان عن انهيار إدارة القضاء، وإخفاقه في أداء أهم وظيفة له وهي – على حد قول هذا الرئيس الأمريكيّ – ‘حماية البريء ومعاقبة المذنب’.[199] فالجريمة وخشية وقوعها قد أصابا المجتمع الأمريكيّ بالشلل تدريجياً وأخذا في خطف الأنظار عن سائر المشكلات الأخرى.

---

[195] نشرته جريدة *Heidelberger Tageblatt* عدد 6 مارس 1979

[196] نشرته جريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung* عدد 5 أبريل 1979

[197] نشرته جريدة نهري الراين والنيكار *Rhein-Neckar-Zeitung* عدد 23 اكتوبر 1980

[198] نشرته جريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung* عدد 31 مارس 1980

[199] نشرته نفس الجريدة عدد 30 سبتمبر 1981

(وإذا كان هناك من يتساءل عمّا هو الحال في عاصمة فرنسا)، فإن باريس تتفوق على مارسليا ولندن وهامبورج وشيكاغو عندما نتكلم عن زيادة معدلات الجريمة – إذ بلغت هذه الزيادة 64 بالمئة عام 1979 بالمقارنة بعام 1972. ولا يمر الآن عام على المدينة إلا وتحدث فيها 9,000 قضية سلب، و 400,000 حالة سطو، و160 جريمة قتل وما يقرب من 35,000 قضية سرقة سيارات، و 100,000 حالة نشل أو سرقات للمتاجر. ولا يعثر على الجاني إلا في 38% فقط من قضايا الجرائم الباريسية، بل وكثير منها لا يصل أصلاً إلى علم البوليس.[200]

ولم تنج الدول الشيوعية (خلال النصف الثاني من القرن العشرين) من تصاعد الجريمة هي الأخرى. فكل من دول أوروبا الشرقية والصين الشعبية يواجه زيادة كبيرة في الإجرام. إذ إن جرائم البلطجة والعنف والخطف والسلب قد بلغت شأواً في مدن الصين الكبيرة حتى إن النظام العام في شنغهاي، على حد تعبير المحافظ، ‘قد تعطّل على نحو خطير’. وفي ‘جريدة الشعب’ التي تصدر ببكين – عدد 23 يونية سنة 1981 – نشرت مقالة أوردت شكاوى صريحة من تسارع ارتفاع معدل الجريمة خاصة فيما يتعلق منها بجرائم العنف الخطيرة من قبيل: الهجوم بالقنابل وحرق المنازل والمتاجر والنهب – بالإضافة إلى الاغتصاب الذي ترتكبه غالباً عصابات تختتم جريمتها بقتل الضحية. وناشدت تلك المقالة الشعب الصينيّ بالمساعدة في محاربة الجريمة. وقد نُفِّذت هناك عمليات إعدام علنيّ في بعض المجرمين على سبيل الرّدع.[201]

وعادة ما يُلقَى باللائمة على العوامل الاجتماعية فيما يتعلق بالجريمة. ولكن المذهل هو أن بلداً على درجة عالية من الرعاية والحماية المجتمعيّة مثل دولة السويد تضربها موجة من العنف في المدارس. فبعد إعلان عام 1979 ‘عاماً للطفل’ في تلك البلاد، أعلن وزير التعليم السويديّ عن أن عام 1980 هو ‘عام الحملة ضد العنف في المدارس’ لمقاومة موجة التوحش المتزايد في دور العلم. وبذلك يبدو أن الإصلاحات المدرسية التي أجريت تحت شعار ما أسموه بالحرية قد أخفقت، إذ إن التلاميذ لم يعرفوا ما يصنعونه بتلك الحرية التي حصلوا عليها أخيراً. وإليكم التعليق الذي أوردته إحدى الصحف الألمانية عن ظاهرة عنف التلاميذ في المدارس: "لقد دفع

---

[200] نشرته جريدة *Frankfurter Allgemeine Zeitung* عدد 19 نوفمبر 1979

[201] نشرته جريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung* في أعدادها 26 سبتمبر 1979، 23 يونيو 1981، 26 يونيو 1981

مجتمع المـادة والـوفرة مقابـل ثروتـه ثمنـاً باهظـاً هـو الفقـر فـي العلاقـات والأواصر الاجتماعية. فلقد ألفينـا بالمعـايير والقواعد الأخلاقيـة، بـل وحتـى بالإرشادات والنصـائح، فـي عـرض البحـر دون أن نـاتي بـأيّ بـديل عنهـا – اللهم إلا إذا اعتبرنا أن تدريس الانحلال الخلقيّ في المدارس هو أحد أشكال البحث عن الأمن والأمان في المجتمع."[202]

وأصدق مثل على هذه الحالة هو السرقة من محلات السوبرماركت أو 'لصوصية التبضع *shoplifting*' فقد تزايدت هذه الجريمـة – منذ ظهـور محلات الخدمة الذاتية أي متاجر 'اخدم نفسك بنفسك'' – إلـى أبعـاد ستؤول في نهاية المطاف إلى ابتلاع كل وفر اقتصـاديّ جـاءت بـه فكـرة ابتكـار هذه المحلات. إذ أدت 'نزوة خدمة النفس دون الدفع' إلى القبض علـى 43,325 متلبس في ألمانيا الغربية خلال عام 1963 وبلـغ عدد المدانين بهذه التهمـة في عام 1977 قرابـة 200,000 حالـة ليتزايد عـام 1978 إلـى مـا يقـرب من 300,000 مدان،[203] هذا في الوقت الذي يحق لنا فيه افتراض أن نسبة قـدرها 1% فقـط مـن حـالات لصـوص التبضـع هـي التـي تُكشـف وتقـدم للمحاكمـة. ويبلـغ الضـرر الـذي يصـيب الاقتصـاد الألمـانيّ سـنويا بلايـين الماركـات. ويرجـع هذا الوبـاء إلـى سببين: أولهمـا انخفـاض مستوى النّهـي (عن هذا المُنكَر)، وثانيهمـا هـو انحطـاط الضـمائر الشخصـية. فـلا يمكـن أن يُعزى هذا الوبـاء – إلا فيمـا نـدر – إلـى التفـاوت الطبقـي – ذلـك لأن الثابـت هو أن جميع طبقات المجتمع ممثلة تمثيلاً صـادقاً في طـائفة لصـوص رفـوف المتاجر، ولا تنفرد الطبقات الدنيا بايّ حـال من الأحـوال بنصـيب زائـد عن غيرها في هذه القسمة. فهذه الظـاهرة هي مؤشر على تغيّر جذريّ في وعـي الفرد وكذلك في موقف المجتمـع ككـل تجـاه الأمانـة. وهـي تتجلـى أيضـاً فـي حقيقة أن الاصلاحات التي أجريت أخيراً علـى قـانون العقوبـات الألمـانيّ قد أوشـكت أن تَرفَـع لصوصـية التبضّـع مـن قائمـة الجـرائم التـي يعاقـب عليهـا القـانون، وصـنّفتها علـى أنهـا مـن المخالفـات التـي تـدفع عنهـا غرامـة فوريـة (مثـل مخالفـات المـرور).[204] أمـا فـي بـاقي الـدول الأوروبيـة فالوضـع هنـاك

---

[202] نشرته جريدة نهري الراين والنيكار *Rhein-Neckar-Zeitung* عدد 8 فبراير 1980

[203] نشرته جريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung* عدد 17 يوليو 1979

[204] ويتحدث تايلور Taylor عن قاض بلجيكيّ أصدر حكما ببراءة ثمانية عشر من لصوص التبضّع بحجة أنها جريمة يصعب تفاديها لأن الحال في المتاجر يؤدي إلى الغواية – (في كتابه كيف تتحاشى المستقبل ص 91)

ليس أفضل مما هو عليه هنا في ألمانيا.[205] ولقد دفعت هذه الظاهرة بالدولة إلى مضاعفة دوائر جهاز ادعائها الجنائيّ – أي الشرطة والقضاء، بما وصل بالوضع إلى الحدّ الذي بدأت تتدنّى عنده كفاءتها. ولأنه لا يمكن للدولة أن تزيد من عدد موظفيها وتبني السجون إلى ما لا نهاية، فقد جابهت الموقف بأسلوب آخر – أي بتبرئة القانون الجنائي، أو بعبارة أخري، بإلغاء عدد كبير من مواد القانون الجنائيّ، أو إعادة تصنيف الجرائم على انها مخالفات بسيطة، واستبدال الكثير من عقوبات الحبس بأحكام دفع الغرامات. ومع ذلك فإن السجون ما زالت مكتظة بالنزلاء. ومن جراء ظاهرة الإجرام الجماهيريّ الحديثة هذه فقد تقوّض ما يسمى في القانون ‘بمبدأ الشرعية’[206] شيئاً فشيئاً على يد مبدأ قانونيّ آخر هو ‘مبدأ التعجيل’ فلم تعد تقع الجرائم الصغرى التي يرتكبها الناس – ولصوصية رفوف المتاجر هي الآن واحدة منها – تحت طائلة القانون الجنائي،[207] لأن مقدرة الهيئة القضائية قد أنهكت رغم ازدياد عدد موظفيها. وبهذا يكون العدل قد استسلم للظلم. غير أن الدولة إذا لم تف بالغرض الأساسيّ من وجودها – ألا وهو حماية مصالح مواطنيها – فإن الإنجاز الحضاريّ المتمثل في الحل الماديّ للمنازعات على يد مؤسسات توفيقية صار الآن ينهار شيئاً فشيئاً وسينتهي بنا المآل إلى آخر ما نتمناه: وهو أخذ حقوقنا بأنفسنا[208] وتسيّد قانون الغاب.

ومن الممكن هنا أن نرى بكل وضوح عاملين يحدّان من القدرة على التعامل الشامل مع هذه المشاكل: أولهما أن قدرة المجتمع على التعامل مع التصرفات الإجرامية ليست بغير حدود، وثانيهما أن الروادع العقابية تعجز عن استئصال الأسباب الدفينة لتفاقم إجراميّ قد استشرى الآن في المجتمع كالوباء. فالرادع العقابيّ لا يجدي إلا عندما تكون التصرفات الإجرامية هي الاستثناء ويكون المجتمع نفسه سليماً. ولكن يبقى سؤالنا الذي نبحث عن جواب له: ‘ما هو السبب الحقيقيّ لهذه الظاهرة؟ ولماذا فقد

---

[205] راجع تايلور في مؤلف سابق ص 90 وما بعدها، وعن هذه المسألة بكاملها راجع للمؤلف كارل هاينز كيرشنر Karl-Heinz Kirchner كتابه ‘هل هناك فكاهة في سرقة التبضّع؟ *Macht Klauen Spaß?*’ طبع شتوتجارت عام 1977

[206] وهو المبدأ الذي يوجب على المدعي العام أن يحاكم كل خروج على القانون الجنائيّ (المادة 152 الفقرة الثانية من قانون المرافعات الجنائية الألماني)

[207] ورد في المادة 153، والمادة 153 فقرة (أ) من نفس القانون

[208] فمثلا: تطالب المتاجر الكبيرة الآن من يُضبط متلبساً من لصوص التبضع بأن يدفع إلى المتجر قيمة المكافآت التي منحت لمن دلَّ عليه، وذلك بدلاً من ابلاغ الشرطة عنه.

مجتمعنا الكثير من مناعته ضد هذا الاستفزاز؟ وها هم أساطين علم الإجرام والاجتماع والنفس عاكفون اليوم على البحث في أسبابها، بيد أنهم يبحثون في حيّز لن يعطيهم سوى النّذر اليسير مما ينشدونه.

وَصْمَتَيْ هذا الزمان: الإرهاب والعنف

قد لا يكون هناك ما يدل بكل وضوح على وَهَن الأخلاقيات المتوارثة وسَقَم مجتمعنا أكثر مما ينبئنا ذلك الرداء القشيب الذي يتدثر به الشر ويواجهنا به هذه الأيام: وهو إدخال الوحشية والشراسة كظاهرة طبيعية في عالمنا من جرّاء ازدياد العنف. وهي ظاهرة أخرى يقول عنها تايلور Taylor: "تماماً كما ينذرنا ارتفاع درجة حرارة الجسم بانه على غير ما يرام، فإن العنف دليل على وجود خلل في المجتمع".[209] وهي ظاهرة تتجلى في الاستعداد الذي يتفشى سريعاً بين الناس لتسوية النزاعات باللجوء إلى العنف.

ومع أن العنف في الحقيقة قديم قِدَم البشرية. إلا أن الجديد هنا هو أنه قد ضرب بجذوره في مجتمعات بلغت شأوا رفيعاً من التقدم التكنولوجي، وأصبح ضيفاً مستديماً على وسائل الإعلام ونزيلاً علينا في حياتنا اليومية. ويوضح فريدريش هاكر Friedrich Hacker في كتابه الواسع الانتشار عن العنف[210]، يوضح لنا طبيعته وتطرق الوحشية والشراسة إلى عالم اليوم قائلاً "أن العنف يشبه مرض الكوليرا في عدواه السريعة ويكمن خُبثه وحدّته في أنه يتخفّى في ثوب التبرير مما يجعله يسري سريان الوباء... والعنف سهل بسيط بينما البديل له صعب معقد... وعلى النقيض المقابل لذلك البديل المعقّد يقبع 'التبسيط العدواني'".[211] ويصف لنا هاكر Hacker كيف استشرى العنف في حياتنا قائلاً: "إن أشد خصائص هذه الوحشية الحديثة رعباً لا يكمن في نشوب العنف الفرديّ والجماعيّ بوتيرة أعلى من ذي قبل (بعد أن يكون قد أثير وأشعل عن عمد في غالب الحالات) بل يكمن في أنه قد صار شيئاً فشيئاً أكثر اعتياداً وشيوعاً. فلقد بات العنف حدثاً يومياً طبيعياً عابراً، وأمراً عادياً تافهاً... ولقد تبلّد احساسنا الآن وأصبحنا في حاجة إلى تصعيد شديد في العنف أو أفعال

---

[209] تايلور في كتابه 'كيف تتحاشى المستقبل' ص 31

[210] وهو 'العدوان *Aggression*' طبع راينبك Reinbek عام 1973

[211] المرجع السابق ص 13 وما بعدها

غاية في الوحشية لكي توقظنا من سبات عدم الاكتراث الذي أصابنا – وهي حالة يبدو أنها ناجمة عن شعورنا بالعجز وقلة الحيلة تجاه ظاهرة العنف هذه".[212]

ويلجأ الناس إلى العنف لأغراض شتى فالعنف من أجل العنف يتجلى في بلطجة عصابات الروكر *Rocker* (التي ترتدي ملابس من الجلد وتركب الموتوسيكلات وتستخدم السلاسل سلاحا للتحطيم)، ويتجلّى كذلك في تخريب ممتلكات الآخرين عن عمد،[213] وفي التدمير والاتلاف الذي لا معنى ولا داعي له. وحتى ذلك اللون من العنف يحظى بدعاة متحمسين له من زاوية علم الاجتماع فهم يرون أن "التخريب المتعمد لممتلكات الغير ليس دليلاً على سقم أو خلل اجتماعيّ وانما على معافاة أخلاقية"، وأنه – كما يقولون – "تعبير عن ارتفاع الروح المعنوية وسمة من سمات الجنوح الخلاق".[214]

وهناك أيضاً مجرمون يلجؤون إلى العنف لتحقيق مآرب مادية. فقد زادت جرائم السطو على المصارف في ألمانيا الغربية من 15 حالة عام 1953 إلى 632 حادثة عام 1981. وارتكبت حادثة سطو مسلح (على الأفراد والمنازل والمتاجر) كل نصف ساعة خلال عام 1967. وهنا أترك للقارئ ان يتساءل ما إذا كان الميل إلى اختزال الطريق نحو التملك عن

---

[212] المرجع السابق ص 17

[213] من بين ما يقرب من 111,000 من أكشاك التليفون العموميّ التي كانت تتواجد في ألمانيا الاتحادية عام 1979 عند كتابة هذه السطور – تعرض ما يزيد عن 60,000 منها للإتلاف العمد. وقد بلغت قيمة الأضرار الناتجة عن هذا التخريب عشرة ملايين مارك ألمانيّ بزيادة قدرها 11% عن الخسارة التي حدثت من جراء التخريب الذي حدث لنفس الأكشاك عام 1978 (نشرته جريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung* عدد 10 مايو 1980) وعن هذه المشكلة الاجتماعية راجع مقالة أوي فولجرافي Uwe Füllgrawe المعنونة 'تحليل نفسيّ واجتماعيّ لظاهرة التخريب 'Die psychologische und soziologische Analyse des Vandalismus والتي نشرت في دورية 'الجنائي – نشرة في علم الإجرام وتطبيقات القانون الجنائي *Kriminalistik. Zeitschrift für die gesamte kriminalistische Wissenschaft und Praxis*' – عدد فبراير 1978 ص56-61

[214] ذكر تايلور هذه التعبيرات في كتابه 'كيف تتحاشى المستقبل' ص 77 وما بعدها

طريق العنف واستمرائه هو مجرّد مصادفة بحتة[215]، وذلك في مجتمع مترف تسوده أفكار تمجّد الاستهلاك والتملك والاستزادة.[216] أمّا أشد ما نراه من ألوان العنف والإرهاب كراهية واحتقاراً للحياة البشرية فهو جرائم خطف الأفراد واحتجاز الرهائن واختطاف الطائرات بالقوة المسلحة – حيث يرتكن مقترفوها بكل ارتياح إلى وازع الضمير لدى غيرهم ممن يتمسكون بالأخلاق ولا يقبلون بموت الآخرين، فيستغلّون ذلك الشعور عن طريق الابتزاز. وقد أصبح هذا النوع من الارهاب – الذي هو أشد أنواع العنف انحطاطاً ويتخذ من ضمائر الشرفاء سلاحاً يهددهم به ولم يكن معروفاً قبل ستينيات القرن العشرين في أوروبا على الأقل – أصبح الآن حدثاً يومياً. وتشرع العصابات الدولية الآن، التي لا تتورع حتى عن ارسال الأعضاء المبتورة من أجساد المختَطَفين لمن تُوقعهم تحت تهديد الضمير، إثباتاً لجدية نواياهم الإجرامية، في بناء إمبراطورية كاملة تحترف الخطف والتهديد. ومن المحتمل جداً أن يكون هذا التحدي الهائل الذي تواجه به البشرية الآن هو نتيجة غير مباشرة لانتشار ظاهرة تبرير العنف كوسيلة لتحقيق الأهداف والمآرب السياسية. فالغايات السياسية، كما تراها فئة غير

---

[215] ولا يشمل هذا الحصر 435 حالة سطو مسلح على الشاحنات التي تنقل الأموال بين المصارف (وهذه الإحصاءات منقولة عن (المكتب الجنائي الفيدرالي الألماني للتحقيقات الجنائية)

[216] لا شيء يكشف بوضوح وجهة النظر التي تقيّم الانسان طبقاً لما يملكه بدلاً من الحكم عليه طبقاً لمسلكه. مثل الشعار الإعلانيّ الذي يقول: تكُون شيئا عندما تملك شيئا *You are something when you have something*' (وهو المقابل للمثل الشعبيّ المصريّ الساخر: "اللي عنده يسوى، واللي ما عندوش ما يسواش" [المترجم]). وتنمّ هذه العبارة الساخرة التالية، التي قيلت بالمقلوب عن هذا الشعار، تنم عن الوضع الاجتماعي السائد الذي يرى أن أصل الوجود ما هو الا في التملّك، (إن لم يكن لديك شيء فأنت لا تساوي شيئا) أورده أ. فروم E. Fromm في كتابه 'لأن تملك أو تكون؟ *To Have or To Be?* ' ولقد تولد عن هذا الترف والرفاهية ما يسمى بسلالة الإنسان النّهِم *Homoconsumens*، وهو مخلوق يسعى للتملك والاستهلاك والتفكه بالمزيد والمزيد – مخلوق يندر أن يعرف حب الجار أو خدمة الصالح العام. ويرى دانييل بل إنه "ليس هناك ما دمّر فضيلتي أداء الواجب وخدمة المجتمع، وأقصى السلوكيات البروتستانتية عن الطبقة المتوسطة، وكان له سهم كبير في ظهور موجة التلذذ والتمتع – مثلما فعل ابتكار نظام البيع بالأجل *hire purchase and immediate loan system* أو الشراء بالقسط المريح ونظام القروض الفورية. فلم يعد مجتمعنا يُنظر اليه من زاوية الاحتياج وإنما من منطلق الرغبات – هذا مع العلم بأن الرغبات شيء نفسانيّ وليست شيئاً جسمانياً كما أن الرغبات بطبيعتها لا تحدها أية حدود"، من كتابه: 'المتناقضات الحضارية في الرأسمالية *The Cultural Contradictions of Capitalism*' ص22

قليلة من الناس، تبرر اللجوء إلى العنف إذا ما كان ملائماً وكان الهدف عسير المنال بالوسائل الأخرى. ولقد صار تبرير العنف لدى مُنظّري اليسار المتطرف من أمثال فرانتس فانون Frantz Fanon (كما جاء في مؤلفه 'الملعونون في الأرض*The Damned of this Earth*')[217]، أو جون بول سارتر(كما في مسرحية 'الأيدي القذرة')[218]، أو هربرت ماركيوز Herbert Marcuse، وهو رأي تبناه آخرون غيرهم على الفور رغم سماته غير العقلانية – صار يتخذ صوراً عديدة: منها التمييز بين 'العنف الرجعيّ' (الممقوت) 'والعنف الثوري' (المستحب). أضف إليها شكلاً آخر من العنف وهو 'العنف المضاد'. وفي ظل فكرة العنف المضاد هذه تحدث مجابهة لاحتكار الدولة للعنف، الذي تستخدمه السلطة لضمان فاعلية قوانينها، وتختلق حالة من الدفاع عن النفس تحاك بمكر لغويّ بالأسلوب الذي يقلب العنف المحرّم إلى ما يحلو لهم أن يسموه 'بالعنف المضاد' المشروع.[219] وبهذه الطريقة يتسنى للمرء أن يدّعي الحق في الدفاع عن نفسه ضدّ ما يسميه 'بالعنف المنهجيّ' أو 'العنف الهيكلي' الذي ترتكبه الدولة بحق المواطن الفرد. كما أن كلمة 'عنف' أصبحت تستخدم استخداماً يختلف عما تعودناه، مثل استخدامها عندما تهدر السلطة وقت المواطن (بالروتين الحكوميّ مثلاً)، أو عندما توصف مؤسسات الائتمان (التي تحض المواطن على البذخ عن طريق الشراء الزائد الآجل ببطاقات الائتمان) بأنها 'عنف' تجاه التدبير المنزليّ. وأيضاً عندما يُنعت التدريب المهنيّ المتقدم الذي يقدّم للعاملين كي تزداد ربحية المؤسسة التي يعملون بها بأنه عنفٌ ضد هؤلاء العاملين، أو عندما نتكلم عن الامتحانات أو البرامج التعليمية المنظمة أو النجاح والرسوب طبقاً للدرجات بوصفها أعمال 'عنف' يرتكبها نخبة محظوظة من المعلمين ضد الطلبة.[220]

---

[217] طبع باريس للناشر *Présence Africaine* عام 1963

[218] ضمن مجموعة 'لا مخرج – وثلاثة مسرحيات أخرى *No Exit and Three Other Plays*' طبع نيويورك للناشر Vintage Books عام 1956

[219] راجع شيلسكي 'آخرون يقومون بالعمل'، ص 328 و ص 391

[220] المرجع السابق ص 328، وكذلك مقالة ولفجانج بروجيمان Wolfgang Brüggemann 'تأملات تربوية في اللغة السياسية Didaktische Reflexionen zur politischen Sprache' المنشورة في دورية 'المجتمع والدولة والتربية والتعليم *Zeitschrift Gesellschaft, Staat, Erziehung*' عدد أغسطس 1972 ص 222

وأصبح العنف ضد الدولة حسب قول أنصاره 'وسيلة لإثبات أن المرء لا يزال حياً وأسلوباً للمحافظة على كرامة الإنسان'. وفي وصف منه لهذه الظاهرة يقول يوهان جالتونج Johan Galtung الباحث في موضوع السلام الإجتماعيّ: "إن العنف يتولد عندما يتمّ التأثير في الناس أو يوحى إليهم أن ما يحققونه جسمانياً وروحياً يقل عما يمكنهم تحقيقه"[221] وهنا يمكن أن يقال إن المجتمع الاستهلاكيّ يفرض عنفاً هيكلياً على من فيه لأنه يقلّل من مقدرة الفرد على التصرف.

ويمكن أن يقال أيضاً إن هناك عنفاً هيكلياً عندما ينكر مليون من الأزواج حق التعليم على المليون زوجة اللائي في عصمتهم. وما يستنتجه أنصار العنف المضاد هنا كما يوضح جالتونج هو: "أن العنف الشخصيّ ضروريّ لمحو العنف الهيكليّ".[222] فإتلاف الممتلكات عندما ينظر إليه من هذه الزاوية – كما يقول – ما هو إلا "ضربة موجهة إلى البورجوازيّ الكامن بداخلنا، وعمل تحرّريّ من قيود لازالت تكبّلنا، ووسيلة من وسائل إيصال الرأي للآخرين".[223] وإليكم ما كتبه أحدهم وهو فريدرتش تنبروك Friedrich Tenbruck: "سيتحقق السلام على الأرض إذا ما تسنى لنا أن نعترف كلياً بأننا كيانات جسمانيّة وروحانيّة، فإذا لم نتمكن من ذلك فالمانع هنا هو العنف الهيكليّ ... ومن يعزف عن مجابهة 'العنف الهيكليّ' عن طريق استخدام 'العنف المضاد' لا ينتمي إلى الحشد العام، ومن لا يرى في الدولة 'غياباً منظّماً للسلم الاجتماعي' يكون مارقاً وتصبح الثورة بشكليها العنيف وغير العنيف هي كلمة السّر عند الباحثين في مسألة السلام الاجتماعي'.[224]

ولا جدال أن هناك ما يسمّى بالعنف الهيكليّ غير المشروع. فالقوانين التي سنّتها الحكومة النازية (بألمانيا) في حق اليهود لم تكن سوى عنفاً هيكلياً قَمَعَ الملايين ثم أجهز عليهم في النهاية. ونظام الفصل العنصريّ الذي كان سائداً في دولة جنوب إفريقيا ويجرح كرامة السود من المواطنين

---

[221] في مؤلفه 'العنف الهيكليّ *Strukturelle Gewalt*' ص 9

[222] المرجع السابق ص 29

[223] المرجع السابق ص 138

[224] في مقالة له بعنوان 'هل يمكن تحقيق السلام بإجراء الأبحاث عن السلام؟ - الاعتقاد المعاصر عن الرفاهة الاجتماعية Friede durch Friedensforschung? Ein Heilsglaube unserer Zeit' نشرتها مجلة *Allgemeine Zeitung* عدد 22 ديسمبر 1973.

ويفرض الاستعباد على معظم سكانها يمكن القول بأنه كان ‘عنفاً هيكلياً’. غير أن ما يجعل فكرة العنف المضاد خطيرة وغير مجدية هو إدخال الدهماء والغوغاء في الساحة. وتتمشى المطالبة بهذا النوع من العنف مع ما يريده هربرت ماركيوز Herbert Marcuse من إصلاح منظم لمفرداتنا اللغوية، أو ما يسميه ‘بالعلاج اللغوي’.[225]

والقاسم المشترك بين كافة هذه الأفكار التي تضفي الشرعية على استخدام العنف في تحقيق غاياتها هو قولها بأن استخدام العنف لا يخرج عن كونه مسألة ‘ضرورة وتكتيك’. وما يوضّح المدى الذي نمت اليه هذه البذرة وترعرعت هو الاستفتاء الذي أجري عام 1982 بجمهورية ألمانيا الاتحادية والذي يبين أن 63 بالمئة فقط بين المواطنين يرفضون العنف، وهو ما يعني أن ما يزيد على الثلث منهم يقبلون العنف كوسيلة لحسم الخلافات السياسية. ولا أنوي، أو أجد من الضروريّ بهذا الصدد، أن أناقش الأشكال العديدة المتشعبة التي يتخذها العنف السياسيّ في كل جزء من عالمنا.[226] ولكن يكفيني أن هناك في بلدي[227] نفسها عدداً كبيراً من الشباب ممن هم على درجة عالية من الفطنة والذكاء يجيبون عن سؤال ‘هل تستحق حياتنا في نهاية المطاف أن نحياها؟’ بكلمة ‘لأ’ صريحة وبكل كراهية تكفي لتدمير أنفسهم وما حولهم. وهؤلاء الشباب لا يسكنون كوكباً آخر خلاف الكرة الأرضية بل هم جزء لا يتجزأ من مجتمعنا – وهو مجتمع يصدق عليه قول إيريك فروم Erich Fromm :"مجتمع يتألف من أناس معروف عنهم التعاسة، والعزلة، والتوتر، والإحباط، والتألّب، والتبعية".[228] فقد أنجبناهم تماماً كما ننهمك الآن في إنجاب ذريّة من أبناء يعوزهم التوافق مع المجتمع والحياة[229] وشعب يعتريه الاعتلال النفسي[230] تماماً كما تسببنا في

---

[225] في مؤلفه ‘رسالة في التحرّر *An Essay on Liberation*’ ص 8

[226] راجع تيلور في كتابه ‘كيف تتحاشى المستقبل’ ص 35-70

[227] بلد المؤلف: ألمانيا

[228] في كتابه ‘هل تملك أو تكون؟ ’ ص 5

[229] أعلن رئيس الجمعية الألمانية لحماية الأطفال بمناسبة يوم الصحة العالميّ عام 1977 أن ما يقرب من ربع تعداد الأطفال لديه مشاكل في التكيّف مع المجتمع، وأن ثلثهم يشعر بالوحدة أو الإهمال أو التعاسة. وبرى نيتش Nitsch (وهو غير الفيلسوف نيتشه) ان هذا لا يرجع إلى إغراق الأطفال بالسلع المادية وإنما إلى اهمالهم عاطفياً – وأن هذا الاهمال في حد ذاته هو واحد من إفرازات مجتمع الرفاهية التي نحياها. إلا أن من رأيه أن الجوع العاطفي لا يشبع بالإغراق الماديّ (جريدة نهري الراين والنيكار *Rhein-Neckar-Zeitung* عد 14 ابريل 1977) وعن هذا الموضوع

حوادث المرور التي أفضت إلى الموت على طرق بلادنا. وهؤلاء الناس، بما هم عليه من ازدراء وكره للمجتمع، ما هم إلا واحد من أعراض مرض دفين قد ابتُليت به البشرية.

ولا يخرج أيّ علاج كابح أو شافٍ لمثل هذه الأعراض عن كونه مسكناً وقتياً لن يفلح في شفاء المرض الأصليّ الذي أوجدها. والمناقشة الدائرة الآن عن أسباب الإرهاب تعجز برمّتها عن التوصل إلى جذوره الحقيقية. فعلى الرغم من وفرة الظروف المناخية الأخرى التي تشجع عليها، فإن أس أساس ظاهرة الإرهاب هو انهيار صَرْح القيم الأخلاقية والفراغ

بأكمله راجع ايكهارد كلون Ekkehard Kloehn في كتابه ‘عدم التكيف عند الأطفال- أسبابه وأعراضه وعلاجه-*Verhaltensstörungen eine Kinder-krankheit? Ursachen, Symptome, Therapien*’ طبع في مدينة Güterslohعام 1977. أما عن الشباب فإن عدد من يعاني منهم من الاضطرابات النفسية يتزايد من يوم لآخر، فطبقاً لاستقصاءات المتخصصين يحتاج 15% من كل طلاب الجامعات في جمهورية ألمانيا الاتحادية إلى خدمات الطب النفسيّ (جريدة *Rhein-Neckar-Zeitung* عدد 3 أغسطس 1978)

[230] الإرهاب هو ذلك الوباء الذي يستشري في مجتمع سادته الفوضى وفساد الأخلاق، والذي لم يعد من الممكن فهم كيفية استشرائه ودوافعه. والناس ترغب في مجتمع كهذا – إذ ضلوا السبيل وتشوشت رؤيتهم، وحرموا من الصلاح ودفعوا إلى تحقيق الذات بالمفاسد، وتغاضوا عن أن الجرائم تفسد المقاصد – ترغب في تحقيق المثل العليا الرامية إلى تحرير الجنس البشريّ واسعاده بالوسائل الهدامة كالكراهية والحسد والرغبة في المزيد والشهوة إلى السلطة، ويجد القارئ شرحا لأسباب الإرهاب في معظم المراجع التي تناولته، ومن أسباب الإرهاب ما يلي:

* الانتقاد الشامل لنظام الحكم والدولة، وهو انتقاد أدى إلى توليد كراهية للدولة ومن يمثلونها

* أزمة التبرير الشرعيّ للديموقراطية

* عدم القدرة على التحديد الدقيق لمفهوم الإرهاب وطمس ملامحه والتطبيق المطلق لمفهوم الديموقراطيه بغير ضابط أو رابط، وضياع الحقيقة فيما ينشر بالجرائد حول بعض المواضيع العلمية والفلسفية التي تتناول المشاكل الاجتماعية

* التسفيه الدؤوب لآراء التربويين في مشاكل المجتمع وعيوبه الاجتماعية

* يوتوبيا الجنون (أي المدينة الفاضلة كما يتخيلها الفكر الإرهابيً السقيم)

(ويلاحظ أن ما ذكره المؤلّف هنا هو بعض أسباب الإرهاب في الغرب والمجتمعات الصناعية المتقدّمة، وفيما عدا يوتوبيا الجنون، فإن معظم هذه الأسباب لا تنبع عن التعصب الدينيّ الشديد الذي هو الرافد الرئيسيّ للإرهاب في مجتمعات الشرق الأوسط المعاصرة. [المترجم])

الوجوديّ الذي تحياه معظم الناس في يومنا هذا – أي فقدان القيم والمعنى. فجذور الإرهاب تنبع من الأزمة الأخلاقية، في كيفية التمييز بين العدل والظلم وبين الصواب والخطأ. وأزمة الأخلاق ما هي إلا – في نهاية المطاف – أزمة في الإيمان بالله. وعندما نصل بهذه المناقشة التي بدأناها منذ قليل إلى هذا الاستنتاج[231] سيتبين أن الاعتراف بوجود هذه المشكلة أسهل بكثير من حلها. فلا يمكن حلها بالوسائل الاجتماعية: فلا تستطيع الدولة أن تسنّ قانونا يبتكر أخلاقاً جديدة، ولا يستطيع أيّ قدر من الترغيب والاقناع أن يُخرج القيم القديمة من قبرها. ولا يستطيع أيّ مجتمع أن يعطي إحساساً بمعنى الحياة عندما يكون هذا المجتمع قد فقد نفس الشيء الذي يريد أن يعطيه – وهو الإحساس بمعنى الحياة وقيمتها.[232]

وإذا ما طالعنا صفحات الماضي لوجدنا أن الاغتيالات، بل وأمثلة من الإبادة العرقية، كانت تحدث على الدّوام مثلما ارتكبه المستوطنون الأوربيون في حق هنود القارة الأمريكية طوال قرون أربعة. ولم يخل

---

[231] وهو استنتاج توصل اليه الكثيرون مثل ايرنست توبيتش Ernst Topitsch في مقالته ‘الطريق إلى العنف Der Weg in die Gewalt’ التي نشرتها جريدة *Frankfurter Rundschau* بعدد 10 ديسمبر 1977 والكاردينال جوزيف راتسنجر Josef Ratzinger (الذي اعتلي منصب البابوية عام 2005 باسم البابا بينيديكت ثم استقال بعد ذلك لأسباب صحّية) في خطبة قداس رأس السنة بميونخ عام 1977 كما أن من رأي المفكر اليهوديّ شالوم بن كورين Schalom ben Chorin أن الارهاب يرجع إلى الفراغ الروحيّ الذي يعيشه انسان اليوم – اذ يقول "عندما لا يكون هناك سبب وجيه لوجود الانسان فإن قانون جاذبية الفراغ يعمل عمله، إذ تجذب الهوة الناجمة عن هذا الفراغ بالفرد نحو الوهم. ولا يفرز الهراء واللغو سوى الهراء واللغو. وفي سعيهم اليائس لتلمّس معنى الحياة ينزلق المتطرفون إلى أعمال وأنشطة تفتقر إلى المفهوم والمغزى سرعان ما تنقلب إلى أفعال إجرامية". (وردت في كتابه ‘الارهابيون فوقنا *Terroristen über uns*’ ص 10)

[232] يتحدث هانز هايجرت Hans Heigert عن عجز مجتمعنا عن إعطاء قيم ملزمة بقوله: "ترتب على الانحلال من القيم والمغزي، بعد أن حولناها إلى طقوس ليبرالية، إصابة الناس بفقدان القيم والمغزي، وبذلك فقد جيلنا القدرة على التواصل والتفاهم، فلم يعد كبار السن من الناس يفهمون الشباب ولم يعد بوسعهم قبول المعايير الأخلاقية التي يتبعها جيل الشباب هذا، كما أن صغار السن لا تعنيهم خبرة الكبار ونصائحهم كثيراً وبهذا تم وضع كل الصلات الاجتماعية في قمقم القواعد المجردة التي نتعامل بها مع مشاكل الحياة اليومية، وتفككت أوصال القانون فأصبح لا يخرج عن كونه أداة لتوصيل المنفعة الاقتصادية – أو بالأحرى ‘عدم الضرر الاجتماعي’. ولا ينجم عن هذا سوى عملية انحلال تدريجيّ لا تفتأ أن تولّد المزيد من عدم الثقة (والاحباط) في القيم المتوارثة وفي امكانية الامساك بدقّة المستقبل". (من مقالة له في جريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung* عدد 16 اكتوبر 1976

التاريخ قطُّ من العنف والوحشية والكراهية القومية والعرقية. ولكن الوضع الحاليّ له ملامحه الجديدة فكما يقول ايريخ فخنر Erich Fechner :"لم يحدث قطعيًا أن تفشى الظلم والجريمة على هذا النطاق الواسع كما هو حادث الآن في مجتمعنا الذي ضرب كل الأرقام القياسية".[233] نعم، إن العنف والإرهاب صارا وصمتيْ هذا الزمان، كما يتجلّيان في الجرائم الوحشية التي أفرزتها حربان عالميتان، وفي القتل الجماعيّ الذي ارتكبته الثورات العديدة، وفي الإبادة الشاملة، سواء تلك التي تمت في 'مصانع' أعدت خصيصاً لذلك بمعسكرات الاعتقال[234] أو التي ارتكبت على نطاق واسع في مناطق الأدغال الغنية بالثروات المعدنية والخامات.، وكما تتجلى أيضاً في العودة إلى التعذيب في دول ليست بالقليلة.[235] أما طغاة زماننا فإن لهم مطلق الحرية في القتل والإبادة دون أيّ تدخل من المجتمع الدوليّ إذ يحميهم مبدأ سيادة الدولة الذي ورثناه عن القرون الغابرة.

وإذا لم يُلجّم هذا العنف – الذي أفرزته سلسلة طويلة من الأحداث الاجتماعية وانقضّ علينا 'كالطاعون النفسي'، كما يقول تايلور Taylor[236]، فإنه سوف يفضي إلى وقف مسيرة الحياة وانهيارها. فالجريمة والعنف

---

[233] في كتابه 'أهو مستقبل بغير أخلاق؟ *Zukunft ohne Ethik*?' ص 75

[234] بدأت الإبادة العرقية بالقضاء على مليونين من الأرمن في الحرب العالمية الأولى. وتلطّخت أيادي عالم القرن العشرين المتحضر بجرائم الإبادة الجماعية بشكل لم يحدث منذ فجر التاريخ إلى يومنا الحالي: فهناك إبادة اليهود على يد هيتلر، والقتل الجماعيّ للكولاك والتارتار في شبه جزيرة القرم (على يد ستالين في روسيا)، وأعمال الدمار الموجهة إلى الأكراد (من أربعة دول تقع فيها ديارهم هي إيران وتركيا والعراق وسوريا)، وشعب قبيلة الإيبو (في جنوب نيجيريا) والبيهاري وقبائل الهنود (بحوض نهر الأمازون) بالبرازيل، وتكرار الإبادة الجماعية المنظمة holocaust في كمبوديا حيث هلك نصف سكان البلاد. أما الثورة الثقافية التي حدثت في الصين فقد كلفت مئات الآلاف من الناس حياتهم بينما أقدم عشرات الآلاف منهم على الانتحار. (ثم استمر هذا المسلسل الدمويّ إلى أن اختُتم القرنُ العشرون بإزهاق أرواح الآلاف من الأقليات العرقية والدينية فيما كان يعرف بيوغوسلافيا، وإبادة ما يقرب من مليون نفس في الصراع القبليّ بدولة رواندا الإفريقية الصغيرة – بينما وقف العالم كله، رغم وجود عسكريّ للأمم المتحدة بمرأى منها، مكتوف الأيدي ومشلول الإرادة حيال هذه الأحداث المرعبة. [المترجم)]

[235] أعلنت منظمة العفو الدولية *Amnesty International* بمناسبة مرور عشرين سنة على تأسيسها أن عمليات التعذيب والقتل والاختطاف قد اتخذت أبعاداً وبائية (جريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung* عدد30-31 مايو 1981)

[236] في كتابه 'كيف تتحاشى المستقبل' لأرخميدس ص 85

والكراهية هي الطريق الأكيد نحو الهاوية. ومن رابع المستحيلات أن تتمكن البشرية من إيجاد حل لهذه المعضلة في أجل قصير. ذلك لأن العنف يتولد عن الغيظ واليأس والرغبة في التدمير. وليس هناك أيّ محاولة لتصحيح العوامل الاجتماعية المسؤولة بدرجة أو بأخرى عن الكراهية والوحشية، كالمساكن العشوائية والبطالة والانهيار الأسريّ. أضف إليها المنظومة الأخلاقية التي يمكن تشبيهها بالنقطة التي تمناها أرخميدس[237] قد تلاشت، كما أن منابع التقاليد الإجتماعية الموروثة التي تبين الصواب من الخطأ هي الآن آخذة في النضوب. ولدينا كل الأسباب الوجيهة للاعتقاد بأن الظاهرة الوبائية التي ضربت مجتمع اليوم لن تنحسر في المستقبل بل ستتفاقم، وأن عالمنا كما يقول شوقي أفندي "قد صار عالماً تعذرت فيه الرؤية من جراء الخفوت المطّرد الدؤوب لجذوة الدين ونور الإيمان". [238]

أهذه هي نهاية حضارتنا؟

لم يعد ما أطلق عليه ألفريد ويبر Alfred Weber 'الإنسان الرابع' – وهو المخلوق العريّ عن الأخلاق والإيمان، المبرمج ذهنياً والذي يتصرف كالآلة، والذي بَعُد عن آدميته وصار كائنا غير آدميّ، أو لا إنسان[239] - لم يعد خيالاً مستقبلياً وإنما صار 'واقع زماننا المرير' على حد تعبير جان جيبسر Jean Gebser[240]. ولقد لخّص الكاتب كلاوس ميهنرت Klaus Mehnert أروع ما لديه من القيم على هيئة مصنّف من النقائص الأخلاقية – منها الراديكالية، والفوضى، والعدمية، واليوتوبيانية *utopianism*، والتخريب، والتكبّر، والتزمّت، والتشرّد، والتسيّب، والمجون، والإجرام، والعزوف عن العمل، وإدمان المخدرات.[241] وانقلب 'بنو الإنسان' الذين هم فخر الخليقة – ليصبحوا 'بني الوحوش' – وحوش لا يحكمها قيد خارجيّ ولا يمنعها وازع داخليّ[242] ولا شيء يصف هذا الشطط

---

[237] هي نقطة وهميه خارج الكرة الأرضية تخيلها أرخميدس عندما قال "اعطني نقطة ثابتة استطيع أن أقف عليها وانا سأحرّك الأرض".

[238] 'ظهور العدل الإلهي *The Advent of Divine Justice*'، شوقي افندي ص 39

[239] أنظر الحاشية رقم 84 التي وردت آنفا في هذا الفصل

[240] في كتابه 'تحت المراقبة *In der Bewährung*' ص 111 وما ورد فيه من مراجع

[241] في كتابه 'أفول الشباب *Twilight of the Young*' ص 285

[242] ذكرها فريدريك هاكر Friedrich Hacker في كتابه 'العدوان *Aggression*' ص 17

أصدق من الكتاب المقدس إذ يطالعنا بواحدة من حكم النبيّ سليمان وأمثاله فيقول: "بلا رؤيا يجمح الشعب".[243]

ولم تجعل القيم البديلة التي جاءت بها العلمانية من عالمنا عالماً أكثر محبة أو أحسن حالاً، ولن تأتي تلك القيم العلمانية أيضاً بملكوت الله على الأرض، بل ستفضي إلى تسميم نفسانيّ لحياتنا الجماعية وإلى الترويج للتعامل بقاعدة 'إن لم تكن معي فأنت عَلَيّ'، وإلى قطع خيط التواصل ومدّ حبال التنابذ. ولا يمكن أن نختلف مع نوربرت الياس Norbert Elias في قوله "إننا فقدنا الاتجاه في عالمنا، وأن مجموعة المفاهيم والمعايير التي نشأنا عليها لم تعُدْ تتماشى مع المجتمع المعاصر".[244]

فهل لنا إذن أن نتعجّب حيال فقدان مؤسسات الدولة كلمتها المسموعة؟ أو أن ندهش لتفاقم عدم استقرار نظامنا الاجتماعي، أو تراكم العفن الذي ضرب حضارتنا؟ وهل يصحّ أن نفاجأ، ونحن في عالم قد فقد ركيزته الروحية، من تفشي الخوف واليأس وعدم الأمان[245]، ومن نظرة الناس إلى المستقبل بكل قلق؟

ويلحّ علينا سؤال هاجس عما إذا كنا قد أدخلْنا أنفسنا إلى طريق مسدود. فالخوف الكيانيّ الذي ينتاب الإنسان المعاصر يفضح ما يُضمره من

---

[243] الكتاب المقدس- سفر الأمثال: الإصحاح 29:آية 18

[244] من خطبة ألقاها في حفل منح جائزة أدورنو Adorno بفرانكفورت (أوردتها جريدة *Allgemeine Zeitung* عدد 1977/10/4) ويضيف فون كوبي F. v. Cube إلى ذلك ما أسماه بالمشاكل الأساسية في الديموقراطية الحرة بقوله "عندما تكون القيم ملزمة نسبياً، (بدلاً من أن تكون ملزمة بشكل كامل)، فلا يكون هناك مبرر قانونيّ ملزم ولا يكون الناس على يقين بشأن كيفية السير والسلوك". 'دورية البرلمان *Das Parlament*'، ملحق 1979/6/16 ص 18

[245] بل ان المنادين باليوتوبيات الايجابية أصبحوا يدركون شيئاً فشيئاً أنهم قد فشلوا الآن في تحقيق أمانيهم. فها هو الفيلسوف الفرنسيّ ميشيل فوكول Michel Foucault يشكو قائلا "للمرة الأولى في العالم – ربما منذ ثورة اكتوبر 1917 (التي أشعلها لينين في روسيا)، أو حتى منذ الحركات الثورية الكبيرة في أوروبا عام 1848، لم يعد هناك ثقب في العالم يتسرب منه بصيص الأمل. ولم تعد هناك فائدة ترجى من التوجيه والتنوير، فلم تبق هناك حركة ثورية واحدة ناهيك عن وجود دولة اشتراكية واحدة يمكن أن نشير اليها قائلين: 'هذا هو النموذج الذي يجب أن نحتذي به! ' فلقد عدنا القهقرى لما قبل عام 1830، أي علينا ان نعود إلى نقطة البداية من جديد". (نقلا عن مقالة لأولريك جراينر Ulrich Greiner بعنوان 'غرق التايتانيك Untergang der Titanic' نشرتها جريدة *Allgemeine Zeitung* عدد 19 اكتوبر 1978)

فقدان للتوازن والتوجيه الداخليّ[246]، ومن تبلّد المشاعر، وافتقاد للراحة والأمان، واغتراب عن الذات. والانخفاض في معدّل المواليد في أكثر الدول الصناعية تقدماً[247] – أي العزوف عن إنجاب الذرية – إنّما ينمّ عن أزمة جوهرية في ثقة الإنسان بنفسه وبالمجتمع: ذلك لأن إرادته للاستمرار في العيش قد كُسِرت وأصبح كلّ ما نتشدق به من مدنية[248] وعلوم وتقدّم عاجزاً عن الإيفاء باحتياجات الإنسان الأساسية. وما يقبع خلف تلك الواجهة البراقة لمدنية اليوم الزائفة[249] ليس سوى خواء أجوف.

ويأمل الكثيرون في أن تهبّ 'رياح التغيير' ويجدون السلوى في أمل أن هذا الخواء ليس سوى ظاهرة عابرة قد أتى بها نهر التاريخ الزاحف. والكثيرون ينتابهم الحنين إلى الماضي. بل أصبحت كلمة 'الحنين' على كل لسان، ويصف الفيلسوف جوستاف زيفرت Gustav Sievert مواطن مدينة آخن Aachen (الألمانية) حالنا بقوله: "مع كل حجر أساس أرسيناه وضعنا التدهور، وهي حقيقة يدركها ويحسّها ويشعر بها الجميع،

---

[246] يقول الفونس أوار Alfons Auer في كتابه 'الأخلاق الذاتية والإيمان المسيحيّ *Autonome Moral und christlicher*' ص 11-21 ما يلي: "بل إن مفكري علم الاجتماع قد انبروا في الآونة الأخيرة يبحثون عن أنماط سلوك أخلاقية، إذ لاحظوا جسامة إلزام الناس بالتخلي تماماً عن أيّ شرعية سلوكية تمليها ضروريات الوجود البشري".

[247] لا ينجم عن 38% من حالات الزواج بجمهورية ألمانيا الاتحادية أية ذرية، و26% فقط من هذه الحالات تنجب طفلاً واحداً. (وانخفض معدل المواليد في ألمانيا خلال نصف قرن من عام 1960 حتى عام 2010 إلى النصف [المترجم])، وما ينفق سنوياً في ألمانيا على اطعام الكلاب والقطط – يزيد على ما يُصرف على تغذية الرّضع من الأطفال.

[248] يصف هاينز فريدريش Heinz Friedrich في كتابه 'الكارثة الحضارية *Kulturkatastrophe*'، ص 279، كيف أن الجنس البشريّ بأكمله يتعرض الآن – بفعل وسائل الاعلام وسبل الاتصال والتنقل التي صارت تشمل العالم كله – للنفوذ المُعدي لما يصفه "بمدنيّة أوروبية الأصل أمريكية التفاهة"، قد بات مرض العدمية يضرب أوصالها حتى أن أبعد أركان الكرة الأرضية قد زُجّ به من جراء ذلك داخل ما اسماه "دوامة من العفن المتمدّن".

[249] ويقول عبد البهاء: "فالتّمدّن الصّوريّ من دون التّمدّن الخلقيّ هو أضغاث أحلام، كما يعدّ الصّفاء الظّاهر من دون الكمال الباطن 'كسراب بقيعة يحسبه الظّمآن ماء' (آية قرآنية) ذلك لأنّ النّتيجة المتوخّاة – وهي رضاء الباري وراحة النّاس واطمئنانهم – لم تتمّ من هذا التّمدّن الظّاهر الصّوري". (الرسالة المدنية - الطبعة العربية ص 40)

ويلهث الخوف بأنفاسه في آذاننا. وسيسجلّ التاريخ لقرننا أنه 'قرن الخوف'". [250]

وطالما كانت أزمنة الأحداث الجسيمة هي أيام انقلاب وانهيار واضمحلال وخروج على القانون وخوف وانعدام أمان. وهناك أحداث في الماضي مماثلة تماماً لوضع البشرية الراهن عندما كانت الحضارات القديمة تتهاوى، وأبرزها سقوط الامبراطورية الرومانية – سواء في اسبابها أو في ردود الفعل لدى من عاشوا أحداثها. ومن الأعراض والشواهد التي صاحبت انهيار الإمبراطورية الرومانية وكُتب عنها الكثير هو هجرة السكان من الريف إلى الحضَر وتكوّن طبقة عمالية تسكن المدن، واستهلاك الناس أكثر مما تنتج، وغلاء فاحش متزايد، وتزايد ثقيل في عبء الضرائب، والميل إلى إثارة النزاعات واستخدام العنف، وتدهور الأمان العام من جراء ظهور العصابات المسلحة، وما يتبع ذلك من تشكيل فرق حرس خصوصية تتقاضى أجراً على عملها، وزيادة الفساد، وبثّ الأفكار التحريضية والمتنابذات السياسية على نطاق واسع، وسيادة الإرهاب، ومداهنة الحاكم لجمهور الرعية استرضاء لهم، وانحطاط الأعمال الفنية والحِرَفية، وازدياد حالات الانتحار، وازدهار الشعوذة، وكل لون من ألوان الدّجل. [251] أما العامل الروحيّ الذي أفرز أعراض هذا الانحطاط وشواهده فهو تشنجات الاحتضار التي انتابت العقائد الإغريقية الرومانية وهي في نزعها الأخير. [252] وموْت الفضائل والمثل القديمة. وعجز الإمبراطور الرومانيّ أغسطس – الذي حاول الإبقاء على الورع والتقاليد القديمة وإعادتها إلى سابق مجدها عن طريق اصدار الفرمانات المتشددة التي حرّمت البذخ والرذيلة، أوبسنّ قانون صارم بشأن الزواج والطلاق (وهو ما يعرف في الأوساط القانونية بـ (*lex Julia*) – عَجَز هذا الامبراطور عن منع انحطاط الأخلاق وانهيار المجتمع اللذين استشريا دون توقف. فصارت الرذيلة أمراً يقبله المجتمع، وشيد بالفسق والمجون كما كان يُشاد بالمبادئ، حتى أن

---

[250] ذكرها هيربرت هاينرخز Heribert Heinrichs في مقالة له بجريدة *Die Zeit* عدد 29 نوفمبر 1974 ولقد تكلم الفيلسوف سورن كيركجارد Sören Kierkegaard في كتابه 'مفهوم الخوف *The Concept of Fear*' الذي ألّفه عام 1844 أي قبل اختراع القنبلة الذرية بمائة عام – تكلم عمّا أسماه بمجيء 'عصر الخوف'

[251] راجع ما كتبه تايلور في كتابه 'كيف تتحاشى المستقبل' ص 105 وما بعدها

[252] أنظر فقرة 'كثرة عروض الخلاص' من فصلنا السادس 'ما هو الحق' للأمثلة المشابهة في تاريخ الأديان.

سينيكا Seneca كتب عن ذلك يقول: "كانت نبيلات المجتمع يحسبن السنين لا بعدد القناصل الرومانيين الذين كانوا يتعاقبون على الدولة، وانما بعدد أزواجهنَ".[253] أما انتشار الفوضى بل تعطل الدراسة بالجامعات فليسا من ابتكار زماننا ذلك لأن الحكيم أوغسطين Augustine قد تكلم عنها[254] كما أن من عاصروا انهيار العالم القديم وعاشوه كانوا أيضاً فريسة للفزع واليأس. فقلد ناح أوغسطين يقول: "لقد انتحب العالم وتوجّع لسقوط روما"، أما القديس جيرومي Jerome فقد ارتفع عويله وهو قابع في الدّير الذي كان يسكنه في بيت لحم من أن ‘الجنس البشريّ بأكمله’ قد تأثر من سقوط روما – وقال: "لقد التصق لساني بسقف حلقي واختنقت الكلمات من نحيبي كلما خطرت ببالي هذه الفاجعة".[255]

غير أن الانقلابات الهائلة التي حدثت في الماضي لا تقارن أبداً بما يراه العالم اليوم، ذلك لأن مدنيّتنا التي تتسم بدرجة عالية من التقدم العلميّ والتكنولوجيّ هي تربة أكثر خصوبة لإفراز القلاقل والإصابة بها بقدر كبير جدّا عمّا سبقها من حضارات، لأن الاضطراب هذه المرة قد شمل العالم بأسره وأصاب الجنس البشريّ بأكمله. وفي وصف منه لحالنا ولمفترق الطرق الماثل أمامنا يقول فيلسوف الديانات الهندية سارفاباللي رادا كريشنان Sarvapalli Radhakrishnan: "إن موقفنا اليوم يتمخض عن امكانيات عظيمة، أو أخطار هائلة، أو ثواب لا حصر له. وقد تكون هذه هي النهاية، أو تكون هي البداية الجديدة. وقد ينتهي المطاف بالبشرية إلى تدمير

---

[253] كتاب ‘في المنافع *De beneficiis*’ الجزء الثالث، الباب السادس عشر الفصلان الثاني والثالث: مقالات في الأخلاق *Moral Essays* ص155

[254] تخلى أوغسطين Augustine – الذي كان أستاذاً في علم البلاغة في ذلك الزمان – عن منصب التدريس بقرطاجنة عام 383م بسبب الأحوال السائدة. وفي مؤلفه ‘الاعترافات *Confessions*’، المجلد الخامس، الباب الثامن، شكا مما اسماه "الانحلال المفرط في الدناءة والنزق بين المريدين الذين يتهافتون في وقاحة على رواق ذلك الرجل الذي ليس لديه من العلم شيئاً" ويمضي في وصفه قائلاً: "انهم يدخلون أيّ مكان في جسارة بنظرات تقترب من الخبل ويعبثون بكل قاعدة أو نظام روّج له أيّ أستاذ من أجل مصلحة تلاميذه. كم من النزق والطيش يرتكب منهم في بلاهة يعجب لها الانسان! ولو لم تكن التقاليد حامية لهم لاستحقوا عذاب النار عن جدارة".

[255] أوردها الكاتب رادا كريشنان Radhakrishnan في كتابه ‘استعادة الإيمان *Recovery of Faith*’ ص 1

نفسـها بنفسـها، أو قد تنبعث حيويتـها وخلّاقيتـها الروحيـة مـن جديـد، فيبـزغ فجر جديد يصبح فيه هذا الكوكب الأرضـيّ وطن الإنسانية الحقيقي".[256]

[256] المرجع السابق ص 3

الفصل الثالث

الدّين والعلم: شريكان أم خصيمان؟

من الممكن أن ننسب أعراض الأزمة الحضارية التي استعرضناها في الفصل السابق بكل سهولة إلى ما وصفه فريدريك نيتشه بالعدمية *nihilism* أي فقدان الغاية، وغياب الهدف – على حد قوله. ولا يجد السؤال عن السبب في ذلك جواباً، إذ فقدنا أسمى القيم والمعايير الأخلاقية المتعارف عليها. واعتبر نيتشه أن هاتين العلامتين للعدمية – أي غياب الهدف وفقدان القيم – هما من عواقب ما أسماه بموت الله، واحتضار الدين. هذا في حين أن كافة الأديان تسعى إلى الإجابة عما يتعلق بالأهداف والقيم من سؤال وتِسْآل، ومن هذه الأسئلة: ما هو الإنسان؟ وما الغرض من وجوده وإلى أيّ غاية يسعى؟ وهل هناك قيم أخلاقية يجب عليه أن يحيا بمقتضاها؟ وما هي تلك القيم؟

فدائماً ما كان توضيح أصل الإنسان وهويّته ومصيره عنصراً أساسياً مما يشكّل جوهر الدين، إذ إن تعاليم الأديان قاطبة تفيد بأن الإنسان يبدأ من الله ويعود إليه، وأنه قد خُلق لحياة من الخلود والكمال والإرادة الحرة، فهو مواطن يسكن عالمين في آن واحد، أحدهما عالم مادّيّ والثاني عالم غيبيّ. وبنفس الدرجة التي تتناول بها كل الأديان الإلهية موضوع مسئولية الإنسان عن حياته الخاصة، تتعامل أيضاً مع مصنّف الفضائل التي تحدد كيف يحيا الإنسان هذه الحياة.

وسؤالنا هو: هل بوسع العلم تقديم إجابة عن هويّة الإنسان والغرض من وجوده؟ أو بتعبير آخر، هل بوسع العلم أن يملأ الفراغ الذي نتج عن تركنا الكامل للغيبيات؟

مسالة الهدف من وجود الإنسان

إن الذين يقدّمون إجابة عن هذا السؤال استنادا على العلم وحده يغالون في قيمة العلم، ومن ثمّ يفشلون في اكتشاف القصور الكامن فيه. إذ إن مسألة أصل الإنسان وهدف الحياة البشرية ومنتهاها ليست مجرد أمر أكاديميّ أو نظريّ، وإنما هي مسألة تلعب دوراً جوهرياً في قرارات معينة في الحياة. فهي مسألة تستعصي على المعرفة التجريبية أو الاستنباط بنفس القدر الذي يحتار فيه الباحث هانز شيفر Hans Schaefer أمام مسألة

وجـود الله.[1] فعنـد هـذه النقطـة تصـل المعرفـة العلميـة إلـى مشـارف حـدّ لا تستطيع أن تتخطـاه. ولهذا فـإن مسـألة الهدف من حياتنـا تقـع خـارج نطـاق مرجعية العلم. وعندما يَدّعي العلم أهليته للإجابة عن هذه المسالة فإنه يكون مُداناً بـنفس تهمـة التجاسـر التـي ارتكبتهـا الكنيسـة فـي فجـر العصـر الحـديث عنـدما أنكـرت الاكتشـافات العلميـة وحاربتهـا. فـالعلم يتخطّـى حـدوده عنـدما يصـف الإنسـان بأنـه ‘آلــة’، أو’قـرد عـاري أمْـرَد’[2]، أو ظـاهرة عرضـية مـن مخلوقات الطبيعة، أو ‘وليد المصادفة’، أو ‘غجريّ يحوم حـول عـالم غريـب عنه ولم يحدد بعد ’ما هي واجباته وقَدَره في ذلك العالم[3]، ‘كنشاز’ نـاتج عن خطأ في النشوء والارتقاء، أو ‘طفرة من طفرات علم الحيوان’.[4]

ويخرج العلم عن نطاقه أيضاً عندما يدّعي أنه ليس هناك هـدف مـن الوجود الإنسانى، ويؤكّد أنه وصل إلى هذا الاستنتاج باستنباط علميّ باتّ لا يقبل النقض مثلما فعل المفكّـران مونـود Monod وسـكينار Skinner[5]، ذلـك لأنّـه إذا شـرع العلـم فـي تقديم جـواب لهـذه المسـألة فإنّـه لايـرى فـي الإنسـان وجوداً سوى وجوده البدنيّ، وسيقلّص من مفاهيم الهدف والقيم البشـرية إلـى حدّ اعتبارها ‘عمليات دفـاع تلقائيـة’ أو ‘ردود فعل’، وسـيقلّل مـن شـأن قـدرة

---

1 من رأي العالم الطبيعيّ هانز شيفر أن العلم يحتل مكانة أكثر مما يستحق في مجتمعنا، ويؤكد أنه مهما كان العلم مهماً في حدّ ذاته، إلاّ أنه عاجز بمفرده أن يرسم لنا المستقبل - من مؤلّفه المعنون ‘الإنسان ونهاية إنسانيته *Der Mensch und das Ende seiner Menschlichkeit*’ص 166

2 سكينار B. F. Skinner في مؤلّفه ‘ما وراء الحرية والكرامة *Beyond Freedom and Dignity*’ ص 191 وما بعدها. وكذلك ديزموند موريس Desmond Morris في مؤلّفه ‘القرد العاريّ: دراسة أجراها عالم حيوان عن الحيوان البشريّ *The Naked Ape; a Zoologist’s Study of the Human Animal*’، للناشر Dell Publishing، طبع نيويورك عام 1967

3 جاك مونود Jacques Monod، في مؤلّفه ‘المصادفة والضرورة *Chance and Necessity*’ في صفحتي 160 و167

4 آرثر كيستلر Arthur Koestler، في مؤلّفه ‘يانوس *Janus*’ صفحتي 5 و100

5 استشهد فيكتور فرانكل في أحد المؤتمرات العلمية بما جاء في واحد من أحدث الكتب الدراسية في تعريف الإنسان – وهو تعريف تم وضعه وفقا لفلسفة واطسون Watson وسكينار Skinner في علم النفس السلوكي. وطبقا لذلك التعريف فإن الإنسان "ليس سوى عملية تفاعل كيميائيّ بيولوجيّ معقّدة يسيطر عليها نظام احتراق داخليّ يعطي الطاقة لأجهزة كمبيوتر ذات مقدرة استيعابية ذكية لحفظ المعلومات المشفرة" – عن معلومة أوردها كوستلر Koestler وسميثيز J. R. Smythies، في مؤلفهما ‘ما وراء الفلسفة التبسيطية *Beyond Reductionism*’ ص 403

الإنسان على خلق الحضارة واكتسابها، بأن يعتبرها نتاج آليّة مفيدة في الصراع من أجل البقاء. وإذا ما نظرنا نحن إلى الإنسان من هذه الزاوية فلن يخرج عن كونه حيواناً قادراً بالفطرة على خلق التاريخ واللغة والفنّ والدين. أما الحضارة بكاملها فلن تكون سوى مظهر مميّز من مظاهر النشوء والارتقاء.

وما تلك إلا وجهة نظر تستحق الرثاء، إذا ما لجأنا إليها لتعليل ظهور أفذاذ من البشر مثل أفلاطون، وجوته، وشكسبير، وباخ، وموتسارت، ومايكل أنجلو، وكانط... وغيرهم من العباقرة الذين جاد بهم تاريخ البشرية – فما بالنا بمؤسسي الديانات العظمى!

هذا عن العلم، أما إذا ما تناولنا الفلسفة فلا نجدها تعطي أية إجابة مفيدة عما إذا كان هناك هدف للحياة. فمن الأمور الشائعة عن مذهب الوجودية الحديث أنه يؤيّد نظرية عبَث الحياة وتفاهتها. فالإنسان كما يراه جان بول سارتر ليس سوى 'عاطفة عديمة الجدوى'[6] وهو صاحب العبارة الشهيرة 'من العبث أننا ولدنا، ومن العبث اننا سنموت'[7]، فحياة الإنسان (عند الوجوديين) لا تخرج إذن عن كونها تحقيق لخطّة أو رسم اختاره الإنسان لنفسه.

غير أن أساتذة علم الاجتماع قد توصلوا إلى حقيقة أن الإنسان لا يمكنه العيش في فراغ، ولا يتحمل حياة عريّة عن الهدف والمضمون. لأن 'افتقاد الحياة للمفهوم' عند دانييل بيل "يوَلّد مجموعة من النواقص لا يحتملها الناس وتدفعهم على الفور إلى البحث عن مفاهيم جديدة، حتى لا يؤول بهم المآل إلى الإحساس بالعدمية أو الخواء".[8]

فما يسميهما علماء الاجتماع 'فراغا وجوديّا' و 'إحباطا وجوديّا' يؤديان إلى أسلوب حياة فارغ من المضمون. ولكي يعبّر فيكتور فرانكل Viktor Frankl عن هذه الحالة من الحياة ابتكر مصطلح 'الشعور بالمتاهة *Sinnlosigkeitsgefühl*'، واعتبر أن هذه الحالة قد ألغت مفهوم 'مُركّب النقص' الذي تكلّم عنه ألفريد أدلار Alfred Adler، وقال إنها حالة شائعة جداً في الدول الشيوعية، كما أن فرانكل Frankl يصفها أيضاً بأنها 'الخلل

---

[6] هذه العبارة هي بالفرنسية *'L'homme est une passion inutile.'* وقالها سارتر في كتابه 'الوجود والموجد *être et néant*' ص 708

[7] المرجع السابق ص 631

[8] دانييل بيل، في كتابه المتناقضات الحضارية في الرأسمالية *The Cultural Contradictions of Capitalism* ص 146

العصبيّ المعاصر’ وإنها هي السبب في اتساع رقعة علم الإمراض العقلية الحديث وتشعّبه.[9] وفي ظل الفراغ الوجوديّ الذي نعيشه تبدأ النزعات العدوانية في الظهور، ويلعب الدافع الجنسيّ دوراً أكثر أهمية وأكثر انعزالا في نفس الوقت، ثم تشرع الميل الإدماني (لتعاطي الخمور والمخدّرات والإمعان في الملذّات) في الظهور.[10]

وهناك نظريات عديدة تحاول أن تتوصل إلى أسباب ازدياد معدلات الجريمة. وأحيانا ما يسمّيه الباحثون جرائمَ بعينها ‘جرائم فقر’ تارة، وتارة أخرى ‘جرائم ترف’، ولكنه نادراً ما يتراءى لأيّ من هؤلاء الباحثين أنه، وبجانب العوامل الأخرى العديدة، قد يكمن السبب الرئيسيّ لتفشّي الجريمة في ضياع الإنسان روحياً. إذ أنه إذا لم يكن هناك اعتقاد في وجود إله، وخشية من الرادع الغيبيّ، فما الذي يدفع بالناس إلى طريق الفضيلة؟ كما أنه إذا خلا وجودنا من المعنى وعشنا طبقاً لما تمليه علينا أنفسنا، وأصبح الثواب والعقاب الدنيويّ بعيديْن عنا كل البعد بنفس مقدار بعدنا عن فكرة القيامة والحساب – فعندئذ يذوي الدافع لتحاشي المعاصي، وتكون هناك نزعة قويّة، لا إلى إتّباع الناموس بوصاياه العشر، وإنما إلى الحياة طبقاً للوصية الحادية عشر، وهي ‘إفعل ما شئت في الخفاء!’[11]

مسألة القيم الأخلاقيّة

وإذا ما نحن تفحّصنا محدوديّة العلم فيما يتعلّق بالقيم الأخلاقية، نتوصل إلى نفس النتيجة التي خلصنا إليها من عجز العلم عن التعامل مع مسألة الهدف من وجود الإنسان. إذ أن المعايير الأخلاقية هي من المسلّمات

---

[9] من كتاب فيكتور فرانكل ‘الفراغ الوجوديّ ‘*Das existentielle Vakuum*’ ص88

[10] المرجع السابق صفحتي 91 و93 – وللرجوع إلى البحث بكامله راجع أيضاً كتاب فيكتور فرانكل ‘المسألة العقلانية في العلاج النفسانيّ *‘Die Sinnfrage in der Psychotherapie* ص 309 وما بعدها

[11] يقول آرثر شوبنهاور Arthur Schopenhauer "لا يكون القانون والشرطة كافييْن في جميع الأحوال، فهناك جرائم يكون اكتشافها في غاية الصّعوبة، بل إن البعض من الجرائم يتعذّر الحكم فيها بالإدانة، وهناك جرائم أخرى لا تجد الناس بكل بساطة أيّ نص قانونيّ يحميهم منها. وفضلا عن هذا فإن القانون المدنيّ لا يجري سوى العدالة على أكثر تقدير، ولكنه يعجز عن ضمان الشفقة والمروءة، فهناك بطبيعة الحال فضائل يرغب العامة في تجاهلها بدلاً من التحلّي بها." – من كتابه ‘أصل الأخلاق *The Basis of Morality*’ الفصل الثاني ص 135

البديهيـة الوجدانيـة التـي لا يوجـد دليـل عقلانـيّ أو علمـيّ علـى صـحة تلـك المعـايير أو خطئهـا. ولهـذا فـلا يكـون أيّ مـن العقـل أو العلـم أداتـين كـافيتين لاسـتنباط المعـايير الأخلاقيـة أو تعريـف أهـداف الحيـاة. فـالعلم لـيس مـؤهّلاً للتعامل مع الأخلاقيات، وهـو عـاجز أيضـاً عـن استنباط نظـام متقن لمبـادئ السـلوك. فـلا يمكـن مـثلاً تطـوير برنـامج علـى الكمبيـوتر لاسـتنتاج حلـول للمسـائل الأخلاقيـة بـنفس الدقـة التـي نتعامـل بهـا مـع المسـائل الرياضـية أو الإحصائية أو الفيزيائية. كما لا يمكن استخدام المصطلحات العلمية لصياغة الضوابط التي يجب أن يتبعها الإنسان لكي يحيا حياة نافعة مثمرة بوحي من ضميره. ومع أن العلم يقدر بكل تأكيد على استنباط الأساليب التي يمكن بها تحقيق أهداف اجتماعية تم التوصّل إليها مسبقاً بالوسائل البديهية الوجدانيـة، إلا أنـه يعجـز عـن أن يـدلي بـرأي قـاطع فيمـا يجـب أن تكـون عليـه تلـك الأهـداف. فيمكننـا اللجـوء إلـى البحـث العقلانـيّ عـن الحقـائق فـي الأمـور الطبيعية، وهي أمور يمكن تفسيرها اليوم بطريقة معينة وغدا بكيفية أخرى، أو في مجال العيش والضرورة. ولكن يستحيل علينا استخدام حواسّنا الذهنية للبت في الأمور المتعلقة بالواجبات الأخلاقية، أو المعايير والقيم الحضارية.

فالعقل لا يقدر، سوى بدرجة يشوبها الكثير من القصور أن يميّز مـا بـين الخيـر والشـرّ. ذلـك لأن اكتشـاف الصـواب والخطـأ لـيس مثـل سـهولة اكتشاف وجود ‘ذبابة في إناء اللبن’.[12]

وقد رفض الروائيّ الروسيّ الشهير دوستويفسكي بشكل قاطع مقولة أن العقـل والعلـم بوسـعهما أن يتـدبّرا أمريهمـا بنفسـهما، واسـتنكر ادعاءهمـا المرجعية في الأمـور الأخلاقيـة والسياسية. واعتبـر دوستويفسـكي أن العقـل والعلم لم يلعبا منذ فجر التاريخ سوى دوْرٍ ثانويٍّ تابعٍ في حياة الأمم. وكـان من رأيه أن "العقل لم يكن بوسعه إطلاقاً تعريف الخيرِ والشر أو حتى تمييز أحدهما عـن الآخـر ولـو علـى وجـه التقريـب." بـل علـى العكس، كمـا يقـول "دائماً ما اشتبه الخير والشرّ علـى العقل بصـورة مخزيـة تـدعو للرثـاء. ولـم يأت العلم سوى بحلول قاسية قسوة اللّكمات."[13] وإذا كان لدى المجتمع رؤية مشتركة بشأن القيم الأساسية، فسيتفق في الرأي مع الشاعر الألمانـيّ ‘جوتـه’

---

[12] على حدّ قول الكاتب الفرنسيّ فرانسوا رابيليه Francois Rabelais "لو كان الظّلم واضحاً للميزان البشريّ وضوح الذّبابة في إناء اللبن، لما التهمت الجرذان كل ثور من الثيران التي تمسك بزمام أركان عالمنا الأربعة." - من كتابه ‘جارجانتوا وبانتاجرويل *Gargantua and Pantagruel*’ المجلد الأول، الفصل الثاني عشر

[13] قالها دوستويفسكي في روايته ‘الممسوس *The Possessed*’، فصل ‘الليل’، ص 230 من الطبعة الإنجليزية

فـي قولـه "إن الإنسـان الطيـب فـي اندفاعـه الغـامض إنمـا هـو علـى وعـي بالطريق المستقيم."[14]

غير أننا في ظل تعدّديّة المعايير التي نعيشها الآن نرى كيف يزداد انقسام الآراء يوماً بعد يوم حول ما هو صواب وما هو خطأ. وما يبدو لأحدنا معقولاً مناسباً يراه الآخر بلاهة شديدة. كما أن واقعنا زاخر بالعديد من الأمثلة على إعمالنا العقل (فرادى وجماعات) بصورة خاطئة في مجال الأخلاقيات بدءً بالتمييز العنصرى، وانتهاء بتبنّي العنف والإرهاب[15]، كوسائل لتحقيق أغراض شخصية أو سياسية. وعلى حد قول جورج سوريل Georges Sorel "إذا ما نحن نصّبنا العقل حاكماً على هذه الدنيا، فكأنما قد تركنا كل شيء تحت رحمة النَّزَق والهوى". [16] فالعقل، عندما يتعلق الأمر بالأخلاقيات والفضائل، يحتاج إلى ميزان أخلاقيّ باتّ قاطع.[17] أمّا الدّين، فهو قادر بمفرده على أن يأتي بهذا الميزان.[18]

---

[14] جوتة - في 'محاورة فاوست الأولى *Faust I*، استهلال في السماء Prologue in Heave' نقلت الترجمة عن كتاب [جيته – الديوان الشرقي للمؤلف الغربي]، ترجمة عبد الرحمن بدوي، القاهرة، دار النهضة العربية 1967 (سلسلة الروائع المائة، العدد الثالث)

[15] تقول الكاتبة الألمانية ماريون جرافين دينهوف Marion Gräfin Dönhoff "إن الباب لم ينفتح على مصراعيه للسلطة الشمولية والإرهاب المطلق ليصبحا حقيقة واقعة في هذا العالم إلّا بعد الإطاحة جانبا بكل الأفكار الغيبية" – في مقال لها بعنوان 'الحياة بلا إيمان Leben ohne Glauben' نشرت في مجلة *Die Zeit* عدد 21 ديسمبر 1979

[16] من مقتطف له أورده شيلسكي Schelsky في كتابه 'بحث في التغيير *Die Arbeit tun die anderen*' ص 106، كما أن الكاتب آرثر كيستلر يرفض تسمية سُلالتنا البشرية الحديثة المسمّاه *home sapiens* بـ'المخلوقات العاقلة'، لأنه "لو كانت كذلك لما لطّخت تاريخ البشرية بالدماء". من كتابه يانوس *Janus* ص 5.

[17] من الغريب أن علم اللاهوت المسيحيّ لم يتوصل بعد إلى قول فصل في مسألة الميزان الأخلاقى، مع أنها مسألة دأب علماء اللاهوت على تلقينها للناس على مرّ القرون. كما أن علم اللاهوت الأخلاقيّ في المذهب الكاثوليكيّ يدّعي عقلانيتة واستقلاليته في تحديده للقيم الأخلاقية، وبذلك تكون الكاثوليكية قد تعلمنت هي الأخرى. وهذه نقطة سنعود إليها في فصلنا السابع: "وحدانية الأديان" – بند 'التجديد الإلهيّ'.

[18] توصل المفكّر العلمانيّ آرثر شوبنهاور نفسه إلى أن "قاعدة الوجوب، أي النواهي والأوامر الأخلاقية، لا تسري الاّ في ظل ناموس أخلاقيّ دينيّ إذا ما خرجت عنه فهي تفقد كل مبرر ومعنى لها. " ووصف قواعد التشريع الأخلاقيّ التي حددها الفيلسوف (العلمانى) كانط مثل 'الإلزام العرفى' و 'والكرامة الإنسانية'، بأنها 'عبارات جوفاء'

وحتى إذا كان باستطاعة العقل أن يميّز الخير من الشرّ، فلن يكون بمقدوره أن يزوّد ما يراه خيراً بهيمنة ذاتية تجعل منه واجباً اخلاقياً ملزماً للجميع. فهذه الصّبغة الإلزامية هي جزء لا يتجزأ من أيّ ناموس سلوكيّ.

أما التعددية في معايير غير ملزمة في الشئون المهمة من حياتنا فإنها ستفضي بنا قطعاً إلى انهيار شامل في النظام الاجتماعي. ذلك لأن المعايير الأخلاقية المتعددة وغير الملزمة ليست سوى ما يسميه الألمان سكين ليختنبرج *Lichtenberg*[19]، الذي لا نصل له ولا مقبض.

الدين: منبع الهدف ومصدر القيم

دائماً ما اتّخذت الأنماط السلوكية من الدين قاعدة وأساساً لها. فالدين وحده قادر على خلق "نظام من القيم السامية والمثل العليا، يمكن أن ترتكز عليه قيم المجتمع الأساسية. والدين يشيّد هرماً من القيم والمعايير، مخصصاً للبعض منها رتبة الإطلاق والتعميم، وللبعض الآخر صفة النسبية والتخصيص، وهو يجيز ويحرّم، ويميّز ويفاضل، ويترجم القيم إلى أنماط سلوكية وينقلها بواسطة التربية والتعليم إلى جيل الناشئة من الأطفال، ويُبقي على نبض الأخلاق والفضائل حيّاً في وجدان المجتمع وضميره".[20] وإذا ما اقتُلعت هذه القيم من مراسيها الغيبية فقدت خواصّها الإيمانية التسليمية ليس فقط إلى الحدّ الذي لا يتزعزع عنده الإعتقاد فيها ، بل سيجلب الانتقاد والمخالفة أيضاً. إذ أن المعايير الأخلاقية لا تتمسك بها الناس على المدى الطويل إلاّ إذا لازمتها الصفة الإيمانية الوجدانية. أي يكون لزاماً على الناس الإيمان بها والتسليم بصحّتها. بل إنه بوسع الدين وحده أن يسبغ على القيم

و ‘نسيج عنكبوت’ و ‘رغاوي صابون المدارس الفكرية’ وأنها مبادئ "تهيل عليها التجربة العملية الازدراء والتحقير في كل ظرف"، مبادئ "لا يعلم عنها أحد شيئاً سوى الجالسين في قاعات الدرس." ويرى شوبنهاور أيضاً أن مبدأ الإلزام العرُفيّ الذي اشترطه الفيلسوف كانط كأحد قواعد التشريع الأخلاقي ليس إلا خطأ فلسفياً، أو كما قال شوبنهاور "افتراض لا يمكن التسليم به، ولا يخرج عن كونه ناموساً أخلاقياً أخذه كانط عن الدين وألبسه ثوب الفلسفة العلمانية" – عن كتاب ‘قواعد الأخلاق *The Basis of Morality*’، الطبعة الإنجليزية، الجزء الثالث ص 133، 148- 149

[19] نسبة إلى جورج كريستوف ليختنبرج Georg Christoph Lichtenberg (1742-1799) الذي كان في القرن الثامن عشر أستاذا للفيزياء بجامعة جوتنجن Göttingen واشتهر بتشبيهاته المأثورة

[20] كما يقول إيريك كيلنر Erich Kellner في مؤلّفه بالألمانية ‘تجربة في المسيحية الناقدة *Experiment eineskritischen Christentums*’ ص 7

البشرية الجوهرية هيمنة ذاتيّة، ويمنح الإنسان الحافز على أن يحيا بمقتضى المعايير النابعة منها. ويشرح بريبيلا Pribilla هذه الحقيقة بإقتدار إذ يقول: "بغير الإيمان بالله تنفلت مراسي فُلك الأخلاقيات وتجنح، إذ تفقد آخر ما يربطها ببرّ الأمان". كما يتساءل قائلاً: "هل يتورّع الإنسان عن إزالة حواجز صنعها هو بنفسه، أو أقامها غيره من بني جنسه؟ فمثاليات كالحضارة والإنسانية والتكافل الإجتماعيّ تفقد أهميّتها ودلالتها إذا ما كان على الإنسان أن يُضحّي بسعادته وحياته من أجلها دون بصيص من الرجاء الأبديّ (وهو الرجاء الذي يمنحه الدين لنا عادة)".[21]

كما يعتقد العالم هانز شيفر أيضاً بأنه "إذا لم يكن هناك اعتقاد دينيّ نابع عن مرجعية غيبية، فعندئذ تخلو السلوكيات، وهي التي من دونها لا يكتب الاستقرار لأيّ مجتمع، من أية قاعدة إلزامية. والعلم مقصور أساساً على القوّة المدركة، مما يعني أن بوسع العلم أن يدفع الناس على إعمال حواسهم الفكرية للوصول إلى الحقيقة. ولكن العلم أيضاً غير قادر بمفرده على أن يزوّدنا بإطار سلوكيّ يكون مقبولاً بصفة عامة فيصير ملزماً للجميع. فلا يمكننا خلق مجتمع 'إنسانى' من دون تلك القواعد الأخلاقية الملزمة. بل إن مذهب الفلسفة الإنسانية *humanism* قائم على نُبْل الإنسان وواجب التآخي البشرىّ، وهو أساس يحتاج إلى سند من الدين، إن كان من المقدّر له أن يكون قاعدة سلوكية مقبولة وملزمة". [22]

وهناك إيضاً استنتاج آخر مماثل على قصور العلم في مجال المعايير والقيم توصّل إليه المفكر ماكس هيركهايمر Max Horkheimer، صاحب ما أسماه بالنظرية الحرجة، إذ يقول: "ليس هناك سبب منطقيّ مُلِحّ يمنعني من الشعور بالكراهية تجاه الآخرين إلاّ إذا تعارض ذلك مع مصالحي الشخصية في المجتمع. وهذا يعني أن كل محاولات إرجاع الأخلاقيات إلى الذكاء والحكمة البشرية بدلاً من رؤيتها بمنظور الحياة بعد الموت – وهي نزعة لم يقاومها الفيلسوف (العلماني) كانط نفسه في كل المواقف – ما هي إلا محاولات مبنية على الأوهام. ونتبين في نهاية المطاف أن جذور كل ما يتعلق بالقيم الأخلاقية قد نشأت في تربة علم

---

[21] من مؤلّف بالألمانية للكاتبين ميزير Messer وبريبيلا Pribilla بعنوان 'الكاثوليك والفكر الحديث *Katholisches und modernes Denken*' ص 95.

[22] أورده إيريش كيلنر Erich Kellner في مؤلّفه 'تجربة في المسيحية الناقدة *Experiment eineskritischen Christentums*' ص 3

اللاهوت. "[23] وقد توصّل هيركهايمر هذا أيضاً إلى حقيقة أخرى، عبّر عنها بحجج قويّة مفادها أنه يستحيل ظهور سياسة ترتكز على الأخلاق في غيبة الإيمان بوجود الله.

ولقد سُئل عبد البهاء ذات مرة عما إذا كان الإنسان يمتلك إحساساً ذاتيّاً بالعدل والإنصاف، فكان ردّه هو نفي وجود ذلك الإحساس تلقائياً، واستطرد يبيّن أن الإنسان يبقى دائماً في احتياج إلى الهداية الإلهيّة، إذ يقول: "لو أمعنّا النّظر أوّلاً في التّواريخ العموميّة تبيّن لنا بوضوح بأنّ النّاموس الطّبيعيّ إنّما هو فيض من تعاليم أنبياء الله، وكذلك نلاحظ أنّ آثار التّعدّي والتّجاوز في الأطفال ظاهرة من صغر سنّهم، وفي حال حرمان الطّفل من تربية المربّي يزداد آنًا فآنًا في ممارسة سجايا غير مرضيّة. إذا اتّضح بأنّ ظهور النّاموس الطّبيعيّ أيضًا من نتائج التّعليم. ثانيًا لو فرضنا أنّ العقل الطّبيعيّ والنّاموس الفطريّ يمنعان الشّرّ ويهديان إلى الخير، من الواضح جدًّا أنّ وجود مثل هؤلاء النّفوس كالإكسير الأعظم... وخلاصة القول إنّ الفوائد الكلّيّة لا تتمّ إلاّ من فيض الأديان الإلهيّة، ذلك لأنّها ترشد المتديّنين الحقيقيّين إلى صدق الطّويّة وحسن النّيّة والعفّة والعصمة الكبرى والرّأفة والرّحمة العظمى والوفاء بالعهد والميثاق وحريّة الحقوق والإنفاق والعدل في جميع الشّؤون والمروءة والسّخاء والشّجاعة والسّعي والإقدام على منفعة جمهور عباد الله، أو قُلْ باختصار إنّها تدلّه على جميع الشّيم الإنسانيّة المرضيّة الّتي هي شمع عالم المدنيّة المنير".[24]

والحاصل الآن هو أن النواميس الأخلاقية التي أتت بها الأديان قد انهارت وحلت محلها التعددية الإجتماعية لتصبح واقع يومنا الحاضر. كما تحوّل كل شيء له علاقة بنظرة الأديان إلى عالمنا أو إلى المبادئ الأخلاقية إلى مسألة شخصية فرديّة، وصار الشيء الوحيد الذي يتفق عليه الناس هو ألا يتّفقوا، كما لم تعد هناك إجابات موحّدة عن مسألة ما هو خير وما هو شرّ، أو ما هو محرّم وما هو جائز.

وهنا يتساءل العالم الفيزيائي هانز شيفرHans Schaefer عما "إذا كان من الممكن بناء مجتمع مستقر على قاعدة من تعدديّة المآرب والمصالح هذه، وعمّا إذا لايزال بمقدورنا أن نستغني عن البقية الباقية من المبادئ

---

[23] في كتابه 'الاشتياق لما هو وراء العقلانية والعلم *Die Sehnsucht nach dem ganz Anderen*' ص 60 وما بعدها

[24] كتاب [الرسالة المدنية] ص 60، وعن أصل الفضائل الأخلاقية ومنشئها راجع فصلنا الثاني عشر "الخلق الجديد"، بند 'عن أصل المعايير الأخلاقية ومنشئها'.

المشتركة... ونحن نسعى إلى خَلق الدافع الجوهريّ لوجود سلوك إجتماعيّ مستقرّ"[25]. والحقيقة هي أن أية تعددية لمعايير أخلاقية غير ملزمة هي بعيدة كل البعد عن أن تكون قاعدة راسخة لمجتمع مستقرّ.[26] وأن استقرار المجتمع مبنيّ فعلاً على إجماع أعضائه على غايات ذلك المجتمع والوسائل المشروعة لتحقيق تلك الغايات. وكلما ضَعُف الإجماع العام ازداد المجتمع تزعزعاً وقصوراً،[27] وحضارة لم يعد لديها حد أدنى من القيم المشتركة، واستغنت عنها باللجوء إلى عدد من الآراء غير الملزمة بشأن أمور الحياة الجوهرية، هي حضارة تتجه حتماً إلى الاضمحلال والأفول. ويرى رادا كريشنان Radhakrishnan هو الآخر علامات الانحلال الحضاريّ في تعددية المعايير الأخلاقية هذه إذ يقول: "لم تعد قيمنا واضحة، وأصبح تفكيرنا مشوّشاً، وصارت غاياتنا غير محددة، وفقدنا الجذور التي تربطنا بالحياة الروحية التي هي السرّ الجوهريّ للمدنية، وهي حياة قد ترعاها العقلانية وتقوّيها، ولكنها تعجز عن خلقها أو إحيائها. وعندما تتلف الجذور قد يبقى النبات حيّاً أو يترعرع برهة من الزمن، ولكن أيامه تبقى معدودة."[28] ويبيّن علماء الاجتماع الديني الحديث أن ضياع الروحانيات يزعزع المجتمع ويجرّه إلى الكوارث والمخاطر التي تهدد وجوده من أساسه. فالمستقبل – كما تنبأ عالم الاجتماع رومانو جارديني Romano Guardini – "سوف يأتي باستنتاج قاطع يكون مرعباً وشافياً في آن واحد". كما يلقي الضوء أيضاً على العلاقة الوثيقة التي تربط ما بين كل من الدين والحضارة والنظام الاجتماعي، بقوله: "وعندما تتلاشى ثمار التعاليم الإلهية شيئاً فشيئاً من عالم المستقبل سيَعْلم الإنسان حق العلم ماذا يعنيه انفصاله عن هذه التعاليم".[29] وبمرور الأيام سيتضح أكثر فأكثر من أيّ مصدر سيظل

---

[25] في كتابه ‘الجسد، الروح، المجتمع *Leib, Geist, Gesellchaft*’ ص 208

[26] ويُبدي الكاتب رويجيلي Roegele أيضا هذا الرأي في كتابه ‘الحرية والالتزام في الصلات الإجتماعية *Freiheit und Bindung in der gesellschaftlichen Kommunikation*’ ص 196

[27] أما من منظور رجل السياسة فإن "أيّ مجتمع لا يبقى فيه أيّ اتفاق عام على المبادئ والقيم الأساسية يتجه إلى الفوضى ما لم يحيل كافة المسائل المتعلقة بالرأي والقبول واتخاذ القرار إلى يد دولة تمارس الحكم المطلق. إي إلى حكومة استبدادية وحكم ديكتاتورى" – من حديث المستشار الألماني الأسبق هيلموت شميت Helmut Schmidt، ألقاه في الأكاديمية الكاثوليكية بهامبورج في 23 مايو 1976، أوردته جريدة *Süddeutsche Zeitung* في عدد 26 مايو 1976

[28] في كتابه ‘صحوة الإيمان *Recovery of Faith*’ ص 36-37

[29] في كتابه ‘نهاية العالم الحديث *The End of the Modern World*’ ص 123

الإنسان المعاصر يتلقّى مدده. فكما تقول الكاتبة ماريون جرافين دونهوف Marion Gräfin Dönhoff "لقد أخذنا الآن نتبيّن الحقيقة، وهي أن مجتمعاً عارياً عن الأوامر والنواهى، وعن أيّ معايير أخلاقية ملزمة، ستغيب عنه الخلاّقية والابتكار، بل سينتهي به المطاف حقاً إلى الفناء. ولطالما ظلّت هذه الحقيقة جليّة ودامغة قروناً من الزمن حتى بداية ما يسمّى بعصر التحديث".[30]

وما نَخلُص إليه من كل ما أوردناه هو أن كلاً من المعيار السلوكيّ الملزم والإحساس بالهدف من الحياة هما أمران ضروريان للإنسان، فلا الإنسان قادر على العيش في فراغ من غياب الهدف، أو في جوّ أنهكت فيه القيم واضمحلّت إلى أن أصبحت اجتهادا يتغيّر ويختلف بتغيّر الزمان والمكان، واختلاف الناس والمصالح – اجتهاد لا يستند إلى أية مبادئ أو معايير ثابتة. وبما أن العلم عاجز عن ملء فراغ الافتقاد إلى الهدف، وقاصر عن بناء أنماط سلوكية ثابتة لا تتغير بتغيّر الظروف، فلا يمكن إذن استبدال الدين بالعلم. فالفرد والمجتمع يعتمد كلاهما على الدين، لأن الدين بمفرده قادر على إشباع حاجة الإنسان الأساسية لتعليل شامل وملزم لوجوده في هذه الحياة، ولأن الدين وحده كفيل بأن يعلّم الإنسان كيف يحيا، ولأن الدين وحده أيضا يستطيع أن يمدّ البشر بالهداية الأخلاقيّة والطمأنينة حيال أشدّ حالات المعاناة استعصاء وصعوبة.

تَلاَزُم الدين والعلم:

لا يتعارض الدين والعلم في حقيقة الأمر مع بعضهما البعض، كما لا يجب اعتبارهما بديلين، وإنما صنوين متلازمين. وقد عبّر العالم ماكس بلانك Max Planck عن ذلك بقوله "لا يستبعد أحدهما الآخر، بل يتكاملان ويتفاعلان مع بعضهما البعض. ويحتاج الإنسان إلى العلم كأداة للمعرفة، كما يحتاج أيضاً إلى الدين كمنهاج للعمل... وكما أنه لا يمكن استبدال المعلومات والكفاءة بالتأملات الفلسفية، لا يمكن أيضاً استخلاص المنهج السليم حيال المسائل الأخلاقية بالاستنباطات العقلانية البحتة".[31] كما يؤكد هذا العالم أيضاً أن "المسائل الأخلاقيّة تقع خارج نطاق إخصاص العلم".[32]

---

[30] في مقال لها بعنوان ‘حياة بلا إيمان Leben ohne Glauben’ نشرت في مجلة *Die Zeit* of، عدد 21 ديسمبر 1979

[31] في كتابه الدين والعلوم الطبيعية *Religion und Naturwissenschaft* ص 31

[32] المرجع السابق ص 30-31

وعند نقطة التقاء الدين بالعلم يثور السؤال المتعلق بوجود تلك القوة العليا المهيمنة على العالم وماهيّتها. وهنا أيضاً لا يجد ماكس بلانك Max Planck أيّ تناقض. فمن رأيه أن العلم يقرّ "أولاً بوجود نظام كلّيّ منفصل عن الإنسان، وثانياً إن ماهية هذا النظام لا يمكن إدراكها بطريقة مباشرة، وإنما يمكن تخمينها أو استنتاجها بأسلوب غير مباشر. أما الدين فإنه عندما يتناول هذه المسألة فإنه يلجأ إلى رموزه المميّزة، في حين أن العلم يعتمد على القياسات المبنية على الانطباعات الحسّية الظاهرية. ولكن رغبتنا، نحن معشر البشر، في المعرفة تدفعنا إلى البحث عن منظور شامل موحّد. فلا يوجد إذن ما يمنعنا من دمج هاتين القوتين في واحدة. فتلك القوتان الغيبيتان المهيمنتان – أي العلم بمنهجيّته الجامعة والدين بتعاليمه السامية – يمكن التوفيق بينهما."[33] فالله هو بداية كل فكر دينى، والله أيضاً هو منتهى كل استنتاج علميّ – أو كما يقول ماكس بلانك "الله، بالنسبة للدين هو الأساس، أما بالنسبة للعلم فهو الهيكل الفوقيّ لكل منظور علميّ شامل."[34]

ومن الطبيعيّ، بهذا الصدد، أن يتعيّن على الإنسان أن يميّز ما بين الحقيقة والخرافة، فالدّين هو التسليم بالحقيقة المطلقة – أي معرفة الله، المنزّهة عن كلّ ما هو نسبيّ وحادث وبشريّ. أما الخرافة فهي الإعتقاد في سلطة مطلقة مودعة في قوالب محدودة مثل الأشياء المادية، أو الأشخاص، أو المنظمات البشرية، أو الأفكار الإنسانية.[35] فالأديان السماوية هي الأخرى من الممكن أن تتطرق إليها الخرافات بمرور الزمان من جرّاء الاستنباطات والابتكارات البشرية الزائفة التي تصاب بها عبر تاريخ طويل. ويحدث هذا، على سبيل المثال، عندما يتشرّب الدين بعناصر متنافرة ومختلفة في طبيعتها عن صفاء الدين ونقائه، أو عندما يدّعي القائمون على الدين المرجعيّة في مجال العلوم المادّية التجريبية.

كما أن للمعرفة هي الأخرى حدودها، فهي تحتاج إلى استكمال ذاتها باكتساب تلك الصفة الإيمانية التي تستمد قوّتها من الوحي الإلهيّ. هذا بينما

---

[33] المرجع السابق ص 28 وما بعدها

[34] المرجع السابق ص 30

[35] ما نعنيه هنا هو الفِرَق والطوائف التي تمجّد شخصية بعينها، أو الجماعات التي تناصر حزباً سياسياً بذاته، وكذلك أيضاً الولاء المطلق لخلاص العلمانية، أو الإعتقاد الأعمى في رموز مثل القومية أو السلالة العرقية أو الطبقة الإجتماعية أو العلوم والترقّي، كما نعني بذلك أيضاً النِّحَل شبه الدينية الرائجة هذه الأيام - وجميعها من الأشكال التي اتخذتها حركات الشعوذة في العصر الحديث، ذلك لأن أشكال الشعوذة القديمة قد انقرضت ولم يعد لها وجود يذكر.

يكون العقل هو الذي يرسم حدود الإعتقاد الديني. ولا نعني بهذا أن العقيدة أمر يتيسّر شرحه عقلانياً، ذلك لأن الحقائق الأساسية في الدين تخرج عن نطاق التفسير المنطقي. فما نعنيه هو أنه لا يجب قبول أيّ شيء يخالف العقل. وهو ما يتناقض تماماً مع القول المأثور (الذي حكم الفكر اللاهوتي المسيحيّ منذ نشأته إلى يومنا هذا!): 'أؤمن بها لأنها [فكرة] غير معقولة *Credo quia absurdum*'.[36] فالإنسان إذا رغب في الاستنارة يحتاج إلى نور العقل وإلى نور الإيمان معا. وهنا يشبّه عبد البهاء الإدراك البشريّ بالطائر الذي يعوزه جناحا الدين والعلم لكي يطير. فإذا ما حاولت البشرية التحليق بجناح الدين وحده سقطت في وهدة الشعوذة والخرافات كما حدث في القرون الوسطى[37]، وإن هي جرّبت الارتقاء والتقدم بجناح العلم وحده، هَوَتْ إلى الحالة السائدة في عالمنا المعاصر، ألا وهي الماديّة والعَدَميّة – أي الإعتقاد "بأنه لا قيمة لأيّ شيء، ولا إلزامية لأيّة معايير، ولا وجود لأيّ هدف، ولا وجود لشيء يستحق أن نحيا أو نموت من أجله، ولا طائل من وراء أيّ شيء".[38]

ويؤكد عبد البهاء أنه لا يوجد تناقض أو خلاف بين الدين والعلم، إذ يقول (مترجَماً): "إن الحقيقة واحدة لا تقبل التعدد. وعندما يتجرّد الدّين تجرّدًا تامًّا من جميع الخرافات والتّقاليد والمعتقدات البليدة، يلوح تطابقه وتواؤمه مع العلم، كما يلوح النّور المبين، وعندئذٍ تتجلّى قوّة موحدّة عظيمة تكتسح من أمامها كلّ الحروب والاختلافات والمنازعات والمشاحنات، وعندئذٍ يتّحد الجنس البشريّ بقوّة محبة الله."[39]

---

36 عبارة قالها مؤلف القرن المسيحيّ الثاني الشهير تيرتوليان Tertullian في كتابه *De Carne Christi* المجلّد الخامس

37 نص ما قاله عبد البهاء هو "إذا كان الدين مخالفا للعلم فهو أوهام" – من كتاب [خطب...] ص 162

38 على حد قول بريتسينكا Brezinka في كتابه 'التربية والتعليم والثورة الحضارية *Erziehung und Kulturrevolution*' ص 46

39 وردت في [منتخبات من كتاب بهاء الله والعصر الجديد] ص 283، ولتفصيل هذه المسألة راجع خطبة عبد البهاء المعنونة 'الدين توأم العلم' في كتاب [خطب...]، ص 160 وما بعدها

الفصل الرابع

الله حيّ لا يموت

هل هبّت رياح التغيير؟

إنّ إدراك ضرورة الدين ولزومه لكل من الفرد والمجتمع، فضلاً عن المنظومة الإجتماعية والحضارية، لا يقدّم جواباً لتساؤلنا عن كيفية التعامل مع ما أصاب العالم بأسْره من نقص في الإيمان وفقدان لمغزى الدين ومعناه، وإمكانية ملء ذلك الفراغ الذي نجم عن هدم اللاهوت لنفسه بنفسه.

كما أن هناك أيضاً ما يجب أن نأخذه في الاعتبار، ألا وهو خطر انهيار وتدمير كل الأسس الروحية والمادية للحضارة الإنسانية، بل ومسح البشرية ذاتها من الوجود فإذا كان من نصيبنا أن ندرأ عن أنفسنا هذا الخطر فليس امامنا نحن معشر البشر سوى اختيار واحد: وهو الوصول الى إدراك ووعي جديدين تماماً، بأن على كافة البشر التزام بالتضامن والتضافر والتآخي – إي إدراك يصهر كل الشعوب والأمم في كيان واحد، ووعي يسمو على كل العداوة، قادر على العمل بفاعلية. فإذا كنا بصدد هذا التحدّي الذي لا يمكن مجابهته بالوسائل الدبلوماسية والسياسية بمفردها – أوَلا تحتاج البشرية إذن الى معيار واحد، ونظام أخلاقيّ اجتماعي جديد، ورؤية موحّدة سامية جديدة؟ وهل بإمكان أتباع الأديان العظيمة – بما هم عليه من انعزال وتباغض وادعاءات الانفراد بامتلاك الحقيقة – أن يجودوا علينا بمثل هذه الرؤية السامية؟ فأنّى لأتباع هذه الأديان أن تستمد القوة القادرة على إحداث تلاحم الجنس البشرى، ومن أين لها أن تعثر على الوحدة وهي تفتقر إليها في ذاتها؟

إن أوّل ما نشاهده الآن من بوادر التفاؤل هو أن هناك تحوّلاً في التفكير من المادّيات البحتة الى الروحانيات. فهناك اقتناع متزايد بأن هناك ثمّة مغزىً داخلياً عميقاً لوجودنا يختلف عن مجرد العيش والاستهلاك، وها هو البعض يعود الى القيم الدينية ويبحث من جديد عن نظام أخلاقيّ مُلزِم وعن التزام مُجدَّد بالدين، بوصفهما – أي الأخلاق والدين – أمران لا غنَى عنهما أبدا لروح الجماعة السليم. فهناك رغبة شديدة في الفكاك من هذا الارتباك السائد فيما يتعلق بالمفاهيم والقيم والأهداف، وفي الهروب من هذا الفراغ الوجوديّ وذلك الشعور المتسلّط بافتقاد كل مغزى جديد للحياة – **نعم!**

هنـاك الآن سـعي حثيـث للتوصـل الـى المغـزى الحقيقـيّ للحيـاة[1]، بـل وهنـاك شوق شديد الى غاية وهدف للحياة مبنيّين على الإيمان، والى روحانية تسْمو على العقلانية، والى مسئولية تجاه إخواننا من البشر في مجتمع يضم نفوساً تتقاسـم الأفكـار والآمـال والمشـاعر، والـى إنجـازات تتخطـى دائـرة المنفعـة الشخصية، والى آفاق يجد فيها الإنسان شعوراً بالانتماء والهوية الحقيقية، فالنـاس لـم يعـودوا يجـدون شـعوراً بالـدفء فـي جـوّ البـرودة العقلانيـة التـي سـرت فـي أوصـال المجتمـع الحـديث، وإنمـا يتوقـون الـى شـعور بالوفـاق والترابط، ويتطلّعون الى خيط يوجههم الى معنى هذه الحياة، والـى "الأمـان والسند فـي أوقـات الاحتيـاج والمعانـاة"[2] فمـن ذا الّـذي كـان بوسـعه أن يتنبـأ "بالشعور بالعزلـة والغربـة الـذي ينتـاب الآن إنسـان العصـر – ذلـك الإنسـان الـذي ابتعـد عـن طمأنينـة الإيقـان والايمـان التـي يمنحهـا الـدين وارتمـى فـي أحضان الانعتاق العلماني، والسلطة التي لا تحّدها حدود".[3]

والآن، وقـد تبـيّن أن الخـلاص عـن طريـق المخـدّرات وعقـارات الهلوسة – ذلك الاستلهام الكيميائيّ – ما هو إلا وهم وأضغاث أحلام، صار التأمّـل والصـلاة موضـة العصـر بـين ليلـة وضـحاها. وأصـبحت تظهـر هنـا وهنـاك حركـات جديـدة، بعضـها شـديد الغرابـة يكـرّس نفسـه فـي الغالـب لأغراض دنيويـة – مثيـرة بـذلك شـعوراً جديـداً بـالتعطش الـى الـدين، ثـم مـا تلبـث أن تختفـي بالسـرعة التـي ظهـرت بهـا.[4] وقـد تكلـم إريـك فـروم Erich Fromm عـن هـذه الظـاهرة قـائلاً: "إن الملايـين اليـوم فـي أمريكـا وأوروبـا تسعى الى العثور على صلة بما كان متوارثـا (مـن ديـن وعـادات اجتماعيـة) وبمن يمكنهم أن يتعلموا على أيديهم كيفيـة وضـع قـدمهم علـى هـذا الطريـق. إلا أنّ مـا يحـدث فـي معظـم الأحيـان هـو إمـا أن يكـون المعلّمـون غشاشـين ومضـللين أو تكـون التعـاليم زائفـة وعاريـة عـن الحقيقـة، أو يكـون كـل مـن التعـاليم والمعلمـين قـد تسـربت إلـيهم سـموم الدعايـة بأسـاليبها الصـاخبة، أو تخمّرت طينتهم بالأغراض الماديّة والسمات السطحيّة للحكماء الذين ابتكروا هذه التعاليم. وقد يخرج البعض بمنفعة حقيقية من هذه الأساليب علـى الـرغم

[1] عن الوضع في الولايات المتحدة راجع كتاب المؤامرة المائية *The Aquarian Conspiracy* للكاتبة مارلين فيرجسون Marilyn Ferguson ص 363 - 376

[2] قالها شيلسكي في كتابه ‘الآخرون يقومون بالعمل *Die Arbeit tun die anderen*’ ص204

[3] على حد قول الكاتبة ماريون دونهوف Marion Gräfin Dönhoff في كتابها ‘حياة بلا عقيدة *Leben ohne Glauben*’

[4] راجع فصلنا السادس– بند ‘كثرة عروض الخلاص’

من عيوبها المشينة، وقد يتبنّاها البعض الآخر دونما أية نيّة جادة في تغيّر أو تحوّل داخليّ ومعنوي."[5] وهناك خاصية مشتركة أخرى فيما بين هذه الحركات هي أن معظم معتنقيها لا يهتمون إلّا بخلاصهم الشخصيّ والاعتناء بذواتهم ولا يكون لديهم أيّ اهتمام يذكر بمشاكل المجتمع، أو بالمشاركة بنصيب في تشكيل هذا العالم، أو بمستقبل البشرية.

وما يجده أنزجار باوس Ansgar Paus بشكل عام هو ما يسمّيه 'انطلاقة جديدة لرغبة في حياة تعايش روحيّ' – حياة تتخطى الاختلاف والتباين الحادث الآن في الكثير من الأديان ولا يقتصر وجودها على حركات التجديد الدينيّ بأيّ حال من الأحوال. ويقول: "إن الباحث عن معنى الحياه يتوق الى ما يسميه 'مكان' يمكن أن يلتقي فيه بالمنبع الأسمى للهدف من الحياة في هذا العالم، وإذا ما تأثر روحياً فهو مستعد للتسليم بوجود سلطة ملزِمة تنظم تصرفاته وحياته الشخصية"[6] فهذا البحث عن الالتزام الغيبيّ يحدث خارج إطار الدين المسيحيّ النظاميّ. ويقرّ اثنان من رجال الكنيسة بهذه الحقيقة قائليْن: "إن هذا السعي بعيد كل البعد عن العودة الى العقيدة القديمة، فهو سعي يتمثل بكل بساطة في سؤال لم تتم الإجابة عنه بعد، وبين هذا السؤال المُلِحّ والإجابة المسيحيّة عليه هناك هوّة شاسعة فاغرة الفمّ. "[7]

---

[5] في كتابه 'تمْلك أو تكون *To Have or to Be* ص75-76، ويناقش هذه المسألة الكاتبان مانفريد موللر كوبرزMüller Küppers Manfred وفريدرش شبخت Friedrich Specht في كتابهما 'ما يسميه شباب اليوم بالدين Neue Jugend religionen'، للناشر Göttingen، طبعة زيوريخ عام1979 ، كذلك راجع الكاتب C. Evers في مؤلفه 'مذاهب اللاعقلانية *Cults of the Irrational*' طبع هامبورج عام 1979 وكذلك 'دراسة وثائقية عن آثار ديانات الشباب على الأحداث من قضايا فردية *Dokumentation über die Auswirkungen der Jugend religionen auf Jugendliche in Einzelfällen*' إصدار مجموعة عمل مبادرة الآباء Parent's Initiative Work Group – مدينة بون، عام 1978

[6] من مقدمة كتابه 'البحث عن المضمون – البحث عن الله — *Suche nach Sinn Suche nach Gott*' ص 8

[7] وهما القسيسان جوتولد هيلد Gotthold Hild وهلموت ايخلين Helmut Aichelin في كتابهما 'الدولة والكنيسة والمجتمع'*Staat Kirche Gesellschaft*' ص 10. وعن الظاهرة المسمّاه 'الشك البالغ في الدين المنظّم سيما بين من يرتادون الكنائس' في الولايات المتحدة راجع كتاب المؤامرة المائية *The Aquarian Conspiracy* للكاتبة مارلين فيرجسون Marilyn Ferguson ص 368 وما بعدها. وفيه تؤكد هذه الكاتبة في معرض وصفها للظاهرة الروحية الجديدة على أن أتْباع هذه الظاهرة "يفضّلون التجربة المباشرة والقيام برحلة ذهاب وإياب سريعة" في عالم باطنيّ

إعادة اكتشاف الدين:

وتأتي الدلائل العديدة على وجود نزعة الى تديّن جديد – وهي نزعة توجد على ما يبدو في كل مكان حتى في تلك البلدان التي تفرض فيها ايدولوجية الدولة على مواطنيها أن تحيا بغير دين – تأتي هذه الدلائل مصحوبة بظاهرة جديدة: وهي أنه بينما ينتشر انعدام الاعتقاد 'في الله والدين' ويمسك بناصية العامة، فإن مشاهير العلماء والمفكرين البارزين على الساحة العالمية ممن يبحثون في الأسباب التي آلت بالبشرية الى هذه الحالة المزرية وفي مستقبل الجنس البشري قد اكتشفوا الدين وأهميته من جديد. فقد توصل هؤلاء العلماء والمفكرين الى فهم جديد للدين – لا فيما يتعلق بجوهره وإنما بوظيفته الاجتماعية والحضارية. والآن وقد تجلّت مغبّة غياب الدين لذوي الرؤية الثاقبة من بني البشر فإن تلك الظاهرة، التي تنبأ بها رومانو جارديني Romano Guardini وأسماها حالة "صدق دقيق مرعب ومفيد في آن واحد"،[8] قد بدأت تتجلى للأعين.

وها هو الفيلسوف البولندي ليتشيك كولاكوفسكي Leszek Kolakowski ذو الخلفية الماركسية الذي يزاول التدريس في كليّة كل النفوس *All Souls College* بأكسفورد، يكتشف اليوم أن المذهب الإنسانيّ البحت الذي يقوم على ما وصفه "بحرية الإنسان الكاملة في خلق كل المفاهيم والمعاني، والغياب التام لكل لون من ألوان القيود على الإنسان في سعيه لتحديد ذاته" – وهو المذهب الذي كان يراه في يوم من الأيام جذّاباً في الفلسفات الماركسية – يكتشف أنه مذهب "خطير على وجه الخصوص" – على حد تعبيره. ويعترف قائلاً: "بوسعي اليوم أن أرى أخطار الأيدولوجية *Weltanschauung* التي تنادي بحكم الإنسان لنفسه بنفسه من منظور التَّمَحْوُر حول الذات البشرية، وأن أدركها بوضوح أشد كثيراً عن ذي قبل. ولا أعتقد أن الإنسان سيكون بمقدوره، أو من مصلحته بأيّ حال من

يخرجون منها برؤية تضفي الحيوية على أيّ شكل من أشكال الدين النظامي، وأن هؤلاء المريدين يهتمون "بالاتصال الروحيّ المباشر بالحقيقة المطلقة".

[8] في كتابه 'نهاية العالم الحديث *The End of the Modern World*' ص123، أيضا راجع ما قلناه في فصلنا الثالث "الدين والعلم" تحت بند 'الدين: منبع الهدف ومصدر القيم'.

الأحوال الاستغناء عن الدين بوصفه مصدراً للمفاهيم أو سلطة تعطي هذه المفاهيم"[9].

ويتساءل علماء النفس والاجتماع عما إذا كان المجتمع الصناعيّ الحديث في حاجة الى إيمان جديد. فها هو كل من إريك فروم Erich Fromm، قطب علم التحليل النفسانيّ في أمريكا الشمالية، ودانيل بيل Daniel Bell، استاذ علم الاجتماع بجامعة هارفارد الأمريكية، يريان بكل وضوح وجلاء أن البشرية لا مستقبل لها ما لم تكتسب وعياً إيمانياً جديداً. إذ أن بيل يقول دون مواربة أو مجاملة إن مجتمعاً لا دين له ولا إيمان غير قادر على البقاء. ومن رأيه أن الدين قاسم مشترك بين الناس شأنه في ذلك شأن اللغة والتخاطب، [10] وأنه مثل الرّكن الرّكين للضّمير الإنسانيّ و'أسّ أساس الاحتياج' لكلّ من الفرد والمجتمع على حد سواء[11] ويتحدَّى أن يكون هناك كائنٌ بشريّ لا عقيدة له، ويستشهد في رأيه هذا بما قاله ماكس شيللر Max Scheler من أن. "كل روح تحُدّها حدود عالم الخليقة تعتقد إما في الله أو في الأصنام"[12] (أيّاً ما كانت هذه الأصنام من تماثيل أو أموال أو زعامة) وهو رأي شاركهما فيه المؤرخ أرنولد توينبي إذ قال: "ولأن الإنسان لا يستطيع العيش بغير دين من أيّ نوع كان، فإن انحسار المسيحية في الغرب تبعه هناك إيديولوجيات ما بعد العصر المسيحيّ - ألا وهي تأليه القوميّة *nationalism*، أو تقديس الفرديّة *individualism* والشيوعية، وهذه الرسوم التعبّدية الجديدة – التي سرت بعد أن استشرى 'الخواء الروحيّ الذي خلفه انحسار الدين الموروث' – مبتدئة بالغرب، ثم سَرَت منه الى جميع أنحاء

---

[9] وذلك في لقاء أجرته معها المجلّة الكاثوليكية التي تصدر في ألمانيا باسم *Herder korrespondenz* العدد العاشر، شهر اكتوبر 1977 ص 503

[10] كتاب 'المتناقضات الحضارية في الرأسمالية *The Cultural Contradictions of Capitalism*'، ص 166

[11] المرجع السابق ص 169

[12] المرجع السابق ص 169، كما أن (المفكر الكاثوليكي الألماني) هانز كونج Hans Küng يقول "طالما آمن البشر بإله من نوع مّا، فإذا لم يكن إيمانهم هذا بالله الحقيقيّ يكون إيمانا بمعبود من أيّ نوع كان". (من محاضرة له بعنوان 'تسع نظريات في الدين والعلم Nine Theories on Religion and Science' ألقاها في أكاديمية العلوم الاجتماعية في بكين بالصين أوردتها مجلة *Die Zeit* في عددها الصادر 1979/10/19) ويقول بهاء الله بشأن هذا المضمون "يَا أَيُّهَا الْقَوْمُ انْصُرُوا أَنْفُسَكُمْ بِقُوَّةٍ مَلَكُوتِيَّةٍ لَعَلَّ الأَرْضَ تَتَطَهَّرُ مِنْ أَصْنَامِ الظُّنُونِ وَالأَوْهَامِ الَّتي هي حَقّاً عِلَّةُ خُسْرَانِ الْعِبَادِ الْمَسَاكِينِ وَذُلِّهِم. وَلَقَدْ حَالَتْ هَذِهِ الأَصْنَامُ دُونَ سُمُوِّ النَّاسِ وَارْتِقَائِهِمْ..." كتاب[مجموعة من ألواح...]، لوح الدنيا، ص 103

العالم، ماهي إلا "ألوان من عبادة الفرد لذاته وقدراته"[13]، والذي حلّ محلّ عبادة الله هو 'ثالوث الآلهة الكذبة' كما يقول أرنولد توينبي.[14]

كما يلاحظ دانيال بيل أن الدين يزوّد الحضارة بالأمن والأمان من خلال نهجين أساسيين، أولهما سدّ الأبواب أمام الشرور وثانيهما مدّ الجسور مع الماضي.[15] فالدين يقي المجتمع من الدوافع الفوضوية عند الفرد ويربط أواصر الحياة بتراث الأسلاف. وبتراخي سلطة الدين وخُفوت جذوتها فتَحت الحضارة أبوابها للشرور وأسلمت حصنها الحصين لما أسماه دانيال بيل "جحافل الشهوات والمنافع الشخصية التي دمّرت سياج الأخلاق الذي كان يطوّق البشرية".[16]

كما يشير دانيال بيل الى مقولة (فيلسوف التنوير وملهم الثورة الفرنسية) جان جاك روسو بأنه ما من مجتمع إلا وتوحّده وتحميه القوة – سواء بالجيش أو الشرطة – أو النواميس الأخلاقية. ويرى في الدين ذلك الوعي الذي يصبو الى المُثل العليا بوصفها البنية الأساسية لنظام أخلاقيّ مشترك[17]، كما يدرك أن تدهور القيم المتوارثة هو الذي جرّ المجتمع الى التلذّذية – وهو ذلك النمط من الحياة الذي يحصر همه في الاستهلاك والترف وإشباع الغرائز الدنيوية. وهذا الأسلوب الحياتيّ يهدد الآن بتخريب عالمنا إذ أنه يجلب فقدان المجتمع لما يسمّيه بيل "الانصياع الطوعيّ للقانون واحترام حقوق الآخرين والعزوف عن مغريات الثراء الشخصيّ على حساب الصالح العام".[18]

---

[13] في كتابه 'التغيّر والتعوّد *Change and Habit* ص 169-171

[14] وهو ثالوث ذكره شوقي أفندي في رسالته المعنونة 'جاء اليوم الموعود *The Promised Day is Come*' ص117 معدّداً أركانه الثلاث 'القومية والعنصرية والشيوعية Nationalism, Racialism and Communism'

[15] المتناقضات الحضارية في الرأسمالية، مرجع سابق، ص 157

[16] المرجع السابق ص 171

[17] المرجع السابق ص154

[18] المرجع السابق ص 245، ويستشهد بيل أيضا في ص83 من كتابه هذا بالمفكر العربي ابن خلدون (1331–1406م) الذي تكلم عن نهوض الحضارات وسقوطها، وتوصل الى أنه في ظل حياة تلذذيّة ينهار المجتمع في ظرف أجيال ثلاث مدللا على ذلك بقوله "لأنه مع السعي وراء الملذات تضيع الإرادة والصلابة" بل والأسوأ من ذلك هو فقدان ما أسماه ابن خلدون 'العصبية' أي ذلك الاحساس بالتضامن والإخاء و"شعور الجماعة المتمثل في التآخي واستعداد الكلّ للقتال والموت من أجل الآخر".

أما العامل الحاسم في عالمنا العلمانيّ وحضارة العصر الحديث فهو – في نظر دانيال بيل – قطع كل صلة بالماضي، فما يهم إنسان اليوم هو التوّ واللّحظة أما المتوارَث فقد أُلقي به جانباً،[19] وهو وضع يؤدّي الى العدميّة بغير منازع – إذ أن "فقدان الماضي والحاضر لا يولّد إلاّ الفراغ البحت" – على حد قوله[20]. فلا أمل عنده سوى التوقّع الذي عبّر عنه قائلاً: "على الرغم من خراب حضارة اليوم ودمارها، فلا بد أن ثمة فرَج سيأتي من الدين"[21] وذلك على الرغم من علمه التام بأن "الإيمان لا يُخلق بفرمان همايوني" كما يقول.[22]

أما مفكّرنا الثاني إريك فروم – وهو الذي يأتي من اتجاه أخر – فقد تأثّر بأقوال (فيلسوف التحليل النفسيّ المنادي بتحقيق الذات عن طريق الجنس) سيجموند فرويد و(فيلسوف الشّيوعية المنادي بتحقيق الذات عن طريق الاستيلاء على مال الأغنياء) كارل ماركس. وينطبق عليه صفة الإلحاد بكل تأكيد. بيد أنه يبحث (هو الآخر) عن وعي إيمانيّ جديد، إذ أنه يشاهد علامات الأزمنة ويدرك أن العالم سيتداعى ويتفتّت لا محالة، إذا لم يحدث تغيير جذريّ في روابطنا الاجتماعية وتحوُّل أساسيّ في منهجنا الفكريّ. ويرى هو الآخر في كل من التلذّذية (بوصفها أسلوباً في الحياة ونظاماً اقتصادياً مبنياً على الأنانية والطمع)، والرّغبة في متاع الدنيا، والتوهّم بدوام النعم المادية. وعقلية الاستحواذ والتملّك – يرى في ذلك كلّه أسّ أساس الشرور والمفاسد التي أتت بالعالم الى حافة كارثة وشيكة. فقيمة الإنسان – عند فروم – تكمن فيما هو عليه لا فيما يملكه. وهو يرى تصارعاً فيما بين هذين النهجين في الحياة على روح البشرية وضميرها – وأولهما هو أسلوب التملك *having* الذي يحصر همّه في متاع الدنيا والطمع والسلطة والتعدّي ويقود صاحبه الى الشحّ والحسد والعنف، وثانيهما هو أسلوب الكينونة أو الوجود *being* أي السلوك السليم في الحياة، وهو نهج في العيش يستند الى المحبة والاستعداد للمشاركة والعمل الخلاّق. كما يرى أن نهج الكينونة هذا قد تشكّل في رحم تعاليم العظماء من مؤسّسي الأديان موسى وعيسى وبوذا أو ‘الأساتذة العظماء’ كما يسميهم. غير أن فروم يصدق في وصفه للوعي الدينيّ على أنه يعني التغلب على الأنانية والطمع

[19] المرجع السابق ص 99 وما بعدها، ثم ص132

[20] المرجع السابق ص 28-29

[21] المرجع السابق ص169

[22] المرجع السابق ص244

والغرور والرغبة في السلطة والشهرة وكل لون من ألوان الفرديّة والتمحور حول الذات،[23] وذلك من خلال الحياة بمقتضى روح منهج الكينونة *being* الكامن في المحبّة والتآخي والتآزر.

كما أن كتابات فروم هذا تبيّن أنه مفتون بفضيلة الانقطاع والتجرّد وهي إحدى الفضائل الأساسية في الدين، فهو يصف كل من يجعل الرغبة في التملّك والاستحواذ شغله الشّاغل بأنه "شخص مُصاب باضطراب نفسيّ ومرض عقليّ" كما يوصم أيضاً أيّ مجتمع مبنيّ على هذه الرغبة – أو أيّ نظام اجتماعيّ واقتصاديّ ينطوي عليها مثل مجتمعات الغرب الصناعية – بأنه 'مجتمع مريض'،[24] فالطمع يؤدي – عند فروم – الى تخريب الطبيعة والى صراع طبقيّ لا يَخْمُد أُوارُه،[25] إذ يقول: "لا يجتمع الطّمَع مع السلام. فالسلام بوصفه حالة من التّرابط المنسجم بين الأمم لا يتحقق إلاّ إذا استبدلت هيكلية التملّك *having* بهيكلية الوجود *being* بمقتضى الأخلاق"،[26] فليس أمام الناس إذن إلّا اختيارين يصفهما فروم بأنهما "إما تغيير جذريّ في الأخلاق أو استمرار في الحروب" – واختيار البديل الثاني هو في نظره 'انتحار جماعيّ'.[27] أي أن فروم يعتبر أن مجرد بقاء البشرية على قيد الحياة منوط بتحوّل جذريّ وتغيير جوهريّ في القيم والسلوكيّات الأساسية عند البشر، وأيضاً في ممارسة نظام أخلاقيّ جديد، وتغيير في موقف الإنسان من الطبيعة. ويسوق الحجة على ذلك بقوله: "للمرة الأولى في تاريخ البشرية أصبح البقاء النوعيّ للجنس البشريّ يعتمد على تحوّل جذريّ في الضمير الإنسانيّ"[28] - تحوّل يجب أن يواكبه تغييرات اجتماعية واقتصادية جوهرية. بَيد أن الحاجة الى تغيّر سلوكيّ وأخلاقيّ في نظره هي "الاستنتاج المنطقيّ للتحليلات الاقتصادية"[29]، وهو يرى أيضاً أن هناك حاجة الى خلق إنسان جديد.[30]

---

[23] في كتابه 'تمْلُك أو تكون'، مرجع سابق ص7-8، 19، 65، 123-124

[24] المرجع السابق ص 18، 84

[25] المرجع السابق ص 6

[26] المرجع السابق ص 114

[27] المرجع السابق نفس الصفحة

[28] المرجع السابق ص 10

[29] المرجع السابق ص 164

[30] سيأتي ذكره في فصلنا الثامن "المجتمع الجديد"، بند 'ملكوت الله'.

ولكن تُرى ما هو السبيل الى إحداث هذا التغيير والتحوّل؟ فلأن فروم يعلم تماماً أنه بغير ما أسماه 'القوة الدافعة لحافز قويّ' لا يمكن تحقيق الهدف المنشود – ألا وهو خلق الإنسان الجديد والمجتمع الجديد، فهو يبحث عن رؤية جديدة إذ يقول: "إن أمَلنا الوحيد يكمن في الجاذبيّة الخلاّقة التي تنبعث عن رؤية جديدة"،[31] كما يرى أن القدرة اللازمة لإحْداث هذا التحوّل الشامل الكبير تأتي ممّا أسماه 'بالدوافع الدينية'، وأن من الضروريّ أن تحلّ "وِجهة جديدة من الاخلاص محل الوجهة القديمة" [32] وأن نجاة البشرية منوط بإيجاد وِجهة الاخلاص هذه،[33] ومعلّق بخلق سلوك إيمانيّ جماعيّ جديد. ويعلل ذلك بقوله " فما نُخْلص له هو ما يحركنا ويقود خطواتنا"[34]. غير أن فروم يتوقع أن يُخلق الانسان الجديد على يد ما أسماه "تديّن جديد يخلو من الألوهية والأنظمة الكنسية".[35]

هل تفتحت الأعين على الدين من جديد؟

لو كان فراق عالم الغرب عن الدين فراقاً لا عودة فيه، لكانت تبعات ذلك الفراق جسيمة فيما يتعلق ببقاء الجنس البشريّ على قيد الحياة. وإذا كان هناك ثمّة مستقبل للدين – وذلك على خلاف الرأي السائد في عالم الغرب في يومنا هذا – فأمامنا خياران أولهما إمّا أن تكون لدى الأديان القديمة قدرة على الخروج عن قوالبها الأولى الجامدة مبتعدة عن خطر التحوّل الى حركات إنسانية دنيوية، ومقدرة على العودة الى حقائقها الجوهرية البسيطة متغلبة على شكوك الناس فيها – وهي شكوك تسببت نفس هذه الأديان في إثارتها. أما الخيار الثاني فهو أن يكون هناك شيء جديد في طريقه إلينا. فبينما لم يتخلّ أتباع الأديان التقليدية عن اعتقادهم بأن أديانهم لا زالت تمتلك القدرة على مجابهة تحدّي غياب العقيدة الهائل، إذ يخامرهم الأمل في عودة الأديان القديمة الى سابق حيويتها، ومنهم دانيال بِلّ، مع أن البعض منهم يدرك أن 'الحطب اليابس' لن يعود بأيّ حال من الأحوال ليصبح 'أشجارا يانعة خضراء' كما كان في الماضي. ويرى هذا

---

[31] 'تمْلك أو تكون'، مرجع سابق ص 201

[32] المرجع السابق ص 133

[33] المرجع السابق ص 137

[34] المرجع السابق ص 135-136

[35] المرجع السابق ص 202

الفريق أيضا أنه "إذا لم يكن هناك أيّ احتمال لوقوع حَدَث جديد فإن هذا يعني أيضا نهاية كل أمل في المستقبل"[36]. وعادة ما يتجاهل الناس هذا البديل الثاني، ألا وهو وقوع حدث جسيم يماثل ذلك الذي مرت به البشرية عندما انهار العالم القديم وبزغ فجر المسيحية. فلا يبدو أنّ وقوع حدث غيبيّ جديد في زماننا هذا أمر يستحق التصديق أو المناقشة. ومع ذلك فإنّ لدى الكثيرين ممّن يتدبرون أحوال هذا الزمان إحساس بأن 'ثمّة شيء حاسم يجري الآن'، وأن البشرية تقف أمام 'منعطف تاريخيّ'[37]. ومن بين هؤلاء 'هانز شيفر' الذي ينتظر 'موسى جديد'[38] (يُخرج البشرية من عبودية النفس الى حرية الروح). وكذلك عالم اللاهوت الكاثوليكيّ توماس سارتوري Thomas Sartory الذي صرّح في حديث إذاعيّ شيّق حول موضوع "هل نحن أمام منعطف تاريخيّ؟ والأمل في مجيء منقِذ جديد للأديان" [39] بأن جميع الأديان تنتظر موعوداً يأتي في وقت النهاية (أو آخر الزمان، أو اليوم الآخر) ليجدّد العالم ويُحدث تحويلاً شاملاً في مقدّرات البشرية ويأتي بعصر جديد يسوده السلام والعدل، في أعقاب حقبة من الفوضى والارتباك. وتساءل في حديثه الإذاعيّ هذا قائلا: "هل من المحتمل أن نكون في قلب حدث بمثل هذه الجسامة التاريخية؟ وهل من الجائز أن ما نمرّ به الآن ليس مجرّد تبعات الأخطاء البشرية ووجهات النظر الباطلة – وإنما هو شيء أشبه بآلام المخاض لميلاد عصر جديد؟ " واستطرد أيضاً ليقول "إن النبوءات المنصوص عليها في الكتب السماوية دائماً ما تشبّه آلام الأحداث الجسيمة وويلاتها بأوجاع الولادة". وأشار 'سارتوري' أيضاً الى أنه طبقا لعلوم الفلك والتنجيم المتداولة منذ فجر التاريخ بشأن الحقب الكونية *Cosmic Ages* فإننا الآن ننتقل من حقبة الحوت *Pisces* الى حقبة الدلو *Aquarius*[40] وأنه يرى دلائلَ كافية تشير الى تغيّر كونيّ عميق وصرح قائلا: :إن القديم

---

[36] ذكر هايورجن مولتمان Jürgen Moltmann في كتابه 'لاهوت الأمل *Theology of Hope*' ص 92-93

[37] ذكرها جان جبسر Jean Gebser، في كتابه 'في فترة الاختبار *Inder Bewährung*' ص143

[38] غير أن هانز شيفر يقول أيضا "وعلى موسى الجديد أن يعطينا ألواح هذه القوانين، ولن يكون موسى هذا– على قدر استشرافنا المحدود للمستقبل –ضليعاً في العلوم الطبيعية..."، في كتابه 'الإنسان ونهاية انسانيته' ص 166

[39] بثته محطة الإذاعة الألمانية 'صوت الجنوب الغربي' في 75/1/5

[40] راجع أيضا كتاب 'استشراف المستقبل *Durchbruch zur Zukunft*' للكاتب ألفونس روزنبرج Alfons Rosenberg، الصادر في بييتي غايم Bietigheim، للناشر Turm-Verlag

يتهاوى، بَيْد أنّ الجديد الآتي لم تتّضح لنا معالمه بعد". ويتساءل "أيكون السبب في ذلك هو أنه حدثٌ هائل في أبعاده – حدثٌ غير عاديّ ولا نظير له بالدرجة التي لا نستطيع معها أن نراه على حقيقته، كمن وقف تحت سفح جبل عظيم فلا يقدر أن يدرك شموخه؟"

تجديد الدين والوحي الجديد

يؤمن البهائيون بأن الله حيّ لا يموت، وأن ذلك الإله الحيّ قد أوحى للبشرية من جديد على لسان رسولهم بهاء الله. فلم يكن القرن التاسع عشر قرن ازدهار العلم واضمحلال الإيمان فحسب بل كان أيضاً قرناً زاخراً بالتطلع الى تجديد حيوية الدين والترقب إلى ظهور مظهر إلهيّ جديد، والتوقع الشغوف لأحداث وقت النهاية، كما كان أيضاً قرن البداية الجديدة. فلقد شهدت عقوده الأولى في أوروبا وأمريكا قيام الحركات التي بعثتها حرارة انتظار عودة المسيح لتعلن عن قرب مجيئه. فهَجَرَ أتقياء مدينة فورتمبرج الألمانية وطنهم متجهين الى فلسطين حيث استقرّوا تحت سفح جبل الكرمل انتظاراً لمجيء الرّب[41]. بل إن القس وليام ميللر William Miller الذي أسس جماعة أطلق عليها فيما بعد ‘أنصار المجيء الذين يؤمنون باليوم السابع *Seventh Day Adventists*’ أو ‘الأقباط السبتيين’ (كما يسمّون أنفسهم في مصر) – قد استنتج وقت المجيء المنتظر بناء على نبوءات كل من العهد القديم والعهد الجديد من الكتاب المقدس – فقال أولاً إنه يوم 21 مارس/آذار من عام 1844، ثم عاد وغيّر الموعد فيما بعد الى يوم 22 أكتوبر/تشرين الأول من السنة نفسها. ولكن خيبة الأمل والتسليم بالفشل كانت عظيمة عندما لم يظهر المسيح (في نفس تلك السنة[§]) راكباً على السحاب في هذه السماء الزرقاء التي تعلو رؤوسنا – كما فهموا وتوقعوا.

---

[41] ولاتزال المنازل التي بنتها لنفسها هذه الطائفة – وكتبت على أبوابها عبارات بالألمانية مثل ‘الرب قريب Der Herr ist nahe’ – باقية الى يومنا هذا في حيفا على سفح جبل الكرمل، على مقربة من البقعة التي نصب فيها بهاء الله خيمته خلال إحدى زياراته الثلاث للجبل آنذاك. (وللمزيد عن تاريخ منطقة الكرمل منذ قدوم بهاء الله منفياً الى يومنا هذا يمكن لقارئ العربية أن يطالع كتاب [بهاء الله والكرمل] تأليف الدكتور شوقي روحاني[المترجم]).

[§] أسماها ميللر سنة ‘الصحوة الثانية الكبرى *The year of Second Great Awakening*’، ثم أسماها أتباعه فيما بعد سنة ‘خيبة الأمل الكبرى *The year of great disappointment*’ [المترجم]

ولكن لم يكن المسيحيون هم الوحيدين الذين كانوا يترقبون عودة الرّب وتبديل العالم[42] – بل إن جميع الأديان – بما في ذلك ديانات هنود

[42] يوضّح استقراء تاريخ توقّع مجيء وقت النهاية – وهو وعد إلهيّ يشغل حيّزا كبيرا بالفعل في أسفار العهد الجديد من الكتاب المقدس – أن ملحمة الخلاص البشريّ قد اتخذت مساراً فريداً جديراً بالاهتمام. فلقد عاشت المسيحية سنواتها الأولى على انتظار مجيء الرب (أي المسيح) في القريب العاجل وسادها اعتقاد بأن العالم قد أشرف على نهايته. ولكن بمرور بضعة قرون – وخاصة بعد ازدهار المسيحية على يد قسطنطين (أول امبراطور رومانيّ يؤمن بها)، أُرجئ موعد توقّع هذا الحدث المرتقب الى المستقبل البعيد. إلا أنه بحلول القرون الوسطى اشتعلت من جديد جذوة التوقعات الأخروية والاعتقاد بأن العالم على وشك الانتهاء. بل إن المفكر يواقيم فون فيوري Joachim von Fiore (1130-1202) صاغ هذه التوقعات على هيئة تفاسير تاريخية تشبيهية، وربط نبوءة 1260 عاماً (التي وردت في سفر الرؤيا محسوبة على هيئة 42 شهرا (42×30 تساوي 1260 يوما، واليوم محسوب بسنة) ثم زمان وزمانين ونصف زمان (أي ثلاثة أعوام ونصف كل عام مقداره 360 يوما [3.5×360] تساوي 1260 أيضا) – كما في الاصحاح الحادي عشر من هذا السفر: بالآيتين 2 و 9 – والإصحاح الثاني عشر منه: بالآيتين 6 و14، والإصحاح الثالث عشر منه: بالآية 5)- ربطها ‘فون فيوري’ هذا بالتقويم الميلادي، وتنبأ لعام 1260 ميلادية أن يكون موعد مجيء مظهر مسيحيّ يأتي ‘بالبشارة الأبدية’ (التي تكلمت عنها الآية السادسة من الاصحاح الرابع عشر للسفر نفسه). ويطالع القارئ لكتابات ذلك المفكر تضمنها لمبدأين هامّين هما مبدأ ضرورة تجديد الدين، ومبدأ ضرورة تتابع الرسالات. أما في الفهم البهائيّ لهذه النبوءة فإن عام 1260 ينسب الى التقويم الهجريّ، أي عام 1260 بعد الهجرة (وهي سنة إعلان دعوة الباب الموافقة لعام 1844 ميلادية) وللاستزادة راجع مقالة هاوارد جاري Howard Garey "أهو عام 1260 ميلادية أم هجرية؟ الميعاد الذي أخطئ حسابه"، المنشورة بمجلة النظام العالميّ *World Order Magazine* – طبع وكالة النشر البهائية بالولايات المتحدة، بمدينة ويلميت *Wilmette*، ولاية إلينوي، عدد الخريف عام 1972

وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر– أي في نفس الوقت الذي تزايد فيه فقدان المسيحية قدرتها على التأثير في الحضارة عادت الصحوة الى توقعات مجيء المسيح الثاني – التي ذكرناها آنفا – وذلك بشكل لم يسبق له مثيل. إلا أنها لم تكن صحوة كنسيّة وإنما حلّت ببعض الجماعات المسيحية، إذ أن الكنيسة كانت قد فقدت الأمل في عودة المسيح قبل ذلك بوقت طويل، ولم تكن الكنيسة ‘ترتدي ثياب العرس’ انتظارا لمجيء ‘العريس’، كما يحدثنا انجيل متى في اصحاحه الثاني والعشرين: الآية11. ولم يعد الدّيك الذي يعتلي برج الكنيسة وهو رمز الترقب المشار إليه في أكثر من موضع في الكتاب المقدس (متّى ح 2: الآية الأولى وما بعدها، وح 24: آية43، ورسالة بطرس الثانية ح 3: آية 10، وسفر الرؤيا ح16: آية15) – لم يعد ذلك الدّيك ينتظر مجيء الرب. بل إن اجتماعا لمجلس الكنائس العالميّ، انعقد في ايفانستون (بالقرب من شيكاغو) بالولايات المتحدة عام 1945 تحت عنوان ‘المسيح الأملChrist the Hope’ – قد فشل في الاتفاق على ما إذا كانت عودة المسيح أمراً متوقعا، وعلى الرغم من وجود نصوص في الانجيل تُبرّر هذا الاشتياق الذي يمثل

أمريكا الحُمْر[43] تعارفت على أن هناك نهاية أو 'آخرة' وأن هناك مخلّص يأتي وقت النهاية، وأن البشرية ينتظرها عصر ذهبي. وتتسم هذه التوقّعات الدينية – على الرغم من اختلاف وتباين مفاهيمها وتشبيهاتها – بتطابق مذهل فكلها تشير الى أن الزمان مشرف على النهاية. وكلها تتنبأ بفترة

ركنا أساسيّا من أركان الإيمان المسيحيّ، فقد مرت قرون طويلة لم يضع فيها اللاهوت المسيحيّ مسألة المجيء موضع البحث. ولهذا تسلل ذلك الاشتياق من الكنيسة الى المذاهب الصغيرة المختلفة، سيّما الأقباط السبتيين، وشهود يهوه، وغيرهم من الفرق العديدة التي انشقت على الكنيسة. وهي فرق قفلت على نفسها باب الرؤية تماماً من جرّاء تفسيرها الحرفيّ للنص الإلهيّ وما بنته على ذلك في انتظارها لحدث إعجازيّ (للمزيد راجع كورت هوتن Kurt Hutten الذي يسوق وصفاً مفصّلاً – من وجهة نظر البروتستانتية الرافضة لهذه الفكرة – عن الفرق التي تؤمن بقرب المجيء الثاني، وذلك في كتابه 'عرّافين، ومنجّمين، ومتحمّسين *Seher, Grübler, Enthusiasten*' ص9-14. وتزامن مع ظهور حركات ترقّب المجيء الثاني صياغة الفلاسفة الملحدين لما أسموه بدين الخلاص – وهي حركة علمانية اقتبست عن الانجيل فكرة قرب حدوث الخلاص، وترقّب وقت المنتهى بما فيه من تبديل لكلّ شيء، ووعدت بإنجاز ما عجز الدين عن تحقيقه: ألا وهو 'تحرير الانسان والبشرية من كل شيء'. وبتأثير من مذاهب الخلاص الاشتراكية عاد اللاهوت المسيحيّ –وهو الذي كان قد نبذ فكرة التوقّع المسيحيّ من قرون طويلة – عاد هذه الأيام ليعيش حالة من 'توقع تحوّل سماوي'. وكان يورجن ملتمان Jürgen Moltmann هو أول من ساعد اللاهوت المسيحيّ على إعادة اكتشاف دلالة القسم الأخرويّ لرسالة المسيح كركيزة أساسية. فهو يرى أن المسيحية هي 'دين الترقّب' ويعتبر أن الأخرويات "هي الأفق الجامع في كل لاهوت مترقب" (من كتاب 'لاهوت الأمل *Theology of Hope*' ص137–مقالة 'المستقبل كتعليم سماويّ جديد Die Zukunft als neues Paradigma der Transzendenz'، ليورجن مولتمان نفسه)

ولقد ظهر مؤسس الدين البهائيّ –وهو الذي أعلن عن تحقيقه لوعود الأديان كافة–تقريبا في نفس الفترة التي بلغت فيها توقعات المجيء ذروتها، وصيغت وقتها المذاهب العلمانية البديلة. ويرى البهائيون أن هذا التزامن قد حدث بتدبير إلهيّ إذ أصبح الطريق واضحاً "بخلاف كل التوقعات"(على حد قول مارتن بوبرMartin Buber في كتابه 'من أجل السماء*For the Sake of Heaven*'، الصفحة الثالثة عشر من المقدمة)وجاء المسيح 'كلصّ في الليل' (بتعبير الكتاب المقدس في انجيل متى ح24آية43 ورسالة بولس الأولى لأهل تسالونيكي ح5آية4 ورسالة بطرس الأولى ح4آية15 وسفر الرؤيا ح3آية3وح16آية15)

[43] عن كتاب 'محاربو قوس قزح: أحلام النبوءات الغريبة لشعوب الهنود الحمر *Warriors of the Rainbow. Strange and Prophetic Dreams of the Indian Peoples*' للمؤلفين وليام ويلويا William Willoya وفينسون براون Vinson Brown– طبع هرالدزبرج، كاليفورنيا، للناشر Naturegraph عام 1962

طويلة من ذبول الإيمان وانحدار القيم والدمار والفوضى، يتبعها مجيء مخلّص للجنس البشريّ بأكمله، يكون مجيئه بمثابة نقطة تحول جذريّ في مصير البشرية، وإعلان عن عصر جديد وحياة جديدة. فإذا ما تفحّصنا توقعات الديانة الهندوسية لوجدنا أن فيها اعتقاداً بظهور فيشنو Vishnu في صورة بشرية وعلى هيئة جديدة من عصر الى عصر[44] ليعيد للعالم نظامه. وطبقاً لما يراه الهندوس فإن هذا الرسول سيظهر في ختام الحقبة الكالية *Kali period*‘ ممتطياً صهوة جواد أشهب’ – كما هو مذكور في الأحاديث التي تناقلها كهنتهم عبر ما يزيد على أربعة آلاف عام[45] ليجدّد هذا العالم. وللبوذية أيضاً عقائدها الأخروية التي تفيد بأن عصر ‘جاوتاما المعلم Buddha Gautama’ سيتبعه عصر ‘ميتريا المعلم Buddha Maitreya’ الذي سيفتتح عهداً جديداً يسوده التآخي والمحبة.[46]

كما أن الاعتقاد في مجيء مبشر يمهّد لظهور مخلّص البشرية،[47] هو اعتقاد تشترك فيه أيضاً معظم الديانات مما يفيد أن العديد منها يتوقع ظهورين متعاقبين يأتيان بالخلاص والصلاح. فاليهودية تنتظر مجيء المسيح بن يوسف قبل مجيء المسيح بن داوود. والديانة الزردشتيه (أو المجوسية) تنتظر أوشيدارماه Úshídar-Má الذي سيأتي قبل (موعودهم

---

[44] جاء في كتاب الباجافاد جيتا Bhagavad gita (الكتاب المقدس عند الهندوس):"أَبْتَعِث نفسي كلما تدنّى الصلاح وزادت المفاسد...وآتي للحياة من عصر الى عصر لحماية الصالح وقهر الشرير وتأسيس البِرّ". (السفر الرابع–الفقرات7–8)

[45] وذلك في توافق عجيب مع سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتيّ حين يعطي علامة على بدء الألفية المرتقبة وهي عودة المسيح ممتطيا صهوة جواد أشهب (ح19: أية11).

[46] راجع كتاب ‘ظهور بوذا مايتريا أميتابا *Buddha Maitrya-Amitabha has Appeared*’ للكاتب جمشيد فوزدار Jamshed Fozdar طبع نيودلهي عام 1976 (ويلاحظ أن كلمة "بوذا" تعني "المعلّم"، وهو نفس اللقب الذي أطلقه على المسيح أولئك اليهود الّذين التفّوا من حوله بتوقّعاتهم ومشاكلهم [المترجم]).

[47] فظهور من يبشر بقدوم رسول جديد قد حدث وتكرر من قبل في تاريخ الرسالات السماوية – للمزيد راجع انجيل لوقا (ح1: آية 26 وما بعدها) عن دور يوحنّا المعمدان (يحيى بن زكريّا) في التمهيد للرسالة المسيحية. أمّا عن الاسلام فقد تعاقب أربعة حكماء الواحد تلو الآخر للتبشير ببعثة محمد لبني البشر. وكان خادمهم هو روزبة (الذي عرف فيما بعد بسلمان الفارسي) وهو من أرسله آخرهم الى الحجاز حيث حظي بلقاء الرسول. (للمزيد راجع كتاب الإيقان ص65 وكتاب ‘محمد ومسيرة الدعوة الإسلامية *Muhammad and the Course of Islám*’ للمؤرخ حسن بليوزي H. M. Balyuzi ص51، 55، 56، 94، 201، 222، وذلك عن سلمان الفارسيّ ودوره في الاسلام).

المنتظر) شاه بهرام. أما الإسلام - وهو الذي يمتاز على غيره من الأديان بوضوح فائق في نبوءاته – فينبئ بظهور رسولين هما ظهور المهديّ وعودة عيسى ابن مريم عند المسلمين السنّة[48]، ومجيء القائم ثم القيّوم عند المسلمين الشيعة.(*)

ولم تكن التوقعات بظهور الموعود[49] جياشة في القرن التاسع عشر عند أتباع المسيحية فحسب، بل كانت سائدة أيضاً في اليهودية والإسلام. فقد أسس الشيخ أحمد الاحسائي في ختام القرن الثامن عشر طريقة تدعو الى الإصلاح الدينيّ تمهيداً لظهور رسوليّ جديد أثارت اهتماما شديداً وجمعت

---

[48] في القرآن إشارات رمزية الى ما سيأتي من وحي إلهيّ للبشرية بعد الإسلام، وتناول بهاء الله شرح معاني هذه الرموز في كتاب الإيقان، ولكن لم يرد في القرآن ذكر واضح للرسل المنتظرة على وجه التحديد، وإنما جاء ذكرهم في عدد كبير من الأحاديث النبوية ففيها أدلة كثيرة عن عودة المسيح وأنه سوف يحكم بشرع الله. – ومنها ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله قال: ‘‘والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَماً عدلاً.... "، وكذلك تحكي الكثير من الأحاديث عن ظهور المهديّ.

(*) ولقراءة شاملة في نبوءات القرآن والأحاديث النبويّة عن ظهور بهاء الله ومبشّره الباب يُوصَى القارئ العربيّ بمراجعة كتاب [جنّة الكلمة الإلهية]، للمؤلّفين الدكتورة سوسن حسني، وعبد العزيز الهادي، دار الفرات للنشر والتوزيع، بيروت، طبع 2011 [المترجم].

[49] للمزيد عن توقّعات المسيحيين في الغرب لمجيء المسيح في القرن التاسع عشر راجع (بالإنجليزية) كتاب ‘لص في الليل *Thief in the Night*’ للمؤلف وليم سيرز William Sears-الناشر جورج رونالد، أوكسفورد، 1973 (ومن حسن حظ القارئ العربيّ أن صدرت أخيرا طبعة عربية لهذا الكتاب ترجمة سيفي إبراهيم سيفي (عام 2013)، وأتاح هذا المترجم أمكانية تنزيلها من على الإنترنت على الرابط التالي:

https://drive.google.com/file/d/0B9_AzzDnftDoTTNtLVZvVXNEdUk/view

[المترجم]

... وعن نفس الموضوع (بالألمانية) راجع كتاب ‘الملكوت الأبدي: تاريخ الأمل *Das ewige Reich. Geschichte einer Hoffnung*’ للكاتبين إيج Egg، وولتر Walter، الطبعة الثانية–زيوريخ عام 1954، و(بالإنجليزية) كتاب ‘اقتراب نهاية العصر على ضوء التاريخ والنبوءات والعلم *The Approaching End of the Age Viewed in the Light of History*، *Prophecy and Science*’ للكاتبين جينيس Guiness و جراتان Grattan، طبع نيويورك للناشر ارمسترونج عام 1881، و(بالألمانية) كتاب ‘سيرة المنظور الغربي في الحياة *Geschichte der abendländischen Weltanschauung*’ للكاتب هانز ماير Hans Meyer – طبع فورتسبورج Würzburg عام 1947، المجلد الثاني، ص 150

حولها كثيراً من الأتباع من العراق وبلاد فارس. وتدور تعاليم هذه الحركة حول فكرة أن الوقت قد حان لقدوم 'النبأ العظيم' الموعود في القرآن الكريم[50]، و'الساعة' و'يوم الدين'، ولقرب ظهور 'القائم' الذي ينتظر المسلمون الشيعة مجيئه. وبحلول اليوم الخامس من شهر جمادى الأول من عام 1260 هجرية،[51] وبمدينة شيراز في جنوب بلاد فارس، أعلن تاجر يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً تعود نسبته الى السلالة النبوية يدعى السيد علي محمد – أعلن لأحد تلاميذ الشيخ أحمد الاحسائي أنه هو المبشّر بالموعود الذي ينتظرون ظهوره وأنه هو القائم، ولقد كان ذلك الحدث بداية ميلاد الدعوة البهائية.

وسرعان ما التفّت حول السيد على محمد – الذي اتخذ لنفسه لقب 'الباب' (إشارة الى أنه الطريق المؤدّي الى شخصية عظيمة ستأتي من بعده) – أعداد كبيرة من الأتباع المخلصين، إلا أنه أثار في الوقت نفسه مقاومة لا هوادة فيها من قِبَل رجال الدين الشيعة المتشددين ثم – بتحريض منهم – لقي معارضة من سلطات الدولة. واستُشهِد ما يزيد عن عشرين ألفاً من أتباع الباب في الاضطهادات الدامية التي تلت ذلك، وأُعدم البابُ نفسُه علناً عام 1850م في ميدان العسكر بمدينة تبريز (بشمال إيران).

أما تلك الشخصية التي كان الباب يعدّ أتباعه لظهورها، فهي الشخصية الرئيسية في البهائية، أي بهاء الله،[52] (المولود عام 1817 والمتوفي عام 1892)، وقد نُفي بهاء الله الى بغداد عام 1852، لأنه كان أيضاً واحداً من أتباع الباب قبل إعلان أن شخصه هو "من يظهره الله"، الذي بشّر به حضرة الباب. وهناك في بغداد صار بهاء الله المحور الروحيّ للدين الجديد ثم كَشَف لأتباعه – غداة نفيه الى القسطنطينية عام 1863[53] – عن أنه الموعود الذي وَعَدت به كلٌ الأديان. ثم نُفِي بهاء الله مرة أخرى الى

---

[50] كما جاء في سورة النبأ: الآية 2

[51] يقابل العام 1260 من الهجرة سنة 1844 في التقويم المسيحي، أما يوم إعلان الدعوة فهو يوم الثالث والعشرين من شهر مايو (5 جمادى الأول).

[52] وهو لقبه الرّوحي، أما اسمه فهو ميرزا (أي السيد) حسين على النوري، وكان والده وزيرا في بلاط فتح على شاه

[53] رافق بهاء الله في رحلته من بغداد الى الأستانة فريق من الخيّالة، "أما حضرته فقد ركب جوادا مطّهما أصيلا كُمَيْت اللون". كما يصف شوقي أفندي، في كتابه [القرن البديع] ص155)، ولاحظ دلالة هذا الوصف في الحاشية رقم 45 من فصلنا هذا

أدرنة[54]، بناء على طلب من حكومة فارس، ومن هناك نفي للمرة الأخيرة عام 1868 الى عكاء، مستعمرة القصاص التركية الواقعة في الأراضي المقدسة، قاضياً بذلك أربعين عاماً من السجن والنفي. ولقد خاطب بهاء الله (في عدد من ألواحه لكل من الملوك والسلاطين والقياصرة، الدّيني منهم والزمنيّ في الشرق أو في الغرب، من أمثال نابليون الثالث، والقيصر البروسيّ ويلهلم الأول، والقيصر النمساويّ فرانز جوزيف، والملكة فكتوريا، والقيصر الروسيّ الكسندر الثاني، وملك الفرس ناصر الدين شاه، والسلطان العثمانيّ وخليفة المسلمين عبد العزيز، والبابا بيوس التاسع) خاطب ملوك العالم ورؤساءه مناديا إياهم أن يعترفوا برسالته وأعلن بعبارات مهيمنة لائحة مجيء اليوم الموعود، جاء فيها **"قُلْ تَاللهِ قَدْ أَتى الرَّحْمَنُ بِقُدْرَةٍ وَسُلْطَانٍ. وَبِهِ ارْتَعَدَتْ فَرَائِصُ الأَدْيَانِ. وَغَنَّ عَنْدَلِيبُ الْبَيَانِ على أَعْلى غُصْنِ الْعِرْفَانِ. قَدْ ظَهَرَ مَنْ كَانَ مَكْنُوناً في الْعِلْمِ وَمَسْطُوراً فِي الْكِتَابِ. قُلْ هَذَا يَوْمٌ فِيهِ اسْتَوَى مُكَلِّمُ الطُّورِ على عَرْشِ الظُّهُورِ وَقَامَ النَّاسُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَهَذَا يَوْمٌ فِيهِ حَدَّثَتِ الأَرْضُ أَخْبَارَهَا وَأَظْهَرَتْ كُنُوزَهَا وَالبِحَارُ لآلِئَهَا وَالسِّدْرَةُ أَثْمَارَهَا وَالشَّمْسُ إِشْرَاقَهَا وَالأَقْمَارُ أَنْوَارَهَا وَالسَّمَاءُ أَنْجُمَهَا وَالسَّاعَةُ أَشْرَاطَهَا وَالْقِيَامَةُ سَطْوَتَهَا وَالأَقْلامُ آثَارَهَا وَالأَرْوَاحُ أَسْرَارَهَا. طُوبى لِمَنْ عَرَفَهُ وَفَازَ بِهِ وَوَيْلٌ لِمَنْ أَنْكَرَهُ وَأَعْرَضَ عَنْهُ"**[55].

وطالب بهاء الله هؤلاء الملوك والرؤساء بأن يحكموا بمقتضى مبادئ تعاليمه، ويخفّضوا من مهماتهم العسكرية، ويؤسسوا السلام في العالم. وكَشَفَ عن مضمون مهمّته على أنها مَنْح العالم حياة جديدة واصلاح أنظمته بهَدْي من التعاليم الإلهية، ووضْع أقدام البشرية على طريق المدنية الروحية. ولخّص الغرض من هذه الدعوة الإلهية على أنها توحيد البشرية جمعاء على نظام شامل بروح من الوفاق والسلام والاتحاد، وأعلن أن وسيلة تحقيق هذا الغرض هو اتحاد من على الأرض على الديانة الشاملة التي جاء بها وعلى اتّباع نصائحه ووصاياه الإلهية. وأنذر بهاءُ الله بني البشر بأن هناك عقاباً إلهياً ينتظرهم إذا هم غفلوا عن جادّة الطريق وحذّرهم من الويّلات التي سوف تحيق بهم من جرّاء ذلك. إلا أنه أوضح في الوقت نفسه أن هذا العذاب الإلهيّ الذي سيحيق بالبشرية من جراء عنادها سوف

---

[54] مدينة أدرنه التركية، وكانت تعرف أيام الإمبراطورية البيزنطية أيضا باسم Adrianople، وفي بعض كتابات بهاء الله أسماها 'أرض السرّ'

[55] كتاب [مجموعة من ألواح...] لوح الاشراقات، ص8. وهناك مختارات وافية من ألواحه الى الملوك والرؤساء في كتاب [ألواح حضرة بهاء الله الى الملوك والرؤساء]، دار النشر البهائية بالبرازيل، أبريل 1983.

يكون بمثابة عملية تطهير وتوحيد صاهر للجنس البشريّ في مجتمع عالميّ يتحد اتحادا لا انفكاك له، مجتمع وعَده بمستقبل مشرق وبشّره بمجيء 'السلام الأعظم'. ولقد ضمّن بهاء الله الخضمّ الزاخر من كتاباته التي تركها للبشرية الإعلان عن إرادة إلهية شاءت بمَقْدِم يوم جديد. وتوفّي بهاء الله عام 1892 بضاحية البهجة بالقرب من عكاء حيث كان قد قضى فيها المرحلة الأخيرة من عمره بعد التخفيف من قيود سجنه، مع بقائه منفيّاً لا يغادر تلك الديار.

وعيّن بهاء الله ابنه الأرشد عبد البهاء ليخلفه في الرئاسة الروحية للدعوة، وليكون المفسّر والمبيّن المعتمَد لكتاباته. وأُطلق سراح عبد البهاء من سجنه الذي شارك فيه والده عام 1908 على يد ثورة تركيا الفتاة التي أطاحت بالحكومة العثمانية فتسنّى له السفر (من عام 1910 إلى عام 1913) الى مصر[§] وأوروبا والولايات المتحدة حيث جَعل الكثيرين على علم بالبهائية. ولقد شهدت العديد من الجرائد والدّوريّات التي صدرت آنذاك بالاحترام العميق الذي كان يُقابَل به علناً من قِبَل الكنائس والجامعات ومشاهير المفكّرين والساسة والعلماء والأساتذة. وتوفي عبد البهاء في حيفا (بفلسطين) عام 1921، مضمِّنا ألواح وصاياه ميثاقاً يحدّد تطوّر الدعوة تحت رعاية وهداية كل من شوقي أفندي (حفيده الأرشد) الذي عيّنه وليّا لأمر الدين البهائي، وبيت العدل الأعظم، واضعا سلطة تفسير التنزيل في يد وليّ الأمر، بينما اختَصّ بيت العدل الأعظم بالبتّ في الأمور التشريعية والإدارية طبقا لما قرّره والده بهاء الله. وبعد مرور قرن على إعلان بهاء الله لدعوته بحلول عام 1963، تمّ انتخاب بيت العدل الأعظم للمرة الأولى بواسطة وكلاء يمثلون عموم العالم البهائي، حيث أصبح بيت العدل الأعظم منذ ذلك التاريخ المرجع الإداريّ الأعلى للبهائية، مستمداً سلطاته من صريح أحكام بهاء الله الذي أسبغ على قراراته صفة الالزام النهائي. ويتّخذ بيت العدل الأعظم مقره بالأراضي التي تمَلّكَها البهائيون ابتداء من مطلع القرن العشرين (في ظلّ الحكم العثماني لفلسطين) على سفح جبل الكرمل بمدينة حيفا، حيث تقع هناك أيضاً المقدسات البهائية الهامّة.

وانتشرت البهائية في كل بلاد العالم تقريباً، وبخلاف موطنها الأصليّ إيران، يوجد معظم أتباعها في أمريكا الشمالية والجنوبية وإفريقيا

[§] لقراءة مفصّلة عن وقائع زيارة عبد البهاء لمصر يُوصَى القارئ بكتاب [عباس أفندي - في الذكرى المئوية لزيارته لمصر 1910 –1913] للكاتب سهيل بديع بشروئي، طبع منشورات الجمل، بغداد وبيروت 2010 [المترجم]

والهند وجنوب شرقي آسيا. ويوجد اليوم (عام 1980)[§] بهائيون فيما يزيد على 106,000 مدينة وقرية يكوّنون ما يزيد على 25,000 مجتمع محلّي، تعمل تحت اشراف ما يزيد على 131 محفلاً روحانياً مركزياً، ويتزايد نمو المجتمعات البهائية بصورة مطّردة في كل أرجاء المعمورة*

---

§ هذه الإحصاءات يتم تحديثها بصفة دائمة على موقع خدمة الأخبار البهائية العالمية بالإنترنت على الرابط التالي:

http://news. bahai. org/media-information/statistics

* أصبحت معظم المراجع البهائية الرئيسية متاحة الآن على الإنترنت على مواقع عديدة أهمها الموقع الرسميّ لمكتبة المراجع البهائية الذي يرعاه المركز البهائي العالمي، ويوفرها بلغات ثلاث هي الإنجليزية والفارسية والعربية، ورابط المكتبة العربية هو:

http://reference. bahai. org/ar/

وهذه المراجع مبوّبة لسبعة ابواب بحسب مصدرها وهي: (1)حضرة بهاء الله، (2)حضرة الباب (3)حضرة عبد البهاء (4)حضرة شوقي أفندي (5)بيت العدل الأعظم، (6)مجموعات نصوص (تضم نصوصا مبوّبة من هذه المصادر الخمس)، (7)الأعمال الكتابية الأخرى (وهي عبارة عن مؤلفات مختارة لكتّاب بهائيين تشرح الدين البهائي).

وسيلاحظ القارئ أن الأبواب الثلاث الأولى تتناول مواضيعا شتى بدون تسلسل أو تبويب شأنها في ذلك شأن النصوص الدينية كالكتاب المقدّس والقرآن الكريم. وتشتمل آثار بهاء الله على الكتاب الأقدس وهو كتاب الشرائع والأحكام في الدين البهائي، ومجموعة الألواح النازلة للكتاب الأقدس وبها المبادئ الشارحة للنظام العالميّ الجديد ومسائل كثيرة أخرى، وكتاب الإيقان وهو الذي يقدّم مفتاح فهم الرموز والمتشابهات في الكتاب المقدس والقرآن الكريم، وكتاب الكلمات المكنونة (العربية والفارسية) وهي خلاصة لواجبات المؤمن الفرد وتوجهه نحو خالقه وتجاه غيره من بني البشر.

أما الأبواب الباقية فهي مبوّبة الى حدّ كبير، وخاصة مجموعات النصوص والأعمال الكتابية الأخرى، ونخص منها مجموعة كتب [ظهور حضرة بهاء الله] للكاتب أديب طاهر زاده، وهي استعراض لأهم آثار حضرة بهاء الله والظروف التي نزلت فيها على ضوء تاريخ حياته ابتداء من فترة نفيه في بغداد عام 1953 وما بعدها.

وقد يكون التقسيم الآتى مفيدا لمن يتناول المراجع البهائية للمرة الأولي:

للاطلاع على تاريخ البهائية: راجع كتاب [القرن البديع]، لشوقي أفندي وكتاب [مطالع الأنوار (تاريخ النبيل)]، وكتاب [مقالة سائح في تاريخ البابية والبهائية] لعبد البهاء.

وعن تعاليم البهائية ومبادئها: راجع [خطب عبد البهاء في أوروبا وأمريكا]، وكتاب[مقتطفات من مفاوضات عبد البهاء]، و[منتخبات من كتاب بهاء الله والعصر الجديد]، للدكتور إسلمنت، و[الدين البهائيّ دراسة وتحليل]، للكاتبين وليام هاتشر

بهاء الله: مُحيي العالم

لقد تزامن ظهور رُسُل الإلحاد مع ظهور رسول الله الواحد الحيّ[56]. فلم يشأ كارل ماركس - الذي أعلن عمّا أسماه بدين الثورة والخلاص الاجتماعيّ وأعطى أبعاداً جديدة لرسالات الإصلاح السياسية التي برزت على الساحة ابتداء من القرن الثامن عشر – لم يشأ أن يقدّم تفسيراً جديداً للحياة في هذا العالم، وإنما قصد أن يغيّر هذه الحياة، ولقد غيرها بالفعل[57]، فإن ما يقرب من نصف البشر (قبل بدء انحسار الشيوعية عام 1990) يُحكم بأنظمة ماركسية قامت على كتابات ماركس[58]. ولو أن الشيوعية لم تعد كتلة واحدة لا تتجزأ، وإنما آل بها المآل الى أنظمة عديدة تناصب بعضها البعض العداء في بعض الأحيان، بَيْد أنها كانت في نفس الوقت تجسيداً للآمال السياسية للشعوب والعقيدة العلمانية عند قطاع عريضٍ من جيل الشباب. وصار عددٌ لا يستهان به من شعوب العالم يأمل في أن يجد الجنس البشريّ سبيلاً للسعادة في النظريات الماركسية، وعندما كُتبت هذه السطور في بداية

ودوجلاس مارتن، وعن البهائية من منظور مسيحيّ راجع[ملكوت الأب السماوي]، لفرجي فايل [المترجم]

[56] ولد 'الباب' عام 1819، وبهاء الله عام1817، أما كارل ماركس فقد ولد عام 1818، ولود فيج فيورباخ عام 1804، وهو الذي نشر كتابه 'خلاصة المسيحية *The Essence of Christianity*' عام1841 وهو الكتاب الذي انتقد فيه ما أسماه بظلم الدين، وقد كتب كارل ماركس أعماله الأولى في باريس عامي 1843-1844 ونشر مؤلفه 'المنفستو الشيوعي' عام 1848 متزامنا مع اعلان استقلال البابية عن الاسلام في مؤتمر قرية 'بدشت' بإيران.

[57] كما قال باحث في الفلسفة "لم يقدّم الفلاسفة سوى تفاسير متباينة عن العالم، أما الأمر المهم فهو تغيير هذا العالم وليس شرحه وتفسيره "كتاب 'الإيديولوجيات الألمانية *The German Ideology*' البحث الحادي عشر – عن فيورباخ ص 653

[58]غير أن من رأي الكاتب كولاكوفسكي Kolakowski أن الشيوعية المتداولة الآن لم تقدّم تفسيرا للعالم ولم تغيّره، فهي ليست سوى قائمة *repertoire* بالشعارات التي تخدم عملية ترتيب لمختلف المصالح التي تتنافى غالبيتها تماما مع ما نادت به الماركسية أصلا...فإن فكرة تنصيب الجنس البشريّ إلها لعصره حسب النظريّات الماركسية، كان من نصيبها نفس المصير الذي آلت اليه كل المحاولات التي تبنّت هذه الفكرة، سواء أكانت محاولات فردية أم جماعية فهي لم تكن في حقيقتها سوى أسوأ مثال على استعباد البشر – من كتابه 'التيارات الرئيسية في الشيوعية *Main Currents of Marxism*' – المجلد الثالث، ص530

ثمانينيات القرن العشرين (1980) لم تكن الماركسية قد برهنت بعد على أنها تقدم للعالم علاجاً ناجعاً لأمراضه.§

وبالمقارنة، قد يثار هنا سؤال: هل أحدث بهاء الله تغييراً في العالم؟ وجوابنا هو أن هذا التغيير في طريقه إلينا، فهناك ثورة هادئة§، ويعتقد البهائيون أن القلاقل التي ثارت في القرن التاسع عشر وما تبع ذلك من تغييرات في أوضاع العالم هي مسبّبات روحية تتمثّل في أن هناك وحياً ورسالة جديدة: **"قد اضطرب النّظم من هذا النَّظم الأعظم واختلف الترتيب بهذا البديع الذي ما شهدت عين الإبداع شبهه".**[59]

ولقد جاء بهاء الله - مثلما جاء من سبقه من الرسل بشيراً ونذيراً[60] أي حاملاً رسالة منعشة للأرواح، وموجهاً للبشرية إنذارات وتحذيرات في نفس الوقت. فقد حذر العالم - كما فعل من قبله سيدنا نوح[61] - بأن القصاص الإلهيّ يوشك أن يحلّ بالبشرية، وتنبأ بانقلابات شاملة تنتظرها.[62] وبوصفه حاملاً لرسالة جديدة، فقد وَعد بهاء الله العالم بتجديد روحي، وتوحيدٍ لبني البشر، وتشييد صَرْح نظام عالميّ جديد لم يسبق له مثيل على هذا الكوكب،

---

§ بحلول أحداث عام 1989ومابعدها من انهيار كافة الكيانات الشيوعية في أوروبا الشرقية وآسيا فيما كان يعرف بالاتحاد السوفييتي، ضاع كل أمل للبشرية بجدوى الشيوعية في حياة البشر. [المترجم]

§ بعد خمس سنوات من استخدام الدكتور أودو شيفر وصف 'الثورة الهادئة' هذا، صدر فيلم وثائقيّ عن هيئة الإذاعة البريطانية يحمل نفس العنوان، يتناول المجتمعات البهائية في العالم وما تلاقيه البهائية من معارضة واضطهاد في مهدها (إيران). وهذا الفيلم موجود على موقع يوتيوب الشهير على الإنترنيت مقسّما إلى جزئين، ورابط الجزء الأول

https://www. youtube. com/watch?v=iFTFMLsiRG0

ورابط الجزء الثاني:

https://www. youtube. com/watch?v=8Lgbzd930_Y

[المترجم]

[59] الكتاب الأقدس فقرة181

[60] كما يطالعنا القرآن في الآية: "إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا" سورة فاطر: آية 24

[61] انجيل متى ح 24: آية37

[62] كما سنتناوله تفصيلا في فصلنا التاسع "البهائيون والنّظم القديم".

جالباً معه بدء أوان تأسيس الملكوت الإلهي. **"هَذَا يَوْمٌ جَعَلَهُ اللهُ نِعْمَةً لِلأَبْرَارِ وَنَقْمَةً لِلأَشْرَارِ وَرَحْمَةً لِلْمُقْبِلِينَ وَغَضَباً لِلْمُنْكِرِينَ وَالْمُعْرِضِينَ"**[63].

ولقد ذكر بهاء الله أن الإلحاد سيصبح ظاهرة تنتشر في جميع أنحاء العالم وأن كل محاولة لنفخ روح جديدة في أجساد الرسالات السابقة لن يُكتب لها النجاح. ويقول: "في هذا اليوم تغيّرت أذواق الناس وتبدّلت قوى إدراكهم، كما بَعثت رياحُ الدّنيا المخالفة وألوانُها المختلفة الزّكام إلى الأنوف فحرمت الناس من نفحات الظهور."[64]... "قد تغيّر وجه العالم. ولم يعد لصراط الله ولا لدين الله في نظر الناس قيمة."[65]... "ان قوّة وبنية الايمان قد ضعفت في اقطار العالم، ولهذا يلزم الدرياق الاعظم. إنّ سواد النحاس قد أخَذ الامم، نحتاج الى الاكسير الاعظم.[66] ويرى بهاء الله أن الدين هو أسّ أساس نَظْم العالم، وأن أيّ وَهَن في الدين سيجلب ضعفاً وانحلالاً في الهيئة الاجتماعية. "إن ضعف أركان الدين صار سبباً لقوة الجهّال وجرأتهم وجسارتهم. حقاً أقول إن ما نَقَص من علوّ مقام الدين يزداد من غفلة الأشرار ويؤول الأمر أخيرا الى الهرج والمَرْج. **اسمعوا يا أولي الأبصار ثم اعتبروا يا أولي الأنظار**"،[67] "قريباً سيُطوى بِساطُ العالم ويُبسط بساط جديد."[68]

ولا مهرب من هذا الانحلال وهذا الانقلاب، بل لابد منهما لأنهما يفسِحان المجال لما هو جديد: "لاَ يَجْعَلُونَ خَمْرًا جَدِيدَةً في زِقَاق عَتِيقَةٍ".[69] والانسان ليس هو الفاعل الذي يرسم مجرى الأحداث في عملية التغيير العاصفة التي ألمّت بالشعوب في يومنا هذا، مهيئة إياهم بذلك لمجيء ‘العدل الأعظم’. ولكن هذا الإنسان – سواء بعِلم أو جهل منه بذلك – يساعد في عملية الإسراع بحلول ما رسمته الخطّة الإلهية لإصلاح العالم: ألا وهو "العصر الذهبيّ لبشرية طال انقسامها وطال عذابها "بأسباب ووسائل "لا

---

[63] كتاب [مجموعة من ألواح...] لوح الاشراقات – ص5

[64] ورد هذا القول في كتاب جاء اليوم الموعود *The Promised Day is Come* – لشوقي أفندي رباني، الطبعة الإنجليزية، ص119، مترجما عن الإنجليزية

[65] المرجع السابق ص117، مترجما عن الإنجليزية

[66] كتاب [منتخباتي...]، فقرة99، والأصل فارسيّ

[67] كتاب [مجموعة من ألواح...] الكلمات الفردوسية – الورق الثاني – الألواح ص 81

[68] كتاب [منتخباتي...]، فقرة4 ، والأصل فارسيّ

[69] انجيل متى ح9: آية17

يهيئها إلا الله سبحانه".[70] والعلاج الذي أعطاه الله للبشرية على يد بهاء الله، وهو تعاليمه ووصاياه وروحه المحيية للعالم، يؤثّر أولاً على أولئك الذين التفّوا حوله وآمنوا برسالته الجديدة المنعشة لروح العالم. أما تبديل العالم وشفاؤه من أسقامه بالكلمة الإلهية الجديدة فهو أمر يحتاج الى الوقت. فمقتضيات ظهور دين سماويّ جديد تذكّرنا بقول نيتشة المأثور "يلزمنا الوقت لكي نرى ونسمع البرق والرعد، وضوء النجوم، والأعمال، حتى وإن حدثت بالفعل".[71] فلابد من مرور الزمن لكي يلحظ الانسان قوّة تلك الرسالات وقدرتها على صياغة العالم في قالب جديد. ويصف لنا بهاء الله فيما يلي تلك القوة التي أحدثتها رسالته في العالم وصارت تؤثر فيه: "إن عالم الوجود حامل بجميع هذه العنايات المختلفة، ينتظر الساعة التي فيها تظهر آثار هذه العناية الغيبيّة في العوالم الترابيّة"[72] وكذلك يقول: "ترى الأرض اليوم حاملة وعما قريب تُشاهَد أثمارُها المنيعة وأشجارُها الباسقة وأورادُها المحبوبة ونعمائها الجَنيّة[73]... **قد هبّت لواقِحُ الفضل على الأشياء وحَمَلَ كلُّ شيء على ما هو عليه"**[74].

كما كتب عبد البهاء ما يلي، في وصفٍ منه للتجديد المرتقب لهذا العالم: "عندما ارتفع النّداء الإلهيّ نَفَخ حياة جديدة في هيكل العالم وأفاض روحا بديعا على الخلائق أجمعين. ومن جرّاء ذلك اهتز العالم من الأعماق، وأُحيِيَتْ قلوبُ الناس ووجدانُهم. وعما قريب سوف تظهر آثار هذا التجديد، ويقوم الراقدون عن سُباتهم"[75] ويقول عبد البهاء أيضا: "وكل ما هو مكنون

---

[70] كتاب [جاء اليوم الموعود]، شوقي أفندي رباني، مرجع سابق، ص120، والمقتطفات الثلاث مترجمة عن الإنجليزية

[71] في كتابه 'الحكمة المفرحة *The Joyful Wisdom*' فقرة 125

[72] كتاب [الإيقان] ص49

[73] ورد هذا النص في كتاب [القرن البديع، شوقي أفندي، ص256 طبعة آذار 2002

[74] سورة الهيكل، من كتاب [نداء رب الجنود] ص 6 من الطبعة الإنجليزية، والأصل عربيّ.

[75] قول أورده شوقي أفندي في رسالة 'تفتّح المدنية العالمية *The Unforldment of World Civilization*' (التي ترجمت إلى العربية سابقا بعنوان 'الكشف عن المدنية الالهية')، ص16 من تلك الطبعة العربية، وهذا القول مترجم هنا عن الإنجليزية

في هويّة هذا الدور المقدس سوف يظهر شيئا فشيئا، لأنّ الآن هو وقت بداية الإنبات، وفجر ظهور الآيات البينات". [76]

وعندما يبدأ العالم في أخذ هذه المسألة (التي تنكرها العقول) مأخَذَ الجدّ، ويتبين له أن الله – الذي زعَم البعض أنّه مات – قد خاطب العالم على لسان بهاء الله، سيتضح عندئذ أن هذا هو أعظم حدث على مرّ العصور، عصر تحوّل في مجريات التاريخ، وعصر انفتاح الباب المؤدي الى ملكوت الله على الأرض الذي وعدنا به المسيح.

[76] قول أورده شوقي أفندي في رسالة 'النظام البديع لدورة حضرة بهاء الله *The Dispensation of Baha'u'llah*' شوقي أفندي، ص111 من الطبعة الإنجليزية، وهذا القول مترجم هنا عن الإنجليزية

الفصل الخامس

الوحي الإلهيّ على مرّ العصور

الذات الإلهية

يرى البهائيون أن العالم أعظم بكثير من مجرد كونه عملاً ناتجاً عن الصدفة أو بفعل تضافر مجموعة من القوى الهائمة، ويوقنون بأن الانسان ليس مجرد 'ضربة حظ' صادفتها الطبيعة، وأن لحياتنا معنىً وهدفاً، وأن هناك حقيقة أخرى تكمن فيما وراء كيان عالمنا الماديّ – حقيقة تسمو على هذا الخلق الوجوديّ.

فالله عند البهائيين هو الهُويّة المُطلقة، العلّة الأوّلية والغاية الأُخْرَويّة، ولا يمكن أن يكون مجرّد 'فكرة' (كما اعتقد كانط)، أو 'قصة خيالية نافعة' (كما يقول فايهنجر Vaihinger). فهم يؤمنون بخالق قدير 'للسموات 'و 'الأرض'، خَلَقَ الإنسان على صورته ومثاله. ويعتقدون في فاعل، وليس مفعول، عن كل ما في الوجود – إلهٌ واحد قائم بذاته بالكيفية التي عبّر عنها بهاء الله في إحدى صلواته - إذ يقول: **"سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ يا إلهِيْ أَنْتَ الَّذِيْ كنْتَ إلهاً وَ لا مَألُوهٌ وَ ربّاً وَ لا مَرْبُوبٌ، وَ عَالِماً وَ لا مَعْلُومٌ، أَحْبَبْتَ أَنْ تُعْرَفَ تَكلَّمْتَ بِكلِمَةٍ بِها خُلِقَتِ المُمْكناتُ وَذُوِّتَتِ المَوْجُوداتُ، لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ الخالِقُ الباعِثُ المُقْتَدِرُ القَدِيرُ."**[77] ويقول أيضاً في آية أخرى تشهد على قدرة الله الغالبة: **"لا يَمْنَعُ قُدْرَتَك مَنْ عَلَى الأَرْضِ كلّها وَ لا يَرُدُّ مَشِيَّتَك مَنْ فِيْ مَلَكوتِ الأَسْمآءِ"**[78]

وكلمة 'الله' في البهائية ترمز أيضا إلى العلّة الأوّلية والسبب الحقيقيّ للخليقة. وتشير إلى تلك الحقيقة الكائنة فيما وراء الكون والتي تحكم وتدبّر الكون الذي ندركه ونعيش فيه. ويفطن البهائيّ تماماً إلى حقيقة أن مفهوم الألوهية والدين وتعاليمه غالباً ما استخدمت لأغراض دانية دنيئة، وأنه لطالما أسيء استخدامها لتبرير فوارق اجتماعية واقتصادية قائمة كانت تعدُّ من المقدّسات بوصفها قسمة طبيعية أرادها الله. والبهائيّ مدرك أيضاً لحقيقة أن هناك من يعتبرون أن أمور الدنيا سراب عابر تافه – كما هو

---

[77] كتاب [مناجاة، مجموعة أذكار وأدعية من آثار حضرة بهاء الله] - الدعاء رقم 4

[78] المرجع السابق - الدعاء رقم 13

الحال في الإعتقاد المسيحيّ التقليديّ على وجه الخصوص – ولا يخفى عليه كذلك أن واجب تدبير شئون العالم قد أُهمل بحجّة أن هناك أمراً واحداً أهم من ذلك، وهو خلاص الروح واحتياجها لأن تبْرأ من الخطيئة.

وتقييم ظاهرة بلغت مرحلة التدهور والانحطاط هو إجحاف لا يؤول إلّا إلى الاستنتاج الخاطئ،[79] فهناك من يتجوّلون في تاريخ المسيحية ممسكين بسلّة قمامة يجمعون فيها ما تراكم هنا وهناك من قمامة مثل التعميد بالإكراه، وممارسة الطقس المسمى بالــ *auto-da-fé*،[§] أضف إلى ذلك الحروب الصليبية، واضطهاد اليهود، واصطياد السحرة، ومذبحة ليلة القديس بارثلوميو*، ثم إتْباع الكنائس لهذه المذبحة بصلاة شكر أنشدت فيها الترنيمة المسمّاة *Te Deum*،[β] وما إلى ذلك من الممارسات التي حدثت بالفعل ولطّخت تاريخ الدين المسيحيّ. أو كما صرح لنا أحد مشاهير علم اللاهوت (المسيحي) ذات مرة: "ما المسيحية إلا عشرين قرناً من الأخطاء"!

ولا ينظر البهائيون إلى هذه المسألة بنفس تلك النظرة غير العادلة. فلا يمكن وَصْم المسيحية بأنها سجلّ كئيب من الأعمال الوحشية، فحقيقة الأمر تختلف عن ذلك كثيراً، إذ أن المسيحية قد نوّرت ملايين عديدة من البشر، وأعطت لحياتهم هدفاً ومعنى ودعامة. ولا يمكن أن تغطّي الأعمال الشنيعة التي ارتكبها المتعصّبون المضلّلون على الخدمات العديدة للحركات الخيرية المسيحية والتي لم يسجلها مؤرخٌ حتى الآن، أو المجهودات المتفانية المخلصة الرحيمة التي بُذلت باسم المسيح، أو الحضارة الباهرة التي تولّدت عن هذا الدين. وتاريخ الأديان يوضح بكل جلاء أن الأديان – بما فيها المسيحية – لم تندّد فقط بالأوضاع الاجتماعية السائدة من تسلّط للنبلاء

---

[79] يمكن القول بأن هذا ينطبق ايضا على الهجوم الموتور الذي شنه تيلمان موزر Tilman Moser على الاعتقاد بالله في مؤلفه 'السّمّ الإلهيّ *Gottesvergiftung*' طبعة فرانكفورت عام 1976، وفيه يرسم صورة ممسوخة للدين نسجتها أفكاره التي يغلب عليها التشنّج والكراهية نحو الله، فإذا به ينبري لمحاربة صورة رسمها هو في خياله.

[§] أي 'الطقس الإيمانيّ' الذي كان يرغم فيه من كانت تحكم عليهم محاكم التفتيش بالإعدام حرقا على أن يعلنوا خطأهم وتوبتهم الجماعية، ثم كان لا يُعفى عنهم بل ينفذ فيهم حكم الحرق بعد هذا الاعتراف. [المترجم]

* وهي المجزرة التي ذُبِح فيها آلاف من البروتستانت يوم 23 أغسطس عام 1572 في فرنسا، وهم الذين كانوا يعرفون بالهوجوينو Huguenot. [المترجم]

[β] وتم ذلك بأمر من بابا الكاثوليك ابتهاجا بتطهير فرنسا من هؤلاء الزنادقة. [المترجم]

وأصحاب المال، بل أثارت بطبيعتها وجوهرها الحماس الثوريّ للتجديد والتبديل. ففي إشارة من دانييل بيل Daniel Bell، إلى أقوال ماكس ويبر Max Weber، أكد على أن الدّين "أحياناً ما يكون هو أشد الحركات ثوريّة في منعطفات التاريخ الحاسمة. وعندما تتجمد التقاليد والمؤسسات وتتسلّط، أو عندما يضيق الناس ذرعاً بتناحر الآراء وصخب المعتقدات المتضاربة، يبحث البشر عن حلول جديدة... وفي ظروف كهذه نتطلع إلى ظهور الرّسل، ونترقّب رسالة إلهية جديدة تحطم النظام التقليديّ السائد عندما يخلو من أيّ معنى، رسالة تخلق نظاماً جديداً حينما تتضارب المفاهيم وتكثُر."[80]

وإساءة استخدام أيّ شيء لا تؤخذ دليلاً ضد الشيء نفسه، أي أن تشويه مفهومَيْ 'الألوهية' و'الدين'، وتحريفهما لا ينتقص ممّا نطلق عليه لفظ الجلالة: تلك 'القوة الواحدة المهيمنة على كافة الأشياء'.[81] فالله غيب منيع منزَّه عن إدراك العقول والأفهام، وبالتالي لا يمكن الاستدلال بالإيمان به باستخدام البراهين العقلية،[82] لأن المفاهيم الجوهرية لما وراء الطبيعة كالله وحرية الإرادة والخلود[83] ليست محلاً للاستنباط والبحث العقلانيّ – وهو أمر عرفناه جيداً من أيام كانط. ووجود أمر غيبيّ من عدمه هما أمران يستعصيان على الوسائل الفكرية. وبالقياس فان كل الاجتهادات العقلية في مسألة ماهيّة الذات الإلهيّة كالحلول[84] والتثليث كما هو الحال مع اللاهوت المسيحي، لا طائل منها ولا مآل لها سوى الفشل. ويصرّح بهاء الله عن غيبية الله المنيعة المطلقة قائلاً: "إنّ عرفان العُرَفاء وبلوغ البُلَغاء ووصف الفُصحاء راجعٌ ويَرجعُ إلى خلقه. فقد انصعق مائة ألف 'موسى' في طور الطَّلَب 'لنْ تراني' واضطرب مائة الف روح القدُس في سماء القرب من

---

[80] المتناقضات الحضارية في الرأسمالية *The Cultural Contradictions of Capitalism* - ص 169

[81] عبد البهاء – 'ترويج السلام العالميّ *The Promulgation of Universal Peace*'، الطبعة الإنجليزية ص 286، مترجما عن الإنجليزية

[82] وعلى النقيض الآخر أيضا لا يمكن البرهنة على الالحاد بالأدلة العقلية. وعلى أيّة حال فإن إثبات عدم الشيء أصعب من إثبات وجوده. فلا يبقى اذن لمن ينكر وجود الله سوى أن يتخذ موقف 'اللاأدرية agnosticism' الذي يعتبر مسألة وجود الله أو عدمه من المعضلات التي لا جواب لها.

[83] إيمانويل كانط في كتابه 'نقد العقل الخالص (أو نقد العقل المحض) *Critique of Pure Reason*' المقدمة، الجزء الثالث

[84] يقول بهاء الله "**قل إن الغيب لم يكن له من هيكل ليظهر به، إنه لم يزل كان مقدساً عما يُذكر ويُبصر.** "، كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 20

إصغاء كلمة ‘لن تعرفَني’. إنّه كان ولم يزل بعلوّ التقديس والتنزيه موجوداً في مكمن ذاته المقدَّس بكلّ تقديس وتنزيه ولا يزال وسيظلّ بسموِّ التّمنيع والتّرفيع موجوداً في مخزن كينونته. ان المُتَعارجين لسماء قُرْب عِرْفانه لم يصلوا سوى لمَنْزل الحيرة، والقاصدين لحَرَم قُرْبه ووصاله لم تطأ اقدامهم سِوَى في وادي العَجْز والحَسْرة."[85]

فالله هو السرّ المستسرّ[86] الذي يستعصي على عقولنا وأذهاننا وعرفاننا، ويسمو على إدراكاتنا العقلية. وعلى الإنسان أن يجد طريقه إلى الله دون الاستعانة بالبراهين العقلية، فالحاسّة الوحيدة القادرة على تبينه هي القلب الذي هو- كما يقول بهاء الله "هو مقّر استواء الرحمن وعرش لتجلي السبحان" [87] فالقلب "هو محلّ للظهور الربانيّ ومَقرّ للتجلي الرحماني".[88] ويستشهد بهاء الله بالحديث القدسيّ "لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن"، ويضيف أن القلب الغافل "اثناء الغفله يكون بعيداً عن الحق"[89] والآية القرآنية "وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ"[90] تعني أيضاً ذلك القلب الذي هو "غافل عن ذكر الله ومشغول بذكر غيره. إنه محجوب عن الحق ومتوّجه إلى الدنيا وآلائها."[91] وإلى ذلك أيضاً يشير بهاء الله بقوله "لاحظ أيضاً أن الانسان كثيراً ما يكون غافلاً عن نفسه ولكن إحاطة الحق العالِمة لازالت محيطةً، واشراق تجلي شمس المُجلّي ظاهر ومشهود، ولهذا فهو بالطّبع كان وسيكون الأقرب"[92] وإذا ما نادينا الله في

---

[85] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 26، راجع أيضا المقتطف رقم 148 منه

[86] "الإنسانُ سرّي وأنا سرُّهُ" حديث قدسيّ للرسول الكريم أورده بهاء الله في المرجع السابق – المقتطف رقم 90

[87] المرجع السابق– المقتطف رقم 93. وللاطلاع الوافي في مسألة إثبات وجود الله راجع ترجمة لوح عبد البهاء إلى الدكتور فورال، في كتاب [خطب عبد البهاء في أوروبا وأمريكا] ص11 وما بعدها

[88] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 93. وعن المعنى نفسه يقول بولس الرسول إن الإنسان هو ‘هيكل الله’ الذي تجلى فيه ‘روح الله’ (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ح3: 16)، كما يقول القديس أوجستين إن الله هو ‘الباطن أكثر من باطني *interior intimo meo*’ – في كتابه ‘الاعترافات *Confessions*’ - الفصل الثالث – فقرة 6

[89] بهاء الله – كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 93

[90] سورة ق: 16

[91] بهاء الله كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 93

[92] المرجع السابق، المقتطف رقم 93

صلاتنا **"فهُوَ بالإجابةِ جديرٌ"**،[93] وينطبق هنا دعاؤنا القائل: **"لا تخيِّبُ من سألَكَ ولا تمنعُ من أرادَكَ"**[94].

ولا يُدرك الإنسانُ عن الله سوى صفاته، أما ذاته فإنها تظل دائماً أبداً خافيةً عن البَشر كما يعلِّمنا بهاء الله (إذ يستشهد بقول الإمام عليّ بن أبي طالب) "السبيلُ مسدودٌ والطلبُ مردودٌ"[95] فالله إذن هو 'الباطنُ'[96] و'الظاهرُ' إذ أنه يُظهر نفسه لعباده من خلال وَحْيه وتنزيله كما يشهد على ذلك تاريخ الرّسالات السماويّه.

المظهر الإلهيّ

لا يؤمن البهائيون بإله لا تربطه بالعالم أو بالتاريخ صلة، إله (كما يقول الكثيرون غيرهم) قد خَلَق العالم ثم تركه للصّدفة. وإنما يؤمنون بإله كانت له يدٌ فاعلة في التاريخ، يدٌ ترعى هذا العالم. فخالق البشرية ربُّ التاريخ يُظهر ذاته في رسالاته، وبها أبرَم عهدَه مع الإنسانية. ومن الأوّل الذي لا أوّل له أعلن إرادته لشعوب العالم وأعطاهم هدايته على لسان من اصطفاهم من الأنبياء والرسل. "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ"[97]. وبذلك قَضى الله بأن "عرفان هذه النفوس المقدسة هو عرفان ذاته"[98]. ولا يتحقق عرفان الله إلا بعرفان المظهَر الإلهي[99]. ويصرح بهاء الله بكل وضوح وجلاء أن معرفة الله دون التصديق بالمظهَر

---

93 بهاء الله – كتاب [مناجاة]، الدعاء رقم 154

94 بهاء الله – كتاب [مناجاة]، الدعاء رقم 156

95 كتاب الإيقان، ص 111

96 "هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " - سورة الحديد: 3. ومفهوم الإله الذي لا تراه الأعين موجود أيضاً في اليهودية والمسيحية، إذ يقول أشعياء النبيّ "أنت الإلهُ المستورُ؟ " أشعياء 45: 15

97 القرآن - سورة النمل: 36. و'الطاغوت' هو اسم صنم من الأصنام التي كانت تعبدها عرب قريش في الجاهلية

98 بهاء الله كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 21

99 لقب 'نبيّ' استخدم في التوراة والانجيل للإشارة إلى كافة الأنبياء والرسل على حدّ سواء. ولكن القرآن يختص كل من جاء برسالات سماوية مثل موسى وعيسى ومحمد بلقب 'رسول'، ومن بعث في ظل شريعة أيّ من هؤلاء الرسل دون أن يأتي برسالة أشار إليه القرآن بلقب 'نبيّ'. أما بهاء الله فيشير إلى من بُعث برسالة من عند الله بلقب 'المظهر الإلهي'

الإلهيّ الذي يرسله، كما يعتقد خطأً أتباع فكرة وحدة الوجود، هو أمر مستحيل. **"إن الغيب يُعرف بنفس الظهور والظهور بكينونته لبرهان الأعظم بين الأمم... "**[100] وكل واحد من هؤلاء المظاهر الإلهية "يقوم مقام الحق"[101] وهم "الجواهر المجرّدة" وهم "الحكماء"[102] "و "وسائط الفيض الكليّة"[103] و"شموسٌ مشرقةٌ من أفق الأحديُة"[104] و **"كلمات الله"**[105] وهم كذلك الواسطة بين الحقّ (أي الله) والخلق (أي البشر). "وهذه المرايا القُدسية ومطالع الهُوية تحكي بتمامها عن شمس الوجود وجوهر المقصود. فمثلاً عِلمُهم من عِلْمه، وقدرتهم من قدرته، وسلطنتهم من سلطنته، وجمالهم من جماله، وظهورهم من ظهوره، وهم مخازن العلوم الربانية، ومواقع الحكمة الصمدانية، ومظاهر الفيض اللّامتناهي"[106] وكما أن نور الشمس يخطف البصر إن صادفته العين بتمامه فلا تستطيع التحديق فيه، كذلك لا يستطيع الإنسان أن يشْخَص بنظره في نور الله مباشرة. وإنما يحتمله عندما ينعكس في 'مرايا' المظاهر الإلهية. ويدرك الإنسان لقاء الله من هذه المظاهر الإلهية: **"من عَرَفهم فقد عرف الله ومن سَمِع كلماتهم فقد سمع كلمات الله ومن أقرَّ بهم فقد أقرَّ بالله، ومن أعرض عنهم فقد أعرض عن الله، ومن كفر بهم فقد كفر بالله، وهم صراط الله بين السموات والارض وميزان الله في ملكوت الأمر والخلق".** [107]

ولقد بُعث رسل الله كافةً إلى الناس "من أجل حفظ واتحاد واتفاق ومحبة وألفة العالم"[108] ولكي تحمل البشرية 'حضارةً دائمة التقدّم'.[109] والرسالات السماوية – أي سِجِلّ الخلاص الدينيّ – هي القوة الدافعة لتاريخ البشرية. أما المقصد الذي يرمي اليه تاريخ الأديان، بل الدين نفسه، فهو

---

[100] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 20

[101] المرجع السابق - المقتطف رقم 28

[102] المرجع السابق - المقتطف رقم 81

[103] المرجع السابق - المقتطف رقم 27

[104] المرجع السابق - المقتطف رقم 21

[105] المرجع السابق - المقتطف رقم 21

[106] المرجع السابق - المقتطف رقم 19

[107] المرجع السابق - المقتطف رقم 21

[108] المرجع السابق - المقتطف رقم 110

[109] بيت العدل الأعظم – رسالة [السلام العالميّ وعدٌ حقٌ]، ص 26

ينطوي على غرضين رئيسيين: أولهما تربية البشر تربية إلهية،[110] وذلك لتحقيق إثراء مطّرد لملكات الإنسان العقلية والروحية والفكرية الكامنة فيه، وتحويله إلى كائن روحي وفق خطة الخليقة، وثانيهما ترتيب نظام عالمنا وفقاً للمشيئة الإلهية، وخلق حضارة دائمة الرقيّ على هذا الكوكب، أو كما قال بهاء الله "إن إرادة الله من إرساله الرسل هما أمران: الأول نجاة الناس من ظُلُمات الجهل وارشادهم نحو نور المعرفة، والأمر الثاني من أجل راحة الناس ومعرفة الطريق والسبيل إلى ذلك."[111] فرسل الله ومؤسّسو دينه هم إذن الوسائط الضرورية بين الحقّ والخلق، مَثلهم مَثل المرايا الصافية التي تنعكس عليها مواهب الله وصفاته. فالله يتجلّى فيهم، ومن هذا المنظور يفهم البهائيون قول المسيح «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي... »،[112] وكذلك قوله «الَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ»،[113] و «أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ».[114]

وبينما تشير الكنيسة حتى يومنا الحاضر إلى هذه النصوص كدليل على استحواذ المسيحية دون سواها على الحقيقة المطلقة، وعلى إدانة كل ما هو غير مسيحيّ من الأديان فإن التشبيه الذي ساقه بهاء الله بأن الله لا يُعرف إلا من خلال مرآة رسوله[115] يفُكّ مغاليق كلمات المسيح هذه ويفسِّر معناها. فآيات الانجيل هذه تنكر أيّ علْم مباشر بالله وتؤكّد ضرورة وجود

---

[110] نشر من يُدعى جورتولد افرايم ليسينج Gotthold Ephraim Lessing في عام 1780 كتاباً بعنوان ‘تربية الجنس البشري *The Education of the Human Race*’ ضمّنه فكرة تعاقب الرسالات السماوية بناء على ما تعلمه على يد يواقيم فون فيوري Joachim von Fiore (راجع الفصل الرابع ‘الله حيّ لا يموت’، حاشية رقم 42) كان ينتظر عصراً جديداً تستبدل فيه التوراة والاناجيل بما أسماه ‘الانجيل الدائم’ طبقا لنبوءة يوحنا في سفر الرؤيا (الاصحاح الرابع عشر الآية 6) – عصر تسوده العقلانية وتحقيق الانسان لذاته، وبالتالي تحقيق الرسالة المسيحية لذاتها (راجع كتاب كارل لويث Karl Löwith، ‘معنى التاريخ *Meaning in History*’، ص 208، غير أن الكتاب ينتهي بابتكار نظرية ‘تقمص الأرواح transmigration of souls’ وهي فكرة لا يشاركه البهائيون فيها - أنظر الفصل الحادي عشر ‘‘مسئولية الإنسان"، بند ‘الحياة الدنيا بوصفها استعداد للحياة الأخرى’.

[111] بهاء الله كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 34

[112] انجيل يوحنا 14: 6

[113] انجيل يوحنا 14: 9

[114] انجيل يوحنا 10: 30

[115] راجع كتاب [الإيقان] ص 75 وما بعدها

وسيط. والقول بأنه لا أحد يأتي 'إلى الله' إلا عن طريق يسوع هذه حقيقة يقبلها البهائيّ من كلّ قلبه، لأن كل من أعرض عن أحد الرسل – كما يقول بهاء الله – فقد أنكرهم جميعاً، وكذلك يقول: **"ومن فرّق بينهم وبين كلماتهم وما نُزّل عليهم أو في أحوالهم وأفعالهم في أقل ممّا يُحصَى لقد أشرك بالله وآياته وبرسله."**[116]

وَحدانية المظاهر الإلهيّة

بهذا يكون إيمان البهائيين مبنيّاً على التّوحيد الكامل وعلى قاعدتين أساسيتين. وأولى هاتين القاعدتين أنه ليس هناك أيّ فرق جوهريّ بين هذه الرسل الإلهية، وهي قاعدة موجودة من قبل إذ يعلن القرآن الكريم "قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ موسى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ"[117] "وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ"[118] ويؤكد بهاء الله على ذلك بقوله **"لا نُفرّق بين أحدٍ من رُسُله"**[119] فإبراهيم وموسى وكريشنا وبوذا وزرادشت والمسيح ومحمّد قد جاءوا جميعاً برسالة واحدة وهي "سطوع نور المحبة والحقيقة في العالم الظُّلُماني"[120] من أجل تنوير البشر، وإحياء قلوب الناس وتربيتهم على التقوى، ومن أجل اتّصافهم بالحِلم والأمانة والرحمة والإخاء والمحبة والإنصاف والتسليم لإرادة الله. وهم 'الهياكل القدسية ' و'المرايا الأولية الأزلية' التي تحكي عن غيب الغيوب وعن كل أسمائه وصفاته من علم وقدرة وسلطان وعظمة ورحمة وحكمة وعزّة وجود وكرم"، وأن جميع أنبياء الله "موصوفون بهذه الصفات وموسومون بتلك الأسماء. نهاية الأمر أن بعضهم يظهر في بعض المراتب أشد ظهوراً وأعظم نوراً"، [121] ونجد في القرآن ما يماثل هذا إذ يقول "تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ".[122]

---

[116] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 24

[117] سورة البقرة: 136

[118] سورة القمر: 50

[119] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 34

[120] عبد البهاء، كتاب [أحاديث باريس *Paris Talks*] الطبعة الانجليزية، الفصل 52، ص 171، مترجما

[121] بهاء الله - كتاب [الإيقان] ص 79 - 80

[122] سورة البقرة: 253

وثانيةُ هاتين القاعدتين هو القوْل (وهو بلا شك قولٌ مستفزٌّ لإنسان اليوم المعاصر سواء كان متمسّكا بدين يؤمن به أو لا يؤمن أصلا بالله)، بأن الله، في الوقت الذي صارت فيه كل الأديان محلّ التشكيك، قد أوفى اليوم بوعده، وكلّم البشر مرة أخرى على لسان بهاء الله.

المظهر الإلهيّ بوصفه الدّاعي إلى 'شَيْءٍ نُكُرٍ'

إن مجرّد الدعوه برسالة سماوية جديدة هو محل استهجان من الإنسان المعاصر تماماً مثلما صدّت الناس بشارة الملكوت ورفضتها فيما سلف من العصور، إذ كانت 'حَجَرَ عثْرةٍ' لمن كان حافظاً لدينه و'جَهَالـةً'[123] لمن لا دين له. فالآراء تتضارب اليوم وتتباين بشأن هذا الادعاء تماما كما كانت زمان ظهور رُسُل القَبْل. إذ خرج كلّ مؤسسي أديان العالم العظمى عن المألوف في كل ما جاءوا به من تعاليم، وجميعهم كسروا قارورة الرّسوم والتّقاليد التي كان لابد من تحطيمها لحماية البقية الباقية من الإيمان، وتجديد الأديان بكيفية خلّاقة لتفي بحاجات العصر ومتطلباته. إلا أن هذا الانفصال عن القديم دائماً ما كان يحدث رغماً عن إرادة معظم البشر. فلم يقع أيّ من رسل الله موقع استحسان البشر وترحيبهم. ويطالعُنا العديد من الأمثلة، في طول تاريخ الأديان وعرضه، بما يدلّ على أنه عندما كان يلمع في الظلام 'نور الحق الذي به يستنير كل إنسان'[124] كانت الناس تفضّل الظلام على النور،[125] وكلما أتى رسول إلى العالم أنكره العالم، وعندما كان يأتي لخاصّته لم تكن خاصّته تقبله[126] ولم يظهر رسولٌ إلهيّ دون أن يَلْقى من الناس الرّفض والاستهزاء والمقاومة والثورة الغوغائية والنّقمة.[127] ويزخر القرآن بالتنديد من قساوة قلب البشر تجاه الرسل. "يَا حَسْرَةً على الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ"،[128] ... "وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ

---

[123] راجع رسالة بطرس الرسول الأولى إلى أهل كورنثه الاصحاح الأول آية 23 وما بعدها

[124] انجيل يوحنا 1: 9

[125] انجيل يوحنا 3: 19

[126] انجيل يوحنا 1: 10-12

[127] عبّر رائد البروتستانتية مارتن لوثر عن هذه الحقيقة تعبيرا صحيحاً عندما قال "لو مشى المسيح فيما بيننا مرة أخرى بجسده العنصريّ وخطب فينا، لصلبه الناس ثانية". من كتاب أحاديث المائدة – المجلد الرابع ص 4387

[128] سورة يس: 30

بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ"،[129] ... "أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ"،[130] ... "لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ".[131]

ولقد كان من نصيب كلّ من 'الباب'، وبهاء الله أن يتجرّعا من كأس الاضطهاد والألم عندما جاءا برسالة الحق إلى الناس، ولكن الناس كما حدث في العصور السابقة "يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ".[132] ويصف بهاء الله هذه الحقيقة بقوله "ودَعَوْنا أهلَ الأرض بكل اقتدار إلى الأفق الاعلى عندما كانت البلايا والرزايا محيطة من كل الجهات"،[133] ويقول أيضا **"قل إن البلاء أفق لهذا الأمر"،**[134] وأيضا **"قد جَعَلنا الذلّة قميصَ العزّة والبليّة طرازاً لهيكلك يا فخر العالمين"**[135]**... "قَدْ جَعَلَ اللهُ البَلاءَ غَادِيَةً لِهذِهِ الدَّسْكَرَةِ الخَضْراءِ وَذُبالَةً لِمِصْباحِهِ الَّذِي بِهِ أَشْرَقَتِ الأَرْضُ وَالسَّماءُ"**[136]

ويقول بهاء الله ما يلي في كتاب الإيقان واصفاً الإنكار والإعراض الذي دائما ما تلاقيه الدعوة الجديدة على أيدي الناس: "وعندما كانت تنفتح أبواب العناية، ويرتفع غمام المكرُمة، وتظهر شمسُ الغيب عن أفق القدرة، يقوم الجميع على تكذيبها وإنكارها ويحترزون عن لقائها الّذي هو عين لقاء الله".[137] ويذكر في الكتاب نفسه أن علماء الدين ملومون عن ذلك لأنهم يصدّون الناس عن سبيل الله: "إنَّ علماء العصر في كلِّ الأزمان كانوا سببًا لصدِّ العباد، ومنْعهم عن شاطئ بحر الأحديّة، لأنَّ زِمام هؤلاء العباد كان

---

[129] سورة غافر: 5

[130] سورة البقرة: 87

[131] سورة الأعراف: 179

[132] سورة البقرة: 19

[133] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 164

[134] المرجع السابق - المقتطف رقم17

[135] لوح 'قد احترق المخلصون'– مجموعة [أدعية حضرت محبوب]، طبع مصر 1339هـ، ص 177

[136] من كتاب [ألواح حضرة بهاء الله إلى الملوك والرؤساء]، اللوح إلى ناصر الدين شاه، ص 35. (و "غادية" معناها السّحابة الممطرة، و"الدّسكرة" هي القرية العظيمة، والمقصود بها هنا هو مجتمع المؤمنين بالدين الجديد، و "ذُبالة" هي فتيل المصباح [المترجم])

[137] الإيقان ص 4

في قبضة قدرتهم. فكان بعضهم يمنع النَّاس حبًّا للرّياسة، والبعض الآخر يمنعهم لعدم العلم والمعرفة. كما أنّه بإذن علماء العصر وفتاويهم قد شرب جميع الأنبياء سلسبيل الشّهادة، وطاروا إلى أعلى أفق العزَّة".[138]

إن دعوى بهاء الله بأنه الرسول الذي بعثه الله إلى العباد في هذا العصر لهي دعوة موجهة إلى عقل ووجدان من لا يزال متمسكاً بعقيدته من أهل الأديان، بمثل ما هي موجهة أيضا إلى من اعتنق الفكر اللادينيّ الحديث. وطبيعيّ أن تصادف هذه الدعوى اعتراضاً بديهيا مفاده أن بوسع كل امرئ أن يدّعي أمراً مماثلاً، فأنّى للمتدين أو المتحرر أن يستبين الحق من الباطل وسط هذا الصخب المزعج من الدعاوى المشابهة؟

---

[138] كتاب [الإيقان] ص 13


ماهوالحق

عن هذا الغلاف

تفضل الفنان الكبير الراحل الأستاذ حسين بيكار بإهداء هذا التصميم ليكون غلافا للفصل السادس، عندما نشر هذا الفصل على هيئة كتيب مستقل يعين الباحث عن الحقيقة لتخطي العقبات التي قد تصادفه في بحثه. ولقد نُشر هذا الفصل بتلك الكيفية على الإنترنت في موقع المؤلف([*]). وعلى الرّغم من بساطة هذا التصميم إلا أنه زاخر بالرمزية العميقة التي تميّزت بها أعمال ذلك الفنان العظيم، فعلامة الاستفهام قد جعل من نقطتها شمساً ترمز إلى الحقيقة التي ينشدها الباحث الصادق، وجعل من نقطتي قاف الحق عينان تحدّقان في حيرة وسط ظلام التقاليد والأوهام التي تحيط بعالمنا الأدنى (المظلم) نحو سماء الحق المنيرة التي تشرق منها تلك الشمس.

([*]) رابط تحميل الفصل السادس من موقع المؤلف هو

http://www. udoschaefer. com/fileadmin/pdffiles/U_Schaefer_-_The_Imperishable_Dominion_What_is_Truth_-_AR. pdf

الفصل السادس

ما هو الحق؟

'مع أنّه كالشمس أشرق ساطعاً.:.قد جاء، وا أسفاه، مدينة العميان'[1]

أجل – 'مَا هُوَ الْحَقُّ؟ '[2]- سؤال وجهه 'بيلاطس البنطيّ'[§] إلى المسيح، وهو سؤال يلحّ علينا كلّما صادفنا ادّعاء بالحق، فمن المحتّم على الإنسان في كل العصور أن يقرر موقفه من رسالة السماء، إما بالرفض أو بالقبول أو بالتجاهل. وتُجمع كل الرسالات السماوية على أن الإيمان هو جوهر الإخلاص،[3] أما القرآن الكريم فإنه يشبّة المُمعنين في الكفر بأموات القبور: "وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (*) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (*) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (*) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ"[4]

---

[1] بيت مُعرّب عن ديوان 'مثنوي' لجلال الدين الرومي، وهو من ألمع فلاسفة الصوفية وأرق شعرائها، وشيخ الطريقة المولوية، ولد عام 1207م وتوفي عام 1273م. رقم 4

[2] انجيل يوحنا ح 18آية 38

[§] بيلاطس البنطي: الوالي الروماني على ولاية اليهودية وفلسطين خلال المدة من عام26إلي عام 36م. وقد حكم بموت المسيح رضوخاً لمطلب الشعب اليهودي رغم اقتناعه الشخصي ببراءته.

[3] انجيل مرقس ح 16 آية 16، انجيل يوحنا ح 3 الآيتين 17 و18، انجيل لوقا ح 12، انجيل متّى ح 10 آية 32، والقرآن الكريم سورة الحديد آية 7، سورة الفتح آية 28.

[4] سورة فاطر الآيات من 19 الى 22، وهو تشبيه ورد أيضا في سورة الأنعام الآية 122، وفي انجيل متّى (ح 8 أية 22) إذ قال المسيح لتلميذ كان يستأذنه في الانصراف لحضور جنازة أبيه غير المؤمن "اتبعني ودع الموتى يدفنون موتاهم". كما يقول بهاء الله :"**طوبى لبصير شهد ورأى، ولسميع سمع نداءه الأحلى، وليد أخذت الكتاب بقوة ربها سلطان الآخرة والأولى، وويل لمن أنكر فضل الله وعطائه ورحمته وسلطانه، إنه ممن أنكر حجة الله وبرهانه في أزل الآزال**"(لوح التجليات، من كتاب [مجموعة من ألواح...]، ص 65-66)، كما يقول أيضا في 'لوح أحمد' :"**وإنك أنت أيقن في ذاتك بأن الذي أعرض عن هذا الجمال فقد أعرض عن الرسل من قبل، ثم استكبر على الله في أزل الآزال إلى أبد الآبدين"**. ويقول أيضا: "**لا يتحقق لقاء الله إلا بلقائه**" (لوح التجليات، المرجع السابق – ص 67). راجع بهاء الله في كتاب الإيقان (ص 92 وما بعدها) والشرح الوارد أيضاً في ذات المرجع ص 155 وما بعدها.

كثرة عروض الخلاص

دائما ما تكون استبانة الحق، عند بزوغ فجر كل رسالة سماوية، أمراً بالغ الصعوبة. ففي مثل تلك الفترة العاصفة بالتحديد يظهر كمّ هائل من عروض الخلاص يرْبك الباحث ويجعل من العسير عليه رؤية الصواب. وهناك أيضاً عوامل أخرى لا صلة لها بالبحث عن الحقيقة، وهي عوامل من شأنها التشويش على رؤية هذا الباحث. فمثلاً إذا كانت هناك طائفة لا يزال نفرها قليل، فإن المرء لا يتناولها عادة بنظرة جادّة،[5] في حين أن صِدْق المعتقد لا يتوقف على كثرة أتباعه أو قلة عددهم، كما لا تكون الشعبية معياراً يُستدل به على الحقيقة،[6] فالحقيقة هي الحقيقة، ولو لم يكن

---

[5] غالبا ما يطلق علي الطوائف الدينية الصغيرة لفظ 'نحلة' دونما اعتبار لما تراه كل طائفة عن نفسها، وبغير انتباه الي تراكيبها الاجتماعية والدينية. وفي بحر العشرين عاماً الماضية أظهر مشاهير المستشرقين من أمثال 'روزنكراتز' و 'فون جلاسيناب' و 'باوساني' وغيرهم أن البهائية ليست فرقة من الإسلام. أنظر أيضا كتاب 'النور يلمع في الظلام *The Light Shineth in Darkness*' للمؤلف، الطبعة الانجليزية (ص 55 وما بعدها، وما ورد فيها من مراجع). كما يصف المستشرق 'أليساندرو باوساني' في (الموسوعة الكاثوليكية *Encylopidia Cattolica*) الصادرة عن الفاتيكان البهائية بأنها 'دين جديد'، كما يصفها فاهمان في موسوعة للأديان نشرت باللغة الألمانية بأنها أحدث الأديان السماوية وصنفها ضمن الديانات العالمية. وعن هذا الموضوع بأكمله راجع للمؤلف كتاب 'البهائية: أهي مذهب أو دين؟ *The Baha'i Faith Sect or Religion?*'، الطبعة الانجليزية، للناشر رابطة الدراسات البهائية – أوتاوا، كندا، عام 1988.

[6] مرت بفرق 'المثرائية' و 'المرقيونية' و 'المانوية – أو طائفة الزنادقة' – أوقات كان لها فيها من الأتباع ما يفوق عدد أتباع الكنيسة المسيحية. (وعن هذه الفرق وغيرها مما كان سائدا في أوائل العصر المسيحي، يورد المترجم الإيجاز التالي نقلا عن عدة مصادر تاريخية معتمدة):

المذهب الاسكندراني:

هو الاسم الذي أطلقته العرب علي الفلسفة الأفلاطونية المتأخرة أو المحدّثة Neo-Platonism- وهي مزيج من أفكار فلاسفة اليونان مثل أفلاطون وأرسطو والفلسلفات الهندية، راجت في مدينة الاسكندرية بمصر، وإن كانت سائدة أيضاً في غيرها من مدن منطقة البحر الأبيض المتوسط، بدءً من القرن الثاني قبل الميلاد وحتى القرن الرابع الميلادي.

الفيلونية:

في العالم من يؤمن بها سوى فرد واحد. ورغما عن هذا يبقى الرأي القائل بأن 'كلّ ما هو صغير لا يعوّل عليه' سائدا في مضمار تحرّي حقيقة الأديان على وجه الخصوص. إلا أن نظرة عابرة إلى تاريخ الأديان تفصح عن أنه عندما ظهرت الأديان السماوية العظمى الى حيز الوجود لم يكن يلتف حولها سوى نفر قليل، أو 'قطيع صغير'[7] يكون بمثابة نقطة تبلور تتزايد شيئاً فشيئاً لتصبح في النهاية شعب الله العظيم، مَثَلها مَثَل البذرة التي تنمو لتصبح شجرة. وهذه ظاهرة تغيب عن عين الباحث إن هو تخيّل للحقيقة ظهوراً ناصعاً باتّاَ، أو بروزاً له من العظمة والهيمنة ما يُفحم العقول من الوهلة الأولى. كما قد يكون عند الباحث خشية من أن يجد نفسه وقد صار منتمياً إلى إحدى الأقليات، فترْمُقه الناس عندئذ بنظرة المخالف لرأي الجماعة، ثم ينتهي به المطاف الى التعرض إلى المضايقات، إن لم يكن إلى الاضطهاد. وهذا في حد ذاته سبب كافي لأن يُحجم الكثيرون حتى عن اتخاذ أول خطوة

نسبة إلي 'فيلون' (المولود 25 ق م، وتوفي 50 م) وهو يهودي سعى الى التوفيق بين الفلسفة اليونانية والأديان الشرقية عموماً، وهو أيضا أحد فلاسفة المذهب الاسكندراني ومن دعاته.

العرفانيون - أو 'الغنوصيون':

هم طبقة من المفكرين ذاع صيتهم منذ القرن الثاني للميلاد. لم يقدروا على البت في الأمور بآراء قطعية وسط الاضطراب السياسي والمنازعات الدينية والاجتماعية التي سادت جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية آنذاك. فقبلوا بالأحوال السائدة، وألّفوا مذاهب دينية واجتماعية وفلسفية جمعوا مقوماتها من العقائد المصرية والكنعانية و 'الهيلانية' (أي أفكار عصر انحطاط الفكر اليوناني في فترة ما بعد حملة الاسكندر المقدوني على الشرق) – وكذلك من اليهودية والمسيحية والزردشتية، وديانات الهند والصين ومن أشهر مذاهبهم ما يلي:

المرقيونية:

نسبة إلى مرقيون (المتوفي عام 160م)

المانوية:

نسبة إلي ماني (الزنديق) – المولود عام 216م وتوفي عام 276م – وكان يدعو الى مذهبه ببلاد فارس وقتل بتحريض من كهنة الزردشتية.

المثرائية:

نوع من عبادة النار المقدسة، انتقلت من فارس إلى روما في زمن الامبراطورية الأولى، وكان يرمز إلى 'مثرا' بشاب جميل يذبح ثورا، وشاع تصويره في الفن الروماني.

[7] إنجيل لوقا ح 12: آية 32.

على طريق التحري الجاد عن الدعوة الإلهية الجديدة، فتظل القدرة الخلاّقة الكامنة في زمرة أتباع دين الله والخاصية المحوِّلة المودعة في الكلمة الإلهية الجديدة خافية عن أعين الغالبية. ومع ذلك، فإنه بوصول عددية الأتباع إلى 'الكتلة الحرجة' – إن شئنا استعارة مصطلحات علماء الفيزياء النووية – يَبرُز إلى حيز الوجود تيار محدّد المعالم، وينقشع الضباب عن الأمر الإلهيّ ليظهر في دائرة الضوء، وعندئذ يتسارع معدل انتشاره بما لم يكن في الحسبان.

ولعلّ أوضح مثال على هذه الظاهرة هو تاريخ الدعوة المسيحية ذاتها، إذ أنه – حتى وقبل ميلاد المسيح، ثم في القرون الأولى التي تلته – كان هناك عدد كبير من الحركات والفرق الدينية، وكان بعضها يتبنى معاييرَ أخلاقيةً عالية ويتعامل بمستوى فكريّ لا يستهان به ويضم تحت لوائه جمهرة كبيرة وعريضة من المريدين. لذلك كان تنافس الادعاءات بالحق وتسابقها شديداً. ويحدّثنا شوقي أفندي – وليّ أمر الدين البهائيّ – عن "زخم النحل الرائجة والفلسفات المبتكرة المخادعة التي ازدهرت في القرون الافتتاحية للعصر المسيحى، وهي التي حاولت أن تمتصّ الدين الرسميّ للإمبراطورية الرومانية الغربية وتبدّله". كما يستطرد قائلا: "فلقد وجد أصحاب العبادات الوثنية، الذين كانوا يشكلون آنذاك الغالبية العظمى لشعب الإمبراطورية الرومانية الغربية، أنفسهم محاصرين بل ومهددين في بعض الحالات بمذهب الأفلاطونية المحدثة الذي كان منتشراً آنذاك، وبأتْباع الديانات العابدة للطبيعة، وبفلاسفة العارفية (الغنوصية)، وبالفيلونية، والمثرائية وأتباع المذهب السكندري، ولفيف من المذاهب والعقائد المتقاربة، كما هو الحاصل تقريباً بحماة المسيحية – ديانة الغالبية العظمى لعالم الغرب – وهم يفطنون، في القرن الأول من العصر البهائى، إلى الكيفية التي بها يتزعزع نفوذهم بفعل طوفان العقائد والممارسات والنزعات التي ساهم نفس إفلاسهم في خلقها."[8]

وكما يُلحّ على أذهان الناس في أيامنا هذه تساؤلهم عن مدى صدق دعوة بهاء الله وأحقيتها، كذلك كان حال أهل ذلك الزمان، إذ كان سؤالهم السائل آنذاك هو لماذا يكون يسوع المسيح على وجه اليقين هو 'الطَّرِيقُ

---

[8] كتاب 'تفتح المدنية العالمية *The Unfoldment of World Civilization*' – منقول بتصرّف عن الترجمة الواردة بالطبعة التي نشرت بعنوان [الكشف عن المدنية الإلهية] في يناير 1947م القاهرة ص 39 – 40.

وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ'[9] ولا يكون كغيره من مدّعي الخلاص. وها هو التاريخ وقد قال كلمته: فالإنجيل وحده هو الذي كانت لديه القوة الغالبة المحوّلة القادرة على خلق سلالة جديدة من البشر وإرساء دعائم حضارة فخيمة. أما علة ظهور هذه التشكيلة الى حد كبير – تلك التشكيلة التي ظهرت في ختام عصر ما قبل ميلاد المسيح – فهي تكمن الآن، كما كانت آنذاك، في ذبول العقائد الدينية المعاصرة وقصورها. ويُعلّق شوقي أفندي على هذه المسألة قائلاً: "ولقد أدّى بدوره هذا الوَهَن الملحوظ الذي ألمّ بقوة العناصر المكوّنة للمجتمع المسيحيّ وتماسكها، كما يحق لنا ان نتوقع، إلى ظهور عدد متزايد من النِّحَل الغامضة، وطقوس جديدة غريبة، وفلسفات عقيمة زادت أفكارها المعقدة من ارتباك عصر مضطرب. ومن الممكن أن يقال إنها شاهدة بمحض عقائدها وممارساتها على هيجان وتبرّم وتناقض تطلعات الجماهير المحبطة التي تخلّت عما تنادي به الكنائس المسيحية وانفصلت عن عضويتها."[10]

ويتوصل عالم الاجتماع دانييل بيل Daniel Bell إلى نفس الاستنتاج، إذ يقول: "حيثما تخفق الأديان تظهر البدع. وهذا الوضع هو عكس ما حدث في بداية العصر المسيحي، عندما تعامل الدين الجديد المتماسك مع البدع المتزاحمة فأزاحها جانباً، إذ كانت له الغلبة الظاهرة، بوصفه عقيدة مستنيرة ونظاماً محكماً. بيد أنه عندما يدب الانحلال في أوصال العقيدة ويتهاوى النظام، وعندما يشرع هيكل مؤسسات الدين في التفكّك، فإن سعْي الناس وراء معرفة وحكمة لا تأتيانهم من وساطة كهنوتية ويستشعرون فيها روح الدين هو ما يمهد السبيل لظهور البدع من جديد".[11]

---

[9] إنجيل يوحنا ح 14 آية 6.

[10] [الكشف عن المدنية الإلهية] مرجع سابق، منقول بتصرف، ص 38-39.

[11] كتاب 'المتناقضات الحضارية في الرأسمالية *The Cultural Contradictions of Capitalism*' – الطبعة الانجليزية ص 168 – ويثور تساؤل بطبيعة الحال عما إذا كانت البهائية إحدى تلك البدع أو النحل. غير أن البهائية بما لها من بنية دينية اجتماعية، وما لقيته من اعتراف صادر حتى عن منتقديها من العالم المسيحي (أمثال 'روزنكرانز Rosenkranz ' و 'هوتن Hutten') تنفي عن نفسها هذه الشبهة بكل وضوح وجلاء. كما أن الملامح التي حددها 'دانييل بيل' كخصائص مميزة للبدعة أو الفرقة لا يجدها المرء في الدين البهائي. أذ يقول في ذات المرجع ما يلي: "تختلف البدعة عن الدين المتعارف عليه في عديد من النواحي المميزة، فمن شأن البدعة أن تتبنّى بعض المعتقدات السرّية التي كانت مهملة في زوايا النسيان ردحاً من الزمان ثم أعيدت لها الحياة بين عشيّة وضحاها ... وفيها أيضا طقوس جماعية، وهي طقوس غالبا ما تسمح للفرد أو تدفعه للإفصاح عما لديه من نزوات سلوكيّة مبتكرة أو

وخليق بالمستقبل أن يبيّن لنا أيّ من دعاوى الحق هي التي تُساندها قدرة الله الغالبة. وإن البهائيين لواثقون من أنه، وخلال فترة نموّ دينهم وانتشاره، سيكون مبدأ 'الكتلة الحرجة' هو العامل المتحكم في السرعة التي سيقرّ بها العالم بصحّة هذه التعاليم الجديدة ويقبلها. ويقطع بهاء الله وعْداً بقوله: **"قل إذا جاء النصر كلٌّ يدّعون الإيمان ويدخلون في أمر الله. طوبى للذين هم استقاموا على الأمر في تلك الأيام التي فيها ظهرت الفتنة من كل الجهات".**[12]

الجديد: ذلك 'الصغير المختلف'

وهناك عامل آخر يجب أن يوضع في الاعتبار، فالبهائية حديثة العهد جدا اذا ما قورنت بغيرها من الديانات، فهي لا تبلغ من العمر سوى ما يقرب من مئة وتسعة وثلاثين عاما.[13] وهذه حقيقة قد يغفلها أولئك الذين لا يقرأون سوى الكتيبات التمهيدية التي عادة ما تغطّي فكرة مبسطة، لكنها لا تشمل جميع المواضيع والجوانب بطبيعة الحال. فالقارئ الذي لا يجد في

محرّمة. فمما يميّز البدعة إذا هو اعتمادها الضمني على الشعوذة بدلا من العقيدة الدينية الخالصة، والارتباط الشخصي بزعيم روحي أو بجماعة عوضا عن الارتباط بمؤسسة أو عقيدة. وتعطّش أتباع البدع هو التعطّش إلى الطقوس والخرافات". أ هـ. ومن الخصائص الواضحة للبدع أو المذاهب المتخفية في ثوب الدين هو قيام المنضمين حديثا الي تلك الطوائف الغامضة بقطع كل صلاتهم بالماضي. إذ أن أشدّ الشروط ضرراً – خلاف الممارسات التي لا تخرج عن كونها عملية غسيل للمخ – هو ضرورة التخلي عن الارتباط بالمنزل والأسرة والعمل والمعارف، ثم الولاء بدلا من ذلك لزعيم الطائفة الذي عادة ما يكون حياً يرزق. وما حدث في جويانا عام 1980 هو أصدق برهان على أنه كيف يمكن لأناس متعطشين إلى الإيمان أن يقعوا فريسة لهواة جمع المال ممن عدموا الضمائر، حيث أجبر قسيس يدعى ' جيم جونز' كان يتزعم طائفة غامضة اتخذت لنفسها اسم (معبد الشعب) – أتباعه، وهم قرابة الألف نفس، على الانتحار الجماعي.

[12] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 150 والأصل عربيّ

[13] وذلك عندما كتب الدكتور أودو شيفر هذا الكتاب عام 1980، وللبهائيين تقويمهم الخاص، ويعرف بالتقويم البديع، وهو يبدأ من الاعتدال الربيعي لعام 1844 ميلادية (1260 هجرية) – والسنة في هذا التقويم تتكون من 19 شهرا، والشهر من 19 يوما مضافا إلى ذلك أربعة أيام (في السنة البسيطة) أو خمسة (أيام في السنة الكبيسة) بوصفها أياما زائدة تبدأ بعد نهاية الشهر الثامن عشر.

هذه الكتيبات تلك الألمعيّة الفكرية[14] والهالة القدسية التي يجدها في الديانات السماوية التي تبوأت مكانتها على مرّ القرون، قد يميل الى التشكك في مكانة هذه الدعوة الوليدة من موكب تطور البشرية عبر العصور.

ويميل البهائيون في الوقت الحاضر إلى عدم إعطاء الأولوية بأيّ حال من الأحوال إلى خَلْق تراث فكريّ بهائي، وانما يركّزون على إعلان رسالة بهاء الله ونشر دعوته، وترجمة الهيكل الشخصي والاجتماعيّ الذي صوّرته الى حقيقة واقعة، وهذا بدوره يحتّم عليهم أن يجعلوا النصوص السماوية التي لديهم في متناول العامة.[15]

أما إعْمال الفكر البشريّ في التنزيل الإلهيّ، وشرح الرسالة السماوية وتقديمها للقارئ بأسلوب منطقيّ منظّم، يسوق الحجج بتسلسل منهجيّ، ويلقي الضوء على الظروف المبررة لمجريات أحداثها، فتلك مهمة دائماً ما تكون من نصيب الأجيال اللاحقة.[16]

وبالإضافة إلى هذا فإن ما يثير الغرابة لدى الباحث الغربيّ، الذي يتحرّى بشيء من التحفظ والشك أمر هذه الظاهرة الجديدة، التي تدّعي لنفسها أمراً لا يستهان به، هو في أغلب الأحوال تلك اللغة التي صيغت بها نصوصُها المقدسة. إذ تختلف لغة بهاء الله في أسلوبها وتعبيرها عما هو

[14] مع ملاحظة أن البهائية تخاطب الجنس البشريّ بأكمله وليس الصفوة المتعلّمة من الناس.

[15] إن مهمة ترجمة خضمّ الكتابات البهائية عن أصولها العربية والفارسية إلى الانجليزية، أو نقل الترجمات الانجليزية التي أنجزت إلى سائر لغات لعالم، هي في الحقيقة مهمة جبارة بمعنى الكلمة وتتطلب قدرا عظيما من الوقت والجهد.

[16] بالنسبة للدعوة المسيحية، بدأت هذه المؤلفات في الظهور في القرنين الثاني والثالث الميلادي (على أيدي كل من ‘تيرتوليان’ و ‘كليمينس السكندري’ و ‘اوريغين’ Origen) وبلغت بداية عصرها الذهبي بمساهمات القديس ‘أوغسطين’ في القرن الخامس، ووصلت الى ذروة الاتقان اللاهوتي على يد القديس ‘توماس الأقويني’ أعظم مفكري المسيحية وأغزرهم عملاً في العصور الوسطي (ولد في عام 1225م وتوفي عام 1274م). أما في العالم الاسلامي فان علوم الدين المنهجية بدأت بالمعتزلة في القرنين الثاني والثالث من الهجرة. وقد كان أبو الحسن الأشعري (المتوفي عام 935م) هو المؤسس الحقيقي لـ "علم الكلام"، وهو فرع من العلوم المدوّنة الشرعيّة يبحث عن ذات الله وصفاته وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد، بلغ ذروته في القرن السادس الهجري بأعمال أعظم أئمة الفقه في الاسلام الإمام الغزالي (المتوفي عام 1111م).

مستخدم في الكتابات المنزّلة الأخرى (باستثناء القرآن الكريم)[17]. ولأنها صيغت بالأسلوب الأدبيّ الذي كان سائداً في العالم الإسلاميّ وقت ظهور بهاء الله[18] أي في منتصف القرن التاسع عشر، فإن النصوص المقدسة للبهائية تبدو، كما يصفها أحد كبار المستشرقين، "غريبة على العرُف الأدبيّ لأهل الغرب"[19]. فالأسلوب اللغويّ لكتابات بهاء الله – وهو أسلوب سخيّ في المجاز والاستعارة، زاخر بالرمزيّة العميقة، صوفيّ في معظمه، تتخلله من آن لآخر مقتطفات من نصوص الرسالات السابقة سيّما القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف. وهو أيضاً أسلوب يتناول مفاهيماً وأفكاراً وإشارات لأنماط اجتماعية قد لا تعني القارئ الغربيّ العاديّ كثيراً – يبدو للوهلة الأولى غريباً غير مألوف، منمقاً، شرقيّ الشكل والمضمون، لا يماشي مذاق القارئ الغربيّ. بيد أنّ رأياً كهذا لا يتسم بالموضوعية بأيّ حال من الأحوال. فنحن ننسى أن لغة عصرنا الحاضر التي نتخذها نحن معشر الغرب معيارا للمقارنة، قد أخذت سماتها وملامحها عن التطوّر العلميّ والتقنيّ والاقتصاديّ الذي حدث خلال المئة سنة الأخيرة. فهي لغة عريّة عن التخيّل، عقلانيّة، عملية، فقيرة في المشاعر – لغة بعيدة كل البعد عن لغة أدبائنا وشعرائنا المبدعين من أمثال جوته Johann Wolfgang v. Goethe أو أدالبرت استيفتر Adalbert Stifter (في اللغة الألمانية) إلى أمثال تشارلز ديكنز أو ألفريد تينيسون Alfred Tennyson (في اللغة الإنجليزية).

وقد ظهرت في الآونة الأخيرة صياغة جديدة للكتاب المقدس باللغة الألمانية الدارجة. ولا مريّة في أنها كانت صياغة مثيرة للجدل والاستنكار.

---

17 أنظر أيضا تناول المؤلف بالمناقشة للغة القرآن الكريم في كتابه 'النور يلمع في الظلام *The Light Shineth in Darkness*'، ص 139 وما بعدها

18 تماما مثلما اتّخذت الكتابات المسيحية الأسلوب اللغوي الذي كان سائدا في العصر الختامي للحضارة اليهودية.

19 المستشرق 'أليساندرو باوساني' في كتابه الذي ترجم إلى الألمانية بعنوان 'النصوص الأصلية للبهائية *Originalliteratur der Bahá'í Religion*' وعن البلاغة الأدبية في أسلوب بهاء الله راجع أيضا كتاب أديب طاهر زاده [ظهور بهاء الله] - المجلد الأول ص19، ثم ص 41 وما بعدها. وهو كتاب يمكن تحميله من على الرابط التالي:

http://reference. bahai. org/download/rb1-ar-pdf. zip

وقد أُنجزت تلك الطبعة تمشّيا مع لغة اليوم، التي تغيرت كثيراً.[20] أجل، لقد صارت لغة اليوم فقيرة بمعنى الكلمة، أو بتعبير ‘دانييل بيل’: "أصبحت المفردات اللغوية الشائعة اليوم عقلانية تماماً، وأُفقها قاصر على رموزها الرياضية وأشكالها الحسابية... وغياب أسلوب لغويّ زاخر بالأحاسيس والعواطف في عصرنا هذا لهو دليل على إفلاس ناجم عن حياة خالية من ترتيل الأدعية وإقامة الشعائر".[21]

فلا يصحّ لنا إذن أن نتخذ من مفهومنا عن اللغة ونظرتنا إليها في الوقت الحاضر معياراً نقيس به كل الأمور. وعلينا أيضاً أن نتذكر أن كل الأديان قد جاءت من الشرق مثلما يأتينا نور الشمس، وألّا ننسى أن نصوص الكتاب المقدس والأسماء العبرانية الكثيرة كان لها وقع غريب على آذان الشعوب الجرمانية والسلافية والكِلْتية التي قَبِلت المسيحية ديانة لها، بمثل ما للنصوص البهائية من وقع لدى الرجل الغربيّ في العصر الحديث. وكما هو الحال مع كل فكرة جديدة، فان الأمر يتطلب قدراً من التقبّل والتعوّد بمنأى عن التحامل والتحيز، فكما يقول ‘بليز باسكال’: "إن التعوّد فطرة ثانية، تمحو الفطرة الأولى".[22] كما يطالعنا الشاعر الألمانيّ ‘جوته’ في ‘محاورة فاوست’ بالأبيات الآتية:

الأمر يتوقف على التعوّد
والطفل في البداية لا يُقبِل على ثدي أمّه
لكن بعد قليل تراه يرضع منه بلذّة
والأمر هكذا بالنسبة إلى ثدي الحكمة

---

[20] من أجل ملء الفجوة التي باتت تفصل الدين عن الحياة اليومية، عكف ناشرو الكتاب المقدس في كل من سويسرا والنمسا وألمانيا علي اخراج انجيل لوقا علي شكل سلاسل القصص المصوّرة التي تظهر في الجرائد والمجلات، بأسلوب حكايات ‘طرزان’ و’باتمان’ – أي ‘الرجل الخفاش’– و ‘سوبرمان’، وغيرهم من الشخصيات المبتكرة. وقد ظهرت تلك السلسلة التي تناولت حياة ‘يسوع الناصري’، مشيرة إليه باسم مبتكر هو ‘يسكي Jeschi’ بمحلات بيع الكتب بألمانيا في عطلة أعياد الميلاد ورأس السنة عام 1980م

[21] كتاب ‘المتناقضات الحضارية في الرأسمالية *The Cultural Contradictions of Capitalism*’لعالم الاجتماع دانييل بيل، ص 86 و98

[22] بليز باسكال Blaise Paskal، فيلسوف وعالم رياضيات فرنسي، ولد عام 1623م وتوفي عام 1662م

فمع كل يوم يمرّ يزداد المرء استمتاعاً به.[23]

أما من يَألَف كلمة الله الجديدة ويعتادُها فانه يجد فيها كنزاً ثميناً، وفيضاً وهيمنة لا يرضى عنها بديلاً.

قاعدة الفصل والتمييز

إن من غير المعقول الإعتقاد بأن استبانة صحّة الدعوة الإلهية هو أمر هيّن. بل إن التساؤل الذي يثور هنا حقا هو: لماذا قدّر الله ألا تكون الحقيقة 'قريبة' و 'لطيفة رقيقة محبوبة' – على حد قول شاعرنا 'جوته'[24] الذي توصل هو الآخر إلى نفس النتيجة، فبلوغ الحقيقة يستلزم وفاء المرء بسلسلة لا يستهان بها من الشروط والمطالب. ولقد تطاول 'نيتشه' بالشكوى من أن الله لم يتكلم بوضوح. وادّعى على 'زرادشت' زوراً وبهتاناً أنه قد شبّه الله بالكاهن، كما نسب إلى زرادشت أيضاً أنه قال "إنّ الله غامض وغير واضح، فكيف يثور في وجهنا هذا المزمجر باللّعنات إذا أسأنا فهمه؟ ولماذا لا يخاطبنا بلغة أكثر وضوحا؟ ".[25] وفي كتاب آخر ينسب 'نيتشه' أيضاً إلى 'زرادشت' قوله: "إن أسوأ ما في الموضوع أن الله يبدو عاجزاً عن أن ينطق بكلام مفهوم، أيكون هو الآخر غير متأكد مما يعنيه؟"[26]

---

[23] الفصل الأول المشهد الرابع، محاورة فاوست، علي لسان الشيطان 'مفستوفيلس'، نقلت الترجمة عن كتاب [جيته – الديوان الشرقي للمؤلف الغربي]، ترجمة عبد الرحمن بدوي، القاهرة، دار النهضة العربية 1967 (سلسلة الروائع المائة، العدد الثالث).

[24] وأبيات الشاعر جوته بالكامل هي كما يلي (من الديوان الخامس سفر الحكم والأمثال، الفقرة التاسعة عشر):

"لماذا كانت الحقيقة نائية بعيدة؟ ولماذا تختبئ في أعماق الهاوية؟

لا أحد يفهم في الوقت المناسب! لو فهم المرء في الوقت المناسب،

لكانت الحقيقة قريبة وانتشرت واسعا وسارت لطيفة رقيقة محبوبة... "

ومنقولة ترجمتها من المرجع العربيّ السابق ذكره.

[25] كتاب 'هكذا تكلم زرادشت *Thus Spake Zarathustra*' السفر الرابع: 'عديم الفائدة Out of Service' الطبعة الانجليزية ص 291

[26] 'ما وراء الخير والشر *Beyond Good and Evil*' الفقرة رقم 53، الطبعة الانجليزية

والجواب على هذه التساؤلات هو أن الله قد وهب كلّ نفس القابلية والقدرة على "عرفانه (أي معرفة الله) ولقائه"[27]... "وإن لم تكن لديه تلك القدرة فان التكليف قد سقط عنه"[28]... ولو أراد الله لجعل كل البشر يلمحون الحق في وحيه ويؤمنون به في التّو واللحظة: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً)[29]. ويوضّح بهاء الله الحكمة الإلهية من هذا بقوله: "ولكن المقصود هو صعود الأنفس الطيبة والجواهر المجرّدة بفضل فطرتهم الاصلية الى شاطئ البحر الاعظم وبذلك يتمّ الفصل والتمييز بين طلاب جمال ذي الجلال من العاكفين في أمكنة الضلال والإضلال"[30] فقاعدة 'الفصل والتمييز' هذه هي "سبب عدم ظهور مظاهر العدل ومطالع الفضل (أي رسل الله) بأسباب القدرة الظاهرية والغلبة المُلْكية" [31]. كما يشرح بهاء الله بغاية الوضوح هذه القاعدة التي سرت أيضاً على كل الرسالات السماوية السابقة قائلاً: "ولو ظهر وتجلّى جوهر القدم على ما كان عليه لما أنكره أو اعترض عليه أحد، بل ينصعق كل الموجودات من مشاهدة انواره ويصبحون فناءً محضاً. وفي هذا المقام لا ينفصل المقبل الى الله عن المعرض عنه"[32]. كما يوضح بهاء الله أيضا في كتاب الإيقان أنه – وبسبب قاعدة التمييز هذه – فإن "للمظاهر الإلهية – أطيار الهوية وحمامات الأزلية، بيانان: بيان بحسب الظاهر قالوه ويقولونه من غير رمز وسَتْر، ولا نقاب ولا حجاب، حتى يكون سراجاً يهدي السالكين إلى معارج القدس ونوراً مبيناً يجذب الطالبين إلى بساط الأنس، كما هو مذكور في الروايات الصريحة والآيات الواضحة. ولهم بيانات أخرى، قالوها ويقولونها تحت الرمز والستر والحجاب، كيما يَظهَرَ من المُغلّين مكنوناتُ قلوبهم وتنكشِفَ

---

[27] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 29 (فارسي الأصل)

[28] المرجع السابق، المقتطف رقم 75 (فارسي الأصل)، كما سبق وأن أوضحنا بأن عرفان الله هو عرفان مظهر ظهوره

[29] القرآن الكريم، سورة هود: آية 188. وقد جاء ما يلي أيضا في كتاب [قيوم الأسماء] للباب (الذي بشر بظهور بهاء الله، مثلما بشر يوحنا المعمدان - أو 'يحي بن زكريا' - بظهور المسيح):"**إنا نحن لو شئنا لهدينا الأرض ومن عليها على حرف من الأمر أقرب من لمح العين جميعا**"

[30] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 29 (فارسي الأصل)

[31] المرجع السابق، نفس المقتطف

[32] المرجع السابق، نفس المقتطف

حقائقهم. ولهذا يقول الصادق بن محمد [33]: والله لَيُمَحِّصَنّ، والله لَيُغَرْبِلَنّ. وهذا هو الميزان الإلهيّ والمحك الصمدانيّ الذي يمتحن به عبادَهُ". [34]

وما من شيء يحجب الإنسان عن عرفان الحق سوى نفس الانسان ذاته. ولهذا ينصحنا بهاء الله بقوله: "مزّقوا الحجبات الغليظة بإسمي واكسروا أصنام التّقليد بقوة التّوحيد... لا تحجبوا انفسكم بحجاب النفس لأني خلقتُ كلّ نفس كاملة حتى يَظهر كمال صُنعي" [35].

كما يحدثنا بهاء الله في كتابه "الإيقان" عن عِلْمين، أولهما 'عِلْم إلهيّ' والآخر 'عِلْم شيطاني' – "أوّلهما يظهر من إلهامات السلطان الحقيقي (الله)، وثانيهما يبدو من تخيّلات الأنفس الظلمانية، وهو الذي يصدُق في حقه 'العلم هو الحجاب الأكبر'، أثمار ذاك الشجر الصبر والشوق والعرفان والمحبة، وأثمار هذا الشجر الكِبْر والغرور. لا يُثمر هذا الشجر إلا البَغْي والفحشاء ولا يأتي إلا بالغلّ والبغضاء... فيجب إذن أن تنظّف الصدر عن كلٍّ ما سمعته وتُقدّس القلب عن جميع التعلّقات كي تكون محل إدراك الإلهامات الغيبية ومستودع أسرار العلوم الربّانية". [36]

وإيمان أيّ فرد لا يحدده إلّا هو بنفسه: "وفي محضر الحشر الأكبر بين يدي الله إذا سُئلت نفس لِمَ لَمْ تؤمن بجمالي وأعرضت عن نفسي لقالت: 'نظراً لأنه لم يؤمن أحد والكل قد اعرض لهذا اقتديتُ بالآخرين وابتعدتُ عن الجمال الأبدي'، فإنّ هذا العذر سوف لن يُسمع ولن يُقبل. إذ أن إيمان أيّ إنسان لا يمكن ان يرتبط ولن يرتبط إلاّ بنفسه" [37]. أما أولئك الذين يوفون بشروط الإيمان بالله، فيَصْدُق في حقّهم قول بهاء الله: "إن آثار الحق مشرقة ولائحة مثل الشمس بين العباد"، [38] وكذلك قوله "إن باب الفضل مفتوح أمام وجوه الكل". [39]

---

[33] والمقصود هنا هو الإمام 'جعفر الصادق'، سادس أئمة الشيعة (ولد عام 57 هجرية وتوفي عام 114 هجرية)، وهو ابن الإمام محمد الباقر، ابن الإمام زين العابدين علي، ابن الأمام الحسين، رضوان الله عليهم

[34] كتاب الإيقان، الطبعة العربية الثالثة، دار النشر البهائية بالبرازيل، ص 204-254

[35] كتاب [منتخباتي...] المقتطف رقم 75 (فارسي الأصل)

[36] كتاب الإيقان، ص 55

[37] كتاب [منتخباتي...] المقتطف رقم 75

[38] المرجع السابق، نفس المقتطف

[39] المرجع السابق، المقتطف رقم 126 (فارسي الأصل)

شروط بلوغ الحقيقة

والآن، ماهي تلك الشروط؟ لقد جرى المنوال على أنّ الانسان مُلزَم بأن يسعى في طلب الحقيقة أولا قبل أن يتوصل إليها. ومُهمّة طلب الحقيقة هذه مَنوطة به دون غيره، إذ أن من خصائص الأمور الروحية أنه لا يمكن بلوغ أيّة غاية دون مجهود يبذل، فملكوت الله ليس هو ذلك المكان الأسطوريّ المسمّى 'بلاد العجائب'[40]. فلقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا" [41]. أما الانجيل المقدس فيطالعنا بالآية: "مَا أَضْيَقَ الْبَابَ وَأَكْرَبَ الطَّرِيقَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْحَيَاةِ، وَقَلِيلُونَ هُمُ الَّذِينَ يَجِدُونَهُ!"[42] ويصف بهاء الله في كتابه 'الوديان السبعة' – وهو كتاب يطوف بالقارئ في عوالم الروح – ذلك الطريق الذي تسلكه الروح سعياً إلى عرفان الله، وفيه يورد مثلاً عربيا هو: "من طلب شيئاً وَجَدّ وَجَدَ" ثم يستطرد قائلاً: "علينا أن نشحذ الهمّة في طلبه، ونجهد كي نشرب من شهد وصله"،[43] ثم يطالعنا بأن الصبر شيء ضروريّ هو الآخر لمن يجتهد في بلوغ الحقيقة: "الأول وادي الطلب، ومركب هذا الوادي الصبر، ومن دون الصبر لن يبلغ المسافر في سفره هذا غايةً ولن يصل إلى المقصود".[44] وأخيراً، هناك ذلك الشرط الذي لا غنى عنه لمن يبحث عن الحقيقة، ألا وهو التواضع وسعة الأفق وإعداد الأذُن "لاستماع النغمة الإلهية"،[45] ثم الاعتراف بالحقيقة والتسليم بها حتى إن اختلفت تلك الحقيقة عمّا كان في تصوّره واعتقاده من قبل.[46] كما أن هناك نزعتين زائفتين كل منهما على

---

[40] هناك قصص خيالية في الأدب الألماني اسمها *Schlaraffenland* أي بلاد العجائب، وهي تحكي عن بلاد مملوءة باللبن والعسل، يطير فيها الدجاج المشوي ليستقر في أفواه الكسالى، وفيها تطرَح الخمائل كَباباً ساخنا، وأعظم فضائل تلك الديار الأسطورية هو الكسل، أما الجدَ والاجتهاد فهما من كبائر الذنوب، وأكسل من في البلاد ملكها الذي يتربع على عرشه. وهذه القصص مستمدة من أساطير قديمة تحكي عن فردوس مفقود.

[41] سورة العنكبوت: الآية 69

[42] متى 7: 14

[43] كتاب [الوديان السبعة]، الطبعة الانجليزية ص 7 (فارسي الأصل)

[44] المرجع السابق، ص 5

[45] كتاب الإيقان ص 131

[46] حدث أيضا أن ألقى القديس 'أوجسطين' بالإنجيل جانباً، بمشاعر من خيبة الأمل، عندما تصفّحه للوهلة الأولى، وذلك في فترة سابقة على اعتناقه مذهب 'المانوية'

النقيض من الأخرى، وعلى المرء أن يحذرهما حذره من 'شيللا وكاربيديس' (وحْشَيْ البحر) في ملاحم الشاعر الإغريقيّ هوميروس،[47] أولاهما هي نزعة الشك السائدة الآن في أوروبا، والأخرى هي نزعة التحمّس بغير تمحيص وتحقّق. ففي ظل النزعة الأولى يكون المتشكك قد كوّن رأيا مسبقاً قبل أن يعكف على دراسة المسألة، وذلك لوقوعه تحت تأثير الرّيبة المتأصّلة في نفسه، فلا ينحصر اهتمامه إلّا في إرضاء فضوله الفكريّ وتأكيد شكوكه المبنيّة سلَفاً. ونجد على النقيض الآخر موقفاً يختلف تماماً عن موقف المتشكك، حيث يتناول المتحمس المسألة بنظرة غير فاحصة، ولا يُتْبع حماسه المبدئي بتفكير موضوعيّ. ويفتقر مثل هذا الإيمان إلى أساس متين كما يفتقد إلى التعمّق، فهو إيمان أعرج، يستند على ساق العاطفة وحدها ولا يرتكز على الأخرى – أي ساق التفكير. ولهذا، فهو أيضا إيمان يسهل تزعزعه وتلاشيه.

طهارةُ القلب

ولمن ينظر إلى نور الحقيقة بعقلية متشككة منحازة صُبّت في قالب من الرسوم الدينية الموروثة ومفاهيمهما التقليدية الجامدة، ولمن لا يخرج عن حدود مفهومه الشخصيّ عن هذا العالم، ولمن امتلأت رأسه بأفكاره الخاصة – أفكار بلغ من فرط اعتزازه بها حداً لا يقبل عنده أن يراجعها

وتُفصح الأسباب التي أوردها في كتابه 'الاعترافات *Confessions*' (الجزء الثالث، الفصل الخامس) عن سرّ تصرفه هذا وعما كان يعتلج في نفسه، إذ يقول: "لقد عقدت العزم ساعتها أن أعكف على دراسة الأسفار المقدسة لأعرف فحواها، ولكن انظروا ما حدث، لقد لمحت فيها شيئا لا يراه المغرور ولا يكتشفه الغَرّ، شيئا كتب بأسلوب متواضع إلا أنه أسلوب بالغ الأثر، مغلّف بكامله في عبارات مبهمة، ولم أكن لائقا آنذاك لأن أصل إلى مغزاه، أو أتنازل عن كبريائي لتجليه وظهوره. لأني عندما تناولت تلك الأسفار بعين النقد لم يكن حكمي عليها في البداية كما هو الآن، وانما وجدتها أقل شأنا من أن تقارن بطلاوة الأسلوب الذي كتب به شيشرون (الشاعر الروماني المفوّه) مؤلفاته، إذ كانت أوداج غروري منتفخة لدرجة تعلو علي نبرة أسلوبها المتواضع، كما كانت حدة ذكائي قاصرة على الغوص في معانيها. ولكن هذه هي أسفاركم المقدسة (يا معشر المسحيين) وقد ذاع صيتها كما ذاع صيتكم، أنتم 'يا قليلي الشأن'. غير أنني كنت أأنف أن يقال عني 'قليل الشأن'، وكان الغرور يملؤني بدرجة كنت أخال نفسي شخصية عظيمة".

[47] شيلا Scylla وكاريبديس Charybdis هما وحشان ذكرهما الشاعر الإغريقي هوميروس في ملاحمه الأسطورية، قال أنهما يقيمان علي جانبي مضيق مِسّينا ويهددان السفن لذا كان علي الربابنة تحاشيهما.

ويصوّبها، لكل واحد من هؤلاء ستبقى الحقيقة مختبئة خلف حجاب من "ظنونه وأوهامه"[48]. ولا يمكن إلا لذلك الذي يجعل قلبه "مطهّراً ومنزّهاً عن كل غَبْرة مظلمة من غُبار العلوم الاكتسابية"[49] أن يصير طالباً للحقيقة. وعلى هذا الطالب أيضاً أن يطهّر قلبه "بدرجة لا يبقى في القلب آثار للحب والبغض، كي لا يميل به الحب عن جهة أو يمنعه البغض عن جهة بلا دليل."[50] وهذا هو نقاء القلب الذي قصده المسيح عندما قال: "طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ، لأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللهَ."[51] وكذلك أيضاً عندما قال: "كُلُّ مَنْ هُوَ مِنَ الْحَقِّ يَسْمَعُ صَوْتِي".[52] أما بهاء الله فهو يؤكد لنا أن الله سبحانه وتعالى قد "**أَوْدَعَ في كلّ نفس ما يَعرف به آثار الله**" [53]. ويؤكد أيضاً أن الله لا يخيّب سعي من يطلب الحقيقة بكل صدق واخلاص، إذ يقول: "لا يُحرِم أيّ قاصد ولا يُمنَع أيّ مقبل".[54] كما شبّه بهاء الله رسالته بأنها "مِثل بحْر سُترت في قعره واعماقه لآلئ لطيفة منيرة لا تُحصى ". ويؤكد قائلاً " ان هذا البحر الأعظم اللُّجّيّ المّواج قريب جداً بل أقرب اليكم من حبل الوريد. وبلحظة تصلون وتفوزون بذلك الفيض الصمدانيّ والفضل السُبْحاني".[55] أما بالنسبة للباحث الحقيقي الذي يشق حجب التقاليد والأوهام الموروثة فإن نور الحقيقة الإلهية سيظهر '**كظهور الشمس في كَبِدِ السماء**'[56]. وذلك بتعبير بهاء الله، الذي يقول أيضا في حق أولئك الذين بلغوا مرادهم: "**لا تَخفَى عنهم حقيقة الأمر ولا تَحتَجِبْ**"[57].

---

[48] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 100 (عربي الأصل)

[49] كتاب الإيقان ص 153

[50] المرجع السابق ص 154

[51] إنجيل متي ح 5: آية 8

[52] إنجيل يوحنا ح 18:آية 37

[53] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 53 (عربي الأصل)

[54] المرجع السابق المقتطف رقم 126 (فارسي الأصل)

[55] المرجع السابق المقتطف 153 (فارسي الأصل)

[56] المرجع السابق المقتطف رقم 52 (عربي الأصل)

[57] المرجع السابق المقتطف رقم 52 (عربي الأصل)

وهذه البصيرة أنفذ وأعمق كثيراً من الفهم العقلانيّ الصّرف، وينالها الباحث الذي يقوده سعيه إلى هذه الرسالة – رسالة الحق والنور.[58] فالتفكير العقلانيّ مع المعايشة نفسها ضروريان كلاهما للباحث عن الحقيقة. ولقد لمس المسيح كبد هذه المسألة بقوله: "تَعْلِيمِي لَيْسَ لِي بَلْ لِلَّذِي أَرْسَلَنِي. إِنْ شَاءَ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ مَشِيئَتَهُ يَعْرِفُ التَّعْلِيمَ، هَلْ هُوَ مِنَ اللهِ، أَمْ أَتَكَلَّمُ أَنَا مِنْ نَفْسِي"[59] وكذلك أيضا أشار إلى الحقيقة نفسها بقوله: "وَأَمَّا مَنْ يَفْعَلُ الْحَقَّ فَيُقْبِلُ إِلَى النُّورِ، لِكَيْ تَظْهَرَ أَعْمَالُهُ أَنَّهَا بِاللهِ مَعْمُولَةٌ ".[60]

محكّ الاختبار

وإذا تساءلنا عن معيار استبانة النبيّ الصادق من النبيّ الكاذب، فقد حدّد المسيح أيضاً هذا المعيار بقوله "مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ",[61] فالمحكّ الذي يُعرف به صدْق دعوة بهاء الله هو ذلك الأثر الخلاّق المجدِّد المنبعث من بياناته، "فحُجّة الشمس نورُها الذي أشرق وأحاط العالم، وبرهانُ الربيع جودُه الذي جدد العالم برداء جديد، على أن الأعمى لا يعرف للشمس أثراً غير حرارتها، والأرض الجَرْز ليس لها نصيب من رحمة الربيع".[62] أمّا عن تجديد الدين وتبديل حال العالم فإن بهاء الله يقول إن القوّة اللازمة لتبديل العالم أعظم من الإكسير الذي يقال عنه إنه يحوّل النحاس ذهباً، وأن "هذا المقام وهذه القدرة مُختصّة بكلمة الله"[63].

---

[58] شدّد الفيلسوف البولندي الشهير ليتشيك كولاكوسكي Leszek Kolakowski (الذي كان يعتنق الفكر الماركسي قبل هجرته للغرب حيث يحاضر الآن في جامعة أكسفورد) في مقابلة صحفية أجرتها معه المجلة الكاثوليكية *Herder Korrespondenz* - المجلد العاشر، عدد أكتوبر 1977 (ص 501 وما بعدها)– شدد على أن المعرفة الدينية لا تُكتسب بنفس الكيفية التي تكتسب بها العلوم العقلية، وأن المعنى الكامن في الدين يختلف في ماهيته عن المعنى الماثل في مضمار العلوم المادية أو الحياة المعيشية، فهو يرى أن معنى الدين يعمل في مضمون أو محتوى معين، وفي إقامة الشعائر، وتلاوة الأدعية، والمعايشة الدينية.

[59] إنجيل يوحنا ح 7: الآيتان 16 و17

[60] المرجع السابق ح 3: الآية 21

[61]إنجيل متى ح 7: الآية 16

[62] كتاب الإيقان ص 167

[63]كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 99

وكلّ من يراقب بعين الإنصاف ما هو آخذ في التبلور الآن على نطاق صغير (وأعني بذلك وحدة الجنس البشريّ التي تتجلى داخل المجتمع البهائيّ حيث يتعايش الناس من كل جنس ووطن وملّة بكل تآلف ووفاق) باستطاعته أن يلاحظ ويدرك القوة المنبعثة عن دين بهاء الله، وهي قوة تؤلّف النفوس وتُبدلها من حال إلى حال، والحقيقة التي يؤمن بها البهائيون من أعماق أعماقهم ويعيشونها في كل لحظة من لحظات حياتهم هي أن الله – الذي يقول عنه الملحدون أنه مات – هو حيّ لا يموت، وها هو يوفي بالوعد الذي قطعه للأنبياء، إذ يخاطب البشرية مرة أخرى على لسان بهاء الله.

الفصل السابع

وحدانية الأديان

تتابع الرسالات

تُطالعُنا التعاليم البهائية بأن أحداث تاريخ البشرية تجري على هيئة حقب عظيمة أو أكوار كلّية ينقسم كل كَوْر منها إلى أدوار أو عهود. والكَوْر الكليّ الأخير ومقداره ستة آلاف عام بدأ بآدم الذي هو نبيّ ومَظْهَر إلهيّ من وجهة نظر الدين البهائيّ (ومن وجهة نظر الاسلام أيضاً). وقبل آدم كان هناك رسل آخرون لم تأتنا أخبارهم.

وخلال كَوْر آدم ظهرت ديانات العالم التي نعرفها الآن. ويخبرنا القرآن الكريم بأن الله قد أرسل رسُلاً إلى جميع الأمم. ومن خلال هؤلاء الرسل عرَّف الله هذه الأمم إرادته وأظهر لها الحقيقة الإلهية. وكان نوح وابراهيم وموسى وكريشنا وبوذا وزرادشت والمسيح ومحمد أقطاب ذلك الكور، كور آدم، وجاء كل واحد من هذه المظاهر الإلهية بدورة جديدة كانت فيها تعاليمه ووصاياه هي الميزان الأخلاقيّ الأسمى لكل من ينتمي إلى حضارة بذاتها، سواء كانوا فرادى أم جماعات. وبهذا يكون للتاريخ وجهة يقصدها، فلا يجري التاريخ في دائرة يتكرر فيها الحدوث ثم التلاشي إلى مالانهاية. كما أنه لا يجري في خط مستقيم من نقطة بداية إلى نقطة نهاية كما يراه غالبية المفكرين في المسيحية. ودائما ما يكون تكرار الأحداث ذاتها على مسرح أعلى مما سبقتها. أي أن مسار التاريخ يشبه مركبة دوارة صاعدة (تكون كل دورة صعود وهبوط فيها أعلى من سابقتها). ويتراءى جليّا من هذا المنظور التاريخيّ الفريد مبدأ آخر أساسيّ في البهائية، فإلي جانب وحدانية الله هناك وحدانية أخرى ألا وهي الوحدانية العرفانية للأديان كافة (أي اشتراك كافة الأديان في العرفانيات الإلهية وأهمّها الأخلاقيات). وجميع أديان العالم لها نصيب ودور في مسلسل صلاح البشر أو بتعبير آخر جميعها نابعة من الله وهي ليست سوى انعكاسات مختلفة لحقيقة واحدة. فبالرغم من اختلافها في المظهر والعبارة واللغة والمصطلح والتشبيه والتشريع فإنها تشترك في قاعدة واحدة ألا وهي لبّ الدين الإلهيّ وجوهره الذي لا يتغير أبداً. وتدور تعاليم بهاء الله حول

الاعتقاد بتتابع الوحي الإلهيّ عبر دورات متعاقبةِ[1] إذ أن الله لم يتجلَّ في هيكل إنسانيّ مرة واحدة لم تتكرر فيما مضى، وإنما كان تجلّيه على مظاهر أمره في دورات متتالية كما يوضح بهاء الله بقوله: **"قَدْ بَعَثَ اللهُ رُسُلاً بَعْدَ مُوسَى وَعِيسَى وَسَيُرْسِلُ مِنْ بَعْدُ إِلَى آخِرِ الَّذِي لا آخِرَ لَهُ بِحَيْثُ لَنْ يَنْقَطِعَ الْفَضْلُ مِنْ سَمَاءِ الْعِنَايَةِ"**[2] وهذا المفهوم ليس بغريب على الديانتين الهندوسية والبوذية، إذ إنها مرتبطة بمبدأ النزول '*Avatara*' أو العودة، أما المسيحية فإنها تعتبر أن صلاح الإنسان قد بدأ بأنبياء التوراة، كما أن الاسلام صاغ مبدأ تتابع الرسالات وبلوره بكل وضوح، بل إن سيرة الرسالات السماوية المتعاقبة هي في الحقيقة بمثابة الخيط الذي يربط منظومة القرآن الكريم.[3] وهكذا نجد أن كل دين ذكر ما سبقه من رسالات ونبوءات إلهية وشهد بصحتها، غير أن أتباع كل دين يدّعون أن رسالتهم هي الأخيرة الخاتمة، وأن رسولهم فريد ومتميّز عمّن سبقوه من الرسل، وأن تعاليم دينهم تأتي في قمة التعاليم الإلهية ولا تعلوها أيّة رسالة أخري. فأنبياء بني اسرائيل في نظر المسيحيين يبلغون كمالهم في شخص يسوع المسيح. وما نُزّل على الرسول محمد عند المسلمين هو نهاية الوحي والتنزيل، والقرآن عندهم هو آخر رسالة من الله لبني البشر.[4]

---

[1] وهذا المفهوم يختلف تماما عما يراه علماء اللاهوت (في أيّ دين بطبيعة الحال، ولأن المؤلف من خلفية مسيحية ألمانية فهو يورد الأمثلة التالية من علماء اللاهوت المسيحيين الألمان) يعتقد أمثال ريتشارد روثي Richard Rothe، وإرنست ترولتش Ernst Troeltsch، كما يقولان بالحرف الواحد، "إن نبض الروح المسيحيّ في تاريخ الغرب يرتبط مرة أخرى بروح العصر فيعطينا نظرة أفضل فأفضل عن العالم والحياة...وإن الوحي يتقدم بتقدم الروح البشرية وتطوّرها، أو قل إن تقدم الروح البشريّ ما هو إلا انعكاس للحركة الذاتية للروح القدس. " [نقلها يورجن مولتمان Jürgen Moltmann في كتابه 'لاهوت الأمل *Theology of Hope*'، الطبعة الإنجليزية ص 225-226، أما التعاليم البهائية فهي أن التنزيل الإلهيّ 'مطّرد ومتعاقب' بمعنى أن هناك فيض إلهيّ جديد يحدث على دورات متعاقبة في كل مرة يخاطب الله فيها عالم الإنسان على لسان مظهر إلهيّ جديد.

[2] سورة الصبر، كتاب [الأيام التسعة]، دار النشر البهائية في البرازيل، 1987، ص 119. وقد تكلم الباب بنفس هذه الحقيقة في البيان الفارسيّ – ضمن المختارات التي وردت في كتاب [منتخباتي أز أثار قلم حضرة نقطة أولى] أي 'منتخبات من أثار قلم حضرة الباب'، ص 105

[3] كما يقول أبو العلاء المودودي في كتابه 'نحو فهم الإسلام *Towards Understanding Islám*' الطبعة الإنجليزية ص 37 – 41

[4] هذا الاستنتاج مبنيّ على النص القرآنيّ الوارد في سورة الأحزاب، الذي يُسبغ على محمد (ص) لقب 'خاتم النبيين'. وللقارئ أن يراجع ما ذكره المودودي في مؤلفه

إلا أن بهاء الله يوضح أن أيّ ادعاء يفيد "أن جميع الظهورات قد انتهت وأبواب الرحمة الإلهية قد انسدّت، فلا تطلع بذلك شمس من مشارق القدس المعنوية. ولا يأتي هيكل مشهود من غمام الغيب الرباني"[5] هو ادعاء مرفوض. بل يعِدنا بأن 'أبواب الرحمة' هذه سوف يفتحها الله عندما يشاء أي أن بهاء الله نفسه لا يمثّل آخر فصل في تاريخ الخلاص البشري، بل سيبقى الله دائماً أبداً يرسل برسله وسفرائه إلى البشرية "ليدعو الناس إلى الصدق والصفاء والديانة والأمانة والتسليم والرضاء والرفق والمداراة والحكمة والتقوى ويزّين الكل بأثواب الأخلاق المرضية والاعمال المقدسة". [6] كما أن 'الباب' رفع أيضاً لواء هذا المبدأ الأساسيّ الخالد بقوله "وتبقى شمس الحقيقة تطلع وتغرب إلى ما لا نهاية، بلا بداية لها ولا نهاية". [7]

فالدين هنا حيّ تدب فيه الحياة والحركة ولا يتطرّق إليه الجمود، ويعتمد الرقيّ المضطرد للسلالة البشرية على تعاقب التنزيل والوحي الإلهي، أما المولد الجديد لكل رسالة إلهية فهو بمثابة ذلك 'المدد السعيد'[8]. فما هي يا ترى حكمة هذه الحياة والحركة في التنزيل الإلهي؟ وما هي تلك الحجج والبراهين التي تؤيد توالي الدورات الإلهية وتتابعها وتنفي صفة الانفراد والأوْحدية عن أيّ دعوة يأتي بها هذا التنزيل؟

المذكور أعلاه ص 57 وما بعدها، وكذلك ما ذكره المؤلّف عن هذه المسألة في كتابه 'النور يلمع في الظلام *The Light Shineth in Darkness*' الطبعة الإنجليزية ص 125وحاشيتها رقم 452، فالبهائيون يعتبرون أن محمدا (ص) هو آخر أنبياء عصر النبوّة، كما يقول حضرة الباب "ولما أتى الله بمحمد نبيّه قد قضى في علمه بأن يختم النبوّة يومئذ" [منتخباتي...]، ص 113، وأن كوْراً جديداً قد ابتدأ، هو كوْر تحقق النبوءات بمعنى أن بهاء الله الذي هو 'النبأ العظيم' (كما نوّهت عنه سورة النبأ: الآية 2)، وكما أكده بهاء الله نفسه في كتاباته، ومنها ما جاء في كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 141.

[5] كتاب الإيقان ص 108

[6] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 137

[7] البيان الفارسي، نقلا عن كتاب [منتخباتي از آثار حضرت نقطة اولى]، ص 75

[8] وهي العبارة الألمانية '*Sternstunden der Menschheit*' التي ذكرها شتيفان تزفايج Stefan Zweig (المولود 1881، والمتوفّي 1942) وجعلها عنوانا لمجموعة من مقالات له نشرت عام 1927.

هنـاك أولا عامـل الفاعليّـة النبّاضـة. فالـدين بالنسـبة للبهـائي أسـمى بكثير من أن يكون مجرد مجموعة من التعاليم والأوامر والنواهي والطقوس والعادات، بـل هـو فـي جـوهره – قـوة حيـة فاعلـة ومحوّلـة. فمـع مجـيء كـل رسـالة سماوية إلى عالمنا، تُطلق قوة جديدة تسري فـي أوصـاله قـادرة علـى تحويله وربط أواصره وصهرها في كيان مترابط متآلف، وتكـون السـبب – عند مجيء كل رسالة منها – في ظهور خلق جديد، ونظـم جديـد، وحضـارة جديدة. ويحدثنا بهاء الله عن تلك القوة المحوّلـة الخلاقـة الكامنـة فـي الكلمـة الإلهيـة قـائلاً "كـل مـا يخـرج مـن فمـه إنـه لمحيـي الأبـدان... إن كـل حـرف تخرج من فم الله إنها لأمّ الحروفات وكذلك كل كلمة تظهر مـن معدن الأمـر إنهـا لأمّ الكلمـات"،[9] وكـذلك قولـه "إِنَّ الْكَلِمَـةَ الإِلَهِيَّـةَ هِـيَ سُـلْطَانُ الْكَلِمَـاتِ وَنُفُوذُهَا لا يُحْصَى... إِنَّهَا الْمِفْتَاحُ الأَعْظَمُ فِي الْكَوْنِ لأَنَّ أَبْوَابَ الْقُلُوبِ الَّتِـي هِـيَ حَقَّـاً أَبْـوَابُ السَّـمَاءِ قَـدْ فُتِحَـتْ بِهَـا"[10] إن كـل رسـالة سـماوية تَـدفع فـي شرايين البشرية بنبض جديد دافق، غير أنه لِكوْن هذا النبض هو الـذي يـدفع عجلة التطور التاريخيّ إلى الأمام، ولأن الدين، شأنه في ذلك شـأن الكائنـات الحية، يخضع أيضاً لعملية التداعي الزمنـي، فيكـون ضـروريا إذاً أن تنبعـث دفعة روحية جديدة في أوصـال العـالم وأن يسـتعيد الـدين حيويّتـه مـن عصـر إلى عصر.

والسبب الثاني لتوالي الدورات الإلهية وتتابعها هو أن قابلية الإنسان على الفهم واستعداده الروحيّ يختلف من عصر إلـى عصـر. فلقد واجـه كـل من أنبياء الله ورسله ظروفاً اجتماعية وحضارية غاية في الاختلاف والتباين كان على كل منهم أن يصوغها في قالب روحيّ وحضاريّ جديد. والبشـرية في مجملها هي في حالة تطور وتَرَقٍّ دائم، كمـا أن ظـروف عالمنـا وأحوالـه لا تفتـأ أن تتغيـر مـن زمـان إلـى آخـر. وهـي حقيقـة تنظـر إليهـا الرسـالات السماوية بعين الاعتبـار. **"إنـك أيقـن بـأن ربـك فـي كـل ظهـور يتجلـى علـى العباد على مقدارهم. مثلاً فانظر إلى الشمس فإنهـا حين طلوعها عن أفقهـا تكون حرارتها وأثرها قليلة وتزداد درجة بعد درجة ليسـتأنس بهـا الأشـياء قليلاً قليلاً إلـى أن يبلـغ إلـى قطب الـزوال ثـم تنـزل بـدرائح مقدرة إلـى أن يغرب في مغربها... وإنها لو تطلع بغتـةً فـي وسط السـماء يضرّ حرارتهـا الأشـياء، كـذلك فـانظر فـي شـمس المعـاني لتكـون مـن المطلعين. فإنهـا لـو تستشـرق فـي أول فجـر الظهـور بـالأنوار التـي قـدّر الله لهـا ليحتـرق أرض العرفان من قلوب العباد لأنـهم لن يقدرنّ أن يحملنّـها أو يستعكسنّ منهـا بـل**

---

9 كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 74

10 كتاب [مجموعة من ألواح...]، لوح مقصود، ص 154

يضطربنّ منها ويكونن من المعدومين. "[11] وكذلك: "مثلما يحتاج الانسان الى رداء فان العالم يحتاج الى رداء العدل والحكمة. اذ الدين هو رداء العالم وكلما قَدِم هذا الرداء فانه يحتاج الى رداء جديد. إن كل عصر يحتاج الى نهج وأسلوب معين. إن كل دين سماويّ يظهر بما يناسب او يليق بذلك اليوم والعصر. "[12]

التجديد الإلهي

هناك سبب آخر لأن يحتاج الدين إلى التجديد. وهو تلك الأحداث الداخلية العاصفة التي تتعرض لها الأديان خلال تاريخها المديد. فلطالما أطفأ البشر ذلك النور من جراء ارتكابهم الأخطاء وإساءتهم الفهم، وإتيانهم بالمبتدع من الزيادات، وتكالبهم على السلطة، وبذلك يطمسون ما جاء به الدين في أيامه الأولي، جالبين بذلك تلك النكسات والتشوهات التي تنهك قوى الدين الإلهي. وهذه ظاهرة طبيعية إلى حدّ ما، ذلك لأن كل ما هو حيّ – بماقي ذلك الدين – يمُر بمراحل متعاقبة تبدأ بفصل الربيع يعقبه صيف النضج ثم خريف الحصاد ومن بعدها يأتي الشتاء في النهاية. فإذا ما بلغ الدين زمان شتائه صار جَدْباً قاحلاً يسوده الالتزام بحَرفية لا حياة فيها – حَرْفية تجثم على صدر البشرية وتخنق حياتها الروحية، ولا يكون من نصيب أيّة محاولة بشرية لإصلاح الدين أو تجديده إلا الفشل الذريع. فلا يأتي التجديد الجذريّ – أو الأصوليّ بكل ما في هذه الكلمة من معنى – إلا من الله مرة أخري. ويطالعنا تاريخ الديانات السماوية بأن الله يوحي إلى البشرية بالتحديد في تلك الأوقات التي تكون قد وصلت فيها الأديان إلى نهاية قوس النزول للدرجة التي لا تستطيع معها التعامل مع متحديات العصر. فلقد أتى موسى بني إسرائيل وهم يرزحون تحت نير الفراعنة، وظهر المسيح في وقت فقدت فيه الديانة اليهودية قوتها الدافعة وصارت حطباً يابساً، وأوشكت فيها الحضارة القديمة على أن تلفظ أنفاسها الأخيرة. أما محمد فقد بُعث في قوم عاشوا حياة الجاهلية المتوحشة، العارية عن أيّ حضارة في عالم خرجت فيه أديان القبل عن أصولها وجذورها. ووجّه الباب دعوته إلى أمة فقدت مجدها الغابر بغير رجعة وآل بشعبها المآل إلى فساد لا فكاك منه. وجاء بهاء الله في هذا العصر إلى بشرية كانت تقترب

---

[11] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 38

[12] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 34، كما يقول الباب "**وما نبدأ من دين إلا لما يُبدَع من بعد**". كتاب [منتخباتي أز آثار حضرة نقطة أولى]، ص 112، عربيّ الأصل

من أحرج مرحلة من تاريخها. ويوضّح عبد البهاء مسألة ضرورة تجديد الرسالة الإلهية بقوله: **"إن الله لا يترك أبناءه في تعب ومشقة، فعندما يخيّم الشتاء عليهم بظلمته يعود فيبعث رسله وأنبياءه بربيع يُمْن وخير جديد، وتشرق شمس الحقيقة من جديد على أفق العالم فتنير أبصار النيام وتوقظهم كي يروا بهاء فجر جديد. فتزدهر شجرة الإنسانية مرة أخرى، وتأتي بثمار الخير لتبرأ بها الأمم من أسقامها"**[13]

وتقودنا هذه الحقيقة على الفور إلى استنتاج أنّ كافة الديانات هي إلهيّة في أصلها، وبالتالي ليس هناك دين يناقض غيره أو ينفي صحّته، فهي ليست سوى دين واحد من قبل ومن بعد، يتجدد من آن إلى آخر طبقاً لاحتياجات العصر في دورات تَبلغ كل دورة منها ما يقرب من الألف عام – أو كما يقول القرآن الكريم: **"وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ"**[14] فلا عجب إذن إن وجدنا أن كثيراً من تعاليم بهاء الله موجودة في أديان القبل إما تصريحا أو تلميحاً بفكرة كانت آنذاك في طور الجنين.[15] فالبهائية – كما يقول عبد البهاء – **ليست طريقاً جديداً نحو الخلود وإنما هي الطريق الأزليّ نفسه وقد أزيح عنه ركام الشحناء والبغضاء فصار مُمَهداً من جديد للباحث الصادق في سعيه ليسلكه بكل يقين ويجد أن كلمة الله واحدة على الرغم من تعدد ناطقيها"**.[16] وعلى خلفيّة هذه الوحدانية الكلّية العليا للأديان السماوية[17]

---

[13] كتاب 'أحاديث باريس *Paris Talks*' الموضوع السابع ص 32، معرّبا عن الإنجليزية

[14] سورة القمر: أية 50، كما يناشد الباب شعوب عالم الغرب في كتابه قيوم الأسماء قائلا: **"يا أهل الغرب...فأصبحوا في دين الله إخوانا على خط السّواء"** كتاب [منتخباتي أز آثار حضرت نقطة أولي]، ص 32

[15] أنظر أيضا ما سنتناوله في الفصل الثاني عشر 'الخلق الجديد'، تحت بند 'الطّهارة والرقيّ الذاتي'.

[16] مترجما عن الإنجليزية كما وردت في كتيّب 'مبادئ الدين البهائي *Principles of the Bahá'í Faith*' الصادر عن دار النشر البهائية بالولايات المتحدة

[17] إن مبدأ وحدانية الأديان هذا ليس غريبا على المسيحية خلافا لما يقول كارل ماركس بكل عناد (في كتابه 'طقوس الكنيسة *Church Dogmatics*' الطبعة الإنجليزية الباب الأول، الفصل الثاني، صفحة 325 وما بعدها)، فها هو القديس أوغسطين يكتب "إن ما نسميه الآن بالدين المسيحي كان موجودا بالفعل عند القدماء، ولطالما كان ذلك الدين موجودا منذ بداية الوجود البشريّ وإلى أن ظهر المسيح، وعندها بدأت تسمية ذلك الدين الحق – الذي كان موجودا من قبل – بالدين المسيحيّ". (في كتابه 'إعادة النظرة *Retractationes*'، المجلّد الأول – الفصل الثالث عشر)، وإليكم الدعاء التالي للكاردينال الكاثوليكي عالم اللاهوت نيكولاوس كوسانوس Nicolaus

يدعو بهاء الله أتباعه لأن يعاملوا أتباع كافة الأديان بروح المحبة والشفقة وأن يجعلوا الدين سبب الوئام والسلام، بدلاً من أن يكون سبباً للفرقة والشحناء والبغضاء والشقاق.[18]

أما الاستنتاج الثاني (الذي نخلص به من حقيقة ضرورة تجديد الدين الإلهيّ) فهو أنه لا يمكننا تقدير روح الدين وقدرته على ترقية البشر حقّ قدرها إذا ما تفحصنا أديان القبل العظيمة بالصورة التي آلت إليها في عصرنا الحاضر. فهي أديان قد أنجزت الكثير والكثير في العصور الخالية، ولكنها بلغت الآن نهاية دورتها. أو بتعبير آخر، لقد كانت تلك الأديان هي الأساس الذي شيدت عليه حضارات عظيمة، وظلت عبر آلاف السنين نجماً يَهتدي به الملايين من البشر في أمور حياتهم وأعمالهم اليومية، ولكن هذه الأديان جمعت أيضاً ركاماً تاريخياً ضخماً غيّر مسيرتها الأصلية وأثقلها بأوزار أتباعها وتكالبهم على السلطة، فلم تعد تعطي اليوم نفس الصورة التي شَغفت بها القلوب أيام مجدها الأولى. فلا تجد أجيال الحاضر في هذه الديانات 'مَلْح الأرض' الذي شبّه به المسيح المؤمن الحقيقيّ،[19] وإنما يرون فيها 'أفيون الشعوب' حسبما يقول كارل ماركس. كما أن المرء يميل بكل سهولة إلى إدانة الدين كله وأن يرى فيه متناقضات أيام عفا عليها الدهر،

Cusanus (مولود 1401 – متوفي 1464) "يا إلهي، أنت المراد في كل دين بكل وسيلة، والمنادَى بكل اسم، ولكن تبقى كما أنت غيبا منيعا يجِلّ عن إدراك البشر، ويسمو عن كل وصف، فاكشف لنا عن وجهك بفضلك ... فبفضلك لا يبقى هناك سيف ولا كره حقود، ولا يكون شر، ويدرك الكل أن كل الرسوم بأشكالها تنتهي إلى دين واحد". وهذه العبارة الأخيرة من هذا الدعاء هي ترجمة لعبارته اللاتينية *Una religio in rituum varietate* التي جاءت أيضا في دعاء آخر له بعنوان' عن السلام والولاء المتبادل *De pace seu Concordia fidei*' ألّفه هذا الكاردينال عام 1453، وذكره فريدريش هايلار Friedrich Heiler في كتابه 'عن السلام ووحدة الأديان *Einheit und Zusammenarbeit der Religionen*' الطبعة الألمانية ص 16

[18] جاءت هذه المناشدات في مواضع شتى من كتابات بهاء الله ومنها ما جاء في كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 43، إذ يقول "**قلنا وقولنا الحق: عاشروا مع الأديان كلِّها بالرَّوْح والرَّيْحان**"، كما يحذر في [لوح ابن الذئب]، الطبعة الفارسية ص 11، ما ترجمته "إن التعصب الدينيّ والكراهية هما بمثابة نار تحرق العالم، نار لا يخمد أوارها، ولا شيء سوى القدرة الإلهية يخلّص العالم من هذا البلاء الوبيل، عاشروا مع الأديان يا أهل البهاء بالرَّوْح والرَّيْحان". راجع أيضا لوح الإشراقات – الإشراق التاسع، كتاب [مجموعة من ألواح...] ص 28-29

[19] إنجيل متى ح 5: 13

كالاعتقاد في الشياطين والعفاريت الذي ساد في الأيام الخوالي، وإعدام السحرة والمشعوذين الذي حدث في قرون أوروبا الوسطى. بيد أن النبات الذابل لا يُعطي أية فكرة عما كان عليه أيام نضارته وازدهاره. فالأديان في حقيقة الأمر هي 'نور العالم'[20] كما وصفها المسيح، وهي أيضاً – كما تعتبرها تعاليم الدين البهائيّ – أسّ أساس الحضارة الإنسانية. فهي ضرورية ولازمة لترقية البشر لزوم ضوء الشمس لنموّ النبات. فبغير الوحي الإلهيّ لا يكون هناك أيّ تقدم أو حضارة على ظهر البسيطة – أو كما يُحدّثنا بهاء الله أنه "إذا لم يتجلّ (الله على عباده) يهلك الكلّ"[21]

[20] إنجيل متى ح 5: 14

[21] كتاب [منتخباتي...]، 93، والأصل فارسي

الفصل الثامن

المجتمع الجديد

البُعد الأفقيّ

هنــاك فــارق ملحــوظ بــين المفهــوم البهــائيّ فــي الإيمــان والنظــرة المتوارثة في المسيحية وخاصة في الفكر البروتستانتي. ويكمن هذا الفارق في الوزن الذي تعطيه البهائية لهذه الدنيا وللعيش فيها ودَور الدين في حياة المجتمع. فلقد كانت المسيحية تنظر إلى نفسها عبر القرون كعلامة ترشد الإنسان إلى طريق خلاصه. ولم يكن هناك الكثير سوى الحياة الأخرى، أما حياة الدنيا فكانت تعدّ زائفة تافهة،[1] بل إن مارتن لوثر نأى بالدولة والمجتمع بعيداً عن هيمنة ملكوت الله بتعليمه عن المملكتين، وتمييزه بين القوانين وبين الوحي وكذلك بين مملكة الله والمملكة العلمانية. وكأنّ الدين في نظره هو تساؤل واحد "أنّى للإنسان أن يجد طريقه إلى الله الرحيم". [2] فلم تكن العين ترى سوى البعد الرأسيّ في الدين، وتضرب صفحاً عن بعده الأفقي. بيد أن العقود الأخيرة شهدت خروجاً عن هذا المفهوم إلى مفهوم آخر يكاد يناقضه تماماً – كما بيّناه فيما سردناه آنفاً في بداية كتابنا هذا – وذلك من جراء ما كان للفكر الاشتراكيّ والماركسيّ من أثر على اللاهوت المسيحي، كاثوليكيّاً كان أم بروتستانتيّاً[3].

---

[1] في تعليق من فيورباخ Feuerbach– الذي عُرف بانتقاده للأديان – اعتراضا منه على أقوال أبوي كنيسة لاكتانتيوس Lactantius Church أمبروز Ambrose وأوغسطين Augustine، وخاصة ما جاء في 'عظة الشعب Serm. ad. pop. ' من أن 'حياة الجسد ما هي إلاّ سقم متواصل' – يقول فيورباخ: "ليس للطبيعة أية قيمة أو أهمية لدى المسيحيين. فالمسيحيّ لا يفكر إلا في نفسه وخلاصه الذاتيّ. وليس هناك غاية عملية وهدف سوى الجنة – أي تحقيق خلاص النفس (في كتابه روح المسيحية *The Essence of Christianity*) ص 282-283

[2] يستشهد فيورباخ في ص 160-161 من كتابه هذا بتصريح لمارتن لوثر(رائد الحركة البروتستانية) يتضح منه عدم اهتمام لوثر بالحياة الدنيا – جاء فيه: "لذلك من الأفضل للمسيحيّ أن يُنصح بتحمّل المرض في صبر أو حتى بأن يتمنى الموت عاجلاً أفضل من آجلا. لأنه وكما يقول القديس شيبريان St. Cyprian 'ليس هناك شيء أنفع للمسيحيّ من الموت العاجل'، ولكن من الأفضل لنا أن نصغي إلى نصيحة جوفينال الفيلسوف الوثنيّ القائلة 'فلنطلب عقلاً سليماً في جسم سليم'"

[3] راجع فصلنا الأول 'أهي نهاية الدين؟ ' بند 'اللاهوت السياسي' وما بعده

وفـي البهائيّـة، يُنظـر إلـى الـدين بوصـفه قـوة شـاملة تـنظم كياننـا وتحتضن كل مظاهر الحياة وترعاها. فالدين هنا ليس مقصوراً على الفرد وعلاقته بالله. إذ إن له شقّ اجتماعيّ يستحق ما لعنصر الخلاص الفرديّ من سريان وتطبيق. فالمجتمع هو الآخر يحتاج إلى إصلاحه وتحريره من عيوبه وتخليصه من التراكيب البالية الخاملة. لأن الانسان بمفرده وبمعزل عن الحقائق الغيبية والمُثل التي تشكل جوهر الدين يعجز عن إيجاد حل للمتناقضات الإجتماعية الجسيمة، ويكون غير قادر على خلق نظام منصف عادل يتسنى فيه للفرد نفسه أن ينمو ويترقى ويتقدم دون قيود وعوائق، في ضوء معرفته لمنفعته الحقيقية ودوره الصحيح في الحياة. وهذا يعني ضرورة إنهاء حركة عَلمنة المجتمع والدولة والبدء في حركة مضادة تهدف إلى وضع البشرية بأسرها تحت مظلة واحدة هي الناموس الإلهي. وإلى تأسيس نظام عالميّ يتربع فيه الله عرشه ويحكم على شعبه، كما وعدنا به أنبياء الله ورسله.

فالمجتمع العلمانيّ الذي أتى به عصر التنوير الأوروبي، والذي أقصَى الدين عن إدارة دفته يجب إهماله، وكذلك الأمر بالنسبة لرفيقه ألا وهو "حكم الفرد لذاته" ذاك المجرّد من الإيمان والمنفرد بحياته والمسئول أمام نفسه فقط ما عدا مسئوليته أمام مؤسسات الدولة، هذا الرفيق لا بد أن يحلّ محله "الإنسان الجديد". غير أن عملية إقصاء المجتمع العلمانيّ الذي صار الدين فيه مسألة فرديّة بحتة ليس معناه الرجوع إلى الامتيازات الكهنوتية أو الانتكاس نحو الأجواء التي صبغت العصور المظلمة، لأن المجتمع الجديد لا مكان فيه لكهنوت أو تمييز طبقي بين قسيس وعلمانيّ. ففي ظل النظام العالمي الجديد سيكون عنصر الاسترشاد بأحكام الدين واحدا من المبادئ التي ستنظم عمل مؤسسات تشكّل على أسس ديمقراطية[4].

حاجة المجتمع ككلّ إلى الخلاص

لا يستطيع المجتمع أن يقطع شوطاً طويلاً في الحياة دون التزوّد بقيم سامية معينة، أو في غياب إطار يرسم حدوداً صارمة توفّر التوجيه والإرشاد، ويجب أن يكون هناك اتفاق وتعارف أساسيّ على المسائل الرئيسية في حياة الإنسان والغايات التي تنظم المجتمع من أجل بلوغها. هذا إذا ما قُدّر للمجتمع ألا يفقد تماسكه ويتحلل شيئاً فشيئاً إلى مختلف العناصر التي تمثلها مجموعات المصالح المتناحرة. وتنطبق هذه الشروط خاصة

---

4 سنتناول فكرة الحكم الإيمانيّ في الفصل الثالث عشر 'المجتمع البهائي'

على المجتمع الكبير الذي ينطوي على كمّ من العناصر المتباينة. فها هو وليام بريتسنكا W. Brezinka يشرح لنا الظروف الحياتية التي يتعرض لها الناس في هذا المجتمع (الغربيّ المعاصر) وما يعانونه من غياب الرؤية وضياع الوجهة: "لقد ساهمت زيادة السكان، والتركيز على التصنيع على حساب كثير من الأنشطة الاقتصادية، وتفشّي البيروقراطية، والاغتراب عن الطبيعة، والتمادي في التخصّص المهنيّ الضيق، وترحال البشر الدائب طلباً للعيش، والنزوح من الريف إلى المدن، والانصراف عن الدين، وزخم المعلومات التي يجب تحصيلها، وطوفان المنشّطات – هي والكثير من العوامل الأخرى فيجعل الوضع الإجتماعيّ شديد التعقيد مستعصِياً على الفهم. ومعظم الناس لا يتوفر لها سوى حيز ضيق للتصرف سواء في حياتهم الخاصة أو المهنية. كما أنّ التجربة المتاحة لهم لا تكفي لإعانتهم على فهم الأحوال الإجتماعية والحضارية التي تعتمد حياتهم عليها"[5]. أما هيلموت شيلسكي Helmut Schelsky فيتحدث عن الزيادة الدؤوبة لما أسماه "تعقيد العلاقات الاجتماعية وتشابكها واختزالها في المجتمعات الحديثة الضخمة، بما فيها من إغراق في المعلومات، والحرية المتمادية في النقد، والإفراط في كل لون من ألوان الذاتية"[6]. ويحكي شيلسكي عن انحدار المدنية التقنية بتقسيمها الشديد للعمل والمهارات شيئاً فشيئاً نحو "علاقات مادية واجتماعية لا شخصية يجري التحكم فيها عن بعد – مدنية لم يعد الفرد فيها قادراً على استيعاب أو تفهم هذه العلاقات في مجال العمل، ولم تعد عقلانية الفرد فيها ندّاً متكافئاً لتعقيد العالم الحديث وتشابكه. بل باتت هذه العقلانية مرفوضة من مدنية صنعتها العقلانية بأيديها"[7]. وبذلك أصبحت الحياة في المجتمع شديدة التعقيد بدرجة يستحيل معها أن يكوّن الفرد فكرة سليمة عن صور الوجود الاجتماعيّ وأشكاله"[8]. ويتكلم شيلسكي أيضاً مستشهداً بأقوال فريدرش تنبروك Friedrich Tenbruck عن محدودية العقلانية الفردية وغطرسة المنطق الذي يُبنى عليه تنظيم المجتمع بكافة

---

[5] في كتابه 'التربية والتعليم والثورة الثقافية *Erziehung und Kulturrevolution*' ص 12

[6] في كتابه 'آخرون يقومون بالعمل *Die Arbeit tun die anderen*' ص 116 وأيضا ص 110

[7] المرجع السابق ص 195

[8] قول 'كلاوس مولنهاور Klaus Mollenhauer' في كتابه 'التعليم والتحرر *Education and Emancipation*' كما أوردها 'بريتسنكا Brezinka'، في مرجع سبق ذكره ص 114

طبقاته"[9]، ومن ثم يَخلُص إلى القول بأن فكرة أنّ الانسان قادر على فهم المجتمع بكامله وعلى تفهّم العلاقات التي تربط بين... الأشكال الاجتماعية وتراكيب الوعي الإنساني، وعلى اختراق الحجب والأيدولوجيات وإدراك كيف يحكي الكلّ عن جزئياته المنفردة". [10]وهي فكرة تكمن في أساسيات الاعتقاد بأنه يمكن القيام بالتخطيط المنطقي للمجتمع ككيان يمكن التحكّم فيه[11] - هو "قول يبعد عن الواقع ويغالي في تقييمه لقوة العقل والمنطق" كما يصف بريتسنكا Brezinka[12] الذي يرى أن "الاعتقاد في أن بمقدور الإنسان أن يفهم التفاعلات الاجتماعية برمّتها وأن بوسعه العمل من تلقاء ذاته وتقرير مصيره بنفسه بالاستناد فقط إلى العقل والمنطق دون أيّ شكل من أشكال الخضوع إلى مرجعية عليا هو وهم يرقى إلى مستوى تطلّع الإنسان بغير استحقاق إلى أن يتبوأ مكانة الألوهية، بعِلْمها غير المحدود وقدرتها على العمل بغير قيود". [13]

---

[9] ردد هيلموت شيلسكي Helmut Schelsky في ص 195 من كتابه ‘آخرون يقومون بالعمل’ مقولة تنبروك Tenbruck "إن أشد الحقائق الغصّة التي يتعين على إنسان اليوم المغرور ابتلاعها هو أن العالم الذي اختلقه هو بنفسه يحتّم عليه الغوص في عقلانيته التي هي أصلا محدودة بالضرورة"

[10] من أقوال فرانز هاينش Franz Heinisch في كتابه ‘التربية السياسية أهي دمج أو تحرير؟ *Politische Bildung — Integration oder Emanzipation?*’ استشهد بها بريتسينكا في مرجعه المشار اليه آنفا ص 114

[11] صاحب هذه النظرية هو ‘أوجست كومت Auguste Comte’ - (1798-1857) مؤسس علم الاجتماع وكان من رأيه أن كافة العمليات سواء كانت جسمانية أو ذهنية تخضع لقوانين ثابتة لا يمكن تغييرها، فعلم الاجتماع الذي استنبطه وأسماه ‘الفيزياء الاجتماعية’ قصد به أن يحسب العمليات الاجتماعية ويتحكم فيها تماما كما يتحكم علم الفيزياء في عمليات المادة الغير عضوية وأن نتمكن من الاستفادة من هذه العمليات بأساليب تقنية، وكان يتوق أن تمكنه نظرياته هذه من التخطيط الدقيق مسبقاً للحياة الاجتماعية المستقبلية والامساك بناصيتها على طريق من التقدم لم يسبق للبشرية أن سلكته من قبل (حسبما جاء في مؤلفه ‘بحث في النفس الإيجابية *Discours sur l'esprit positif*’ عام 1844)

[12] كتاب ‘التربية والتعليم والثورة التفافية *Erziehung und Kulturrevolution*’ ص 115

[13] المرجع السابق، وكذلك ما سيأتي في فصلنا العاشر "السلطة والحرية" بند ‘الوحي السماويّ والفلسفات المادية’ حينما نتحدّث عن الدين بوصفه نظام توجيه اجتماعيّ متكامل

أما كارل شتاينبوك Karl Steinbuch فقد وصف بإسهاب عجز الانسان عن امتصاص المعلومات واستيعابها[14] إذ يرى هو الآخر أن وعي الإنسان عاجز عن اللحاق بتعقيدات عالم اليوم وتشابكاته، وأنه كلما ازداد ما نعرفه عن عالمنا كلما ازداد عجزنا عن فهمه بطريقة شاملة. [15] وأننا "نرى بعض الرؤيا" على حد قول بولس الرسول[16]، ونبقى على هذه الحالة "وتتسع شيئاً فشيئاً تلك الهوة التي تفصل ما بين تشابك عالمنا وتعقيده من جهة، وعجز وعْينا عن فهمه من جهة أخرى". [17] وبذلك تتحطم طائرة المخططين الاجتماعيين، ليس من جراء "مكائد الرجعيين الذين يناصبونهم العداء" وإنما لحقيقة أخري، وهي أنهم بفهمهم المحدود للعالم لم يدركوا أن "العالم أشد تعقيداً مما يقدر وعينا على استيعابه". [18] ومن رأي شتاينبوك أيضاً أن "أشد النظريات عمقاً قي وقتنا الحاضر هي تلك القائلة بأنه طالما كانت العقلانية محدودة فإن على المرء أيضاً أن يتصرف على ضوء تجارب لا ترتكن إلى قاعدة العلّة والمعلول"[19] ولقد بدأ علماء الاقتصاد السياسي أيضاً وخبراء علم الاجتماع والمفكرون الاجتماعيون يدركون – وإن كان إدراكهم هذا على مضض – "أن معضلات المجتمع هي أشد تعقيداً مما كانوا يتصورون، وأن التجربة بمفردها ودون عون موجِّه للسلوك الإنسانيّ والمسائل الحياتية لم تعد هي الموجِّه الصحيح لفهم المعضلات الفنية المعقدة لأيّ مجتمع معاصر". [20]أو كما يقول دانيل بيل "إن منظومة العلاقات الإجتماعية على درجة شديدة من التشابك والتباين، كما أن الخبرات شديدة في التخصص والتعقيد والاستعصاء على الفهم، بدرجة يصعب معها إيجاد رموز مشتركة يمكن بها ربط أيّ خبرة بالأخرى. "[21]

---

[14] في مؤلفه ‘العارف بالكثير *Maßlos informiert*’، ص 156 وما بعدها

[15] المرجع السابق ص 161-204

[16] رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس - ح 13:آية 9

[17] كتاب ‘العارف بالكثير’، مرجع سابق، ص 272

[18] المرجع السابق ص 190

[19] المرجع السابق نفس الصفحة

[20] دانييل بيل Daniel Bell، في كتابه ‘المتناقضات الحضارية في الرأسمالية *The Cultural Contradictions of Capitalism*’ ص251 و202

[21] المرجع السابق ص 95 – كما أن الفيلسوف الألمانيّ هيرمان كرينجز Hermann Krings يدرك أيضا أن المنطق لا يكمن في التقدم، وأن العقلانية التي توجه التقدم العلميّ والتقنيّ تعجز عن تصحيح نفسها أو أن تمنح ذاتها توجّها عقلانيا. وأن

أما الهيكل الإرشاديّ الذي يُعطي للمجتمع معناه، ويشير إلى الهدف والغاية من الحياة، وينير الطريق ويعطي الأساس لنظام أخلاقيّ مشترك يلم شتات المجتمع ويصهره في كيان واحد ويمنحه الاستقرار والتماسك فهو الدين.

وكما يقول دانيل بيل فإن "القول بأن الله قد مات يعني في حقيقة الأمر أن الأواصر الإجتماعية قد انفكت وأن المجتمع أيضا قد مات"،[22] "ويبرهن على حقيقة أن الدولة بوصفها تجسيداً لنظام أخلاقيّ يعتمد على الدين" وكذلك على حقيقة أخرى وهي أن الدين بصفته صائغاً للقيم لا يمكن الاستغناء عنه "وهو راجع أيضاً إلى أن الديموقراطية، كما قال العالم الأمريكيّ الشهير صمويل بير،Samuel H Beer' هي "مبدأ اتضح بكل جلاء أنه فارغ من أيّ مضمون". فالديموقراطية على حد قوله تقتات روحياً على فتات القيم التي كانت موجودة في زمان يسبق أزمنتنا المعاصرة، وأنها لم تعد تنطوي في ذاتها على أية أفكار جديدة لها خاصية الإلزام. ويرى أن أية دولة تعتقد أن بوسعها الاستغناء عن المفاهيم الدينية بحجة أنها إيديولوجيات لم يساهم في صياغتها البشر، "تصير رويداً رويداً دولة فارغة من أيّ معنى ومضمون وتبيت عرضة للتعدّي والانحلال". [23]

وطبقاً لتعاليم بهاء الله فإن كلاً من الفرد بمفرده والإنسانية ككل محتاجان إلى الاستنارة والهداية من المظاهر الإلهية، أي من الرسل والأنبياء. وبغير هذه الهداية السماوية لا يكون بمقدور الإنسان الفرد أو المجتمع الإنسانيّ أن يحيا. فالمظهر الإلهيّ في الحاضر، كما كان الحال في

الاحتكام إلى ما أسماه (العقل الأسمى)، الذي لا يخضع لناموس التقدم الماديّ، هو أمر حتميّ. أما عالم الاجتماع نيكلاس لوهمان Niklas Luhmann فهو يرى أن مجتمع الغرب الصناعيّ المتقدم دائب الانقسام إلى أنظمة فرعية تتباعد شيئا فشيئا، ويعمل كل منها في معزل عن الآخر ولم يعد لها مركز تستقر فيه وتتطور. ولهذا يشك لوهمان في امكانية تحقيق استقرار المجتمع ككيان واحد في مستقبل الأيام (نقلا عن مقالة للكاتب مالتي بوتشيك Malte Buschbeck بعنوان 'ما هو البديل لاعتقادنا في التقدم؟ - عن الفائدة العلاجية ليوم القيامة بالنسبة لمجتمعنا العلمانيّ Was ersetzt uns den Fortschrittsglauben? Vom therapeutischen Nutzen der Apokalypse für die säkulare Gesellschaft'، التي نشرتها جريدة *Süddeutsche Zeitung* عدد 14و15 يونيو 1980، في معرض نقلها لوقائع مؤتمر ربيع عام 1980 لمعهد دراسات المجتمع المدني المسمّى بـ سيفيتاس *Civitas*

[22] دانييل بيل، المرجع السابق ص 155

[23] نقلا عن كتاب راينر شميدت Reiner Schmidt 'الدولة المتحدّاة *Der geforderte Staat*'

الماضي، هو طبيب حاذق يشخّص علل البشرية ويصف لها الدواء. ويشرح بهاء الله هذه الحقيقة بقوله: "إن الانبياء هم بمثابة الاطباء يقومون برعاية العالم واهله، ويعالجون مرض الفرقة والاختلاف بدواء الوحدة والاتحاد. لا يُسأل الطبيب عن قوله أو فعله لأنه خبير بأحوال جسم الانسان والامراض التي تعتريه، فأنّى لطائر بصيرة أهل الأرض أن يصل إلى علوّ سماء علم الطبيب الإلهيّ وحكمته. "[24] وبقوله أيضاً "إن نبض العالم بيد الطبيب العالِم، إنه يشخّص المرض ويعطي العلاج بعلمه اللدنّي. لكلّ عصر أوجاع، وفي كل رأس اهواء، داء اليوم له دواء، وداء الغد له دواء آخر.[25] والسبب في أنّ جسد العالم قد حُرم من الراحة بل افتقد الشفاء و'اشتدّ مرضه'[26] هو أن الطبيب ممنوع"، "أما المتطبب فهو مقبول ومشغول"[27]، وأن المريض - أي هذا العالَم – قد "وقع تَحْتَ تَصَرُّفِ أَطِبَّاءَ غَيْرِ حَاذِقَةٍ الَّذِينَ رَكِبُوا مَطِيَّةَ الهَوَى وَكَانُوا مِنَ الهَائِمِينَ".[28]

الدين أسّ أساس النظام الإجتماعي

الدين – طبقا للتعاليم البهائية – هو أسّ أساس النَّظْم، والقوة التي تحكم المجتمع وتمنحه الاستقرار في آن واحد. ولطالما أكّد بهاء الله على دور الدين البارز والحيويّ بالنسبة لكل من المجتمع والقانون والنظام. إذ يقول إن الدين "هُوَ السَّبَبُ الأَعْظَمُ لِنَظْمِ الْعَالَمِ وَاطْمِئْنَانِ مَنْ فِي الإِمْكَانِ"[29] كما يقول أيضا بأنه "هُوَ النُّورُ الْمُبِينُ وَالْحِصْنُ الْمَتِينُ لِحِفْظِ أَهْلِ الْعَالَمِ وَرَاحَتِهِم، إِذْ إِنَّ خَشْيَةَ اللهِ تَأْمُرُ النَّاسَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُم عَنِ الْمُنْكَرِ فَلَوْ احْتَجَبَ سِرَاجُ الدِّينِ لَتَطَرَّقَ الْهَرْجُ وَالْمَرْجُ وَامْتَنَعَ نَيِّرُ الْعَدْلِ وَالإِنْصَافِ عَنِ الإِشْرَاقِ وَشَمْسُ الأَمْنِ وَالاطْمِئْنَانِ عَنِ الإِنْوَارِ. "[30] فالنظرة الثاقبة إلى الدين بوصفه المادة اللاصقة التي تعمل على تلاحم المجتمع وتماسكه ليست

---

[24] بهاء الله [منتخباتي...]المقتطف 34

[25] المرجع السابق المقتطف 106

[26] المرجع السابق المقتطف 120

[27] المرجع السابق المقتطف 16

[28] المرجع السابق، المقتطف 120، ووردت أيضا في كتاب [ألواح حضرة بهاء الله إلى الملوك والرؤساء] ص 60

[29] كتاب [مجموعة من ألواح...]، لوح الكلمات الفردوسية ص 81

[30] المرجع السابق، لوح الاشراقات ص 23- 24

شيئاً جديداً، وإنما هي حقيقة منسيّة. فقد أدرك فرانسيس بيكون Francis Bacon حقيقة أن الدين، كما يقول، "هو الرباط الأول في المجتمع الإنسانيّ، ويكون الدين باعثاً على السرور والسعادة عندما يكون الدين نفسه محاطاً تماماً برباط الاتحاد الحقيقي".[31] كما يقول جاكوب بركهارد Jacob Burckhardt أيضاً "إن الدين هو الرابطة الأساسية في المجتمع الإنساني، إذ إنه هو الأمين المقبول على تلك الحالة الأخلاقية التي تجعل المجتمع متماسكاً".[32] إلا أنه عندما يهتز الركن الركين لحضارتنا ونظامنا – ألا وهو الدين – من جراء ضعف إيمان الإنسان المعاصر، وعندما تنقطع وتيرة العيش بمقتضى العقيدة من جراء رفض القيم التي أتى بها الدين، وعدم الالتزام بها أو التسليم بصحتها، بل التشكيك الناقد لها وإنكارها بدلاً من ذلك، فعندئذ لا يجب علينا الاندهاش من مدّ الانحطاط الأخلاقيّ الزاحف على مجتمعنا، وتفسّخ حضارتنا، وطوفان العنف والارهاب وهذا الخروج على القانون الذي لم يترك أُمّة إلاّ وأصابها.

نظام بهاء الله العالمي

لقد جدّد بهاء الله القيم الأخلاقية[33] وملأها بمضمون جديد وروح جديدة، كما وأودع فيها عزماً جديداً من الالتزام، وبذلك أرسى الأساس لخَلق جديد وحضارة جديدة. وهناك سابقة تاريخية لعملية التجديد هذه، فإنه عندما غزت جحافل البربر ممالك الإمبراطورية الرومانية وقف لهم بالمرصاد ذلك المفهوم المسيحيّ السليم في الحياة، وبهذا قامت حضارة جديدة على أنقاض روما. وكذلك الحال في يومنا الحاضر، حيث يتداعى العالم القديم بينما البهائيون في انشغال لتشييد نظام جديد ومجتمع جديد يكونان بمثابة القالب والنموذج للنظام العالميّ الذي أتى به بهاء الله. فلقد أرسى بهاء الله قواعد هذا النظام الجديد الذي ستحي في ظله شعوب العالم كله في سلام وعدل، ويربطها إيمان واحد بالله وبرسالته. فلقد جاء بهاء الله لتأسيس ملكوت الله الموعود على الأرض[34] وهو ملكوت لن يكون من خوارق

---

[31] مقالات فرانسيس بيكون- مقال ‘الوحدة في الدين*Unity in Religion*’ ص 6

[32] في مؤلفه ‘تأملات في التاريخ *Reflections on History*’ ص 93

[33] أنظر ما سوف نتناوله في الفصل الثاني عشر "الخلق الجديد"، بند ‘الناموس الأخلاقيّ الجديد’.

[34] ليس هناك تناقض بين عبارة المسيح "هَا مَلَكُوتُ اللهِ دَاخِلَكُمْ" (انجيل لوقا – ح 17: 21) وتوقع تأسيس ملكوت الله على هذه الأرض، فهي عبارة لا تحدد زماناً، بل

الطبيعة أو يهبط من السماء، أو من كوكب آخر، كما أنها ليست كناية أو تشبيهاً لدار البقاء التي سيحيى فيها الجنس البشريّ بعد فناء الحياة على هذا الكوكب. ولكنها مملكة سوف تتأسس على كوكبنا الأرضيّ هذا. وهي ليست سوى تحقق وحدة الجنس البشريّ والسلام العالميّ أو (الصلح الأعظم) - كما أسماه بهاء الله في ألواحه – وخلق نظام شامل قائم على العدل والإنصاف يستطيع كل كائن بشريّ أن يحيا فيه مشمولا بالأمن والأمان وأن يحقق ذاته طبقاً للتعاليم الإلهية. فهي مملكة يحكم فيها الله شعبه بنفسه.

وحدة الجنس البشري

تكمن العلة الأساسية للنوع البشريّ – كما يقول بهاء الله - في تنازعه وتناحره، وفي الكراهية والتعصبات التي تبعد الناس عن بعضها البعض. فكل الأسقام والعلل التي تصيب الجنس البشريّ في يومنا هذا ما هي إلا أعراض لهذه العلّة. يقول بهاء الله في ألواحه: "لاحِظُوا كَمْ مِنَ السِّنِينَ مَضَتْ وَلَمْ تَهْدَأْ فِيهَا الأَرْضُ وَلاَ أَهْلُهَا. إِنَّهُمْ مَشْغُولُونَ بِالْحَرْبِ تَارَةً وَمُعَذَّبُونَ بِالْبَلاَيَا الْمُفَاجِئَةِ تَارَةً أُخْرَى وَقَدْ أَحَاطَتِ الأَرْضَ الْبَأْسَآءُ وَالضَّرَّآءُ. وَمَعَ ذَلِكَ لاَ يَعْلَمُ أَحَدٌ سَبَبَهُ وَعِلَّتَهُ. إِذَا تَكَلَّمَ النَّاصِحُ الْحَقِيقِيُّ[35] أَخَذُوهَا على مَحْمَلِ الْفَسَادِ وَلَم يَقْبَلُوهَا مِنْهُ. الإِنْسَانُ فِي حَيْرَةٍ مَاذَا يَقُولُ وَبِمَاذَا يَتَحَدَّثُ لاَ يُرى فِي الْحَقِيقَةِ نَفْسَانِ مُتَّحِدَانِ ظَاهِراً وَبَاطِناً. وَمَعَ أَنَّ الْكُلَّ خُلِقُوا لِلاتِّحَادِ وَالاتِّفَاقِ"[36] أما الدواء الذي وصفه بهاء الله – ذلك

تصف حالة روحية. فمن لم يشيّدوا ملكوت الله في أنفسهم اولاً يعجزون عن تأسيسه كنظام على الأرض. إذ إن نظاما صالحاً لا يأتي به شعب غير صالح. بيد أن عبارة المسيح هذه تنسحب أيضا على ميعاد تاريخيّ مخطط له أن يحدث في دور تالٍ، بمعنى أن زمن مجيء ملكوت الله على الأرض كما وعدنا به أنبياء العهد القديم لم يأت في الدورة المسيحية. أما الإسلام فقد أعطى الإنسان الصالح نموذجا جزئيا من المجتمع الصالح ضمن الحكم الدينيّ الذي أسسه، أما النظام العالميّ القائم على الإيمان فقد أصبح ممكناً فقط في عصرنا الحالي لأن العالم قد أصبح صغيرا بفعل التكنولوجيا، وتقاربت الشعوب أكثر فأكثر. وإذا ما نظرنا إلى هذه المرحلة في مسار البشرية بمنظار تاريخ الأديان لما وجدنا أية مصادفة في ظهور بهاء الله في نفس الوقت الذي بدأت فيه هذه التطورات تحدث للبشرية. ومجيء ملكوت الله على الأرض كدولة سلام وجدانية في وقت المنتهى هو اعتقاد مألوف في الفكر المسيحي. إلا أن هناك نزعة لاعتباره مملكة لا تخرج أبداً عن كونها أمراً غيبياً وليست حكماً واقعياً سياسياً.

[35] ويَقصُد به المظهر أو الرسول الإلهي

[36] كتاب [مجموعة من ألواح...] لوح مقصود، ص 143

الطبيب المؤيد – لأسقام البشرية فهو اتحادها – إذ يقول: "**وَالَّذِي جَعَلَهُ اللهُ الدِّرْياقَ الأَعْظَمَ وَالسَّبَبَ الأَتَمَّ لِصِحَّتِهِ هُوَ اتِّحادُ مَنْ على الأَرْضِ على أَمْرٍ وَاحِدٍ وَشَرِيعَةٍ واحِدَةٍ**"[37] كما يقول: "وهذا الاصلاح وهذه الراحة لن يتحققاً سوى بالاتحاد والاتفاق"[38] فلا يستطيع البشر بمفردهم تحقيق ذلك الانصهار والتلاحم ما بين كافة الشعوب والأجناس، ولا هدم وإزالة كافة الحواجز التي تفرّقهم إلا بعوْن إلهيّ. كما يقول: "وذلك لن يتحقق سوى بنصائح القلم الأعلى."[39]

ورغم صدور هذه النصائح منذ قرن ونيف من الزمن، فإننا حتى هذه اللحظة نجد معظم الناس – كما يوضح بيت العدل الأعظم- "تنتهج مسلكاً مخالفاً لذلك تماماً، فهم ينظرون إلى وحدة الجنس البشريّ على أنها هدف بعيد المدى وصعب المنال فيصرفون همهم في تطبيب الأمراض الأخرى التي تحل بالبشرية، وما هذه الأسقام إلّا ظواهر وأعراض وآثار جانبية للعلة الأساسية، ألا وهي الافتقار إلى الوحدة والاتحاد، ولكنهم لا يعلمون"[40]

الدين – هل هو سبب الإتحاد والائتلاف؟

ليس هناك ما يفوق رباط العقيدة الواحدة في أثره الجامع الشامل، ويطالعنا تاريخ الأديان كيف اتسمت جميعها بهذه القوة الباعثة على الإتحاد والائتلاف. فالاتحاد هو روح الدين وجوهره، ولقد جمعت المسيحية في قرونها الأولى شعوباً متمدنة كاليونان والرومان من جهة، مع الشعوب الهمجية التي كانت تحيا في شمال أوروبا كالجرمان والسلاف والكلت *Celts* – لا على اتحاد سياسيّ، لأن ذلك الزمان لم يكن مؤاتيا لتحقيق الوحدة

---

[37] كتاب [ألواح حضرة بهاء الله إلى الملوك والرؤساء]، لوح الملكة فيكتوريا، ص 60

[38] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف131

[39] المرجع السابق، ولقد أصبحت وحدة الجنس البشريّ في الآونة الأخيرة محل اهتمام متزايد من جانب الدراسات التي يرعاها مجلس توافق الكنائس، مثل مجموعة الأبحاث التي صدرت بعنوان ‘الوحدة في عالم اليوم *Unity in the World of Today*’ جمع وتصويب ‘جايكو موللر فاهرنهولز Geiko Müller-Fahrenholz’، بما ورد فيها من مساهمات عديدة –طبعة فرانكفورت عام 1978.

[40] مترجما من مجموعة رسائل بيت العدل الأعظم بعنوان ‘ينبوع الهداية *Wellspring of Guidance*’ الطبعة الانجليزية ص 131

السياسية أو للقضاء على الحروب، [41] وإنما جمعتهم من خلال توجيه أفكارهم نحو قيم أساسية مشتركة وتعاليم دينية واحدة فحققت بذلك الحضارة المسيحية الغربية.

أما الإسلام فهو أعظم مثل على ما للدين الإلهيّ من قوة جامعة شاملة فلقد تسنّى للنبيّ محمد أيام حياته أن يؤلّف ما بين قبائل الجزيرة العربية المتناحرة التي لم تفتأ يوماً عن الحروب والضغائن فيما بينها وأخضعها لحكم الإسلام ومبادئه. ولم يمض قرنان من الزمن إلا وأسس الإسلام إمبراطورية امتدت غرباً من جبال البرانس على حدود إسبانيا وفرنسا، إلى نهر الجانجيز في أقصى بلاد الهند شرقاً – امبراطورية كان شرع الله فيها هو النبراس المطلق، اتحدت فيها الشعوب على مختلف مشاربها العرقية والجنسية وعقائدها الدينية – برباط الدعوة. وبذلك أرسى الدين قواعد الحضارة التي سادت قروناً طويلة. أما اليوم فلقد حان زمان تحقيق أسمى ما تصبو إليه البشرية من مدنية، وهو ما أشار إليه الفلاسفة بعبارة 'الدولة العالمية الكبرى *Civitas maxima*'، فلقد جاء بهاء الله ليرشد البشرية إلى طريق الوحدة ويؤسس مجتمعاً عالمياً يحتضن كل شعوب الأرض. مصداقاً لوعده **"قَدْ جَاءَ الغُلامُ لِيُحْيِي العَالَمَ وَيَتَّحِدَ مَنْ على الأَرْضِ كُلِّها فَسَوْفَ يَغْلِبُ ما أَرَادَ اللهُ"**[42] ولكن يجب علينا هنا أن نتناول بالتحليل اعتراضاً له رجاحته: وهو أن تاريخ الأديان يمكن أن يساق للبرهنة على عكس هذا تماماً، أي أن الأديان كانت سبباً في تفريق البشر وتقسيمهم إلى 'مؤمنين' و 'غير مؤمنين'. إلا أن هذا التباعد والشقاق الذي يُنسب إلى الدين ناجم عن الادعاءات المتصلبة العدائية بالختمية والاستئثار بالخلاص التي اثقلت كاهل هذه الأديان بمرور الأيام[β]. فالشقاق الذي أحدثته الأديان والعقائد ناشئ عن أحداث تاريخية أخذت منعطفاً خاطئاً[43]، فهي مخالفة

---

[41] راجع على سبيل المثال انجيل متى، ح 10: 34

[42] كتاب [ألواح حضرة بهاء الله إلى الملوك والرؤساء]، لوح عالي باشا رئيس وزراء الدولة العثمانية – ص 66

[β] [المترجم]: راجع رسالة بيت العدل الأعظم إلى قادة الأديان في العالم، الصادرة في أبريل 2002 الموجودة على الرابط التالي:

http://www. bahai. org/library/authoritative-texts/the-universal-house-of-justice/messages/20020401_001/20020401_001. pdf

[43] للمزيد عن هذه المسألة طالع أرنولد توينبي Arnold Toynbee في كتابه 'التغيير والتعوّد *Change and Habit*' الطبعة الانجليزية ص 166

لطبيعة الدين الحقّة.[44] ولقد أشار بهاء الله لهذا بقوله: "إِنَّ دِينَ اللهِ وَمَذْهَبَهُ قَدْ نُزِّلَ وَظَهَرَ مِنْ سَمَاءِ مَشِيئَةِ مَالِكِ الْقِدَمِ لِمَحْضِ اتِّحَادِ أَهْلِ الْعَالَمِ وَاتِّفَاقِهِمْ فَلاَ تَجْعَلُوهُ سَبَبَ الاخْتِلاَفِ وَالنِّفَاقِ. "[45] كما يقول عبد البهاء أيضا: "الدين أساس الألفة والمحبة وبنيان الارتباط والوحدة، فلو كان الدين سبب العداوة لما وهب الناس الألفة، بل كان أورثهم العداوة، ولكان عدمه أفضل من وجوده ولرجحت كفة نبذه عن التشبث به"[46(أ)]... "ولقد كان جميع الأنبياء بمثابة الأطباء للنفوس، ووصفوا العلاج الناجع لشفاء البشر، والدواء الذي يورث السّقم والعلة لا يكون من عند الطبيب العظيم الأعظم"[47 (ب)].

وفيما يتعلق بالبهائية، فإن المرء قد لا يجد في التاريخ أيّ دليل على أن البهائية هي الأخرى ليست بمنأى عن هذا المصير لأنها ما زالت في مهد نشأتها الأولى، إلا أنها – وعلى الرغم من حدوث محاولات عديدة لصدعها وتفتيتها – ما زالت محتفظة بوحدتها. فعلى خلاف ما سبقها من ديانات سماوية، تحظى البهائية بمجموعة هائلة من النصوص المؤصّلة بخط رسولها، وزخم مستنديّ كبير في شرح هذا التنزيل من مبيّنيْن إثنين مختاريْن بعهد إلهي، وهما عبد البهاء وشوقي أفندي. كما تحظى بنظام إداريّ إلهي المصدر، إذ أوجده بهاء الله نفسه. ويرى البهائيون أن هذه التدابير تشكل حصناً يحمي البهائية من تلك العناصر التي أدّت فيما مضى من الزمان إلى الانقسامات الدينية بكل ما لازمها من تبعات كالخلاف على تفسير التنزيل وكيفية إدارة شئون المجتمع. بالإضافة إلى أن البهائيين يوقنون بوعد بهاء الله بأن هذا **"نهار. لن يعقبه الليل"**[47(أ)]، وتأكيده بأن الله قد **"وضع أمره على أساس ثابت راسخ متين لا تزعزعه أرياح العالم ولا إشارات الأمم"**[48 (ب)].

---

[44] يصرح كارل بارث Karl Barth في مؤلفه 'عقائد الكنيسة *Church Dogmatics*' أن المسيحية هي 'الدين الحق' وأن ما عداها من الأديان هي 'أديان الباطل'– الفصل التاسع فقرة 2 ص 344 (وهي نظرة معظم، إن لم يكن جميع، علماء الأديان الأخرى إلى دينهم [المترجم])

[45]كتاب [مجموعة من ألواح...]، لوح الاشراقات ص 28

[46(أ)] كتاب [خطب عبد البهاء في أوروبا وأمريكا]، ص71

[47(ب)] كتاب [أحاديث باريس *Paris Talks*]، ص 130، مترجما عن الإنجليزية

[47 (أ)] سورة الهيكل – كتاب [آثار قلم أعلى] المجلد الأول

48 (ب) وردت في رسالة شوقي أفندي المعنونة [النظام البديع لدورة حضرة بهاء الله]

الوحدة في التعدد والتنوع

إن الوحدة التي ينادي بها بهاء الله لا تعني التطابق والتماثل، وهي ليست وحدة ميكانيكية ينضوي تحتها بشر يتصرفون كالإنسان الآلي، أو تقوم على تنظيم جامد صارم[48] ولكنها وحدة عضوية، فهي وحدة مثل بستان مليء بالورود والأزهار والرياحين يكمن رونقه وبهاؤه في تنوعه. فكما يقول عبد البهاء: "تأملوا بستاناً جميلاً مليئاً بالرياحين والنباتات والأشجار، لكل زهرة رونق مختلف وجمال معين، ولكل منها شذاها ولونها الجميل. كذلك الحال مع الانسانية، فهي على مختلف الأجناس، وشعوبها على مختلف الألوان من أبيض وأسود وأصفر وخمريّ وأحمر غير أنهم جميعاً من الله الأحد والكل عباده"[49] فالوحدة في التنوع ليست مجرد نظرية منعزلة عن الواقع، بل هي تجربة واقع حي. وهي تتجلى أيضاً في الاهتمام المتزايد بالأقليات والعناية الخاصة التي يوليها المجتمع البهائيّ بهم، فلقد أوصى عبد البهاء أن يعني البهائيون بهم عناية خاصة[50] بمعنى أن نعترف بهويتهم الحضارية ونحافظ عليها، ونعزز من اعتدادهم بأنفسهم، وهو أمر لا يتسنى طالما لم نتغلّب على التعصبات العرقية والثقافية التي أصبحت تتفشى على نطاق واسع. ومن يأخذ قول بهاء الله: "كلكم أثمار شجرة واحدة واوراق غصن واحد"[51] - على محمل الجد - لن يبقى لديه سبب لأن يفتخر بأصله وفصله بقدر زائد عن الحد. فمن قول بهاء الله أيضاً **"يا أبناء الإنسان هل**

---

48 للمزيد عن طبيعة الوحدة التي ينادي بها الدين البهائي راجع كتاب 'هيرمان جروسمان Hermann Grossmann' المعنون 'السبق إلى الحرية *Umbruch zur Einheit*' الطبعة الألمانية، ص 19 وما بعدها

49 كتاب [أحاديث باريس*Paris Talks*] فصل 42 ص 138، مترجما عن الإنجليزية

50 كما في عديد من خطبه في أمريكا التي تضمنها كتاب 'ترويج السلام العالمي *The Promulgation of Universal Peace*'، وقد أورد حسن بليوزي أمثلة منها في كتابه 'عبد البهاء'، الطبعة الانجليزية صفحات 179، 182، 228، 326 حتى 329 – ولقد اختص عبد البهاء قبائل هنود أمريكا الحمر والاسكيمو في ألواحه التي وجهها إلى بهائيي أمريكا في مجموعة رسائله المعروفة بعنوان 'ألواح الخطة الإلهية', وأشار اليها أيضا حسن بليوزي في مرجعه هذا ص 424 – ولقد شبّه عبد البهاء سكان أمريكا الأصليين بقبائل الجزيرة العربية قبل بعثة نبي الإسلام لهم. فمثلما تبدّلت حال القبائل العربية بتعاليم الإسلام بدأت أحوال هنود أمريكا والاسكيمو تتغيّر بأحدث رسالة جاءت للبشرية (وهي الدين البهائي) وصاروا يعكسون نورها الذي سطع على كافة أقاليم الأميركتين.

51 بهاء الله، كتاب [منتخباتي...] فقرة 132

عرفتم لمَ خلقناكم من تراب واحد؟ لئلا يفتخر أحد على أحد"[52]. فليس لأيّ عرق أو جنس أفضلية نوعية على الآخر، فالناس يتفاوتون فقط في درجات تقدمهم وترقيهم – أو كما يقول عبد البهاء: "كل ما في الأمر أن بعضاً من الناس ما زالوا كالأطفال لم يصلوا إلى مرحلة البلوغ، وهؤلاء يجب علينا أن نربيهم حتى يبلغوا أشدّهم. أو أن بعضهم مرضى يجب علينا أن نعالجهم حتى ينالوا الشفاء". [53]

يوم الدينونة

سيأتي يوم يتحقق فيه الوعد الإلهيّ بأن **"تَكُونُ رَعِيَّةٌ وَاحِدَةٌ وَرَاعٍ وَاحِدٌ"**[54] إلا أن مستقبل البشرية القريب مُظلم بشكل مؤلم، كما تنبأ حضرة بهاء الله بقوله: "إلى مَتَى الْغَفْلَةُ إلى مَتَى الاعْتِسَافُ إلى مَتَى الْفَوْضَي وَالاخْتِلافُ... تَهُبُّ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ أَرْيَاحُ الْيَأْسِ. وَالْفَوْضَى وَالاخْتِلافُ فِي تَزَايُدٍ مُسْتَمِرٍّ وَآثَارُ الْهَرْجِ وَالْمَرْجِ مَشْهُودَةٌ. "[55] **"قل يا أهل الأرض، اعلموا علم اليقين أنّ من ورائكم بلاءً مباغتاً وأنّ في أعقابكم عقاباً عظيماً فلا تحسبوا أن ما قد ارتكبتموه قد مُحي من أمام عيني..."**[56]

فحالنا الحاضر – كما وصفناه في مستهل كتابنا[57] مبتلى بطوفان متزايد من الخروج على القانون، وتفشي الظلم وتسيّد الشر- وهو حال تنبأ به بهاء الله بكل وضوح، كما أشارت إليه الأناجيل بـ 'وقت النهاية'[58] إذ يقول بهاء الله واصفاً إياه: **"قَدْ سُتِرَ نَيِّرُ الْعَدْلِ وَاحْتَجَبَتْ شَمْسُ الإنْصَافِ خَلْفَ السَّحَابِ وَقَامَ السَّارِقُ مَقَامَ الْحَارِسِ وَالْحَافِظِ، وَجَلَسَ الْخَائِنُ مَكَانَ**

---

[52] الكلمات المكنونة العربية – رقم 68

[53] كتاب [خطب...] ص 158

[54] انجيل يوحنا – ح 10: 16

[55] كتاب [مجموعة من ألواح...] ص 151 - 152

[56] الكلمات المكنونة الفارسية، رقم 63

[57] راجع الفصل الثاني "نظرة متفرّسة في وجه عالم الغرب العلمانيّ"، بند 'تفشّي الجريمة'.

[58] انجيل متى ح 24: 12، وكذلك رسالة تيموثاوس الثانية. أما في القرآن الكريم فيطالعنا بما يلي وصفاً لفساد العالم وفجوره (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) سورة السجدة: آية 13

الأَمِين"[59] كما يقول: "قَدِ ارْتَفَعَ الْيَوْمَ أَنِينُ الْعَدْلِ وَحَنِينُ الإِنْصَافِ، وَأَحَاطَ الْعَالَمَ وَالأُمَمَ دُخَانُ الظُّلْمِ الْقَاتِمُ. "[60] ويقول أيضا: "إِنَّا نَرَى الاسْتِقَامَةَ وَالصِّدْقَ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ وَاقِعَيْنَ تَحْتَ مَخَالِبِ الْكَذِبِ وَالْعَدْلَ مُعَذَّباً بِسِيَاطِ الظُّلْمِ. وَأَحَاطَ الْعَالَمَ دُخَانُ الْفَسَادِ"[61] كما يقول في لوح الدنيا: "فِي كُلِّ يَوْمٍ نَارُ ظُلْمٍ مُشْتَعِلَةٌ وَسَيْفُ اعْتِسَافٍ مَسْلُولٌ... إِنَّ الْعَالَمَ مُنْقَلِبٌ وَإِنَّ أَفْكَارَ الْعِبَادِ مُخْتَلِفَةٌ. "[62] ويقول أيضا فيما يعرف بلوح الإحتراق: "قد قام المشركون على الاعتساف في كل الأطراف... قد أخذت البرودةُ كلَّ البريّة... قد بَلَغت الذلةُ إلى النهاية... قد أخذ الهمُّ كلَّ الأمم... قد أخذت سكراتُ الموت كلَّ الآفاق... قد تغبَّرَ الأكوانُ من غُبار العِصْيان... "[63]

أما عن الكارثة التي توشك أن تحل بالجنس البشريّ فقد تكلم بهاء الله عنها قائلاً: "ان العالم منقلب وانقلابه يزدادُ يوماً فيوماً، ووجهُه يتّجه نحو الغفلةِ واللامذهبيّةِ، وسيزدادُ ويشتدُّ ذلك على شأن لا يقتضي الحال ذكرَهُ. وستمضى ايامٌ على هذا المنوالِ، **واذا تمّ الميقاتُ يظهرُ بغتةً ما يرتعدُ به فرائصُ العالمِ، اذاً ترتفع الاعلامُ وتغرّدُ العنادلُ على الافنان**"[64] – ويقول بهاء الله، الذي تنبأ أيضاً باكتشاف القوة الذرّية وآثارها المدمّرة في موضع آخر من كتاباته واصفاً التدهور العام في كل شكل من أشكال السلطة، وعن بلاء سيعم العالم قبل ارتفاع أمر الله أنه "ستتبدل حكومات

---

[59] كتاب [مجموعة من ألواح...]، لوح الاشراقات، ص 22-23

[60] المرجع السابق، لوح الدنيا، ص 102

[61] المرجع السابق، لوح الطرازات، ص 55

[62] المرجع السابق، ص 108 و111

[63] ويُعرف هذا اللوح أيضا بلوح "قد احترق المخلصون" الذي تتضمنه مجموعات مختلفة من ألواح بهاء الله منها كتاب [رسالة تسبيح وتهليل] ص 219

[64] جاء في الكلمات الفردوسية (مترجما عن الفارسية) ما يلي:"هُيِّئَتْ آلاَتٌ جَهَنَّمِيَّةٌ وَظَهَرَتْ قَسَاوَةٌ لِقَتْلِ النُّفُوسِ بِدَرَجَةٍ لَمْ تَرَ عَيْنُ الْعَالَمِ شِبْهَهَا. وَلَمْ تَسْمَعْ آذَانُ الأُمَمِ نَظِيرَهَا. وَإِنَّ إِصْلاَحَ هَذِهِ الْمَفَاسِدِ الْقَوِيَّةِ الْقَاهِرَةِ مُسْتَحِيلٌ إِلاَّ بِاتِّحَادِ أَحْزَابِ الْعَالَمِ فِي الأُمُورِ أَوْ مَذْهَبٍ مِنَ الْمَذَاهِبِ. اسْمَعُوا نِدَاءَ الْمَظْلُومِ وَتَمَسَّكُوا بِالصُّلْحِ الأَكْبَرِ. إِنَّ فِي الأَرْضِ أَسْبَاباً عَجِيبَةً غَرِيبَةً. وَلَكِنَّهَا مَسْتُورَةٌ عَنِ الأَفْئِدَةِ وَالْعُقُولِ. وَتِلْكَ الأَسْبَابُ قَادِرَةٌ عَلَى تَبْدِيلِ هَوَاءِ الأَرْضِ كُلِّهَا. وَسَمِّيَّتُهَا سَبَبٌ لِلْهَلاَكِ. " كتاب [مجموعة من ألواح...] ص 87 - 88

العالم عما قريب،[65] ويغشى الظلم كل البسيطة، وبعد أن يَعُمّ الاضطراب[66] سيشرق نيّر العدل من أفق الغيب". [67] كما تنبأ عبد البهاء بأنه سيأتي يوم يتفشى فيه إلحادٌ يعقبه الانقلاب والفوضى، ذلك لأن الإنسان لم يخلق ليمارس حرية لا ضابط لها ولا رابط، إذ قال في عام 1904 ما ترجمته "إعلم أن الشدائد والرزايا سوف تزداد يوماً فيوماً، وسوف يُبتَلى الناس بالبؤس والنكبات وتُغلَق أبواب السرور والراحة والاطمئنان من جميع الجهات، وتقع حروب مَهيبة ويحيط اليأس والقنوط بجميع الخلق إلى درجة يضطرون فيها إلى التوجه إلى الله".[68]

إلا أن البهائيين ليسوا متشائمين على الإطلاق، لأن بهاء الله قد وعد أيضاً: "قَدْ نُفِخَتْ بِحَرَكَةٍ مِنَ الْقَلَمِ الأَعْلَى رُوحٌ جَدِيدَةٌ لِلْمَعَانِي فِي أَجْسَادِ الأَلْفَاظِ بِأَمْرٍ مِنَ الآمِرِ الْحَقِيقِيِّ. وَآثَارُهَا ظَاهِرَةٌ لائِحَةٌ فِي جَمِيعِ أَشْيَاءِ الْعَالَمِ. هَذِهِ هِيَ الْبِشَارَةُ الْعُظْمَى الَّتِي جَرَتْ مِنْ قَلَمِ هَذَا الْمَظْلُومِ. قُلْ يَا أَيُّهَا الأَحِبَّآءُ لِمَ الْخَوْفُ وَمِمَّنِ الرُّعْبُ. "[69] كما يقول: "إياكم أن تُحزنكم عوارضُ

[65] ومن هذا المنظور يحذر بهاء الله في الكلمات المكنونة قائلا:" يا ظَلَمَةَ الأرض كفّوا أيديكم عن الظّلم لأنّي قد أقسمت ألا أتجاوز عن ظلم أحد، وهذا عهد حتمته في اللوح المحفوظ وختمته بخاتم العزّة. "- الكلمات المكنونة الفارسية – الكلمة رقم 64

[66] تنبأ أشعياء نبيّ بني إسرائيل بهذا القصاص الأخير (أو يوم الدينونة) بقوله في السفر الذي يحمل اسمه، الإصحاح 24: الآيات 1، 3 – 6 و18 – 20 قائلا "هُوَذَا الرَّبُّ يُخْلِي الأَرْضَ وَيُفْرِغُهَا وَيَقْلِبُ وَجْهَهَا وَيُبَدِّدُ سُكَّانَهَا...تُفْرَغُ الأَرْضُ إِفْرَاغًا وَتُنْهَبُ نَهْبًا، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ تَكَلَّمَ بِهذَا الْقَوْلِ. نَاحَتْ ذَبُلَتِ الأَرْضُ. حَزِنَتْ ذَبُلَتِ الْمَسْكُونَةُ. حَزِنَ مُرْتَفِعُ وشَعْبِ الأَرْضِ. وَالأَرْضُ تَدَنَّسَتْ تَحْتَ سُكَّانِهَا لأَنَّهُمْ تَعَدَّوْا الشَّرَائِعَ، غَيَّرُوا الْفَرِيضَةَ، نَكَثُوا الْعَهْدَ الأَبَدِيَّ. لِذلِكَ لَعْنَةٌ أَكَلَتِ الأَرْضَ وَعُوقِبَ السَّاكِنُونَ فِيهَا. لِذلِكَ احْتَرَقَ سُكَّانُ الأَرْضِ وَبَقِيَ أُنَاسٌ قَلاَئِلُ...وَيَكُونُ أَنَّ الْهَارِبَ مِنْ صَوْتِ الرُّعْبِ يَسْقُطُ فِي الْحُفْرَةِ، وَالصَّاعِدَ مِنْ وَسَطِ الْحُفْرَةِ يُؤْخَذُ بِالْفَخِّ. لأَنَّ مَيَازِيبَ مِنَ الْعَلاَءِ انْفَتَحَتْ، وَأُسُسَ الأَرْضِ تَزَلْزَلَتْ انْسَحَقَتِ الأَرْضُ انْسِحَاقًا. تَشَقَّقَتِ الأَرْضُ تَشَقُّقًا. تَزَعْزَعَتِ الأَرْضُ تَزَعْزُعًا. تَرَنَّحَتِ الأَرْضُ تَرَنُّحًا كَالسَّكْرَانِ، وَتَدَلْدَلَتْ كَالْعِرْزَالِ، وَثَقُلَ عَلَيْهَا ذَنْبُهَا، فَسَقَطَتْ وَلاَ تَعُودُ تَقُومُ."

[67] وردت في رسالة ‘جاء اليوم الموعود *The Promised Day is Come*’لشوقي أفندي، الطبعة الانجليزية ص 121

[68] ذكرها المولف البهائيّ الدكتور جون اسلمونت، راجع [منتخبات من كتاب بهاء الله والعصر الجديد]، الطبعة العربية ، ص 248

[69] كتاب [مجموعة من ألواح...]، لوح الدنيا، ص 102

العالم، تالله إنّ بحرَ السّرورِ يشتاق لقاءكم، وكلَّ خير قد خُلق من أجلكم، وسترَوْنه حينَ أوانِهِ"[70]

ملكوت الله

ومن هنا يرى البهائيون أن ما وصفه كاتب مسرحيّ "بالظلام والبرودة التي خيمت على وادي البؤس والشقاء هذا... "[71] ستتبدد، وأن البشرية، وهي تخطو على درب تحوُّل عموميّ عظيم تقترب من مستقبل مشرق يحكي عنه بهاء الله قائلا: **"هذا يوم فيه يقول اللاهوت طوبى لك يا ناسوت بما جُعِلتَ موطئ قَدَم الله ومقرّ عرشِه العظيم".**[72]

فكون الإنسان بهائياً لا يقتضي مسلكاً يتصف بالأنانية – مسلكاً يجعل المرء فيه الحياة الأخرى نصب عينيه، ويحصر همه في خَلاصه الشخصيّ فقط، وإنما هو مسلك يستدعي المشاركة الكاملة في الحياة الدنيا، والتعاون بكل عزم وتصميم في تأسيس مملكة السلام هذه التي تنبأ بها أنبياء الله ورسله. ولن تهبط هذه المملكة على البشرية من السماء كما تتوقع بعض المذاهب الأصولية في المسيحية – وهي المذاهب التي تعظ بالإنجيل وتفهمه حرفيا§ - كما أن هذه المملكة لن تتحقق كما يتخيل الكثيرون من معتنقي الاشتراكية عن طريق هدم الهياكل الاجتماعية القديمة بالحروب الأهلية الثورية، أو بواسطة محاولة بناء مجتمع جديد خال من المتناقضات، يتسنى فيه للفرد الذي تحرر من نيّر القمع والاستغلال أن يحقق ذاته ويتجه من نفسه إلى 'الصلاح'[73] أي أننا لا يمكننا أن نتوقع تدخلاً إلهياً 'كونيا' في نظام

---

[70] عبارة وردت في رسالة 'مجيء العدل الإلهي *The Advent of Divine Justice*' لشوقي أفندي، الطبعة الانجليزية ص 60، ترجمة خاصة

[71] الكاتب 'برتولت بريشت Bertolt Brecht' أوبرا الثلاث دراهم، الفصل الثالث، المنظر الثالث، الطبعة الإنجليزية ص 288

[72] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 28

§ مثل طوائف 'شهود يهوه' Jehovah Witnesses والأقباط السبتيين The Seventh Day Adventists ومعظم الطوائف التبشيرية الأخرى التي يطلق عليها أجمالا الـ Pentecostals [المترجم].

[73] يجد المفهوم الماركسيّ عن الإنسان – وهو الذي يكمن خلف هذا التخيّل الاشتراكيّ للمجتمع المثاليّ – يجد جذوره في نظريات علم الأجناس التي جادت بها قريحة فلاسفة عصر التنوير الأوروبي، ويمكن اقتفاء أثرها في أعمال (الفيلسوف الفرنسي) 'جان جاك روسو'، وهو ليس سوى اعتقاد بأن الطبيعة البشرية التي لم يتطرق اليها الفساد هي خيّرة وصالحة، وأنها تفسَد بفعل الظروف الاجتماعية الضارة، وأن

الإمكانية الشخصية للفرد لا حدود لها تقريبا. وتنسب الماركسية الانحطاط البشري إلى تقنين الفقر الفئوي، بينما تُلقي حركة 'اليسار الجديد' اللوم في تدنّي الأخلاقيات على الظروف المعيشية السائدة في المجتمعات الصناعية الرأسمالية المعاصرة، حيث تنسب الحركة إلى هذه الظروف التسبب في 'تشويه الناس وشل معنوياتهم' بحيث يرى قطبها 'هانز يوخين جام Hans Jochen Gamm' أنه "من الممكن توجيه الناس نحو البر وتنمية الفضائل الاجتماعية فيهم وأن حب الانسان لجاره بمقدوره أن يوفر الدعم الأساسيّ لسائر الناس اذا سمحت به الظروف الاجتماعية" (نقلا عن بريتسنكا في كتابه 'التعليم والثورة الثقافية' الطبعة الألمانية ص107). راجع أيضا القصيدة الزجلية للشاعر برتولت بريخت المعنونة 'قصيدة الرجل الصالح' التي استشهدنا ببعض أبياتها في فصلنا الثاني عشر "الخلق الجديد" تحت الحاشية رقم 169. وطبقا لهذين الاعتقادين، الماركسيّ واليساريّ، فإنه بمجرد القضاء على النظام الاجتماعي الرأسماليّ ليحل محله مجتمع 'خال من التسلط' (أي المجتمع الاشتراكي)، فإن الإنسان سوف يتغلب على اغترابه الذي فرضه عليه المجتمع، ومن ثم تعود اليه طيبته التي جبل عليها، وأن الانسان الجديد سوف يظهر كنتاج للمجتمع الجديد الذي سيخلو من الطبقية، وهنا لن يكون هناك داع – طبقا لذلك المفهوم – لأيّه تربية تهدف إلى خلق الصفات الإيجابية في البشر. ولكن لم يقم حتى الآن دليل أو مثل تاريخيّ بما يبرّر هذا التوقع، وهو توقع تهكم عليه 'نيتشه' بوصفه 'تفاؤلا' أحمقاً بما أسموه 'بالإنسان الصالح' الذي ينتظر الظهور من خلف الساحة لو تسنى للمرء إزالة ما أسموه 'بالنظام القديم'، وفكّ أغلال ما وصفوه 'بالدوافع الطبيعية'. (من كتاب نيتشة 'الرغبة في السلطة *The Will to Power*'، فقرة 755، الطبعة الانجليزية ص 398).

وعلى العكس من ذلك يصادفنا في هذه الأيام من لا يزال على غير وفاق مع المسائل الأخلاقية والسلوكية حتى من بين دعاة الماركسية بصورتها القديمة. ولقد أفضت تجربة العيش في مجتمعات اشتراكية إلى بدء تساؤل عن مضمون القيم وجدواها، وهو أمر لم يكن من المتخيّل حدوثه من قبل. وبعد المرور بتجارب مؤلمة خلُصت جمهورية الصين الشعبية إلى استنتاجات يُستدل عليها من محاولة جريدة الشعب اليومية، وهي لسان حال الحزب الشيوعيّ الصينيّ، في عددها الصادر 6 أبريل 1981، لأن ترأب الصدع الذي أخلّ بالمعايير الأخلاقية من جرّاء 'الثورة الثقافية' (التي حدثت في أواخر حكم الرئيس ماو تسي تونج، واستخدمت العنف فقتلت وشرّدت الآلاف بحجّة التطهير الثوريّ)، بقولها "إن ما نروّج له الآن هو الإنسان المتحضّر ظاهراً وباطناً"، قاصدة بذلك "المواطن الصينيّ المهذب، المحب للصدق والانضباط، المنكِر لذاته، النشط، المفيد، والذيّ يضرب المثل للغير في لطف السلوك، ويشيع البهجة أينما ذهب". في حين أن هذه الفضائل هي ذاتها التي نبذتها وقمعتها تلك 'الثورة الثقافية'. وأعلنت الجريدة عن تعيين ما أسمته 'رابطة عموم الصين للفضائل' من اجل ترويج هذه 'الأخلاقيات الجديدة' (التي هي نفس الفضائل التي سادت قديماً). ونشرت هذا النبأ جريدة 'فرانكفورتر الجيمايني *FrankfurterAllgemeine Zeitung*' بعدد 7 ابريل عام 1981. وللقارئ أن يقارن هذا بالمفهوم البهائيّ عن الانسان الذي سنتناوله في الفصل الثاني عشر "الإنسان الجديد".

وجودنا، يعقبه تحولٌ جذريٌّ في طبائعنا البشرية، يبعدنا تماماً عن استطاعة ارتكاب الشر.

كما أن اعتقاد ‘ليو تولستوي’ بأن مجرد الالتزام الحازم بشريعة المحبة والعمل الوجدانيّ بما جاء في خطبة المسيح على الجبل التي ينصح فيها السامعين بقوله، فيما قال "أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ، أَحْسِنُوا إِلى مُبْغِضِيكُمْ، بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ" هما أمران كافيان لتحقيق السلام والسعادة للبشرية – هو اعتقاد خياليّ تماما مثل ذلك الرأي الذي يرى أن ملكوت السلام سيأتى من ‘فوّهة البندقية’ (كما قال ما وتسي تونج).

فالسلام والعدل على الأرض لا يولدان بقصف مدفعي، ولن يكونان ثمرة لشجرة الكراهية.[74] إذ يقول عبد البهاء: "لا يورث الإجبار إلا الاختلال واضطراب أمور البشر"[75] فالغاية السامية المنادية بمجتمع حرَ يمكن للفرد أن يتمتع فيه بالحرية وحق تقرير مصيره هي غاية تفسدها الوسيلة التي تستخدم لتحقيقها. ثم هل هناك في تاريخ البشرية مبرراً للأمل بأن العمليات الثورية تُورِث الصلاح من تلقاء نفسها؟ فإذا قلنا بأن الخوف والحقد والكراهية هي الحافز على الترقّي الاجتماعيّ – بدلا من روح الجماعة والاحساس المتمدن والمحبة الشاملة لكافة لبشر – فإن لدينا سؤالاً هنا: في أيّ حقبة من حقب التاريخ كان للكراهية حصاد طيب؟ بمعني، هل ينجم أيّ خير عندما تُعتبر الوسائل الوحشية الهمجية من المسموحات، أو بالأحرى من الضروريات لتحقيق الغاية المرجوة؟ أو عندما نجمّد هدف تحقيق معايير أخلاقية صالحة للجميع إلى حين آخر في المستقبل البعيد، مع اللجوء الفوريّ لنفس هذه المعايير الأخلاقية للتنديد بمسلك أعدائنا، ثم نعلن أنه من الضروريّ خلق معايير أخلاقية مرحلية نبرر بها أعمالنا؟[76]

إن من أكثر وجهات النظر خطورة في الفكر المعاصر هو ذلك الاعتقاد الساذج بأن كافة المعضلات السياسية والاجتماعية من الممكن – بل

---

[74] في خطبة ألقاها المفكر ‘ليزتك كولاكوفسكي Leszek Kolakowski’ في حفل لتقديم جائزة السلام بمعرض الكتاب الألمانيّ في عام 1977 الذي عقد تحت شعار ‘هل سنتحوّل من التربية على الكراهية إلى التربية على النبل Education to Hatred — Education to Dignity?’. نقلا عن جريدة ‘جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung*’عدد 17 أكتوبر 1977

[75] كتاب [منتخبات أز مكاتيب...]، المجلّد رقم 1، فقرة 79، مترجما عن الأصل الفارسيّ

[76] كما كان الحال مع الشعار الذي اتخذته الحركة النازية في ألمانيا والقائل بأن ‘الصالح هو ما في صالح الشعب’. أو شعار اليسار ‘الصالح هو ما يقرّبنا أكثر إلى غاية التاريخ’

من اللازم – أن تُحلّ على الفور. ونقصد بذلك الاعتقاد المتفائل بأن هناك – كما يقول كولاكوفسكي- ‘حلاً جاهزاً وفورياً لكل المعضلات وسوء الطوالع، وأنه لا شيء سوى غلّ الأعداء وكراهيتهم يقف حائلاً أمام تطبيقه الفوري’. [77] هذا مع أنه ليست هناك فضيلة أندر من فضيلة الصبر في مجتمع اليوم الحاضر. ولهذا سُمّي مجتمعنا المعاصر بـ ‘المجتمع الفوريّ’. إلا أن الحقيقة هي عكس ذلك تماماً. فكما يقول جورج كريستوف ليختنبرج Georg Christoph Lichtenberg بكل صدق: "إن الرغبة في إنجاز كل شيء على الفور تدمّر كل شيء على الفور". [78]

فالاعتقاد بأن كافة مشاكل البشرية وسائر المعضلات الأخرى يمكن حلها سريعاً وعلى الفور، وأن المجتمع الخالي من النزاعات يمكن تأسيسه إذا ما عزم الناس دونما قيد أو شرط على القضاء تماماً على سائر كيانات الحاضر – هو اعتقاد على نفس السذاجة التي يتصف بها التوقع الألفيّ بأنه بمجرد عودة المسيح مرة ثانية سيتبدل كل شيء في التو واللحظة – فالسلام والعدل سيتحققان كثمرة لميلاد البشر روحياً من جديد، ونتيجة لتحول شامل في وجدان الإنسان الجديد، وكحصاد لنظام جديد، ومُنتَج لعملية بناء شاملة. [79]

إن الاجتهاد في السير على درب الفضيلة، أو الحياة بمقتضى المعايير الأخلاقية المسيحية، أو حتى العيش فرادى بما يُرضي الله لم تعد كافية لإنقاذ البشرية من ويلاتها ومعاناتها. لأن مثل ذلك الاجتهاد – حتى في تلك الأماكن القليلة التي لا زلنا نراه فيها – قد صار حبيساً لقيود صارمة وضعتها أوهام البشر وتعصّباتهم، وقيود ضيقة من صنع مجتمع سقيم. فأنّى للوصية القائلة ‘أحب جارك’ أن تتغلب على جذور العلّة التي أصابت البشرية، وهي انقسامها واختلافها – عندما لا تعتبر الجنس البشريّ كياناً واحداً، بل يقتصر تطبيقها على ‘الجار’ بمعناه الحرفيّ؟ وهذا معناه أن

---

[77] في كتابه ‘التيارات الرئيسة في الماركسية *Main Currents of Marxism*’، المجلد الثالث، ص 530 من الطبعة الانجليزية.

[78] المولود عام 1742 والمتوفي عام 1799 وكان استاذا للفيزياء في جامعة ‘جوتنجينGöttingen’ واشتهر بأقواله المأثورة التي جمعت في كتاب ‘ *The Lichtenberg Reader: Selected Writings*’والذي ترجمه وصوبه وكتب مقدمته كل من فرانز ماوتنرFranz H. Mautnerو هنري هاتفيلد Henry Hatfield، طبع بوسطن للناشرBeacon Pressعام 1959

[79] وهذه اشارة منا إلى ما أسماه بهاء الله ‘الصلح الأعظم’ وسنتكلم عنه في الفقرة التالية من هذا الفصل والتي تحمل نفس العنوان.

يقتصر تطبيقها على الجار المنتمي إلى نفس الجنس، أو نفس اللون، أو نفس الأمّة، أو نفس العقيدة. ولنا في أحداث أيرلندا الشمالية وجنوب إفريقيا ولبنان أمثلة حزينة (على العصبية المذهبية والعرقية والطائفية)[§].

فهل سبق لهذه الوصية فيما مضى أن حالت دون قيام أنماط اجتماعية ظالمة؟ ألم يحدث ذلك على وجه التحديد في ‘أرض الله’ – أي القارة الأمريكية كما أسماها أوائل المهاجرين الأوروبيين وعليها أرادوا أن يشيّدوا دولة تسترشد بمبادئ خطبة المسيح على الجبل- أن صارت الهوّة بين الفقراء والأغنياء والبيض والسود أثقل وطأة مما هي عليه في أي مكان آخر في العالم – هوّة تنشب من جرائها مواجهات تذكّرنا بالحرب الأهلية التي دارت رحاها في تلك القارة من قبل. ويولد أحد الأطفال في عشوائيات حي هارليم بنيو يورك أو كلكتا بالهند فلا يفتح عينيه على نور الدنيا بل على ظلامها. فأية فرصة لهذا الوليد في أن يحيا حياة فاضلة، عندما لا يرى حوله سوى الفقر والجوع والقذارة والجريمة منذ نعومة أظفاره، ويفتقر إلى أقل الضروريات اللازمة لنموه الجسمانيّ والروحاني؟ وليس للمرء هنا إلا أن يوافق عالم الاجتماع ايرفنج فيتشر Fetscher Irving في رأيه القائل: "إن النظام الإجتماعيّ الذي يدفع من يعيشون في ظله لأن يتحفزوا دائما ضد الآخرين ويقاتلوا من أجل نصيبهم في متاع الدنيا، هو نظام يقلب الناس إلى وحوش مفترسة ويحوّل أصابعهم إلى مخالب".[80] فما لم يتم التغلب على التعصبات بكافة أشكالها وتُزال المتناقضات الإجتماعية الخطيرة، كما ينصحنا بهاء الله، فلن تجد البشرية سلاماً، ولن يفلح الفرد في تحقيق الغاية العظمى من وجوده. وفي المقابل الآخر لن يتسنى لأسمى ما في تخيلنا من النظم الإجتماعية أن تجعل من توجَّه بكُليّته إلى الماديات وحصر همه في الأمور السياسية، وقصَر تفكيره على الأساليب الجدلية، وغابت عنه مشاكل الحياة الحقيقية – أن تجعله يستعيد ‘طبيعته الخيّرة’.

فما لم يكن للمرء هدف سامٍ ويخضع لسلطان يعلو على سلطة المؤسسات الاجتماعية، فلن يفلح أيٌّ نظام اجتماعيّ في أن يجعله يكبح

[§] لم تكن مذابح رواندا وما كان يعرف بيوغوسلافيا في ختام القرن العشرين، بل وأحداث الشرق الأوسط في العقدين الأوليين من القرن الواحد والعشرين، قد حدثت بعد حينما أعطى الكاتب هذه الأمثلة الثلاث، وهي مذابح جعلت من مرتكبي الأمثلة السابقة ملائكة بالمقارنة. [المترجم]

[80] في مقالته ‘الموت على ضوء الماركسية Der Tod im Lichte des Marxismus’ ضمن كتاب ‘باوس Paus’ المعنون ‘تجارب في الموت الوشيك *Grenzerfahrung Tod*’ الطبعة الألمانية ص 308

جماح أنانيته، ويقهر غرائزه الدانية، ويسمو بأخلاقه ويترفّع عن أن يكون ذئباً وسط الذئاب.[81] إذ إن الانسان الجديد لن يظهر إلى الوجود دون اجتهاد ذاتيّ، بل وبفعل تحوّل روحيّ جذريّ وكثمرة لتغيير شامل في فكر الفرد ووجدانه ومعتقداته وسلوكه.

ويرى البهائيون أن العصر الذهبيّ للبشرية سيتحقق على يد عمليتين هما نتاج تسلسل تاريخيّ واحد طفق يحدث الآن أمام أعيننا:

أولاهما: حدوث تحوّل جذريّ للإنسان وولادته من جديد ولادة روحية من خلال الكلمة الإلهية الخلّاقة القادرة على أن تحوّل كل شيء[82].

الثانية: هي حدوث تحوّل جذريّ للمجتمع على محورين: الأول تحوّل هيكليّ طبقاً للنظام الإلهيّ الذي أتى به بهاء الله. والثاني تحوّل حضاريّ يحدث من جراء تأسيس رابطة شعوب عالمية *world-wide commonwealth* تعيش في ظلها كافة البشر في أمان وسلام، وهو ما أرسى قواعده بهاء الله وأوضحه في ألواحه.

الصُّلْح الأعظم

أما على الصعيد السياسيّ فإن المستقبل يحمل في طياته أيضاً عمليتين متميزتين، أولاهما توحيد الشعوب سياسياً بمقضى معاهدة عالمية، وثانيهما تأسيس رابطة عالمية لأمم الأرض تتطور فيما بعد لتصير اتحاداً عالمياً فخيماً، تمتنع فيه الحروب ويطويها النسيان 'بوصفها مجرد استمرار لصراع سياسيّ استخدمت فيه وسائل أخرى'[83] ومع هذا ستمضى البشرية بأسرها وعلى الرغم من أنها 'غير مدركة بعد لرسالته[84] (أي رسالة بهاء الله) ومدفوعة رغم إرادتها نحو تحقيق المبادئ العامّة التي نزلت في

---

[81] الفيلسوف الانجليزيّ 'توماس هوبز Thomas Hobbes' (1588 – 1679) هو صاحب نظرية أن الانسان في حالته الأولية يتصرف كالذئاب نحو اخوته من بني البشر والتي أسماها 'الإنسان ذئب الانسان' تضمنها كتابه 'بدايات الفلسفة *Elementa philosophiae*'، طبع باريس عام 1642

[82] سنتناوله تفصيلا في فصلنا الثاني عشر "الإنسان الجديد"، بند 'البعث الروحي'.

[83] على حد قول 'كارل فون كلاوزويتس Carl von Clausewitz' في مؤلفه 'في الحرب *On War*'، ص 605

[84] أي رسالة بهاء الله

ألواحه'[85] - سوف تمضى في هذه العملية البناءة، تحركها ظروف قهرية لن تترك للناس مخرجاً سوى أن تربأ بنفسها عن خلافاتها الأيديولوجية والسياسية، وتمدّ يد العون إلى بعضها البعض، كما ستنهار السدود المانعة لتوحيد البشرية من جراء التحوّل العنيف الآخذ الآن بناصية كل الشعوب 'صاهراً البشرية في كيان واحد داخل بوتقة المعاناة والتجربة'. [86]

ولقد أطلق بهاء الله اسم 'الصلح الأصغر' على العملية التي ستثمر 'رابطة الشعوب *world commonwealth* المقدر لها أن تبرز إلى حيز الوجود عاجلاً أم آجلاً، من ركام الأشلاء واللوعة والخراب الناجم عن مسار الشعوب في اتجاه خاطئ خطير. '[87]

ففي لوح موجّه إلى الملكة فيكتوريا يخاطب بهاء الله حكام الأرض بقوله "**لَمَّا نَبَذْتُمُ الصُّلْحَ الأَكْبَرَ عَنْ وَرائِكُمْ تَمَسَّكُوا بِهذا الصُّلْحِ الأَصْغَرِ لَعَلَّ بِهِ تَصْلُحُ أُمُورُكُمْ وَالَّذِينَ فِي ظِلِّكُمْ على قَدْرٍ يا مَعْشَرَ الآمِرِينَ، أَنْ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ إِذاً لا تَحْتاجُونَ بِكَثْرَةِ العَساكِرِ وَمُهِمَّاتِهِمْ إِلاَّ على قَدْرٍ تَحْفَظُونَ بِهِ مَمالِكَكُمْ وَبُلْدانَكُمْ، إِيَّاكُمْ أَنْ تَدَعُوا ما نُصِحْتُمْ بِهِ مِنْ لَدُنْ عَلِيمٍ أَمِينٍ، أَنِ اتَّحِدُوا يا مَعْشَرَ المُلُوكِ بِهِ تَسْكُنُ أَرْياحُ الاخْتِلافِ بَيْنَكُمْ وَتَسْتَرِيحُ الرَّعِيَّةُ وَمَنْ حَوْلَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ مِنَ العارِفِينَ، إِنْ قامَ أَحَدٌ مِنْكُمْ على الآخَرِ قُومُوا عَلَيْهِ إِنْ هذا إِلاَّ عَدْلٌ مُبِينٌ**"[88]

أما ثاني هاتين العمليتين الحادثتين على الصعيد السياسي، فهو التحول الروحيّ للعالم، والذي سيؤدي إلى تآلف الشعوب والأجناس والطبقات والأديان وهي تأسيس ملكوت الله الموعود على الأرض. ملكوت يتغلّب فيه القويّ والضعيف والغنيّ والفقير على تعصباتهم وشحنائهم وبغضهم، ويعيشون معاً بمحبة وإنصاف مصداقاً لوعد الأنبياء "فَيَسْكُنُ الذِّئْبُ مَعَ الْخَرُوفِ، وَيَرْبُضُ النَّمِرُ مَعَ الْجَدْيِ، وَالْعِجْلُ وَالشِّبْلُ وَالْمُسَمَّنُ مَعًا، وَصَبِيٌّ صَغِيرٌ يَسُوقُهَا. وَالْبَقَرَةُ وَالدُّبَّةُ تَرْعَيَانِ. تَرْبُضُ أَوْلاَدُهُمَا مَعًا، وَالأَسَدُ كَالْبَقَرِ يَأْكُلُ تِبْنًا. وَيَلْعَبُ الرَّضِيعُ على سَرَبِ الصِّلِّ، وَيَمُدُّ الْفَطِيمُ يَدَهُ

---

[85] شوقي أفندي، في رسالته 'جاء اليوم الموعود *The Promised Day is Come*' الطبعة الانجليزية ص 128

[86] من رسائل بيت العدل الأعظم، المجموعة المعنونة 'نبع الهداية *Wellspring of Guidance*'، الطبعة الانجليزية ص 133

[87] شوقي أفندي، 'جاء اليوم الموعود'، ص 128 الطبعة الانجليزية

[88] كتاب [ألواح حضرة بهاء الله إلى الملوك والرؤساء] ص 61، أيضا ما جاء في 'لوح مقصود' في كتاب [مجموعة من ألواح...] ص 145

علـى جُحْـرِ الأُفْعُوَانِ"[89]، ويتحقـق أيضـا الوعـد القائـل: " فَيَطْبَعُـونَ سُـيُوفَهُمْ سِكَكًا وَرِمَاحَهُمْ مَنَاجِلَ. لاَ تَرْفَعُ أُمَّةٌ على أُمَّةٍ سَيْفًا، وَلاَ يَتَعَلَّمُونَ الْحَرْبَ فِي مَا بَعْدُ"[90].

أما 'الصلح الأعظم' فهي التسميّة التي أطلقها بهاء الله على ثمرة هذا التحوّل الجذريّ الروحيّ الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية – التحوّل الذي سينفخ 'حياة جديدة في هذا الهيكل الواحد' لبشرية ائتلفت في اتحاد سياسيّ – حياة 'باعثة لاتحاد حقيقيّ ولروحانية صادقة'. [91]

وتنصبّ مهمة البهائيين الذين يجهدون عن وعي وادراك، في ظل ارشادات ومدد إلهيّ لا ينقطع، في عملية بناء ملكوت الله على الأرض الذي يدعون إخوتهم في الإنسانيّة للدخول فيه، وبذلك يمنحونهم الحياة الأبديّة – على أن يكونوا أدوات فاعلة في هذه العملية.[92]

فلقد قال عبد البهاء "سوف تتحد كافة الأمم والقبائل وتصبح أمة واحدة. وتندثر المنازعات الدينية والعرقية وتتوقف المشاحنات بين الأجناس والشعوب. ويتمسك كل الناس بدين واحد واعتقاد واحد ويتحدون في جنس

[89] أشعياء: ح 11: 5 – 8 والوحوش المذكورة في هذه النبوءة هي كناية عن الشعوب والأجناس القاسية التي من عادتها مناصبة العداء لغيرها (كما شرح عبد البهاء قائلا: "... فالأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقراء والطوائف المتنازعة والملل المتعادية الذين هم بمثابة الذئب والحمل والنمر والجدي والأسد والعجل (سوف) يعامل بعضهم بعضا بنهاية المحبة والائتلاف والعدالة والإنصاف ..." عن مجموعة [الكنوز الإلهية] فصل 40 – السلام العالميّ، ص 260 [المترجم]).

[90] أشعياء ح 2: 4

[91] من رسائل بيت العدل الأعظم، مجموعة 'ينبوع الهداية *Wellspring of Guidance*' الطبعة الانجليزية ص 134. وهناك وجه شبه بين مفهومي 'الصلح الأصغر' و 'الصلح الأعظم' من جهة، ومفهومي 'السلام السلبي' و 'السلام الايجابي' اللذين يستخدمهما الباحثون في مسألة السلام بين البشر، حيث يُعرّفون 'السلام السلبي' على أنه غياب العنف بين الدول، وغياب النزاعات الدموية، وغياب الحروب الأهلية – أي التعايش السلميّ – أما 'السلام الإيجابيّ' فهو يستلزم خلق نظام يوفر التآلف داخل المجتمعات نفسها وبين المجتمعات وبعضها البعض وينطبق عليه قول 'جوتلانج Galtung' إذ وصفه بأنه نظام "يتفاعل فيه الفرد بأفضل كيفية متاحة مع من يحيطون به". إلا أن مفهوم 'الصلح الأصغر' و 'الصلح الأعظم' يتناولان وضعاً يذهب أبعد بكثير عما تخيله فلاسفة سلام المدينة الفاضلة في أكثر احلامهم جرأة وجسارة.

[92] بيت العدل الأعظم، مجموعة رسائل 'ينبوع الهداية *Wellspring of Guidance*' ص 134، مترجما

واحد ويصبحون شعبا واحدا. فيسكن الكل في وطن واحد هو هذا الكوكب نفسه."[93]

أما ثمرة توحيد الجنس البشريّ وولادته الروحية فستكون مدنية "مفعمة بحياة عامرة لم ير العالم لها مثيلاً من قبل، ولا يمكنه إدراك كنهها في الوقت الحالي. عندئذ سوف يتحقق الميثاق الأبديّ بتمامه، ويُوفَى بالوعد المرقوم في كتب الله"[94]

---

[93] ورد في رسالة شوقي أفندي 'جاء اليوم الموعود'، الطبعة الإنجليزية ص 121

[94] المرجع السابق ص 128

الفصل التاسع

موقف البهائيين من النَّظْم القديم

الانحلال والتجديد

أسهب الفلاسفة وعلماء الدين والدنيا لعشرات من السنين في وصف وتحليل الأحداث القيامية التي أنذرنا بها بهاء الله بكل جلاء ووضوح، وصرنا الآن شاهدين عليها. ونفس الشيء بالنسبة للاضطرابات الروحية والكارثة المُحْدِقة بتقاليد البشرية الموروثة وثقافتها، والتفسّخ الآخذ في الوضوح لنظامنا الاجتماعيّ بما له من تبعات وعواقب، والكارثة المحدقة على شكل خطر حقيقيّ يهدد بانقراض النوع الإنساني، وما إلى ذلك من ظروف وأخطار.

ولا بد لمن لا يحيا ليومه فقط ويتدبر مليّا في ذاته وعالمه، ولا يحجر على نتاج تفكيره أو يرفضه، أن يكون على علم بذلك. ولقد تناولنا في فصولنا السابقة تلك السلسلة العشوائية من الأحداث التي يراها البهائيون في عالم اليوم وتفسيرهم لهذه الانقلابات التي لا سابق لها في التاريخ – وهي سلسلة بدأت بهجر جماعيّ للدين أدى إلى التخلي عن المفاهيم وتداعي القيم الدينية، ثم إلى العدمية، ومنها مباشرة إلى رفض كل سلطة، ثم إلى ما توقعه نيتشة بكل وضوح من 'تزلزل فانهيار فخراب فانقلاب'[1] - ثم إلى نهاية النَّظم القديم. فها هي النُظم الديموقراطية الغربية واقعة تحت حصار لا انفكاك له سواء فيما يتعلق بشرعيتها أو مساءلتها. وتتعرض كل مؤسسات الدولة فيها لنقد اجتماعيّ يزداد يوماً بعد يوم في قساوته وتشاؤمه، ويتمرد شبابها ضد السلطة وأسلوب الحكم، ويتشككون في أنماط الحَوْكَمَة ويجابهونها بالتحدي. ولم يعد ممكناً بالفعل تفادي هذه الكارثة الوشيكة باستخدام تدابير الأنظمة السياسية المعاصرة وطرُقها[2]. ويرى الكثيرون أنه

---

[1] في مؤلّفه 'الحكمة الممتعة *The Joyful Wisdom*' الفقرة 343

[2] تحظى هذه الحقيقة بقبول متزايد، ويقول قائلهم على سبيل المثال: "ولطالما شعرت شعوب العالم بزعزعة من يحكمونهم وقلة حيلتهم" ويرى أن الناس تحدّق في حيرة في الكارثة الداهمة "كارثة لا منقذ – بل ولا محذّر – لهم منها، وبمرور عشرات السنين سينقلب هذا القلق والحيرة إلى احتجاج يفضي في النهاية إلى انفجار عام يعم العالم. وعلى حكومات العالم سواء في الشرق أو في الغرب حيال هذه الثورة العالمية التي أخذت تلوح في الأفق بما سيصاحبها من فوضى لن تترك شبرا واحدا من

لم يعد هناك سوى علاج وحيد: العنف الثوري. بينما يرى الغير خلاصاً في إجراء الإصلاحات، مع أنه يتضح بمرور كل يوم أن الفوضى تعمّ والمشاكل والخلافات تتفاقم مهما حدث من إصلاح. فالنظام القديم لا يتغير بالإصلاح، وزماننا هذا لم يعد زمان إصلاح، ولا يسترد جسد الإنسانية السقيم عافيته بالمسكنات، إذ يلزمه علاج راديكاليّ *Radical*. وهي كلمة تعني 'جذريّ'.[3] وها هو جان جبسر Jean Gebser الذي يدرك أن عالم الغرب يقف الآن على منعطف حاسم، وأن ثمة شيء جديد تماماً يلوح في الأفق، فها هو يرفض أمكانية استعادة العافية بالإصلاح، ويفند زيفها بالحجج والأدلة قائلاً: "لا يمكن في حقيقة الأمر أن نحقّق أيّ شيء من خلال الإصلاح، ولا يمكن الوصول إلى أيّ شيء بنّاء سوى باتخاذ موقف إيجابيّ حيال القوى 'الجديدة' وأثرها علينا – أما الإصلاح بمعنى 'الانعاش' فلا معنى له عندما يصبح واضحاً جلياً أن مخلوقاً مصيرياً جديداً قد وُلد، وبات محكوماً على 'القديم' بأن يخضع لتحوُّل جذريّ وتام. فلا يمكن للكيان البالي المنهك أن يُبعث إلى الحياة من جديد". [4]

وقبل ما يزيد على مئة عام، عندما اعتقد الناس بصحة مقولة جوته الشهيرة 'أخيراً بلغنا أوج المجد'،[5] ولم يكن بمقدور أحد ساعتها أن يتخيل أبعاد كارثة يومنا هذا، تنبأ بهاء الله بانهيار هذا النظام القديم قائلاً: " قريباً سيُطوى بساط العالم ويُبسط بساط آخر، **إن ربك لهو الحق علاّم الغيوب**".[6]

الأرض – عليها ألا تغفل عنها بقِصَر نظر، وإنما عليها أن تفسّر علامات الأزمنة على حقيقتها – أي بوصفها علامات تسبق الإعصار". هاينز فريدريش Heinz Friedrich، في كتابه 'الكارثة الحضارية *Kulturkatastrophe*'، الطبعة الألمانية ص 297

[3] كلمة *Radical* مشتقة من اللاتينية *Radix* أي الجذر. ولم تتخذ هذه الكلمة ذلك المغزى المشحون الدال على التطرّف إلا أخيرا.

[4]في كتابه 'انقلاب الغرب *Abendländische Wandlung*'، الطبعة الألمانية ص 166. أما العالم المادّيّ واللاهوتيّ جونتر ألتنر Günther Altner فيسوق حجة قويّة على أن مجرّد تعديل مسار البشريّة لا يكفي، وأنه طالما وصلنا إلى مفترق طرق مصيريّ من التاريخ فإنه يلزمنا ما يسمّيه 'تغيير شامل للمسار' إذا شئنا النجاة. [من حديث له في مؤتمر لمعهد دراسات المجتمع المدني المسمّى بـ *Civitas*، في ربيع عام 1980، أورده الصحفيّ مالتي بوشبك Malte Buschbeck في جريدة *Süddeutsche Zeitung* عدد 14-15 يونيو 1980.

[5] مسرحية فاوست (لفاجنر) الفصل الأول، مشهد الليل

[6] كتاب [منتخباتي...] المقتطف 4

وقال أيضا: **"لعمري سوف نطوي الدنيا وما فيها ونبسط بساطاً آخر إنه كان على كل شيء قديرا".**[7]

إلاّ أنّه، وكما أن رؤيا يوحنا اللاهوتيّ لا تَعِدنا بانحلال ودمار فحسب، وإنما أيضاً بـ 'سماء جديدة، وأرض جديدة'، فقد أشار بهاء الله إلى انهيار النظام الاجتماعيّ القديم، وكذلك إلى قيام نَظْم جديد غيره. وهذا يعني أن مصيرنا نحن معشر البشر لن يؤول إلى الفناء والعدم وإنما إلى تحوّل ينطوي على كل من الهدم والبناء في آن واحد.[8] وطبيعيّ أن يكون انهيار القديم عملية مؤلمة ومقلقة، بيد أنها عملية ضرورية ولا يمكن إيقافها. فهي لازمة لزوم ريح الشتاء القارس التي تنتزع الأوراق الذابلة عن الأشجار مفسحة بذلك مكاناً للبراعم الغضّة الآخذة في البزوغ. وعلى حد قول شاعر ألمانيّ "حينما يُحْدِق الخطر يظهر ما يُنَجّي من هذا الخطر".[9] ذلك لأن هذا الانهيار ما هو إلا شقّ واحد – وهو عامل الهدم لعملية ذات شقين باتت تهزّ العالم. أما الشق الثاني المواكب للأول فهو حركة بناء آخذة في الظهور، وروح جديدة تدب في الأوصال رؤية عالمية جديدة، ومنظومة جديدة للقيم وهي أمور لا يعدّها البهائيون من قبيل مدينة فاضلة غامضة ستأتي في مستقبل الأيام، وإنما يعتبرونها حقيقة ملموسة مُعاشة بالفعل في واقعنا وزماننا الحاضر.[10]

وبالكيفية التي اقترن بها أفول العالم القديم، وسقوط الامبراطورية الرومانية بظهور 'جنس جديد من البشر' وأخلاقيات جديدة ارتكزت عليها الحضارة الغربية المسيحية فيما بعد[§]. فإن الأمر ينطبق أيضاً على الظهور

---

[7] كتاب [منتخباتي...] المقتطف 143

[8] جان جبسر Jean Gebser في كتابه 'انقلاب الغرب *Abendländische Wandlung*] الطبعة الألمانية ص 166

[9] فريدريش هولدرلين Friedrich Hölderlin، قصيدة (Patmos) في كتاب 'أشعار وشذرات *Poems and Fragments*'، الطبعة الإنجليزية ص 463، (وهو مرادف للشطرة الشهيرة من بيت الشعر العربيّ "إشتدّي أزمة تنفرجي" [المترجم]).

[10] شوقي أفندي رسالة 'جاء اليوم الموعود *The Promised Day is Come*'، الطبعة الإنجليزية، ص16، مترجما

[§] يتناول الدكتور شيفر شرحه لمسير الحضارة من وجهة النظر المسيحية في الغالب، نظرا لأن كتابه موجه إلى الغرب المسيحي في المقام الأول. ولقد حدث نفس التحوّل الشامل في نفوس البشر في صدر الإسلام، حيث تحوّلت قبائل الجاهلية من بداوتها ووحشيتها الأولى إلى 'خلق جديد' حمل روح الإسلام وحضارتها إلى رقعة شاسعة من العالم [المترجم].

الجديد في يومنا هذا، وذلك على الرغم من تجاهل حكماء الزمان له وتسفيهه[11] ويتميز هذا التحول الكونيّ بـ 'تدخّل' تصطدم فيه عمليتان متعارضتان: أولاهما بدء عصر جديد من تقدم لم يسبقه مثيل من جهة، والثانية تداعي الهياكل العتيقة من جهة أخري. وكأننا في حالة ينطبق عليها تساؤل 'نوفاليس Novalis'[§] "ألا تبدأ أفضل الأمور عادة بوعكة؟ "

دور البهائيين

كيف يستجيب البهائيون لصوت الصافور الذي أطلقه شاعر الألمانية جوته 'مُتْ ثم احْيا من جديد'؟ [12] إن موقف البهائيين في غاية الوضوح، إذ إنهم لا يوافقون نيتشة أو يشاركونه في رأيه القائل 'عليك أن تزيح ما هو آخذ في التداعي'[13] فالبهائيون ليسوا هم الذين سيهدمون النظام الاجتماعيّ البالي. وهو الذي وصفه 'فاجنر' بأنه نظام "يقسّم البشرية إلى دول متعادية، وإلى شخص قويّ وآخر ضعيف، محظوظ ومنبوذ، غنيّ وفقير. (نظام) يجعل إنساناً تعيساً من العوز، وآخرً شقياً من الترف". [14] فالبهائيون مدعوون إلى البناء لا إلى الهدم. كما أن العلاج الراديكالي الذي

---

[11] ولقد حدث نفس الشيء للمسيحية في أيامها الأولى، إذ كان ينظر إليها علية القوم من الرومان بوصفها نحلة يهودية، و'شعوذة خبيثة' على حد قولهم (طبقا للمؤرخ وعضو مجلس الشيوخ الروماني تاسيتوس Tacitus، الذي عاش في القرنين الأول والثاني الميلادي، في كتابه الشهير 'السجلاّت*The Annals*] المجلد 15، فصل 44)

[§] نوفاليس هو الاسم المستعار للشاعر الألماني جورج فيليب فريدريتش فون هاردنبرج Georg Philipp Friedrich Freiherr von Hardenberg المولود عام 1772 – والمتوفي عام 1801) وهو من أبرز شعراء بداية العصر الرومانسي في الشعر الألماني. [المترجم]

[12] الديوان الشرقيّ للشاعر الغربيّ، كتاب المنشد، فصل 18 قصيدة الرجاء المبارك:
(وبينما تركل بأقصى ما في وسعك،
يقول "مت ثم احيا من جديد"
فلن تكون سوى ضيف غائم
على أرض لم تشهد صباحا)

[13] نسبها نيتشة (زوراً) إلى زرادشت في كتابه 'هكذا تكلم زرادشت *Thus Spake Zarathustra*'– مجموعة 'الألواح القديمة والجديدة" الكتاب الثالث – رقم 20

[14] ريتشارد فاجنر في مقطوعة 'الثورة' (التي ألّفها عام 1849)، وردت في كتاب 'أعمال ريتشارد فاجنر النثرية *Richard Wagner's Prose Works*'، الطبعة الإنجليزية المجلّد الثامن ص 237

تحدثنا عنه آنفاً – أي علاج الشجرة الانسانية ابتداء من الجذر – يستلزم إعادة إرساء قاعدة مجتمع مستقر، وما تلك القاعدة إلا دين جديد، قادر على نفخ وعْي جديد في وجدان الإنسان المعاصر، ومنحه نظرة شاملة للعالم، وأخلاقيات جديدة، وغايات جديدة، ومعاني جديدة في الحياه، وإضاءة لافتة لباب الخروج من تيه اليأس الذي لا تجد الناس منه مخرجاً.

والبهائيون يحملون مسئولية وضع هذه القاعدة بالإعلان عن رسالة بهاء الله وإبراز الهياكل الاجتماعية الجديدة إلى حيّز الوجود. وبهذا المفهوم يكون البهائيون هم 'الراديكاليين الحقيقيين'، كما أن البهائية هي أكثر الحركات راديكالية في العالم، بيد أن البهائيين ليسوا راديكاليين من حيث نهجهم وأساليبهم، فلا هم يلجؤون إلى الهدم أو العنف ولا هم يعملون عمل السوس الذي ينخر في عظام المجتمع ويتسبب في انحلاله، ولا هم 'ثوريّون' يقيمون المتاريس ويقذفون بالقنابل. إذ إنهم يدركون أن تلك الكتلة المتورّمة التي تتشكل مما يزيد على مئة وخمسين دولة ذات سيادة ستنفلق انفلاق ثمرة معطوبة دون حاجة إلى أيّ تدخّل منهم، ويعلمون أنهم مدعوون لبناء نظام عالميّ جديد مبنيّ على سيادة الله وهيمنته.

هل للسياسات الحزبية من جدوى؟

من القواعد الثابتة في الدين البهائيّ ألّا يشارك البهائيون في أنشطة حزبية سياسية، في حين أن أتباعه يوفون بكافة الالتزامات المتوقعة من أيّ مواطن في وطنه، بما في ذلك الإدلاء بأصواتهم في الانتخابات، سواء طلب ذلك منهم أو بمشيئتهم.[15] ولكنهم لا ينتمون إلى أيّ حزب سياسي، ذلك لأن أيّ نشاط سياسيّ لا بد أن يتم من خلال نظام معين وبأساليب ذلك النظام، في حين أن أنظمة اليوم فاسدة ومفسدة. كما أن البهائية ستفقد بانضمام أتباعها للأحزاب المتنافرة قدرتها على التوحيد والتأليف، لأن انخراط مؤمنيها في المنازعات السياسية والانحياز لجهة دون الأخرى في جوّ عادة ما يسوده الفتن والانقسامات سوف يضيّع جهودهم بوضعها في خدمة أحزاب متناحرة متنافسة (بدلاً من خدمة العالم الإنسانيّ ككلّ واحد).

---

[15] يُدلي الناخبون البهائيون بأصواتهم (في انتخابات بلادهم العامة) حسبما يمليه عليهم ضميرهم كأفراد، وهم لا يتلقّون أية توجيهات بشأن أصواتهم من المؤسسات البهائية. وهي نفس القاعدة التي تطبّق في الانتخابات التي تتم داخل المجتمع البهائيّ نفسه، راجع ما سيأتي في الفصل الثالث عشر "المجتمع البهائي"، بند 'الانتخابات البهائية'

ولقد ساق شوقي أفندي حجة مقنعة على أن دين الله لا بد وأن يعاني إذا ما دخل المؤمنون به فيما أسماه حلبة 'السياسات الحزبية' إذ يقول: "نحن معشر البهائيين كَمٌّ واحدٌ لا يتجزأ في العالم كله، كما أننا نسعى إلى بناء نظام عالميّ جديد – نظام إلهيّ في أصله. فكيف يتسنى لنا ذلك إذا ما كان كل بهائيّ عضواً في حزْب سياسيّ مختلف؟... وأين هي وحدتنا إذن؟... فأفضل طريق أمام البهائيّ لخدمة وطنه وسائر العالم هو أن يعمل من أجل إرساء قواعد نظام بهاء الله العالميّ الذي من شأنه أن يؤلف بين كافة البشر شيئاً فشيئاً ويضع جانباً تلك الأنظمة السياسية القائمة على التفريق والتحزّب".[16]

وقد يبدو العزوف عن السياسات الحزبية مستغرباً من دين يسعى إلى إحداث تحول جوهريّ في أنظمة هذا العالم الزمني. كما قد يبدو هذا المنحى للكثيرين أمراً يناقض نفسه وتصرفاً ينم عن ضعف أو سقم أو عدم إلمام بحقيقة الأمور، بل غالباً ما يلام البهائيون على النأي بأنفسهم عما قد يقدم حلولاً للمشاكل الحقيقية للهيئة الاجتماعية ويوفي باحتياجات إخوانهم من بني البشر، ويُنتقدون بأنهم يتفرّجون بكل سلبية على العالم وهو يركض إلى حافة الهاوية.

فهل هذا اللوم – يا ترى – له ما يبرره؟ ومربط الفرس هنا هو: ما هي 'الحقيقة'، وما هو العالم الحقيقي؟ فبالنسبة لمن لا يقبل 'الحقيقة' إلا إذا تعرف عليها بالوسائط المادية – أي بما يمارسه بحواسه، ويمحّصه بالتجربة، ولمن يرى أن المعرّف الحقيقيّ للمجتمع وراسم حدوده وقراراته هو أحواله الاجتماعية والاقتصادية – لهؤلاء، قد يبدو ابتعاد البهائيين عن الساحة السياسية تقاعساً عن المعاونة في بناء هيئة اجتماعية عادلة وإنسانية، وعدم اكتراث دافعه هو الخوف من شرور النظام القائم.

أما البهائيون فيؤكدون على أن هذا العالم الذي تدركه الحواس المادية ما هو إلا جزء صغير من 'الحقيقة'، ويرون أيضاً "أن ما يحدث في عالم المادة ما هو إلا انعكاس للظروف والأحوال الروحية. وأنه ما لم تتبدل

---

[16] في رسالة صدرت نيابة عنه وردت فقرات منها في كتاب 'مبادئ الإدارة البهائية *Principles of Bahá'í Administration* '، الطبعة الإنجليزية ص 43، مترجما عن الإنجليزية

أحوال العالم الروحية فلن يكون هناك تحّول مستدام إلى الأفضل في شؤون العالم المادية".[17]

فمن الخطأ الجسيم لدى البهائيّ أن يوافق على أن أفضل ما يستطيعه لإزاحة المشاكل عن كاهل البشرية ومحاربة البؤس والعوز هو الانخراط في السياسات الحزبية. ولأن شوقي أفندي قد أوضح الطريق الصحيح للمؤمن بالدين البهائيّ بقوله: "إن ما يجب علينا نحن البهائيين أن نواجهه هو أن المجتمع آخذ في الانحدار بدرجة شديدة جعلت اليوم من المسائل الأخلاقية التي كانت واضحة منذ خمسين عاماً مضت أموراً مبهمة ومختلطة بغير رجاء. بل والأدهى من ذلك أنها صارت مختلطة تماماً بالمصالح السياسية المتناحرة. ولهذا يتحتّم على البهائيين أن يوجهوا كل ما لديهم من قوة نحو مسار بناء ما جاءت به الرسالة البهائية ونظامها الإداري. فليس بمقدورهم في الوقت الحاضر أن يغيّروا العالم أو يمدّوا إليه يد العون بأيّ شكل أخر. وإذا ما هم انخرطوا في المشاكل التي ترزح تحت وطأتها حكومات العالم، فإنهم يضلون الطريق لا محالة. أما اذا حقّقوا النهج البهائيّ في الحياة فيمكنهم أن يقدموه كنموذج لعلاج هذه المشاكل عملياً عندما يكون كل شيء آخر قد فشل في تقديم العلاج"،[18] ومن هذا المضمون والسياق، يؤكد البهائيون أن أولئك المفترض منهم أن ينقذوا البشرية بالبرامج السياسية وإعادة الهيكلة المادية، ليس لديهم – كما يصف بيت العدل الأعظم – "أية فكرة عن نوع العالم الذي يرغبون في بنائه، أو كيفية الشروع في هذا البناء".[19]

بل إن أولئك المهتمين بتحسين الأحوال قد انصرفوا من جراء ذلك إلى محاربة كل سوء وشرّ يطفو على السطح ويشد انتباههم، مما جعل

---

[17] بيت العدل الأعظم، في رسالة مؤرخة 7 يوليه 1976، طبعت ضمن المجموعة الإنجليزية 'رسائل بيت العدل من عام 1963- 1986'، بند 173 –'بيانات بيت العدل في مسألة السياسة'.

[18] في رسالة صدرت نيابة عنه نشرت في مجلّد مجموعة رسائل شوقي افندي المعنونة 'ينبوع الهداية *Wellspring of Guidance*' الطبعة الإنجليزية ص 135، مترجما عن الإنجليزية

[19] يحذّر ريتشارد شول Richard Shaull، وهو من إنصار اللاهوت الراديكالي، من صنع صنم 'ثوريّ'، ويقول "إن الإطاحة بالنظام القديم لن يأتينا تلقائيا بمجتمع عادل" في مقالته المعنونة 'التغيير الثوريّ في المفهوم اللاهوتيّ Revolutionary Change in Theological Perception' التي نشرت في كتاب جون بينيت 'السلوكيات المسيحية الإجتماعية في عالم متغيّر *Christian Social Ethics in a Changing World*'، الطبعة الإنجليزية ص 35

معظم الناس يعتبرون أن الرغبة في محاربة المساوئ والشرور – أحوالاً كانت أم أشخاصاً – معياراً يقيسون به نزاهة الفرد. بينما البهائيون يعرفون الغاية التي يسعون لبلوغها، ويعلمون ما عليهم من واجب، خطوة بعد خطوة، لبلوغ هذه الغاية. فكل طاقاتهم موجهة نحو بناء الخير – ذلك الخير الذي له من القوة الإيجابية ما يزيل كل ما يعترضه من شرّ ويقضي عليه – والشرّ كما تُعَلِمُنا البهائية هو سلبيّ في جوهره (لأن الشر هو بكل بساطة غياب الخير). والدخول في سباق عنتريّ لهدم شرور العالم واحداً تلو الآخر هو مضيعة حقيقية للوقت والجهد. فحياة البهائيّ مكرّسة بكاملها لإعلان رسالة بهاء الله، وبعث الحياة الروحية لإخوانه من بني البشر، مؤلفاً بينهم في نظم عالميّ إلهيّ المنشأ، عندئذ – وبينما سيزداد ذلك النظم الجديد نمواً ونفوذاً – تتضح قوة تلك الرسالة وهي تُحدث تحوّلاً تدريجيّاً شاملاً في المجتمع الإنساني، وتحل شيئاً فشيئاً ما تفاقم من مشاكله، وتزيل ما استعصى من مظالمه التي أفسدت نظام العالم منذ عهد بعيد.[20]

ومستقبل البشرية بالنسبة للبهائيين ليس مجرد مسالة يختص بها الساسة والدبلوماسيون – بل هي مسألة خلق جديد للإنسان ووضع أساسيات أخلاقية اجتماعية جديدة – ويوضح بهاء الله أن الساسة قد بلغوا طريقاً مسدوداً وأنهم لن يتوصلوا أبداً إلى حل لمحنة البشرية التي تتفاقم بمرور كل يوم[21]... إن العالم بمرضه الجماعيّ هذا يحتاج إلى ‘طبيب عالم’ "بيده نبض العالم" فيشخص العلة ويصف الدواء، تماماً كما يشرح لنا بهاء الله: "يشاهَد العالم محاطاً بعلل لا نهاية لها طرحته على فراش المرض، وحالَ الناس الذين أسكرهم خمر حبِّ أنفسهم بينه وبين الطبيب الحكيم، ولهذا وقعوا

---

[20] بيت العدل الأعظم – نفس الرسالة المشار إليها في الحاشية 17 أعلاه

[21] يقول شوقي أفندي: "إن البشرية سواء نظرنا اليها على ضوء مسلك الإنسان الفردي أو من زاوية العلاقات القائمة بين المجتمعات والأمم، قد شطّت بعيداً وعانت من انحدار شديد لا يمكن الرجوع عنه بالجهود المنفردة لأفضل من يشار إليهم بالبنان من حكامه وساسته – مهما كانت أغراضهم نزيهة، ومهما كانت مجهوداتهم منسّقة، ومهما كان حماسهم واخلاصهم شديدا لقضيتها – ولا يقدِّم لنا أيّ مخطط تجود به قريحة أمهر الساسة، أو أية نظرية قد يأمل أبرز مناصري الحل الاقتصاديّ في ترويجها. او أيّ مبدأ قد يجد في صياغته أشد المتحمسين للسلوكيات – لا يقدم أيّ منها في نهاية المطاف أساساً متيناً يشيّد عليه مستقبل عالم قد أصابه الذهول". (مترجم من رسالة ‘هدف النظام العالميّ الجديد’ بمجموعة الرسائل المعنونة ‘نظام بهاء الله العالميّ’ الطبعة الإنجليزيّة ص 33 – 34)

وأوقعوا الناس في البلاء. فلا هم عالمون بالداء ولا عارفون بالدواء، اعتبَروا المستقيم معوجّاً وعَدّوا الصديق عدوّاً".[22]

كما أن خلاص العالم وصلاحه لا يمكن أن يتأتى من العمل السياسيّ وحده. ففي الصباح التالى لقيام كل ثورة ناجحة، تبقى المشاكل القديمة ذاتها في انتظار الحل. وما لم يولد الجنس البشريّ ولادة روحية جديدة فلن يتعافى جسده. ولهذا يكون دور البهائيين من أوله لآخره دوراً بناءً، فواجبهم هو إيصال الدواء السماويّ إلى البشرية العليلة، وإحياء قلوب البشر بإعلان بشارات المبادئ الأساسية في هذا الدين فيتم توحيد شعوب العالم وتأليفهم. وعلى ضوء هذه الحقيقة يمكن فهم تشديد بهاء الله على ضرورة إطاعة الحكومات.[23] فالعصيان والثورة والتمرّد هي أمور هدّامة تزيد الطينة بلّة. ويحذّر بهاء الله أتباعه من الانخراط في الهَرْج والمَرْج الذي يمسك بناصية البشرية، ويوصيهم بقوله: "اشتغلوا بما هو سبب راحة الخلق واطمئنانهم، واصرفوا الهمة في تربية أهل العالم، عسى أن يزول النفاق والاختلاف من بين الأمم بقوّة الاسم الأعظم، ويُشاهَد الكلَّ كأهل صَقع واحد ومدينة واحدة. اجعلوا قلوبكم منيرة، وطهروها عن أشواك الضغينة والبغضاء. كلكم أهل عالم واحد، وخلقتم بكلمة واحدة، طوبى لنفس تعاشر كلّ الأنام بتمام المحبة".[24] فاحترام قوانين الدولة وطاعة الحكومة

---

[22] كتاب [منتخباتي...]المقتطف رقم 106

[23] يوصي بهاء الله المؤمنين بقوله: "إن هذا الحزب إذا أقام في بلاد أيّ دولة يجب أن يسلك مع تلك الدولة بالأمانة والصدق والصفاء. "، لوح البشارات – البشارة الخامسة، كتاب [مجموعة من ألواح حضرة بهاء الله] ص 39. "ما يلزم عمله اليوم اطاعة الحكومة والتمسك بالحكمة"، كتاب [منتخباتي...]، مقتطف 102. (ولعبد البهاء وشوقي أفندي توجيهات مفصلة في هذه المسألة في مجموعة النصوص التي يتضمنها كتاب 'الكنوز الإلهية'– الفصل الرابع "إطاعة الحكومة وعدم تعاطي السياسة"، ص 32 [المترجم])

[24] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 156، مترجما عن الأصل الفارسيّ.

(وفي حديث لعبد البهاء في أمريكا، نصح البهائيين هناك بألا يشاركوا في أي ثورة أو فتنة تسعى لأسقاط الحكومة بالإضراب واللجوء إلى العنف والفوضى، وقال أنه: "لكي يتحقق نظام إجتماعيّ وأحوال اقتصادية أفضل، يجب أن يكون هناك ولاء لقوانين الحكومة ومبادئها" ذلك لأنه في ''غياب الإطار التشريعي تسقط الحقوق والمطالب، ويتعذر تحقيق رفاهية الشعوب عامّة". وانتقد عبد البهاء في حديثه هذا ما تلجأ إليه الحركات الثورية عادة بقوله: "ولكن أسلوب المطالب اليوم هو الإضراب واللجوء إلى القوة، وهذه أمور واضحة الخطأ وهي مدمرة للقواعد الإنسانية. فالمطالب والامتيازات المشروعة يجب التعبير عنها بالأحكام والقوانين. " من كتاب 'ترويج السلام العالميّ *The Promulgation of Universal Peace*'– مجموعة من

تساهمان في هذا العمل البنّاء الخلاّق، في حين ان الفوضى تكون أسوأ من بقاء الأحوال الإجتماعية الحاضرة على ما هي عليه، ويدفعنا العصيان والفتنة نحو الفوضى بدلاً من تحقيق نظام اجتماعيّ عادل. وفي ظل الإتحاد العالميّ المقبل الذي ستسوده الكفاية والعدل، سنتطلّع إلى الطاعة الشغوفة للقانون والدولة بوصفهما من الشروط الجوهرية لاستقرار هذا الإتحاد وازدهاره، إذ إن المدنية لا تزدهر في غيبة الولاء والطاعة.

خطب عبد البهاء في الولايات المتحدة وكندا، الخطبة التي ألقيت يوم 23 يوليو (تمّوز) 1912، بفندق فيكتوريا، بمدينة بوسطن، ولاية ماساتشوستس. ص 238 من الطبعة الإنجليزية، مترجما. وما أصدق هذا النصح عندما نتدبّر ما جرى ويجري في أعقاب الثورات التي اشتعلت في السنوات الأخيرة في عديد من دول الشرق الأوسط وباقي مناطق العالم. [المترجم])

الفصل العاشر

الموازنة بين السلطة والحرية

سلطة المظهر الإلهي

لكي يحيا الإنسان حياته وفقاً لغايات وقيم لا يحددها لنفسه وإنما طبقا لقيم سامية ملزمة إلزاما باتّا، يحتاج إلى توجّه ذهنيّ لم يعد محلّ تقدير في يومنا هذا. ألا وهو 'الطاعة' ولا عجب، بعد أن أسيء استغلال الطاعة على يدي كل من السلطتين الزمنية والدينية، أن تكون هذه الفضيلة محلاً للاستهجان. وظهرت أفكار تناهض مبدأ السلطة لتُلقي على فضيلة الطاعة رداء الذلة، شأنها في ذلك شأن قيم دينية أخري، مثل التواضع، ونكران الذات. كما قيل عنها إنها أخلاقيات ابتكرت بغرض استغلال البشر.[1] وفضلا عن ذلك، فإن الطاعة تقتضي وجود السلطة، فأيّ سلطة تلك التي باتت تُحترم اليوم في زمن يُتناول فيه كل شيء بالتشكيك والرفض؟ أما الدين بغير واجبات أو طاعة لأحكامه فأمر لا يعقل، فهو 'لقاء المرء بالقداسة'[2]، و"**رَأْسُ الدِّينِ هُوَ الإِقْرَارُ بِمَا نُزِّلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاتِّبَاعُ مَا شُرِّعَ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ**"[3] – كما يقول بهاء الله. وما ينطق به المظهر الإلهي: أو الرسول، هو الكلمة الإلهية، مما يعني أن الرسول السماويّ يتكلم من أعلى موقع في السلطة. غير أنها سلطة يجب أن تُمحَّص بكل عناية، فإن قُبلت بعد هذا التمحيص يصبح ما يفعله ويقوله ذلك المظهر الإلهيّ – كما يقول عبد البهاء – "هو محض الحكمة ومطابق للواقع، وإذا لم يهتد بعض النفوس إلى الأسرار الخفية لحُكم من الأحكام أو عمل من الأعمال، فلا يجوز لهم

---

[1] يرى عالم اللاهوت الكاثوليكيّ هوبرتوس هولفاس Hubertus Halbfas أن الطاعة كانت العامل المتحكّم في تصرفات القائد العسكريّ المسئول عن معسكر الاعتقال (النازي الذي أبيدت فيه مئات الآلاف من يهود أوروبا) بأوسويتس Auschwitz مثَله في ذلك مثل باقي مجرمي الحرب النازيين. ويخرج باستنتاج في غاية الخطورة مفاده أن كل مسيحيّ يعتقد في السلطة الإلهية يمثل خطرا على الديموقراطية ونرى أن هولفاس قد جانبه الصواب بهذا القول لأنه خلط ما بين السلطة الحقيقية والسلطة المُدّعاة

[2] كما يرى رودولف أوتو Rudolf Otto في كتابه (فكرة القداسة *The Idea of the Holy*)

[3] كتاب [مجموعة من ألواح...]، لوح أصل كل الخير – ص 133

الاعتراض، حيث إن المَظهر الكليّ مَظهر 'يفعل ما يشاء'"[4] وما يشرّعه الرسول الإلهيّ هو إرادة سماوية وأوامر ربانية. ومن هذا المنطلق لا يكون هذا الميزان الكليّ المعصوم محلاً لأيّ نقاش، أو مساءلة. فما يأتينا عن طريق الرسل من الأوامر والنواهي يعلو على الإدراك البشري. وعلي الرغم من قابليتنا للتبرير العقلاني، إلا أن هذه الأوامر والنواهي في غنى عن أيّ تبرير. فمصدرها يسبغ عليها سمة الديانة. (كما أنها تستمد وجوبيتها في المقام الأول من مجرد وجودها.)[5] كما يطالعنا القرآن الكريم بكل جلاء ووضوح "إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ"[6] وأنه "لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ"[7] وأن "مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ"[8]

سلطان الله

لقد شرح بهاء الله أيضاً هذا المبدأ – مبدأ 'العصمة الكبري'[9]، وتكلم عن أهم فريضتين يجب على الإنسان إطاعتهما لنيل الخلاص. وأولاهما هو

---

[4] كتاب [من مفاوضات...]، الفصل 41 ص 113، وهي قاعدة وردت أيضا في القرآن الكريم قوله تعالى "وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" البقرة: 216

[5] لا يسعنا إلا أن نتفق مع عالم اللاهوت الكاثوليكيّ 'ألفونس أوير Alfons Auer' في رأيه القائل بأن الأنماط السلوكية التقليدية 'قد نُحّيت جانبا دون أدنى تردد مالم يكن لها مبرر مقنع'– بمعنى وجود حجج عقلانية داعمة لها – وأنّ كل إلزام خُلقيّ له وجاهته 'سرعان ما يدخلنا بكل تأكيد في عنق زجاجة مشكلة المبررات بأكملها'. من كتابه 'الأخلاقيات المتحكمة والعقيدة المسيحية *Autonomy Moral und christlicher Glaube*' ص11 إلا أنه بقوله إن 'السلطات نفسها ليس لديها وسيلة أخري' فهو يقع فريسة لخطأ العجز عن التمييز ما بين السلطة البشرية (التي يعوزها المبرر العقلاني) والسلطة الإلهية المنوطة بالمظهر الإلهيّ التي تتخطى حدود العقل البشريّ وترتبط بالوجدان والإيمان. فهو يشيد هنا بأفكار أصحاب عقلانية البعد الواحد التي انتقدناها نحن في الفصل الثاني "نظرة متفرّسة في وجه عالم الغرب العلماني"، بند 'انهيار أنظمة القيم والأخلاق'

[6] سورة الحج: 14، سورة هود: 107، سورة المائدة: 1

[7] سورة الأنبياء: 23

[8] سورة النساء: 80

[9] يشرح بهاء الله مبدأ العصمة الكبرى في لوح الإشراقات، [مجموعة من ألواح...] ص 7 – 10، وكذلك في الكتاب الأقدس في مواضع شتى منها الفقرات 7 و45 و161 و162 و163

الإيمان بالمظهر الإلهي: **"ان اوّل ما كتب الله على العباد عرفان مشرق وحيه ومطلع امره الّذي كان مقام نفسه في عالم الامر والخلق من فاز به قد فاز بكلّ الخير والّذي منع انّه من اهل الضّلال ولو يأتي بكلّ الاعمال"**[10]. أما الفريضة الملزمة الثانية، فهي اتّباع الإنسان للشريعة الإلهية بدافع من الإخلاص القلبي. [11] **"اذا فزتم بهذا المقام الاسنى والافق الاعلى ينبغي لكلّ نفس ان يتّبع ما امر به من لدى المقصود لانّهما معاً لا يقبل احدهما دون الاخر هذا ما حكم به مطلع الالهام"**[12] وفوق هذا وذاك تتربع الكلمة الإلهية التي تُظهر عظمة شرع الله وضرورة الانقياد له دون أيّ قيد أو شرط: **"اذا اشرقت من افق البيان شمس الاحكام لكلّ ان يتّبعوها ولو بأمر تنفطر عنه سموات افئدة الاديان. انّه يفعل ما يشآء ولا يسئل عمّا شآء"**[13]. وأيضا **"لو يحلّ ما حَرّم في ازل الازال او بالعكس ليس لاحد ان يعترض عليه والّذي توقّف في اقلّ من ان انّه من المعتدين. والّذي ما فاز بهذا الاصل الاسنى والمقام الاعلى تحرّكه ارياح الشّبهات وتقلّبه مقالات المشركين. من فاز بهذا الاصل قد فاز بالاستقامة الكبرى"**[14].

---

10 الكتاب الأقدس، فقرة 1

11 بمعنى أن الأتباع السطحيّ للشرائع ومراعاتها من منظور قانونيّ بحت لا يكفي وإنما هي مُلزِمة بدافع من محبة الله كما جاء في الكلمات المكنونة **"اعْمَلْ حُدُودِي حُبّاً لِي"** (الكلمة المكنونة العربية رقم 38) وفي الكتاب الأقدس **"أن اعملوا حدودي حباً لجمالي"** (فقرة 4)

12 الكتاب الأقدس فقرة 2

13 الكتاب الأقدس فقرة 7

14 الكتاب الأقدس، الفقرات 161 – 163، ولقد أوجز بهاء الله مفهوم العصمة الكبرى في لوح الإشراقات بقوله: **"وَأَمَّا الْعِصْمَةُ الْكُبْرَى لِمَنْ كَانَ مَقَامُهُ مُقَدَّساً عَنِ الأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَمُنَزَّهاً عَنِ الْخَطَأ وَالنِّسْيَانِ. إِنَّهُ نُورٌ لاَ تَعْقُبُهُ الظُّلْمَةُ وَصَوَابٌ لاَ يَعْتَرِيهِ الْخَطَأُ. لَوْ يَحْكُمُ عَلَى الْمَاءِ حُكْمَ الْخَمْرِ وَعَلَى السَّمَاءِ حُكْمَ الأَرْضِ وَعَلَى النُّورِ حُكْمَ النَّارِ حَقٌّ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَلَيْسَ لأَحَدٍ أَنْ يَعْتَرِضَ عَلَيْهِ أَوْ يَقُولَ لِمَ وَبِمَ. وَالَّذِي اعْتَرَضَ إِنَّهُ مِنَ الْمُعْرِضِينَ فِي كِتَابِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.... اعْلَمْ إِرَادَةَ اللهِ لَمْ تَكُنْ مَحْدُودَةً بِحُدُودِ الْعِبَادِ. إِنَّهُ لاَ يَمْشِي عَلَى طُرُقِهِم لِلْكُلِّ أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ. إِنَّهُ لَوْ يَحْكُمُ عَلَى الْيَمِينِ حُكْمَ الْيَسَارِ أَوْ عَلَى الْجَنُوبِ حُكْمَ الشِّمَالِ حَقٌّ لاَ رَيْبَ فِيهِ إِنَّهُ مَحْمُودٌ فِي فِعْلِهِ وَمُطَاعٌ فِي أَمْرِهِ. لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي حُكْمِهِ وَلاَ مُعِينٌ فِي سُلْطَانِهِ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ"**. كتاب [مجموعة من ألواح...] ص 9-10

التنزيل السماويّ والفلسفات المادية

إن ما أوردناه من النصوص له أهمية كبيرة في الوصول إلى فهم البهائية، فهي توضح أنه لا يسمح بقبول تعاليم بهاء الله قبولاً جزئياً. لأنه بمجرد رفض أيّ جزء من رسالته فإن هذا يعني وضع صاحب هذه الرسالة الإلهية في مصاف من يحتمل أن يكون في كلامهم صواب أو خطأ من بني البشر.

ومن الناس مثلاً من يتفق تماماً مع ما يقوم به البهائيون من مجهودات تتسم بحب السلام والعمومية في حب الخير لجميع البشر- بل أيضاً مع هدفهم الرامي إلى تحقيق وحدة الجنس البشريّ – إلا أن لهم أفكارهم الشخصية في كيفية تحقيق هذا الهدف، وعدم قبولهم بهاء الله عندما لا تناسبهم بعض تعاليمه الأخرى لسبب أو لآخر، فهم بذلك يَقبلون بكل حماس بعض ما في الكتاب، ذلك البعض الذي يطابق 'ميولهم وأهواءهم'، ويعرضون عن الآيات التي 'تغاير أهواءهم' – "أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ"[15]؟ ولقد أوضح شوقي أفندي بعبارات لا تقبل الشك أن هذا المسلك الانتقائيّ غير جائز للمؤمن الحقيقي: "لا يمكن أن يكون الولاء لدين الله جزئيا وفاتراً، فإما أن نقبل الأمر الإلهيّ دون قيد أو شرط، أو نمتنع عن تسميّة أنفسنا بهائيين. ويجب إفهام المؤمنين الجدد أنه، لكي يكونوا مؤمنين إيمانا كاملا بالبهائية وفي مصاف أتباعها العاملين، فلا يكفيهم أن يقبلوا بعضاً من تعاليمها ويرفضوا منها ما لا يناسب اتجاههم الفكري. وبهذه الكيفية تزول كافة ألوان سوء التفاهم وتصان وحدة الدعوة قلباً وقالباً". [16] وأوضح شوقي أفندي أيضاً أن كل مؤمن صادق ملزَم "بالقبول التام والإذعان لكل ما نزّل من أقلامهم"[17] أي لكل ما جاء في كتابات الشخصيات الرئيسية الثلاث للدين البهائي[18] وهذه هي النقطة التي تميّز الدين عن الفلسفات المادية. فمهما كانت أفكار الفلاسفة ومذاهبهم

---

[15] كما شرح بهاء الله في كتاب الإيقان ص 135، مستشهداً بهذه الآية القرآنية، وهي الآية [85] من سورة البقرة

[16] مترجم عن الإنجليزية من كتاب 'الإجراءات البهائية *Bahá'í Procedures*' ص 18

[17] شوقي أفندي، مترجم عن الانجليزية من كتاب 'الإدارة البهائية *Bahá'í Administration*' ص 90

[18] الشخصيات الثلاث هم: الباب، بهاء الله، عبد البهاء

سامية، ومهما كانت حجتهم مقنعة لأفهام البشر، فإنهم لا ينطقون عن عصمة، ولا يعلو سلطانهم عما في كلماتهم من حِجّية. ولأن هذا جائز في أصول علم المنطق، فإن بوسع الإنسان أن يقبل البعض من علوم الفلاسفة ويرفض البعض الآخر. لأن المعرفة البشرية ليست سوى ذلك 'البعض' الذي أشار إليه بولس الرسول،[19] كما أن كل الفلسفات البشرية خاضعة لقاعدة 'الخطأ من صفات البشر *Errare humanum est*' أما الكلمة الإلهية فهي من مرتبة أخرى، فالتنزيل نظام توجيهيّ مُلزِم، تستوجب تعاليمه وأحكامه وأصوله ومبادئه سلطة مطلقة لا تقبل التعديل أو التبديل. فهي أمور مطلقة منزهة عن النقد والمساءلة، ملزمة ودامغة. إلا أنها خير محض في مضمونها ومرادها- أو بتعبير آخر – إنها ترمي إلى تحقيق تقدم الحياة البشرية ورفاهيتها. وعلى الإنسان أن يهتدي بها في أفكاره وتصرفاته – فهي نبراس حياتنا.[20]

ولكن قد يقول قائل: ألا يفضي بنا قبول ما في الدين من قواعد تنظيمية محَدّدة مسبقاً إلى اتخاذ مفهوم ثابت لا يتغير في العيش والحياة؟ وألا تؤدي الأنظمة الدينية إلى التزام جامد لا مرونة فيه بتعاليم تَبلى وتتقادم خلال فترة منظورة من الزمن وتطويها موجة التطور الاجتماعيّ بما يوصلنا إلى حالة من شلل الفكر والموات الروحي؟ فها هو نوربرت الياس Norbert Elias يعتبر ما أسماه 'بجنون الرجعية' و "البحث عن عكاكيز روحية وعن كتب القَبل والقواعد الموصوفة مسبقاً – أي تلك المبادئ والتعاليم التي يتحتم علينا بكل بساطة أن نعتبرها مبادئ رجعية دون حاجة منا لأن نفكر بحرية، وأن نستخدم حقنا في إبداء الرأي" – ها هو يعتبر ذلك مرضاً فكرياً[21] ويرى أن وسائل التوجيه الاجتماعيّ – النظريّ منها

---

[19] بقوله "لأَنَّنَا نَعْلَمُ بَعْضَ الْعِلْمِ وَنَتَنَبَّأُ بَعْضَ التَّنَبُّؤِ. وَلكِنْ مَتَى جَاءَ الْكَامِلُ فَحِينَئِذٍ يُبْطَلُ مَا هُوَ بَعْضٌ. "–الرسالة الأولى لأهل كورنثوس إصحاح 13– آية 9 - 10

[20] لا يمكن للفلسفة المادية في التاريخ أن تقبل مثل هذه الثوابت، ناهيك عن مجرد التسليم بأنها عوائق منيعة، فهي ثوابت لا ترتبط بالممارسة التاريخية وتعلو على قدرات البشر. ويتّضح هذا المفهوم الماديّ من قول كولاكوفسكي Kolakowski أنه "لا يوجد في هذه الدنيا بئرٌ تمنع شدة عمقه أن يرى المرء انعكاس صورته على سطح مائه عندما ينظر فيه" من كتاب 'بحث في فضيلة العقل *Traktat über die Sterblichkeit der Vernunft*'، ص 80

[21] في خطاب له بمناسبة منح جائزة أدورنو Adorno بمدينة فرانكفورت نشرتها جريدة Frankfurter Allgemeine Zeitung في 4 أكتوبر 1977 (وهي جائزة تمنح في مدينة فرانكفورت الألمانية كل ثلاث سنوات لأصحاب المساهمات البارزة في الفلسفة

والتجريبيّ – تحتاج هي الأخرى للتمحيص أو إعادة النظر أو الإضافة، شأنها في ذلك شأن غيرها من المسائل العلمية. كما أنه يَرثى لكل عقل يعجز عن أن يأخذ في الاعتبار تلك الحالات التي لا تنطبق عليها الأفكار والمبادئ المسلَّم بها على خلفية المرجعية بقوله :"لقد ولّت الشجاعة على الاستمرار في استخدام العقل، وحَكم المصابون بمرض الارتكان إلى المرجعية السّلفية على الإنسان بأن يعيش إلى الأبد حياة من محاكاة الأسلاف وتقليدهم يصاحبها عجز عن تحقيق إيّ إنجاز في الحاضر يضاهي ما حققه هؤلاء الأسلاف في عظمته"[22]

غير أنه لو كان كل فكر – بما فيه الدين – فكراً بشرياً، أي من ضُرُب الفلسفات، ولو لم تكن مرتبة تسمو على مرتبة العقل والمنطق، لكان قول 'نوربرت الياس' هو الصواب ولَمَا كانت هناك ثوابت تعلو عن النقد، بل ولَكان لزامٌ علينا في كل سعي لاستجلاء الحقيقة أن نُخضع كل نظرية وفكرة ومبدإ لعملية تصحيح مستمرة على ضوء من الخبرة والتجربة. فضعف كل الأيديولوجيات[23] في واقع الأمر راجع إلى أن العقل مقيد بنظام من الأفكار المستقاة من التجربة ومن المعرفة التي ورثناها عمّا سبقنا من عصور، كما أن العقل دائما ما يعجز عن الوفاء بالمتغير من الظروف والاحتياجات. فإذا مرّ على الفلسفة مرحلة امتنع فيها العقل عن العمل وعزف عن اللجوء إلى التجربة وارتكن إلى كَمّ ثابت من المعرفة لا تغيير فيه، فعندئذ يموت الفكر المتحرّي، ويتوقّف البحث المستقل عن الحقيقة وتتبدد شجاعة المُضيّ قُدُماً في استخدام العقل.

أما المرجعية المعصومة والمنيعة الكامنة في الكلمة الإلهية فهي ترتكز على ذلك الفرق الجوهريّ بين المعرفة البشرية والحكمة الإلهية. فتماماً كما ستظل ماهية 'الإنسان وجوهره 'مستعصية على إدراك علماء النفس مهما تقدمت بهم النظريات والأبحاث، فإن الحياة الإجتماعية أيضاً هي أمر معقد ومبهم بالدرجة التي يستحيل معها على أيّ فرع من فروع العلوم الإجتماعية مها بلغ من تطوّره وتقدّمه أن يقدم فهماً صحيحاً أو يعطي القول الفصل عن العوامل التي تضمن استقرار أيّ نظام اجتماعيّ أو دولة أو رابطة من الدول لفترة طويلة من الزمن. فها هو 'نوربرت الياس' نفسه

والمسرح والموسيقى تخليدا لذكرى Theodor W. Adorno الذي كان يحاضر في جامعة تلك المدينة [المترجم]).

[22] من نفس الخطبة

[23] وما نقصده هنا هو أيديولوجيات النظم الفلسفية المبنيّة على الطبقية مثل الماركسية

– وهو الذي يشكو بحق من أننا قد فقدنا وجهتنا في هذا العالم – قد استسلم للرأي القائل بأنه يتحتم علينا أن نصرف أعواماً طويلة من العمل في أناة وصبر "لكي نرتقي بالأنماط والنماذج الاجتماعية والعلمية إلى المستوى الذي نستطيع معه الإسهام بصورة أفضل في تخفيف الارتباك وعدم الأمان اللذين نالا من حياتنا الاجتماعية على هذا الكوكب."[24]

إلا أن هذا الرجاء الذي يبديه هذا المفكّر ليس هناك ما يبرره هو الآخر، وذلك لما ذكرناه آنفاً من أسباب.[25] فبغضّ النظر عما يستطيعه العلم أو يعجز عنه، يقدّم الدين السماويّ للإنسان نظام توجيه جامع، ويقوم المظهر الإلهيّ 'كطبيب حاذق كامل ومؤيَّد' بوصف 'الدرياق'[26] أي الدواء، وهو دواء قادر على الاحتفاظ بفاعليته والتكيّف بكل مرونة مع المتغيرات التي تستجد من عصر لآخر، وذلك على عكس ما عداه من المحاولات البشرية التي تُبذل لتقديم الحلول. فكتاب الله ليس عكّازاً روحياً أو فكراً مكبِّلاً. وإنما هو واسطة لاستجلاء ما تقْصُر عن فهمه المعرفة البشرية العقلانية. وفي ذلك يكمن السبب في أن الدين يَفرُض الطاعة على الإنسان حتى ولو كان فكره قاصراً عن تبيّن الحكمة البالغة المودعة في التنزيل.

التسليم بالإرادة الإلهية

بما أن كل نفس تلتقي بالأمر الإلهيّ من زاوية ومفهوم مختلف، وبما أن المسألة التي قد تجذب نفساً وتقنعها غالباً ما تكون هي نفس النقطة التي شككت نفساً أخرى وتسببت في إعراضها، فهناك نفوس مستعدة تهتدي للحقيقة تلقائياً فور سماع كلمة الله، وهناك نفوس أخرى عديدة تحتاج سنوات من البحث والتفكير إلى أن تشقّ حجاب أوهامها 'وتعرف آثار الله'[27] وتهتدي إليها. وفي كل حالة من هذه الحالات، يكون الإيمان بمثابة عملية نموّ روحيّ يتعين فيها على الإنسان ألا يُلقي بالاً إلى ما قد يستعصي عليه فهمه لأول وهلة من الأوامر والنواهي، وأن يكون على يقين من أن فهمه

---

[24] نفس مصدر الحاشية رقم 21

[25] راجع بداية الفصل الثالث: "الدين والعلم..." وما بعدها من صفحات، والفصل الثامن: "المجتمع الجديد" ابتداء من بند 'حاجة المجتمع ككلّ إلى الخلاص'

[26] كما يقول بهاء الله في كتاب [ألواح...إلى الملوك والرؤساء] ص 60

[27] اقتباس من قول بهاء الله **"وأودع في كل نفس ما يعرف به آثار الله ومن دون ذلك لم يتم حجته على عباده إن أنتم في أمره من المتفكرين"** من لوح أشرف، كتاب [منتخباتي...] المقتطف رقم 52

وإدراكه سيزداد يوماً بعد يوم، إنْ هو أصغى إلى نصح بهاء الله بأن **"يجعل القلب... مطهَّراً ومنزَّهاً عن كل غَبْرَة مظلمة من غُبار العلوم الإكتسابية"**[28]، وأن ينظر 'بنفسه' إلى ما نُزّل في الكتاب بوصفه **"قسطاسُ الحقّ بين الخلق"**[29] وما تفرضه المشيئة الإلهية على المؤمن من تسليم ورضاء هو في حدّ ذاته جوهر الدين. فلقد سَمّى الرّسول محمد رسالته بالإسلام وهي كلمة تعني 'التسليم بقضاء الله'[30]، والمُسْلم هو 'من أسْلَمَ وجهه إلى الله'[§].

ولقد خُلق الإنسان من أجل أن يحيا على هذا المنوال، وهو السبيل إلى معرفة نفسه حق المعرفة. وعندما قال القديس 'أوغسطين' أن النفس البشرية 'مسيحية بالفطرة *Naturaliter Christiana*' كان يعني بذلك نفس هذا المفهوم للوجود الإنساني. وهو وجود لا يُحقِّق ذاته إلا بالتوجّه إلى الله – لا بتولّي زمام حياته بنفسه. ولقد كان 'نيتشه' محقاً في إدراكه أن 'المتدين' أو 'المؤمن' من أيّ نوع كان هو إنسان تابع بالضرورة، وأن إيمانه هو 'عموده الفقري' [31] أما استنتاجه بأن كل لون من ألوان الإيمان هو 'دليل على انمحاء الذات' وعلى 'اغتراب الإنسان عن نفسه' وعلى 'العبودية' فقد يتمشى مع وجهة نظره هو، إلا أنه مخالف تماماً لمفهوم الدين عن الإنسان. فنظرية 'نيتشه' هي أن المؤمنين 'أسارى' وأن الاحتياج إلى الإيمان هو 'احتياج للضعف' وأن ما يليق بالسلالة الراقية من البشر ليس الإيمان وإنما مذهب التشكك.[32]

---

[28] كتاب الإيقان ص 153

[29] الكتاب الأقدس فقرة 99، وردت أيضا في [منتخباتي...] مقتطف 98 ص 130

[30] ونلاحظ أن القرآن لم يَقْصر إطلاق صفة المسلم على المؤمنين برسالة محمد (ص) فقط بل على كل من آمن بأيّ رسالة من رسالات الله. مثلا تكلم القرآن عن سيدنا ابراهيم بوصفه مسلماً ـ آل عمران: آية 67. (ومن يتصفح الآيات القرآنية بعناية وموضوعية سيجد أن القرآن قد وصف كل من ذكرهم من الرسل والأنبياء بأنهم مسلمون، وكذلك كل من آمن بهم وبرسالاتهم [المترجم])

[§] للمزيد راجع شرح عبد البهاء لمعنى الإسلام في معرض تفسيره للآية الكريمة "بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن" في كتاب [من مكاتيب عبد البهاء] المجلّد رقم 1، طبع البرازيل، ص 64 – 65 [المترجم]

[31] في مؤلفه المسيح الدجّال *The Antichrist*– المقتطف 54

[32] المرجع السابق

وطبقاً للمفهوم البهائيّ فإن الاغتراب الحقيقيّ للإنسان عن نفسه ما هو إلاّ بُعدُه عن الله. ولأن الإنسان قد جُبل على ذلك (في طبيعته الإنسانية) فهو غير قادر على العيش من دون عمود فقريّ من الإيمان المبنيّ على العقيدة وبوصلة الفضيلة المثبّتة في الإيمان. وها هو كونفوشيوس الحكيم يقول قولته الشهيرة: "أنّى لمن لا إيمان له أن يتدبر أمره؟ وهل تستطيع عربة تخلو من نيّر الثور، أو عريش الجياد أن تتحرك بمفردها؟ "[33] فعديم الإيمان يفقد الاتجاه ويَضل الطريق. وهو – بكل أسف – نفس المنحى الذي اختاره الإنسان المعاصر.

ودائما ما يبدأ طريق الإنسان إلى الله بمعرفة الإنسان لنفسه أولاً[34]، وكذلك بنكران الذات. ومن ثَمّ إلى المناجاة والتأمل من خلال الإنضباط الأخلاقي. ويجد المؤمن نفسه في مواجهة بين نفسه وخالقها. أي بين رغباته الشخصية المُخَمَّرَة بالأنانية وحبّ الذات في مقابل الأوامر والنواهي الإلهية. ولكن البهائية لا تأمر المؤمنين بالإعراض عن الحياة الدنيا مثلما يفعل النسّاك والرهبان، وإنما تحضّهم على التوجه إلى الله وتغليب روح الدين والإيمان في ميزان أمور حياتهم – "**يَا ابْنَ الرُّوحِ ما قُدِّرَ لَكَ الرَّاحَةُ إلاَّ بِإِعْراضِكَ عَنْ نَفْسِكَ وَإِقْبالِكَ بِنَفْسي**"[35]. وكذلك أيضا "**خلصوا أنفسكم يا قوم ثم طهروها عن التوجه إلى غيري**"[36].

فلدينا في أول الطريق أنسان غريزيّ عنيد لا يكلّف نفسه عناء التفكير مملوء بالمتناقضات، ثم يجعله الإيمان يتخلّى طواعية عن حرّيته المفرطة، ويأتمر بالشرع الإلهيّ، ويتحكّم في نفسه ويوجّه حياته على هُدى من أسمى القيم ويكتسب الفضائل والكمالات الإلهية، فنجده في نهاية المطاف – عبر معرفته لنفسه وقهرها وتربيتها على مكارم الأخلاق – وقد صار إنساناً على خُلُق، أي إنساناً جديداً تسمّيه التوراة 'صالحاً' [37] ويدعوه الإنجيل من 'أبناء الله' [38]، ويعتبره كونفوشيوس الحكيم 'نبيلاً'. ثم نجد في

---

[33] منتخبات (أو شذرات) من أقوال كونفوشيوس The Analects- المجلد الثاني ص 22

[34] كما جاء في الحديث الشريف قوله: من عرف نفسه فقد عرف ربه – وهي مسألة أكدها بهاء الله في أكثر من مناسبة: لوح 'الطرازات' - 'الطراز الأول'[مجموعة من ألواح...] ص 51، ولوح 'أصل كل الخير'، نفس المرجع، ص 137.

[35] الكلمات المكنونة العربية – الكلمة رقم 8

[36] من 'لوح خليل'، [منتخباتي...] المقتطف رقم 136 ص 189

[37] مزامير 5: 11، أمثال 4: 18

[38] سفر التثنية 14: 1، إنجيل متى 5: 9، إنجيل يوحنا 1: 12، رسالة يوحنا الأولى 5: 2

نهاية هذا المطاف أيضا ‘ثواباً’ على هيئة سعادة دائمة – سعادة قد لا نجدها في الدنيا، كما يشرحها بهاء الله بقوله: "يا أيها العباد، إذا وقعت من جبروت القضاء أمور تخالف الرضاء في هذا اليوم المشهود، وهذا العالم الموجود، لا تحزنوا فستقبل أيام طيب رحمانيّ وتتجلّى عوالم قدس روحاني".[39]

كما يتطلب الوفاء بالأوامر الإلهية يقظة دائمة، ودأباً في جميع مراحل العمر على كبح جماح النفس والتحكم فيها بالتهذيب. ومراعاة الأوامر والنواهي الإلهية تعني ألا يترك الإنسان العنان لنفسه فيما يشاء. وهذه حقيقة واضحة لا لبس فيها، ذلك لأن كل شكل من أشكال الأخلاقيات يضع قيوداً على حرية الفرد في أن يفعل ما يشاء، وهو الأمر الذي نجده في كل دين من الأديان بغير استثناء.

الإنسان والحرية

لا عجب إذن أن يشرح بهاء الله – في الكتاب الأقدس الذي ضمّنه شرائع الدين البهائيّ وأحكامه – مفهوماً عن سعي الناس وراء الحرية. ولا يترك أدنى شك في أن الحرية لا مكان لها إلا في سياج الشرائع، فيقول: **"فانظروا الخلق كالأغنام لا بدّ لها من راع ليحفظها انّ هذا لحقّ يقين. انّا نصدّقها في بعض المقامات دون الأُخَرْ"**[40] كما أن مبدأ الاعتدال،[41] وهو المبدأ الذي يشدد عليه بهاء الله، ينسحب أيضاً على الحرية الشخصية بنص يقول فيه: "على الرؤساء أن يكونوا ناظرين إلى الاعتدال في جميع الأمور، حيث إن كل أمر جاوز حدّ الاعتدال حُرم من طراز التأثير. مثال ذلك الحرية والتمدّن وأمثالهما - بالرغم من كونها موضع قبول أهل المعرفة - لو جاوزت حدّ الاعتدال أدّت إلى الضرر"[42] ويعتبر بهاء الله أن السعي وراء

---

[39] بهاء الله، كتاب [منتخباتي...] المقتطف 153

[40] الكتاب الأقدس فقرة 124 ص 72

[41] للمزيد راجع ما يلي في الفصل الثاني عشر "الخلق الجديد"، بند ‘الاعتدال’

[42] بهاء الله – كتاب [منتخباتي...] المقتطف 110، وأيضاً لوح مقصود في كتاب [مجموعة من ألواح ...]، ص149-150. وعن مسألة الاعتدال يقرّ عالم القانون الشهير مونتيسكيو Montesquieu أنه لم يكتب مؤلفه، الذي هو علامة فارقة في علم القانون، لا لسبب سوى البرهنة على أن "روح الاعتدال يجب أن تكون تلك الروح التي يتحلى بها المشرّع، فالخير سواء في السياسة أو الأخلاقيات يكمن في الوسط ما بين نقطتي نقيض". من كتابه ‘روح القانون *The spirit of Law*’ المجلد التاسع والعشرين. الفصل الأول – الباب الأول ص 1748. وعندما نستعرض الأرضية

الحرية المطلقة ينم عن '**قِلّة عقول الناس**'، الذين **"يطلبون ما يضرّهم ويتركون ما ينفعهم ألاَ أنّهم من الهآئمين"**. [43] وأنّ من أرادوا الحرية ويفتخرون بها هم '**في جهل مبين**'. [44] وأنّ الحرية التي لا تخضع لأيّ ضابط أو رابط – تلك الحريّة التي لا يراعي فيها الإنسان المسيِّر لنفسه بنفسه أية حدود أو قيود غير التي يضعها هو لنفسه فلا تكون ملزمة هي الأخرى – **"تؤدي إلى الفتنة التي لا تخمُد نارُها"**. فالإنسان **"ينبغي أن يكون تحت سنن تحفظه عن جهل نفسه وضرّ الماكرين. ان الحرّيّة تُخرِج الانسان عن شئون الأدب والوقار وتجعله من الأرذلين. "**[45]

ومسألة الحرية الفردية هذه هي واحدة من المعضلات في المجتمع البشري. والحل الذي تعطيه البهائية لهذه المسألة يتمشّى مع المفهوم الذي رسمه بهاء الله عن الإنسان.[46] وهو مفهوم يعتبر أن الإنسان قد خلقه الله على صورته ومثاله، وأنه 'أشرف المخلوقات وأكملها'[47]، وهو 'أسمى مخلوقات الخليقة'، و'أقرب المخلوقات جميعاً إلى الله'[48] وأنه مقدَّر له أن

السياسية المعاصرة يمكننا استبانة أن انهيار نظامنا يتجلى في فقدان الاعتدال السياسيّ، أي تفضيل المواقف البالغة الانحياز والشطط، وانتقاء أكثر الوسائل نزقا وقسوة لتحقيقها أكثر من أيّ شيء آخر. وأقوى دليل على هذا هو تاريخ ألمانيا في القرن العشرين – وهو تاريخ يثبت أن فقدان الاعتدال في السياسة يؤدي إلى الاستقطاب والخراب. وهي حقيقة عزّزتها التجارب التي تمت ممارستها عبر التاريخ من أن الحرية المفرطة غالبا ما تُستغلّ لخدمة الطغيان والاستبداد في الحكم، فالاعتدال فكرة صائبة نادى بها أفلاطون بقوله: "...وبناء على ذلك فإن المرء غالبا ما يجد في الحرّية المفرطة...ردّة فعل تفضي إلى الإذعان المفرط...فنحن نتوقع أن تفرز الديمقراطية طغيانا، وهو أشد ألوان الاستبداد النابعة من الإفراط في الحرية شراسة". كتاب 'جمهورية افلا طون *The Republic*' الطبعة الإنجليزية المجلّد الثامن ص 564

[43] الكتاب الأقدس فقرة 122، وردت أيضا في [منتخباتي...]، مقتطف 159 ص 216

[44] الكتاب الأقدس فقرة 123

[45] المرجع السابق، نفس الفقرة

[46] راجع أيضا كتابنا 'النور يلمع في الظلام *The Light Shineth in Darkness*'، الطبعة الإنجليزية ص 91-93

[47] الإيقان ص 79

[48] كتاب [خطب باريس*Paris Talks*]، الموضوع الخامس ص 24 – مترجما عن الإنجليزية

"يستفيض من إشراقات الصفات الإلهية"[49] وأنه يتميز عن الحيوان بقوته المفكرة وقابليته لتلقي المعرفة ونيل الإيمان، نظراً "لأن جميع الأسماء والصفات الإلهية تظهر من المظاهر الإنسانية بنحو أكمل وأشرف"[50]. فالإنسان هو سمة الوجود في هذا الكون، وفي شخصه يجد الرّقيّ معنىً ومضموناً، ويترتب على ذلك أن يكون الإنسان أيضاً مسئولاً عن استمرار ذلك الرقيّ.

ولكن، ألا تتناقض تجارب التاريخ البشريّ مع هذا المفهوم؟ أَوَليس تاريخ البشرية مكتوباً بالدماء وسلسلة لا نهاية لها من العنف، وهو الشيء الذي حدا بالمفكرين من أمثال هوبز Hobbes بأن يسمّي الإنسان 'ذئباً'؟[51] ثُمّ ألا تجد النظرية القائلة بأن الإنسان شرير فاسد حتي النخاع مبررّاً كافياً لها في تجارب التاريخ؟ أَوَلَمْ يكن شوبنهاور Schopenhauer مُحِقاً في وصفه لحال الإنسان عندما قال: "إن العالَم على وجه العموم في حالة بالغة السوء. فالبشر يأكلون بعضهم بعضاً في البلدان المتوحشة ويخدعون بعضهم البعض في الدول المتمدنة، وهذا ما يسميه الناس أسلوب حياة. ثم أليست تلك الحكومات وكلّ الآليّات السياسية المحبوكة المعقّدة، وقاعدة الجبر سواء في الشئون الداخلية أو الخارجية – أليست كلُّها استحكامات دفاعية لصدّ وابل الظلم والجور البشريّ؟ أليس التاريخ شاهداً على أنه كلما استحكم ملك على عرشه وبلغ شعبه قدراً من الرّخاء انتهزها فرصة لإرسال جيشه كعصبة من اللصوص وقطّاع الطرق ليهجم على الدول المجاورة؟ ثم ألم تُشنّ كلُّ الحروب تقريباً بغرض السلب والنهب في نهاية المطاف"[52]

إلا أن بهاء الله – مع كل هذا وذاك – يصف الإنسان 'بالطلسم الأعظم'. غير أنه يخبرنا أيضاً عما هو السبب فيما نشاهده من قصور بشريّ، فيقول: "وَلَكِنَّ عَدَمَ التَّرْبِيَةِ حَرَمَهُ مِمَّا فِيهِ"[53]. ويُشبّه بهاء الله الإنسان بـ "مَعْدِنٍ يَحْوِي أَحْجَاراً كَرِيمَةً تَخْرُجُ بِالتَّرْبِيَةِ جَوَاهِرُهُ إلى عَرْصَةِ الشُّهُودِ وَيَنْتَفِعُ بِهَا الْعَالَمُ الإِنْسَانِيُّ."[54]

---

[49] عبد البهاء – في كتاب [ترويج السلام العالميّ *The Promulgation of Universal Peace*]، ص 404، مترجما عن الإنجليزية

[50] كتاب الإيقان ص 78

[51] أنظر الحاشية رقم 81 من الفصل الثامن ''المجتمع الجديد"

[52] في كتاب 'النصائح والأمثال *Counsels and Maxims*' الفصل الخامس، ص 29

[53] لوح مقصود في [مجموعة من ألواح...]، ص 141

[54] المرجع السابق ص 142

أثر ونفوذ التربية والتعليم

إن ما استشهدنا به آنفا من النصوص البهائية يوضّح الأهمية البالغة التي أولاها بهاء الله لمسألة التربية والتعليم، وهي السابقة الأولى من نوعها في سجل الأديان. وتأكيداً لذلك يقول عبد البهاء "إنّ ألزَمَ الأمور وأبدى الوسائل الملحّة هو توسيع دائرة المعارف، لا يُتصوّر النّجاح والفلاح لأمّة من الأمم من دون تطوّر هذا الأمر المهمّ الأقوم، كما أنّ الجهل والسَّفَه أعظم باعث على انحطاط الأمم واضطراب أحوالها".[55] ذلك لأن الغرض من التعليم هو التغلّب على جهل الإنسان.

وتثق البهائية في قابلية الإنسان للتعلم وتقِرّ بحاجته إلى التربية. وخلافاً للاعتقاد الكنسي ترى البهائية أن الإنسان لا يولد وهو في حالة خطيئة،[56] مجبولاً على الفساد، منحل التفكير. إذ تطالعنا الكلمات المكنونة لبهاء الله بقوله: **"يَا ابْنَ الرُّوحِ خَلَقْتُكَ غَنِيّاً كَيْفَ تَفْتَقِرُ، وَصَنَعْتُكَ عَزِيزاً بِمَ تَسْتَذِلُّ"**[57] فالإنسان منذ ولادته إذن هو صحيفة أخلاق خالية لم يكتب عليها شيء بعد. أما ما 'يشكّل الصفة السلوكية للإنسان ويميزها'[58] فما هي إلاّ التربية وتأثيرات البيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها.

فتعاليم البهائية تشبه من هذه الزاوية فلسفة عصر التنوير دون أن تتفق معها تماماً. وفلسفة عصر التنوير هذه هي التي تعتقد في كمال الإنسان ونفوذ أثر التعليم. فقد شبّه جون لوك John Locke، (1632 – 1704)، الإنسان في بدء حياته كصفحة ورق خالية لا يرتسم عليها شيء سوى ما يصل إليه من خارج ذاته، وفي اعتقاده أن تسعة من كل عشرة من البشر "صاروا على ما هم عليه من خير أو شر بفعل ما تلقوه من تربية وتعليم،

---

[55] كتاب [الرسالة المدنية] ص 67

[56] إن الاعتقاد الكنسيّ في الخطيئة الموروثة عن آدم أمر غريب عن البهائية كما هو غريب أيضا عن اليهودية. للمزيد راجع كتابنا 'النور يلمع في الظلام *The Light Shineth in Darkness*'، الطبعة الإنجليزية ص 90 وما بعدها

[57] الكلمات المكنونة العربية، الكلمة رقم 13

[58] إذا شئنا استعارة اصطلاح الكاتب البهائيّ 'هيرمان جروسمان Herman Grossmann' في كتابه 'أقصر الطرق إلى الوحدة والإتحاد *Umbruch zur Einheit*'، الطبعة الألمانية ص 4

وأن التعليم هو ما يفرق كثيراً بالنسبة للبشر"[59] وهكذا فإن لوك Locke يرى أن المدنية بكاملها ما هي إلاّ محصّلة التربية والتعليم.

ولكنّ مهما كان احتياج الإنسان للتربية[60]، إلا أن مقدرته على التعلم لها حدودها. فالطبيعة البشرية – كما تراها التعاليم البهائية – ليست مثل الشمع الذي يمكن صبّه في أيّ قالب وتشكيله على أية صورة تُراد له، فلكل نفس طبيعتها الجوهرية التي يمكن إخراجها إلى حيّز الوجود وترقيتها بما يفي بأكبر فائدة لها وللمجتمع الذي تعيش فيه. وتتفاوت عقول البشر وأفهامهم في سماتها وطباعها من حيث التمايز، إلى جانب عامل التربية والتعليم. بل لا يصح أن نزيل هذا التمايز. لأن تنوع الكائنات البشرية وتمايزها يشكل طبيعة الجنس البشريّ على اختلاف أطيافه وتنوعه. فيقول عبد البهاء "يرى جمهور العقلاء أن تفاوت العقول والآراء يرجع إلى تفاوت التربية وتعليم الآداب. ويعني هذا في اعتقادهم أن العقول متساوية في الأصل ولكن التربية وتعليم الآداب هما سبب وجود العقول المتفاوتة والإدراكات المتباينة. وأن هذا التفاوت غير موجود بالفطرة، وإنما هو راجع إلى التربية والتعليم... وهذا الرأي يصدُقه الأنبياء الذين تفضلوا قائلين بأن للتربية غاية الأثر في البشر، إلا أنهم تفضلوا بالقول أيضاً بأن العقول والإدراكات متفاوتة في أصل الفطرة، وهذا أمر بديهيّ لا يقبل الإنكار. فنحن نرى أطفالاً من نفس العمر ونفس الوطن والجنس بل ومن نفس العائلة ويتربون على يد شخص واحد ولكننا نجدهم متفاوتين في عقولهم وإدراكاتهم. فواحد يحرز تقدماً سريعاً، والآخر يتعلّم بطيئاً وآخر لا يتجاوب بتاتاً مع ما يتعلمه ولا يستوعبه، فلا يصير الخزف بالتربية لؤلؤاً منيراً ولا يصبح الحجر الأسود جوهرة مضيئة. ولا ينقلب الحنظل[61] والزقوم[62] بالتربية والتعليم ليصبح شجرة مباركة[63]. يعني أن التربية لا تُبدّل معادن

---

[59] في بحث هيرمان جروسمان المعنون 'بعض الخواطر عن التربية والتعليم *Some Thoughts concerning Education*'، الطبعة الإنجليزية، ص 4

[60] فالإنسان كما يقول عبد البهاء "إذا تركناه دون تربية يصير حيوانا بل لو ترك والطبيعة لصار أخطر من الحيوان، أما إذا ربيته ألفيته ملاكا". كتاب [من مفاوضات...] الموضوع الثالث 'إثبات لزوم المُربِّي' ص 14

[61] الحنظل (أو الحنظل) من فصيلة الأعناب المُرّة، وينمو في آسيا وثماره تُجفّف وتستخدم في تصنيع المليّنات قوية المفعول

[62] الزقّوم شجرة ضارة، جاء ذكرها في القرآن الكريم، سورة الصافات: آية 62 وما بعدها

[63] هناك أيضا ذكر للشجرة المباركة في القرآن الكريم، سورة النور: آية 35

النفوس ولكن لها تأثير كلّي. وتُخرج بقوّتها النافذة هذه ما في حقيقة الإنسان من كمالات واستعدادات ذاتية كامنة إلى حيّز الشهود."[64]

أي أن المعلّم ما هو إلا بستانيّ يتعهد مختلف الأشجار والنباتات بالرعاية، فبعضها محبّ لضوء الشمس والآخر لا ينمو إلا في الظل والبرودة، ويجب على البستانيّ أن يرعى كل نبات بما يناسب طبيعته. وهذه وجهة نظر تختلف كثيرا عن الافتراض الأساسيّ الذي يدعّم القسم الأعظم من علم النفس والنظريات التربوية الأنجلو سكسونية، والتي ترى أن جميع البشر سواء[65]، كما تختلف عمّا أكّده علماء السلوك بأنّ الإنسان يستطيع أن يتعلّم أيّ سلوك يرغبه وهو منحى تمخّضت عنه النظرية التربوية التفاؤلية القائلة بأنه بالإمكان تدريب أيّ انسان على أية مهنة أو حرفة في المحيط والظروف الملائمة مهما كانت مَلَكاته وميوله واستعداداته. أي أن المدرسة الأنجلوسكسونية في علم النفس والتربية ترى أن كل كائن بشريّ يمكن أن يكون عالماً في ذكاء اينشتاين، أو كاتبا مثل شكسبير. ولا تعطي هذه النظرية وزناً لحقيقة أن الميول الفطرية تضع حدوداً وتفرض توجهات معينة، وتتجاهل حقيقة أنه ليس كل نزعة سلوكية شخصية تأتي للإنسان من التربية، وكذلك حقيقة أن الملكات لدى مختلف الناس لم يعد وجودها حكراً على المحيط والبيئة وحدهما وإنما لها أيضاً سند من الفطرة الموروثة.

أمّا النظرة البهائية في التربية والتعليم فهي تختلف بصفة جوهرية في معظمها عن المفاهيم والأسس التربوية التحديثية من حيث إن المفاهيم والأسس التحديثية هذه قاصرة على المنطق والعقل والإدراك الحسى، دون أيّ التفات إلى الروح البشرية التي هي جوهر الإنسان، وبمقتضى هذه المفاهيم والأسس يتربى الإنسان على العقلانية والحس والتمييز كي يتمكن من تولي زمام نفسه مستعيناً بعقليته المتحرّية الناقدة. وهي أهداف إيجابية بالفعل. غير أنّ الأساليب التربوية الحديثة والتي اتخذت لنفسها اسم 'الأساليب التعليمية الدافعة لتحرر الإنسان *emancipatory pedagogics*'، قد أصبحت تخرج في فهمها لمصطلحات مثل 'النضج' و'الوعي' عن فهمنا

---

[64] كتاب [من مكاتيب عبد البهاء] المجلّد رقم 1، مقتطف رقم 110، ص 207- 208، والأصل فارسيّ

[65] غير أن المنادين بالمساواه يرون أنه لا فرق بين شخص وآخر (كما تنص عليها المادة الثالثة من الدستور الفيدراليّ الألماني) ولكن هناك من هم محقون في قولهم – مثل بريتسينكا Brezinka في أن هذا النص "يفسَّر على أنه ينسحب على الطبيعة البشرية، وهو ما لا يتمشى مع نتائج الأبحاث العلمية (من كتابه 'التعليم والثورة الثقافية *Erziehung und Kulturrevolution*'، ص 108).

العادي لها.[66] كما أنها – كما قلنا – قد اقتصرت على تنمية الملكات الحسية والعقلانية المادية البحتة وأهملت كل ما يتعلق بنفس الإنسان وروحه. فالتربية مسألة تختلف تماماً في جوهرها عما يعَرِّفها هؤلاء التربويّون على أنها مجرد المرور بالمراحل التعليمية النظامية المتعاقبة. [67]

ونحن نتفق تماماً على أن ترقية الملكات العقلية لدى الإنسان هي هدف تربويّ أساسيّ لا غنى عنه. إذ يقول بهاء الله: "إِنَّ الْعَطِيَّةَ الْكُبْرَى وَالنِّعْمَةَ الْعُظْمَى فِي الرُّتْبَةِ الأُولَى لَمْ تَزَلْ هِيَ الْعَقْلُ."[68] فبفضل فراسة النفس الناطقة وفطنتها – وهي موهبة منحها الله لكل إنسان مؤمناً كان أم ضالاً – كما يقول عبد البهاء، تستطيع هذه النفس "أن تكشف حقائق الأشياء وتدرك خواصّ الكائنات وتهتدي إلى أسرار الموجودات، فهذه الفنون والمعارف والصّنائع والبدائع والتّأسيسات والاكتشافات والمشروعات كلّها من إدراكات النّفس النّاطقة"[69]

ولهذا، يجب تنمية هذا الإدراك والفطنة العقلانية. وفي الإسلام إصرار دؤوب على ضرورة تحصيل العلم وتقديره: "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ"[70] كما أن العلم في البهائية هو ‘من النّعم الكبرى الإلهية’[71] و"أَلْعِلْمُ هُوَ بِمَنْزِلَةِ الْجَنَاحِ لِلْوُجُودِ وَمِرْقَاةٌ لِلصُّعُودِ. تَحْصِيلُهُ وُاجِبٌ على الْكُلِّ. وَلَكِنَّ الْعُلُومَ الَّتِي يَنْتَفِعُ مِنْهَا أَهْلُ الأَرْضِ وَلَيْسَ تِلْكَ الَّتِي تُبْدَأُ بِالْكَلاَمِ وَتَنْتَهِي بِالْكَلاَمِ... إِنَّ الْكَنْزَ الْحَقِيقِيَّ لِلإِنْسَانِ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عِلْمُهُ"[72]

إلا أن هناك هدفاً تربوياً آخر لا يقل في أهميته عن ترقية الفهم العقلانيّ – ألا وهو ‘بنيان الأخلاق’، وخَلْق الالتزام الوجدانيّ بالقيم والمثل والمبادئ والتوجهات الروحيه والمقاصد الحميدة – وهو ما يسميه عبد

---

[66] للمزيد عن مسألة إعادة تفسير المفاهيم راجع الفصل الثاني "نظرة متفرسة في وجه عالم الغرب العلماني" بند ‘الثورة اللغوية’.

[67] كما يقول أولريخ إيفرمان Ulrich Oevermann في مؤلّفه ‘محاورة بيرجدورفر *Bergedorfer Gesprächskreis*’، الأدبيّة Protokoll رقم 41

[68] كتاب [مجموعة من ألواح...]، الكلمات الفردوسية – الورق الخامس –ص 84

[69] كتاب [من مفاوضات...] الفصل 55 ص 159

[70] سورة الزمر: آيه 9

[71] كتاب [مجموعة من ألواح...]، الطراز السادس، ص 56

[72] المرجع السابق، التجلي الثالث، ص 69

البهاء ‘التربية الروحانية’ يعني "اكتساب كمالات إلهية، [و] هي التربية الحقيقية، إذ بها يكون الإنسان في هذا المقام مركز السنوحات الرحمانية ومَظهَرَ ‘لنعملنّ إنسانا على صورتنا ومثالنا’"،[73] فالتربية الروحية هذه هي التي توقظ القابليات الروحانية الكامنة في وجدان الإنسان وتكشف ماهيته الحقيقية. وبغيرها يكون الإنسان "كالمرآة مهما تكن صافية لطيفة شفّافة فإنّها محتاجة إلى الأنوار، فإذا لم تسطع أشعّة الشّمس عليها لا يمكنها اكتشاف الأسرار الإلهيّة".[74]

ويعتمد تقدم الجنس البشريّ ورقيّه على هذه التربية الروحية. وبداية كل تربية هي ‘إبلاغ ما نَزَل من القلم الأعلى’[75](أي النصائح الإلهية). ولأن تشكيل الخُلُق وتكوين الضمير يحدثان خلال السنوات الأولى من حياة الفرد، فقد أوصانا بهاء الله قائلاً: "إنَّ دَارَ التَّعْلِيمِ فِي الابْتِدَاءِ يَجِبُ عَلَيْهَا أَنْ تُعَلِّمَ الأَطْفَالَ شَرَائِطَ الدِّينِ لِيَمْنَعَهُمُ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ الْمَذْكُورَانِ فِي الْكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ عَنِ الْمنَاهِي وَيُزَيِّنَاهُم بِطِرَازِ الأَوَامِرِ"[76] غير أن بهاء الله يوصينا هنا أيضاً بالاعتدال والحكمة بقوله إن تعليم الدين يجب أن يكون "بمقدار لا يَنْتَهِي إلى التَّعَصُّبِ وَالْحَمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ"[77]

كما أن عبد البهاء يشدّد على أن تربية الإنسان تأتي في المقام الأول، إذ يقول: "إن التربية والتدرّب على المناقب (أي الأخلاق) أهم من اكتساب العلوم، فالطفل الطيب الطاهر ذو الفطرة الطيبة والأخلاق الحسنة، ولو كان جاهلاً، أفضل من طفل قذر بذيء فاقد الأدب - وإن كان في جميع الشئون بارعاً - لأن الطفل الذي حَسُنت سيرته نافع للجميع ولو كان جاهلاً، وأما الذي ساءت أخلاقه فهو فاسد ومُضرّ ولو كان عالماً. لكن الطفل إذا تلقن العلم والأدب معاً فالنتيجة ‘نورٌ على نور’"[78] فالتربية إذن يجب أن تكون تربية شاملة، وهنا يفرض بهاء الله في الكتاب الأقدس على الوالدين بكل وضوح أن يوفّرا التربية والتعليم الشاملتين لأبنائهما وبناتهما على حد

---

[73] كتاب [من مفاوضات...]، الفصل الثالث ص 15

[74] كتاب [من مفاوضات...] الفصل 52 ص 153

[75] تعبير ‘القلم الأعلى’ أطلقه بهاء الله على الوحي الإلهيّ بصفة عامة

[76] كتاب [مجموعة من ألواح...]، الكلمات الفردوسية، الورق الثامن، ص 86

[77] المرجع السابق، ص 86 - 87

[78] المجموعة العربية لنصوص بهائية معنونة [التربية والتعليم] ص 45، نص منقول عن كتاب [منتخبات من مكاتيب عبد البهاء]المجلد رقم 1، مقتطف 110، والأصل فارسيّ

سواء. ويصرح قائلا :**"انّ الّذي ربّى ابنه او ابناً من الأبناء كانّه ربّى احد أبنائي"**[79]

وتدل الأهمية الفائقة التي تُوليها البهائية للتعليم بكل بساطة على حقيقة أنها تعتبر كل أنبياء الله ورسله بمثابة 'مربّين إلهيّين'[80] وأن إرسال الله الرسل والأنبياء 'تَتْرى' – أي واحداً تلو الآخر – هو بمثابة 'تربية لأهل العالم'.[81] وتدعو المؤمنين إلى تكريس أنفسهم لمهمة التعليم، ويقول بهاء الله "يجب على حزب الله أن ينظر إلى الأفق الأعلى بكمال الاستقامة والاطمئنان وأن ينشغلوا بإصلاح العالم وتربية الامم. فان حزب الله ليس لهم قصد ولن يكون سوى عمار واصلاح العالم وتهذيب الامم". [82] كما أن الإنسان بعون التربية الإلهية وتعاليم وأوامر المظاهر الإلهيّة يتوصل إلى

[79] الكتاب الأقدس، فقرة 48، وكذلك الاشراق السابع، كتاب [مجموعة من ألواح...]، ص27. ولقد أوضح عبد البهاء في مواضع شتى من كتاباته وخطبه واجب الأبوين الذي لا يمكن التجاوز عنه فيما يتعلق بتربية وتعليم أطفالهما بأفضل ما في الإمكان. إذ يقول "لذا فإن التعليم والتربية في الكتاب الإلهيّ في هذا الدور البديع أمر إجباريّ لا اختياري". ويقول أيضا في معرض آخر "يا أحباء الله وإماء الرحمن، إن التعليم فرض بنص قاطع للجمال المبارك (بهاء الله) وكل مُقصّر محروم من الموهبة الكبري، الحذار، الحذار من أيّ فتور كان، واجهدوا قلباً وروحاً في تربية وتعليم أطفالكم وخاصة البنات. وكل عذر في هذا المقام غير مقبول. (نقلا عن مجموعة 'الدين البهائي دين عالميّ Baha'i World Faith'). وفيما يختص بتعليم البنات فهو أمر مقدّم في البهائية على تعليم الأولاد ويشرح عبد البهاء الحكمة في ذلك قائلا: "لأن هؤلاء البنات سيصبحن أمهات، والمربيات الأول للأطفال هنّ الأمهات، ينشأ الطفل وينمو وفقا لتربيتهن ويبقى تأثير تلك التربية مدى الحياة، ويصعب تغييرها وتبديلها. كيف تقدر الأم على تربية أطفالها وتعليمهم إن كانت هي نفسها جاهلة ومحرومة من التربية؟ إذاً بات من المعلوم أن تربية البنات أهم من تربية الصبيان" (من المجموعة العربية لنصوص بهائية معنونة [التربية والتعليم]، المقتطف 58 ص 48). ومن شأن الثناء والنصح بل والزجر إذا لزم الأمر، أن تأتي بالخصال المرجوّة وتشكل الأخلاق الحميدة، غير أن عبد البهاء يحذرنا من أن "الضرب والشتم لا يجوزان أبداً فأنهما يفسدان أخلاق الطفل" - نفس المرجع، مقتطف 63، ص 51

[80] يقول بهاء الله: ''وَقَدْ نُزِّلَ مِنْ أَجْلِ رُقِيِّ النُّفُوسِ وُعُلُوِّ شَأْنِهِمْ مَا هُوَ الْبَابُ الأَعْظَمُ لِتَرْبِيَةِ أَهْلِ الْعَالَمِ". كتاب [مجموعة من ألواح...] لوح الدنيا، ص 104، وورد هذا البيان أيضا في كتاب [منتخباتي...]، الفقرة 43

[81] قارن هذا بما جاء في الباب الخامس "الوحي الإلهيّ عبر العصور"، بند 'ماهيّة المظهر الإلهي'، وذلك فيما يتعلق بوظائف الرسل والأنبياء

[82] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 126

المعرفة الحقّة لنفسه[83]: "أَصْلُ الْخُسْرَانِ لِمَنْ مَضَتْ أَيَّامُهُ وَمَا عَرَفَ نَفْسَهُ".[84] ويقول بهاء الله أن التربية الإلهية تؤدّي إلى "مَعْرِفَةِ الإِنْسَانِ نَفْسَهُ وَمَا هُوَ سَبَبٌ لِعُلُوِّهِ وَدُنُوِّهِ وَذِلَّتِهِ وَعِزَّتِهِ وَثَرْوَتِهِ وَفَقْرِهِ"[85]. كما يوضح أنّ هناك صلة في أعماق الإنسان ما بين معرفته لربه ومعرفته لنفسه[86] ويسوق الحديث القدسيّ "العبد سرّي وأنا سره". ويؤمّن بهاء الله على قول الإمام عليّ: "مَنْ عَرَفَ نفسه فقد عَرَفَ ربّه"[87]، كما يستشهد بالآيات القرآنية: "وَفِي الْأَرْضِ آَيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ *وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ"[88]، "وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ"[89].

فالإنسان إذاً ليس ذلك 'المخلوق السّاقط' – على حد قول علم الأجناس التشاؤميّ. إلا أن الإنسان أيضاً – وعلى النقيض من الصورة المتفائلة التي بُنِيَتْ عليها كل أشكال الاشتراكية – ليس 'مُبَرْمَجاً' لفعل الخير، بحيث إذا توفّرت الظروف الاجتماعية المناسبة تصبح السعادة والسلام من نصيبه 'بالمجان' فإذا كان الإنسان قد فقد الغرض من الحياة، وعجَز عن النهوض لما خُلق من أجله، (سواء بمجهوده الذاتيّ أو بمساعدة من الباري) فإن هذه الميزات لا يمكن أن تتوفر كما يتوقع صائغو النظريات الاشتراكية. فلم يُخلق الإنسان إلا من أجل الغرض الذي جاء في الصلاة التي يتلوها البهائيون مرة كل يوم، آي من أجل **"عرفان الله"** وكذلك من أجل **"التمّسك بما نَزَلَ من سماء مشيّته"**[90]، والتحلّي "بأثواب الأخلاق المَرْضِيّة والاعمال المقدسة"[91] وأيضاً من "أجل إصلاح العالم"[92] لأن

---

[83] إن فريضة تحصيل العلوم هذه لها أهمية خاصة في كافة الأديان والعقائد منذ فجر التاريخ. ولا أدلّ على ذلك من النقش المكتوب على واجهة معبد أبوللو (الإغريقي) في دلفي 'إعراف نفسك! '

[84] بهاء الله، في [مجموعة من ألواح....]، لوح 'أصل كل الخير' –ص 137

[85] لوح الطرازات – الطراز الأول، المرجع السابق ص 51

[86] الإيقان ص 77 - 79

[87] المرجع السابق

[88] الذاريات: آيه 20 - 21

[89] الحشر: آية 19

[90] بهاء الله – كتاب [منتخباتي...] المقتطف رقم 2، (والصلاة البهائية المشار إليها هنا هي الصلاة الصغرى التي يتلوها البهائي مرة كل يوم، وبدايتها هي: 'أشهد يا إلهي بأنك خلقتني لعرفانك وعبادتك...' [المترجم]).

[91] بهاء الله – كتاب [منتخباتي...] المقتطف رقم 137

"شئون وُحوش العراء لا تليق بالإنسان". [93] ومن ثم فإن مقام الإنسان يعتمد على مدى التزامه بهذه الوصايا للوصول إلى المقام الذي قدّر له – فكما يقول بهاء الله "مقام الانسان عالٍ إن تزين بالإنسانية، وإلاّ فإنّه أحطّ من جميع المخلوقات". [94]

فبوسع الإنسان أن يسمو بفضل الله إلى مصافّ الملائكة، أو يهبط إلى أدنى دركات الوجود، إن هو انحرف عن 'سَوِيّ الصّراط'[§]، كما يقول بهاء الله (مخاطباً الذات الإلهية): "من تُعزّزه يرقى على الملائكة ويصعد إلى مقام '**ورفعناه مقاماً علياً**'، ومن تَخذُلُه يدنو عن التراب، بل ويصير أحقر من العدم".[95] فالطبيعة البشرية قادرة إذن على الترقّي مثلما هي قادرة على التدنّي.

مفهوم الشر والعذاب

يكمن تفسير الشر – تلك النزعة الفوضوية إلى التدمير، وتلك العناصر المنافية للحياة التي لم يعد من الممكن أن نتغاضى عنها كما نتغاضى عن الخير – في أن الإنسان قد خُلِقَ مُخيّراً له حرية تسيير دفة حياته كيفما شاء. فالشيطان[96] ليس عبارة عن قوة كائنة بذاتها تعمل بما

---

[92] بهاء الله – كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 109

[93] نفس المرجع

[94] بهاء الله – كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 101، مترجما عن الانجليزية

[§] 'سَوِيّ الصراط' أو 'الصراط المستقيم' تعني هنا السير بمقتضى الأحكام الإلهية وعدم الانحراف عنها، وهو سلوك تشدد عليه البهائية إلى درجة اعتباره محكاً للإيمان من عدمه. إذ يقول بهاء الله: "**بالاستقامة تظهر مقاماتكم بين البرية وترتفع مراتبكم عند الله المهيمن القيوم. تالله من لا استقامة له لا دين له إنه من المريبين في لوح مكنون...**". كتاب [آثار قلم أعلى] المجلّد السادس، ص 3 [المترجم]

[95] بهاء الله [لوح ابن الذئب]–الطبعة الانجليزية ص 9 – 10، مترجما عن الفارسية، والحرف الثقيل هو نصّ قرآنيّ.

[96] لَعِب ما أسماه البعض 'علم الشياطين *Satanology*' دورا كبيرا في اللاهوت عند كل من الكاثوليك والبروتستانت، وهو دور مستمرّ حتى يومنا هذا، وهناك قول مأثور في اسبانيا (وهي دولة كاثوليكية) هو أن "خلف كل صليب شيطان"، وهناك حكاية تروى عن مؤسس مذهب البروتستانت مارتن لوثر أنه قذف الشيطان بزجاجة حِبْر عندما تقابلا وجها لوجه على شاطئ نهر فارتبورج. غير أن الاتجاهات الحديثة في الكنيسة الكاثوليكية وهي التي لا تأخذ وجود الشيطان مأخذ الجد قد عارضها البابا الأسبق يوحنا بولس السادس بكل حزم في مناسبات عدة، منها قدّاسه في كنيسة القديس بطرس

يخالف الله، أو شرٌ مستأصل موجود جنباً إلى جنب مع وجود الخالق. بل هو رمز على تلك الطبيعة الدانية الدنيوية للإنسان التي هي منبع كل شر، ما لم تتغلب عليها الروح المُحْيِيَة التي هي منبع كل الكمالات. فالشرّ وما يجلبه من خطيئة لا يتأتيان إلا من أفكار الإنسان وأعماله: فمن لم يتوجه طواعية إلى الله عجَزَ عن السمو إلى المعدن الذي خُلق منه ووقع فريسة للشر. فالشر ما هو إلا غياب الله، كالظلمة التي هي غياب النور، والجهل الذي هو عدم المعرفة، والمرض الذي هو نقص العافية، والعجز الذي هو عدم القدرة، والفقر الذي هو ضياع الثروة. فكل الشرور يمكن التغلب عليها إذن بالخير كما تُبدّد الظلمة بالنور. ذلك لأن الشرّ في واقع الأمر هو عدمٌ لا وجود له، شأنه في ذلك شأن الظلام.[97]

بالفاتيكان يوم 29 يونيو1972، عندما أعلن أن المنعطف الهام الذي تمرّ به الكنيسة اليوم هو أن "دخان الشيطان قد تسرّب إلى هيكل الربّ من خلال صدع في جداره". وردا على الانتقادات التي وجّهت لهذا التصريح وغيره، أعلن مجلس الفرنسيسكان في عدد 17 ديسمبر 1972 لجريدة ‘المراقب الرومانيّ *Osservatore Romano*’ الإيطالية أن الخطيئة بغير الشيطان تكون قد جرّدت من أسرارها، وورد في مقالة بعنوان ‘أنقذوا الشيطان! Rettet den Teufel’ ظهرت في جريدة ‘جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung*’ في عددها الصادر 12-13 مارس 1972 – ورد تقرير عن اهتمام اجتماع أساقفة ألمانيا بمسألة الشيطان وتأكيد وجوده. وعلى نفس هذا المنوال تسير كل الطوائف المسيحية بمجدّديها ومحافظيها على قدم سواء. فالله، بالنسبة للمجددين، هو مجرّد رمز للمحبّة الإنسانية. أما المحافظون فيتمسكون بالاعتقاد في وجود الشيطان بلحمه ودمه. ومن بين أهم الاعتراضات التي يسوقها معارضو البهائية من بين رجال الدين المسيحيّ في الغرب هو أن البهائية لا تعتقد بوجود الشيطان – ومنهم كورت هوتن Kurt Hutten (قسيس ألماني) وهو الذي اتهم البهائية بنزع فتيل كل من الشيطان والخطيئة. غير أنه يوجد الآن عدد آخذ في التزايد من علماء اللاهوت في كل من الكاثوليكية والبروتستانتية يميل إلى دعم الآراء التي تقترب من تعاليم البهائية التي ذكرناها أعلاه فيما يتعلق بالخير والشر، وأحد الأمثلة على هذا الاقتراب هو نشر كتاب بعنوان ‘المسيحية تودّع الشيطان *Abschied vom Teufel*’ لعالم اللاهوت الألمانيّ هربرت هاج Herbert Haag، للناشر Benziger، طبع مدينةEinsiedeln عام 1969، وهو كتاب عرّض ناشره لإجراءات كنسية تأديبية.

[97] عن هذا الموضوع بأكمله راجع عبد البهاء، في كتاب [من مفاوضات...]، فصل 26 المعنون ‘مسألة أكل حضرة آدم من الشجرة’ وفصل 54 المعنون ‘تفاوت النوع الإنسانيّ’ وفصل 72 المعنون ‘بيان أن ليس في الوجود شرّ’. ومن المدهش حقا أن تجد توماس الإقوينيّ (أبرز أساطين اللاهوت المسيحي) يعبر عن أفكار تقترب من مبدأ عدم وجود الشيطان وهو المبدأ الذي ذكرته البهائية ونادت به بعد زمنه بمئات السنين. إذ قال في مؤلفه ‘ملخص اللاهوت *Summa theologica I questio*’

والتساؤل هنا هو لماذا يسمح الله بالشر مع أنه لا يريده ولا يرضى عنه؟ ولماذا لا يمنع الإنسان عن فعل الشر مع أن سبب المعاناة في هذا العالم هو الشرّ؟ ولو أن الناس - وبالأخص أهل الغرب - في هذه الأيام لا تكترث بالمسائل الدينية كثيراً، إلا أن المعاناة في هذه الحياة هي المسألة التي يقيم لها الناس وزناً مهما اختلفت توجّهاتهم الدينية. فالسؤال الأكثر إلحاحاً منذ معاناة أيّوب النبيّ (التي حكت عنها الكتب المقدّسة) هو 'لماذا يسمح الله على الرغم من إحاطته بكل شيء وبركته على العالم، بالمعاناة – وخاصة معاناة الأبرياء؟ '[98] وهذا السؤال المتعلق بفلسفة 'تبرئة الله *theodicy*'[99] قد انقلب الآن ليصبح الاعتراض الأبرز على الإيمان بوجود الله في يومنا هذا، خاصة بعد إبادة ملايين اليهود في معتقلات ألمانيا النازية أثناء الحرب العالمية الثانية، ثم مصرع عشرات الآلاف بالقنبلة النووية التي ألقيت على هيروشيما في نهاية الحرب، ثم مآسي حرب فيتنام، ومذابح أرخبيل الجولاج Gulag. وحقول الإبادة الجماعية في كمبوديا. فالصخرة التي بني عليها الإلحاد هو السؤال الذي يطرحه بيخنر Büchner في مسرحيته الشهيرة 'مصرع دانتون': "لماذا أعاني؟[100] فبأي وصف نصُف الإله الذي يسكت على هذا الكمّ الهائل من الظلم والمعاناة في العالم؟"[101] فلقد جابهنا كم هائل

المجلد الأول، المسألة رقم 48، ما نصّه: "والخلاصة أن المقصود بالشر هو غياب الخير".

[98] هذا السؤال سأله (ألبرت كاموس Albert Camus) في كتابه 'الطاعون *The Plague*'، ص 174 وما بعدها، في اتهام محموم منه لدنيا يعاني فيها الأطفال. والكتاب من طبع الناشر Penguin Books عام 1968

[99] ما صار يعرف الآن بـ 'فلسفة تبرئة الله' بدأها الفيلسوف الفرنسيّ 'لايبنيز Leibniz' في كتابه 'بحث في تبرئة الألوهية *Essai de théodicee sur la bonté de Dieu*' يتناول فضل الله وحرية الإنسان وأصل الشر، كتبه عام 1720، وحاول فيه أن يتناول المسألة بادئا من فرضية أن عالم الوجود الذي نحيا فيه كان أفضل العوالم الممكن إيجادها وأن مقدار الشر الذي وُجد في هذا العالم رغما عن ذلك كان في مجمله أقل ما يمكن وجوده. وقد تناول علماء اللاهوت الكاثوليكيّ كذلك مسألة تبرئة الخالق بالشر ح في مؤلفاتهم.

[100] مسرحية مصرع دانتون *Danton's Death*، الفصل الثاني، المشهد الخامس.

[101] كما قال 'تيلمان موزر Tilman Moser' في مؤلفه 'السمّ الإلهيّ *Gottesvergiftung*' ص 20 – وقد رد عليه 'ولفجانج بومي Wolfgang Böhme' ببحث نقديّ عنوانه 'هل الله قاسي؟ - رأي في كتاب السم الإلهيّ لتيلمان موزر *Ist Gott grausam? eine Stellungnahme zu Tilman Moser Gottesvergiftung*' نشرته دار النشر الإنجيلية بشتوتجارت عام 1977

من الشرّ اهتزت له دعائم الإيمان لدى العديد من الناس[§]. وتاريخ البشرية من أوله لآخره – ليس الحديث منه فقط – هو كأس طافحة بالويلات، ومع ذلك فقد تمسّك أهل ما مضى من الزمان بإيمانهم بالله.

وليس هناك جواب مقبول من الناحية الفلسفية والمنطقية لهذه المسألة. بل لا يوجد لها أيّ تفسير عقلانيّ. ذلك لأن حقيقة الذات الإلهية ممتنعة محالة ولا يدرك كنهها العقل البشري. والتساؤل لماذا يقبل الله الشرّ وما يجلبه من معاناة هو سؤال يتعلق بإرادة الله ومشيئته. وهو ما لا يمكن الحكم عليه بمعاييرنا البشرية، مصداقاً للآية القرآنية الكريمة "لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ"[102] وهناك سدّ منيع يفرضه سلطانه المطلق لا يتخطاه إدراك البشر، فمعرفة الإنسان وفهمه لمسائل مثل 'لماذا صنع الله الخليقة بهذه الكيفية بدلا من تلك' من شأنها أن تضع الخلق في مصافّ الخالق وهو أمر لا يستقيم.

فإذا ما تضافرت شرور الإنسان ومآسي التاريخ التي صنعتها تلك الشرور لتحُول دون معرفتنا لأسرار هذه المسألة فإن هذا لا يعني أنها تستعصي على الفهم تماما[103] فمن الضروريّ أن ننظر إليها في إطار الحرية البشرية. فإذا كان الله قد خلق الإنسان حراً على النقيض من الحيوان الذي تحكمه الغرائز، فإن فعل الخير متوقف على حرية الاختيار، وهو ما يجعل من فعل الشر أمراً محتملاً. كما أن المخلوق الذي يمنعه التدخل الإلهيّ دائماً أبداً من تخطي الأوامر والنواهي المفروضة عليه، يكون مخلوقاً محروماً من الحرية. فالإنسان طبقا لناموس الخَلق الإلهيّ – كما يرى مفكر اللاهوت هانز كونج Hans Küng – ليس مقدراً له أن يكون "دمية في يد الله، بل إنّ له دوْراً كما يملك أيضاً حرية القرار". [104] وحرية الإنسان هذه هي ما يرتبط بها كل من الشر والمعاناة ارتباطاً وثيقاً، حتى إن

[§] في عام 1994 تعرّض للقتل بعض من التجأوا إلى الكنائس في رواندا، إبان المذابح القبليّة الرهيبة التي راح ضحيتها مليون نفس، وذلك داخل تلك الكنائس نفسها، بوشاية من قساوسة ينتمون إلى القبيلة الأخرى، وتقف إحدى كنائس العاصمة كيجالي شاهدا على ذلك، إذ أبقت عليها الدولة كما هي دون إزالة الهياكل العظمية للضحايا منها. [المترجم].

[102] سورة الأنبياء: آية 23

[103] يجمل بنا هنا أن نقرأ رأي شوبنهاور في هذه المسألة في كتابه 'الأعمال الثانوية والتفاصيل المهمة *Parerga and Paralipomena*' المجلد الثاني، ص291، إذ يقول: "إن لم تكن المعاناة أول أهداف حياتنا وأكثرها إلحاحا، فإن وجودنا ذاته يفوق كل شيء في الدنيا غرابة ولغواً".

[104] في كتابه 'هل لله وجود؟ *Existiert Gott?*' ص 713

الغواية – ذلك الصراع الداخليّ الذي يحض الإنسان على ارتكاب الشر بدلاً من فعل الخير – قائمة على هذه الحرية. ولأن الإنسان دائماً أبداً مخيّر بين الخير والشر، فإن الشر لن يختفي من العالم بالكلية، حتى مع قدوم مملكة الله على الأرض، شأنه في ذلك شأن المعاناة والحزن والألم. وكل من ينظر إلى المعاناة على أنها 'ركيزة الإلحاد' يتجاهل عامداً حقيقة أن الإنسان دائماً أبداً هو الذي يجلب المعاناة لأخيه الإنسان في أشد ألوانها قسوة ووطأة وبأحلكها ظُلمة. فجرائم مثل قمع واستغلال حشود حافلة من البشر، والحروب البربرية، وإفناء شعوب كاملة عن بكرة أبيها، وإبادة الناس كما تباد الحشرات بأسلحة الدمار الشامل، وتدمير حضارات كاملة – هي كلها جرائم قد ارتكبها البشر. ولم نكن بحاجة لتدخل إلهيّ لكيلا تحدُث هذه المآسي والكوارث التي صنعناها بأيدينا، لأن الله لم يكن صامتا ولم يحرمنا من الحلول. فلقد خاطب الناس على لسان رسله وأنبيائه وأعطاهم من التعاليم والأوامر الإلهية ما يكفل حياة هادفة تليق بالبشر ويرضى الله عنها. فلو أصغت الناس وعاشت كما أمرها الخالق وابتعدت عن الشر، وتآلفت وتحابّت بدلاً من شقائها وكراهيتها، وأنصفت بدلاً من ظلمها وطغيانها، لما تبقى من الشر والمعاناة في الدنيا إلا النّذَر اليسير[105] وخلاصة القول هو أن وحشية الإنسان – ذلك المخلوق الذي يعكف الآن على تحويل هذا الكوكب الأزرق (أي كوكب الأرض) الذي هو بمثابة الواحة في صحراء الكون القاحلة – إلى مكان يستحيل العيش فيه، وحبّه للسلطة وكراهيته وحسده، مسئولة كلها عن كمّ هائل من اللوعة والأسى يستعصي على الوصف. ولا يمكن لهذا الإنسان أن يُلقي بأوزاره على خالقه. وهنا يتساءل فرايزFries – وله كل الحق في ذلك: "ألم يكن حَريّا بنا أن نقدّم الإنسان بدلاً من الله أمام محكمة التاريخ حتى يكون محلاً للمساءلة؟ " فنقول 'أين أنت يا آدم، وماذا جنيت؟ ' بدلاً من أن نقول بغير حق 'أين أنت يا الله'"؟[106] فنِسْبتنا الخير في هذا العالم إلى الإنسان وتمجيده والتفاخر بحريته وخلّاقيته المبدعة – وغضّ الطرف عن شرور الدنيا ومصائبها وتحاشيها، "وإنكار تورّط الإنسان فيها، والتبرؤ والهروب من كل مسئولية عنها، والادّعاء بوجود متسبب آخر فيها – وهو الله – ما هو إلاّ في واقع الأمر لَوْي للحقائق وقلب للموازين".[107]

---

[105] ويقول بهاء الله بهذا الصدد ما يلي: "**قل يا قوم أن اعملوا ما أمرتم به في الألواح ولا تتبعوا ظنون المفسدين الذين يرتكبون الفحشاء وينسبونه إلى الله المقدس المنيع.**" – كتاب [منتخباتي...] المقتطف رقم 141

[106] في كتابه 'هل مات الله؟ *Gott ist tot?*' ص 82

[107] نفس المرجع والصفحة التي سبق ذكرهما لفرايز

أما من يعتقد في إمكانية استبعاد الدين برمّته، ومعه فلسفة تبرئة الله *theodicy*، حتى بعد إبادة الملايين من الأبرياء في معسكرات النازيّة إبّان الحرب العالمية الثانية – فهو يحكم على الأمور على خلفيّة رغبته في عالم يخلو من المعاناة: عالم لا يكون للمعاناة فيه عمل أو دور على الإطلاق. ذلك لأن الأرضية المشتركة لكافة الأديان هي الإعتقاد بأن للمعاناة دوراً تقوم به في إطار الخلاص الإلهي. ومع أنه ليس هناك أدنى شك أن من واجب الإنسان أن يرفع عن كاهل العالم أكبر قسط يستطيعه من هذه المعاناة، عن طريق سلوك المنهج القويم وإبداء الرأي السديد، إلا أنه لن يكون هناك عالم يخلو من المعاناة تماماً. فالإنسان الذي 'خلق ضعيفاً' – كما يقول القرآن الكريم[108] – دائما ما سيقع في الخطيئة ويجلب المعاناة على من حوله. بل وسيتعيّن على الإنسان دائماً أبداً أن يحيا حياة يفقد فيها ما يُحبّ، ولا يحقق فيها آماله في كثير من الأحوال، حياة يصيبه فيها المرض وتنتهي بالوفاة. وعلى الرغم مما حققته البشرية وستحققه من انجازات علمية وتقنية، ستبقى الكوارث الطبيعية وغيرها من المصائب أموراً لا رادّ لها ولا مانع، وستبقى تجربتنا مع المعاناة كما هي لا انفكاك لها عن حياتنا نحن البشر. فمثل هذا النوع من المعاناة يحظى – من وجهة نظر التعاليم البهائية – بدوْر نافع تربويّ وتهذيبيّ في نظام الخليقة. فالمعاناة ليست شيئاً عديم الغرض والجدوى، وإنما هي امتحان للناس من أجل نموّهم الروحي. وها هو شوقي أفندي يذكّرنا بقوله: "لا يجب أن ننسى أن الصعاب والمحن هي من الخصائص الجوهرية لهذا العالم، وأننا بالتغلب عليها نحقق تقدمنا الخلقيّ والروحيّ وكما يقول حضرة المولي[109] 'فإن الحزن هو كالشقوق في الأرض بفعل المحراث، فكلما زادت الشقوق عمقاً كان الثمر الذي نحصل عليه أوفر'"[110]

فالمحن والمصائب هي – كما يشرح عبد البهاء – 'مواهب من الله يجب أن نشكره عليها. ولا يأتينا الحزن والمعاناة جزافاً، بل يأتينا من العناية

---

[108] سورة النساء: 28

[109] 'المولي' ترجمة للقب 'أقا' بالفارسية وهو اللقب المخاطب به عبد البهاء وهو أيضا مرادف لكلمة Master الانجليزية

[110] بيان لعبد البهاء ذكره شوقي أفندي في رسالة كتبت نيابة عنه لأحد البهائيين في 5 نوفمبر1931- وردت في كتيّب [الحياة البهائية] الذيب هو مجموعة من النصوص البهائية في الفضائل، النسخة العربية، ص 47

الربانية لتهذيبنا'[111]. ولهذا أيضا يقول بهاء الله في كلماته المكنونة: **"يَا ابْنَ الإِنْسانِ لِكُلِّ شَيْءٍ عَلامَةٌ؛ وَعَلامَةُ الْحُبِّ الصَّبْرُ فِي قَضَائِي وَالاصْطِبارُ فِي بَلائِي"**، ويقول أيضا: **"الْمُحِبُّ الصَّادِقُ يَرْجُو الْبَلاءَ كَرَجاءِ الْعاصِي إِلى الْمَغْفِرَةِ وَالمُذْنِبِ إِلى الرَّحْمَةِ"**، كما يضيف: **"إِنْ لا يُصيبُكَ البَلاءُ فِي سَبِيْلِي كَيْفَ تَسْلُكُ سُبُلَ الرَّاضِينَ فِي رِضائِي، وَإِنْ لا تَمَسُّكَ المَشَقَّةُ شَوْقاً لِلِقَائِي كَيْفَ يُصِيبُكَ النُّورُ حُبّاً لِجَمالِي"**. [112] فمن لا يعاني، كما يقول عبد البهاء، لا ينال الكمال: "فالنبات الذي يشذّبه البستانيّ أكثر من غيره، هو الذي يكون يانعاً ومثمراً عندما يأتي فصل الصيف"[113] ويقول أيضاً: "لولا الامتحان لا يُميّز الذهب الإبريز من النُّحاس، ولولا الامتحان لا يُعرف الشجاع من الجبان، ولولا الامتحان لا يُميَّز المخلص من الخائن، ولولا الامتحان لا تترقى عقول العلماء وأَفهامَهم في المعاهد العليا، ولولا الامتحان لا يُفصل اللؤلؤ من الخزف، ولولا الامتحان لما امتاز من يصطاد الحوت (سمعان بطرس) على (أحبار اليهود)'حنانيا' و'قيافا' اللذين كانا على عزّ مبين"[114]

والخلاصة إن المعاناة نوعان، أحدهما من فعل البشر، وهو أمر يسمح الله بحدوثه لأنه وَضَع زمام الاختيار ما بين الخير والشر في يد الإنسان، والآخر تلك المعاناة التي تأتي للإنسان من الله والتي هي مُعين له على صَقل النفس وتهذيبها حتى مع إخفاق الإنسان عن إدراك هذه الحقيقة في كثير من الأحيان. ويوضّح بهاء الله هذا في الكلمات المكنونة: **"يَا ابْنَ الإِنْسانِ بَلائِي عِنايَتِي، ظاهِرُهُ نارٌ وَنِقْمَةٌ وَباطِنُهُ نُورٌ وَرَحْمَةٌ"**[115]، (فالبلاء الذي يأتينا من الله هو عين الرّحمة، أما البلاء الّذي يُلحقه الإنسان بنفسه فهو عين البلاء)، ولهذا يطالعنا القرآن الكريم بالآية الكريمة: "مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ"[116] فما على الإنسان إلا أن

---

[111] عبد البهاء، في كتاب 'خطب باريس *Paris Talks*'، ص 50، مترجما عن الانجليزية

[112] الكلمات المكنونة العربية، من الكلمة رقم 48 حتى 50

[113] عبد البهاء، في كتاب 'خطب باريس *Paris Talks*'، ص 51، مترجما عن الانجليزية

[114] عبد البهاء، بيان ورد في كتاب 'فنّ الحياة الإلهيّ *The Divine Art of Living*' الطبعة الإنجليزية، فصل12، ص 91 مترجما.

[115] بهاء الله، في الكلمات المكنونة العربية، الكلمة رقم 51

[116] سورة النساء: آية 79

يبتعد عن إلحاق الأذى بنفسه، والصبر على قضاء الله. ففي لوح الاحتراق لحضرة بهاء الله يتفضل فيه بالقول: **"لَوْلا البَلِيّةُ كيف أشرقَتْ شمسُ اصطبارِك يا شُعاعَ العالمين"**[117]

أما المصائب المؤلمة التي تحلّ الآن بالأمم فيجب أيضاً أن يُنظر إليها من نفس هذا المنظور، وهو منظور آمن به أيضاً الفيلسوف كارل لويثKarl Löwith – إذ يقول "يتعلّم البشر بالمعاناة، ومن أحبّه الربُّ ابتلاه. فقد وُلدت المسيحية (مع ما صاحب مولدها من شديد المعاناة والمصائب لكل من مؤمنيها وأعدائها على حد سواء) عندما كان المجتمع اليونانيّ يلفظ أنفاسه الأخيرة. "[118] بل إن هذا الرأي يعتنقه أيضاً من هم من أمثال ريتشارد شول Richard Shaull، وهو أحد دعاة ما يسمّى بـ 'لاهوت الثّورة' إذ يقول: "إن الإله الذي يهدم الهياكل القديمة ليخلق الظروف الملائمة لحياة أكثرَ إنسانيةً، لهو بمثابة القلب لحركة الكفاح. ووجوده في هذا العالم، والضغوط التي يمارسها على الهياكل التي تعترض طريقه هو الدّافع المحرّك لهذه العمليّة". [119] فدعاة الثورة يؤمنون بضرورة المصائب التي تحدث على يد الثّوار (لإزالة القديم)، بيد أننا (نحن معشر البهائيين) لا نتفق تماماً مع ما يخلُصُ إليه هذا القول، ذلك لأن انهيار الهياكل القديمة على يد الحركة الثّورية لا يعني تلقائياً قدوم ما أسموه 'النافع' و'الصالح'، أو حلول السّلام على الأرض، أو تحقيق نظامهم الجديد، ناهيك عن ميلاد ما وصفوه بـ 'الإنسان الجديد'. فالبلايا المفجعة التي تنْصَبّ الآن على رأس البشرية لا يُقصد منها إزالة الهياكل الإجتماعية البالية فحسب، وإنما الغرض منها أيضاً – وهنا يكمن مربط الفرس – هو تليين القلوب القاسية وتهذيبها والعودة بها إلى الله. وهذا ما يتحدث عنه شوقي أفندي بقوله: "هذا القضاء الإلهي كما يراه أولئك الذين يعتبرون بهاء الله الصور الإلهي ومظهره الأعظم على الأرض إنما هو كارثة تأديبية وجزاء مقدس سام. فهو قصاص من الله وعملية مطهّرة لكل الجنس البشري في وقت واحد، فنارُهُ تقتص من ضلال الجنس البشري وتربط عناصره المتنافرة في هيئة حيّة غير مقسّمة تشمل

---

[117] يوجد هذا 'اللوح' في العديد من مجموعات الأدعية البهائية، نذكر منها أدعية حضرة محبوب، طبع القاهرة عام 1339 هـ (1920 م)، ورسالة تسبيح وتهليل، طبعة الهند 1982

[118] في كتابه 'معانٍ في التاريخ *Meaning in History*' الطبعة الإنجليزية، ص 13

[119] في مقالته 'الثورة من منظور لاهوتي' التي تضمنها كتاب 'لاهوت الثورة *Theologie der Revolution*'

العالم بأسره وجامعة واحدة عامة شاملة[120]... فالنيران التي أجّجها عدله الإلهي تطهّر الإنسانية الغافلة الآثمة وتصهر عناصرها المتنافرة المتنازعة كما لا يستطيع أي عامل آخر أن يغفل أنها ليست ناراً إنتقامية مخرّبة فقط بل هي أيضاً عملية نظامية تقدّمية غايتها الخلاص والتطهير، وهي تتذرّع إلى غايتها هذه بتوحيد الكوكب بأسره والله يتم خطته إتماماً خفيّاً بطيئاً لا هوادة فيه ولا شفقة. وإن كان المنظر الذي يواجهنا اليوم منظر عالم متعثّر في شباكه وحبائله، غافل غفلة تامة عن الصّوت الذي ظلّ يدعوه إلى الله قرناً كاملاً، خاضع خضوعاً مخزياً إلى صوت الزبانية الذين يزينون له التردّي إلى أعماق الجحيم. "[121]

رأي البهائية في العيش من أجل الملذّات

يمكننا – على خلفية هذا السموّ الذي قُدّر للإنسان على هذه الأرض – أن ندرك أن يوتوبيا التلذذ بحياة من ‘الفخفخة، والدّعة، والشهوانية’، كما يصفها الكاتب الفرنسيّ بودلير Baudelaire بلغته ‘*Calme, luxe et volupté*’[122] هي فشل ذريع في العيش والحياة. فالرغبة الجامحة في اشباع الغرائز والاستمتاع بالملذات، والانشغال بالرفاهة والترف الماديّ دونما اكتفاء، وعبادة الشهوة الجنسية وإله المال وإفناء العمر فيها كما هو الحال في هذه الأيام على وجه العموم، والمفهوم السائد بأن الحياة لا تستحق العيش ما لم يضرب الانسان عرض الحائط بكل واعز أخلاقي من ضميره[123]، والاعتقاد الذي لا سند له من عقل أو ضمير بأن المجتمع يكون أكثر سعادة وحرية وعافية ‘إذا لم تكبت غرائز الإنسان ورغباته ودوافعه الحسية وتشوِّهُها الأخلاقيات المتزمّتة’ – هي كلها نزعات واعتقادات مبنيّة على خطأ جسيم. كما أن دعوة الإنسان، بكل جَلَبة وصخب، إلى ضبط نفسه بنفسه والتحرّر من كل المعايير والنّظم ما هي إلا طريق يُفضي إلى البربريّة، كما أن التحرر من كل القيم السائدة لن يخلق تلك ‘الشخصية

---

[120] في رسالته ‘جاء اليوم الموعود *The Promised Day is Come*’ ص 2، ترجمة أولية لطيب الذكر الدكتور السيد محمد العزاوي

[121] المرجع السابق ص 120، نفس مصدر الترجمة

[122] في كتابه ‘زهور الشر *Les fleurs du mal*’ فصل 49، المعنون ‘دعوة إلى رحلة محفوفة بالأخطار L’invitation au voyage’

[123] طبقا لرأي أبدته المغنية الفرنسية الشهيرة الراحلة إديث بياف – مفاده أن الأخلاقيات هي عندما نعيش بأسلوب يجعل الحياة خالية من أيّ تسلية.

المتحلية بالصفات الشعوبية’ التي رسمها كارل ماركس، وإنما سيؤدّي إلى الإطاحة بكل أنماط السلوك المتعارف عليها، وإطلاق عنان النزعات الخاصّة في كافة العلاقات والمعاملات الإجتماعية، كما هو الحاصل في العلاقات الجنسية. فلن يكون علينا أن ننتظر طويلاً حتى ندخل في نمط من العيش لن يختلف كثيراً عما هو في زرائب الحيوانات. والشيء نفسه حادث أيضاً إذا ما انقدنا إلى الصيحات المطالبة بإلغاء قانون العقوبات، إذ تتفشى الفوضى العارمة في المجتمع بين عشية وضحاها.

وكما فعلت جميع الديانات من قبل، فإن البهائية هي الأخرى قد أنارت لنا الطريق ورسمت لنا السبيل. فلم يُخلق الإنسان للمتعة الدائمة والملذات التي ليس لها ضابط، وإنما خُلق – كما توضح التعاليم البهائية – لكي "يستفيض من إشراقات الصفات الإلهية"[124] ومن أجل "إصلاح العالم"[125] بيد أن تجلي معدن الإنسان الحقيقيّ وتحقق المدنية يتوقفان على التركيز والاهتمام بالقيم المعنوية والانقطاع ونكران الذّات والتضحية والانضباط – كما يقول عالم الاجتماع دانييل بل Daniel Bell. فالانضباط "ضروريّ لاستجماع القوى المعنوية والجسمانية اللازمة لإنجاز المهام غير المعنيّة بالنفس والذّات. وهو لازم أيضاً للانتصار على النفس وكبح جماحها تمهيداً للانتصار على الغير."[126]

وقد عرّى بهاء الله هذا الأسلوب في الحياة واستنكره. وهو أسلوب ينطوي على الرفض التام للقيم المنصوص عليها في جميع الأديان – أسلوب باتَ هو السمة المميزة لعالمنا الغربي، وتسير الأمم الغنية في ركابه باطّراد يزداد يوماً بعد يوم، هذا في نفس الوقت الذي يزداد فيه الفقراء بؤساً وعوَزاً – وكما ندد القرآن الكريم بهذا اللهو[127]، أدانه بهاء الله بقوله: **"قد**

---

[124] عبد البهاء – كتاب ‘ترويج السلام العالميّ *The Promulgation of Universal Peace*’ الطبعة الانجليزية ص 404، مترجما

[125] بهاء الله، كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 109

[126] في كتابه ‘المتناقضات الحضارية للرأسمالية *The Cultural Contradictions of Capitalism*’ ص 82، وهذا يذكّرنا بقول وليام شكسبير الشهيرة في مسرحية هاملت (الفصل الرابع، مشهد 4) "من يكون الإنسان أذا كان جلّ صلاحه وتجارة زمانه هما النوم والأكل؟ حيوان ليس إلا"

[127] طبقا لنصوص القرآن الكريم فإن أولئك الذين "يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ" (الروم أية 7)، ولا همّ لهم سوى الاستزادة من متاع الدنيا، لن ينالوا النعيم في دار البقاء، إذ تطالعنا سورة التكاثر بقول "أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ. "

أخَذَ الحرصُ من في الإبداع أين مطالعُ الانقطاع يا مولى العالمين... قد تغيّر أكثرُ الورى من سُكْر الهوى أين مطالعُ التقوى يا مقصودَ العالمين". [128] كما يشير بهاء الله أيضاً إلى أنّ العالم بلا وفاء والثروات المادية ليس لها بقاء. وينصح المؤمنين برسالته بالتزوّد بالكنوز الباقية بقوله: "ينادي العالم في الحين بأعلى النداء: 'إنّي فان، وظهوراتي وألواني زائلةٌ. اتّعظوا وانتبهوا من الاختلافات والتغييرات الحادثة فيّ'"[129] ويقول أيضاً "وما الدنيا إلا منظر يفتقر إلى الحقيقة وعدمٌ يتزيّن بصورة الوجود فلا تتعلّقوا بها ولا تنقطعوا عن ربكم ولا تكونن من الغافلين. مَثَل الدنيا كسراب يحسبه العطاش ماء يسعون في طلبه بجهد بليغ، فإذا وصلوا إليه يبقون بلا قسمة ونصيب فيه"[130] وأيضا: **"لكل نفس ينبغي أن يختار لنفسه ما لا يتصرف فيه غيره ويكون معه في كل الأحوال، تالله إنه لحُبّ الله إن أنتم من العارفين. عمّروا بيوتا لا تخربها الأمطار وتحفظكم من حوادث الزمان."**[131] ويجد القارئ لآثار بهاء الله أنها قد تناولت مراراً مسألة قِصَرِ الحياة وفناء عَرَضِها الزائل، فقد جاء في الكتاب الأقدس ما يلي: **"قل لا تفرحوا بما ملكتموه في العشيّ وفي الاشراق يملكه غيرُكم كذلك يخبركم العليم الخبير. قل هل رأيتم لما عندكم من قرار او وفآء لا ونفسي الرّحمن لو انتم من المنصفين. تمرّ ايّام حيوتكم كما تمرّ الارياح ويطوى بساط عزّكم كما طُوِىَ بساط الاوّلين. تفكّروا يا قوم اين ايّامكم الماضية واين اعصاركم الخالية طوبى لأيام مضت بذكر الله ولأوقات صُرفت في ذكره الحكيم. لعمري لا تبقى عزّة الأعزاء ولا زخارف الأغنياء ولا شوكة الأشقياء سيفنى الكلّ بكلمة من عنده انّه لهو المقتدر العزيز القدير. لا ينفع النّاس ما عندهم من الاثاث وما ينفعهم غفلوا عنه سوف ينتبهون ولا يجدون ما فات عنهم في ايّام ربّهم العزيز الحميد. لو يعرفون ينفقون ما عندهم لتُذكَر أسمائهم لدى العرش الا انّهم من الميّتين."**[132]

غير أنه لا يصحّ في نفس الوقت أن تُأوّل كلمات بهاء الله هذه على أنها زهْدٌ وعزوفٌ عن الحياة. فهو يصرّح بكل وضوح في لوح الطرازات

---

[128] لوح قد احترق المخلصون – أنظر مراجع الحاشية رقم 117

[129] كتاب 'ألواح بهاء الله *Tablets of Bahá'u'lláh*'، الطبعة الانجليزية، ص 258، مترجما بالاستعانة بالأصل الفارسيّ

[130] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 153

[131] المرجع السابق، المقتطف 123

[132] الكتاب الأقدس، الفقرة رقم 40

قائلاً: "يكون الإنسان بعد بلوغه وتحقق رشده محتاجاً إلى الثروة"[133] ذلك لأنه ليس بمقدور الإنسان أن يُحرز تقدماً مريحاً في الحياة الدنيا بغير قسط من الموارد المادية. ولكن العيش المريح شيء والإغراق في الزخارف شيء آخر. لهذا فإن بهاء الله ينصحنا من هذا المنظور ألا نتجاوز حد الاعتدال. ويحذر من تكديس المال "على قدر الذي يكنزونه... ويصرفونه في أمور التي لن يحتاجوا بها ويكونن من المسرفين" بحيث: **"لَنْ يَحْتَاجَ بَعْضُهُمْ وَلَنْ يَكْنِزَ بَعْضُهُمْ وَإِنَّ هَذا لَعَدْلٌ مُبِينٌ".**[134] فالثروة أولاً وأخيراً لا يصحّ أن تصبح غاية في حدّ ذاتها، فهي لا تدوم كما أن الفقر أيضاً لا يدوم، وعلى الإنسان أن يدرك هذه الحقيقة. كما ورد في الكلمات المكنونة الفارسية: "في الفقر لا يجملُ بك الاضطراب، وفي الغنى لا ينبغي لك الاطمئنان، فإنّ لكلِّ فقرٍ غنى يعقبه وإنَّ بعد كلِّ غنى زوالاً يليه"[135]. أما الشيء الباقي الذي لا يعتريه الفناء والذي يجب على الإنسان أن يسعى لامتلاكه فهو ذاته ومعدنه وكيانه. ولهذا يقول بهاء الله **"يَا ابْنَ الرُّوحِ فِي أَوَّلِ القَوْلِ امْلِكْ قَلْباً جَيِّداً حَسَناً مُنيراً لِتَمْلِكَ مُلْكاً دائِماً باقِياً أَزَلاً قَدِيماً"**[136] أمّا أولئك الذين لاهمّ لهم في الحياة سوى الجرْي وراء الملذّات فقد اختصّهم بهاء الله في الكلمات المكنونة بهذا التوبيخ الشديد: "وا حسرتاه يا عشّاق الهوى النّفسانيّ! عن المعشوق الرّوحانيّ أعرضتم كالبرق الخاطف وبالخيال الشّيطانيّ تعلّقتم، للخيال سجدتم وعليه أطلقتم اسم الحقِّ، وإلى

---

[133] كتاب [مجموعة من ألواح...] ص 51، (وقد ترجمت هذه الآية هنا عن الأصل الفارسيّ بدلا من نقلها عن النسخة العربية تدقيقا للمعنى [المترجم]). كما أن آثار كل من بهاء الله، ومبشره الباب تبين أن المطلوب هنا من العباد ليس هو الانزواء الزاهد عن الدنيا – إذ يقول بهاء الله "**إن الذي لن يمنعه شيء عن الله لا بأس عليه لو يزيّن نفسه بحُلل الأرض وزينتها وما خلق فيها لأن الله خلق كل ما في السموات والأرض لعباده الموحدين**". (كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 128). وكذلك يقول ‹الباب› في كتابه قيوم الأسماء ما يلي: "**وكم من عباد يلبسون الحرير في كل عمرهم، وهم لباس النار يلبسون بما لا يلبسون لباس الهدى والتُقَى، وكم من عباد يلبسون في كل عمرهم من قطن أو صوف خشن ولكنهم بما قد لبسوا لباس الهدى والتقى قد لبسوا خِلَع الرضوان وهم في رضاء الله متلذذون. وإن تجمعُنّ بينهما بأن تلبس الهدى والتقى ثم حرير الأبهى لكان خيراً لكم عند الله إن انتم تستطيعون**" (كتاب [منتخبات من آثار حضرة النقطة الأولى] ص 106) – وسنتناول هذه المسألة بمزيد من الشرح في الفصل الثاني عشر "الإنسان الجديد" تحت بند ‹دينُ فرح وسرور›

[134] من سورة الملوك، كتاب [ألواح...إلى الملوك والرؤساء] ص 120، ووردت أيضا في كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 114

[135] الكلمات المكنونة الفارسية الترجمة العربية، الكلمة رقم 52

[136] الكلمات المكنونة العربية، الكلمة رقم 1

الشّوك نظرتم ودعوتموه بالورد، فلا أنتم بنَفَسٍ خالصٍ تنفّستم، ولا من رياض قلوبكم هبَّ نسيم الانقطاع، ذَرَرْتم في الرّياح نصائح المحبوب المشفِقة ومحوتموها من صفحة القلب وانطلقتم في مراعي الشّهوة والأمل كسائمة الأنعام تأكلون."[137] ويحضّ بهاء الله المؤمنين في مواضع شتى من آثاره على كبح جماح النفس والهوى وهي لا تقتصر على الشهوات وحدها بأيّ حال من الأحوال، فهو يدين كلّ أسلوب في الحياة لا همّ له سوى الملذّات والحسيّات، ويندد بأولئك الذين كلّ منهم قد 'اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ' كما يقول القرآن الكريم[138] وكذلك "الذين لا يتنفّسون إلا بأهواء أنفسهم، والّذين ليس لهم نجاة من قفص الظّنونات الباطلة، والّذين لا يرفعون رأسهم عن الفراش نهارًا إلا للسّعي في طلب الدّنيا الفانية، كالخفّاش الظّلمانيّ، والّذين لا يستريحون ليلاً إلا للسّعي في تدبيرات الأمورات الدّنيئة. مشغولون بالتّدبير النّفسانيّ وغافلون عن التّقدير الإلهيّ. بالنّهار يشتغلون في طلب المعاش بأرواحهم. وفي اللّيل يأخذون في تزيين أسباب الفراش. "[139]
وهناك أيضاً عددٌ لا يحصى من التحذيرات من أن الجري وراء النزوات من شأنه أن ينأى بالإنسان بعيداً عن الغرض من وجوده وحياته. ونسوق منها على سبيل المثال ما يلي: **"نسأل الله بأن لا تمنعكم أنفسكم وأهواؤكم عما قدّر لكم"**[140] و "لا تهدم بيت المحبة الباقيه بظلم الشهوة الفانية لا تسّد ينبوع القلب المنير بأشواك الحرص والهوى"[141] وأيضا "حرّروا انفسكم من غفلة النفس والهوى"[142]، و"نرى النفوس التي تنظر اليوم إلى المشتهيات النفسيه وزخارف الدنيا الفانيه في بُعد مبين"[143] وأخيراً: **"إن الذين يرتكبون البغي والفحشاء أولئك ضلّ سعيهم وكانوا من الخاسرين".**[144]

---

[137]الكلمات المكنونة الفارسية الترجمة العربية - الكلمة رقم 45

[138]سورة الجاثية: 23

[139]كتاب الإيقان ص 180

[140]– كتاب [منتخباتي...] المقتطف رقم 147

[141]–المرجع السابق، المقتطف رقم 153، والأصل فارسيّ

[142]المرجع السابق، نفس المقتطف

[143]المرجع السابق، المقتطف 100

[144]المرجع السابق، المقتطف 136، وهناك نص مشابه في الورق التاسع من الكلمات الفردوسية يتناول مسألة ضرورة الاعتدال في كل الشئون، كتاب [مجموعة من ألواح...] ص 87

كما يَرثي بهاء الله لحال أولئك الذين يرضون **'بسراب بقيعة'** ويعرضون **"عن بحر الذي جعله الله عذبا سائغا"** [145]... والذين **"يشربون الصديد ولا يعرفون"**، و **"يهطعون إلى النار ويحسبون أنها نور... "**[146]

والتأكيد البهائيّ على أن الناس إذا عرفوا لماذا خلقهم الله فإنهم يبتعدون عن ملذّات الدنيا، ويلتفتون إلى الوصايا الربّانية – هو من المسائل التي ذكرها بهاء الله مراراً وتكراراً، ومنها قوله "إن ظَهَرت الحكم الالهية البالغة سيرى الجميع صِرْف العدل ويتمسكون بأوامره بيقين مبين. **قد قدّرنا في الكتاب خيراً كثيراً لمن اعرض عن الفحشاء متمسكاً بالتقوى. انه لهو المعطي الكريم... "**[147]

ونظراً لأن جنوح الإنسان في يومنا هذا إلى حياة الملذات والمادة، وكذلك سعيه إلى التحلّل من كل الروابط، وما يتبع ذلك من نجاحه في تحطيم صرح الأخلاق المتوارثة، يتجلّى بكل وضوح في موجة الانحلال السائدة، فلنتفحّص تعاليم بهاء الله عن مسألة العفّة والطهارة. مع أن ما ترمي إليه هذه المسألة يتضح بالفعل من مطالعة ما كتبناه للتو من سطور، ألا وهو ضرورة التراجع عن 'التحرر والانفلات' إلى الإنضباط بالأخلاق والتمسّك بالقيم. فيجمُل بنا الآن أن نتناول مسألة العفة هذه، لأنها – كما سيأتي ذكره في الفصل الثاني عشر من كتابنا [148] – هي إحدى الفضائل التي حضّ بهاء الله الناس على اكتسابها، على الرغْم من حقيقة أن يد الإفساد والتشويه والإقصاء والتملّص التي تعبث بكل شيء في يومنا هذا لم تَطَلْ أيَا من الفضائل والقيم القديمة كما طالت من فضيلة العفّة هذه. فلمّا أزيلت العفّة تقريباً من المفردات اللغوية المتداولة، صار ذكرها لا يثير أكثر من ابتسامة من التساهل، إن لم يكن ردّ الفعل تهكُّماً صريحاً أو سخرية لاذعة. بل إن كثيراً من الناس في الغرب صاروا ينظرون اليوم إلى الإباحية كنوع من تحقيق الذات، وأصبحوا مقتنعين بأن الالتزام بالعفّة يورث الكبت الجنسيّ.

وما الرفض الفجّ (في عقر دار المسيحية) لواحدة من القيم التي ظلّت تتبوأ مكانة القلب في نظامها الخُلقيّ طوال القرون الماضية - ما هو إلا نتيجة للمبالغة الشديدة والصرامة من جانب أعداء الجسد المتزمّتين،

---

[145] كتاب [منتخباتي...] المقتطف 135

[146] المرجع السابق، المقتطف 17

[147] المرجع السابق، المقتطف 59

[148] فيما يتعلق بموضوع العفّة بأكمله راجع كتاب 'وصفة للحياه *Prescription for Living*' للسيدة روحية رباني الطبعة الانجليزية ص 61-72

وعلى رأسهم في المسيحية بولس الرسول الذي قال بأنه "فَحَسَنٌ لِلرَّجُلِ أَنْ لاَ يَمَسَّ امْرَأَةً"[149]، بل إن الزواج عنده لم يكن سوى ‘زِنا مأذون به’ [150]، فهو المسئول عن تسرّب الخوف من المعاشرة الجسدية إلى الكهنوت الكنسيّ، يضاف إليه من اقتفوا أثره من المتزمتين أمثال كليمنت السكندريّ Clement of Alexandria الذي خصى نفسه، وشيبريان Cyprian وتيرتوليان القرطاجنيّ Tertullian of Carthage وجيرومي Jerome وأمبروز Ambrose، ناهيك عن أوغسطين الذي ناشد كل زوجين أن يتعاشرا ليس من أجل الاستمتاع وإنما من أجل الإنجاب لا غير. فصارت الكنيسة تعتبر العزوبية والبكارة المتعمّدة شيئاً أسمى من الزواج، وما أن حلّ القرن الثالث المسيحيّ حتى تم التغاضي عن فضائل أساسية أخرى مثل الصدقة والمعروف، وأصبحت العفة هي جوهر الفضائل وقلبها. [151] وصارت الخطيئة منذ ذلك الزّمان مرادفا لأية معاشرة بين الرجل والمرأة.

ولقد جلب هذا المفهوم عن احتقار جسم الإنسان، وهو القاضي بإلصاق خطيئة الإنسان بأحاسيسه، وتمجيد الكبت والعذرية طول العمر بوصفهما أسمى درجات الإيمان المسيحيّ – قد جلب تبعات تاريخية وخيمة[152] إذ إنها أقصت الإنسان عن ذاته، فهو مفهوم أفرز حالة حَكَم عليها نيتشه بقوله "من المحتمل جدّاً أن يكون المسيحيون قد ظلّوا قروناً بأكملها ينجبون ذرية مصابة بمرض تأنيب الضمير"[153]، وبات اختزال المجتمعات المسيحية لدور الطبيعة البشرية، وإلقائها الشك على ‘الميول الطبيعية’، وإلصاقها العار بمشاعر الحب، وهي مواقف ألحقت بالغ الضرر بمدنيّة بأكملها، منطلقاً للهجوم الهائج الذي شنه نيتشه[154]، وللنقد اللاذع الذي ساقه

---

[149] الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس – الإصحاح السابع: آية 1 وما يليها

[150] وهذا ما يفهم من قول بولس الرسول في المرجع السابق، نفس الإصحاح: آية 2 إلى 6

[151] لمزيد من التفصيل راجع مؤلفنا ‘النور يلمع في الظلام *The Light Shineth in Darkness*’ الطبعة الإنجليزية ص 73- 75

[152] وَجَدت الميول الغريزية المكبوتة في القرن الثامن عشر لدى الرجال متنفسا لها في الانهماك باصطياد السّحَرة وقتلهم، وهي ممارسات استمرت في أوروبا منذ العصور الوسطى حتى عصر التنوير، وانتقلت عدواها إلى المجتمعات الأمريكية البيوريتانية المتزمّتة، بالغة بذلك ذروتها هناك في القرن السابع عشر

[153] في كتابه ‘إنسانيّ، إنسانيّ بمعنى الكلمة *Human — All-too-Human*’ الطبعة الإنجليزية، المجلد الأول، فصل 141، ص 144

[154] حينما قال "لقد قدّمت المسيحية السمّ للإله الإغريقيّ إيروس (إله الغريزة) لكي يشربه، ولكنّه لم يمت من جرّاء ذلك بالتأكيد، وإنّما تحلل كيانه وأصبح ما نسمّيه الآن

بيرديايف Berdyayev[155]، حتى من قبل أن يشرع سيجموند فرويد وأنصاره في التشهير بآداب الكنسية في المعاشرة الجنسية. وبوسعنا حتى في يومنا هذا أن نتبين ردّة فعل هذا المفهوم البالغ التزمّت عن العفّة التي نجدها منعكسة على الآراء الجدليّة التي نادت بنقيض ذلك تماماً، ونراها متجسّدة في الإنكار العلمانيّ القاطع لصلاحية الدّين في تنظيم هذه المعاشرة.

أما مفهوم البهائية عن العفّة فهو على النقيض تماماً من ذلك المفهوم الكنسيّ، فهو لا يرمي بأيّ حال إلى العودة إلى الميول المعادية للمعاشرة، تلك الميول التي ألقت بظلالها على المسيحية دهوراً طويلة. فالعفّة في البهائية – كما هو الحال في اليهودية والإسلام أيضا – ليست إنكاراً للميول الطبيعية عند الإنسان أو تشهيراً بالمعاشرة، ذلك لأن المُرام هنا ليس كبت الغرائز وإنما ضبط وتوجيه قدرة الإنسان على الإنجاب ومقدرته على الحب، وإرشاد غرائزه وتهذيبها من أجل الرقيّ بالفرد نحو أنماط سامية من المحبة. والقول باحتياج الدافع الجنسيّ عند الإنسان – وهو دافع شديد مثل باقي الدوافع – للترشيد والتربية لا يخالف ما توصل إليه علم الانثروبولوجى (الأجناس البشرية)، من أنه على الرغم من خضوع الدافع الجنسيّ عند الحيوان لضوابط فطرية تنظمه وتسمح به، فإن نظيره عند الإنسان يختلف بتحرره التام من أية ضوابط، وبشدة نزقه، وإمكانية انفصال شهوته الحسّية عن الغرض الإنجابي. فالإنسان، على عكس الحيوان، يملك دافعاً جنسياً مفرطاً يستعصي كبحه على صمام الأمان الماثل في الضوابط الفطرية، وهنا يكمن الخطر البيولوجيّ على المعاشرة البشرية، التي تجنح عادة إلى التحلل من القيود والضوابط. وقد يكون إفلات الإنسان من كل تحكّم فطريّ مكسباً لمن ينادون بالحرّية، ولكنه أيضا يشكّل خسارة في الأمان التلقائيّ الماثل في الضوابط الفطرية. ومع ذلك فإن فرصة الإنسان الحضارية موجودة هنا أيضاً كما يرى هيلموت شيلسكي Helmut

---

بالرّذيلة"، من كتاب أشرنا إليه آنفا وعنوانه 'ما وراء الخير والشرّ'، الطبعة الإنجليزية، الفقرة 168

[155] وهو الذي اتهم الكنيسة بإجبارها المسيحيين على العيش في حالة تمزّق داخليّ وتنازع نفسيّ دائم، وقال إن الإنسان لا يتحمّل ذلك التزمّت الخالي من الرّحمة (أورده فرانز أرنولد Franz Arnold في مقالة له بعنوان 'الغرائز الحسّية والجنسية من منظور اللاهوت والكهنوت Sinnlichkeit und Sexualität im Lichte von Theologie und Seelsorge، ضمن سلسلة مقالات لكتّاب آخرين نشرت في كتاب 'مساهمات في أبحاث الغرائز *Studien zur Geschichte der Theologie und der Kirchen*] للمحرّرين بيرجر برينتس Bürger-Prinz وهـ جييزي H. Giese، العدد الأول، طبع عام 1952

Schelsky إذ يقول: "طالما أفلت الإنسان من الاعتماد على البيئة وجمود الفطرة، فبوسعه بل من واجبه أن يسيطر على دوافعه ورغباته بشكل واع. فالارتقاء الحضاريّ بالدوافع الجنسية هو بالقطع واحد من الإنجازات الأصيلة المتمدنة، وأحد احتياجات الإنسان الحياتية. بل ليس هناك في الحقيقة ما يتنافى مع فكرة أن النموذج الإجتماعيّ الأساسيّ للسلوك البشريّ برمّته يتجلى في هذا التنظيم والترتيب لعلاقات الإنسان الجنسية والإنجابية."[156]

فالعفة في البهائية يقصد بها إذن وضع كل أشكال المعاشرة تحت مظلة الزواج دون سواه بما في ذلك الامتناع عن أية معاشرة قبل الزواج أو أية علاقات خارجية بعده، وعلى الرغم من صرامة هذه الفضيلة، شأنها في ذلك شأن كافة الأخلاقيات التي جاءت بها كل ديانات العالم، فإن أخلاقيات المعاشرة في البهائية لا تناصب العداء للأحاسيس البشرية، والدليل على ذلك هو المكانة السامية التي توليها البهائية للزواج. فالزواج في البهائية هو أسلوب حياة قد سنّه الله وشرّعه: **"تزوجوا يا قوم ليظهر منكم من يذكرني بين عبادي"**[157] كما أن البهائية تحرّم الرهبنة تحريماً قاطعاً[158] حيث يقول بهاء الله في الكلمات الفردوسية: "يَا أَهْلَ الأَرْضِ إِنَّ الانْزِوَآءَ وَالرِّيَاضَاتِ الشَّاقَةَ غَيْرُ فَائِزَةٍ بِعِزِّ الْقَبُولِ. وَأَرْبَابُ الْبَصَرِ وَالْعَقْلِ يَنْظُرُونَ إِلى مَا هُوَ سَبَبُ الرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ. وَظَهَرَتْ أَمْثَالُ هَذِهِ الأُمُورِ مِنْ أَصْلاَبِ الظُّنُونِ وَتَوَلَّدَتْ مِنْ بُطُونِ الأَوْهَامِ. وَلَمْ تَلِقْ لأَهْلِ الْعِلْمِ وَلَنْ تَلِيقَ"[159]

ولكن بهاء الله لا يدين فقط رغبة الإنسان في متاع الدنيا، وجريه وراء اشباع شهواته فحسب، وإنما تنسحب إدانته إلى أسلوب حياة الإنسان العصريّ بكامله لافتقادها إلى كل من الهدف والمغزى. وبتحاشيه الدائم عن مواجهة ذاته (وعن معرفته لنفسه) سيندفع إلى ابتكار الجديد من صنوف اللهو والترفيه ليهرب من القناعة، أو يبتعد عن الملل. وهو لهو وترفيه غاية في الفجاجة والنّزَق. ولا زالت الجموع في يومنا هذا تريد 'الخبز وحلبة

---

[156] في كتابه 'علم الاجتماع الغريزيّ *Soziologie der Sexualität*' الطبعة الألمانية، ص 12

[157] بهاء الله، الكتاب الأقدس، الفقرة 62

[158] كما هو وارد في العديد من كتابات حضرة بهاء الله مثل [لوح ابن الذئب] الطبعة الإنجليزية ص 49 وما بعدها، والبشارة الثامنة من لوح البشارات، كتاب [مجموعة من ألواح...] ص 40

[159] كتاب [مجموعة من ألواح...]، الكلمات الفردوسية، الورق العاشر، ص 89

المصارعة *panem et circenses*’[160]تماماً كما كانت تفعل في روما القديمة. وما الأهمية التي توليها مجتمعاتنا لتجارة الاستعراض *show business* وللرياضة التجارية (مثل كرة القدم والملاكمة على وجه الخصوص)[161] واللهو والعطلات المعلّبة، والسياحة الفوجية، والتجمهر الحميم الأجوف على تجرّع البيرة والخمور، أو لعب القمار، أو الحانات أو مراقص ‘الديسكو’، ثم أعمدة الشائعات في الصحافة الرخيصة *tabloids*، والمسلسلات المصوّرة *comics* وما اليها من وسائل قتل الوقت[§] – ما هي كلها إلا مظاهر تفصح عن أسلوب حياة سطحيّ خالٍ من الروحانيّة لا هدف له سوى تضييع الوقت[162]، مما يصرف الإنسان عما هو ضروري، ويمنعه من أداء ما هو واجب عليه.

---

[160] تلك المقولة الشهيرة للكاتب المسرحيّ الرومانيّ ‘جوفينالJuvenal’ (مولود 60 م – متوفي 140 م) في مسرحيته التهكّمية *Satires*، الفصل العاشر، فقرة 41. (والمرادف للخبز وحلبة المصارعة في عالم اليوم هما الهامبرجر وملاعب الكرة [المترجم])

[161] كما جاء في كتاب الفيلسوف الفرنسيّ باسكال Pascal في كتابه ‘الأفكار *Pensées* ’ الطبعة الفرنسية، ص 76، إذ يقول "يصرف الناس أوقاتهم في مطاردة كرة أو ظبي، وهي تسلية لكل من الملوك والمملوك"

[§] لم تكن صفحات التواصل الإجتماعي ومواقع الإنترنت التي أصبحت مرتعا خصبا لكل هذه النزعات اللاأخلاقية والهروبية قد ظهرت بعد عندما سرد المؤلف هذه الوسائل. ولقارئ اليوم أن يستنتج أنه بوضع المزيد من ابتكارات العصر تحت تصرف أجيال لا تحكمها ضوابط أخلاقية لا ينتج عنه سوى المزيد من الشرور والفوضى والضياع. وقد عرضت محطة تليفزيون الإذاعة البريطانية عام 2016 فيلما وثائقيا لأطفال في الصين وصل بهم درجة إدمان الألعاب الإلكترونية على الإنترنت أن يرتدوا حفاضات حتى لا يضطروا إلى قطع اللعب للذهاب إلى دورة المياه. [المترجم]

[162] ويحضرنا هنا قول باسكال "إن الشيء الوحيد الذي يعزّينا في مصائبنا هو اللهو. مع أن اللهو نفسه هو مصيبتنا الكبرى، لأنه هو الشيء الذي يمنعنا في المقام الأول من التفكير والتدبر في أحوالنا، ويدفعنا لتدمير ذواتنا بغير رحمة. وبغير اللهو ندخل في حالة من القلق، والقلق يشجعنا على البحث عن وسائل أكثر نفعا ومحتوى للتخلص منه. أما اللهو فإنه يبسطنا ويسلينا بينما يقودنا إلى الموت دون أن ندري" (كتاب الأفكار رقم 128 الطبعة الفرنسية) وهذا أمر ينطبق بصورة أكبر على مجتمع اليوم الحاليّ أكثر مما كان عليه الحال عندما كتب باسكال هذا الرأي قبل قرن ونيف من الزمان. فمجتمعنا – كما قال ‘هاينز فريدريش Heinz Friedrich’ هو مجتمع ليس للناس فيه أية فكرهة عن كيفية شغل أوقاتهم سوى إسعاد أنفسهم بعض الشيء عن طريق البذخ، الذي هو نوع من الإشباع البديل الذي تبغيه الناس بدلا من أن تسعى إلى العيش الحقيقي. فمجتمعنا يسعى إلى التسلية والهروب من الواقع بأيّ ثمن حتى لو نتج عن هذا المسلك شل الإحساس بالهدف من وراء الحياة. وهو أيضا مجتمع يخشى

فأين هذا الأسلوب في الحياة من السّعي لاكتساب المعرفة؟ والتعلم من أجل صقل النفس؟ والتفكير في القيام بعمل من أجل مساعدة الجوار أو المجتمع أو البشرية ككل؟ وما أعظم التحول الذي سوف يحدث لو أن البشر شرعوا في الاهتداء بقول بهاء الله: **"فَضْلُ الإِنْسَانِ فِي الْخِدْمَةِ وَالْكَمَالِ لاَ فِي الزِّينَةِ وَالثَّرْوَةِ وَالْمَالِ. اجْعَلُوا أَقْوَالَكُمْ مُقَدَّسَةً عَنِ الزَّيْغِ وَالْهَوَى وَأَعْمَالَكُمْ مُنَزَّهَةً عَنِ الرَّيْبِ وَالرِّيَاءِ. قُلْ لا تَصْرِفُوا نُقُودَ أَعْمَارِكُمُ النَّفِيسَةِ فِي الْمُشْتَهَيَاتِ النَّفْسِيَّةِ وَلاَ تَقْتَصِرُوا الأُمُورَ عَلى مَنَافِعِكُمُ الشَّخْصِيَّةِ. أَنْفِقُوا إِذَا وَجَدْتُمْ وَاصْبِرُوا إِذَا فَقَدْتُمْ إِنَّ بَعْدَ كُلِّ شِدَّةٍ رَخَاءٌ وَمَعَ كُلِّ كَدَرٍ صَفَاءٌ. اجْتَنِبُوا التَّكَاهُلَ وَالتَّكَاسُلَ وَتَمَسَّكُوا بِمَا يَنْتَفِعُ بِهِ الْعَالَمُ مِنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ وَالشُّيُوخِ وَالأَرَامِلِ".**[163]

في معاداة القانون

ولقد أدّى تداعي القيم المتوارثة وانحلالها إلى انهيار في القانون والنظام. فقد تلاشى اعتداد القانون بنفسه كهيكل دستوري للقواعد تتبناه الدولة، هيكل يلتزم بمبدأ العدالة ويلتزم به الكيان الإجتماعيّ المشترك. ولم يعد القانون سوى مجرد أداة للسلطة والقمع في يد الطبقة الحاكمة. ولم يحدث هذا من جرّاء تهافت الناس في كثير من الدول يوماً فيوماً على الأفكار التي تنادي بيوتوبيا المجتمع الخالي من القانون والسلطة والسيادة فحسب، وإنما أيضاً بفعل الأفكار الماركسية[164] التي ترمي إلى تذويب هذه الطبقة الحاكمة في المجتمع اللاطبقي، حتي تختفي تماماً وتفسح المجال لما تسميه النظرية الماركسية 'بإدارة السّلع وتنظيمها'. فطبقا للمبدأ الماركسيّ عن 'ذبول القانون التدريجيّ' لا يتعين على نصوص القانون أن تتوارى فحسب، وإنما يتحتّم على الهياكل القانونية نفسها أن تنزوي في طيّات

الناس فيه على نحو هستيريّ من مرور الأيام، ويتملكهم الرعب من فكرة الموت". (من كتابه 'كارثة الحضارة *Kultur katastrophe*'، الطبعة الألمانية، ص 278-279)

[163] كتاب [مجموعة من الواح...]، لوح الحكمة، ص 118

[164] لقد صارت الجامعات الأوروبية – التي هي بمثابة القلب من حياتنا الثقافية والعلمية – أشبه بحضّانات تفريخ للمكائد الفوضوية، فالشعارات التي تخَطّ على حوائطها تثير الفتن وتنادي بمقاومة الدولة، ولا تختلف في هذا من دولة أوروبية إلى أخري. إذ تطالعنا في كل مكان دائرة سوداء يتوسطها حرف A الذي يرمز إلى كلمة (فوضى Anarchy) بالإنجليزية، أو ما يرادفها بلغات أوروبا الأخرى.

النسـيان[165]، إذ إن العدالـة علـى حـد قـولهم "ليسـت سـوى الانعكـاس الأيديولوجيّ للسوق بشعار ‘أعطيك لتعطيني *du ut des*’ – ومصير العدالة هي الأخرى هو الزوال، شأنها شأن اقتصاد السوق الفرديّ".[166]

أما موقف علم الاجتماع من القانون أيضا فهو موقف يشاركه فيه الباحثون في مسألة السلام – وهو موقف حرج على أقل تقدير – إذ إن غالبية علماء الاجتماع يفسرون القانون من منطق الشعار السياسيّ القائل بأن ‘قانون الحكم هو قانون الحاكم’، وذلك في معرض كشفهم لمظالم الوضع القانونيّ القائم ومعارضتها. فها هو ‘القانون والنظام’ على الرغم من سلامته واحتياج الناس إليه، قد أنزل إلى درك الشعارات السياسية. وصحيح أن القانون، بصفته ضامناً لبقاء الهياكل الإجتماعية القديمة على حالها، ينزع إلى أن يجمّد تلك الأحوال الإجتماعية مع كونها غير مقبولة ويصيبها بالتحجر فلا يساعدها على التماشي مع المتغيرات الإجتماعية. إلا أنه لم يعد من المقبول أن يكون القانون في الوقت نفسه هو ‘الوسيلة العمومية لتغيير اجتماعي خال من العنف’.[167]

ومن الواضح أن حصون القانون قد تداعت منذ زمن بعيد. فبفضل مارتن لوثر صار للبروتستانتية بأكملها علاقة متوترة مع القانون الوضعيّ الذي صار قاعدة الحياة الإجتماعية وقالبها. فالقانون لدى لوثر ليس سوى ‘حكومة زمنية’ أو ‘نظام مؤقتٍ’.[168] والنظر إلى القانون على أنه ليس سوى سمة من سمات العالم التّرابيّ هو نتاج الاعتقاد البروتستانتي بأن الإنسان يحقق الخلاص بالإيمان وحده دون العمل. فلا مكان للعدالة في قاموس الفضائل البروتستانتية كما هو جليّ واضح في أقوال مارتن لوثر الشهيرة ومنها: ‘إن رجال القانون هم أعداء المسيح’، كما وصفهم أحد الناس بقوله ‘إن رجل القانون هو مسيحيّ طالح’، ذلك لأن رجل القانون يشيد بالعدالة الوضعية ويمتدحها وكأنها تجعل من يقيمها رجلاً منصفاً ومباركا لدى الله.[169] ولم تكن الأرض الخصبة التي ترعرعت وانتشرت فيها الأفكار

---

[165] كما يرى ‘جوستاف رادبروك Gustav Radbruch’ في كتابه ‘الفلسفة التشريعية *Legal Philosophy*’ الطبعة الإنجليزية ص 122

[166] المرجع السابق

[167] هيلموت شيلسكي Helmut Schelsky في كتابه ‘آخرون يقومون بالعمل *Die Arbeit tun die anderen*’، الطبعة الألمانية، ص 392

[168] كما هو مذكور في كتابه ‘السلطة الدنيوية: إلى أيّ مدى تطاع *Temporal Authority: To what extent it should be obeyed*’، فقرة 1523

[169] كما جاء في كتاب ‘أحاديث المائدة *Table Talks*’، المجلّد الرابع – بند 4915

الفوضوية سوى حطّ المذهب البروتستانتيّ من قدر العدالة، ومناداته بتحرر المسيحيين من الناموس والوقوف على ساق المحبة الوحيد، وترويجه لمبدأ ‘معاداة الناموس الأخلاقيّ *antinomianism*’ §، فالمسافة التي تفصل انطلاق صيحة التحرر من الناموس في الأوساط الدينية والكهنوتية عن التشكك في جدوى القانون انتهاء إلى رفضه ووصمه بأنه أداة للقمع الإجتماعيّ ليست مسافة طويلة. وهو أمر يصفه هيلموت شيلسكي باقتدار عندما يقول: "تجري الآن عملية إعادة صياغة الزّهد المسيحيّ في الدنيا في قالب جديد هو الرّفض الإجتماعيّ الدينيّ[170] للنظام السياسيّ والقانون القائم".[171] ولقد طُمِست معالم فضائل أصيلة مثل المحبة والرحمة والشفقة في قاموس القيم العلمانية الذي صنعناه نحن معشر الغرب تحت مسمّى هلاميّ هو *humanitarianism* – أو ‘حب الخير للناس’[172]، بينما طفقت فكرة العدالة تحيا على الهامش فيما يبدو، وكأنه احتجاج منها على ظلم الزّمان لها.

وهذا التغيير الغريب لمحور الاهتمام بالقيم أمر لا يستهان به، إذ إنه يقوّض أس أساس المجتمع. فبينما ‘تبرد محبة الكثيرين’ كما يقول الإنجيل[173]، ستفقد العدالة – تلك الدعامة الأخلاقية – مكانتها في عالم النظام والقانون. فلقد احتلت المحبة موطن العدالة، في حين إن مكانها الصحيح هو حياة الفرد ومجالها الطبيعيّ هو العلاقات الشخصية.[174] بيد

---

§ لشرح وافي عن مبدأ ال *antinomianism* يوصي المترجم بمراجعة المادة المنشورة على الإنترنت – على الرابط

http://mb-soft. com/believe/tan/antinomi. htm

[170] بالمفهوم الذي شرحناه في الفصل الأول من الكتاب – تحت بند ‘الخلاص العلماني’

[171] كتابه ‘آخرون يقومون بالعمل *Die Arbeit tun die anderen*’، الطبعة الألمانية، ص 409

[172] ومثلما حدث لقانون العقوبات أكثر من أيّ شيء آخر (كما سنوضحه في البند التالي من هذا الفصل ‘في معارضة إلغاء قانون العقوبات’) يوضح هيلموت شيلسكي أنه "بحدوث تغير في مفهومنا عن الإنسان، فقد تغير مفهوم الإنسانية هو الآخر، فأصبحنا نميل إلى تفسير كلمتي ‘إنساني’ و ‘إجتماعي’ على أنها تعني المشاركة في الفهم، وصارت ‘الإنسانية’ لا تمارس فعلا إلا في معرض التدابير الإجتماعية أو عند التعامل مع المواقف الصارخة، ومن الملائم دائما أن نتساءل في انتقاد "من ذا الذي لا يستحق أن يكون محل اهتمام البشرية دائما أبدا؟" – المرجع السابق ص 381

[173] وهو من علامات النهاية طبقا لإنجيل متى 24: 12

[174] للراغب في شرح مستفيض جيد عن العلاقة بين المحبة والإنصاف اقرأ كتاب ‘العدالة والنظام الإجتماعيّ *Justice and the Social Order*’، للكاتب إميل برونر Emil Brunner الطبعة الإنجليزية، الفصل الخامس عشر، ص 125 – 130. ولقد

أن المحبة يجري الآن استعمالها على نحو خاطئ في مجال النظام الاجتماعيّ.[175] وقد لا يكون هناك ما زلزل بنيان المعايير الأخلاقية والقيم في العالم مثلما زلزلته عملية إقحام المحبة في مضمار النّظم الإجتماعية، من بعد فصل المحبة عن الله، الذي هو أصلها ومنبعها.

ولقد وصف بهاء الله هذا التدهور في القانون بقوله: "قَدْ سُتِرَ نَيِّرُ الْعَدْلِ وَاحْتَجَبَتْ شَمْسُ الإِنْصَافِ خَلْفَ السَّحَابِ"[176]. وبقوله: "قَدِ ارْتَفَعَ الْيَوْمَ أَنِينُ الْعَدْلِ وَحَنِينُ الإِنْصَافِ وَأَحَاطَ الْعَالَمَ وَالأُمَمَ دُخَانُ الظُّلْمِ الْقَاتِمِ"[177] وأيضاً: "الإنصافُ نادرٌ، والعدلُ مفقودٌ"[178]وكذلك قوله: "يُرَى الْيَوْمَ هَيْكَلُ الْعَدْلِ تَحْتَ مَخَالِبِ الظُّلْمِ وَالاعْتِسَافِ. اسْأَلُوا اللهَ جَلَّ جَلاَلُهُ أَنْ لاَ يَحْرِمَ النُّفُوسَ مِنْ بَحْرِ الْعِرْفَانِ حَيْثُ إِنَّهُمْ لَوْ عَلِمُوا لأَدْرَكُوا أَنَّ كُلَّ مَا جَرَى وَثَبَتَ مِنْ قَلَمِ الْحِكْمَةِ هُوَ بِمَثَابَةِ الشَّمْسِ لِلْعَالَمِ وَفِي ذَلِكَ رَاحَةُ الْكُلِّ وَأَمْنُهُمْ وَمَصْلَحَتُهُمْ وَمِنْ دُونِ ذَلِكَ يَنْزِلُ بِالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ بَلاَءٌ جَدِيدٌ وَتَقُومُ فِتْنَةٌ جَدِيدة"[179]

وتشهد الأسبقية التي يوليها بهاء الله للإنصاف – في قائمة الفضائل التي فصّلها وشدّد عليها – على رفضه المطلق للميول الفوضوية. إذ تطالعنا الكلمات المكنونة بقوله: **"أَحَبُّ الأَشْيَاءِ عِنْدِي الإِنْصافُ"**[180]، كما يشدد في معرض آخر بقوله أن "أول الإنسانية هو الإنصاف"[181]، وكذلك **"رَأْسُ كُلِّ**

تناولت أنا نفس هذا الموضوع تفصيلا في رسالتي الدراسية (المقدّمة لنيل درجة الدكتوراه في القانون من جامعة هايدلبرج) المعنونة ‘دعائم النظم الإداريّ البهائيّ *Verwaltungsordnung der Bahá’í*’، ص 45 - 48

[175] وإليكم مثالا صارخاً: يحق للمخالف المحكوم عليه بغرامة مالية في بلدية فرانكفورت على سبيل المثال أن يقبض مبلغا من صندوق الضمان الاجتماعيّ بالبلدية يمكّنه من دفع هذه الغرامة تفاديا لقضاء عقوبة الحبس التي تسري في حالة عجزه عن دفعها، فالعقوبة هنا ليست سوى حبرٍ على ورق، ولا تعاقب الدولة هنا سوى نفسها ناقلة مبلغ الغرامة من جيب لآخر

[176] كتاب [مجموعة من ألواح...]، لوح الإشراقات، ص 124-125

[177] كتاب [مجموعة من ألواح...]، لوح الدنيا – ص 102

[178] لوح ابن الذئب – الطبعة الفارسية ص 96، مترجما

[179] كتاب [مجموعة من ألواح...]، لوح مقصود – ص 146

[180] الكلمات المكنونة العربية - الكلمة رقم 2

[181] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 100

مَا ذَكَرْنَاهُ لَكَ هُوَ الإِنْصَافُ". [182] كما تزخر آثاره بالثناء على الإنصاف، ومنها: "لا نور يعادل نور العدل فهو سبب نظم العالم وراحة الأمم"[183]، فالإنصاف يخدم أسمى مصالح الحياة الدنيا ويعضّد الإتحاد والسلام. "أَلْعَدْلُ سِرَاجُ الْعِبَادِ فَلاَ تُطْفِئُوهُ بِأَرْيَاحِ الظُّلْمِ وَالاعْتِسَافِ الْمُخَالَفَةِ وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ ظُهُورُ الاتِّحَادِ بَيْنَ الْعِبَاد". [184] ولأن الإنصاف فضيلة يرتكز عليها أساس السلم والأمان، فعلى الحكام أن يتحلوا بهذه الفضيلة كما ناشدهم بهاء الله بقوله: **"يَا مَعْشَرَ الأُمَرَآءِ لَيْسَ فِي الْعَالَمِ جُنْدٌ أَقْوَى مِنَ الْعَدْلِ وَالْعَقْلِ... طُوبَى لِمَلِكٍ يَمْشِي وَتَمْشِي أَمَامَ وَجْهِهِ رَايَةُ الْعَقْلِ وَعَنْ وَرَائِهِ كَتِيبَةُ الْعَدْلِ إِنَّهُ غُرَّةُ جَبِينِ السَّلاَمِ بَيْنَ الأَنَامِ وَشَامَةُ وَجَنَةِ الأَمَانِ فِي الإِمْكَانِ."**[185] ويؤكد بهاء الله أيضا قاعدة 'العدل أساس الملك *justitia fundamentum regnorum*' بقوله: "إِنَّ خِبَآءَ نَظْمِ الْعَالَمِ يَقُومُ وَيَرْتَفِعُ على عَمُودَيْنِ: الْمُجَازَاةِ وَالْمُكَافَاةِ... **لِلْعَدْلِ جُنْدٌ وَهِيَ مَجَازَاةُ الأَعْمَالِ وَمُكَافَاتُهَا بِهِمَا ارْتَفَعَ خِبَآءُ النَّظْمِ فِي الْعَالَمِ وَأَخَذَ كُلُّ طَاغٍ زِمَامَ نَفْسِهِ مِنْ خَشْيَةِ الْجَزَآءِ"**[186]. وأيضا في قوله في لوح البشارات: "إِنَّ مُرَبِّي الْعَالَمِ هُوَ الْعَدْلُ لأَنَّهُ حَائِزٌ لِرُكْنَيِّ الْمُجَازَاةِ وَالْمُكَافَاةِ. وَهَذَانِ الرُّكْنَانِ هُمَا الْيَنْبُوعَانِ لِحَيَاةِ أَهْلِ الْعَالَمِ."[187]

ويصرّح بهاء الله بأن العدل والقانون هما أساس النظام الإجتماعي لا الرحمة. ولقد ألقى عبد البهاء مزيداً من الضوء على هذه المسألة بقوله: "وخباء الوجود قائم على عماد العدل لا العفو، وبقاء البشر منوط بالعدل لا بالعفو، مثلاً لو أنّ قانون العفو أجري الآن في عموم الممالك لاختلّ نظام العالم ولاندكّ بنيان الحياة الإنسانيّة من أساسه في وقت قريب... إذاً فليس مقصود حضرة المسيح من العفو والسّماح أنّه لو يهجم سائر الملل عليكم ويحرقون بيوتكم وينهبون أموالكم ويعتدون على أهلكم وعيالكم وأولادكم ويهتكون ناموسكم فعليكم أن تستسلموا لهؤلاء الجنود الظّالمين حتى يقوموا بالظّلم والاعتداء، بل إنّ حضرة المسيح يريد بذلك المعاملة الخاصّة فيما بين

---

[182] كتاب [مجموعة من ألواح...]، لوح أصل كل الخير –ص 85

[183] كتاب [لوح ابن الذئب]، النسخة الفارسية، ص 22 مترجما

[184] كتاب [مجموعة من ألواح...]، الكلمات الفردوسية، ص 85

[185] كتاب [منتخباتي...]، الفقرة 112

[186] كتاب [مجموعة من ألواح...]، لوح مقصود، ص 144

[187] المرجع السابق، لوح البشارات، ص 43

شخصين، فلو اعتدى شخص على آخر فيجب على المعتدي عليه أن يعفو، أمّا الهيئة الاجتماعيّة فيجب عليها المحافظة على حقوق بني الإنسان".[188]

ومع أن عبد البهاء يحض على الرحمة والشفقة بقوله: "اجهدوا بكل قلوبكم وأرواحكم لكي تعاملوا جميع البشر من دون استثناء بالمحبة والشفقة"[189]، إلا أنه أيضاً يرسم للشفقة حدودها عندما يردف هذا البيان بقوله: "لا يجوز إظهار الشفقة على الظالم أو الخائن أو السارق، فالشفقة تصير سبب طغيانهم لا انتباههم. ومهما أظهرتم الملاطفة للكاذب فإنه سيتمادى في الكذب اعتقادا منه في انخداعكم، والحال إنكم تعرفونه جيداً، ولكن الرأفة الكبرى تمنعكم من إظهار ذلك".[190] وهكذا يتضح جلياً أن السلوك في البهائية ليس 'حماساً مثالياً' وإنما هو سلوك يمكن تحقيقه عملياً في هذا العالم كنبراس للمعاملات اليومية. وبينما ينصحنا عبد البهاء في بعض المواقف بتوخّي 'الحكمة'[191] فهو أيضاً ذلك الإنسان الذي "يسلك سبيل الغيبيات بقدم الواقع".[192]

---

[188] كتاب [من مفاوضات...]، الفصل 75 ص 200 - 201

[189] وهنا وكما هو الحال مع بعض الفضائل، ينسحب مبدأ الاعتدال أيضا على فضيلة العدل والإنصاف، فإذا أجريت الرحمة (بحق المجرم) أكثر من اللازم فإنها تُفضي إلى تحكيم العاطفة عندما يكون تحكيم العقل هو الحل، وتؤدي إلى الفوضى التي ينجم عنها دمار إجتماعيّ (لاحظ أيضا ما سيلي في الفصل الثاني عشر تحت بند 'الاعتدال').

[190] كتاب [منتخباتي أز مكاتيب عبد البهاء]، المجلّد الأوّل، النص رقم 138 الطبعة الفارسية، ص 155، مترجماً.

[191] نص ورد في الفقرات الختامية لألواح وصايا عبد البهاء، كما يوصي بهاء الله الحكماء من ذوي العلم والمعرفة بأن يتكلموا "بكمال الحكمة" (كتاب [مجموعة من ألواح...]، لوح مقصود، ص 153) وكذلك يقول المسيح "كُونُوا حُكَمَاءَ كَالْحَيَّاتِ وَبُسَطَاءَ كَالْحَمَامِ" (متى 10: 16)

[192] وصف القس الأمريكيّ هاوارد آيفز Howard Ives الذي آمن بالبهائية بعد لقائه بعبد البهاء، في كتابه 'أبواب الحرية *Portals to Freedom*' عن ذكرياته مع عبد البهاء أثناء زيارته لأمريكا – وصف شخص عبد البهاء قائلا: "لم يكن عبد البهاء طوال حياته حالماً ومثالياً منفصلاً عن الواقع كما اعتقد البعض عنه. فمثلا عندما زار جامعة ليلاند ستانفورد ليلقي خطاباً في مجمع طلابها وأساتذتها قدمه عميد الجامعة دافيد جوردان بالكلمات التالية: 'إن عبد البهاء سوف يوحّد الشرق والغرب بكل تأكيد، إذ إن حضرته يسلك سبيل الروحانيات بقدم الواقع'". ص 242

معارضة إلغاء قانون العقوبات

ويفرض علينا ما عرضناه سابقاً من النصوص، أن نتناول أيضاً مسألة إجراء الدولة للعقوبات والأفكار والنظريات السائدة عن قانون العقوبات.[193] فقانون العقوبات في المجتمع السليم هو الدرياق الناجع الذي يضمن صيانة الحقوق القانونية، لأنه هو الملاذ الأخير *ultima ratio* الذي يعاقب على الجرائم الضارة بالمجتمع عندما تعجز سائر الهياكل الضبطية الأخرى عن منعها. بيد أنه يتعين على قانون العقوبات أن يعتمد على أنظمة ضبط وربط كائنة خارج نطاق القانون – أنظمة تضمن السلم الإجتماعيّ في مناحي الحياة الهامة. وهذه الأنظمة تنطوي على الدين في المقام الأول، ويليه بالضرورة أنماط السلوك والضمير، والأسرة بوصفها أهم عامل إجتماعيّ في حياة الجماعة. ثم يلي ذلك البيئة الاجتماعية المحيطة، كالمدرسة والجيرة والمجتمع المحلّي، وهذه الشبكة المتضافرة المنظّمة للسلوك – إذا ظلت سليمة – تعمل بصفة عامة على حماية الفرد من الخروج على القانون، وارتكاب ما تنفر منه عامة الناس – أي ارتكاب ما يسمى بالعمل الإجراميّ. بيد أن آليات الضبط والربط هذه، والتي من المفترض أن تلتف حول قانون العقوبات، قد أصابها العطب كما توضح الفقرة التالية للكاتب فالتر هوبتمان Walter Hauptman: "تسير عملية الهجرة المطردة من الريف إلى الحضر، وما لازمها من عملية إزالة الهوية من حياتنا وتزايد الترحال من موطن لآخر، جنباً إلى جنب مع تسارع التدهور في مكانة منظمات السلوك الواقية، كالتقاليد والأعراف والاخلاقيات والدين أيضاً. وعلاوة على هذا وذاك، فإن من الأمور المحبطة على وجه الخصوص ذلك الافتقاد الفادح لدَوْر الأسرة بوصفها عاملاً جامعاً ورابطاً في المجتمع، وأداة ضبط وربط أولية"[194]

ومع ذلك فإن الحاجة إلى التنظيم الاجتماعي تتزايد من جراء تصاعد حالات الصراع الاجتماعي. وهي مسألة تعطي لقانون العقوبات وظيفة 'فرقة إطفاء الحرائق'. إذ يتعين عليه أن يحل معضلات ما فسد من أنظمة الضبط المكملة لدور التشريع والقضاء، ويضمن السلم الإجتماعي.

---

[193] وهي التي استعرضناها في الفصل الثاني "نظرة متفرّسة في وجه عالم الغرب العلماني"، بند 'جنون البراءة'.

[194] في مقالة له بعنوان 'ما الذي بقي من علم الإجرام في قانون العقوبات؟ Was lässt die Kriminologie vom Strafrecht über?' نشرت في مجلة *Kriminalistik* المتخصصة في علم الإجرام العدد الأول عام 1980 ص 22

ومع أن قانون العقوبات قادر تماماً بطبيعة الحال على أن يكون الأداة المكملة لآليات الضبط الاجتماعيّ، إلا أنّه غير مؤهل لأن يحل محلها تماماً، وذلك مصداقاً للتساؤل الشهير 'ما فائدة القوانين الصمّاء في غيبة الأخلاق؟'[195] ونظراً لعجز قانون العقوبات على الوفاء بما هو منتظر منه، يرى الكثيرون أنه لا فائدة ترجى من هذا القانون كما شرحنا، وينادون بإلغاء النظام الجنائيّ بأكمله، ولكن دون استطاعتهم الإتيان ببديل آخر مقبول. ولذا فإن ذلك التوقع اليقينيّ بأن العالم سوف يمضي قُدماً على طريق التمدن والتهذيب، وأن الجريمة، التي هي ثمرة أوضاع لم يتم حلها بعد، ستتوارى في ظل هذا اللين والتسامح، أو بتعبير آخر: إن توقع حل مشكلة الإجرام نفسها بنفسها بمجرد إلغاء العقوبة وإقفال السجون[196] هو توقّع قد أثبت الاستدلال يوماً بعد يوم على كونه خيالاً أكثر منه حقيقة. فالارتفاع المستشري في معدلات الجريمة، وتفشي أعراض العودة إلى البربرية كما عرضنا من قبل[197] هي أمور تُظهر أن دوافع الفوضوية قد صارت أكثر انفلاتاً عما كان في الماضي. وذلك نتيجة تفكيك آليات الضبط الإجتماعيّ وإزالتها. أضف إلى هذا أن الدول الغربية صارت الآن تبدي نزعة نحو اللين والرفق والتفاهم والعطف في سنّها وتطبيقها للعقوبات الجنائية. وصارت نظرية 'العقاب بغرض إعادة التأهيل الاجتماعيّ' مهيمنة بشكل كبير، منحّية بذلك جانبا سائر الأهداف العقابية الأخرى مثل التكفير والتوبة، والتعويض عن الجرم، والردّع. حتى إن اللاهوت السلوكيّ في الكاثوليكية – وهو الذي ارتبط قرونا طويلة بنظرية التوبة والتكفير والأغراض العقابية البحتة، طبقاً لقاعدة أن 'الجريمة هي السبب في القصاص *punitur qui apeccatum est*' – قد أصبح الآن ميّالاً إلى إعادة نظر شاملة في النظام العقابيّ. ويرى أنصار هذا الاتجاه في الكنيسة الكاثوليكية أن ما أسموه بمبدأ 'التوفيق *reconciliation*' يجب أن يكون مقدّماً على فكرة الاعتراف بالذنب والتكفير عنه.[198] كما صارت الشكوك تثار الواحدة تلك الأخرى فيما يتعلّق

---

[195] نَصُّها اللاتيني هو *Quid leges sine moribus vanae proficiunt?*' وهي مقولة للشاعر الروماني هوراس Horace (مولود 68 قبل الميلاد، متوفي 8 ميلادية)، وردت في ديوانه 'القصائد الغنائية *Odes*'

[196] كما ذكرنا في الفصل الثاني "نظرة متفرّسة في وجه عالم الغرب العلماني"، بند 'جنون البراءة'

[197] الفصل الثاني '"نظرة متفرّسة في وجه عالم الغرب العلماني"، بند 'البدائل العلمانية'

[198] في المؤتمر الدوليّ لعلماء اللاهوت الألمان بمدينة ميونيخ عام 1979 نادي عالم اللاهوت مولينسكي W. Molinsky "بتقليل الإجراءات العقابية شيئا فشيئا لتحل

بالهدف من العقاب ومبرراته. فها هو هانز يواقيم شنايدر Hans-Joachim Schneider يقترح استبدال الآلية العقابية بما أسماه ‘آلية التعويض والوساطة’ ـ يحاول فيها فريق يتكون من القاضي ومستشاري الادعاء والدفاع، مضافاً إليهم كل من الجاني والمجني عليه وخبراء تقدير الضرر، تسوية النزاع بالاتفاق والتراضي. ويرى أن ‘معاملة المجرمين خارج أسوار السجون’ سيصبح هو الإجراء المتبع حيال الإجرام في المستقبل. ويقول أيضاً: "إن عصر قانون العقوبات، حتى ولو طالته يد التحديث، يشرف على نهايته من جرّاء عجزه عن المساهمة في إصلاح التدهور النفسيّ والاجتماعيّ – وهما مهد الجريمة وتربتها الخصبة".[199] بيد أن التطبيق المأسويّ لما يسمى بالنظام العقابيّ التقدميّ في بلد مثل السويد هو الذي أثبت أن الآمال العراض في تأهيل المجرمين قد باءت بالفشل. فبالرغم من توفير أكثر تجهيزات السجون وفرة، وتطبيق أكثر لوائح إجازات المسجونين سخاء، ومنحهم ميزة استقبال زيارات لا تخضع للرقابة بما يمنحهم فرصة لقاءات جنسية – فإن نسبة العودة للجريمة قد تزايدت، وزادت معدلات الجريمة زيادة مخيفة بدلاً من انخفاضها كما كان متوقعاً. وبينما كانت الدول الأوروبية طوال العقدين الماضيين ترمق السويد بنظرة إعجاب وشغف، ظناً منها أن تلك الدولة قد عثرت على إكسير علاج الإجرام، فها هم أهل السويد اليوم، بعد أن خاب أملهم وقد أفاقوا على هذه الحقيقة المرة، يجيلون البصر "عبر حدود بلدهم بحثاً عما لدى جيرانهم من حلول".[200]

محلها إجراءات المواءمة" – نفلا عن جريدة *Süddeutsche Zeitung* عدد 24 سبتمبر 1979

[199] في مقالة له بعنوان ‘معاملة المجرمين خارج السجون Behandlung in Freiheit’ نشرت في الدورية الألمانية ‘علم النفس اليوم *Psychologie Heute*] عدد 9 سبتمبر 1978

[200] تعليق لرودلف جيرهارد في صحيفة (*Frankfurter Allgemeine Zeitung*) عدد 19 يناير 1980، وتتجلى المكانة التي بلغها مبدأ التأهيل الاجتماعيّ للمجرمين من التقديس دون أيّ اعتبار لمبدأ العدالة بالقدر الذي انقلب فيه التأهيل من عقاب المعتدي إلى مكافأته – تتجلى في برنامج تأهيليّ للمنحرفين من الأحداث في السويد. إذ تُنظم الهيئات المسئولة عن العلاج التقويميّ سفريات سياحية باهظة التكاليف. منها مثلا رحلات عبر الصحراء الأفريقية الكبرى إلى غانا ونيجيريا، بينما لا يقدر المواطن الكادح المحافظ على القوانين أن ينال مثل هذه الأجازات الترفيهية. بل إن مجتمع مدينة فاستيراس Västeras بوسط السويد قد رتب لأن يقضي تلميذ عمره 16 عاما يدمن المخدرات مدة عامين بجزيرة سان فينسنت السياحية بالبحر الكاريبي لكي يقلع عن الإدمان. ودفع المجتمع من أجل ذلك مبلغ خمسة عشر ألف كرونة سويدية

ولأن العقاب – في ظل الأنظمة الإجتماعية المعاصرة وحدها – قد فقد كل صلة بالغيبيات، فقد استبُعِدت نظرية التوبة والتكفير عن الذنب عن ارتكاب الجريمة من القانون الجنائي. بل إن فكرة إنزال العقاب بغرض الردع قد صارت محل استهجان متزايد بوصفها فكرة لا إنسانية. فلم يبق من الأغراض العقابية سوى غرض واحد هو العقاب من أجل إعادة تأهيل المجرم اجتماعياً واستيعابه في المجتمع مرة أخري. ولأن الحقيقة التي باتت تتضح جلياً بمرور الأيام هي أن فكرة إعادة التأهيل والاستيعاب هذه قد تنجح مع المجرمين حديثي السن ذوي السابقة الأولي، ولكنها لن تجدي نفعاً مع ذوي الميول الإجرامية المتأصلة[201]، فقد صار النظام العقابيّ مرفوضاً برمته. ففي السويد، مثلاً، لا يوجد بديل لأحكام الحبس سوى علاج المجرمين خارج الأسوار وإحكام المراقبة الوقائية ووضع المجرمين المطلق سراحهم تحت الإشراف. ولكن النجاح المنشود لم يتحقق لأسباب واضحة كل الوضوح. ولا ينكر أحد في الوقت الحالي أنه كانت هناك تجاوزات وثغرات جسيمة في الماضي وأن هناك قدراً كبيراً من الإنجازات المعقولة والمفيدة يجري اتخاذها اليوم فيما يتعلق بمعاملة وتأهيل السجناء قبل الإفراج عنهم وبعده، وذلك بغرض استيعاب المخطئين وإعادتهم إلى صفوف المجتمع، وتقليل احتمالات رجوعهم إلى الإجرام. ولكن عندما تضفى القداسة على فكرة التأهيل والاستيعاب الإجتماعيّ وتُرفع إلى مصاف العبادات، وعندما تزداد المناداة يوماً فيوماً بإلغاء عقوبة السجن مدى الحياة، بدعوى أنه لا شيء سيبقى بعد ذلك في حياة المجرم لكي يتسنى تأهيله اجتماعيا، وعندما ينتهي الحال بالضحيّة إلى ما يشبه النسيان بسبب الانشغال الباكي بتفهّم الجاني وظروفه ودوافعه [202]؛ وكذلك عندما نتمادى

في العام أي ما يقرب من خمسة وسبعين ألف دولار في العامين (نقلا عن جريدة *Süddeutsche Zeitung* عدد 12 مارس 1982)

201 يشرح عبد البهاء الأهمية البالغة لتربية الأطفال منذ الصغر بقوله: "على الأمهات الاهتمام بتربية الأطفال والنظر في شأنها بعين الاعتبار، لأن الغصن طالما هو طريّ يمكن تربيته كيفما تشاء، وعليه يجب على الأمهات تربية صغارهن كما يربي البستانيّ أغراسه ويعتني بها". (من مصنّف التربية والتعليم مقتطف 63 ص 51) ومن هذا البيان يتضح أن محاولة تقويم مجرم بالغ السن قد احترف الإجرام تشبه محاولة تقويم جذع معوج من الشجرة كاملة النمو وهي مهمة عديمة الفائدة.

202 في تحقيق نشرته مجلة (ديرشبجل *Der Spiegel*) عدد 42 عام 1979 على الصفحات من 38 إلى 57 أوردت على لسان مسئول بارز في وزارة الداخلية بولاية بادن فرتمبرج قوله: "فور القبض على متهم بقتل سائق تاكسي، يرسل إليه باحث اجتماعيّ لتقصي مشاكله وأحواله الشخصية. أما زوجة القتيل فتترك لتواجه مصيرها بنفسها هي وأطفالها الثلاثة. فلا يرسل اليها أيّ موظف اجتماعيّ ليعينها فيما يتعين

فـي تخفيـف أحكـام السـجن بدرجـة تجعلهـا لا تختلـف كثيـراً عـن العـيش خارجه[203]، وعندما تتعامل الدولة مع الخـارجين على القانون بحنـان وكـرم متزايد – فلا يعجب المرء كثيـراً مـن جنـوح البربريـة الحديثـة إلـى العنـف المتزايد يوماً بعد يوم، وتزايد معدلات الجرائم بسرعة يصعب على المراقب ملاحقتها، هذا بينما نشاهد على الجانب الآخر، كما هو الحال في ألمانيا، ارتفاعـا فـي أصـوات الضـحايا التـي تنـادي بالقصـاص الـدمويّ مـن هـذه الشرذمة والعودة إلى صرامة قانون العهد النـازيّ.[204] بل تتعـالى الأصـوات المطالبة بإحياء محاكم ال *Vehm* التـي كانـت سائدة فـي القرون الوسطى[205] والعودة إلى عادة ‘قتل الغوغاء للمجرم فور ارتكابه الجريمة *Mob justice*’. ولقد كان فيرنر روس Werner Ross محقاً بقوله: "كلما أفرطت الدولة في التساهل كلما زادت شراسة وإجرام من لا يـأبهون بمعـايير السلوك المدنيـة والدينيـة"[206]، وقولـه أيضـاً بـأن الدولـة "لا يمكـن أن تبـدي التسـامح والشـفقة حيال المجرم نيابة عن إخوانه من بني البشر. فالدولـة شـعارها العـدل – أي تقدير الضـرر وإجراء التسوية العادلة".[207]

ولكن بهاء الله لم يترك لدينا أيّ شك في أن الجزاء هو أحد دعامـات نظام الحكم. بقوله: "وَخَيْمَةُ نِظَامِ الْعَالَمِ تَقُومُ وَتَرْتَفِعُ علـى عِمَـادَيْنِ الْمُجَـازَاةِ وَالْمُكَافَاةِ".[208] بيد أن الجزاء – رغم أنه عقاب اجتماعيّ ضروريّ – ما هو إلا عـلاج سـطحيّ يعجـز فـي النهايـة عن عـلاج المسببات الدفينـة للإجـرام.

عليها أن تقوم به من مساع هنا وهناك في المكاتب الحكومية للخروج من ورطتها المالية التي تتصدرها عادة تكاليف الجنازة. بل قد يكون أول ما تتلقاه من الدولة هو فاتورة أتعاب نقل جثمان المقتول من مسرح الجريمة إلى مشرحة الطب الشرعي".

[203] كما فعل المشرّع الألمانيّ في تعديل القوانين التي تنظم معاملة المسجونين مخففاً معظم القيود – كما هو واضح من نص المادة الثالثة من القانون الألماني للتعامل مع المجرمين

[204] كانت هناك في العهد النازيّ عقوبات على أتفه المخالفات مثل الإضرار ‘بأحاسيس الشعب الصحيّة’، بل لقد تمّ إبطال القاعدة القانونية القاضية بأنه ‘لا جريمة ولا عقوبة بغير نص *nullum crimen*، *nulla poena sine lege*’.

[205] محاكم الـ *Vehm* هذه كان من الممكن أن يحكم فيها على المتّهم بالإعدام وينفّذ الحكم في التوّ واللحظة.

[206] في مقالة له نشرتها جريدة نهري الراين والنيكار الألمانية *Rhein - Neckar - Zeitung*، عدد 20-21 مايو 1978

[207] المرجع السابق

[208] كتاب [مجموعة من ألواح...]، الإشراق الثالث من لوح الإشراقات، ص 25

وتوضيحاً لهذه المسألة يطالعنا بهاء الله بالبيان التالي في لوح الدنيا: "وُضِعَ فِي الْمَبَادِئِ وَالْقَوَانِينِ فَصْلٌ فِي الْقِصَاصِ لأَجْلِ حِفْظِ الْعِبَادِ وَصِيَانَتِهِمْ. وَالْخَوْفُ مِنْهُ يَمْنَعُ النَّاسَ عَنْ ارْتِكَابِ الأَعْمَالِ الشَّنِيعَةِ غَيْرِ اللاَّئِقَةِ عَلَنَاً فَقَطْ. بَيْدَ أَنَّ الأَمْرَ الَّذِي كَانَ وَمَا يَزَالُ سَبَبَاً فِي حِفْظِ النَّاسِ وَمَنْعِهِمْ عَنْ تِلْكَ الأَعْمَالِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ كِلَيْهِمَا هُوَ خَشْيَةُ اللهِ. وَهُوَ الْحَارِسُ الْحَقِيقِيُّ وَالْحَافِظُ الْمَعْنَوِيُّ".[209]

ولقد أوضح عبد البهاء بهذا الصدد أن القسوة والإيلام في إنزال العقاب بالمجرمين تسبب ضياع الأخلاق وتبديل الطبائع، وأن الحل الناجع هو في إصلاح أخلاق المجتمع وأن هذا الإصلاح يتأتى عن طريق إزالة الجهل الذي هو السبب في وقوع الجرائم، وبتربية العموم "تكتسب الفضائل والآداب وتُجتنب الرذائل حتى لا تحدث الجرائم".[210] وما يقصده عبد البهاء هنا لا يمتّ بصلة للمحاولات التي تجري الآن لعلاج المجرمين بوسائل علم النفس لإعادة استيعابهم في المجتمع. فالعيوب النفسية التي تؤدي إلى ارتكاب الجرائم هي عيوب سلوكية وأخلاقية، وليست أمراضاً يمكن علاجها كالأنفلونزا أو الملاريا. أما تأسيس الأخلاق فيتطلب تهذيباً سلوكياً، والشعور بالمسئولية الأدبية تجاه سلطة ربانية موجودة في السرّ والعلن، ولا يمكن لأيّ مجتمع أن يتجنّب كلية ما هو غيبي. أما المجتمعات التي لم تعد تؤمن بالغيبيات أو بأيّ سلطان إلهيّ فإنها لا يمكن أن تعطي هذا التهذيب والشعور بالمسئولية. وبهذا الخصوص أشار عبد البهاء إلى الفرق بين مدنية اليوم المادية والمدنية الروحية المقبلة بقوله: "إن المدنية المادية تردع الخلق من ارتكاب قبائح الأعمال بقوة القصاص وتمنعهم عن ذلك بواسطة القوانين الجزائية، ومع ذلك تلاحظ أن القوانين الجزائية وأحكام الزجر مستمرة في الانتشار دون أن تكون هناك قوانين للمكافأة، وأما المدنية الإلهية فإنها تربّي الناس بحيث لا يرتكب أحد جريمة إلا من شذّ ونَدَرْ، ولا حُكم على النادر، فشتّان إذن من أن تَمنَع الناس من القبائح والجرائم بواسطة الزجر والقصاص وشدة الانتقام، وأن تُربيهم وتنورهم وتهبهم روحانية، بحيث إنهم لا يتجنّبون الجرائم خوفاً من القصاص والزجر والانتقام فحسب، بل يعتبرون الجريمة نفسها نقمة كبرى وجزاءً عظيماً. وينجذبون إلى فضائل

---

[209] المرجع السابق، ص 110-111

[210] كتاب [مختارات من مفاوضات...] ص 201

العالم الإنسانيّ ويضحّون من أجل نورانية البشر وترويج الصفات المقبولة لدى عتبة الكبرياء (أي لدى الله سبحانه وتعالى) ."[211]

أي أن ما يرمي إليه عبد البهاء بهذه النصيحة هو أنه "يجب على الهيئة الاجتماعيّة أن تفكّر في تلافي وقوع الجرائم، لا أن تشدّد في عقاب المجرمين وتجري عليهم القصاص الشّديد. "[212]. ولكن من الملائم أن نجد في كل الحالات توازناً ما بين الشفقة والحزم، إلا أن هذا أمر منوط بإجراء العدالة بقصد إحداث التوازن في المجتمع.[213]

فالقانون والعدل والنظام هم إذن أس أساس ملكوت السلام الذي أتى به بهاء الله – ألا وهو الصلح الأعظم – ومجيء مملكة العدل والسلام ليس من قبيل أحلام المدينة الفاضلة التي لا تحكمها القوانين، وإنما هو نظام راسخ مبنيّ على ضوابط قانونية محكمة ومؤسسات تمارس ما لها من سلطة. نظام يمكن أن نعتبره حقاً رابطة شعوب عالمية إلهية التأسيس، يتوصل فيها ذلك النزاع الأبدي الناشب ما بين الحرّية والنظام إلى حلّه الأمثل.[214]

---

[211] كتاب 'منتخبات من مكاتيب عبد البهاء *Selections from the Writings of Abdu'l-Baha*، مقتطف 105 – الطبعة الإنجليزية - ص 129-130، وقد أخذت ترجمة هذا البيان من مجموعة نصوص [التربية والتعليم مع بعض التعديل] ص 26

[212] كتاب [من مفاوضات...]، الموضوع رقم 35 ص 202

[213] في المنظور الإسلاميّ يكون للعقوبات المفروضة والمنفذة تأثير غيبيّ تكفيري، بمعنى التكفير عن المخالفة أو الذنب لدى الخارج عن القانون. إذ يقول القرآن الكريم "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (البقرة آية 179). وفي مجموعة الأحاديث النبوية التي جمعها الترمذيّ تحت عنوان 'نوادر الأصول' الصادرة في اسطنبول لمطبعة دار صادر- بيروت ص 138 – ورد حديث شريف مفاده أن الله لا يوقع عقابا ثانيا على من أثم وعوقب في الحياة الدنيا. وهو نسخة غيبية من المبدأ القانونيّ الوضعيّ القائل بأن السابقة الواحدة 'لا تُثنّى'، أي لا يعاقب المجرم مرتين على جريمة واحدة. ولكن علينا ان ننظر إلى هذا المبدأ التشريعيّ بمنظور النصوص التشريعية القرآنية، والتي من حيث إنها شريعة سماوية هي جوهر العدل، فإنه لا شيء يرفع الذنوب عن كاهل المذنبين سوى القصاص.

[214] وهذا ما سيلي شرحه في الفصل الثالث عشر "المجتمع البهائي"، بند 'الهيكل التنظيميّ للمجتمع البهائيّ – ضرورته والغرض منه'. وهناك من علماء اللاهوت المسيحيين من يتوقع أن يكون الملكوت الموعود مملكة خالية تماماً من أيّ حكومة أو ضابط. ومنهم المفكر الكاثوليكيّ (جوزيف بلانك Josef Blank) في كتابه 'أخلاقيات المسيح *Die Ethik Jesu*' ص 176. بيد أنها فكرة عاطفية لا تنظر إلى ملكوت الله بوصفه هيكل يتبوأ فيه العدل موقعه المميّز. فالملكوت الموعود في العهد

بقيت كلمة نقولها بشأن مفهوم القانون في البهائية:[215] فالمبدأ الأساسيّ الفارق في البهائية هو ركن العهد والميثاق الإلهي، وهو ركن عرفناه مسبقاً من التوراة أو العهد القديم.[216] ويرمز هذا الرّكن إلى وعود الخلاص الإلهيّ التي جاءتنا عبر القرون بقوس قزح،[217] الذي هو صورة أثيرية تتكون من تلاعب أشعة الضوء بقطرات الماء بشكل يكاد ألا ينتمي إلى عالم المادة، فهو يرمز إلى يد غيبية تمتد إلى عالم الوجود، يد لا نتحسسها أو نلمسها وإنما نراها رأي العين. والميثاق الإلهيّ هو تعبير عن العلاقة المتبادلة بين الله والبشر، فالله **"يحبّ من توجه إليه"**[218] أو بتعبير

القديم (التوراة) الذي سيأتي بالسلام، هو مملكة قانون وعدل، مصداقاً لقول أشعياء النبيّ "فَيَسْكُنُ فِي الْبَرِّيَّةِ الْحَقُّ، وَالْعَدْلُ...وَيَكُونُ صُنْعُ الْعَدْلِ سَلاَمًا، وَعَمَلُ الْعَدْلِ سُكُونًا وَطُمَأْنِينَةً إِلَى الأَبَدِ. " (أشعياء 32: 16-17). كما أن الأحاديث النبوية في الإسلام تتكلم عن المهديّ الآتي على أنه ‘رجل يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلماً وجورا’ (نقله إلى الألمانية المستشرق ‘إجناز جولدت سيهر Ignaz Goldziher في مؤلفه ‘محاضرات في الإسلام *Vorlesungen über den Islám*’ ص 221)، وبأنه يحكم بشرع الله. فإجراء العدل بغير الحكم هو تناقض في المصطلح وهو ما يعبّر عنه القانونيون باللاتينية ‘*contradictio in adiecto*’. فالقانون والعدل لا يستتبان إلا في مجتمع قوامه الحكم.

[215] وقد تناولنا هذا المفهوم بشرح واف في مؤلفنا ‘النور يلمع في الظلام *The Light Shineth in Darkness*’ الطبعة الإنجليزية ص 93-100

[216] جاء ذكر العهد والميثاق الإلهيّ في التوراة كما في سفر التكوين وغيره، فمثلا: العهد مع نوح في الاصحاحين السادس والتاسع، والعهد مع ابراهيم في الإصحاحين 15 و17 وكذلك عهد سيدنا موسى في سفر التثنية، الإصحاح 5. كما ورد أيضا في أسفار الانجيل، مثل سفر أعمال الرسل الإصحاح الثالث، الآية 25 التي تتكلم عن العهد مع إبراهيم وذرّيته، والآية 26 عن عهد المسيح. وكذلك ورد في القرآن تصديق للعهد الإلهيّ مع إبراهيم وولده اسماعيل (سورة البقرة: آية 124و125)، والعهد مع آدم (سورة طه: آية 115) فضلا عما ورد في عديد من سور القرآن من نصح بأن توفي الناس بعهد الله ورسوله. كما أشار ‘الباب’ في قيوم الأسماء إلى العهد الإلهيّ بقوله: "وما أرسنا من نبيّ إلا وقد أخذناه بالعهد". (كتاب [منتخباتي أز آثار حضرة النقطة الأولى] المقتطف 45).

[217] وهو التشبيه الذي جاء في سفر التكوين كما يلي: "وَضَعْتُ قَوْسِي فِي السَّحَابِ فَتَكُونُ عَلاَمَةَ مِيثَاق بَيْنِي وَبَيْنَ الأَرْضِ...أَنِّي أَذْكُرُ مِيثَاقِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَ كُلِّ نَفْسٍ حَيَّةٍ فِي كُلِّ جَسَدٍ...مَتَى كَانَتِ الْقَوْسُ فِي السَّحَابِ، أُبْصِرُهَا لأَذْكُرَ مِيثَاقًا أَبَدِيًّا بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ كُلِّ نَفْسٍ حَيَّةٍ فِي كُلِّ جَسَدٍ عَلَى الأَرْضِ" (التكوين 9: الآيتين 13 و15)

[218] بهاء الله، كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 134

آخر "**أَحْبِبْني لأُحِبَّكَ**".[219] وبعد الإيمان بالله وعرفانه يأتي الانتقال لخطوة أخرى وهي أنه يجب علينا تنفيذ وصاياه المتمثلة في الشرع والقانون، مصداقاً لقوله تعالى في القرآن الكريم "وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ".[220]

والانصياع للقانون بغير التسليم الوجداني، أي عمل الصالحات بغير الإيمان، لا يؤدّي إلى الخلاص[221]، والإيمان بغير الأعمال خواء أجوف، ذلك لأن "**رَأْسُ الإِيمَانِ هُوَ التَّقَلُّلُ فِي الْقَوْلِ وَالتَّكَثُّرُ فِي الْعَمَلِ**".[222]

بيد أن مما لا يخفى على أحد أن الإنسان غالباً ما يقصّر في الوفاء بالشرع والقانون حتى مع كونه مؤمناً يخشى الخالق. فيقع في الخطأ ويصبح مذنباً، ولكن هذه الحقيقة لا تخوّل لنا أن نقلل من شأن القوة التهذيبية المخلصة الكامنة في القانون الإلهي، أو نعتبر الناموس لغواً لا فائدة منه،[223] ذلك لأن هناك شيء ما يمكن للخاطئ أن يقبله ألا وهو التوبة والاستغفار والرجوع إلى الصواب وكل من يعود إلى الصراط يجد الراحة والعزاء في هذه الكلمات الغاليات: "كل تجلٍّ واحد من تجليات اسمك الرحمن يزيل ويمحو رسم العصيان من الإمكان، ونسيم واحد من نسائم يوم ظهورك يزيّن العالم بخِلْعَة جديدة".[224] وبغير هذا فان استحقاق الإنسان لعفو الله ورحمته لا يأتي بالإيمان وحده، وإنما بالإيمان والعمل جنباً إلى جنب. وهنا يختلف مفهوم حرية المؤمن، كما يراه رائد الإصلاح المسيحيّ مارتن لوثر،[225] عمّا

---

[219] بهاء الله، الكلمات المكنونة العربية، الكلمة رقم 5

[220] سورة فاطر: آيه 7

[221] يقول عبد البهاء "إن أساس الفوز والفلاح هو عرفان الله – وهو الأصل – وبعد معرفة الله تأتي الأعمال الصالحة التي هي ثمرة الإيمان". (كتاب [من مفاوضات...] الموضوع 62 ص 176)

[222] بهاء الله، كتاب [مجموعة من ألواح...]، لوح أصل كل الخير، ص 135

[223] كما قال بولس الرسول ومن تبعه من علماء اللاهوت البروتستانت (مثل كلامه في الرسالة لأهل روميه، 7: آية 18 وما بعدها، والرسالة إلى غلاطيا، 2: آية 16) وذلك على الرغم من أن كتاب العهد القديم (التوراة) ينص بوضوح لا لبس فيه أن "عِنْدَ الْبَابِ خَطِيَّةٌ رَابِضَةٌ، وَإِلَيْكَ اشْتِيَاقُهَا وَأَنْتَ تَسُودُ عَلَيْهَا " (سفر التكوين 4: آية 7)

[224] بهاء الله – الدعاء رقم 160 من مجموعة [مناجاه]، ص169، والأصل فارسيّ

[225] في كتابه ‘حرية مؤمن مسيحيّ *Freedom of a Christian*’ تحدّث مارتن لوثر عام 1520 عن مسيحيّ "متحرر من كل شيء، وفوق كل شيء، بالدرجة التي لا يحتاج معها للقيام بأيّ عمل صالح ليكون صالحا وخالصا". ص 356، وتكلم كذلك عن "مسيحيّ يؤهله ويخلّصه الإيمان بفضل من محض رحمة الله الطاهرة".

هو في البهائية. فحرية المؤمن في البهائية ترتبط في المقام الأول بطاعة الله من خلال إجراء الأحكام[226] وتنال قداستها بمقتضاه، تماماً كما يقول الإنجيل :"لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَقُولُ لِي: يَارَبُّ، يَارَبُّ! يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ"،[227] وأيضاً "إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ فَاحْفَظِ الْوَصَايَا".[228] ولهذا فإن الكتابات البهائية تقدّر الشرع السماويّ حق قدره، ولا تتكلم عنه بأنه إرادة إلهية تحكميّة تسعى إلى كبت الفطرة البشرية وقهرها، بل هي شرائع وأحكام – كما تطالبنا هذه الكتابات – "ليست فرضاً لإرادة أو بسطاً لنفوذ أو إرضاء لمزاج، وإنما هي إحقاق للحقيقة وإعمال للعقل وإجراء للعدل والإنصاف"[229] وهي أيضاً، كما يقول بهاء الله في الكتاب الأقدس (على لسان الله سبحانه وتعالي)، **"سرج عنايتي بين عبادي ومفاتيح رحمتي**

ص360. كما يخرج علينا مارتن لوثر باستنتاجه القائل "من الواضح إذن أن المسيحيّ يحظى بكل ما يحتاجه في الإيمان، ولا يحتاج للأعمال كي يثبت أهليته للخلاص، وإذا كان غنيا عن الأعمال يكون أيضا مستغنيا عن الناموس، بل هو بالقطع في حريّة من الناموس...تلك هي الحرّية المسيحية، التي هي عين إيماننا، والتي لا تغرينا بالعيش في بطالة أو شرّ وأذى، وإنما تجعل الإنسان في غنى عن الأعمال والناموس لكي ينال صلاحه وخلاصه" ص 349 – 350. ويتجلّى شطط موقف مارتن لوثر من هذه المسألة المصيرية في نصيحته الشهيرة التي أسداها لمن يدعى ميلانكثون Melanchthon بقوله ‹ارتكب المعصية بشجاعة، ولكن اجعل إيمانك أكثر شجاعة! *Pecca fortiter, sed fortius fide!*› وذلك على الرّغم من تحذير المسيح بأن العظيم في ملكوت السماوات لن يكون من يكسر الناموس بل ‹من عَمِلَ وعلّم› [إنجيل متى 5: 19] وكذلك على الرّغم أيضا من قوله الذي لا لبس فيه "إن أحبّني أحدٌ يحفظ كلامي" أضف إلى ذلك قوله "الذي لا يحبّني لا يحفظ كلامي" [إنجيل يوحنا 14: 23 – 24] وكذلك قوله عن صعوبة دخول الأغنياء إلى الجنّة بسبب عدم إنفاقهم على الفقراء [إنجيل متى 19: 16 – 24] وحضّه للمؤمن على عمل الخير بأن ضرب لنا مَثل السامرّائيّ الصالح [إنجيل لوقا 10: 30 – 36]

[226] لا يسع المجال هنا أن نفصل الأوامر والنواهي المحكمة التي ينص عليها التشريع البهائيّ كما جاء في الكتاب الأقدس- الذي سنشرح مكانته في الفصل الثاني عشر "‹الإنسان الجديد" تحت بند ‹الميزان – ذلك المعيار الجديد›. إلّا أن الصلاة المفروضة والصوم هما دُعامتا شرع الله فيما يتعلق بواجبات المؤمن الفرد – كما جاء في الكتاب الأقدس وشروحه.

[227] انجيل متى 7: آية 21

[228] إنجيل متى 19: آية 17

[229] عبد البهاء، كتاب ‹أحاديث باريس *Paris Talks*›، نقلا وترجمة عن الطبعة الانجليزية فصل 47 ص 154

لبريّتي"[230] وهي **"السّبب الاعظم لنظم العالم وحفظ الامم"**[231]. ولهذا السبب فإن الحرّيّة الحقيقية هي **"في اتّباع أوامري لو أنتم من العارفين... قل الحرّيّة التي تنفعكم إنها في العبودية لله الحقّ والذي وجد حلاوتها لا يبدّلها بملكوت ملك السموات والأرضين."**[232] فالناموس هو تجلٍّ لفضل الله المقتدر القدير الذي شاء أن يأخذ بيد الإنسان ليرشده إلى الغاية الحقيقية من حياته ووجوده. أي كما يقول بهاء الله (في إحدى مناجاته لله): **"وكل ما أمرتَ به عبادَك من بدائع ذكرك وجواهر ثنائك هذا من فضلك عليهم ليصعدُنّ بذلك إلى مقرِّ الذي خُلِق في كينوناتهم من عِرْفان أنفسِهِم"**.[233]

---

[230] الكتاب الأقدس فقرة 3

[231] الكتاب الأقدس فقرة 175

[232] الكتاب الأقدس فقرة 125

[233] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 1

الفصل الحادي عشر

مسؤوليّة الإنسان

في مسألة الموت

الانسان هو المخلوق الوحيد الذي يعلم أن حياته على هذه الدنيا مآلها المحتوم هو الموت، وقد عبّر عالم اللاهوت الأول في المسيحية القديس أوغسطين عن هذه الحقيقة بقوله 'كل شيء غير مؤكد، أما الموت فهو مؤكد*Incerta omnia, sola mors certa* ' كما تطالعنا أشعار قديس العصور الوسطى غال St. Gall بشطرة تقول 'في قلب الحياة يحمل الإنسان علامة موته *Media vita in morte sumus*' ، فهل من أمل للإنسان فيما وراء حاجز الموت هذا؟

وتتوقف الإجابة عن سؤال ما إذا كان موات طبيعتنا الجسدية يعني أيضاً هلاك حقيقتنا الروحية أم أنه خطوة نحو مرحلة أخرى من مراحل الوجود على نظرتنا للحياة، كما تعتمد أيضا على إجابة سؤال آخر أساسيّ هو 'ما هو الانسان؟ '. وبما أن فلاسفة عصرنا العلمانيّ قد أعلنوا عن موت الله فإن الساحة تكون قد خلت للعلم الحديث وفلسفات العصر لكي ترسم الإيديولوجية التي تحبّها الناس.

وهذه النظرة العلمية تميل إلى اختصار الانسان وقصْره على العناصر والخواص البيولوجية والكيميائية والتشريحية. فلا يكون الموت من ذلك المنظور سوى حادثة بيولوجية، والنهاية الختاميّة المطلقة المتعذر تغييرها لوجود الإنسان، وبناء عليه أصبحت مسألة الحياة بعد الموت غير واردة. بيد أن العلم قادر فقط على الاستقصاء عن خاصية واحدة من خواص الانسان – وهي الخاصية المادية الجسمانية، ولكنه عاجز في الوقت نفسه أن يستكشف الجوهر الكامن في النفس أو الروح البشرية. ولا تُحلّ مسألة الموت بالوسائل المادية المعتادة كالتحليل العقلانيّ أو البحث العلمي. كما أن الأبحاث التجريبية لن تجدينا نفعاً هي الأخرى – فالتجارب العلمية في مسألة الموت أمرٌ مُحال. ولا يستطيع العلم إلا "توقُّعِ حدوث الموت أو

البحث فيما يجري (للجسد) بعد حدوثه. فالعلم عاجز عن مواجهة الموت وجها لوجه."[1]

وبوسع الفكر الفلسفيّ أن يجعل من خلود الانسان مسألة محتملة ومعقولة – وهي ما فعله الفلاسفة بالفعل طوال قرون عديدة. فقد استنبط أفلاطون فلسفة للخلود ما زالت متداولة حتى وقتنا الحاضر وهي الفلسفة القائلة بأن روح الإنسان خالدة، والموت تحرير لها من قفص الجسد. ولقد نقل توماس الاقويني في مؤلفاته عن تعاليم أفلاطون في خلود الروح على ضوء ما أدخله عليها أرسطو من تعديلات. غير أن الفلاسفة لا يسعهم سوى التخمين والاجتهاد في مسألة الموت ولا يمكنهم استنباط أية معرفة مبنية على خبرتهم التجريبية بشأنها. وهكذا صار من خاصية الفلسفات المعاصرة امتناعها عن الخوض في أية مسألة غيبية وتوجهها نحو التشكك الجذري[2]. ولا تعود مسألة الموت موضوع بحث لدى أصحاب هذا المنحى الفكريّ. فالغيبيات قد استُبدلت بالعلوم المادية، ولم يعد من الممكن للمقولات الفلسفية عن الموت أن تُصاغ بمعزل عن المعرفة التي تتأتى بواسطة الأساليب العلمية. وهذه الحقيقة تنسحب على قول الفيلسوف ولتر كاملا Walter Kamlah "الموت كارثة يتوقف من جرائها مخلوق كان يعيش لفترة من الزمان عن الحياة إلى الأبد، وهي كارثة ستُلمّ إن عاجلاً أو آجلاً بكل كائن حيّ بما في ذلك الإنسان".[3]

وفضلاً عن ذلك، فإنه بالنظر إلى فكرة ‘موت الله’ لا يكون من المستغرب أن تصبح فكرة الحياة بعد الموت غير مثيرة للاهتمام لدى الكثيرين شيئاً فشيئاً. كما أقصيت جانباً مسألة المصير وماهية الموت وفحواه – مثل التساؤل عن أصل النوع البشريّ ومعنى الحياة – وأخرجت من

---

1 قول للكاتب إبرهارد يونجل Eberhard Jüngel في مقالته ‘الموت كواحد من أسرار الحياة Der Tod als Geheimnis des Lebens’ المنشورة في مجموعة من تقديم أنزجار باوز Ansgar Paus نشرت في كتاب له بعنوان ‘تجربة على حافة الموت *Grenzerfahrung Tod*’ ص10

2 يرى الفيلسوف ‘فيلهلم فايشيدل Wilhelm Weischedel’ أن على كل فلسفة أن تمارس قاعدة الشك الجذريّ إذ يقول: "كل شيء يطالعنا بأنه حقيقة نلقي به في هذه الدوامة، وكل ما يتراءى وكأنه اليقين والتأكد نحطّمه. فعصرنا يجب أن يُنظر إليه على أنه زمن التشكك الكامل". (في كتابه ‘منهاج الشك *Skeptische Ethik*’ ص 39-35

3 في كتابه تأملات في الموت *Meditatio mortis* ص 12 وما بعدها

وعينا الباطن.[4] ويعجب المرء كيف لا يكون للموت مكان في فكر الإنسان وهو ذلك الحدث المصيريّ الذي لا ينفك ولا ينفصل عن حياة كل فرد دونما أيّ استثناء. فها هو الاعتقاد بخلود الروح يختفي باختفاء الاعتقاد في الله،[5] وصار الناس لا يشعرون بالراحة لسماع مصطلحات مثل 'الحياة بعد الموت' أو العالم الآخر، في عالم معاصر يناصب العداء للغيبيات وفيه لا يرغب الإنسان في سماع أو معرفة أيّ شيء عن الموت.[6]

وبينما يكون إدراك المؤمن أن 'الحياة قصيرة'[7] مذكّراً له بزوال الماديات المحتوم، وبقِصَر الوقت المتاح له لكي يؤدي ما عليه من واجب، فإن هذه الحقيقة تكون بالنسبة لمعتنقي الأفكار العلمانية الحديثة – الذين يحيون للّحظة العابرة فقط ولا يستوعبون فكرة وجود هدف في الحياة يتخطى حاجز وجودنا الماديّ – مبرراً للانغماس الزائد في ملذات الدنيا والتمتع حتى الثمالة مثلما يقول الفيلسوف الاغريقيّ أبيكوروس Epicurus: "لا يعنينا الموت في شيء طالما أن الشخص على قيد الحياة فالموت غير

---

4 راجع أيضا مؤلف ماكس شيلر Max Scheler 'الموت والحياة بعد الموت، *Tod und Fortleben*'وكذلك كتاب 'جورج شيرر Georg Scherer' المعنون 'مسألة الموت عند الفلاسفة *Das Problem des Todes in der Philosophie*' ص 24 وما بعدها

5 والعلاقة بين الاعتقاد بالله والاعتقاد بخلود الروح يشرحها 'فيورباخ Feuerbach' بقوله: "إن الاعتقاد بالخلود الشخصيّ مطابق تماما للاعتقاد في إله مُشخّص. ومبدأ خلود الروح هو غاية تعاليم الأديان ووصيتها التي تضمنها رغباتها الأخيرة" من مؤلفه 'خلاصة المسيحية *The Essence of Christianity*' الطبعة الإنجليزية، الفصل الثامن عشر ص 171-173

6 ولكن هناك ثمة تغير تدريجيّ في هذا النهج، فإن التساؤلات عن أصلنا ومآلنا صارت تتزايد يوما بعد يوم كما هو جليّ في عدد من الكتب التي نشرت مؤخرا في ألمانيا لمؤلفين مثل يوهانز هيمليبين Johannes Hemleben و آنزجار باوز Ansgar Paus وجورج شيررGeorg Scherer وأيضا ما صدر عن دور نشر في أماكن أخرى من العالم لمؤلفين من أمثال الفرنسيّ فيليب آريس Philippe Aries، وهناك دليل آخر إلى التعطش المتزايد لمعرفة المزيد عن خلود الروح، وهو ردود الفعل على التقارير التي نشرت حديثا عن تجربة الفراق المؤقت للروح عن الجسد (في حالات الموت الاكلينيكيّ التي يعود بعدها الانسان إلى الحياة). وعلى الرغم من أن هذه التقارير التي كتبها من مارسوا هذه التجربة مثيرة للاهتمام. الشديد إلاّ أنها لا تمثل دليلاً قاطعا على وجود حياة بعد الموت.

7 وحسبما يقول الفيلسوف الروائيّ الرومانيّ سينيكا Seneca باللاتينية *De brevitate vitae*

موجود. وعندما يكون هناك الموت فالشخص بذاته غير موجود".[8] وما يعبر عنه هذا الفيلسوف هو مصداق لشعار ‘فلنأكل ونشرب لأننا غدا نموت’[9]. وشعار ‘نحن ومن بعدنا الطوفان *Après nous le deluge!*’[10] وبينما أصبح القتل والموت قتلاً خاصية متأصلة في مجتمعنا المعاصر، تقوّيها بلا هوادة مناظر العنف على شاشات السينما والتلفزيون، فقد صار الموت الطبيعيّ مستهجنا، بل وتوقف الناس عن التفكير فيه. وأصبح المشهد الأخير المكتوب على كل مخلوق هو إيداعه في غرف المستشفيات والمصحّات التي لا يجد من يرقد على أسرّتها في انتظار النهاية أنيساً يبدد وحشته[11]، فصار الموت (والحياة أيضاً) خواء يخلو من أيّ معنى. ولم يعد الموت في المفهوم الفلسفيّ أو حتى الدينيّ يرمز إلى خلود الروح وإنما صار، مثله مثل " الموت الطبيعي" عنواناً للأبحاث التي تهدف إلى إطالة الحياة بالوسائل المادية، وأجهزة الكلى والقلوب الصناعية، والموت بغير ألم، والمساعدة على الانتحار بدافع الرحمة *euthanasia*، وأصبح فرصة للحانوتية لإظهار براعتهم التجميلية في إخراج جنازة جميلة. بيد أن هناك – على الجانب الآخر – شواهد تدل على أن مسألة الموت لا يمكن كبتها طويلاً دون عواقب وخيمة. فالخوف من الموت – كما يقول عالم النفس هايدجر Heidegger – هو حالة جذرية تؤثّر في حياتنا بأكملها. وأثبت التحليل النفسيّ أنه هو السبب الكامن وراء عدد كبير من حالات الاضطراب العصبيّ والنفسيّ. ويقول أخصائي الطب النفسانيّ آكيم سايدل Achim Seidl "في كل حالة من حالات الاضطراب العصبيّ يكمن احتجاج قويّ في

---

[8] وهو قول حاكاه الشاعر الروماني تايتوس لوكرتيوس Titus Lucretius في ديوانه ‘في طبيعة الأشياء *De rerum nature*’ الفصل الثالث، رقم 830، عندما قال: "فالموت لا شيء إذاً، ولا يعنينا مثقال ذرة".

[9] أشعياء 22: آية 13، وردها بولس الرسول في رسالته الأولى لأهل كورنثوس الاصحاح 15 آية 32 بقوله "إِنْ كَانَ الأَمْوَاتُ لاَ يَقُومُونَ، «فَلْنَأْكُلْ وَنَشْرَبْ لأَنَّنَا غَدًا نَمُوتُ! »"

[10] قول منسوب لمركيزة بومبادور (تعرف أيضا بمدام بومبادور، محظية ملك فرنسا لويس الخامس عشر)

[11] كُتب الكثير عن مشاعر الوحشة التي تنتاب من هم على فراش الموت عندما يهجرهم الأهل في المستشفيات، ولكن أكثرها تأثيرا مقالة للكاتبة اليزابيث كويبلر Elisabeth Kuebler بعنوان الموت البشريّ ‘Menschlich sterben’ في كتاب آنزجار باوز المشار اليه في الحاشية رقم (1) أعلاه، ص 339 وما بعدها

العقل الباطن على فكرة الموت القاسية"[12] بل يميل المرء إلى استنتاج أن كبت مسألة الموت هو أحد أسباب شيوع سهولة الاصابة بالاضطراب العصبي. ويحدونا هنا تساؤل عمّا إذا كان بمقدور الانسان أن يحيا حياة مثمرة ومفيدة بأيّ حال من الأحوال بينما هو يستبعد من حياته التفكير في الموت. وهو تفكير يرى جورج شيرر Georg Scherer أنه 'أحد' الوسائل التي تمكن الانسان من التواؤم النفسي، ومن تبيّن أنه قادر على العيش في أيّ وسط اجتماعيّ ممكن، وأن ذاته 'لا تختفي بكل بساطة في الهياكل والعلاقات الاجتماعية.'[13]

عن الحياة الدنيا بوصفها استعدادٌ للحياة الأخرى

لقد كان أشد الأسرار ظلمة – أي الموت – دائماً أبداً شأناً يستأثر به الدين. ولكن، وعلى الرغم من عدم إفصاح الكتابات المقدسة للأديان الإلهية عن ماهية هذا السرّ وكنهه بصورة كاملة[14] فإنه لا يكون مسألة ثانوية بأيّ حال من الأحوال. فباختلاف نظرتنا للموت تختلف حياتنا اختلافا جذرياً.[15] ولقد احتلت فكرة موت الإنسان واستمرار كيانه في عالم آخر مكانة القلب من الإيمانيات في سائر الأديان. ويصل الفيلسوف الفرنسيّ 'بليز باسكال

---

[12] في كتابه 'فلسفة علم النفس *Psychosophie*'، ص 17، وهي نتيجة توصل اليها أيضا الكاتب جيون كوندراو Gion Condrau في مقالة له بعنوان الخوف من الموت والاشتياق اليه 'Todesfurcht und Todessehnsucht' نشرت في كتاب من تقديم آنزجار باوز ص 202– أشرنا اليه في الحاشية (1) أعلاه

[13] في كتابه 'مسألة الموت لدى الفلاسفة *Das Problem des Todes in der Philosophie*' ص 18-19

[14] والشيء نفسه يقال عن الكتابات البهائية التي لم تكشف هي الأخرى عن سر الموت وحياة الروح من بعده، إذ يقول بهاء الله (مترجما) "إن أسرار الموت والعود مستورة"، كتاب [منتخباتي...] المقتطف 165. (كما أوضح شوقي أفندي صعوبة كشف هذا السر ونحن ما زلنا بعد في هذه الحياة الدنيا قائلا: "إن جواب هذا السؤال لم يسبق أن رد عليه أيّ من الأنبياء والرسل بالتفصيل لسبب بسيط وهو صعوبة تصور شيء في ذهن الانسان لم يره أو يشاهده من قبل. لقد أعطانا حضرة عبد البهاء مثالا جيدا لعلاقة هذا العالم بالعالم الآخر بالجنين في رحم الأم...وإذا حاولت تفهيم الجنين ماهية عالمنا هذا فإنه لا يستطيع الفهم...وعلى هذا فإننا لا نستطيع تصور وضعنا في العالم الآخر". نقلا عن كتاب [الكنوز الإلهية]– الفصل 64 –'الموت والروح والعوالم الأخرى'– ص 452 [المترجم]).

[15] وهو ما توصل اليه أيضا الفيلسوف جورج شيرر في كتابه المشار اليه في الحاشية 13 أعلاه، ص 3

Blaise Pascal في كتاباته للاستنتاج التالي: "إن خلود الروح أمر على غاية الأهمية لنا، وهو أمر يؤثر فينا بعمق شديد. وعلى المرء أن يكون فاقداً لكامل مشاعره كي لا يهتم بمعرفة حقائق هذه المسألة. ومن المحتم أن نسلك بتصرفاتنا وأفكارنا دروباً متباينة كهذه حسبما يكون لدينا أمل في نيل بركات غير متناهية أم لا، وما إذا كان باستطاعتنا أن نتصرف بوعي وحُكم سليم من عدمه، وما إذا كانت مسألة خلود الروح هذه تتحكم في تصرفاتنا، وما إذا كنا سنجعل منها غاية آمالنا ومنتهاها".[16] وهو نفس الاستنتاج الذي توصل إليه أيضا الفيلسوف آرثر شوبنهاور Arthur Schopenhaurسالكا طريقاً مختلفاً عن ذلك تماماً عندما قال: "هناك نقطتان لا تعنيان كل إنسان له عقل يفكّر به فحسب، وإنما يؤمن بهما أيضاً أتباع كل دين أكثر من غيرهما من العقائد، وعليهما تُبنى قوة الدين واستحكامه، وأول هاتين النقطتين هو المغزى الأخلاقيّ الغيبيّ لسلوكنا، وثانيهما هو استمرار وجودنا بعد الموت. فإذا ما اعتنى أيّ دين بهاتين النقطتين صار ما عداهما أموراً ثانوية"[17]

ويعِدُنا الدين البهائيّ – شأنه في ذلك شأن سائر الأديان – بوجود حياة فيما وراء عتبة الموت. وعلى الرغم من تركيز البهائية على تنظيم الحياة الدنيا، إذ إنها دين يُظهر الالتزام والاهتمام بالحياة الدنيا وشؤون هذا العالم، ولديها أهداف مدنية واجتماعية تتجلى في سعيها إلى تأسيس نظام اجتماعيّ عادل وإنساني، وإلى تحقيق وحدة الجنس البشريّ – إلا أن كل مؤمن بها على علم دائم بأن هذا العالم ما هو إلا طريق يؤدي إلى عالم آخر، واستعداد للانتقال إليه، ويدرك البهائي أنّ على الانسان – بوصفه مخلوقاً قدّر لحياته الخلود – أن ينال الخصائل الفردية التي سيحتاج إليها في مراحل وجوده التالية بعد أن تبدأ رحلته الروحيّة في الملكوت.

وتخبرنا كل الأديان بحقيقة أن روح الإنسان مخلوقة من الله وأنها تعود إليه بعد الوفاة. كما يطالعنا القرآن بالآية الكريمة "إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ

---

16 في كتابه 'الأفكار *Pensées*'، الجزء الحادي عشر الفقرة 899 – صفحة 194 من الطبعة الفرنسية، ص 156 من الطبعة الانجليزية.

17 في مؤلفه 'الأعمال الثانوية المهملة *Parerga and Paralipomena*'، المجلد الأول ص121. واذا توخينا الصدق فإن رأي شوبنهاور هذا مبالغ فيه: فما اسماه 'ما عداها' لا تعتبره البهائية بأيّ حال من الأحوال 'أمورا ثانوية'، إذ يقول بهاء الله: "أول الأمر هو عرفان الله" (مجموعة [أمر وخلق]، المجلد السادس ص 3). كما يقول 'الباب': "إعلم أن أول الدين هو معرفة الله" (من كتاب الدلائل السبعة – تضمنته مجموعة [منتخباتي از آثار حضرة النقطة الأولي] ص 83)

رَاجِعُونَ"[18] وتشارك البهائية سائر أديان العالم الأخرى في القول بأن الجسد قفص، وأن الحياة الدنيا حالة من المعاناة والصقل الروحي (من خلال التجارب والامتحانات الدنيوية) تنتهي بالوفاة. وهو نفس الاعتقاد الذي أقر به العديد من الفلاسفة منذ القدم وحتى القرن التاسع عشر، إذ رأوا أن الحياة الدنيا هي بمثابة مرحلة الجنين لوجودنا، وأن الموت ليس هو النهاية، بل هو الولادة إلى حياة جديدة، وهو تحوُّل "تخرج فيه الحياة الأخرى من الحياة الدنيا، كخروج الفراشة من الشرنقة"[19]

ويشرح لنا عبد البهاء[§] أن موت الجسد لا ينسحب على الروح، إذ يقول: "فمثل قولنا بفناء الروح بعد موت الجسد كمثل تصورنا بهلاك طير بسبب تكسّر قفصه... وإذا لو تكسّر القفص فالطير باق ومستقر. بل في الحقيقة إنه ينتقل من الجحيم إلى جنة النعيم". بيد أن عبد البهاء يشدد على حقيقة أن الروح لا تسكن في جسد الانسان ذلك لأن الروح "مجرّد ومقدس عن الدخول والخروج، اللذين هما من شأن الأجسام، بل تعلق الروح بالجسد كتعلق الشمس بالمرآة. فإذا انكسرت المرآة. حُرمت من أشعة الشمس".[20] وبهذا الصدد يتعين علينا أن نتناول بالشرح فكرتين مرتبطتين بمسألة الموت شائعتين بين الملايين من البشر، أولاهما فكرة تناسخ الأرواح[21] الشائعة بين الهندوس والبوذيون وعديد من فلاسفة القدماء[22] وهي فكرة يندهش الإنسان

---

[18] سورة البقرة الآية 156

[19] يوهانز لوتز Johannes Lotz في مقالة بعنوان ‘الموت’ في كتاب ‘أ. باوز A. Paus’‘الفكر الفلسفي *Grenzerfahrung Tod*’ ص 79 من المجموعة المشار اليها آنفا في الحاشية رقم (1)

[§] وهناك أيضا بيانات كثيرة لبهاء الله في مسألة الحياة بعد الموت جُمع بعضها في كتاب [الكنوز الإلهية، مبادئ وتعاليم الدين البهائي]، إعداد وترجمة عبد الحسين فكري، دار النشر البهائية في البرازيل، نوفمبر 2005. – الفصل 64 ص 441 وما بعدها [المترجم]

[20] كتاب [من مفاوضات...] الفصل 58 ص 167-169

[21] يُطلق مصطلح التّناسخ على الاعتقاد بحلول الروح في جسد مخلوق جديد أرقى مما كانت فيه، كما يطلق مصطلح التّواسخ على الاعتقاد بحلولها في جسد مخلوق أدني، راجع عبد البهاء في كتاب [من مفاوضات...] الفصل 79، وكذلك في كتاب ‘وصفة للحياة *Prescription for Living*’، لروحية رباني، الطبعة الانجليزية ص 73-75

[22] أمثال فيثاغورث وأبيدقليس (كما ذكره آرثر شوبنهاور Arthur Schopenhauer في مؤلفه ‘الأعمال الثانوية والتفاصيل المهملة *Parerga and Paralipomena*’، المجلد الأول، ص 36

لكونها أصبحت تلقى قبولاً في عالم الغرب من جديد، كما توجد هذه الفكرة أيضاً في التفسير المسيحيّ والاسلاميّ للقيامة على أنها قيامة الأموات من القبور بلحمهم ودمهم في يوم الدينونة. وكلا المفهومين مرفوضين تماماً طبقاً لصريح النصوص البهائية.

فالإنسان يحيا في الحياة الدنيا بهيئته المادية مرة واحدة فقط ينال فيها الصفات الروحية التي سيحتاجها في عوالم الله بعد موت جسده، ومفهوم الحياة بعد الموت هنا ليس عن دورة ميلاد جديد بالجسد مرة أخرى (كما يقول من يعتقدون في قيام الأموات من القبور) أو دورات متعاقبة غير متناهية يتكرر الميلاد في كل دورة منها لكل المخلوقات (كما يعتقد الهندوس والبوذيون وقدماء الفلاسفة)[23] فالعالم الآخر ليس مستودعاً للأرواح الذي تأتي منه لهذا العالم، ولا وجود لقيام الأموات بالجسد يوم الحساب، ورغم استحالة هذا الاعتقاد علميا، إلاّ أنّه يحظى بالمناصرين له في الأوساط الفقهية الإسلامية كما هو الحال في الأوساط اللاهوتية المسيحية في الغرب.[24] ولكن تبقى حقيقة دامغة، وهي أن ما يقال من إعادة تجميع الجسم بعناصره وخلاياه – وهي فكرة تخالف كل عقل ومنطق – لتعود فيه الروح مرة أخرى، هو أمر لن يتحقق بمعناه الحرفيّ أبداً.[§]

فالاعتقاد الدينيّ بقيام الأجساد (من القبور) مبنيّ على خطأ جوهريّ في التفسير (المسيحيّ) وقع فيه المفسرون المسلمون أيضاً، وهو أن كل ما ذُكر في الكتب السماوية من 'موت' و 'حياة' مقصود به الموت والحياة

---

[23] يتناول الكاتب البهائيّ جمشيد فوزدار في مؤلفه 'ظهور بوذا *Buddha Maitrya Amitabha has appeared*'، طبعة نيودلهي عام 1976 – يتناول بإسهاب اعتقاد أديان الشرق الأقصى في التناسخ ويرد على هذا الاعتقاد من وجهة النظر البهائية.

[24] يوهانز لوتز Johannes Lotz – نفس المقالة والمرجع المشار اليه في الحاشية (19) أعلاه، ص 82

[§] لا أدَلَّ على عدم وجود لحياة القبر أو ما يسمّى بالحياة البرزخية ولعودة الروح إلى الأرض مرة أخرى أوضح من الآية القرآنية: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ" (الانشقاق: آية 6)، فهي تشير إلى رحلة روحية تمضي بعد مفارقة الروح للجسد في خط مستقيم لا عودة منه أبدا. أما محاسبة الإنسان عما فعل أو أخفق في فعله فهو أمر يتم فور وفاته دون انتظار آلاف السنين حتى "تقوم القيامة"، كما يقول الحديث الشريف: "إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته". ونظرا لأن هذا الحديث يهدم أفكار غالبية الفقهاء المعتقدين بغير ذلك، فكان أسهل طريق للخروج من هذا المأزق هو إنكار صحة هذا الحديث، وسنورد سنده في الحاشية Σ من نفس هذا الفصل (بعد الحاشية رقم 63). [المترجم]

الجسمانيين[25] بيد أن كلام المسيح "دع الموتى يدفنون موتاهم"[26] كاف لجعل الناس أكثر حذراً في تفسيرهم الحرفيّ لكلمتي ʻالموتʼ و ʻالحياةʼ.

ولقد وضّح بهاء الله في كتاب الإيقان المعنى الباطنيّ الحقيقيّ للموت والحياة، سواء في التوراة والانجيل أو القرآن[27]. وما أحب أن أوجزه هنا هو أن مقصود الكتب السماوية بالحياة والموت هو الحياة بالإيمان والموت بالكفر.[28] أما ʻالبعثʼ أو ʻالخلق الجديدʼ فهو الولادة الروحية الثانية التي تهب الإنسان حياة حقيقية، أو كما قال بهاء الله في معرض شرحه لهذه المسألة: "والخلاصة أنَّك لو رُزقت قليلاً من زلال المعرفة الإلهيّة لعرفت بأنَّ الحياة الحقيقيّة هي حياة القلب لا حياةُ الجسد، لأنَّ في حياة الجسد يشترك جميع النّاس والحيوانات. أمّا هذه الحياة فهي مختصّة بأصحاب الأفئدة المنيرة، الّذين شربوا من بحر الإيمان، ورزقوا من ثمرة الإيقان. وهذه الحياة لا يعقبها موت، وهذا البقاء لا يلحقه فناء، كما قال [الرسول الكريم]ʻ**المؤمن حيٌّ في الدّارين**ʼ". [29] كما يزيد بهاء الله هذه النقطة شرحاً بقوله: "وخلاصة المعنى هو أنَّ العباد الّذين ولدوا من روح المظاهر القدسيّة، وحَيُوا من نفحتهم في أيّ ظهور يصدق عليهم حكم الحياة والبعث

---

[25] ولقد انضم بولس الرسول إلى من فسّروا المقصود بالموت والحياة في الانجيل تفسيرا حرفيا – مثلما كتب في رسالته الأولى لأهل كورنثوس– الاصحاح الخامس عشر بأكمله، والاصحاحات 20-21-22-27-45-55

[26] انجيل متى 8:22، انجيل يوحنا 8:25، وكذلك قول الله تعالى في القرآن الكريم في حق حمزة عم الرسول (ص) في مقارنة بين حياة روحه في الفردوس الأعلى بعد استشهاده في غزوة أحد وبين حياة أبي جهل سواء في الدنيا أو في الآخرة: "أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا". سورة الأنعام :122

[27] أي الحياة الروحية والموت الروحيّ مصداقا للآية الكريمة "وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ" (سورة فاطر :22) وهو ما تناولناه بالإيجاز آنفا في فصلنا السادس ʻما هو الحقʼ الحاشية رقم 4

[28] كتاب الإيقان، ص 89 وما بعدها

[29] المرجع السابق ص 94، (ويطالعنا القرآن الكريم بقوله: " وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ". سورة آل عمران: 169. [المترجم]).

والورود في جنّة المحبّة الإلهيّة. وما عداهم من العباد يصدُق عليهم حكم آخر، هو الموت والغفلة، والورود في نار الكفر والغضب الإلهيّ."[30]

أما 'اليوم الآخر' و 'يوم الحساب' فهو مجيء المظهر الجديد، والنفخ في الصور (أو البوق) الذي ورد ذكره في كل من الإنجيل والقرآن فهو نداء بهاء الله الذي يجلجل لكل من في السماء والأرض، فيوم البعث هو الخلاص الإلهيّ الذي جاء به – خلاص يجدد نفوس العباد روحيّاً ويحييها. إنّ 'اليوم الآخر' حدثٌ روحيّ[31] يؤثر في حياة الجنس البشريّ بأكمله، بينما تجد كل روح بشرية منفردة 'يوم قيامتها' الخاصّ بها حين وفاتها.[§β]

كما أن رجوع الإنسان لخالقه لا يعني أن روحه قد صارت جزءً من 'روح العالم' كما يظن المعتقدون في التناسخ ولا يعني فقدانه لذاته كنفس منفردة لها كيانها الخاص. والحقيقة إن نفس الإنسان وذاته تظل محفوظة ويبقى الإنسان مدركاً كيف عاش حياته الدنيا وماذا فعل فيها. فالروح الإنسانية هي في جوهرها 'آية إلهية' و "**جوهرة ملكوتية. عجز كل ذي علم عن عرفان حقيقتها، وكل ذي عرفان عن معرفتها**"[32] وبعد فراقها للبدن تدخل عالم الملكوت "باللّطافة التي نالتها في الحياة الدنيا"[33] فإن آمنت بالله فهي "منسوبة إلى الحق وراجعة إليه، وما عدا ذلك فهي منسوبة إلى الهوى وراجعة اليه"[34]

---

[30] المرجع السابق ص 92، وهذا المفهوم في البعث موجود أيض في كتابات 'الباب'– إذ يقول: "**والموت حقّ لمن يمت بظهوره...والبعث من مراقد الإحياء كيف يشاء**". كتاب [منتخبات من آثار حضرة النقطة الأولى] ص 222

[31] كما سنشرحه في الفصل الثاني عشر "الإنسان الجديد" تحت بند ''الميزان' - ذلك المعيار الجديد'.

[§β] بالإضافة إلى الحديث الشريف الذي سقناه في الحاشية §β (فيما سبق من هذا الفصل) والحاشية Σ (فيما سيلي منه)، هناك الوعد الذي أعطاه المسيح للسارق الذي كان معلّقا على صليب بجانبه، وآمن به قائلاً :«اذْكُرْنِي يَارَبُّ مَتَى جِئْتَ فِي مَلَكُوتِكَ». فَقَالَ لَهُ المسيح: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِي فِي الْفِرْدَوْسِ» - إنجيل لوقا 23: 42-43 [المترجم]

[32] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 82 ، ص 107

[33] كتاب 'أحاديث باريس*Paris Talks*'، الفصل رقم 20، ص 66، مترجما عن الانجليزية

[34] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 82، ص 107

والحياة في العالم الآخر ليست حياة توقّف وخمول وإنما هي حياة حركة دائبة فيها الترقي والسموّ، والتوقف أو عدم السموّ في ذلك العالم هو 'عين الدُنوّ' كما يقول عبد البهاء.[35] والروح كما يشرح بهاء الله **"يصعد حين ارتقائه إلى أن يحضر بين يدي الله في هيكل لا تغيّره القرون والأعصار ولا حوادث العالم وما يظهر فيه. طوبى لروح خرج من البدن مقدساً عن شبهات الأمم إنه يتحرك في هواء إرادة ربّه ويدخل في الجنة العليا".** [36] ولكن بهاء الله يوضح أن حال الروح بعد موت الجسد **"لا يوصف ولا ينبغي أن يذكر إلاّ على قدر معلوم"**[37] وأن الروح "يحضر بين يدي الله بهيكل يليق بالبقاء وبذلك العالم"[38] وبينما يستطيع الإنسان في هذا العالم الماديّ أن يسعى إلى الخلاص ويتطهّر بأعماله مستعينا بالفضل الإلهي (خلافاً لتعاليم مارتن لوثر)، إلا ان رقيّه في عالم الروح يكون كما يشرح عبد البهاء "إمّا بالفضل الصّرف والموهبة الرّبانيّة أو بطلب المغفرة والأدعية الخيرية من سائر النّفوس الإنسانيّة أو بسبب الخيرات والمبرّات العظيمة الّتي تُجرى باسمه."[39]

ومن آمن بالله وآياته وعمل الصالحات يَصْدُق في حقه قول بهاء الله **"جعلت الموت لك بشارة"**[40] كما يقول القرآن "وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَاَ..."[41]، "... لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّاَ سَلَامًا"[42] وإن كُشِفت أسرار الموت والرّجوع للناس وعَرف المؤمن الصادق مقامه في العالم الآتي "يهلك البعض من الخوف والحزن ويفرح البعض على شأن يطلبون الموت في كل آن من الله جل جلاله".[43] كما يقول بهاء الله إنّ الموت باب للحياة الأبديّة ويشرح حال المؤمنين بعد الموت قائلا إن "الموت للموقنين بمثابة

---

[35]كتاب [من مفاوضات...]، الفصل 60، ص 172

[36] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 81، ص 105

[37] المرجع السابق، نفس المقتطف، ص 106

[38] المرجع السابق

[39] كتاب [من مفاوضات...]، الفصل 63، ص 177

[40] الكلمات المكنونة العربية، الكلمة رقم 32

[41] سورة العنكبوت: آية 58

[42] سورة مريم: آية 62

[43] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 165 ص 222

كـأس الحيـوان، يهـب الفـرح والسـرور ويمـنح الحيـاة الدائمـة"[44] أمـا المحرومـون مـن نعمـة الإيمـان فمقدر لهم أيضـا بقـاء أرواحهم بعـد ممات الجسد ولكنهم يرِدون عـالم الـروح وهم محـرومين مـن الفيض الإلهـيّ – إذ يقول بهاء الله "واما ارواح الكفار لعمري حين الاحتضـار يعرفـون مـا فـات عنهم وينوحـون ويتضـرعون وكذلك بعد خـروج ارواحهم من ابدانهم".[45] ولكن عبد البهاء يشرح أن بـاب الفضـل والعفو الإلهـيّ يظلّ مفتوحـا أمـامهم بقوله: "يمكن للّذين ماتوا في المعصية وعدم الإيمان أن تتغيّر حـالهم، يعنـي يصبحون مظاهر الغفران وهذا بفضل الله لا بعدله، لأنّ الفضل إعطاء بدون استحقاق والعدل إعطـاء باستحقاق... كذلك يمكنهم أن يلتمسوا الغفران... بالتّضرّع والابتهال... ولا سيّما إذا كانت الشّفاعة من المظاهر المقدّسة. "[46]

وتوضح بيانات بهاء الله توضيحاً كاملا أن هناك تفاوتاً فـي درجـات النفوس في العـالم الآخر، إذ تكون في "مقام منوط بايقـان وأعمـال النفـوس": "إن النفوس التـي هـي علـى درجـة واحـدة مطلعـون علـى قدرات وكيفيـات وانجازات ومقامات بعضهم البعض، وأما تلك النفوس التي تقع علـى درجـة أدنى فهم يطّلعون على مراتـب ومقامـات النفوس الأعلـى علـى قدر مقدور. **لكلٍّ نصيبٌ عنـد ربّك**". [47] كمـا تشير النصـوص البهائيـة إلـى طبيعـة عـوالم الرّوح مبيّنة "إن جميع العقول والأفئدة متحيّرة ومبهوتـه فـي هذا المقـام، **مـا اطّلـع بهـا الاّ اللهَ وحـدَه**". [48] وتشـرح أيضـاً "إن فـرق هذا العـالم عن العـالم الآخر مثل فرق عالم الجنين وهذا العالم".[49]

ولقد تنـاول عبد البهـاء هذا التشبيه – أي تشبيه الحيـاة الدنيا بحيـاة الجنين – بمزيد من الشرح إذ يقول: "والإنسان في بدء حياته كـان فـي عـالم الرّحم وفـي عـالم الرّحم حصـل علـى الاستعداد والقابليّـة للارتقـاء إلـى هذا العالم. أي أنّه حصـل فـي ذلك العـالم علـى القوى الّتـي يحتـاج إليهـا فـي هذا العالم. ففي ذلك العالم حصل على العين الّتي يحتاج إليها في هذا العالم. وفي

---

[44] المرجع السابق

[45] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 86،

[46] كتاب [من مفاوضات...]، الموضوع رقم 59، ص 171

[47] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 86 ص 113، كما جاء أيضا في القرآن الكريم: "انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا" (الاسراء :21)

[48] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 82

[49] المرجع السابق، المقتطف 81 ص 106

عالم الرّحم حصل على الأذُن الّتي يحتاج إليها في هذا العالم. وفي عالم الرّحم حصل على جميع القوى الّتي يحتاج إليها في هذا العالم. وفي عالم الرّحم تهيّأ لهذا العالم فلما جاء إلى هذا العالم رأى أنّ جميع القوى الّتي يحتاج إليها مهيّأة له ورأى أنّ جميع الأعضاء والأجزاء الّتي يحتاج إليها للحياة في هذا العالم قد حصّلها في ذلك العالم (أي في عالم الرّحم). إذا فكذلك يجب عليه أن يهيّئ لنفسه في هذا العالم ما يحتاج إليه في العالم الآخر. وكلّ ما يحتاج إليه في عالم الملكوت يجب أن يهيّئه في هذا العالم. فكما أنّه حصل في عالم الرّحم على القوى الّتي يحتاج إليها في هذا العالم فكذلك يجب عليه أن يحصل في هذا العالم على كلّ ما يحتاجه إليه في عالم الملكوت أي جميع القوى الملكوتيّة. ففي عالم الملكوت بعد الارتقاء من هذا العالم إلى العالم الآخر ترى إلى أيّ شيء يحتاج وإلى أيّ قوى يفتقر؟[50] إنّ ذلك العالم هو عالم التّقديس وعالم النّورانيّة ولهذا يجب أن نحصل على التّقديس والنّورانيّة في هذا العالم. وفي ذلك العالم نحتاج إلى الرّوحانيّة وتلك الرّوحانيّة يجب أن نحصل عليها في هذا العالم. وفي ذلك العالم نحتاج إلى الإيمان والإيقان ومعرفة الله ومحبّة الله ويجب أن نحصل عليها جميعًا في هذا العالم حتى يرى الإنسان في ذلك العالم الباقي أنّه حصل على جميع ما يحتاج إليه في تلك الحياة الأبديّة."[51]

في مسألة الانتحار

إذا كان المراد بحياتنا الدنيا هو الترقي لكي يكون لنا نصيب في عالم الأنوار الآتي – عالم المحبة والإنصاف[52] فإنه من السهل علينا أن نفهم

---

[50] إلّا أن الجحيم والنعيم (أو النار والجنة) ليست منازل يحلّ فيها من انتقلوا للعالم الآخر وانما هما مثالان وتشبيهان لحالة من القرب الروحيّ من الله في ظل رضائه (في حالة الجنة) والبعد عنه وعدم رضائه (في حالة النار). ولقد تناول بهاء الله بالتفنيد مسألة اعتراض علماء المسلمين – من الذين يفسّرون الكتاب بحرفه – بانه طالما لم يروا الجنة والنار رأي العين فلا يكون يوم الميعاد قد حلّ، ومن ذلك قوله: **"قل أين الجنة والنار؟ قل الأولى لقائي والأخرى نفسك يا أيها المشرك المرتاب * قال إنّا ما نرى الميزان * قل أي وربي الرحمن لا يراه ألا أولو الأبصار"**. (نصّ عربيّ من [لوح ابن الذئب] الطبعة الفارسية ص97). وللمزيد راجع كتاب الإيقان الذي يتناول هذه المسألة وغيرها من التشبيهات التي وردت في التوراه والانجيل والقرآن.

[51] من خطبة ألقاها عبد البهاء أثناء زيارته لأمريكا في نيويورك في 6 يوليو 1912، وردت في كتاب [خطب...] ص 329-330

[52] سبق وأن نوّهنا أن الهدف من حياتنا لا ينحصر في بحثنا الأنانيّ عن خلاص أنفسنا دون غيرنا من البشر.

لماذا كان الانتحار دائماً أبداً محرّما عند الله ويُنظر اليه بوصفه خطأ جسيم[53]. فالانتحار ينمّ عن غياب احترام الحياة التي هي عطية ومنحة من الله، وهو أيضاً "تصرّف يكشف عن ضعف في الإيمان". فمن يقضي على نفسه يقصّر الفترة التي بإمكانه أن يعكف فيها على اكتساب الكمالات والفضائل بأعماله وبذلك يوصد الباب بينه وبين الفرصة التي وهبها الله له لترقّيه.[54] فلا يكون مستغرباً أن ترتفع الأصوات المنادية بالحق في الانتحار يوماً بعد يوم بدْءً من عصر التنوير الأوروبي.[55] ولا نندهش أن نجد علماء اللاهوت المسيحيّ في يومنا الحاضر يزدادون احترازاً عن التنديد به. وليس أدل على تغيّر المواقف والأراء من مسألة الانتحار من حقيقة أن علماء سويديين نادوا بتدبير عيادات طبية للانتحار يتوجه اليها من سئموا الحياة ليجهزوا على أنفسهم تحت اشراف طبّي. وهي مطالبة وجدت صدى لها في دولة الدانمارك المجاورة. بل إن البرلمان الانجليزيّ قد ناقش في الآونة الأخيرة مشروع قانون يقترح اتاحة الفرصة للمرضى اليائسين من الشفاء أن يطلبوا إنهاء حياتهم في عيادات خاصة يتحمل فيها صندوق التامين

---

[53] مصداقا لقول القرآن الكريم: "وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ على اللَّهِ يَسِيرًا" (النساء: 29 – 30)، وكذلك قول بهاء الله في حق من أقدم على الانتحار في ظروف نفسية صعبة "**نسأل الله تبارك وتعالى أن يغفر للمذكور ويبدّل سيئاته بالحسنات إنه لهو المقتدر العزيز الوهاب**" ([لوح ابن الذئب] الطبعة الإنجليزية ص 81 – 82، وهذا النّص عربيّ الأصل). كما أن الانتحار ممنوع أيضا في قوانين الكنيسة الكاثوليكية Canon Law (can 1240)، وفي سلوكيات المذهب البروتستانتي، وهو أمر مدحور ومذموم أيضا في البوذية واليهودية. ويجدر بالذكر هنا أن نقول أن تضحية الانسان بنفسه طواعية من أجل الآخرين عند الاستشهاد هي أمر يقاس بمعايير تختلف تماما عن مسألة الانتحار.

[54] تماما كما يَحْرِم الاجهاض الجنين من فرص النمو والترقي جسمانيا وروحيا

[55] كما فعل مونتسكيو Montesquieu، وفولتير وشوبنهاور، مثلما هو موضح في الموضوع المعنون 'في مسألة الانتحار' من مؤلف شوبنهاور المشار اليه تحت الحاشية رقم (17) أعلاه المجلد الثاني، الفصل الثامن، ص 306 وما بعدها – الطبعة الانجليزية. أما الفيلسوف الماديّ نيتشه فقد كره الموت وقال في حقه "أنه يتسلل الينا كلصّ رغم أنه يأتينا كالسيد الآمر الناهي." غير أن نيتشة امتدح ما أسماه 'بالموت الطوعي' (ويقصد به الانتحار) الذي قال عنه "أنه يأتيني لأنني أريده" (في مؤلفه 'هكذا تكلم زرادشت *Thus Spake Zarathustra*'، باب 'الموت الطوعي *Voluntary Death* ' الجزء الأول ص 75– الطبعة الانجليزية. أما جان ايمري Jean Améry فقد نادى بالحق في الانتحار في كتابه 'الانتحار *Hand an sich legen*' طبعة شتوتجارت عام 1976.

الصحيّ نفقات هذا الانتحار.[56] ولو أن مثل هذه المطالبات لم تجد قبولاً من العامة إلا أنها علامة مقْنِعة على تفشي هذه الأفكار*، وضياع المفهوم الدينيّ في الحياة البشرية، وفقدان الإيمان بوجود عالم آخر تحيا فيه الروح بعد موت الجسد. وهي تُفصح أيضاً عن وجهة نظر ترى أن الحياة ما هي إلا حدث يبدأ بالولادة وينتهي بالوفاة. ولم لا؟ فإذا ما دخل الفرد قبره دفن كيانه معه، وإذا ما هلكت الروح بهلاك الجسد فإننا نكون بصدد موقف جميل ومدهش يعبّر عنه جين آمري Jean Amery بقوله: "ستكون لدينا فرصة حقيقية ألاّ نُجبَر على العيش في عالم يثير اشمئزازنا. " أو بقوله "لن نرغَم على الحياة التي هي أقصى صنوف الخضوع والتسليم قساوة". فالمناداة بالانتحار هي في نهاية المطاف المآل المنطقيّ لحركة الانعتاق التي صارت علامة عصرنا الحديث الفارقة. فالموت، ذلك الحدث المحتوم على كل واحد منا، (عندما يحدث في المكان والزمان المقدّرين للإنسان على غير علم مسبق منه)، يكون في نظر أنصار تولّي الانسان لزمام نفسه بصورة كاملة وتقريره المطلق لمصيره أكبر نقيض لحرية الإنسان الشخصية. ويرون أن الإنسان ينال حريته الخالصة عندما يموت "في لحظة يختارها هو بنفسه".[57] وهذا المنحى الفكريّ ما هو لا التبعة النهائية لعبادة الإنسان لنفسه. الإنسان الذي يرغب في أن يجعل من نفسه إلهاً[58] بل ويتحكم أيضاً في الحياة

---

[56] ذكرها إرفين رينجل Erwin Ringel في كتابه 'الانتحار والمساعدة عليه *Suizid und Euthanasie*' ص 277 وما بعدها. وتطالب المنظمة الانجليزية المسماه EXIT على وجه الخصوص بتقنين الانتحار للراغبين فيه.

* ولكن ما لم يكن مقبولا لدى العامة عندما كتب الدكتور أودو شيفر هذه السطور صار أمرا واقعا في غضون عشر سنوات فقط، إذ صدرت أول تشريعات في العالم تسمح بالمساعدة طبيا على انتحار الميؤوس من شفائهم بولايات شمال استراليا عام 1995 وتبعتها ولاية أوريجون الأمريكية عام 1997، ثم حذت حذوها ولايات أمريكية أخرى بلغ عددها أربع ولايات بحلول عام 2015. أما الدول التي صارت تسمح بالإنتحار تحت الإشراف الطبي في كامل أراضيها فهي هولندا وبلجيكا ابتداء من 2002، وهناك منظمات "إنسانية" تساعد المرضى الميؤوس من شفائهم على الانتحار في ألمانيا وسويسرا بالالتفاف حول القوانين وبطريقة تستدرّ شفقة القضاء فلا تكون هناك مساءلة. [المترجم]

[57] على حد قول هيربرت ماركيوز Herbert Marcuse في مؤلفه تيروس والمدنية *Eros and Civilization* الطبعة الانجليزية، ص 237

[58] كما ذكرته التوراه على لسان الحية التي أوحت لآدم وحواء بالمعصية الأولى، إذ قالت "يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ (أي الثمر المحرم) تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ" (سفر التكوين 3: 5)

والموت. وما التزايد المطّرد في الانتحار في الدول الصناعية في كل من الغرب والشرق[59] إلاّ الحصاد المعنويّ للمادية والعدمية.

ساعة الصدق: الموت

وإذا ما كانت الحياة الدنيا سبيلاً نعبره واستعداداً لحياة في عالم الروح، وكان الموت 'باباً مؤدياً' لتلك الحياة، فعندئذ يتجلى لنا أن كيفية العيش في الحياة الدنيا لا تكون مسألة لا تعنينا في شيء. فالإنسان مسئول عن تصرفاته وأعماله (في الحياة الدنيا) كما تشهد بذلك كل الكتابات المقدسة لأديان العالم العظيمة. إذ تطالبنا تعاليم بوذا بأن هناك أمريْن "يتبعان الإنسان كظله" عندما يحين أجله وهما "ما فعله من خير وشر"[60] وانه لا يستطيع الفكاك من شر أفعاله وأفكاره كما تقول هذه التعاليم "لا في السماء ولا في قطب البحر، ولا في صدوع الجبال إن دخلناها، ولا أيّ مكان معلوم في أيّ جهة من جهات العالم يستطيع فيه الإنسان الاختباء من شر فعله"،[61] وتنصح تعاليم بوذا بأن "يتزود الانسان بزاد جيّد ليحيا في مكان آخر، ويجهّز لنفسه مكاناً أميناً في عالم آخر منتظر، حيث يكون للبرّ جزاءٌ توعَد به النفوس الطيّبة".[62]

أما المسيح فيقول أن 'فَاعلى الإِثْم' سوف يجمعون من ملكوته ويطرحون في أتون النار و"هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الأَسْنَانِ" و "يُضِيءُ الأَبْرَارُ كَالشَّمْسِ فِي مَلَكُوتِ أَبِيهِمْ. مَنْ لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ، فَلْيَسْمَعْ"[63] وكذلك يشير القرآن إلى ما يحدث للإنسان عندما يموت و 'تقوم قيامته'[Σ] بقوله:

---

[59] طبقا للإحصاءات التي واكبت وضع إرفين رينجل Erwin Ringel لكتابه المشار إليه في الحاشية 56 أعلاه، يقضي الف نفس في العالم نحبَهم كل يوم بفعل الانتحار، اما محاولات الانتحار فكانت ثمانية أضعاف ذلك العدد (ص 241 وما بعدها).

[60] كتاب *Samyutta-Nikaya* الجزء الأول ص 98

[61] كتاب *Dhammapada* الفقرة 127

[62] كتاب *Samyutta-Nikaya* الجزء الأول ص 98

[63] انجيل متى 13: 41-43

[Σ] التبس على فقهاء الإسلام مشهد القيامة الجماعيّ الذي هو وصف رمزيّ لما يحدث للأمم عندما يأتيها رسول جديد وتُدعى كل أمة منها إلى كتابها، فخلطوا بينه وبين القيامة الخاصّة (الصغرى) التي تَحدث عند موت الإنسان الفرد، فابتكروا ما أسموه بالحياة البرزخية وحياة القبر التي لابد للميت، حسب ظنهم، أن يدخلها انتظارا لمشهد القيامة الجماعيّ هذا. وأكبر دليل على بطلان هذا التصور هو وصف القرآن لرحلة

"وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا* اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا."[64] كما يقول بهاء الله ما معناه أن الموت ساعة الصدق: "ولكلّ عملٍ جزاءٌ عند ربِّك".[65] ويقول أيضاً "إن الأنبياء والمرسلين أتوا لهداية الخلق إلى الصراط المستقيم الحقّ وهدفهم تربية العباد حتّى يقصدوا الرفيق الأعلى بكل تقديس وتنزيه وانقطاع حين صعودهم".[66]

فعلى الناس أن يكونوا دائماً أبداً على وعي بأن ساعة الموت هذه آتية لكل إنسان لا محالة – فكما يخاطبنا بهاء الله بقوله "**حاسِبْ نَفْسَكَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبَ، لأَنَّ الْمَوْتَ يَأْتِيكَ بَغْتَةً وَتَقُومُ على الْحِسابِ فِي نَفْسِكَ**"[67] ويأمرنا أيضا بقوله "**انْصِبْ مِيزَانَ اللهِ فِي مُقَابَلَةِ عَيْنِكَ ثُمَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ فِي مَقَامِ الَّذِي كَأَنَّكَ تَرَاهُ ثُمَّ وَزِّنْ أَعْمالَكَ بِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ بَلْ فِي كُلِّ حِينٍ، وَحَاسِبْ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبَ فِي يَوْمِ الَّذِي لَنْ يَسْتَقِرَّ فِيهِ رِجْلُ أَحَدٍ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وتَضْطَرِبُ فِيهِ أَفْئِدَةُ الغَافِلِينَ**"[68] كما يذكّرنا أيضاً بأن كل صالح وطالح فَعَله الإنسان في هذه الحياة الدنيا لا يعزُب عن علم الله الحَكَم العادل بقوله في الكلمات المكنونة "يا أيّها الغافلون لا تحسبوا أنّ أسرار القلوب مستورة بل اعلموا علم اليقين أنّها سُطرت بالخطِّ الجليِّ وأنّها ظاهرة في ساحة حضرته."[69] وكذلك قوله "يا أحبائي أقول لكم الحق إن كلّ ما

الإنسان بقوله "يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ" (الانشقاق: 6)، فلا مجال للتوقف في هذا الكدح المتواصل، كما يوضّح الرسول الكريم ما يحدث لكل نفس عند الوفاة إذ يقول «الموت القيامة، إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته، يرى ما له من خيرٍ وشرّ» - وهو حديث أخرجه أبو نعيم في ‘الحلية’ (268-267/6)، وابن عساكر في تاريخه (214/37)، وأورده الديلمي في ‘مسند الفردوس’ (1117/285/1). وقاله العجلوني في ‘كشف الخفاء’ (151/1 ط- دار الكتب العلمية): [أخرجه العسكري عن أنسٍ...]، ومع ذلك يشكك الفقهاء في صحّة هذا الحديث لمخالفته لمفاهيمهم.[المترجم].

64 سورة الاسراء: 13 - 14

65 كتاب [مجموعة من ألواح...]، سورة الوفاء، ص 178

66 كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 81، ص 105 – 106، عن ترجمته العربية في كتاب الكنوز الالهية 64، باب الموت والروح ص443-444

67 الكلمات المكنونة العربية، الكلمة رقم 31 ، راجع أيضا انجيل متى 7: 19 - 23

68 سورة الملوك، كتاب [ألواح...إلى الملوك والرؤساء]، ص 121، ووردت أيضا في كتاب [منتخباتي...]،المقتطف رقم 114، ص 152

69 الكلمات المكنونة الفارسية، الكلمة رقم 59

سترتم في قلوبكم واضحٌ لدينا وضوح النّهار وظاهرٌ مكشوف، إلا أن سِتْرَنا إيّاه كان فضلاً مِنّا وجوداً، لا استحقاقاً منكم".[70]

وهنا يتضح أن نظرة المؤمنين للموت في العصور الغابرة كانت نظرة صائبة، إذ كانوا ينظرون إلى الحياة من منظور الموت وكانت ساعة الرّمال عند كل مرة يَنْفَذ فيها الرمل من جزئها العلويّ وتحتاج لمن يقلبها لتبدأ حساب الوقت من جديد – كانت وكأنها تبعث لنا برسالة 'تذكّروا الموت! *Memento Morti* ورمزٌ لحياتنا العابرة ودليل على أنّ شوقنا الدنيوي للسعادة أمر نسبيّ، وهذه هي النظرة الصائبة عند البهائيين أيضاً، ذلك لأن الموت الذي تُختتم به الحياة الدنيا هو في نفس الوقت باب لحياة أخرى حقيقية نولد فيها من جديد، مصداقاً لقول بهاء الله **"إن الموت بابٌ من أبواب رحمة ربك به يظهر ما هو المستور عن الابصار، وما الموت الّا صعود الروح من مقامه الادنى إلى المقام الاعلى، وبه يُبسَط بساط النشاط ويظهر حكم الانبساط... لعمري ان المؤمن بعد صعوده يرى نفسه في راحة أبدية وفراغة سَرْمدية".** [71] ولأننا نحصد حين الوفاة ما زرعناه في هذه الدار الفانية، فإن الإنسان يواجَه بغتة بما جناه في الدنيا، وما اكتسبه من كمالات ربانية – أي بما هو عليه، مصداقا لقول الشاعر الرومانيّ الشهير شيشرون 'كل ما لديّ أحمله *Omnia mea mecum porto* '[72] وهنا تتجلّى مسئولية الانسان عن حياته الدنيا. كما يقول بهاء الله: "من الواضح المعلوم أن الكل سيطّلع على أفعاله وأعماله بعد الموت، قَسَماً بشمس أفق الاقتدار إن أهل الحق يكونون في ذاك الحين في فرح لا يُذكر بالبيان، أما أهل الضلال فسيصيبهم خوف واضطراب ووحشة لا يمكن تصوّر أعظم منها".[73]

فإذا ما اجتاز المرء عتبة الموت نال ثواباً أو عقاباً طبقاً للكيفية التي عاش بها هذه الحياة. تماماً كما يقول القرآن الكريم: "مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ"[74] وكما

---

[70] نفس الكلمة المكنونة – كما يقول بهاء الله أيضا إن الله **"عالم بأعمالك قبل ظهورها كما هو عالم بعد ظهورها "** كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 77، ص 101.

[71] مجموعة نصوص [مائده اسماني]، المجلد الثامن، ص 95 (إضافة المترجم)

[72] في مسرحيّته الشعريّة 'المتناقضات *Paradoxa*' الفصل الأول – القصيدة الأولي، الشطرة الثامنة

[73] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 86، ص 113-114

[74] سورة الأنعام :160

يقول عبد البهاء "أما المكافأة الأخروية التي هي الحياة الأبدية المصرّح بها في جميع الكتب السماوية، هي تلك الكمالات الإلهية والمواهب الأبدية والسعادة السرمدية". [75] ويقول من الناحية الأخرى "وكذلك المجازاة الأخرويّة يعني العذاب الأخرويّ وهو الحرمان من العنايات الخاصّة الإلهيّة والمواهب الّتي لا ريب فيها، والسّقوط في أسفل الدّركات الوجوديّة، وكلّ نفس حُرمت من هذه الالطاف الإلهيّة وإن تكن باقية بعد الموت ولكنّها عند أهل الحقيقة في عداد الأموات".[76] وهذا هو الموت الروحيّ الذي طالما جاء ذكره في الكتب المقدسة – أما من يؤمن ويعمل الصالحات فإنه يرتقي إلى حياة روحية جديدة.

في مسألة الولع بالبراءة

إذا لم تكن هناك حياة بعد الموت، وكان نَيْل الفرح والمعاناة مقصور على هذا العالم فإن كل ما يتبقى لدينا من عدالة ينحصر فيما يمنحه الإنسان للإنسان في الدنيا – أي في المكان الوحيد الذي يتواجد فيه الانسان. وهذه الفكرة تعني أيضاً أن عقاب كل ظلم وكل تَجَنٍّ لا يتم إلاّ على وجه الأرض فإذا ما انتهت حياة الجسد ضاعت فرصة العقاب أو الثواب. ويكمن في هذا الإعتقاد السائد – أي الإعتقاد بعدم وجود أية مساءلة أخروية للإنسان – السبب الرئيسيّ لتزايد الجريمة في السنوات الأخيرة. فإذا ما انتهى كل شيء بوفاتنا وأضفنا إلى ذلك تشكيكنا في شرعية قيام الدولة بإجراء القصاص بل واختلافنا على كيفية إجرائه، فعندئذ يتلاشى تقريباً أيّ دافع لدى الانسان للامتناع عن نزواته لمجرد أن القانون فقط هو الذي يجرّمها ويعاقب عليها. إمّا إذا ما تدبّرنا هذه الفكرة على ضوء الحقيقة التي نادت بها كافة الأديان، وشدد عليها بهاء الله في رسالته من جديد، وهي بأنه يتعين على الانسان أن يحاسب على ما فعله من خير وشر بعد وفاته، لوجدنا أنها فكرة تنطوي على خطأ جسيم له تبعات وخيمة. وينسحب نفس الشيء على النزعة السائدة في يومنا هذا[77] لمعارضة حقيقة أن الانسان مخيّر وحرّ الإرادة فيما يفعل ولا يفعل – وبالتالي النزعة إلى إعفائه من أيّ قدر من المسئولية. وهذا الخطأ ما هو إلا النتيجة النهائية لمفهوم إلحاديّ ماديّ عن طبيعة الإنسان، فهو

[75] كتاب [من مفاوضات...]، الفصل 57، ص 165

[76] المرجع السابق

[77] راجع أيضا الفصل الثاني من كتابنا هذا "نظرة متفرسة في وجه عالم الغرب العلماني"، بند ‘الولع بالبراءة’

مفهوم لا يسلب الانسان حرّية الإرادة فحسب بل يحرمه أيضاً من كرامته ونُبله، لأنه إذا لم تكن هناك قيم ومعايير أخلاقية ملزمة، وكان الإنسان عاجزاً عن الاقتداء بها، يكون الحيوان بما لديه من أمن وأمان يأتيانه من غرائزه وحواسه الفطرية أسمى وأفضل من الإنسان. فالحواس والغرائز حافظة وحامية لحياة الحيوان، بينما يبقى الإنسان – وهو المُنْفَلت عن كل من القيم الأخلاقية والحواس الفطرية – محروماً من هذه الحماية.

ويتعارض هذا المفهوم تماماً مع الدين. ومع التسليم بالتأثير القويّ للدوافع الغريزية على الإنسان مضافاً اليها الضغوط الأخرى وسوء الأحوال والظروف الاجتماعية السائدة، ومع أن الانسان ليس حراً تماماً بأيّ حال من الأحوال بل متأثر بعوامل بيولوجية ونفسية واجتماعية متعددة – إلا أنه مخلوق لا تتشكّل أو تتحدد طبيعته ودوافعه بتأثير من حواسه وغرائزه كما هو الحال مع سائر المخلوقات. بل إنّ الإنسان بوسعه أن ينتقي تصرفاته وأفعاله ويصبّها في القالب الذي يريده. وعلى الرغم مما قد يحيط به من عوامل تأثيرية، فللإنسان مجال حقيقيّ في التصرف يقاوم به احتياجات طبيعته السفلى وينحاز إلى المبادئ السلوكية اللائقة. وطبيعيّ أن تكون الدوافع والغرائز الطبيعية، بما فيها الكراهية، جزءًا من الفطرة البشرية الا أن الانسان – حتى ولو نظرنا اليه من زاوية بيولوجية – هو كائن حضاريّ الجوهر، كائن تحتاج دوافعه الفطرية إلى أن نضبطها ونسمو بها.[78] وقد صارت مسألة احتياج الدوافع الأساسية لدى الانسان للإرشاد والتحكم الحضاريّ وضرورة توجيهها لتحقيق أهداف تتجاوز المصلحة الفردية – صارت من النظريات التي تَوصّل اليها فلاسفة أصول الأجناس في ألمانيا من أمثال شيلر Scheler و جيلين Gehlen[79] ولكن هذا اللجوء إلى علم الأحياء (البيولوجيا)[80] بدلاً من الارتكان إلى الدين والقيم الغيبية (وهي القيم التي قوّض فلاسفة هذا العصر شرعيّتها ولزومها) يجعلنا نخطئ الهدف. ذلك لأن كافة الأوامر والنواهي الأخلاقية – كما يوضح ليزتسيك

---

[78] كما يقول هلموت شيلسكي Helmut Schelsky في كتابه ‘المعاشرة الجنسية من منظور علم الاجتماع *Soziologie der Sexualität*’ ص 26

[79] وذلك فيما يتعلق بالدوافع الجنسية – وللمزيد راجع ما كتبناه في الفصل العاشر من كتابنا هذا "السلطة والحرية"، بند ‘رأي البهائية في العيش من أجل الملذّات’

[80] من رأي أخصائية التحليل النفسيّ استر هاردنج Esther Harding أن السعي وراء تقدير أعمق للحقيقة تبوّأ اليوم مكانة المبدأ الموجِّه المرشِد، بدلا من قاعدة ‘الخضوع لقانون الأخلاق’ التي تخلّى عنها المجتمع (الغربي) – نقلا عن مؤلفها ‘نهج كل النساء *The Way of all Women*’ الطبعة الانجليزية، ص 268

كولاكوفسكي Leszek Kolakowski – "مخالفة للطبيعة إلى حدّ ما، ولا يكون لوجودها فائدة في نهاية المطاف إذا ما تسنّى للغرائز الفطرية بطريقة أو بأخرى أن تتولّى وظائف الأوامر والنواهي".[81] وليس هناك ما يخالف طبيعة الانسان أكثر من حُبّه لعدوّه[82]، وهو شيء أكبر بكثير من مجرد عدم كره هذا العدو، وأمرٌ تحضّ عليه كافة الأديان. ويردّ كولاكوفسكي على من ينتقدون هذا الأمر، بسبب خروجه عن قواعد الفطرة بدرجة يستحيل معها الانصياع له بشكل عام، بقوله: "لا يسعني إلا أن أردّ عليهم بجواب في غاية البساطة: من المؤكد أن لا يكون ولن يكون سوى نفر قليل بإمكانهم حقاً أن يرتفعوا لمستوى الأمر بأن يحبّوا أعداءهم، بيد أنه على أكتاف هذا النفر القليل يرتكز صرح المدنية في عالمنا، وإليهم يرجع الفضل في تمكننا من القيام بذلك القدر اليسير من الأعمال التي تستطيع البشرية إنجازها".[83] وحتى تلك الضغوط الاجتماعية التي نفترض أنه لا مفر منها لا تشكل عذراً

---

[81] في خطبة له بعنوان 'التربية والتعليم من أجل الكراهية أو التربية والتعليم من أجل الكرامة'' 'Erziehung zum Hab — Erziehung zur Würde ألقيت في مؤتمر جائزة السلام الممنوحة من معرض الكتاب الألمانيّ لعام 1977، نشرت بجريدة جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung* عدد 17 اكتوبر 1977

[82] إن الادعاء الذي صدر لأول مرة من أبي الكنيسة (الكاثوليكية) تيرتوليان Tertullian (في رسالته الأولى لمن يدعى إسكابولام *Ad Scapulam 1*) – الذي يفيد أن وصية المسيح بأن يحبّ المرء عدوّه (انجيل متى 5: 44) هي تعليم غريب على المسيحية – لهو ادعاء خاطئ رغم شيوعه في الأوساط المسيحية وصعوبة استئصاله منها. كما أن فريدريك هايلر Friedrich Heiler في كتابه 'اتحاد الأديان وتعاونها *Einheit und Zusammenarbeit der Religionen*' كتب مؤيدا تيرتوليان هذا بكم هائل من النصوص الدينية. ولكنّ مبدأ حب الانسان لعدوّه منصوص عليه في كافة أديان العالم بما فيها الأديان الأقدم عمرا من المسيحية، فالهندوسية تفرض على المؤمنين بها أن يحبوا أعداءهم تماما كما فعل المصلح الدينيّ الصينيّ لاوتسي Laotse عندما قال للمؤمنين بالفلسفة الطاوية Taoism "قابلوا الأذى بالعطف والاحسان" (في كتاب 'الملك طاو ته *The Tao Teh King*' الجزء الثاني، فصل 63، فقرة 1، ص 106، الطبعة الانجليزية)/ كما أنه مبدأ يلعب دورا رائدا في العقيدة البوذية (حسبما هو واضح من كتابهم (دامابادا *Dhammapada* الجزء الخامس)، فضلا عن أن مبدأ محبة الأعداء هذا لم يكن مستغربا في الكتابات اليهودية التي شاعت قبل ميلاد المسيح، وله مكانة خاصة في الاسلام (مؤيدة بنصوص من القرآن والحديث). ويمكن لقراء الألمانية مراجعة هذا الموضوع بكامله في كتاب هانز هاز Hans Haas المعنون 'محبة الأعداء كفكرة ومثل أعلى في العالم غير المسيحيّ *Idee und Ideal der Feindesliebe in der nichtchristlichen Welt*' طبع لايبزج عام 1927

[83] في مقالته المذكورة في الحاشية السابقة

للانحراف عن الواجبات الأخلاقية. فالضغوط الاجتماعية لا تجبر الإنسان عل اتخاذ مسلك معين وإنما تجعل الإنسان ميّالاً له.[84] ولدى الانسان الذي يؤمن بأن عليه واجباً غيبياً حافزا على الإنجاز والعمل على الرغم من الظروف الفردية والاجتماعية التي تشكل السلوك البشريّ – حافزاً هو أقوى ممن لا علم لهم بالغيبيات ويعتقدون أن 'يوم الدينونة' قد جُعِل لمحاسبة مؤسسات الدولة، بدلا من محاسبة فرادى البشر.[85]

والارادة الحرة هي شيء بوسْع كل امرئ منا أن يمارسه. فامتلاك الانسان لحرية الاختيار ما بين الخير والشر هو حقيقة تتبناها جميع الأديان. وبما أن كل نفس بوسعها معرفة الله ومظاهره (أي أنبيائه ورسله)[86]، كذلك يكون بوسعها أيضاً أن تطيع إرادة الله المتمثلة في شرائعه. وهذا التكليف مستطاع وفي مقدور كل نفس بشرية – مصداقاً لقول القرآن الكريم **"لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا"**[87] كما يقول عبد البهاء "بمقدور الانسان أن يعمل الخير والشر أيضاً"[88]، والاعتقاد بأن الله، مشرّع الشرائع، يضع للناس قاعدة سلوكية كاملة متقنة ويفرض عليهم واجب **"الإِقْرَارُ بِمَا نُزِّلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاتِّبَاعُ مَا شُرِّعَ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ"**[89] ثمّ لا يمدّهم، بوصفه خالقهم ومبدعهم، بالمقدرة على الالتزام بشرائعه[90]، لهو اعتقاد ينافى مفهوم العدالة

---

[84] مصداقا لقول يوليوس قيصر "إن العيب يا عزيزي بروتس ليس هو في نحس الطالع لأننا إمّعات وتوابع، بل هو في نفوسنا" (مسرحية 'يوليوس قيصر] لوليم شكسبير، الفصل الأول، المشهد الثاني).

[85] وتجدر بنا الاشارة إلى قول بهاء الله في لوح الدنيا "وُضِعَ فِي الْمَبَادِئِ وَالْقَوَانِينِ فَصْلٌ فِي الْقِصَاصِ لأَجْلِ حِفْظِ الْعِبَادِ وَصِيَانَتِهِمْ. وَالْخَوْفُ مِنْهُ يَمْنَعُ النَّاسَ عَنْ ارْتِكَابِ الأَعْمَالِ الشَّنِيعَةِ غَيْرِ اللاَّئِقَةِ عَلَنَاً فَقَطْ. بَيْدَ أَنَّ الأَمْرَ الَّذِي كَانَ وَمَا يَزَالُ سَبَبَاً فِي حِفْظِ النَّاسِ وَمَنْعِهِمْ عَنْ تِلْكَ الأَعْمَالِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ كِلَيْهِمَا هُوَ خَشْيَةُ اللهِ". (كتاب [مجموعة من ألواح...] ص 110 – 111)

[86] مصداقا لقول بهاء الله "كلّ نفس قابلة بنفسها لإدراك جمال السبحان...وإلا فالتكليف ساقط عنها"، كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 75

[87] سورة البقرة: آية 286

[88] كتاب 'أحاديث باريس *Paris Talks*'، الموضوع رقم 18، ص 60 من الطبعة الانجليزية (مترجما)

[89] بهاء الله – لوح أصل كل الخير –كتاب [مجموعة من ألواح...]، ص 133

[90] ليس هذا مجال مناقشة مقولة بولس الرسول بأنه من المستحيل على المؤمن أن يوفي بوصايا الناموس الالهيّ (كما جاء في رسالته لأهل رومية 7: 18 وما بعدها) أو تعاليم المذهب البروتستانتيّ المبنية على التبرير، ولهذا أحيل القارئ إلى ما كتبته تعليقا على

السماوية[91] ومرفوض تماماً لدى كل فكر ديني. ومن هذا المنظور يصدق 'كانط' في قوله: 'اذا لم تستطع فلا تفعل'. فعندما نعلم أن علينا فرضٌ إلهيّ بأن نفعل شيئاً، فإننا ندرك أيضاً أن بوسعنا أن نوفي به - حتى ولو لم نكن واثقين من أننا سنوفي بذلك الفرض إذا ما وُضعنا في التجربة. ومن هنا كان الأمر بعدم السرقة، وعدم ارتكاب الزنا، وعدم السّكْر والامتناع عن تعاطي المخدرات، وما إلى ذلك من النواهي. وفي غياب الإيمان بالله تروج نظريات ومفاهيم مثل إنكار كل مساءلة بشرية بدعوى أن الانسان مجبور بضغوط المجتمع ومسيّر بغرائزه ومن ثَمّ يكون فاقداً لحرية التصرف. ومِثل القول بأن كل تصرّف هو نتاج ظروف اجتماعية سيئة ولهذا لا يُلام المذنب على أفعاله، وهو ما قصده دوستويفسكي في روايته 'الإخوة كارامازوف'، عندما جعل إيفان يقول: "إذا كان الله غير موجود، فكل شيء يكون مباحاً. وإذا لم يكن هناك إله، فلا شيء يهم إذن". ويعني هذا أنه عندما يكون الانسان مشرّعاً لشرائع نفسه – وهو ما ينادي به الفيلسوف الوجوديّ جان بول سارتر – ولا يعترف بأية سلطة تعلو محاكم الدولة – فبوسعه أن يضع المبررات لأيّ جريمة من الجرائم، وهي حقيقة يشهد عليها ماضينا القريب دون موارَبة.

وأخيراً، هناك ثمة ما يقال عن كون البشر سواء عند الله. فالله يحكم علينا بغض النظر عن مكانتنا أو رتْبتنا أو حيثيّتنا أو مقامنا. فالملك والمتسول والمصرفيّ والأجير كلهم عند الله سواء. ولكن هذه المساواة لا تنسحب على حالتنا الروحية بمعنى وجوب أن يكون المؤمن والكافر، والصالح والطالح سواء عند الله أيضاً. لأن القرآن الكريم يصرح: "أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ"[92] والمناداة بالمساواة في هذه المسألة يجعل كل صنوف العدل والانصاف لهواً ولعباً - وهو أمر يعارضه أيضاً بهاء الله بقوله: "أما عن قولنا بأن كل الاشياء هي آيات الهيه فيجب أن لا نتوهم – **نعوذ بالله** – بأن الخلق من السّعيد والشقيّ والمشرك والموحِّد هم في مقام واحد".[93] كما يخبرنا بأن الله لم يسوِّ بين البشر من حيث قابلياتهم لنيل العناية والألطاف الإلهية: "الأصل اليوم هو الأخذ من بحر الفيوضات

ذلك في كتابي 'النور يلمع في الظلام *The Light Shineth in Darkness*'، الطبعة الانجليزية - ص 95 وما بعدها

[91] يقول بهاء الله مناجياً ربّه "كلّ ما يظهر منك هو عدل صِرْف بل فضل مَحْض". كتاب [لوح ابن لذئب]، الطبعة الإنجليزية – ص 8، مترجما عن الأصل الفارسيّ

[92] سورة السجدة :آية 18

[93] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 93 ص 124، مترجما

لذلك لا ينبغي النظر إلى صغر أو كبر الوعاء. فأحدهم قد يأخذ مقدار الكف، وآخر مقدار كأس، وكذلك يأخذ آخر مقدار كوب وغيره مقدار قِدْر".[94]

[94] المرجع السابق، المقتطف 5 ص 14، مترجما

الفصل الثاني عشر

الإنسان الجديد

هل من ضرورة لوجوده؟

توقع كل من فريدريش نيتشة وكارل ماركس، وهما من أعظم فلاسفة القرن التاسع عشر، قدوم إنسان جديد، إذ تنبأ نيتشة، الذي نادى بنهاية ‘أخلاقيات العبودية *slave morality*’ المسيحية والعودة إلى ‘براءة الوجود *innocence of existence*’، بظهور مخلوق بشريّ خارق(سوبرمان). وكذلك فإن كارل ماركس قد بشّر بنهاية الأخلاقيات عندما يكون لدى المجتمع ما يكفي من شجاعة أدبية للتخلي عن كل من الأخلاق والدولة والدين. إلا أن التخلي عن المسيحية في الغرب والذي بدأه هذان المفكران، وانتحاه الآن عدد لا يُحصى من البشر (في أوروبا وأمريكا) – على حد قول إريك كيلنر Erich Kellner – قد أفرز في الحقيقة انحطاطاً في الأخلاقيات التقليدية الموروثة دون أن يأتي بمنهج سلوك اجتماعيّ بديل، وبذلك أصبحت ولادة الإنسان الجديد محل شك متزايد عن ذي قبل. [1]وذلك على الرغم من أنه بدأ يتضح جليّاً يوماً بعد يوم أن بقاء الجنس البشريّ ليس أمراً منوطاً في النهاية بالتكنولوجيا بل بالمبادئ والقيم الأخلاقية، فضلاً عن أهداف الأفراد والشعوب في العيش والحياة،[2] مضافاً إليها بعث جديد للضمير الإنساني. فهذه أمور بدأت تتجلى بوضوح متزايد في يومنا هذا. حتى إن ألبرت أينشتين أصدر حكماً بهذا الصدد في أيامه قائلاً: "إن عالمنا مهدد بكارثة لها من الأبعاد ما يفوق مقدرة أولئك الذين يملكون أهم القرارات نفعاً أو ضرراً. فلقد غيرت الطاقة الهائلة التي انبعثت عن تحطيم الذرة كل شيء ما عدا أسلوبنا في التفكير، ونحن ماضون من جراء ذلك نحو كارثة لا مثيل لها، ولسوف نحتاج إلى منحى جديد تماماً في

---

[1] في كتابه ‘مجتمع بغير دين *Religionslose Gesellschaft*’ الطبعة الألمانية، مقدمة الكتاب ص 11

[2] وكل من يعتقد بصحة ما قاله برتولت بريشت Bertolt Brecht (في اوبرا البنسات الثلاث *Threepenny Opera*، فصل ‘ثاني البنسات الثلاث’ – الختام) من أنه ‘يأتي الطعام في المقام الأول ثم تأتي بعده الأخلاق’ يمكنه أن يرى في الأفق أنه من دون الأخلاق لن يكون هناك طعام.

التفكير إن كان مقدراً للبشرية أن تبقى."[3] كما قال اينشتين أيضاً قولته الشهيرة عن زماننا 'زمن الوسائل الفائقة والغايات الفوضوية.'[4]

كما أن الباحث الأمريكيّ جروفر فولي Grover Foley يرى أيضاً أن المشكلة الأساسية لمأساتنا المعيشية ليست في التكنولوجيا وإنما في الإنسان ذاته – الذي يصفه بأنه 'عملاق تكنولوجيّ وقزم أخلاقيّ'.[5] "إنسان يمتلك علوم العصر النوويّ ونضج مشاعر إنسان ما قبل التاريخ"، ويستطرد قائلاً: "لقد أصبحنا آلهة قبل أن نتعلم كيف نكون بشراً."[6] كما ينادي "بتحول وتغيير كامل في أهدافنا وقيمنا – تحّول له من الشمول ما يضاهي ما كان يحدث للناس قديماً عندما تتحول إلى دين جديد."[7] ثم يتساءل 'فولي' قائلاً: "ومن سيخلق لنا هذا الإنسان الجديد؟"[8] وتنمّ إشارته هنا إلى 'تحوّل الناس قديماً إلى دين جديد'، إلا أنه لا يتوقع أن يتأتى هذا التحول الشامل من العلم، بل يصرّح بما يشبه اليأس قائلاً: "إن القول بأن الحل النهائيّ يكمن فقط في خلق سلالة جديدة من بني البشر ليس قولاً مشجعاً كما يبدو – بل هو قول يسبب قلقاً أزيد مما تسببه سائر الحقائق المتعلقة بهذه المعضلة. فتحطيم النواة يبدو كملعبة الصبيان إذا ما قورن بمهمة تغيير ما في نفوس أبناء آدم."[9] فهو يتطلع هنا إلى قيم وأخلاقيات ودين جديد. وهو إدراكٌ ما فتئ يتزايد هذه الأيام، فها هو كارل فريدريش فون فايتزيكر Carl Friedrich von Weizsäcker يطالب بما أسماه 'تحولاً شاملاً في الوعي يتناول شخصية الإنسان من كل زواياها وأبعادها.'[10] كما يرى إيريك فروم

---

[3] قول ذكره جوزيف راتنار Josef Rattner في كتابه 'سيكولوجية التعصّب *Psychologie des Vorurteils*' الطبعة الألمانية ص 10، وبه ثبت لمصدره.

[4] أورده الكاتب ج. شفارتلاندر J. Schwartländer في كتابه 'الموت وكرامة الإنسان *Der Tod und die Würde des Menschen*' الطبعة الألمانية ص 10

[5] مصداقا لقول برتولت بريشت "جنس من الأقزام المبتَكِرة الّذين يمكن استئجارهم لأيّ غرض. " 'مسرحية جاليليو *Galileo*، الفصل الرابع عشر' وهي جملة موجودة فقط في الأصل الألمانيّ لهذه المسرحية

[6] في كتاب نشر له باللغة الألمانية بعنوان 'هل بلغنا النهاية؟ *Sind wir am Ende?*'، ص 741

[7] المرجع السابق ص 749

[8] المرجع السابق ص 747

[9] نفس المرجع والصفحة

[10] في كتابه 'مسالك في الخطر *Wege in der Gefahr*'، الطبعة الألمانية، ص 137 وما بعدها

نفس هذا الرأي – وهو أن فرصة الإنسان الوحيدة تكمن في تحوّل جذريّ للوعي بحافز دينيّ، وفي تفكير جديد، وإنسان جديد.[11]

والانسان الجديد الذي عليه وحده يمكن أن نعقد آمالنا – إذا شئنا أن نهرب من نزعة تدمير الذّات والرغبة الجنونية في الانقراض، وتفادي الكوارث المبرمجة سلفاً – هو إنسان يقدر على البقاء والنجاة، معدّ لمواجهة الظروف المستجدّة. وهو بالقطع لن يكون ذلك الشخص 'المُحرَّر'، الإنسان الذي أقصي بعيداً عن كل المعايير السلوكية والمعتقدات الدينية، والعريّ عن الأخلاقيات والمحروم من نظرة تشمل العالم *'Weltanschauung'*. ذلك لأن ما لدينا من مقومات بشرية يمكن في الحقيقة هدمه وتدميره بذخيرة المواقف المعادية المتاحة مثل عدم الثقة، والنزعة إلى التشاجر، والنقد غير البنّاء، وتعجّل المجابهات.[12] أما في المقابل الآخر فإننا لا نملك أية وسائل إيجابية يمكننا أن نرأب بها هذه الصدوع. كما أن العلم أيضاً ليس بمقدوره أن يخلق لنا ذلك الإنسان الجديد. نعم، هناك أفكار وتهيؤات جنونية عن إمكانية استنباط سلالة جديدة من البشر بوسائل بيولوجية مثل العبث بالجينات الوراثية، أو وسائل الانتقاء العرقيّ التي كان يتخيلها بكلّ هوَس هاينريش هيملر Heinrich Himmler قائد القوات الخاصة في العهد النازي. ولكن هذه التهيؤات ترتكز كلها على مفهوم ماديّ للإنسان يحطّ من طبيعته البيولوجية لتضعها على قدم المساواة مع الغرائز الحيوانية. فكلا الفكرتين – أي التلاعب في الجينات الوراثية وتوهم الانتقاء العرقيّ – تعجزان عن الإدلاء بأيّ دلو في القضية المطروحة أمامنا: ألا وهي استنباط نمط جديد من التفكير البشريّ مختلف جذرياً عما هو لدينا الآن، تتجلى فيه عبارة الشاعر الرومانيّ فيرجيل Virgil الشهيرة 'العقل الباطن يحرّك الدنيا *Mens agitat molem*'[13] أو قول الروائيّ فريدريش شيللر Friedrichv. Schiller: 'تشكّل الروح مكانها في الجسم ليكون مسكنها".[14]

---

[11] في كتابه 'أن تملك أو أن تكون؟ *To Have or to Be?*'، الطبعة الإنجليزية, ص 202-201

[12] مصداقا لقول بهاء الله في شرحه للفظ 'عزازيل' الذي يرمز إلى الشياطين 'وجبريل' الذي يرمز إلى الملائكة، في لوح مقصود: "...فَالْخِلاَفَاتُ وَالنِّفَاقُ وَالْجِدَالُ وَالْمُحَارَبَةُ وَمَا شَاكَلَهَا هِيَ سَبَبُ ظُهُورِ عَزَازِيلَ وَعِلَّتهُ وَلَيْسَتْ لِجِبْرِيلَ يَدٌ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الأُمُورِ. فَالْعَالَمُ الَّذِي لاَ يَظْهَرُ مِنْهُ أَمْرٌ غَيْرُ النِّزَاعِ وَالْجِدَالِ وَالْفَسَادِ إِنَّهُ مَقَرُّ عَرْشِ عَزَازِيلَ وَمَحَلُّ سَلْطَنَتِهِ. " [مجموعة من ألواح...] ص 157-158

[13] الإنيادة، الكتاب السادس، الطبعة الإنجليزية، ص 727

[14] في روايته 'فالينشتاين *Wallenstein*'، الفصل الثالث، المنظر الثالث عشر

فالعلم يعجز عن الإتيان بتغيير في الوعي أو القدرة على التمييز، أو خلق الجديد من الأنماط والقيم الخلقية والسلوكية، ناهيك عن المعايير المطلقة. فهذا مضمار كان ولا يزال حكراً على الأديان تحقيقه بنجاح: ألا وهو إحداث التغيير الوجدانيّ للإنسان، فكل دين منهم أتى بمثل هذا التغيير واستحدث خلقاً جديداً من البشر، وأدار دفة حياة الجماعة نحو غايات وقيم جديدة، متغلباً بذلك على عوامل الهدم في المجتمع، ونعني بذلك التفكير المتخذ موقف العداء فيما يتعلّق بمسائل الحياة الجوهرية، والتعددية في الآراء التي لا تتخذ لنفسها موقفاً محدداً، والطبيعة غير الملزِمة لكافة المعايير والأهداف.

البعث الروحي

يدلّنا بهاء الله على الشيء الوحيد الذي يمتلك المقدرة على إحداث هذا التحوّل والتغيير الوجدانيّ في الإنسان بقوله: "هذا المقام وهذه القدرة مختصان بكلمة الله"[15]، وكما فعل من سبقه من الرسل، يدعو بهاء الله بني البشر لهذا التحول، وينادي بضرورة تشييد ملكوت الله في القلوب أولا.[16] فالشرط الأساسيّ للتغيير نحو الأفضل في هذه الحياة الدنيا هو تبديل نفس الإنسان وتحويلها. ولن يأتي أيّ تعديل في الهياكل الاجتماعية والسياسية للبشر بتحسّن دائم في جسد عالمنا المريض إلا إذا أصلح الإنسان الفرد ذاته فكراً وشعوراً وعملاً. وأسّ أساس هذا الإصلاح هو بعثه الروحيّ وولادته من جديد التي اشترطها بهاء الله بقوله: " قل يا أيها الموتى، إن يد العطاء الربانيّ تَهَبُ ماء الحياة، هلمّوا واشربوا. كلُّ من حَيَى اليوم لن يأخذه الموتُ وكلُّ من مات اليوم لن يَحْيَى."[17]

وهذه الولادة الجديدة[18] هي انقلاب وتحوّل شامل، وبداية لحياة جديدة في ظل الإرادة الإلهية، وتكريس حياة الإنسان بكاملها لما يريده الخالق على لسان مظهره الإلهي. ولا شيء سوى هذا التبدّل والتحوّل الشامل سيأتي بالخلق الجديد. وإذا كان الإيمان هو الشجرة فالعمل هو الثمرة، وإذا تساءلنا عن كيفية تحقيق هذا التحول الكامل في حياة الإنسان،

---

[15] كتاب [منتخباتي...] المقتطف رقم 99، ترجمة موقتة عن الأصل الفارسيّ

[16] كما يقول المسيح؛ "لأَنْ هَا مَلَكُوتُ اللهِ دَاخِلَكُمْ" – إنجيل لوقا 17: 21

[17] كتاب [منتخباتي...] المقتطف رقم 106، ترجمة موقتة عن الأصل الفارسيّ

[18] كما يشرحها عبد البهاء – كتاب [من مفاوضات...] الفصلين 57 و58 ‘خلود الروح’

فإن عبد البهاء يعطينا الإجابة بقوله: "أولاً عن طريق معرفة الله، وثانياً محبة الله، وثالثاً الإيمان، ورابعاً الأعمال الخيرية، وخامساً التضحية، وسادساً الانقطاع، وسابعاً العفّة والتقديس. وما لم يحصل الإنسان على هذه القوى وهذه الأمور فلا شك أنه سيُحرم من الحياة الأبدية. أما إذا وُفِّق إلى معرفة الله واشتعل بنار محبة الله وشاهد الآيات الكبرى وأوجد المحبة بين البشر وكان في غاية العفّة والتقديس فلا شك أنه يُولد ولادة ثانية... ويشاهد الحياة الأبدية "[19]

المنهاج الجديد

لقد شبّهنا الأعمال بثمار شجرة الإيمان، ولكن تُرى ما هي تلك الثمار التي يجب على الإنسان أن يحملها؟ والحقيقة هي أن هذه الثمار ما هي إلاّ التي ذكرها أنبياء الله ورسله منذ الأزل. أو كما يقول بهاء الله "انّ الحق قد ظهر ليدعو الناس إلى الصدق والصفاء والديانة والأمانة والتسليم والرضاء بقضاء الله والرفق والمداراة والحكمة والتقوى ويزّين الكل بأثواب الأخلاق المرضية والاعمال المقدسة".[20]

وها هو 'الباب' – الذي بشّر بظهور بهاء الله – يناشد حوارييه قائلاً: "يا أصحابي الأعزاء أنتم حاملون للواء الله في هذا اليوم وإنكم مختارون أمناء على سرّه. فعلى كل منكم أن تظهر منه صفات الله وأن تتجلّى في أقوالكم وأفعالكم علائم الصدق والقوة والعظمة حتى أن أعضاء جسمكم تشهد بنبالة مقصدكم وطهارة حياتكم وصدق إيمانكم وعلوّ منزلتكم... فقد انتهت الأيام التي كانت فيها العبادة المقرونة بالكسل والفتور كافية والآن قد أتى الوقت الذي لا تصعد فيه الأعمال إلى عرشه الأعلى إلاّ إذا كانت طاهرة نقية، ولا تكون مقبولة لديه إلا إذا كانت خالية من أثر الدنس."[21] كما أن البهائيين مدعوون إلى تربية النفوس بتقديم المثل الحيّ للسامعين: "إن أصحاب الله اليوم هم بمثابة الخميرة لأحزاب العالم وعليهم أن يظهروا من الأمانة والصدق والاستقامة والأعمال والأخلاق ما ينتفع به

---

[19] كتاب [خطب...] ص 330 - 331

[20] كتاب [منتخباتي...] المقتطف 137، ترجمة موقتة عن الأصل الفارسيّ

[21] نقلا عن كتاب [مطالع الأنوار]، طبعة آذار 2008، ص 83

البشر كافة."[22]

ولا يتسع المجال هنا حتى لمجرد سرد المبادئ الأخلاقية التي جاءت في الكتابات البهائية[§] فهي خضم هائل يدعو الناس إلى حياة جدية وسلوك لا تشوبه شائبة. وتأتي محبة الله في مقدمة الفضائل التي تحض عليها البهائية[23] يليها الإنفاق على الفقراء[24] ثم محبة العباد(*) والنظر "بعين الرعاية للحيوان فما بالنا بالإنسان"[25]، والرحمة[26]، والشفقة[27]، والإخلاص

---

[22] نص أورده شوقي أفندي في رسالته ‹مجيء العدل الإلهيّ *The Advent of Divine Justice*›، الطبعة الإنجليزية، ص 19، مترجم عن الإنجليزية

[§] اهتم الباحث عبد الحسين فكري- في مجموعة [الكنوز الإلهية] طبع دار النشر البهائية في البرازيل عام 2005 - بتبويب عدد لا بأس به من النصوص البهائية حسب التعاليم والفضائل التي تتناولها، فأصبحت هذه المجموعة مرجعا فريدا يسهّل على قراء العربيّة عناء البحث عن موضوع بعينه في بحر هذه النصوص، ولقد أحلنا القارئ إلى هذا المرجع في مواضع كثيرة من الكتاب، خاصة فيما سيلي من هوامش لهذا الفصل. [المترجم]

[23] ذكرت محبّة الله في مواضع شتى من آثار بهاء الله مثل الكلمات المكنونة العربية (الكلمات من 4 إلى 10، والكلمة 38) وكتاب الإيقان (ص 103- 104)، وكذلك القرآن الكريم (في مواضع شتى منها آل عمران؛ 31؛ البقرة؛165، 177، 195، 222؛ المائدة؛ 54)، أما عبد البهاء فقد تكلم عن محبة الله في أكثر من موضع منها كتاب[من مفاوضات...] الفصل الثاني والثمانين، وكتاب [خطب...] في خطب عديدة منها خطبة ‹السرور الأبديّ› ص 52-53، وخطبة ‹محبة الله› ص 139-140، وخطبة ‹بهائيون حقيقيون› ص 237، وخطبة ‹هذه نصيحتي إليكم› ص 330.

[24] راجع من آثار بهاء الله: كتاب [مجموعة من الواح...] الكلمات الفردوسية ص 90، ولوح أصل كل الخير ص 136.

(*) عن محبة الله ومحبة العباد في الآثار البهائية راجع كتاب [الكنوز الإلهية] فصل ‹المحبة› ص 391 وما بعدها. [المترجم]

[25] بهاء الله كتاب [الإيقان] ص 155، ولعبد البهاء بيانات شتى عن ضرورة الرفق بالحيوان، وتنشئة الأطفال على هذه الفضيلة مثلما جاء بالمقتطف رقم 72 من بياناته في مجموعة [التربية والتعليم: مقتطفات من الآثار المباركة] ص 54

[26] بهاء الله [مجموعة من ألواح...] لوح الإشراقات ص 32؛ عبد البهاء [خطب...] ص 216

[27] بهاء الله [مجموعة من ألواح...] لوح الإشراقات ص 24-25؛ عبد البهاء [خطب...] ص 390

والوفاء[28]، والصدق[29]، والأمانة[30]، والصّبر والجَلد[31]، والتقديس والتنزيه والعفّة([Σ])، والنظافة والطهارة([β])، والخضوع[32]، والانقطاع والتجرّد([δ])، ومعرفة الإنسان لنفسه[33]، والتحرّر من التعصّب[§]، والعدل والإنصاف[34]، والاستقامة[*]، والكرم[∞]، والأدب[△]، والرضاء بإرادة الله[35]، والخشوع

---

28 بهاء الله [مجموعة من ألواح...] لوح الطرازات ص 52، ولوح مهدي الدهجي ص 168؛ عبد البهاء [من مفاوضات...] فصل رقم 65، [خطب...] ص 9، 113، 160، 306، وعن الإخلاص لله راجع هذا البند في [منتخبات من كتاب بهاء الله والعصر الجديد]، ص 99

29 بهاء الله [مجموعة من ألواح...] لوح الحكمة ص 118، لوح الطرازات ص 55- 56، لوح الدنيا ص 105

30 بهاء الله [مجموعة من ألواح...] لوح الإشراقات ص 18، 20. (وعن الفضائل الثلاث: ‘الأمانة والصدق والوفاء’ راجع هذا الفصل في كتاب [الكنوز الإلهية] ص 21-26. [المترجم]).

31 بهاء الله [الكلمات المكنونة العربية] الكلمة رقم 48، (راجع ايضا فصل ‘الصبر والتسليم’ في كتاب [الكنوز الإلهية] ص 299-301. [المترجم]).

(Σ) راجع فصل التقديس والتنزيه في كتاب [الكنوز الإلهية] ص 156-165

(β) راجع فصل النظافة والطهارة في كتاب [الكنوز الإلهية] ص 453-456

32 بهاء الله [مجموعة من ألواح...] لوح الكلمات الفردوسية ص 82؛ (أيضا راجع فصل ‘كن لشجر الخضوع ثمرا’ في كتاب [الحياة البهائية] ص 57. [المترجم]).

(δ) راجع فصل الانقطاع في كتاب [الكنوز الإلهية] ص 51-55

33 بهاء الله [مجموعة من ألواح...] لوح الطرازات ص 51

§ راجع فصل تحرّي الحقيقة وترك التقاليد في كتاب [الكنوز الإلهية] ص 99-104

34 بهاء الله [الكلمات المكنونة العربية] الكلمة رقم 2؛ (أيضا راجع فصل العدل والإنصاف في كتاب [الكنوز الإلهية] ص 343-347. [المترجم]).

* راجع فصل الاستقامة والثبات على أمر الله في كتاب [الكنوز الإلهية] ص 27-30

∞ راجع فصل ‘الكرم والجود من خصالي’ في كتاب [الحياة البهائية] ص 62

△ راجع فصل الأدب والأخلاق الحسنة في كتاب [الكنوز الإلهية] ص 63-67، وكذلك فصل ‘الأدب قميصي وبه زيّنّا هياكل عبادنا المقربين’ في كتاب [الحياة البهائية] ص 55

35 بهاء الله [مجموعة من ألواح...] لوح أصل كل الخير ص 133؛ (أيضا راجع فصل الصبر والتسليم في كتاب [الكنوز الإلهية] ص 299-301. [المترجم])

والتواضع، والبساطة والقناعة، والانقطاع[¤]، والثبات على أمر الله، والنزاهة وإحقاق الحق[36]، والوفاء بالعهود[37]، وفعل الخير[38]، والاعتدال في كل الأمور، والتسليم والرضاء والتوكّل على الله(±)، والجدارة بالثقة[39]، والجَلَدْ والتحمّل[40]، وحمد الله وشكره، والتقوى، والاتحاد والوئام والوفاق بين البشر، والحكمة[§].

كما يحذّر بهاء الله كل إنسان تحذيراً قاطعاً من ارتكاب ما يضيع به حرمته أو يكون من المفسدين أو يخان في أموال الناس[41]، ويحضّ كل واحد

¤ عن الخشوع والتواضع: راجع فصل 'كن لشجر الخصوع ثمرا' في كتاب [الحياة البهائية] ص 57، وعن القناعة: راجع فصل القناعة في كتاب [الكنوز الإلهية] ص 387-388، وعن الانقطاع: راجع فصل الانقطاع في كتاب [الكنوز الإلهية] ص 51-55؛ وفصل 'طيروا بقوادم الانقطاع فوق الإبداع' في كتاب [الحياة البهائية] ص 84-85، وعن الثبات والاستقامة: راجع فصل الاستقامة والثبات على أمر الله في نفس المرجع، ص 27-30

36 عبد البهاء، كتاب [الرسالة المدنية] ص 28؛ شوقي أفندي نقلا عن [منتخبات من كتاب بهاء الله والعصر الجديد] ص 321-322

37 بهاء الله، كتاب [منتخباتي...] المقتطف 130؛ عبد البهاء كتاب [من مفاوضات...] ص 45

38 عبد البهاء، كتاب [خطب عبد البهاء...] ص 138، 330، 398؛ (راجع أيضا فصل 'التعاون وترويج الخير والمنفعة' في كتاب [الكنوز الإلهية] ص 152-155، وفصل خدمة البشرية في نفس الكتاب ص 235. [المترجم]).

(±) عن الاعتدال: راجع فصل الاعتدال في كتاب [الكنوز الإلهية] ص 43-44، وعن التسليم والرضاء والتوكّل على الله: راجع فصل التوكّل على الله في نفس المرجع ، ص 170-172

39 الجدارة بالثقة فضيلة مرادفة للأمانة، راجع ما ذكرناه تحت الحاشية رقم 30 أعلاه

40 عبد البهاء، في بيان له عن واجبات أصحاب الشورى، وردت ترجمته في كتاب [الكنوز الإلهية] ص 420-421

§ عن حمد الله وشكره: راجع فصل شكر الله وحمده في كتاب [الكنوز الإلهية] ص 274-276، وعن التقوى: راجع فصل التقوى ومخافة الله في نفس المرجع ، ص 63-67، وكذلك فصل 'خشية الله والتقوى' في كتاب [الحياة البهائية] ص 29، وعن الإتحاد والوئام بين البشر: راجع فصل الوحدة والإتحاد في [الكنوز الإلهية]، ص 482-488، وعن الحكمة: راجع فصل الحكمة في نفس المرجع، ص 192-194

41 النص بكامله هو "**قل يا قوم لا ترتكبوا ما يضيع به حرمتكم وحرمة الأمر بين العباد وتكونّن من المفسدين، ولا تقربوا ما ينكره عقولكم أن اجتنبوا الإثم وإنه حرّم عليكم في الكتاب الذي لن يمّسه إلا الذين طهرّهم الله عن كل دنس وجعلهم من المطهّرين.**

على أن يكون مقدساً عما يكرهه أهل الملأ الأعلى[42] ويمتدح الخُلق الطيب بوصفه "سبباً لهداية الخلق إلى الصراط المستقيم"، **ونوره يفوق نور الشمس وإشراقها**، ومن فاز به فهو من صفوة الخلق.[43] ويدعو كل مؤمن لكي يكون **"قدوة حسنة بين الناس، وصحيفة يتذكّر بها الإناس"**. [44]

أما عن النواهي فإن بهاء الله ينهانا في المقام الأول عن الحسد[45]، والطمع[46]، والغلّ[47]، والغرور[48]، والبطالة والكسالة[49]، والقول البذيء والغيبة والنميمة[50]، واللعن والطعن[51]، والرّيب والرّياء[52]، وإيذاء

أن اعدلوا على أنفسكم ثم على الناس ليظهر آثار العدل من أفعالكم بين عبادنا المخلصين. إياكم أن لا تخانوا في أموال الناس..." – كتاب [منتخباتي...] المقتطف رقم 128

42 كتاب [منتخباتي...] المقتطف رقم 141

43 كتاب [مجموعة من ألواح...]، لوح الطرازات، ص 52-53

44 المرجع السابق، لوح الحكمة، ص 117

45 الكلمات المكنونة الفارسية، الترجمة العربية، الكلمة رقم 6، والكلمة رقم 42

46 المرجع السابق، الكلمة رقم 50

47 المرجع السابق، الكلمة رقم 42

48 المرجع السابق، الكلمة رقم 47

49 كتاب [مجموعة من ألواح...]، لوح البشارات، ص 42

50 المرجع السابق ص 43 وص 198، والكلمات المكنونة العربية رقم 27، والفارسية رقم 44

51 كتاب [مجموعة من ألواح...]، لوح البشارات، ص 43

52 المرجع السابق، لوح الحكمة، ص 118

الحيوان[53]، والبغي والظلم[54]، والبغضاء والشحناء والنزاع والجدال[55]، والكِبْر والغرور والنفاق والتعصب[56]، والزنا واللواط [57].

كما يشرح لنا بهاء الله تلك الصفات الحميدة التي يجدر بالسالك في طريق العرفان أن يتحلّى بها إذ يقول: **"كن في النعمة منفقاً، وفي فقدها شاكراً، وفي الحقوق أميناً، وفي الوجه طلقاً، وللفقراء كنزاً، وللأغنياء ناصحاً، وللمنادي مجيباً، وفي الوعد وفياً، وفي الأمور منصفاً، وفي الجمع صامتاً، وفي القضاء عادلاً، وللإنسان خاضعاً، وفي الظلمة سراجاً، وللمهموم فرجاً، وللظمآن بحراً، وللمكروب ملجأً، وللمظلوم ناصراً وعضدا وظهراً، وفي الأعمال متقياً، وللغريب وطناً، وللمريض شفاءً، وللمستجير حصناً، وللضرير بصراً، ولمن ضل صراطاً، ولوجه الصدق جمالاً، ولهيكل الأمانة طرازاً، ولبيت الأخلاق عرشاً، ولجسد العالم روحاً، ولجنود العدل راية، ولأفق الخير نوراً، وللأرض الطّيبة رذاذاً، ولبحر العلم فلكاً، ولسماء الكرم نجماً، ولرأس الحكمة إكليلا، ولجبين الدهر بياضاً، ولشجر الخضوع ثمراً. "**[58]

ويجمل بنا القول هنا أن هذا البيان لا يُقصد به أن يكون مصنَّفاً مبسطاً للفضائل، أو مجرد تلخيص لأخلاقيات الفرد، وإنما هو ترتيب وتسلسل للقيم يوضح أيّ منها أهم وأسبق من غيرها خاصة إذا ما قارناه بالنص التالي المأخوذ عن المصدر نفسه: "إن أعمال الحق وأفعاله مشهودة وظاهرة، وهي نازلة ومسطورة في جميع الكتب السماوية مثل الأمانة والصدق وطهارة القلب عند ذكر الحق، والتحمّل والرضاء **بما قضى الله له والقناعة بما قدّر له والصبر في البلايا بل الشكر فيها والتوكل عليه في كل الأحوال.** وهذه الأمور من أعظم الأعمال وأسبقها ذكراً عن الحق، أما

---

[53] الكتاب الأقدس فقرة 187

[54] المرجع السابق نفس الفقرة

[55] كتاب [منتخباتي...]، المقتطفات 96، 128، 136، 139، 153 وكتاب [مجموعة من ألواح...]، لوح البشارات، ص 43-44، لوح الحكمة، ص 117-119، الكتاب الأقدس الفقرات 73، 148

[56] الكتاب الأقدس: تحريم الفتنة والفساد: الفقرات 64، 123، 165 النهي عن الغرور: الفقرات 82، 86، 89، النهي عن النفاق: الفقرة 36، نبذ التعصب: الفقرات 75، 144،

[57] المرجع السابق، الفقرات 19، 107

[58] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 130

الأحكام الأخرى فقد كانت ومازالت من الأمور الثانوية في ظلّ ما ذُكر".[59] ويأتي على قمة هرم هذا الترتيب للقيم فضيلتان تقومان بالنسبة إلى باقي الفضائل مقام القلب، وهما المحبة والانصاف، بمعنى أن المحبة هي قلب الفضائل الفردية والإنصاف بمنزلة القلب والجوهر لنَظْم العالم. وما عداهما من فضائل ليست سوى تشخيصات وتعّينات لهاتين الفضيلتين بصورة أو بأخرى تالية لهما في الرّتبة. فلا يمكن فصل الفضائل أو عزلها عن بعضها البعض، فهي ترتبط فيما بينها بوتر مشدود وكل فضيلة منها تصف الفضيلة الأخرى وتساندها وترسم لها حدودها، وهنا يقع على عاتق أولئك الذين يعيشون حياتهم طبقا لهذه الأخلاقيات والقيم أن يحترزوا كي لا يختل هذا الترتيب والتسلسل القيميّ من جراء التقليل من أهمية فضيلة منها على حساب الأخرى كما كان يحدث في الماضي.[60] فالتوازن ما بين الفضائل كما علّم الفيلسوف أفلاطون هو العنصر الجوهريّ لحياة صالحة سعيدة.

عن أخلاقيات العمل

لقد سنّ لنا بهاء الله، بوصفه مشرّعاً إلهياً، كمّاً جمّاً من الأخلاقيات السامية التي تنسحب على سلوك كل من الفرد والجماعة. وما سنورده سينقل للقارئ في بساطة لمحة عن القيم الأخلاقية التي ستتضافر لتكوّن ذلك الخلق الجديد والانسان الجديد، سيّما وأن أيّ تفصيل لها سيُخرج هذا الكتاب عن مجاله ونطاقه، ناهيك عن أن أيّ من الشرائع البهائية المنوط بها تنظيم الحياة الاجتماعية لا يتسع المجال لشرحه هنا. فمن اللائح الواضح أن الفضائل المنوطة بالفرد هي في نهاية الأمر متعلقة أيضاً بسلوك الجماعة ومؤثرة فيها، ذلك لأنها تنعكس وتتجلّى في الواقع الاجتماعي أي أن بعض الفروض التي وضعها بهاء الله للفرد لها أثر مباشر على المجتمع، ومثال ذلك تحريم المسكرات والمخدّرات سيّما الأفيون[61] وهو تشريع له أثره

---

[59] المرجع السابق، المقتطف 134

[60] كما حدث بالنسبة للأمر الكنسيّ بمراعاة العفّة على سبيل المثال، مع عدم التأكيد على فضائل أخرى مثل الشفقة والكرم.

[61] الكتاب الأقدس فقرة 187، ولعبد البهاء بيان يشرح فيه أسباب تحريم الأفيون إذ يقول: "...فهو يقبض روح الإنسان فيموت الوجدان ويزول الشعور وينقص الإدراك ويميت الحيّ ويخمد الحرارة الطبيعية، إذا فلا يمكن تصور مضرة أعظم من هذه ما أسعد أولئك النفوس الذين لا يجرون على لسانهم اسم الأفيون ناهيك عن استعماله. يا أحباء الله إن الجبر والعنف والزّجر والقهر مذمومة في هذه الدورة الإلهية، بيد أنه يجب التشبث بكل تدبير في منع شرب الأفيون لعلّ نوع الإنسان ينال الخلاص والنجاة من

الحميد المباشر على الفرد كما هو على المجتمع الذي فقد الآن كل سيطرة على إدمان الخمور والمخدرات.

نعود إلى موضوعنا وهو أخلاقيات العمل – فلها أيضاً آثارٌ بعيدة المدى على كل من الفرد والمجتمع. فالإنسان يصرف جلّ حياته في العمل، وهذا أمر طبيعيّ إذ إن أهم مكونات الحياة الاجتماعية يتمثل في خلق السلع المادية والفكرية. كما أن القيم الحضارية لا يمكن إيجادها وصونها إلا بالعمل وحسن الأداء هو مبدأ عموميّ شائع مصداقاً لرأي الفيلسوف هيلموت شيلزكي Helmut Schelsky، إذ يقول "إن حسن الأداء أمر يتوق إليه الناس ويتلقون المكافأة عنه في كل هيكل اجتماعي، وفي كل نظام يعتمد على القيم والأخلاقيات."[62] فمن المهم جدّا أن ندرك أيّ غاية ومغزى يجدها الانسان في عمله وأيّ دافع يسترشد به وهو يؤديه.

أما الآن فقد بدأت ديمقراطيات عالم الغرب في العقدين الأخيرين، (أي من بداية ستينيات القرن العشرين)، تشكك فيما إذا كان عمل الإنسان ومهنته يمثلان قيمة حياتية مستقلة بذاتها تتخطى دائرة الارتزاق والعيش. وقد نجم عن هذا الشك تبرّم تجاه ضرورة إتقان الإنسان لعمله ومهنته[63] فأصبحت قيمة العمل ومكانته أمراً نسبياً أو ثانوياً تحت وطأة ضغط لا ينتهي من السعي إلى مستوى معيشيّ أعلى والجري وراء المزيد والمزيد من زخارف الدنيا وكمالياتها. وصار السؤال الذي يثور نتيجة لذلك هو ما إذا كان هناك طائل من الجري وراء السلع المادية في حد ذاتها أو ما إذا كان هناك داعٍ لمنح الفرد مزيداً من الترف على هيئة التقليل من ساعات العمل. كما حدثت أيضاً تداعيات من جراء الإفاقة من حلم التقدم والتطور بفعل الحضارة التقنية والمدنية الصناعية على واقع عبء هذا التطور الذي صار يثقل كاهل الفرد بكل بساطة يوماً بعد يوم. فبينما كان الناس في الماضي مدفوعين إلى الأمام أملاً في مستقبل أفضل، أصبح جيل اليوم خائفاً أن يكون مستقبله أسوأ من حاضره أو ألا يكون هناك مستقبل على الإطلاق.

هذه الآفة العظمى...". من كتاب 'منتخبات من مكاتيب عبد البهاء *Selections from the Writings of Abdu'l-Bahá*'، المقتطف 129، مترجما عن النص الفارسيّ. وكما أن المسكرات محرّمة في البوذية، فإن شرب الخمر محرّم أيضا في الإسلام بنصوص قاطعة في القرآن.

[62] في كتابه 'آخرون يقومون بالعمل *Die Arbeit tun dieanderen*' الطبعة الألمانية ص 251

[63] تكلم هيلموت شيلزكي أيضا عن ازدراء العمل والتبرّم منه في نفس هذا المرجع ص 259-244

ولهذا رفع الناس من مكانة اللهو إلى أن أصبح قيمة في حدّ ذاته، وذلك دون التوصل إلى حل لمسألتين: أولاهما هي ماذا يفعل الإنسان باللهو أو ماذا يضع فيه، وثانيتهما هو مقدار اللهو الذي يستطيع الإنسان أن يتحمله بالفعل.[64] ولقد شجعت عوامل إثباط حسن الأداء هذه على إفراز تطور أدى إلى ما أسماه المحللون 'أزمة في مغزى العمل وجدواه'، يتدنّى فيها العمل ليصبح مهنة تؤدَّى بأية كيفية للتخلص منها سريعاً، ويصبح شراً لا بد منه ويكون أكثر مصادر الدخل مقتاً وثِقَلاً على النفس.

وأينما نتلفّت نجد تدهور الانضباط في موقع العمل حتى في البلاد غير الرأسمالية. فدول الاقتصاد الاشتراكيّ تُعاني هي الأخرى من تدنّي أخلاقيات الأداء الوظيفيّ يوماً بعد يوم. ومن بين الانتقادات التي تتصاعد داخل النظام الشيوعيّ هو الشكوى من التسكّع وتضييع الوقت في أماكن العمل بصورة اعتيادية. أي أن ما أسماه الشيوعيون بالإنسان الجديد – ذلك الانسان الذي يعمل من تلقاء ذاته مدفوعاً بالالتزام البروليتاريّ *proletarian commitment* وبعوامل تسمو على كسب المال - لم يأت به النظام الشيوعيّ (حتى وقت انهياره بحلول تسعينيات القرن العشرين). وعلينا أن ندرك من نفس هذا المنظور أن بداخل دولة الرعاية الاجتماعية *the welfare state*، (التي قامت بعد الحرب العالمية الثانية في الدول الاسكندنافية وبدأت تسري في غيرها من دول الغرب)، تشبكت خيوط الضمان الاجتماعيّ بدرجة لم يعد عندها العمل والتوظف أمراً له قيمته ومكانته. صحيح إن الضمان الاجتماعيّ وازالة الرق الصناعيّ[65] هما إنجازان يحسَبان للحركة العمالية، وعلامة فارقة لا غنى عنها على طريق تهذيب العالم إنسانياً. ولكن دولة الرعاية الاجتماعية لن يكتب لها الدوام إلا إذا تصرف المواطن فيها وانتفع بمزاياها على أساس من الأخلاق. فالضمان الاجتماعيّ بمعزل عن أخلاقيات عملٍ تحققُ التوازن من شأنه أن يؤدي إلى الارتزاق الطفيليّ[66]

---

[64] كتب توماس شورهر Thomas Chorherr عن هذا الموضوع في كتابه 'صدمة وقت الفسحة والتسلية: الحياة في مجتمع الأجازات *Der Freizeitschock. Das Leben in der Urlaubsgesellschaft*'، طبعة فيينا عام 1980

[65] حينما كان عبد البهاء في زيارة لسان فرانسسكو سنة 1912 خاطب الأمريكان قائلاً: "بين سنتي 1860 و1865 وفّقتم في الحقيقة إلى أمور عظيمة ممدوحة، وقد أصلحتم مشكلة الرّقيق والاستعباد الزّراعي. أمّا اليوم فيجب عليكم أنْ تقوموا بخدمات أعظم من ذلك وهي أنْ تمنعوا الرّق الصّناعي وعبوديّة العمّال. " نقلا عن ترجمة هذا البيان في كتاب [منتخبات من كتاب بهاء الله والعصر الجديد] ص 195

[66] تناول الكاتب ألفريد بوش Alfred Bosch ظاهرة الارتزاق الطفيليّ في مؤلّفه 'الطفيليون يتزايدون – التطفّل كأسلوب حياة *Die Schmarotzer breiten sich*

أي إلى ظهور طبقة طفيلية من الناس تعيش على الأموال العامة ولا تنفع المجتمع في شيء، أو تقوم فقط بأقل القليل من العمل والخدمة، بينما هي تجني دخلاً من صندوق الضمان الاجتماعيّ يزيد عما قد تحصل عليه من وظيفة بدوام كامل.[67] وهذا خطر أقرّ الكل بوجوده.[68] والسؤال هنا هو بكل بساطة – كيف ندرأ هذا الخطر؟

لقد جُبل الإنسان على الكسل[69] وإلى جانب مجرد ضمان العيش والحياة يلزمنا حشد دائم لطاقات حفز هائلة لكي نتغلب على هذا الميل الفطريّ نحو البطالة والكسالة. وبغير نظرة أخلاقية إلى العمل وموقف منضبط حياله، ومن دون سلوكيات وظيفية، تنعدم طاقات الحفز هذه. كما أن قيام المرء بعمله أوتوماتيكياً دونما أي توجّه ضميريّ فيما يتعلّق بأهمية العمل ومكانته وضرورته أمر لا يكفي. فلكي يؤدَّى العمل كما يجب يحتاج الأمر إلى وجود التزام داخل كل كائن بشريّ بصرف النظر عن طبيعة هذا الالتزام. فجامع القمامة الذي لا يُفرغ صناديق القمامة من محتوياتها جيداً، أو العامل في المصنع الذي لا يحكم ربط المسامير (البراغي)، والشرطيّ الذي لا يسجّل المخالفات في ضجر منه بها، والنادل الذي يخدم عملاءه بإهمال وفظاظة – كل هؤلاء يساهمون في جعل حياة الناس كئيبة باعثة على السأم. وكلما زادت مسئوليات الوظيفة كلما ازداد ضرر الإهمال والتواكل في العمل – ناهيك عن المهن الإنسانية في طبيعتها كالتمريض

---

aus. Parasitismus als Lebensform’ المنشور بدورية *Herder Library Initiative* العدد رقم 9543، طبع فرايبورج عام 1981

67 يرى الكاتب يورجن آيك Jürgen Eick أن لبّ العداء الطبقيّ يكمن في قيام من هم تحت مظلّة الضمان الإجتماعيّ باستغلال من يجتهدون في أعمالهم بكفاءة عالية، ويستشهد بقول المفكر الاشتراكي الهولنديّ بولاك Pollak "إن على نصف البشرية اليوم أن يضع رقبته في نِير العبودية حتى الممات لكي يتسنّى للنصف الآخر أن يتسكّع". من مقالة بعنوان ‘المجتمع المنقسم على نفسه Die zweigeteilte Gesellschaft’ نشرت في جريدة فرانكفورتر ألجيمان *Frankfurter Allgemeine Zeitung* عدد 6 يناير 1973

68 هناك عبارة في دستور جمهورية الصين الشعبية نصّها ‘من لا يريد أن يعمل لا يأكل’ وهو شعار لم يأخذوه عن كارل ماركس (أبي الشيوعية التي قامت عليها تلك الدولة) وإنما من قول بولس الرسول في رسالته الثانية لأهل تسالونيكي "إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضا". (الإصحاح الثالث: آية 10)

69 يقول نيتشه "إن سألت مسافرا جال في الكثير من الأقطار والقارات عن الصّفة التي رآها في كل الناس أينما ذهب سيكون جوابه (كلهم ميّالون إلى الكسل)". من كتابه ‘شوبنهاور المعلّم *Schopenbauer as Educator*’ الجزء الأول، ص 1

ورعاية المسنين وذوي الاحتياجات الخاصّة التي لا يمكن إتقانها بمعزل عن مفهوم الخدمة والتفاني.

ولكن أخلاقيّات العمل لا تتأتّى بسنّ القوانين، فالتفاني لا يحدث بتلقّي الأوامر، كما أن أخلاقيات العمل لا تنبع إلا من شعور داخليّ بالمسئولية. فهي أمور لا يمكن فرضها أو تبريرها دون سند من الأديان. وهذا هو السبب في أن العمل دائماً ما كان محلاً للتقدير في التعاليم الأخلاقية التي جاءت بها سائر الأديان.[70] ولقد تفضل علينا بهاء الله بالعديد من البيانات بهذا الصدد. فلقد أوضح أن مسئولية الإنسان في المقام الأول هي إتقان إحدى المهن وممارستها لينفق على نفسه وأهله من عمل يده، كما أكد على أن الكسالة والبطالة من الرذائل التي يحاسب عليها الانسان إن ارتكبها. فلقد جاء في الكلمات المكنونة[71]: **"خير الناس من يحصلون على أرزاقهم بالعمل وينفقون منه على أنفسهم وعلى ذوي قرباهم"**[72]... **"أنتم أشجار رضواني، فلتتحلوا بالأثمار البديعة المنيعة حتى تنتفعوا وينتفع غيركم لهذا وجب عليكم جميعاً أن تشتغلوا بالصنائع والكسب، هذه هي أسباب الغنى يا أولي الألباب"**.[73] كما يتفضل بهاء الله في موقع آخر بقوله:

---

[70] يُعَدّ العمل بجميع أشكاله في الديانة اليهودية 'خدمة'. وفيها أيضا أن على الإنسان أن يعمل حتى وهو في 'الجنّة' عملا بوصيّة إلهية (سفر التكوين 2: 15)، أما في المسيحية فإن العمل يعد من قبيل التعبير عن الامتنان بالقلب لله (رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسّي 3: 23)، (وهنا يسوق المؤلّف فقرات من مراجع مختلف مذاهب المسيحية تجمع على قداسة العمل، وفضّل المترجم ألا يثقل على القارئ بترجمتها، كذلك لم يكن لدى هذا المؤلف سوى النذر اليسير مما تُرجم من الأحاديث الشريفة إلى اللغات الأوروبية، ويبدو أن ما تُرجم منها حتى الآن لم يشتمل على الأحاديث التى تُمجّد العمل وتوصي المسلم بإتقانه، ولاشك أن قارئ العربية يعرف الكثير منها ولا داعي للمترجم أن يذكرها هنا).

[71] استشهدنا كثيرا بمقتطفات من 'الكلمات المكنونة'، وهي كلمات لا يعني عنوانها أنها كلمات مخبوءة أو مخزونة بمعنى الكلمة، وإنما يشير العنوان الذي اختاره بهاء الله لها إلى اعتقاد أهل شيعة الإسلام بأن الروح القدس قد تجلّى لفاطمة الزهراء، كريمة الرسول محمد، وخاطب زوجها الإمام عليّ بكلمات جلبت لها العزاء في مصابها الأليم بعد وفاة والدها، ولم يطّلع أحد على هذه الكلمات. ويشرح الكاتب البهائيّ أديب طاهر زادة أن بهاء الله قد ماثل 'الكلمات المكنونة' بما نزّل لفاطمة الزهراء، وميّزها في مطلعها بقوله **"هذا ما نزّل من جبروت العزّة بلسان القدرة والقوة على النبيين من قبل..."**. كتاب [ظهور حضرة بهاء الله] المجلّد الأول، ص 73-74

[72] الكلمات المكنونة الفارسية – الترجمة العربية – الكلمة رقم 82

[73] المرجع السابق، الكلمة رقم 80، راجع أيضا لوح أصل كل الخير في كتاب [مجموعة من ألواح...] ص 131 وما بعدها

"قد وجب على كل واحد منكم الاشتغال بأمر من الأمور من الصنائع والاقتراف وأمثالها.[74] كما أنه ينهى عن البطالة نهياً عظيماً إذ يقول **"لا تضيّعوا أوقاتكم بالبطالة والكسالة واشتغلوا بما ينتفع به أنفسكم وأنفس غيركم... أبغض الناس عند الله من يقعد ويطلب".**[75] وتشبيه الإنسان بالشجر الذي يجب أن يتحلّى بالثمار قد ورد مراراً وتكراراً في الآثار البهائية التي تحضّ على مكارم الأخلاق سيما ما تعلق منها بوجوب العمل وضرورة إتقانه، مثل قول بهاء الله: "شرّ الناس من يظهرون في الأرض بلا ثمر إنهم في عداد الأموات يحسبون، بل إنّ الأموات أرجح عند الله من تلك النفوس المعطلة المهملة. أما الأشجار غير ذات الأثمار فإنها كانت وما زالت خليقة بالنار."[76] كما حرّم التسوّل بشكل قاطع.[77] مدينا بذلك كل شكل من أشكال العيش الطفيليّ، فإذا ما كان هناك فرض على الإنسان أن يتكسب من عمل يده، وكان نيل البرّ مشروطاً بالعمل[78]، فالصعلوك الرافض للعمل والغنيّ القاعد كلاهما منبوذ ومذموم على حدّ سواء.

فالعمل والاشتغال طبقاً للتعاليم البهائية هو الغرض الأساسيّ من وجود البشر في الحياة الدنيا[§]، وهو أيضاً علامة فارقة فيما يتعلق بترقّي الفرد. ولكن الأمور في البهائية لا تنتهي عند هذا الحد، فقد رفع بهاء الله العمل إلى مصافّ عبادة الله بقوله **"فكلّ من يشتغل بصنعة أو احتراف ويعمل بها يُعدّ عمله عند الله نفسَ العبادة".**[79] فالعمل شأنه شأن الصلاة – أي أنّ العمل عبادة، وهي صفة لا يرقى إليها العمل من المنظور الماديّ وفلسفاته، فالعبادة دون التسليم والرضاء غير مقبولة في المنظور الإلهيّ وفي ظل التعاليم الدينية وكذلك العمل، فإذا ما كان للعمل ان يتم بروح الخدمة لله، وجبت تأديته بتسليم ورضاء قلبيّ، فيصبح عملاً مقدساً يؤدَّى بسريرة راضية وقلب طاهر، ويكون نابعاً عن محبة وسرور، كما يقول عبد البهاء: "إذا انكب إنسان على صنع رقعة من الورق بكل ما أوتي من مقدرة،

---

[74] كتاب [مجموعة من ألواح...] لوح البشارات، البشارة الثانية عشر، ص 42

[75] المرجع السابق، نفس الصفحة

[76] الكلمات المكنونة الفارسية – الترجمة العربية – الكلمتان 80، 81

[77] طبقا لأحكام الكتاب الأقدس، الفقرتان 33، 147، والشروح المتعلقة بهما

[78] راجع أيضا لوح الطرازات، الطراز الأول، في [مجموعة من ألواح...] ص 51

[§] كما جاء في شرح الكتاب الأقدس (ص 203) أن العمل "يقرّبنا إلى الله ويمكّننا من تفهّم الغاية التي عينها لنا". [المترجم]

[79] كتاب [مجموعة من ألواح...] لوح البشارات، البشارة الثانية عشرة، ص 42

حاصراً كل همه في إتقان ذلك العمل، فيكون عمله هذا بمثابة تسبيح لله... فكل جهد وهمة يؤديهما الإنسان من صميم فؤاده هو عبادة، إذا نتجت عنه أسمى المقاصد والعزم على خدمة الإنسانية."[80] فالعمل إذن هو أيضاً خدمة من الإنسان لجاره، نظراً لأن 'في ذلك عبادة' كما يخبرنا حضرة عبد البهاء، ويزيد هذه النقطة شرحاً بقوله: "أي أن نخدم الإنسانية ونرعى احتياجات الناس.[81]... فالخدمة حباً للإنسانية هي عين التوحيد. ومن يقوم على الخدمة هو في الملكوت بالفعل جالس على يمين ربه."[82] وطالما كان الغرض من العمل ليس مقصوراً على ضمان العيش وإنما يتخطى ذلك، فيكون خدمة لله والبشر، يصبح هذا دلالة واضحة على توفّر قوة دافعة في هذه الحالة من شأنها أن تحفز المؤمنين على الخدمة وتتغلب على الكسالة التي يقال عنها إنها السّمة الفطرية التي تميّز البشر في المقام الأول. كما أن المكانة التي أولتها التعاليم البهائية للعمل والاشتغال تفتح الباب أمام تقييم مختلف جديد لأوجه النشاط التي ينطوي عليها الاشتغال وذلك من منظور أنه حتى تلك الأشغال التي يكون العمل فيها بالضرورة روتينياً مملاّ سيكون لها سهم ونصيب في معنى العمل ومغزاه. وفي المجتمعات البهائية المستقبلية ستحظى أحقر الأشغال اليدوية شأناً – وهي بالمناسبة لا تقل نفعاً للصالح العام عن أرقى الأعمال الذهنية – بمفهوم ومغزى جديد مختلف. كما ستحظى مهن الرعاية (كالطب والتمريض)، وهي التي لا يمكن ممارستها جيداً بغير محبة خالصة من الإنسان لأخيه الإنسان، ستحظى من جديد بدعم من نفس تلك الأخلاقيات التي طالما مكّنت الإنسان لقرون كثيرة مضت من التضحية بنفسه من أجل أخيه.[83]

---

[80] في حديث له بلندن، ورد في الطبعة الإنجليزية من كتاب 'أحاديث باريس *Paris Talks*'، ص 176، مترجما

[81] المرجع السابق ص 177، مترجما

[82] نقلا عن كتاب 'نموذج الحياة البهائية *Pattern of Bahá'í Life*'، الطبعة الإنجليزية ص 39، مترجما

[83] للاستزادة فيما يتعلق بالهدف من العمل أنظر كتاب 'وصفة للحياة *A Prescription for Living*' لروحية رباني، الطبعة الإنجليزية ص 84 وما بعدها

الاعتدال

يجمل بنا هنا أن نتأمل المكانة السامية التي أولاها بهاء الله لفضيلة الاعتدال. فهذا النهج الذي مجّده فلاسفة العصور الأولى وشعراؤها[84]، وامتدحه حكماء الصين[85]، قد أولاه بهاء الله مكانة مميزة، إذ يُطالعنا في الكلمات الفردوسية بقوله: **"حَقّاً أَقُولُ إِنَّ الْمَحْبُوبَ فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ هُوَ الاعْتِدَالُ. وَمَتَى تَجَاوَزَ صَارَ سَبَبَ الأَضْرَارِ."**[86] كما يحضّ بهاء الله الرؤساء والحكّام قبل أيّ شيء آخر فيما يتعلق بالحرية والمدنية على التحلّي بفضيلة الاعتدال، وذلك لأن الحرية الزائدة والمدنية المادّية المفرطة **"لَوْ جَاوَزَتْ حَدَّ الاعْتِدَالِ أَدَّتْ إِلَى الضَّرَرِ"**[87]، فالحرية المطلقة تُفضي إلى الفوضى وتنقلب طغياناً. أما المدنية المادية التي لا قيد لها ولا ضابط فهي تؤدي (على أقل تقدير) إلى الشطط في الأنشطة الصناعية، وهو – كما تنبأ به بهاء الله قبل أكثر من مئة عام مضت عندما كان اندفاع العالم إلى التصنيع في مهده وكان من الممكن كبح جماحه – أمر يؤدّي إلى الدمار البيئيّ الذي نشاهده الآن بكل انزعاج: **"إن التمّدن الذي يذكره علماء مصر الصنائع والفضل لو يتجاوز حد الاعتدال لتراه نقمة على الناس كذلك يخبركم الخبير. إنه يصير مبدأ الفساد في تجاوزه كما كان مبدأ الإصلاح**

---

[84] يُنسب إلى أفلاطون عبارة شهيرة له هي *Méden agán* وهي تعني ‘ليس كثيرا’ نقشت على معبد أبوللو في دلفي. ولقد ذكر أفلاطون الاعتدال *sophrosyne* ضمن الفضائل الأساسية الأربعة، وهي الحكمة والشجاعة والاعتدال والعدل. والاعتدال مذكور في رِواق أرسطو بلفظ *temperantia*. أما بالنسبة لتوماس الأقوينيّ فإن الاعتدال اتخذ أهمية محورية، وأضاف لفضائل أفلاطون الأساسية ثلاثة فضائل أخرى هي الإيمان والمحبة والأمل. أمّا اللاهوت السلوكيّ في الكاثوليكية فإنه يضع الاعتدال في مصاف الفضائل الطبيعية الأساسيّة للإنسان. وعن المراجع الأخرى فمنها كتاب جوزيف بيبير Joseph Pieper ‘الفضائل الأربعة الأساسية: الحكمة والعدل والثبات والاعتدال *The four cardinal virtues; prudence, justice, fortitude, temperance*’، طباعة Notre Dame, Ind، عام 1966

[85] عندما قال كونفوشيوس الحكيم "ما أكمل الفضيلة عندما تتفق مع الوسطية الذهبية!" في مجموعة أقواله ‘المقتطفات او الشذرات *The Analects*’ المجلد السادس، الفصل السابع والعشرين

[86] كتاب [مجموعة من ألواح...] ص 87

[87] المرجع السابق، ص 149-150

في إعتداله، تفكروا يا قوم ولا تكونوا من الهائمين. سوف تحترق المدن من ناره وينطق لسان العظمة المُلك لله العزيز الحميد".[88]

ولقد فقد العالم حكمة الاعتدال، وصار هذا الفقدان هو السبب الحقيقيّ وراء البؤس والشقاء البيئي. فالتكنولوجيا والصناعة في حد ذاتهما ليستا شراً أو ضرراً، وإنما الإفراط فيهما هو ما يهدد بافتراسنا. ونظراً لأن عواقبهما لا يمكن التنبؤ بها، فقد صار العلماء في يومنا الحاضر على علم بهذه الخطورة بدرجة متزايدة. فبحسب قول إرفين تشارجاف Erwin Chargaff "لقد فقدنا بالكلية هذا الإحساس بالمعيار، وبالحصافة، وبمعرفة الإنسان لحدوده. هذا مع أن الإنسان لا يكون قوياً إلاّ عندما يكون عالماً بنقاط ضعفه. وبغير ذلك فإن ‘نسور الآلهة’ سوف تنهش كبده، كما تبيّن لبروميثيوس Prometheus (تلك الشخصية الأسطورية التي حكت عنها أساطير الإغريق أنها نالت ذلك الجزاء بسبب إسهامها في إفراط التمدّن). ومع أننا اليوم لا نرى نسور الآلهة ولا خبر لنا عن بروميثيوس، إلا أننا بدلاً من ذلك نصاب بداء السرطان – المرض الأول في المدنيات الراقية."[89]

وعندما يشرح عبد البهاء هذه الحقيقة بقوله" إن حياة ونجاة كل شيء في عالم الإمكان منوط بالاعتدال"[90]، فإن ذلك ينسحب أيضاً على الفضائل في حد ذاتها. فكل شيء لا يكون سليماً عند الإفراط فيه حتى الفضائل. إذ يقول كونفوشيوس حكيم الصين "إن تجاوز الحد هو على نفس السوء مثل عدم الوصول إليه."[91] والمبالغة في فضيلة مثل العفة أفضى إلى قيام مذهب التعفف عن الزواج *celibacy* والاحتشام المتكلف إبان العصر الفيكتوريّ *Victorian prudery*، كما أن الإفراط في فضيلة مثل التجرد أدّى إلى الزهد والرهبنة، وانزلقت المبالغة في المطالبة بمساواة المرأة بالرجل من جانب المناديات بها إلى نوع عدوانيّ من الأنثوية الكارهة للرجل، وفي حالاته المتطرّفة أدّت إلى العلاقات المثلية بين النساء. وأدت المبالغة في

---

[88] كتاب [منتخباتي...] – المقتطف 164

[89] في كتابه ‘نيران هرقل *Heraclitean Fire*’، الطبعة الإنجليزية، ص 155

[90] كتاب [بدائع الآثار] للمؤرخ الشهير محمود زرقاني (الذي رافق عبد البهاء في أسفاره للغرب) المجلّد الثاني، ص 338، مترجما عن الفارسية، راجع أيضا قول بهاء الله في كتاب[منتخباتي...]، المقتطف رقم 164. (وهناك نخبة لا بأس بها من النصوص البهائية عن الاعتدال في كتاب [الكنوز الإلهية] فصل رقم 6 ‘الاعتدال’ ص 43 وما بعدها. [المترجم])

[91] كتاب ‘المقتطفات أو الشذرات’، مرجع سابق، المجلد الحادي عشر، الفصل الخامس عشر

التديّن إلى التواكل والاستكانة التي عزاها المستشرق جولدت سيهر Goldziher إلى شيوع الدروشة.[92] أما الكرم المفرط فإنه يصير تبذيراً وإسرافاً. ومن هنا جاء التحذير القرآنيّ للمؤمنين: "وَآَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ".[93] كما أن المبالغة في التقوى والورع تنقلب إلى الرياء والتزمّت والتعصب، والتمادي في الاستقامة المفرطة تؤدّي إلى ادّعاء القوامة على الناس، والأدب المفرط يفضي إلى التزلّف والخنوع والتملّق، أما الشجاعة الجامحة فتصبح تهوّراً، وأخيراً فإن مبدأ السمع والطاعة المعزول عن الأسس الأخلاقية، وأيضاً مفهوم الضبط والربط المتجرّد من المعايير السلوكية السامية، هما اللذان أفضيا بشكل مباشر إلى تلك الجرائم التي ارتُكبت في معسكرات الإبادة (إبان الحكم النازي)[§].

وحتى تلك القيم التى تتربع على قمة الفضائل، وهما المحبة والإنصاف، تتداعيان وتتفسخان عندما تمارسان بالشطط والمبالغة. فالعدل الذي يُطبّق تحت شعار 'فليحيا العدل ولو مات العالم *Fiat justitia, et pereat mundus*' ينحدر إلى سقطة التعصب التي اعمت كولهاس Kohlhaas، تلك الشخصية التي ابتكرها الروائيّ الألمانيّ هنريش فون كلايست Heinrich v. Kleist[94]. أما الحب الجارف فهو المنزلق بصاحبه إلى النّزوة. فعندما تتخطى الأحاسيس والعواطف حواجز العدل والإنصاف تؤدي إلى تداعي النظام والضابط كما ذكر الكاتب إميل برونار Emil Brunner: "إذا حادت المحبة عن العدل والإنصاف في دنيا المؤسسات تنقلب إلى نزق عاطفيّ. والنزق العاطفيّ الذي يتأثر فقط لمجرّد التأثر هو

---

[92] عن مؤلفه 'محاضرات في الإسلام *Vorlesungen über denIslám*'، الطبعة الألمانية، ص 151 وما بعدها

[93] سورة الإسراء: الآية 26 وما بعدها

[§] ولقد أدّى مبدأ السمع والطاعة هذا، بتطبيقه المعزول عن القيم الأخلاقية إلى تفشّي ظاهرة الإرهاب التي لم يعد ينجو منها أي مكان في العالم هذه الأيام. [المترجم]

[94] "إلا أن إحساسه بالعدل حوّله إلى قاطع طريق سفّاح" – هكذا اختتم هينريتش كلايست (1777-1811) روايته 'ميشيل كولهاس *Michael Kohlhaas*'، وهو واحد من ألمع الروائيين الألمان وقد يكون أعظمهم. وتصف هذه الرواية مصير تاجر جياد انقلبت حياته إلى فوضى من جراء العنف والظلم. وفي ظل إخفاق المؤسسات الحاكمة في حماية حقوقه أو الدفاع عنها، يلجأ إلى انتزاعها بنفسه، مستخدما كل ما يلزم من الوسائل بما فيها الوسائل الإجرامية. فينقلب في النهاية حارقاً للمنازل وقاتلاً يلقى نهاية مأسوية. (وهي شخصية تماثل شخصية أدهم الشرقاوي في الفولكلور الشعبيّ المصريّ [المترجم])

السمّ الذي يسري بتأثيره التفكيكيّ في أوصال كل مؤسسات العدالة."[95] والنزعة الأحادية الرؤية إلى التركيز على القيمة المحورية لفضيلة 'المحبة' – وهي نزعة شائعة في يومنا هذا يصاحبها إغماض العين تماماً عن سائر الفضائل الأخرى لا سيّما فضيلة العدل والإنصاف – تؤدّي في نهاية المطاف إلى ذاتية *subjectivity* متحيّزة تحيزاً كاملاً بدلاً من الموضوعية *objectivity* المتجرّدة في تناول الفضائل، وتفضي إلى الإجهاز على المنظومة الموضوعية في الفضائل.[96] والحكمة القائلة بأن معايير السلوك هي أيضاً لها حدودها ومحدوديتها الفطرية كانت معروفة لكونفوشيوس إذ يقول: "يصبح الأدب غير المنضبط بقواعد حسن التذوّق تكلّفاً، والحياء المفرط جُبنا، والشجاعة الجامحة تهوّراً، والصراحة الفجّة وقاحة".[97]

'الميزان' – ذلك المعيار الجديد

تتضح المكانة التي تُوليها الأوامر الإلهية للترتيب الجديد للقيم بكل جلاء في التعاليم الإسلامية المبنية على مبدأ الثواب والعقاب في الحياة الآخرة، أو ما يسمى بالأخروّيات، إذ يَعِدُ القرآن والحديث الشريف بأن الميزان سيُنصب يوم الحساب وبه توزن كل أعمال البشر من حسنات وسيئات. فلما ظهر بهاء الله وأعلن أن بمجيئه أتت 'الساعة' الموعودة، احتجّ المسلمون ممن يفهمون 'الميزان' بمعناه الحرفيّ قائلين إن ذلك الوعد لم يتحقق لأن الميزان بعينه لم يُنصب. وفي إحدى بياناته النثرية البليغة يتناول حضرة بهاء الله الاعتراضات المبنيّة على مبدأ الثواب والعقاب الأخرويّ في الإسلام التي ساقها من رفضوا دعوته، بقوله: **"قَالَ إِنَّا مَا نَرَى الْمِيزَانَ قُلْ إِي وَرَبِّي الرَّحْمَنِ لاَ يَرَاهُ إلاَّ أُولُوا الأَبْصَارِ."**[98] كما يؤكد حضرة بهاء الله بأن الميزان قد نصب بظهوره **"قد أتى الرحمن بسلطان مبين ووضع**

---

[95] في كتابة 'العدل والنظام الاجتماعي *Justice and the Social Order*'، الطبعة الإنجليزية، ص 129

[96] أنظر فصلنا العاشر "الموازنة بين السلطة والحرّية"، بند 'في معاداة القانون'

[97] كتاب 'المقتطفات (أو الشذرات)' مرجع سابق، المجلد الثامن، الفصل الثاني

[98] كتاب [مجموعة من ألواح...] – الإشراقات، ص 16

الميزان وحُشِر من على الأرض أجمعين."[99] ويوضّح بكل جلاء أن المقصود بالميزان هو كتاب الله الجديد، إذ هو المعيار الأخلاقيّ الجديد.[100]

وفي الكتاب الأقدس الذي أُوحِي به إلى بهاء الله عام 1873 في عكاء إبّان ذروة طوفان البلايا التي تحملها شخصه طيلة حياته، في فترة كان حكام الأرض قد تخلّوا عنه بغير رجعة،[101] وهو الكتاب الذي ينظر إليه البهائيون على أنه قلب 'التنزيل' الجديد و"أمّ الكتاب" و "كتاب الله"، فهم يشاهدون فيه تلك الشريعة التى تنبأ بها إشعياء النبيّ بأنها تخرُج من صهيون[102]، ويرون في ذلك الكتاب أيضاً تلك 'السماء الجديدة' و 'الأرض الجديدة' اللتين شاهدهما يوحنا اللاهوتي في رؤياه، وكذلك 'المدينة المقدسة' النازلة من السماء، و 'أورشليم الجديدة'، و 'العروس'، و 'مسكن الله مع الناس'.[103] وهو ما أشار بهاء الله إليه من قبل في كتاب الإيقان[104] ووصفه أيضاً في مناسبات أخرى بأبدع الصفات، منها: **'مطلع الفرح المبين'،**

---

[99] كتاب [منتخباتي...]، مقتطف 17

[100] عن شرح القرآن لحقيقة أن الميزان هو المعايير الأخلاقية التي جاءت بها الكتب السماوية في الماضي أنظر: الأعراف: 8-9، الشورى: 17، الرحمن: 7، الحديد: 25، القارعة: 6-8. ، وعن الوعد بنصبه في المستقبل عندما يأتي رسول جديد بمعايير أخلاقية جديدة أنظر: الأنبياء: 47، المؤمنون: 102-103.

(وهناك معاني آخرى للميزان في الفقه الإسلاميّ، كما ورد في شرح الحديث النبويّ "الميزان بيد الرحمن يرفع أقواما ويضع آخرين" – إذ قال الداوودي أن الله قد «قدر الأشياء ووقّتها وحدّدها فلا يملك أحد نفعا ولا ضرا إلا منه وبه» ، ومن رأي النوويّ أن القسط والميزان «هو عبارة عن تقدير الرزق؛ يقتّره على من يشاء، ويوسّعه على من يشاء، وقد يكونان عبارة عن تصرّف المقادير بالخلق بالعزّ والذلّ» [المترجم]).

[101] رسالة 'جاء اليوم الموعود *The Promised Day is Come*'، الطبعة الإنجليزية، ص 24، مترجما

[102] الكتاب المقدّس، سفر أشعياء 2: 2-3

[103] الكتاب المقدّس، سفر الرّؤيا 21: 1-3، انظر أيضا ذكر 'المدينة الإلهية' في كتاب الإيقان ص 156 وما بعدها، والشرح الوارد في خطبة عبد البهاء بمجمع الروحانيين بباريس، كتاب [خطب عبد البهاء...] ص 142، وكذلك وصف شوقي أفندي للكتاب الأقدس في كتاب [القرن البديع] ص 260 وما بعدها.

[104] كتاب [الإيقان] ص 159

‘محيي العالم‘، و**‘الحصن الحصين’**[105]، و**‘الصراط الأقوم‘**، و**‘مصباح القِدَم للعالم’**[106]، و**‘ميزان العدل’**[107] و**‘قسطاس الهدى بين الورى’**.[108]

فذلك الكتاب، الذي هو التوجيه الإلهيّ للخلق الجديد، وميثاق نَظم بهاء الله العالميّ[109]، هو إطار لأسمى المعايير والقيم الأخلاقية والعدالة. وأحكامه معايير سامية هادية للتشريع البهائيّ برمّته، سيما فيما يختصّ بعمل بيت العدل الأعظم[110] الذي سوف يضع، بمرور السنين وبعد التطبيق الكامل لأحكام الكتاب الأقدس، تلك الأحكام التكميلية التي ستلزم المجتمع العالميّ. ويشتمل هذا الكتاب، بجانب محكم التشريع، على وصايا وإنذارات إلى القادة الروحيين والزمنيين، وعلى نبوءات وتوضيحات في المسائل العقائدية الأساسية، مثل عصمة المظاهر الإلهية، وروح الشريعة الإلهية، وضوابط الحرية وما إلى ذلك. والكتاب هو أيضاً الوثيقة الدستورية الإلهية، إذ أنه يحدد المؤسسات التشريعية والإدارية للمجتمع العالميّ، وكذلك يمهّد لولاية ابنه الأرشد، عبد البهاء، التي قدّر لها أن تأتي من بعده بوصفه مركز عهده وميثاقه وكونه المفسّر والمبيّن المعتمد للكلمة المنزّلة.[111] فالكتاب الأقدس إذن هو المصدر الرئيسيّ للقانون الدستوريّ البهائيّ.[112] أما الأحكام التي ينطوي عليها فتدعّمها وتكمّلها قواعد وأحكام أخرى عديدة جاءت في ألواح[113] منزّلة نذكر منها الإشراقات والبشارات والطرازات

---

[105] راجع أيضا وصف شوقي أفندي في كتاب [القرن البديع] ص 262

[106] الكتاب الأقدس، فقرة 186

[107] كتاب [منتخباتي...] المقتطف رقم 88

[108] راجع أيضا وصف شوقي أفندي في كتاب [القرن البديع] ص 262

[109] كما يصفه شوقي أفندي في رسالة ‘جاء اليوم الموعود *The Promised Day is Come*’، الطبعة الإنجليزية، ص 24، مترجما

[110] أنظر ما سنفصّله في الفصل الثالث عشر "المجتمع البهائيّ"، بند ‘الهيكل القانونيّ...’ وما بعده

[111] راجع أيضا كتاب [القرن البديع] ص 261-262

[112] للمزيد لمن يعرفون اللغة الألمانية، راجع أيضا رسالة هذا المؤلف التي تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة هايدلبرج عام 1957 بعنوان ‘قواعد النظم الإداريّ البهائيّ *Die Grundlagen der Verwaltungsordnung der Bahá’í*’

[113] كلمة ‘ألواح’، ومفردها ‘لوح’ يطلقها أهل العربية عادة على صفحات الكتابات المقدّسة، فهو اصطلاح تكرر ذكره في الكتاب المقدس (سفر الخروج 24: 12، 31:18، 32: 15-16، وسفر إشعياء 30: 8، وسفر حبقوق 2: 2) وفي القرآن

والتجليات والكلمات الفردوسية واللوح الأقدس، ولوح الدنيا، ولوح مقصود، وغيرها.

ولا يستغرب أن تكون الأحكام كما أنزلها بهاء الله غير ممنهجة أو مبوبة كما هو المفترض في أساليبنا القانونية (الوضعية) الحديثة. ذلك لأن تاريخ الأديان يُظهر أن الأحكام الإلهية لم تتنزل أبداً على هيئة منظومة من الأحكام العامة البحتة التي تمت هيكلتها بأسلوب منهجيّ عقلانيّ. فيكون من الخطأ أن نطبّق على الأحكام الإلهيّة معايير أنظمتنا القانونية الحديثة، كما فعل روزنكرانتس Rosenkranz عندما وصف الكتاب الأقدس بأنه "خليط عشوائيّ من التعليمات".[114] فهو انتقاد يخفق في فهم حقيقة أن مؤسسي الأديان لم يأتونا أبداً بنصوص مبوّبة ومرتبة، وأن وما جاءونا به من مبادئ وتعاليم ليست مدعّمة بحجج عقلانية كما هو الحال مع فلسفات ‘عصر التنوير’. فالحاصل، كما وصفه روزنكرانتس في موضع آخر[115]، هو أن جوهر الدين عرفانيّ يخاطب الأفئدة والقلوب وليس ذهنياً يناشد العقولّ، فلا أحكام العهد القديم أو القرآن قد صيغت في سياق منهجيّ. إذ إن علماء اللاهوت والفقه هم الذين منهجوها بعد ذلك. والكتاب الأقدس هو الآخر ليس كتاباً مبوّباً في القوانين، ولم يشأ بهاء الله له أن يكون كذلك، إذ يقول **"لا تحسبوا أنا نزلنا لكم الأحكام بل فتحنا ختم الرحيق المختوم بأصابع القدرة والإقتدار".**[116] أما ذلك الحدث الغيبيّ، وهو نصب ‘الميزان’، فقد أعلن عنه

الكريم أيضا (البروج: 22، الأعراف: الآيات 145، 150، 154)، ويفضّله البهائيون على أيّ مصطلح غيره سيّما فيما يتعلّق بآثار بهاء الله.

[114] في كتابه ‘البهائية *Die Bahá’í*’، الطبعة الألمانية، ص 32

[115] المرجع السابق، ص 56

[116] الكتاب الأقدس، فقرة 5 – ولقد طبع صُلب الكتاب الأقدس أوّلا في بومباي عام 1890(بلغته الأصلية – العربية)، وكان في متناول البهائيين في اقطار الشرق (الأوسط) وكانوا يطبّقون أحكامه فيما يتعلق بالأحوال الشخصية. أما بالنسبة للبهائيين في الأنحاء الأخرى من العالم فكان ما يعرفونه من الكتاب الأقدس مقصورا على ما ترجمه شوقي أفندي إلى اللغة الإنجليزية وضمّنها على وجه الخصوص في كتاب [منتخباتي...] المقتطفات 37، 56، 70، 72، 98، 105، 155، 159. ثم بدأ نشر الكتاب الأقدس في العالم البهائيّ رسميّا (على مرحلتين، أولاهما في) عام 1973 عندما طبع كتيب [خلاصة وترتيب أحكام الكتاب الأقدس وأوامره *Synopsis and Codification of the Laws and Ordinances of the Kitáb-i-Aqdas*’ (بالإنجليزية)، ثم في عام 1992 – الذي شهد الذكرى المئوية لوفاة بهاء الله – حيث صدر مجلّد شامل بعنوان [الكتاب الأقدس *The Kitáb-i-Aqdas*] باللغة الإنجليزية أولا ثم تلاه بعد ذلك طبعات عديدة بلغات العالم الرئيسية ومنها العربية، ويضم هذا المجلد بين دفتيه صُلب الكتاب الأقدس، مسبوقا بمقدمة لبيت العدل الأعظم، وتعريف

بهاء الله بهذه الكلمات التي تحدّى بها علماء الدّين وفقهاءه: **"قل يا معشر العلماء لا تزنوا كتاب الله بما عندكم من القواعد والعلوم انّه لقسطاس الحقّ بين الخلق قد يوزن ما عند الامم بهذا القسطاس الاعظم وانّه بنفسه لو انتم تعلمون"**[117]، وكذلك **"... قل هذا لقسطاس الهدى لمن في السّموات والارض والبرهان الاعظم لو انتم تعرفون۞ قل به ثبت كلّ حجّة في الاعصار لو انتم توقنون۞ قل به استغنى كلّ فقير وتعلّم كلّ عالم وعرج من اراد الصّعود الى الله ايّاكم ان تختلفوا فيه كونوا كالجبال الرّواسخ في امر ربّكم العزيز الودود".**[118]

فالميزان إذن ما هو إلاّ رمز وإشارة إلى معيار جديد، يوحي به الله في 'يوم الدينونة'، (أي في يوم الظهور الرسوليّ الجديد). فالوحي، أي كتاب الله وما يأتي فيه من جديد من فضائل وكمالات هو المعيار الذي يوزن به كل الأخلاق والسلوكيات.[119] **"فاعلموا بانّ اصل العدل ومبدئه هو ما يأمر به مظهر نفس الله فى يوم ظهوره لو انتم من العارفين قل انّه لميزان العدل بين السّموات والأرضين وانّه لو يأتى بأمر يفزع من فى السّموات والأرض انّه لعدلٌ مبينٌ"**[120]

شوقي أفندي لهذا الكتاب كما جاء في كتابه [القرن البديع] ومتبوعا برسالة 'سؤال وجواب'، وهي مجموعة من أسئلة عن أحكام الكتاب الأقدس عرضها كاتب وحي بهاء الله ميرزا زين المقرّبين ودّون إجاباته عنها، يليها الخلاصة والتبويب التي صدرت عام 1973، وأخيرا الشروح التي رأى بيت العدل الأعظم ضرورة إيضاحها في الوقت الحالي. وغنيّ عن البيان أن المستقبل سيأتي بإضافات مستمرة للكتاب الأقدس على هيئة مزيد من شروح بيت العدل الأعظم، وتشريعاته المكمّلة في كل من التفاصيل والجزئيات التي أناطها به بهاء الله نفسه. (وعلى الرغم من أن صلب كتاب الأقدس نفسه باللغة العربية، إلا أنه كان من اللازم لصدور هذا المجلّد بلغة الضاد أن تترجم هذه الأجزاء الأخرى إليها من الإنجليزية والفارسية [المترجم]).

117 الكتاب الأقدس، فقرة 99

118 المرجع السابق، فقرة 183

119 للمزيد راجع كتابنا 'النور يلمع في الظلام *The Light Shineth in Darkness*'، الطبعة الإنجليزية، ص 73 وما بعدها

120 كتاب [منتخباتي...] المقتطف رقم 88

عن أصل المعايير الأخلاقية ومنشأها

ما هو العدل؟ أو كما تساءل بيلاطس البنطيّ في مواجهته من المسيح "ما هو الحق؟"[121] ذلك السؤال القديم قِدَم الجنس البشريّ على هذا الكوكب. ومن رأي الفيلسوف القانونيّ هانز كيلسن Hans Kelsen أنه في معرض بحثنا عن الحقيقة ما من سؤال آخر ألهب العقول بدءًا من 'أفلاطون' وانتهاء بـ 'كانط'، وما من سؤال آخر كلّف البشرية الكثير من غالي الدماء ومرير الدمع أكثر منه. ويزيد كيلسن على ذلك قائلاً: "وعلى الرغم من ذلك فإن هذا السؤال قد تلقى الكثير من الإجابات في الماضي كما في الحاضر أيضاً."[122] وما ذكرناه هنا من بيانات بهاء الله يجيب عن هذا التساؤل بشأن العدل. ويشكّل المحور اللاهوتي لسنّ كل النواميس والشرائع والأساس الذي ترتكز عليه كافة المعايير الأخلاقية لسلوك الفرد في هذا العالم.

فالصخرة التي بنيت عليها كافة القيم الأخلاقية الجوهرية هي التنزيل الإلهيّ. فلا يوجد قانون أخلاقيّ بمعزل عن الله، وذلك على النقيض تماماً من نواميس الطبيعة التي لا ترتبط الكينونة الربّانية بأيّ منها. وطبقاً لمفهوم القرآن أيضاً يكون أي افتراض بوجود قانون خُلُقيّ قديم منعزل عن الله شِركاً، بل أعظم الكبائر التي لا يغفرها الله.[123] فالإرادة الإلهية هي وحدها إذن التي تقرر ما هو صالح وما هو طالح. "وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ"[124] كما أنه "لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ".[125] وهذه النزعة الإرادية هي التي تتمشى مع العقل والمنطق عندما نفكر بمفهوم دين يوحَى به من مصدر سماويّ واحد. فمن وجهة نظر الديانة الموسوية تكون التوراة

---

[121] إنجيل يوحنا 18: 38

[122] في كتابه 'ما هو العدل؟ *Was ist Gerechtigkeit*'، الطبعة الألمانية، ص 1

[123] "إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا" (النساء: 116)، وتوضح الآية 13 من سورة ابن لقمان جسامة الشرك بالله. وفي اليهودية مبدأ مماثل في أسفار العهد القديم، نسوق منه: "لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتًا، وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ، لأَنِّي أَنَا الرَّبَّ إِلَهَكَ إِلهٌ غَيُورٌ، أَفْتَقِدُ ذُنُوبَ الآبَاءِ فِي الأَبْنَاءِ فِي الْجِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابعِ مِنْ مُبْغِضِيَّ، وَأَصْنَعُ إِحْسَانًا إِلَى أُلُوفٍ مِنْ مُحِبِّيَّ وَحَافِظِي وَصَايَايَ. لاَ تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهِكَ بَاطِلاً، لأَنَّ الرَّبَّ لاَ يُبْرِئُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلاً." سفر التثنية 20: 4-7

[124] البقرة: 252

[125] الأنبياء: 23

هي الناموس الأساسيّ في عالم الأخلاق بكلّ نقاء وبساطة.[126] وعند المسلمين يكون القرآن وسنة[127] الرّسول[128] بمثابة لبّ وجوهر كل من الأخلاق والشريعة. كما أن بولس الرسول[129]، وكذلك أساطين اللاهوت المسيحيّ أوغسطين ودانز سكوتاس Duns Scotus [130] – في اقتداء منهم ببولص الرّسول – يرون ذلك أيضاً. وهو رأي شرحه أيضاً عالم اللاهوت الألمانيّ هانز فيلتسل Welzel قائلا: "على أنه لا يوجد قانون أعلى من شريعة الله وإرادته، فإرادته هي التي تخلق كل قانون، وهذا هو السبب في ان كل ما يصدر عنه يكون بالضرورة صواباً وفي محلّه... فالله يفعل ما يفعل ويكون ذلك عين العدل والإنصاف في كل الأحوال. ولا يتقيد الله بأيّ نموذج مثاليّ قديم، وإنما تكون كل الشرائع أنظمة معتمدة على إرادة الله".[131] كما أن من رأي (رائد المذهب البروتستانتي) كالفين Calvin أن مصدر كل شريعة هو إرادة الله التي تَجِلّ عن كل تصوّر ووصْف – إذ

---

[126] ويشرح الفيلسوف الألمانيّ الشهير هيرمان كوهين Hermann Cohen هذه المسألة بقوله: "وبالنسبة للعقلانية التوحيدية، فإن الدين الفطريّ وكذلك الناموس الفطري لا يصلحان لأن يكونا ركيزتين كافيتين، إذ أن الركيزة الوحيدة لهذه العقلانية هي الله دون سواه. " من كتابه ‘دين العقلانية من المصادر اليهودية *Religion of Reason out of the Sources of Judaism*’، الطبعة الإنجليزية، ص 353

[127] والسنّة هي المثل الحيّ الذي ضربه الرسول بأقواله وأعماله كما تنقله الأحاديث والسيرة. أنظر شرح جولدت سيهر لهذه المسالة في كتابه محاضرات في الإسلام [مرجع سبقت الإشارة إليه]، ص 36 وما بعدها.

[128] يقول جولتسيهر أن كافة الأحوال في الحياة الخاصة والعامة هي مواضيع قد تناولها مبدأ ‘الواجب’ في الدين. المرجع السابق، ص 50.

[129] قول بولس الرسول عن إرادة الله الغالبة هو: "فَمَاذَا نَقُولُ؟ أَلَعَلَّ عِنْدَ اللهِ ظُلْمًا؟ حَاشَا! لأَنَّهُ يَقُولُ لِمُوسَى: «إِنِّي أَرْحَمُ مَنْ أَرْحَمُ، وَأَتَرَاءَفُ عَلَى مَنْ أَتَرَاءَفُ». فَإِذًا لَيْسَ لِمَنْ يَشَاءُ وَلاَ لِمَنْ يَسْعَى، بَلْ للهِ الَّذِي يَرْحَمُ. لأَنَّهُ يَقُولُ الْكِتَابُ لِفِرْعَوْنَ: «إِنِّي لِهذَا بِعَيْنِهِ أَقَمْتُكَ، لِكَيْ أُظْهِرَ فِيكَ قُوَّتِي، وَلِكَيْ يُنَادَى بِاسْمِي فِي كُلِّ الأَرْضِ». فَإِذًا هُوَ يَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُقَسِّي مَنْ يَشَاءُ. فَسَتَقُولُ لِي: «لِمَاذَا يَلُومُ بَعْدُ؟ لأَنْ مَنْ يُقَاوِمُ مَشِيئَتَهُ؟» بَلْ مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ الَّذِي تُجَاوِبُ اللهَ؟ أَلَعَلَّ الْجِبْلَةَ تَقُولُ لِجَابِلِهَا: «لِمَاذَا صَنَعْتَنِي هكَذَا؟» أَمْ لَيْسَ لِلْخَزَّافِ سُلْطَانٌ عَلَى الطِّينِ، أَنْ يَصْنَعَ مِنْ كُتْلَةٍ وَاحِدَةٍ إِنَاءً لِلْكَرَامَةِ وَآخَرَ لِلْهَوَانِ؟". (في رسالته لأهل رومية، الإصحاح التاسع، أية 14 وما بعدها)

[130] هو أيضا جون دانز John Duns عالم اللاهوت والفيلسوف المسيحيّ، أسكتلنديّ المولد (1270- 1308)، كما ورد في أكثر من موضع في مجموعة محاضراته الرئيسية المعروفة باسم *Opus Oxoniense*

[131] في كتابه ‘الناموس الطبيعيّ والعدالة الجوهرية *Natur recht und materiale Gerechtigkeit*’، الطبعة الألمانية، ص 72

يقول: "إن حُكم العدل المهيمن هو إرادة الله، وعلينا أن نقبل كل ما يريده لأن هذه هي إرادته."[132] فكل إلزام يكمن في إرادة الله، لا فيما هو حاصل، كما يقول توماس الأقويني[133] فمصدر السلوكيّات هو الشرع الإلهيّ وليس الواقع، وعلى السلوكيات أن تقتدي بالأنماط التي ترتبط بقيم سامية عليا وليس بالأمور كما هي. أما دور العقل البشريّ في عالم الأخلاقيات الإلهية فهو الإقرار بضرورة ما هو موصوف من قيم سامية ومعرفة العلاقات التي تربطها ببعضها البعض بما فيها من شدّ وجذب، وما هو منوط بعقولنا أيضاً هو تجسيد هذه القيم في مواقف الحياة العملية التي لا حصر لها ولا عدَّ، وفي الظروف التاريخية الدائبة التغيّر.

ويلاحظ أن هذا الرأي هو على النقيض تماماً من الفلسفة الأخلاقية التي يعتنقها الفيلسوف كانط Immanuel Kant الذي يرى أن مقتضيات الجبر القطعيّ لا تُعرف إلاّ بالعقل. وأن الله ليس هو الذي أبدع قانون الأخلاق، وأن المنظومة الأخلاقية أعلى من الله. ويرى أيضاً أن وجود الله هو مجرد فرضية للعقلانية العملية لكي تكمّل به منظومة الناموس الأخلاقيّ – لا لإرساء قواعد هذا الناموس! فالدين بالنسبة لكانط هو إذن مجرد امتداد لفلسفة أخلاقية الغرض منها هو "اعتبار أن كافة واجباتنا ما هي إلا وصايا وأوامر إلهيّة. "[134] ومن رأي كانط أيضاً أن الأخلاقيات "تقودنا مباشرة إلى الدين، فتتسع من خلاله لتصبح فكرة صادرة عن مشرّع أخلاقيّ مستبدّ لا يكون للإنسان فيها أيّ دور."[135] هذا مع أن سير مجريات الأحداث في ظل العلمانية، كما سردناه إسهابا في الفصول الأولى من كتابنا هذا – وهو الانسلاخ عن الأخلاقيات والتحرر منها في المجتمع العلمانيّ – يثبت عكس ما يقوله كانط تماماً، وهو أن الأخلاقيات ليست هي التي تفضي إلى الدين، وإنما الدين هو الذي يقودنا إلى الأخلاقيات، وأن هيكل الأخلاقيات ينهار بتقوّض أساسه – وما أساسه إلاّ الدين.

أما الأخلاقيات في الكاثوليكية فقد صارت هي الأخرى تستمد أنماط الحياة الأخلاقية من مصدر التنزيل الإلهيّ بالإضافة إلى القانون الطبيعيّ

---

[132] في مؤلّفه الرئيسيّ 'التعليم *Institutio*'، المجلد الثالث، الفصل 23، بند 2

[133] كما شرحه ج بيير J. Pieper في كتابه 'حكمة الإنسان لدى القديس توماس *The Human Wisdom of St. Thomas*'، الطبعة الإنجليزية، ص 10، بند 46

[134] في مؤلفه 'الدين في حدود العقل دون سواه *Religion within the Limits of Reason Alone*'، الطبعة الإنجليزية، القسم الرابع، الفصل الأول، ص 170

[135] المرجع السابق، مقدّمة الطبعة الأولى، ص 12

الذي يدركه العقل. ففي موسوعة الدين المسيحيّ التي تولّى إصدارها فيشرFischer عام 1957، تناول (عالم اللاهوت الكاثوليكيّ) هنريش فرايز Heinrich Fries مسألة التنزيل، واعتبر أن أيّ تعليم أخلاقيّ يقتصر على تفسير التنزيل (دون التطرّق إلى المبررات العقلانية له) هو تعليم 'غير ملائم على الإطلاق' بالنسبة للخلاص الرّوحيّ للبشر.[136] فلقد حدث الآن تغيّر جوهريّ في علم اللاهوت الأخلاقيّ عند الكاثوليك بتأثير من الفكر العلمانيّ. إذ لم يعد لديهم أنماط أخلاق مسيحية لا تقبل التعديل. فالمفاهيم السلوكية في الكاثوليكية أصبحت مستقلّة تحكم نفسها بنفسها وصارت متروكة للعقلانية. ومن رأي عالم السلوكيّات اللاهوتية الكاثوليكيّ ألفونس أوير Alfons Auer، الذي يحاضر في مدينة ميونيخ، أن "استقلالية الأخلاقيات وحكمها لنفسها بنفسها ليست نهجاً متاحاً لعالم اللاهوت فحسب، وإنما هي أيضاً النهج المعقول الوحيد بالنسبة لمجتمع اليوم الحاضر على الأقل".[137] ومن بين استنتاجات هذا العالم اللاهوتي أيضاً أن "الإنسان ينال معرفة معيّنة عن وجوده وكيانه، ويحصل نتيجة لذلك أيضاً على معرفة بالمنظومة الأخلاقية عن طريق استنتاجاته العقلية" ... وأن "عقلانية الأخلاقيات ناجمة عن طبيعة الإنسان العقلانية" ... وأن "عقلانية الأخلاقيات دليل على استقلاليتها وحكمها لنفسها بنفسها". فبوسع الإنسان، طبقاً لما يراه أوير Auer هذا "أن يتفهّم جيداً طبيعة وجوده في العالم بأكملها، وأن يدرك كذلك لبّ الأخلاقيات القاطع دونما حاجة للاعتراف الصّريح بوجود الله."[138] فمعيار التوصّل إلى القيم الأصيلة والتمييز بين الخير والشر عنده يكمن في 'تمشّي أو عدم تمشّي' أنماطنا السلوكية 'مع ديناميكية التطوّر الجوهرية'.[139] ولكن رأيه هذا يغفل مسألة هامّة، وهي من أين للإنسان أن

---

[136] من ص 34 من هذه الموسوعة

[137] في كتابه 'الأخلاقيات الذاتيّة والعقيدة المسيحية *Autonome Moral und christlicher Glaube*'، الطبعة الألمانية، ص 12

[138] المرجع السابق ص 28-30. ومن الواضح هنا أن هذا الكاتب لا يأبه كثيرا بالسؤال القائل "طالما كان هذا هو الحال، فلماذا لا تتوصل الناس التي تتخذ أراء ووجهات نظر متباينة فيما يتعلق بمسالة الخير والشر، وأمور مثل المساعدة على الانتحار للتخلص من آلام المرض، والإجهاض، وتنظيم الإنجاب، والعنف، وجدوى الزواج، والمثلية في ممارسة الجنس، وهلمّ جرّا – لماذا لا تتوصل إلى إجماع في الآراء فيما يتعلق بمثل هذه المسائل الحيوية؟ "

[139] المرجع السابق ص 72، ويحال القارئ الذي يجيد الألمانية هنا أيضا إلى كتاب 'الخطيئة والحريّة والوعي *Sünde, Freiheit und Bewußtsein*' للكاتب ل. موندن L. Monden، طبع سالزبورج عام 1968، ص 94-97

يعرف بالتحديد ما هو متّسق ومتمشّي بالفعل مع هذه 'الديناميكية الجوهرية'؟

وكذلك يَعتبر عالم اللاهوت الكاثوليكيّ هربرت هاج Herbert Haag – الذي يتخذ من مدينة توبنجن Tübingen الألمانية مقراً له – أن الإنسان يتوصل بفضل معرفته للظروف التاريخية والاجتماعية إلى "كيفيّة توجيه حياته بطريقة تجعلها ناجحة." كما يلخّص رؤيته هذه بقوله: "لقد أجمع الجيل الحديث من علماء لاهوتيات الأخلاق على أنه لا يمكن أن تكون هناك اخلاقيات مسيحية على وجه التحديد من حيث المضمون. فالسلوك الخلقيّ للمسيحيّ لا يختلف أبداً عن سلوك غير المسيحيّ الذي يحيا في ظل نفس الظروف الحضارية والاجتماعية. ولذا فإن الوعي الأخلاقيّ عند المسيحيّ مبنيّ على البعد الإنسانيّ."[140] ونعود إلى أفكار أوير Auer الذي يرى أن تعريف الالتزامات الأخلاقية لا يجوز إلّا "من خلال حوارات أفرع العلوم المختلفة".[141] وبالنظر إلى أن أفرع العلوم الإنسانية المختلفة تروّج لمبادئ علمية غالباً ما تتغيّر ويأتي غيرها في ظرف عشر سنوات فقط، توصّل أوير إلى استنتاج بأن "ورطة السلوكيات واللاهوت الأخلاقيّ قد تعرّت وانكشفت بالكامل". ذلك لأن عملية تنمية الوعي السلوكيّ على ضوء المعارف العلمية التي لا تفتأ أن تتغير، بل ولا تخلو أبداً من الغموض والشكّ، تفضي – كما يقول 'أوير' – إلى "حالة لا تتوقف من تقييم ومراجعة وتغيير كل ما يستنبط من سلوكيات"، وهي حالة لا يستطيع إلا أقل القليل من الناس "أن يقوموا بها دون التعرض للإصابة باضطراب عصبيّ". [142] والسؤال الذي يلحّ علينا إذن هو: هل بقي هناك ما هو مسيحيّ بالتحديد من التعاليم الأخلاقية المسيحية؟ والجواب يأتينا على لسان أوير نفسه إذ يرى أنه لم يتبق منها سوى "مجال الإدراك والدافع الأخلاقيّ".[143]

---

[140] عنوان المقالة هو 'هل نحن قيليلي الحيلة أمام الشر؟ Vor dem Bösen ratlos?' في مجلّة 'عن المناظرات *Zur Debatte*'، وهي تتناول مواضيع تثار في الأكاديمية الكاثوليكية ببافاريا، العدد 2.

[141] كتاب 'الأخلاقيات الذاتيّة والعقيدة المسيحية *Autonome Moral und christlicher Glaube*'، ص 47

[142]المرجع السابق ص 46-47

[143] في مقدّمة المرجع السابق، ويبدي الكاتب هربرت هاج هذا الرأي نفسه. أنظر الحاشية 140 أعلاه، وعن الموضوع بكامله يمكن لقارئ الألمانية أن يراجع ما كتبه فرانز بوكل Franz Böckle في كتابه 'الأخلاقيات الجوهرية *Fundamentalmoral*' طبع ميونخ عام 1977

كما عكس المؤتمر الدولي للألمان من علماء اللاهوت الأخلاقيّ، الذي عقد في سبتمبر عام 1979 بمدينة ميونيخ، هو الآخر هذه النقلة التوجّهية لعلم اللاهوت، حيث وصفها 'أوير' في خطاب له بذلك المؤتمر على أنها "تطوّر جاء في أوانه من الناحية التاريخية".[144] ويظهر هذا التحوّل في الرأي الذي أصاب أساسيات علم اللاهوت إلى أيّ مدى تزحزحت إليه المواقف التي كانت لا تتزحزح أبداً في الماضي لكل من الفكر الكاثوليكيّ وفكر عصر التنوير معاً – وهي مواقف كانت موضع جدل عنيف في عشرينيات القرن العشرين[145] – من جرّاء تغلغل الأفكار التحديثية، وبزحف لا يكلّ ولا يملّ من جانب الحركة العلمانية.

أما لاهوت المذهب البروتستانتيّ هو الآخر، فإن لبّ العقيدة المسيحية لا يكمن في العيش تحت قانون من الأنماط المنزلة الملزمة وإنما يتلخّص "بكل بساطة في حياة من الإقرار بحقيقة الله والتواصل معه. وكل ما عدا ذلك يتأتّى من حقيقة أن بإمكاننا أن نكون سوياً معه وعلى حبّه".[146] وطبقاً لهذه المقولة يرى عالم اللاهوت البروتستانتيّ إبرهارد يونجيل Eberhard Jüngel أن "فحوى المسيحية لا يقتدي بقيم سلوكية، ذلك لأن 'الحياة على الحقيقة' مساوية في الإنجيل تماماً 'للعيش في المحبّة'".[147]

ونظراً لما آلت إليه الأوضاع الآن، فإن اللاهوت الأخلاقيّ في المسيحية يجد نفسه في محنة مزدوجة. فمن ناحية نجد أن عملية نزع مسيحية العالم الذي كان في السابق مسيحياً قد استشرت إلى حد أصبح معه مسيحيّ اليوم الحاضر غير مستعدّ لقبول الأنماط السلوكية المملاة عليه دون وجود مبرر عقلانيّ لها، مما يعنى أن حكماً قد صدر بالفعل ببطلان الأنماط

---

[144] جريدة جنوب المانيا ***SüddeutscheZeitung*** عدد 24 سبتمبر 1979

[145] ولقارئ الألمانية أن يراجع أيضا كتاب 'الأفكار الكاثوليكية والحديثة *Katholisches und modernes Denken*' للكاتبين ميزّر Messer وبريبيلا Pribilla

[146] رأي للكاتب رودلف ستولين Rudolf Stählin في كتابه 'الدين المسيحيّ *Christliche Religion*'، الطبعة الألمانية، للناشر Das Fischer-Lexikon، ص 81

[147] في مقالة له بعنوان 'الحقيقة التافهة Wertlose Wahrheit' تضمنها كتاب 'دكتاتورية الفضيلة *Die Tyrannei der Werte*' للمحرّرين كارل شميت Carl Schmitt، و إ. يونجل E. Jüngel، و ز. شيلز S. Schelz، الطبعة الألمانية، ص 5، وص 47 وما بعدها

السلوكية التي يستعصي إعمال التبرير العقلانيّ فيها.[148] ومن ناحية اخرى نجد أن اللاهوت المسيحيّ أسير لموقفه المبنيّ على احتكار الخلاص وختمه. فهو مبنيّ على الاعتقاد بأنه حيث إن كل ما في الألوهية قد ظهر للبشرية من خلال يسوع المسيح، فما على البشرية إلا أن تسيّر أمورها بما بين يديها. هذا مع أن السلوكيات الاجتماعية التي تتوقف على الأزمنة المتقلّبة لا يمكن أن تُبنى على أنماط جاء بها الكتاب المقدّس – أنماط مصممّة لتلائم ظروفاً أخرى غير ظروف اليوم وأحواله. [149] أضف إلى ذلك أن المسيحيين (في الغرب) لا يعترفون اليوم إلا بالأنماط التي يقبلها العقل. فقد بَلِيَت القيم التقليدية في السلوك الشخصيّ عبر ألفين من السنين واهترأت بدرجة كبيرة نتيجة تفاسير متضاربة لا تُحصى، مما أوجد نزعة شديدة لا تخطئها العين لابتكار منظومة أخلاقية مستقلة تحكم نفسها بنفسها، مبنية على عقلانية ذات مفهوم مسيحيّ ودوافع مسيحية، وذلك بدلاً من استمرار دعم تلك القيم التقليدية بنزعة أصولية. وبقيت الآن مسألة أخيرة يجب استبانتها في هذا الصدد، وهي أنه لن يكون بمقدور أيّ نفس قد اقتنعت ذات مرّة بجواز خلق نمط سلوكيّ عقلانيّ ذاتيّ الحكم، نفس لا يزعجها ما يجري الآن من تعدد في المعايير الخُلقية واختفاء للأفكار المثالية، أن ترى أيّ لزوم على الإطلاق لهداية جديدة من الله، أي إلى وحي وتنزيل إلهي جديد.

أما تعليم بهاء الله القائل بأن المظاهر الإلهية تأتينا تباعاً في دورات متعاقبة لا نهاية لها وبتعاليم تزيد على ما سبقها من تعاليم فإنه يفتح بعداً فكرياً جديداً في تاريخ الخلاص البشريّ، ويأتي بمفهوم جديد لإرساء قواعد الأنماط السلوكية. فيكون كتاب الله الجديد إذن بمثابة شاهد على ما سبقه من أديان، وممحِّص لما هو أصيل وحقيقيّ عمّا هو باطل ومزيّف، أي يخلّص الفكر الدينيّ من الزوائد البشرية وإساءة الفهم والتفسير. كما يكون كتاب الله الجديد في نفس الوقت حُكما على المجدّدين والمحدّثين لما هو قديم. فيقول

[148] إن فضيلة العفة، على سبيل المثال، (وهي التى تناولناها تفصيلا في فصلنا العاشر "الموازنة بين السلطة والحرّية"، قرب نهاية بند ‘رأي البهائية في العيش من أجل الملذّات’) لا يمكن استنباطها بشكل قاطع من معارف العلوم الإنسانية أو من أراء علم أصول الإنسان. فهناك أنماط سلوكية لا تستقيم مع البراهين التي يفرضها المنطق.

[149] وعلوم الدين الإسلاميّ هي أيضا في نفس المأزق: فهي إما تفسِّر أنماطا لم تعد تلائم الأزمنة (وخاصة أحكام القرآن العقابية) أو تبقي على أصولها السلفيّة وتستمر في ممارسة ما يثير الاشمئزاز والفزع في الحاضر، مساهمة بذلك دون قصد منها في ازدياد الاستياء العام من الدين

بهاء الله في لوحه إلى البابا بيوس التاسع: **"قد اتى يوم الحصاد وفُصّل بين الأشيآء خُزن ما اختارَ فى اواعى العدل واُلقى فى النّار ما ينبغى لها"**[150]

عملية التنقية والتطهير وترقّي الفرد

سيجد المسيحي، وكذلك اليهوديّ والمسلم والهندوسيّ والبوذيّ – سيجد نفسه في قلب هذه القيم ثم يتساءل أين تكمن هذه الخاصية المتميزة لمنظومة الأخلاق التي نادى بها بهاء الله؟ ولا يعطي كتابنا هذا إجابة عن هذا السؤال الوجيه بالتفصيل الذي يستحقه. ولكن الإجابة ماثلة في الرأي الذي تناولناه بالشرح فعلاً – وهو تتابع الرسالات الإلهية دون توقّف، *'The idea of the impulse'*. إذ يتغيرّ الوحي الإلهيّ المتعاقب بتغيّر الأحوال على هذا الكوكب، وبتفاوت القابلية الروحية للبشر،[151] ويتعامل مع عملية التداعي والتآكل التي تتعرض لها كافة الأديان من جراء استنفاذ قوتها الأصلية البنّاءة التي تُمنح للعالم مع كل وحي إلهيّ جديد. فتغيّر حقائقنا الاجتماعية يستلزم تغيّراً في الأنماط الاجتماعية المنزّلة، كما أن تغيّر الأنماط الاجتماعية المنزّلة تحدث تغييراً في حقائقنا الاجتماعية. ولذا فإن التشريع الإلهيّ والتعاليم المنظمة للمؤسسات الاجتماعية مثل الزواج والأسرة قد جاءت في صيغ تختلف من دين لآخر.[152]

وما جاء به بهاء الله من أنماط ومبادئ للمجتمع الجديد يختلف هو الآخر عما جاءت به أديان القبل. بيد أن القيم والمثاليات التي يفترض أن ينالها ويسير عليها الإنسان الفرد هي في منأى عن التغيّرات التاريخية. ويشرح بهاء الله هذه الحقيقة قائلاً: "اعلم أنّ جميع الأحكام الإلهيّة تتغيّر وتتبدّل في كلّ دور حسب الزّمان إلاّ شريعة المحبّة فإنّها ثابتة لا يعتريها

---

150 مجموعة ألواح حضرة بهاء الله المعنونة [آثار قلم أعلى – كتاب مبين]، المجلّد الأول، طبعة كندا عام 1996، ص 40

151 كما يدل على ذلك قول المسيح «إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لأَقُولَ لَكُمْ، وَلكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ». إنجيل يوحنا 16: 12

152 وتحدث القديس أوغسطين أيضاً عن تلك العدالة الصادقة "التي لا تصدر أحكامها طبقا للعادات والتقاليد، بل بمقتضى قانون الله الأحقّ، الذي بموجبه تم الاستغناء عن عادات وبدع سادت في أماكن وأزمنة كثيرة...ومع أن الله فرض عليهم شيئا آنذاك، وفرض على غيرهم شيئا آخر اليوم لظروف زمنية معيّنة، إلا أن كلاًّ من أهل ذاك الزمان وهذا الزمان كانوا خاضعين للهداية الإلهية نفسها." في مجموعة أقواله 'الاعترافات *Confessions*'، المجلد الثالث، الفصل السابع

أيّ تغيير، وهي بمثابة ينبوع الحياة الجّاري على الدّوام".[153] فالمحبة تتبوأ هنا مكانة الجزء المكوّن للكل بالنسبة للقيم الخالدة التي تنتمي للجوهر المحوريّ لذلك الدين الإلهيّ الواحد، الجوهر الذي لا يقبل الانقسام عبر ألاف السنين. وهي حقيقة يرمي إليها بهاء الله عندما يصف رسالته الجديدة قائلاً: "هذا دين الله من قبل ومن بعد"[154]، فالقيم التي دعا إليها بهاء الله في مجموعة الفضائل (الشخصية) ليست قيماً جديدة. أي أن القيم الجوهرية المطلوب من البشر اكتسابها هي هي في كافة ديانات القبل، وستبقى على حالها فيما سيأتي من أيام، على الرغم من اختلاف وصفها والتعبير عنها، وتغير مراتبها في سلّم الفضائل. وهي أيضاً عماد أخلاق الفرد وقلبها في رسالة بهاء الله. بيد أنها قد أزيلت عنها تكلساتها وتشوّهاتها وتحريفاتها والمبالغة فيها وتخفيف التشديد عليها، وأُلبست قميصاً لغوياً قشيباً، ووُهبت نفوذاً ومغزى وأولويات جديدة. فهذه القيم القديمة الأصيلة قد قدّمتها رسالة بهاء الله في قالب أغنى بكثير عما قُدّمت به في الماضي، رغم أنه قد تم تناقلها عبر سلسلة متصلة من الرسالات السماوية.

ويلزم لنا بهذا الصدد أن نُصحّح أي سوء فهم قد يحدث لدى القارئ بعد تصفّح الفصول التمهيدية في كتابنا هذا. فالنقد الذي وجهته هذه الفصول لانهيار نُظُم القيم الدينية[155] لا يصحّ أن يؤخذ على أنه حنين منا إلى أحوال الأيام الخوالي. فهيهات أن تكون هناك استعادة لما مضى، فلقد ولّى ذلك الدهر، وولّى معه ذلك النظم القديم البالي. فالمؤمن بالبهائية ليس إذن شخصاً 'رجعياً' – بتعبير التقدميين – أو شخصاً يعاند زحف التاريخ الذي لا يمكن صدّه. فنظرة البهائيّ مسدّدة نحو المستقبل، لا إلى الماضي. كما أنه يدرك ما يرمي إليه التاريخ، ويعلم أن قواعد الأخلاقيات يجب أن يعاد إرساؤها من جديد. فإعادة تقديم القيم الأصلية، التي هي عين القيم الجديدة في الوقت نفسه، بالإضافة إلى عملية إعادة غرسها في وعي الإنسان وضميره، طالما قد بات واضحاً جليّاً أن القيم العلمانية البديلة لا تقدّم سوى أساسٍ هشٍّ لا يمكن أن ترتكز عليه حياة تحقق الغرض منها، أو يُبنى عليها مجتمع مستقر. وسيكون إحياء تلك القيم الأصيلة عملاً تربويّا للبشرية، يتم إنجازه عبر أجيال متعاقبة، وسيكون الخلق الجديد ثمرة هذا العمل.

---

[153] كتاب [منتخبات من كتاب بهاء الله والعصر الجديد] ص 233

[154] كتاب [منتخباتي...] المقتطف 70 – راجع أيضا بند 'التجديد الإلهي' في ختام الفصل السابع

[155] كما ذكرنا في الفصل الثاني "نظرة متفرّسة في وجه عالم الغرب العلماني"، بند 'انهيار أنظمة القيم والأخلاق'

بيد أن هذه القيم يعوزها قوة دافعة جديدة، ذلك لأن القيم، شأنها في ذلك شأن الدين (القديم) الذي نبتت فيه جذورها وجعلها كياناً حيّاً في المجتمع، قد ضعفت وذبلت وتوارت، ولم تعد تشكّل حقيقة لا يختلف عليها اثنان في مجتمع اليوم الحاضر. فيلزمنا الان إحساس جديد، إذ إنه كما تفتقد مفاهيم الدين إلى إحساس حيّ نابض، كذلك تفتقد مفاهيم القيم المحورية إلى ذلك أيضاً. فالحاصل هو مصداق لقول رومانو جارديني Romano Guardini (عن حال الغرب المسيحيّ) "لقد اهترأت الكلمة وتمزّقت".[156]، وكذلك ما اقترحه بول تيليتش Paul Tillich ذات مرَة، في نفس السياق، بأنه على الكنيسة أن تلتزم فترة صمت مدتها ثلاثون عاماً لا تتفوه فيها بأي كلمة تتناول أساسيات الدين.[157] ودعوني أسوق مثالاً على ما دفعهما هما وأمثالهما إلى هذا القول: وهو الأمر بالعفّة الجنسية، الذي أزاح في الحقيقة بالأمر بفضيلة المحبة إلى المرتبة الثانية بحلول القرن الثالث الميلادي، مما أدّى إلى شيطنة الدوافع الغريزية والإشانة بالمرأة، وأفضى إلى امتداح العزوف عن الزواج. فلقد ألغى المجتمع العلمانيّ الأمر بالعفّة الجنسية، بل صار محل خلاف داخل الكنيسة نفسها، على الرغم من المنشور (الذي أصدره البابا يوحنا بولس السادس بعنوان) الحياة البشرية ***Humanae vitae***. فالجدل الجاري على هذه المسألة يظهر إلى أيّ مدى قد ابتعد اللاهوت المسيحيّ عن لُبّ الفضيلة المسيحية،[158] وإلى أيّ حدّ وصلت إليه الحاجة

---

[156] في كتابه 'نهاية العالم الحديث *The End of the Modern World*'، الطبعة الإنجليزية، ص 102

[157] كلمة نقلها عنه هـ تسارنت H. Zahrnt في كتابه 'المسألة الإلهية *The Question of God*'، الطبعة الإنجليزية، ص 300. وبالمثل فإن جاكوب بيركهارت يقول "إن كافة أوجه النظر اللاهوتية المتاحة قد تمت تجربتها دون فائدة...فإذا ما عرف اللاهوت قدر نفسه فبالأحرى له أن يبقى صامتا طوال الثلاثة عقود القادمة." (نقلا عن كتاب 'معنى التاريخ *Meaning in History*' للكاتب لوويث Löwith، الطبعة الإنجليزية ص 29).

[158] وأشيرُ هنا بالتحديد إلى المناقشة التي ساقها إريك كيلنر Erich Kellner في الكتاب الذي أصدره 'الممارسات الجنسية التي لا تجد حرجا والأخلاقيات المسيحية – مناقشات منتدى القديس بولس *Sexualität ohne Tabu und christliche Moral. Gespräche der Paulus-Gesellschaft*'، طبعة ميونيخ عام 1970. وفيها احتج عالم اللاهوت سيجفريد كايل من مدينة ماربورج الألمانية على تعاليم المسيحة فيما يختص بالممارسات الجنسية في اجتماع عقد عام 1966 بالأكاديمية الإنجيلية بمدينة توتسينج Tutzing تحت شعار 'معارضة الالتزام الأخلاقيّ العام فيما يتعلق بممارسة الجنس'، معلنا أن الفرصة الوحيدة المتاحة للكنيسة الآن بوصفها حاميا تقليديا للأخلاقيات تكمن في تلمّس النصيحة من خبراء علم الاجتماع والطب وعلم النفس، والتخلص من ناموس الأخلاقيات البالي بغير رجعة، قائلا إن من الغباء

إلى علامة فارقة جديدة. وتتضح هذه المسألة بجلاء ووضوح أكبر إذا ما تناولناها من منظور مثال آخر. فالأمر بالمحبة، الذي يصيب المسيحيون فيه عين الصواب باعتباره خُلاصة البرّ ومنتهاه *Summum bonum*، وجوهر كل فضيلة، قد عانى من تكبيله بوضع القيود عليه عبر القرون، قيود وطنية، وعرقية ودينية وحزبية. وحينما لا تُمارس المحبة إلا داخل هذه الحدود تُفضي إلى الائتلاف والتلاحم في الداخل، ولكنها تورث الكراهية للخارج. فالحروب الدينية (التي نشبت داخل أوروبا المسيحية)، والحروب الصليبية، وإساءة معاملة اليهود في أوروبا، وخاصة في ألمانيا القرن العشرين، أضف إليها إساءة معاملة الجنس الأسود في الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا (أيام حكم الفصل العنصريّ) ما هي إلا أمثلة على كيفية تشويه توصية المسيح بمحبة الآخر، وتكبيلها بالقيود والحدود عبر التاريخ.

محبة البشر كافّة بغير قيد أو شرط

لقد أزال بهاء الله كل الحواجز التي صنعها التعصّب والوهم فيما مضى ونادى بمحبة شاملة عظيمة لا يشوبها أيّ غرض للبشرية كلها دون تفرقة، إذ يقول: "الْيَوْمَ مِنَ الْوَاجِبِ وَاللاَّزِمِ عَلَى الْجَمِيعِ أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِمَا هُوَ السَّبَبُ لِعُلُوِّ شَأْنِ الدَّوْلَةِ الْعَادِلَةِ وَرَفْعِ مُسْتَوَى الأُمَّةِ. وَقَدْ فَتَحَ الْقَلَمُ الأَعْلَى فِي كُلِّ آيَةٍ مِنْ آيَاتِهِ أَبْوَابَ الْمَحَبَّةِ وَالاتِّحَادِ. **قُلْنَا وَقَوْلُنَا الْحَقُّ عَاشِرُوا مَعَ الأَدْيَانِ كُلِّهَا بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ.** فَمِنْ هَذَا الْبَيَانِ زَالَ مَا كَانَ سَبَبَاً لِلتَّجَانُبِ وَعِلَّةً لِلتَّفْرِقَةِ وَالاخْتِلاَفِ.. وَلَقَدْ قِيلَ سَابِقَاً **حُبُّ الْوَطَنِ مِنَ الإِيمَانِ**[159] وَنَطَقَ لِسَانُ الْعَظَمَةِ فِي يَوْمِ الظُّهُورِ **لَيْسَ الْفَخْرُ لِمَنْ يُحِبُّ الْوَطَنَ بَلْ لِمَنْ يُحِبُّ الْعَالَمَ.** فَعَلَّمَ طُيورَ الأَفْئِدَةِ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْعَالِيَاتِ طَيَرَانَاً جَدِيدَاً وَمَحَا التَّحْدِيدَ وَالتَّقْلِيدَ مِنَ الْكِتَابِ."[160] كما يقول بهاء الله أيضا: "فَالإِنْسَانُ الْيَوْمَ هُوَ الَّذِي قَامَ عَلَى خِدْمَةِ جَمِيعِ مَنْ عَلَى الأَرْضِ... يُعْتَبَرُ الْعَالَمُ فِي الْحَقِيقَةِ وَطَنَاً وَاحِدَاً وَمَنْ عَلَى الأَرْضِ أَهْلُهُ."[161] وكذلك: "إن بيان الحق مشكاة ومصباحه هذه

أن نتحدث عن مقاييس أبديّة لا تتغير في شؤون أخلاقيات الجنس. ومبدئا الرأي بأن الغرام المتحرر مع الالتزام بالمسئولية يجب التساهل معه، إلى حدّ عدم الممانعة في حرمان المرأة غير المتزوجة من ممارسة الغرام الجسديّ والإنجاب.

[159] في إشارة إلى فريضة حب الوطن في الإسلام

[160] كتاب [مجموعة من ألواح...]، لوح الدنيا، ص 104-105

[161] المرجع السابق، لوح مقصود، ص 147-148

الكلمات: يا أهل العالم كلكم أثمار شجرة واحدة واوراق غصن واحد."[162] وأيضا: "كُلُّكُمْ أوراق شجرة وَاحِدَةٍ وَقَطَرَاتُ بَحْرٍ وَاحِدٍ".[163]

وتسليم الإنسان أمره لله يلزمه حياة ملؤها الخدمة لجيراننا. بيد أن جارنا هو كل إنسان، وهو أيضاً كلّ الإنسانية بغير تفرقة أو تمييز. كما يقول بهاء الله: **"يَا ابْنَ الإِنْسَانِ لَوْ تَكُونُ نَاظِرَاً إِلَى الْفَضْلِ ضَعْ مَا يَنْفَعُكَ وَخُذْ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ الْعِبَادُ وَإِنْ تَكُنْ نَاظِرَاً إِلَى الْعَدْلِ اخْتَرْ لِدُونِكَ مَا تَخْتَارُهُ لِنَفْسِكَ."**[164] كما يصرّح بهاء الله أيضاً أن كل عمل يؤدّى بروح من خدمة البشر هو بمثابة عبادة لله.[165] فالمبدأ القائل بأن قيمة كل عمل تقاس بمقدار نفعه للبشرية ككل، هو مبدأ يتبوّأ مرتبة عالية في سلّم القيم السلوكية البهائيّ. وهو يوصي بالتغلب على أخلاقيات القطيع المنادية بمعاملة خاصة لأعضاء القطيع، سواء أكان ذلك القطيع أسرة أم عرقاً أم أمة أم طبقة اجتماعية، بما تجلبه تلك المعاملة الخاصة من آثار كارثية مدمّرة.

ولا شك أن لهذا المبدأ جذوراً في ديانات القبل، بيد أنه لم يُصَغْ أبداً على هذا النحو، أضف إلى ذلك عاملاً فارقاً وهو أنه مبدأ لم يمارس أبداً على وجه العموم وعلى الدوام. وتنطوي هذه المحبة المطلقة لبني البشر التى نادى بها بهاء الله على مزيد من النقاء والرقيّ في الدين فيما يتعلق بالأخلاقيات الفردية، وفي ذلك يكمن تفرّد الدين البهائي، وهي حقيقة يتعامى عنها منتقدو البهائية من بين رجال الدين وعلماء اللاهوت بشكل يثير التساؤل.[166]

---

[162] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 132، والأصل فارسيّ

[163] كتاب [مجموعة من ألواح...]، لوح الإشراقات، ص 28

[164] كتاب [مجموعة من ألواح...]، الكلمات الفردوسية، الورق الثالث، ص 82

[165] قارن هذا بما جاء في كتاب [منتخبات من كتاب بهاء الله والعصر الجديد]، بند 'الخدمة' ص 108 – 109

[166] تناولت مسألة 'العمى' هذه في مواطن أخرى منها كتابي 'النور يلمع في الظلام *The Light Shineth in Darkness*'، الطبعة الإنجليزية، ص 59-61، وكذلك ص 144-149، مبينا أن ما نحن بصدده هنا هو ظاهرة من ظواهر تاريخ الدين التي تتكرر مع مجيء كل دين جديد. فإلى يومنا هذا لم يفلح المسيحيون في إقناع اليهود أن المسيح قد أتى جذريّا بشيء جديد يفوق ما جاء به موسى.

ما الذي يَحْفِز البشر؟

إن اكتساب أتْباع بهاء الله لهذه الفضائل والقيم، التي أسماها 'أثمار السدرة الإنسانية'[167] والمتّصلة بانتصار الأمر الإلهيّ،[168] لهو هدف سامٍ، والطريق إليه وعر وصعب. وقد يشاركهم من يحصرون أفكارهم في خيرٍ البشرية في الكثير من هذه القيم ويقرّون بأن العالم يكون مكان عيش أفضل إذا ما عاش الناس بمقتضى هذه المثاليات. ولكن ما الذي يحضّ الإنسان على فعل الخير وتجنّب الشر، وعلى المثابرة، وعلى التحكم في رغبته في السيطرة والانتقام، وفي شهواته وغرائزه وحسده، وعلى ألا يحبّ جاره فقط بل يحبّ عدوّه أيضاً، وعلى التضحية بالنفس في سبيل الآخرين حتى ولو لم يضمر لهم سوى القليل من مشاعر الود، وعلى أن يتعامل بالرأفة، وأن يتحلّى بالأمانة والإخلاص وما إلى ذلك؟ وما الّذي بوسعه أن يحفز البشر للقيام بهذا كله؟ - أي لأن يكون كل منهم 'إنساناً صالحاً'[169]، هذا إذا ما

---

[167] لوح ابن الذئب، الطبعة الإنجليزية ص 20، مترجما عن الأصل الفارسيّ

[168] كما يقول بهاء الله في لوح الإشراقات، الإشراق الرابع: " إِنَّ الْجُنُودَ الْمَنْصُورَةَ فِي هَذَا الظُّهُورِ هِيَ الأَعْمَالُ وَالأَخْلاَقُ الْمَرْضِيَّةُ. وَإِنَّ قائِدَ هَذِهِ الْجُنُودِ تَقْوَى اللهِ وَهِيَ الْمَالِكَةُ لِلْكُلِّ وَالْحَاكِمَةُ عَلَى الْكُلِّ." كتاب [مجموعة من ألواح...]، ص 25

[169] مثلما طرح هذه المسألة (الشاعر الروائيّ الألمانيّ بيرتولد) بريشت (أو بريخت) في مسرحيته الشعرية المعروفة بأوبرا البنسات الثلاث، الفصل الأول، الخاتمة الأولى، حينما ساق الأبيات التالية:

تكون إنسانا صالحا – يا لها من فكرة لطيفة! وتُعطي مالك للفقراء؟ ذلك شيء جميل
عندما يكون كل الناس صالحين، ومملكة الله قريبة؛
فمن ذا الذي لا يحب أن ينعم بالنور الإلهيّ؟
تكون إنسانا صالحا – يا لها من فكرة لطيفة!
بيد أن هناك مشكلة صغيرة في العيش: فالطعام شحيح وبنو الإنسان خسيسون
من ذا الذي لا يحب عيشة وادعة؟ غير أن هذا العالم القديم ليس مكانا من ذلك النوع

ولقد أصاب بريشت من ناحية. فحيث تكون الظروف بالدرجة التي يعيش فريق من البشر في ظلام ('لأن فريقا منهم في الظلام والآخر في النور')، محرومين من أبسط الحقوق ('خبزا يأكلوه وليس حجرا به يرجمون') فإن قدرة الإنسان على أن 'يكون صالحا' تكون محدودة بشكل غير مقبول. ومن الواجب تغيير هذه الأحوال. وأخطأ بريشت أيضا من ناحية أخرى، من حيث اعتقاده في أن طيبة البشر الفطرية ستعود تلقائيا حالما نال المجتمع الهياكل المواتية. فتغيير الأحوال الاجتماعية لن يغيّر شيئا فيما يتعلق بحقيقة أنّ 'الطعام شحيح وبني الإنسان خسيسون' إلا إذا واكب ذلك قيام الإنسان بكلّ ما أوتي من همّة وقوّة، وبصرف النظر عن الظروف، بالتغلّب على خسّة نفسه وقهرها. ومن الواضح أن بريشت قد لمس كبد الحقيقة حينما قال (في

اعتقدنا أن وجودنا عبث بغير طائل، وإذا غاب عن الإسنان هدف أسمى منه، أو سلطة تعلوه، (أو إذا لم نعتقد بوجود حياة بعد الموت) فيكون لنا كل الحق في أن نتأسى بالقول (التهكّميّ) الشهير الذي ساقه بولس الرسول لأهل كورنثة "فلنأكل ونشرب لأننا غدا نموت"؟ [170]

وما يحفز البهائيين على الوفاء بوصايا بهاء الله هو محبتهم له وخشيتهم لله. ولقد تكلم عبد البهاء عن استحالة محبة كافة البشر دون استثناء لأجل خاطرهم فحسب. فالإنسان لا يقدر على هذه المحبة الخالصة إلاّ ‘لوجه الله’،[171] وبإدراك أن كل من يحمل وجه إنسان هو من صنع الله. وهذا المنحى الجذريّ والتحوّل النابع من الفؤاد يمكّن الإنسان من أن يساند جاره ويؤازره حتى ولو لم يكن هناك من هو مستعد لأن يفعل ذلك سواه. وهي نصيحة أوصى بها عبد البهاء: "أحبّوا الخلائق لوجه الله لا من أجل أنفسهم. فإذا ما أحببتم الخلائق لوجه الله لن تغضبوا ولن يَعيل صبرُكم. والبشرية ليست كاملة. فهنالك قصور في كل كائن بشريّ، وستحزنون دوماً إذا نظرتم إلى الناس أنفسهم. أما إذا ما توجهتم إلى الله، فسوف تحبوّنهم وتترفقون بهم، لأن عالم الله هو عالم الكمال ومحض الرحمة. فلا تنظروا إذن إلى عيوب أحد، وانظروا بعين المغفرة. فالعين الناقصة ترى النواقص، والعين التي تغضّ البصر عن العيوب تنظر إلى خالق النفوس وبارئها. وهو الذي خلقهم وربّاهم ورزقهم وأنعم عليهم بالاستعداد والحياة، والبصر والسمع، فهي إذاً آيات عظمته."[172]

وبغير أب يشترك فيه الجميع لا تكون هناك أخوّة أصيلة بين البشر. وهذا هو السبب في أن نصيحة ‘العيش من أجل الآخرين’ (وهي التي غالباً ما تقال على أنها هدف إنسانيّ منذ أن قالها فيويرباخ Feuerbach رائد المذهب الإنسانيّ *Humanism*)، وكذلك كافة محاولات أتباع ذلك المذهب لتحقيق الصلاح الذاتي، مكتوب عليها جميعاً بالفشل إذا ما غاب عنها التوجّه

الفصل الثاني، المنظر الثالث من نفس المسرحية) إن ‘الموسرين فقط هم الذين يعيشون عيشة هنيئة’. بيد أن توقعه أن كون الإنسان موسرا سيقلبه تلقائيا إلى إنسان صالح هو أمر تنفيه التجربة المعاشة يوميّا. فضلا عن أن الأمر سيكون غير عاديّ إذا ما سرت الأخلاق في الأجواء المواتية ولم تصمد أمام عواصف الحياة أيضا. وعن هذا الموضوع بأكمله أنظر الفصل الثامن "المجتمع الجديد"، بند ‘ملكوت الله’.

[170] رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس 15: 32

[171] كتاب [خطب عبد البهاء في أوروبا وأمريكا]، ص 96

[172] كتاب ‘ترويج السلام العالميّ *The Promulgation of Universal Peace*’، ص 92 مترجما عن الإنجليزية

الفوقيّ.[173] بل إن نيتشه نفسه يقرّ "أن محبة الإنسان بغير غرض متجرّد مقدّس لهو ضرب من الغباء بل والحيوانية، وأن على هذه النزعة لمحبة الإنسان أن تتلقّى مددها وتهذيبها وملحها وعطرها من نزعة فوقية... فحب الناس لوجه الله لهو أنبل وأسمى احساس تم بلوغه من قبل البشر حتى يومنا هذا".[174]

وما ذكرناه للتو من تقوى الله والمساءلة بين يديه هما سلاح هذه المعركة التي يتحتم على المؤمن شنّها على رغباته ونزواته، "لأن سلاح الفتح والسبب الرئيسيّ للنصر" كما يخبرنا بهاء الله "كان ومازال تقوى الله. فهي الدرع الذي يحفظ هيكل الأمر وينصر حزب الله. إن راية التقوى

---

[173] ينظر فيويرباخ، وهو الذي ينتقد الاعتقاد بالعالم الآخر والاعتقاد بالله أيضا، إلى الإنسان بوصفه عضوا في نوع أو سلالة يَلقى تحقيق ذاته 'وخلودها' في كل شخص يحيا من أجل هذه السلالة إذ يقول: "فهو إذن من يحيا في وعي السلالة بوصفه الحقيقة، وينظر إلى وجوده من أجل الآخرين، وعلاقته بالمجتمع، ونفعه للعموم، على أنه ذلك الوجود الذي يتطابق تماما مع جوهر كيانه – أي على أنه وجوده الأبديّ". من كتاب 'جوهر المسيحية *The Essence of Christianity*' الفصل الثامن عشر، الطبعة الإنجليزية، ص 170. إلاّ أن هذا الوجود من أجل الآخرين أمر نظريّ غير ملزم التطبيق، ولا يقدم أية أرضية لمسلك أخلاقيّ عمليّ. وعن هذه المسالة يعلق الكاتب الفرنسيّ جاك شولير Jacques Chouleur قائلا: "'غير أنه لا أخوّة حقيقية بغير أبوّة مشتركة جامعة' هكذا قال المسيو لا باليس Monsieur de la Palice (شخصية بطولية يمجّدها الشعب الفرنسي) وغياب هذا الأب المشترك هو بالتحديد ما يهدد هياكل الاشتياق إلى الإنسانيات للخطر. والأديان تزوّد الناس جميعا بأخوّة فاعلة مبنية على قبول أب مشترك جامع، بصرف النظر كما إذا كنّا نسميه يهوه أو الله أو أيّ اسم آخر. أما الكنائس التي تنشد التحديث بكل سذاجة عن طريق تهميش هذا البعد الفوقيّ لكي تركّز فقط على البعد الأفقيّ الذي يهتم بخدمة الآخر، فهي كنائس تتحطم على صخرة التناقض المتمثّلة في الأخوّة التي تفتقر إلى أبوّة جامعة. (من مقالة له بعنوان 'البهائية العالمية: أهي دين المستقبل؟ La foi mondiale Bahá'íe: religion de l'avenir?'. وفي مطلع القرن العشرين استنتج خبير التربية والتعليم الألمانيّ ف وفورستر F. W. Förster ان 'الحياة من أجل الآخرين' على أرض الواقع تستمد دافعها من الدين والعقيدة، إذ يقول "إن كل من لديه قدرة على هذا النوع السامي من المحبة، وعلى الرغم من أنه قد يكون ممن فقدوا علاقتهم بالدين بمعناه التقليديّ، تأتيه هذه القدرة فقط من نشيد الإنشاد (أحد أسفار الكتاب المقدّس المنسوب إلى سليمان النبيّ) ذلك النشيد المملوء بمحبة الله، وبفضل ما يتردد بداخله تلقائيا من الرحمة الفائضة التي اكتسبها من تربيته الدينية". (من مقالة له بعنوان 'اللازمة التربوية للأرضية الدينية للأخلاقيات Die pädagogische Unentbehrlichkeit der religiösen Moralbegründung' نشرت في المجلة الكاثوليكية الألمانية *Hochland*، المجلد الأول عامي 1908/1909 ص 35)

[174] من كتابه 'فيما وراء الخير والشر *Beyond Good and Evil*'، الفقرة 60

مازالت منصورة وتُحتسب من أقوى جنود العالم. **بها فتح المقربون مدن القلوب بإذن الله رب الجنود."**[175] وأسمى الخُلُق في الإنسان لا في أن يتصرف أملا في ثواب الجنة أو خوفاً من العقاب، وإنما بنيّة خالصة لخدمة الله. إذ يقول الباب في كتاب البيان الفارسيّ: "اعبد الله على شأن لو كان جزاء عبادتك دخول النار لا يتغير عشقك، وكذلك لو أدخلتك الجنّة... وما يليق بذاته هو عبادته، دونما خشية من نار أو رجاء في جنّة".[176]

دين سرور وحبور

ينطوي كل بيان مختصر مقتضب على خطر الاختزال والتشويه. لذا فإن ما تناولناه بالشرح آنفا قد يفضي بالقارئ إلى استنتاج أن حياة الفرد البهائيّ ما هي إلا وفاء متزمّت بالواجب تحت نِير القانون وقيده، وأن العيش كبهائيّ يعني القناعة بالرثيث من الثياب وشظف العيش، أو بتعبير الكتاب المقدّس 'بالمسوح والرماد'. [177] ولكن ليس هناك أبعد عن الحقيقة من مثل هذا الاستنتاج. فالبهائية دين سرور وحبور. وحقيقة الأمر أن السرور يلعب دوراً محورياً في رسالة بهاء الله. والسرور هنا لا يماثل المتعة والملذات بطبيعة الحال. ويبدو أن من اللازم علينا أن نؤكد على هذه الحقيقة، لأننا نحيا في عالم وصفه الفيلسوف الألمانيّ المعاصر فروم Fromm بأنه عالم من "الملذات العارية عن السرور".[178] ويعرّف ذلك الفيلسوف الفرق بين السرور والتلذذ قائلا: "تورث استمتاعات الانهماك في الملذات، وإشباع كل ما يبتكر هنا وهناك من الشهوات، وملذات المجتمع المعاصر – تورث درجات متفاوتة من النشوة. إلا أنها لا تورث السرور. بل إن الواقع غير ذلك تماماً، فغياب السرور يدفع الناس إلى الجرى وراء الجديد والمزيد من الملذات المثيرة". أما السرور فهو على النقيض من ذلك، إذ هو "ملازم للعمل المجدي الفاعل الناجح. فهو لا يكون ممارسة أو تجربة عالية الوتيرة حادة النبرة تتوقف وتنتهي بغتة، وإنما هو حالة من الشعور طويلة الأمد تصاحب التعبير المُجدي الفاعل عن مواهب الإنسان الجوهرية. فليس

---

[175] كتاب [منتخباتي...]المقتطف 126

[176] كتاب [منتخباتي...] المقتطف 52

[177] إن شئنا استعارة الوصف الذي ورد في سفر أشعياء 58: 5 وإنجيل متى 11:21

[178] في كتابه 'تمتلك أو تكون *To Have or to Be?*' ص 116

السرور هو نار اللذة اللحظية، وإنما هو الجذوة المصاحبة لكيان الإنسان."[179]

كما أن بهاء الله قد شدد دائماً أبداً في كتاباته على أن الإنسان قد خُلق ليكون مسروراً، وأن على ملامحه أن تعكس السعادة والبشْر والصفاء[180]، إذ يقول: **"يَا ابْنَ الإِنْسانِ افْرَحْ بِسُرُورِ قَلْبِكَ، لِتَكُونَ قابلاً لِلِقائِي وَمِرآةً لِجَمالِي."**[181] وكذلك: **"يَا ابْنَ الرُّوحِ بِبِشارَةِ النُّورِ أُبَشِّرُكَ فَاسْتَبْشِرْ بِهِ".**[182] كما يوصي الإنسان بأن يكون **"فَي الوجه طَلقاً"**،[183] وكذلك يقول عبد البهاء: "على الأحباء أن يظهروا إيمانهم في حياتهم اليومية، حتى يرى العالم ذلك النور الساطع من وجوههم. فالوجه المنير المسرور يبهج الناس ويشجّعهم".[184] كما يقول أيضاً: "وعليكم أن تنطلقوا، بقلوب متأججة بمحبة الله وأرواح مقتاتة من المنّ السماوي، كما انطلق الحواريون قبل ألف وتسعمائة عام مضت، لتُحيوا قلوب العباد بنداء البشارات، بوجوه نوراء منقطعين عما سوى الله. واجعلوا المحبة والنور تشعّان منكم حتى يستنير كل من يراكم من انعكاساتها".[185] وكذلك قوله: "أريدكم أن تكونوا سعداء... وأن تضحكوا وتبتسموا وتبتهجوا حتى يسعد الآخرون منكم"[186] فالمطلوب منّا فوق كل شيء إذن هو الظهور بصفات الدفء الإنسانيّ والألفة والمعاشرة من ناحية، والتغلب على برودة التكلّف والتخوّف من التواصل، ونزعة الانعزال من ناحية أخرى.

كما أن الانقطاع المرجوّ من الإنسان لا يعني ألا يَسعَد ويُسَرّ بمباهج هذا العالم. فالقرآن ينفّر من دعاة الزهد والتقشف "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ، وَكُلُوا

---

[179] المرجع السابق ص 117

[180] أنظر ما ذكره الدكتور أسلمنت عن الأعياد البهائية كمناسبات للفرح والسرور – في كتاب [منتخبات من كتاب بهاء الله والعصر الجديد] ص 243

[181] الكلمات المكنونة العربية، الكلمة رقم 36

[182] الكلمات المكنونة العربية، الكلمة رقم 33

[183] كتاب [منتخباتي...] المقتطف رقم 130

[184] كتاب [عبد البهاء في لندن]، الطبعة الإنجليزية ص 122، من وصايا شفهية نقلتها إحدى البهائيات للمجتمع البهائيّ في انجلترا على لسانه، مترجما عن الإنجليزية

[185] ترويج السلام العالميّ ص 92 مترجما عن الإنجليزية

[186] المرجع السابق ص 218

مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ"[187] وهو ما ينصح به بهاء الله مع تحذير بألا تكون هذه المباهج مانعاً بين الإنسان والفضائل الرحمانية **"إن الذي لن يمنعه شيء عن الله لا بأس عليه لو يزيّن نفسه بحُلل الأرض وزينتها وما خلق فيها لأن الله خلق كل ما في السموات الأرض لعباده الموحّدين. كلوا يا قوم ما أحلّ الله عليكم ولا تحرموا أنفسكم عن بدائع نعمائه."**[188] كما يرفض بهاء الله بشكل قاطع الانزواء الزاهد عن الدنيا بقوله: **"يا ملأ الرّهبان لا تعتكفوا فى الكنائس و المعابد أن اخرجوا باذني ثمّ اشتغلوا بما تنتفع به أنفسكم و أنفس العباد، كذلك يأمركم مالك يوم الدّين، أن اعتكفوا فى حصن حبّي هذا حقُّ الاعتكاف لو أنتم من العارفين، من جاور البيت إنّه كالميت ينبغي للإنسانِ ان يظهرَ منه ما ينتفع به الأكوان و الّذى ليس له ثمر ينبغي للنّار، كذلكَ يعظكم ربّكم إنّه لهو العزيز الكريم"**[189] بيد أن السرور الباقي وسكينة الفؤاد لا توجدان في عَرَض الحياة الزائل وإنما في ذلك الملكوت الروحانيّ المفتوحة أبوابه على العالمين.[190] مصداقاً لقول بهاء الله: **"يَا ابْنَ الإِنْسانِ، ارْكُضْ فِي بَرِّ الْعَماءِ ثُمَّ أَسْرِعْ فِي مَيْدانِ السَّمآءِ. لَنْ تَجِدَ الرَّاحَةَ إِلاَّ بِالْخُضُوعِ لأَمْرِنا وَالتَّواضُعِ لِوَجْهِنا."**[191]

الأعمال والمثل الحيّ

دائما ما يكون الكلام عن المثاليات أسهل من تطبيقها والعيش بمقتضاها. ولطالما كثر نزوع الإنسان إلى ألا يُتْبع اعترافه الشفهيّ بالمثاليات بالأعمال التي تعكسها. إلا أن بهاء الله يخبرنا بكل جلاء ووضوح بما هو على المحكّ: ألا وهو حياتنا وأعمالنا. فالرأي بأن على الإنسان أن يكون له ثمر، والاّ يضيع بالبطالة والعقم هذه الأيام التي لن تعود أبداً، هو موضوع غالب ومتكرر في التعاليم البهائية المتعلقة بالفضيلة والخُلق الطيّب: "يا عبدي - شرّ النّاس من يظهرون في الأرض بلا ثمر إنّهم في عداد الأموات محسوبون، بل إنّ الأموات أرجح عند الله من تلك النّفوس

---

[187] سورة المائدة: 87-88

[188] كتاب [منتخباتي...] المقتطف 128

[189] كتاب [آثار القلم الأعلى – كتاب مبين]، المجلّد الأول، ص 24

[190] راجع خطبة عبد البهاء المعنونة ‘السرور والحزن’ كتاب [خطب عبد البهاء...]، ص 192 وما بعدها

[191] الكلمات المكنونة العربية، الكلمة رقم 40

المعطّلة المهملة. "[192] وكذلك: **"رَأْسُ الإِيمَانِ - هُوَ التَّقَلُّلُ فِي الْقَوْلِ وَالتَّكَثُّرُ فِي الْعَمَلِ وَمَنْ كَانَ أَقْوَالُهُ أَزْيَدَ مِنْ أَعْمَالِهِ فَاعْلَمُوا أَنَّ عَدَمَهُ خَيْرٌ مِنْ وُجُودِهِ وَفَنَاءَهُ أَحْسَنُ مِنْ بَقَائِهِ."**[193] وأيضا: "بأعمالكم تزيّنوا لا بأقوالكم"[194]

والمناداة بأخلاقيات جديدة تفقد كل مصداقية لها إذا ما كان سلوك المنادين بها على النقيض منها. وهذا أمر يجلب استهجان بهاء الله إذ يقول: **"هل ينبغي لأحد أن ينسب نفسه إلى ربه الرحمن ويرتكب في نفسه ما يرتكبه الشيطان، لا فو طلعة السبحان لو أنتم من العارفين"**[195] ولا يرضى بهاء الله من البهائيين أن يكون إيمانهم باللسان، فيقول: **"إيّاكم يا ملأ البهاء لا تكونوا بمثل الذين يقولون ما لا يفعلونه في أنفسهم أن أجهدوا بأن يظهر منكم على الأرض آثار الله وأوامره ثم اهدوا الناس بأفعالكم لأن في الأقوال يشاركون أكثر العباد من كل وضيع وشريفا، ولكن الأعمال يمتازكم عن دونكم... "**[196] أما عبد البهاء فيبين لنا سبب تردّي أحوال العالم لما هي عليه الآن من بالغ السوء: "إنّ دين الله – في الحقيقة – هو الأعمال، وليس الأقوال. ذلك لأنّ دين الله هو العلاج. فمعرفة الدّواء وحدها لا تُغْنِي بل إنّ الّذي يجدي هو استعمال الدّواء. فإذا عرف أحد الأطبّاء جميع الأدوية ولم يستعملها فما الفائدة من معرفته لها؟... ففي تعاليم المسيح مثلاً: من ضربك على خدّك الأيمن أدر له الأيسر. وصلّوا للاعنيكم، والتمسوا الخير لأعدائكم... ولكن ما الفائدة؟ إنّك لا تتمالك نفسك عن التّأسّف والتّحسّر وأنت ترى سفك الدّماء، وآلاف النّفوس الّتي قتلت – طوال هذه المدّة – من أمّة المسيح... وفي القرآن يقول الله سبحانه وتعالى: **'والكاظمين الغيظ والعافين عن النّاس والله يحبّ المحسنين'** ... فانظروا اليوم كم تخالف الأعمال الأقوال، وكم جاروا وظلموا..."[197]

---

[192] الكلمات المكنونة الفارسية، الترجمة العربية، الكلمة رقم 81

[193] لوح أصل كل الخير، كتاب [مجموعة من ألواح...] ص 135

[194] الكلمات المكنونة الفارسيّة، الكلمة رقم 5

[195] كتاب [منتخباتي...] المقتطف 128

[196] كتاب [منتخباتي...] المقتطف 139

[197] أنظر هذا الشرح بكامله في كتاب [خطب عبد البهاء...]، الخطبة المعنونة 'دين الله هو الأعمال' ص 137 وما بعدها، (ويلاحظ أن هذا البيان كان يسبق نشوب الحربين العالمية الأولى والثانية، حيث تبدلت 'وآلاف النفوس التي قتلت' إلى 'وملايين...'.[المترجم])

ويعتدّ الإنسان المعاصر بشكل أساسيّ بأمرين فقط، أوّلهما النظريات التي لا جدال فيها، وثانيهما الحقائق التي تثبت بالتجربة. وتعطي النصوص البهائية أول هذين الأمرين – فالنظرية الدّامغة التي لا شك في صحّتها هي نظام بهاء الله العالميّ، أما الحقائق التي تثبت بالتجربة فهي ما يتعين على البهائيين الآن الإتيان به، وهم عاكفون على ذلك بالفعل في الوقت الحالي. فالمجتمع المعاصر القائم على الأمور التقنية والرّياضية ليس على استعداد لأن يعطي أُذناً صاغية لأيّ مبدأ نظريّ. وها هو شوقي أفندي يقول: "لقد تعب العالم من الأقوال ويريد المثل الحيّ، وعلى البهائيين أن يقدموا هذا المثل."[198] كما كتبت السيدة روحية رباني[§] في نفس هذا الموضوع قائلة: "الواقع أن الناس لا يأبهون كثيراً لما نقول. فكل شخص يقول شيئاً في هذه الأيام من وراء ميكروفون في العالم باللغة الصينية أو التشيكية أو الإسبانية، وهلمّ جرّا. والناس يعلنون في قوة عن أفكار طيبة وخطط طيبة وآراء طيبة – بل أن كثيراً مما يعلنونه قريب الشبه فعلاً بأفكارنا وخططنا وآرائنا نحن البهائيين – إلاّ أنها كما نتبين بسهولة من أوضاع العالم لا تأثير لها، لماذا؟... لأن الناس لا يتعدّون الأقوال إلى العمل

---

[198] نقلا عن كتاب 'الحياة البهائية *Living the Life*'، الطبعة الإنجليزية، ص 26

[§] هي السيدة روحية ربّاني (واسمها بالميلاد ماري ماكسويل، إذ ولدت لأبوين كنديين بهائيين في 8 أغسطس عام 1910)، وقد اختارها شوقي أفندي لتكون شريكة حياته عام 1937، ودامت حياتهما الزوجية حتى وفاته في نوفمبر عام 1957، ثم ظلت من بعده ثلاثة وأربعين عاما تؤدي واجبها كعضوة في هيئة أيادي أمر الله التي عيّنها شوقي أفندي في حياته، وهي الهيئة التي تولّت شؤون الدين البهائي لفترة انتقالية دامت خمس سنوات بعد وفاة شوقي أفندي حتى قام البهائيون في العالم بانتخاب بيت العدل الأعظم عام 1963. وامتازت السيدة روحية ربّاني برجاحة عقلها وحضورها الذهنيّ وإلمامها الواسع بحضارات العالم وثقافاته ودياناته، وإجادتها التامّة للإنجليزية والفرنسية والفارسية. وقد قامت بأسفار طويلة واسعة النطاق شملت معظم بلاد العالم تقريبا، جابت خلالها أماكن يصعب الترحال فيها كمجاهل أفريقيا وغابات نهري الكونجو والأمازون، ناشرة أثناءها مبادئ البهائية ومشجّعة لمجتمعاتها، وملتقية برؤساء تلك الدول ومشاهيرها. ولها مؤلفات عديدة معظمها كتبتها تسجيلا وتخليدا لحياة شوقي أفندي وولايته لأمر الدين البهائي، فضلا عن مئات المقالات والأحاديث والخطب في مختلف المنتديات والمناسبات ووسائل الأعلام والأفلام الوثائقية، تدور كلها حول البهائية ومبادئها، وداومت على هذا النشاط الغير عاديّ حتى وفاتها في 19 يناير عام 2000 عن عمر ناهز التسعين عاما. وهناك كتاب يؤرخ لحياة هذه الشخصية الفريدة بقلم السيدة فيوليت نخجواني، التي رافقتها في معظم رحلاتها، وقد نشر هذا الكتاب بالعربية بعنوان "تقدير وعرفان لـ ... روحية خانم" ترجمة عبد الحسين فكري، دار البديع للطباعة والنشر، بيروت، سبتمبر 2007.

الصحيح، ولأنه لا يساندها سلوك قويم، وكل فرد يعلم هذا حقّ العلم."[199]
أما (الكاتب الأمريكي) مارك توين فيعلق في سخرية، هي في الوقت نفسه عين الحقيقة، بقوله: "إن المشكلة في مُصلحي العالم هي أنهم لا يبدؤون بأنفسهم. " فطالما لم يبدأ البهائيّ بنفسه بل تركها ليبلعها التيار السائد، فلا تكون لديه الفرصة لأن يكون بمثابة علامة فارقة أو منارة في هذا العصر المظلم. وما يميّز المؤمن الحقيقيّ هو الجدّية الشاملة التي يتصرف بها حيال تعاليم بهاء الله. ويتطلب هذا الأمر منه الانقطاع عن العالم – أي عن الباحثين عن الملذات، وعن دوائر المتعة بما فيها من السطحية في تمضية وقت الفراغ كما يفرض عليه التضحية. أما من يقتدي بمعايير مجتمع متهالك ويتشرّب بأسلوبه في العيش، ويفتقد الشجاعة على المجاهرة بالاعتراض، فسوف يجرفه التيار مع الباقين. وليس من السهل، في واقع الأمر أن يكون الإنسان بهائياً هذه الأيام: "فالطريق وعر ومليء بالامتحانات" كما يقول شوقي أفندي[200]، فالعيش كبهائيّ في مجتمع قد ضاعت ملامح معاييره، وبين أناس يلهثون أكثر فأكثر وراء نزوات تلذذيّة تكمن في إتباع كل نزق وإشباع كل غريزة، هو من نواحٍ عديدة مثل السباحة ضد التيار. وهو أمر يقتضي كل الشجاعة. وإليكم مثالاً: فمن يعيش في مجتمع تتسم اجتماعياته بتقديم المشروبات الكحولية، بل تبلغ فيه عادة الشرب حدّ الحضّ عليها، ثم يمتنع عن المشروبات الكحولية عملاً بتعاليم بهاء الله، سوف يعتبره الناس، في أوروبا على الأقل، شخصاً شاذ النزعات، وغريباً نزق الأطوار. وعلى البهائيّ هنا أن يتعوّد على واقع حال كهذا، وأن يستمع جيداً إلى نصيحة عبد البهاء "نادوا الخلق إلى الخالق... ولا تلقوا بالاً إلى الإعراض ولا الإنكار". [201] وفي هذا العصر الانتقالي قد يبدو البهائيّ في كثير من الأحيان مصداقاً للمثل الذي ضربه أرثر شوبنهاور Arthur Schopenhauer عن رجل "تعطي ساعته الوقت الصحيح، بينما تكون كل الساعات في المدينة التي يعيش فيها خاطئة. وهو وحده الذي يعرف الوقت الصحيح، فهل يجديه ذلك نفعا؟ فكل من عداه يمشي بساعات تعطي الوقت الخاطئ."[202]

---

[199] من مقالة للسيدة روحية رباني بعنوان Success in Teaching كتبتها في 18 مارس 1949 وترجمها للعربية الدكتور السيد محمد العزّاوي بعنوان: مشاكل التبليغ

[200] نقلا عن كتاب 'الحياة البهائية *Living the Life*'، الطبعة الإنجليزية ص 36

[201] كتاب [خطب عبد البهاء...]، ص 10

[202] من كتابه 'مواعظ وأمثال *Counsels and Maxims*'، الفصل الخامس بند 27

ولقد ثبت بالتجربة أن من يروّج للجديد يعرّض نفسه بقدر مّا إلى النقد والسخرية. ويقول مارك توابن: "إن من يأتي بفكرة جديدة سيعدّ أحمقاً إلى أن يقبل الناس هذه الفكرة"، ويزيدنا الفيلسوف الفرنسيّ أندريه بتعليقه القائل "إن الخوف من أن نجعل من أنفسنا محلّ السخرية هو ما يفرز أعظم الجُبن والخوف في نفوسنا". ذلك لأن حاسة القطيع في الإنسان قويّة وغالبة. فالجنس البشريّ من هذا المنظور - كما تقول السيدة روحية ربّاني - كقطيع من الأغنام: "يثغو معاً ويرعى معاً ويفزع معاً"، وتزيد على ذلك نصحها التالي لأقرانها من البهائيين: "إذا عجز البهائي عن إدراك أنه، بفضل انضمامه لأعظم حركة تقدّمية بنّاءة في العالم كله، قد سما فوق القطيع وأسبغ على نفسه امتيازاً فائقاً، يكون عجزه هذا مدعاة للشفقة".[203] وكما يقول شوبنهاور إن من يحاول أن يروّج لمعرفة وبصيرة إنسانية "مكتوب عليه دائماً أبداً أن يلقي مقاومة من أهل زمانه". إلا أن شوبنهاور يخفف من وطأة هذه الحقيقة قائلاً إن على تلك النفس أن تتلمس الراحة "في الإيقان بأن الحقيقة تبقى معه على الرّغم من العراقيل التي تضعها التعصّبات في طريقه، وبأن الحقيقة لا تفعل شيئاً سوى انتظار حليفها – ألا وهو الوقت والأوان، وبمجرد أن تنضم النفس إليها تكون واثقة تماماً من النصر الذي إذا ما تأخر اليوم ستناله غداً".[204] بيد أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن وضع البهائيّ الحاليّ ذو شقّين، أحدهما إيجابيّ والأخر سلبيّ.

والشقّ السلبيّ يرجع إلى أن البهائيين هم بتعبير علماء الاجتماع أقلّية 'إدراكية' أو 'معرفيّة' *cognitive minority* – أي زمرة من الناس تختلف نظرتهم للعالم بدرجة كبيرة عن النظرة التي يقبلها ويسلّم بها الناس على وجه العموم. ولذا تكون أية أقلية إدراكية في وضع يصفه بيتر برجر Peter L Berger بأنه وضع 'غير مريح'،[205] ويكمن انعدام الراحة هذا في أن معرفة المرء تحتاج إلى عون مجتمعيّ، ولذا فإنها تكون "عرضة لضغط مجتمعي".[206] وما ينجم عن هذا الظرف بالنسبة للبهائيّ هو خطورة أن تؤثر فيه قوى المجتمع المدمّرة ومن ثَمّ يصير عرضة لمغريات قوة المسلك العام، وهي قوة تقليدية شائعة في عالم اليوم. وبالنظر إلى هذا الخطر فإن

---

[203] من مقالة للسيدة روحية رباني بعنوان Success in Teaching ، سبق ذكرها، منقولة عن ترجمتها العربية بتصرّف

[204] في كتابه 'أساس الأخلاقيات *The Basis of Morality*'، الطبعة الإنجليزية، ص 228

[205] في كتابه 'إشاعة ملائكية *A Rumor of Angels*'، ص 7-8

[206] المرجع السابق ص 10

شوقي أفندي ينصح المؤمنين بأن يكونوا على حذر لكي "لا ينعكس الظلام المجتمعيّ على تصرّفاتنا ومواقفنا، ربما دون أن ندري".[207] كما أنه بمقدور البهائيّ أن يكتسب صلابة على الوقوف أمام الضغط الاجتماعي بدلاً من التسليم له – وهي صلابة تتوفر بدرجات متفاوته من إنسان لآخر – وذلك بفعل إيمانه برسالة بهاء الله وبغلبتها في نهاية المطاف.

أما الجانب الإيجابيّ لهذا الوضع فيكمن في حقيقة أنه كلما تسارع تداعي القيم القديمة وتفككت نظم التحكم القديمة دون وجود أية بدائل لها، وازدياد ارتباك المجتمع وتخبّطه وضوحاً نتيجة لذلك، كلما ازدادت قدرة البهائيّ على التميّز عما يحيط به، وتمكّنه من أن يكون مثلاً أو نموذجاً لمن حوله. وعندما انضم المؤلّف إلى المجتمع البهائيّ قبل أكثر من ستين عاماً مضت كان منزعجاً من بيان لعبد البهاء جاء فيه: "عليكم أن تسلكوا بحيث يكون سلوككم ممتازاً مثل الشمس عن باقي النفوس. ان كل واحد منكم عندما يدخل مدينة يجب ان يشار اليه بالبنان في صفاته الممتازة مثل الصدق والوفاء والمحبة والامانة والديانة والاخوّة للجنس البشري، عندئذ سيقول أهل المدينة إن هذا الشخص بالتأكيد بهائيّ لان سلوكه واطواره وحركاته واخلاقه من صفات البهائيين".[208] فكنت أقول لنفسي عندما أقرأ هذا البيان ‘كيف يمكن هذا؟ ’ إذ أن الإنسان، فضلاً عن هذا وذاك، محاط بالعديد من الخيّرين من البشر الذين كانوا يحيون حياة صالحة طيبة، ولا يستطيع الإنسان أن يتميّز عنهم إلا بشقّ الأنفس. أما اليوم فإننا نرى جيلاً ينمو ويترعرع – جيلاً لا يحمل سوى بصمة باهتة لا تراها العين من القيم القديمة، هذا إن كانت هناك قيم أصلاً. وباختفاء هذه القيم يتوارى أيضاً كل ما جاءت به من فوائد. ويوماً فيوماً يزداد عالمنا ظلاماً، ويزداد قتام حياتنا وعبوسها. بدرجة أن فضيلة مثل الأدب (أو الكياسة)،[209] وهي فضيلة تتطلب ممارستها من المرء جهداً قليلاً نسبياً، وكونها مرادفة لفضيلة الحكمة واضح تماماً[210]، وقد أخذت هذه الفضيلة في الاختفاء والانزواء من حياتنا

---

[207] نقلا عن كتاب ‘الحياة البهائية *Living the Life*’، الطبعة الإنجليزية ص 14

[208] كتاب [منتخبات من مكاتيب عبد البهاء] الجزء الأول -المقتطف 35، نقلا عن الترجمة الواردة في كتاب [الكنوز الإلهية] - الفصل 13 "الامتياز في كل الأمور"، ص 81

[209] وعن أهمية فضيلة الأدب يقول بهاء الله: "أُوصِيكُمْ بِالأَدَبِ فَهُوَ سَيِّدُ الأَخْلاَقِ فِي الرُّتْبَةِ الأُولَى. طُوبَى لِنَفْسٍ تَنَوَّرَتْ بِنُورِ الأَدَبِ...فَصَاحِبُ الأَدَبِ صَاحِبُ مَقَامٍ عَظِيمٍ. " من لوح الدنيا، كتاب [مجموعة...]، ص 105

[210] يقول شوبنهاور "من الحكمة أن يكون الإنسان مؤدبا، وبناء عليه من الغباء أن يكون وقحا. وخلق الإنسان للعداوات، بفظاظة متعمّده لا داعي لها، هو تصرف مجنون

اليومية بدرجة تدعو للأسف. وأصبح الشاب الذي يتصف اليوم بالأدب والإخلاص والأمانة ويرفض المعاشرة بغير زواج – أصبح ظاهرة شاذة تستلفت الانتباه. فمجرد ممارسة فضيلة واحدة ممارسة جيّدة من شأنها أن تلفت أنظار مجتمعنا المعاصر. وها هو شوقي أفندي يطالعنا بقوله: "لطالما سمعنا حضرة المولى المحبوب[211] وهو يقول: 'لو أن أحد الأحباء أخذ على عاتقه تنفيذ مبدأ واحد فقط من مبادئ الأمر المبارك بتمامه وكماله، وذلك بكل تفانٍ وانقطاع وعزم وثبات، وضرب المثل عليه في كل أعماله ومساعيهٍ في الحياة، لصار العالم عالماً آخر ولعكس وجه الأرض أنوار الفردوس الأبهى'..."[212]

وليس هناك شك في أن الترفّع وعدم التهافت على الأمور المادّية، والمثابرة الدائبة لوصول الإنسان إلى معرفة نفسه وتربيتها وتهذيبها، هو هدف سامٍ يتطلب اليقظة الدائمة والرغبة في التغيّر والتحوّل. إلا أننا نرتكب خطأً جسيماً إذا ما قنعنا بفكرة أن هذا هدف لا يمكن بلوغه، تماماً كما توصف الآن خطبة المسيح على الجبل بأنها 'منهج سلوك مثاليّ عاطفيّ'[213]

تماما، مثل إشعال الإنسان للنار في داره هو. " من كتاب 'مواعظ وأمثال *Counsels and Maxims*'، الفصل الخامس، بند 36. كما يقول شوبنهاور أيضا في موضع آخر إن الأدب هو 'إنكار منهجيّ للأنانية وحب الذات في خضمّ التّوافه التي تحملها المعاشرة اليومية مع البشر.' من كتابه 'أساس الأخلاقيات *The Basis of Morality*'، الطبعة الإنجليزية، ص 153

[211] حضرة المولى هو لقب أوصى بهاء الله المؤمنين بمخاطبة ابنه عبد البهاء به.

[212] من مقدمة كتاب 'الحياة البهائية *Living the Life*' الطبعة الإنجليزية ص1 - مترجما عن الإنجليزية

[213] انتقاد وجّهه الكاتب جيرهارد سيزني Gerhard Szczesny في كتابه 'مستقبل الكفر *The Future of Unbelief*'، الطبعة الإنجليزية، ص 52. واتّهام متطلبات السلوكيات الدينية بالمغالاة هو انتقاد ليس بجديد، فهو إتّهام يوجّهه التنويريون المجددون بكل إلحاح، وبلغ من قدمه أنه قيل في زمن كونفوشيوس حكيم الصين، وردّ عليه ردا تضمّنته مجموعة أقواله 'الأحاديث والمشاورات *Analects*'، المعروفة أيضا بشذرات كونفوشيوس، وذلك في صورة حوار بين تلميذ متردّد وأستاذه:

التلميذ: "المسألة ليست هي أنني غير مشتاق إلى تعليمك يا سيدي، وإنما هي أنني لست قويا بما فيه الكفاية"

المعلّم: "من لا يكون قويا بما فيه الكفاية يفشل في منتصف الطريق، ولكنك تضع لنفسك الحدود حتى قبل أن تبدأ المحاولة"

من كتاب 'أحاديث ومشاورات كونفوشيوس'، المجلد السادس، الفصل العاشر

لا يمكن أن يتحقق. ذلك لأن بلوغ هذا الهدف متاح، وهذا المنهج السلوكيّ ممكن نواله. سيّما أن هناك نفساً قد عاشت بمقتضاه قَبلَنا وقدمت لنا المثل الحيّ الذي نحاول الاقتداء به – ألا وهو شخص عبد البهاء نفسه.[§]

[§] لقد كُتِب الكثير عن حياة عبد البهاء ومكانته في تاريخ الأديان، أهمه ما أفرده شوقي أفندي له في كتاب [القرن البديع] ص 285 وما بعدها، وتمتلئ المكتبة الإنجليزية بمئات المراجع التي تتناول سيرته وكتاباته وأقواله، وهي مراجع لم تترجم حتى الآن إلى العربية، ولمعرفة معظم هذه المراجع وتحميلها من على الإنترنيت يوصى القارئ بزيارة الموقع التالي:

http://bahainafeza. wordpress. com/15-2-abdul-baha-library/

أما لقرّاء العربية، فهناك كتاب عن سيرته صدر بعد وفاته بقليل، وهو ‘عبد البهاء والبهائية’ تأليف الكاتب سليم قبعين، وهو متاح للتحميل من على الإنترنت على نفس الموقع المشار إليه أعلاه. ثم ظهر أخيرا مرجع فريد يعوّض القارئ العربيّ كثيرا عن هذا النقص، وهو كتاب [عباس أفندي]، للعلّامة البهائي الراحل الدكتور سهيل بديع بشروئي "في الذكرى المئوية لزيارة عبد البهاء لمصر 1910 – 1913"، طبع منشورات الجمل، بغداد وبيروت 2010.

الفصل الثالث عشر

المجتمع البهائيّ

أهل البهاء

يتّضح مما تَقدم أن على البهائيّ أن يجتهد من أجل نيل الكمالات الإنسانية، بيد أنه يجب عليه أيضاً أن يتطلّع ويكافح لتحقيق مجتمع إنسانيّ وخلق نظام اجتماعي عادل، ولتأسيس ملكوت الله على الأرض. فلا يجمل بالبهائيّ إذن أن يحاكي الناسك الهنديّ في معيشة ملؤها التأملات والانطواء على النفس في اعتزال منه عن مشاكل المجتمع كبيرها وصغيرها. بل عليه وهو منهمك في التحول والتواؤم مع مقتضيات هذه الأخلاقيات الجديدة أن يشتغل بتغيير المجتمع وبناء نَظم جديد وخَلق عالم أفضل. فهو لا يستطيع أن يسعى نحو هذه الغايات ويحققها في معزل عن الآخرين، وإنما لكونه عضواً من مجتمع يضم في زمرته العالم بأسره.

وليس هناك سوى شرط واحد للانضمام لزمرة هذا المجتمع، ألا وهو الأقرار ببهاء الله على أنه مظهر أمر الله، وقبول تعاليمه ووصاياه بغير قيد أو شرط.[1] ولكن لا يكون متوقعاً من أيّ ممّن يعتنقون أمره أن يبدي قسطاً معيّناً من الكمال. فما يعوّل عليه حقاً هو أن تكون لدى الفرد رغبة صادقة في أن يحيا طبقاً لتعاليم بهاء الله، ويسعى جاهداً في الترقي على درب نيل الكمالات. ولا يَعلم مدى استعداد أيّ منا لأن يترقى ويتقدم سوى الله وحده.

فعلى من يصير بهائياً إذا أن يدرك أن المجتمع الذي ينضم إليه ليس زمرة سماوية ملائكية، بل مجتمع من بشر غير كاملين. وكلما زاد تداعي المجتمع الكبير من حولنا وانحلاله، كلما ألفينا أن من سينضم إلى صفوف المجتمع البهائيّ ليسوا فقط أولئك الودعاء من الباحثين عن الحقيقة، وإنما

---

[1] عرّف شوقي أفندي صفات المؤمن البهائي بأنها "الاعتراف الكامل بمقام المبشر (الباب)، وصاحب الرسالة (بهاء الله) والمثل الحقيقيّ (عبد البهاء)؛ والقبول غير المتحفظ بما جرى من أقلامهم والخضوع له، والالتزام بكل ولاء ورسوخ بكل فقرة من الوصية المقدّسة لمحبوبنا (عبد البهاء)؛ والارتباط الوثيق بروح وقالب الإدارة البهائية القائمة في اليوم الحاليّ في جميع أنحاء العالم". من رسائل شوقي أفندي المضمّنة في مجموعة 'الإدارة البهائية *Bahá'i Administration*'، الطبعة الإنجليزية، ص 90

أيضاً أولئك 'المتعبين والثقيلين الأحمال' الذين تكلم عنهم الإنجيل[2] - أي المنبوذين والمظلومين والمضطهدين واليائسين والمدمنين والمعتلّين جسداً وروحاً، ذلك لأن بهاء الله قد أتى من أجلهم أيضاً. وتماماً كما لا يرفض بهاء الله أيّ إنسان لكونه ناقصاً، لا يسمح لأيّ من المؤمنين به أن يرفض أخاه بسبب إخفاق منه أو قصور. عملاً بنصيحة حضرة عبد البهاء إذ يقول: "وكل ما في الأمر أنّ بعض النّاس ما زالوا كالأطفال لم يصلوا إلى مرحلة البلوغ. وهؤلاء يجب علينا أن نربّيهم حتّى يبلغوا أشدّهم أو أن بعضهم مرضى يجب علينا أن نعالجهم حتّى يظفروا بالشّفاء. أو أنّ بعضهم جاهل يجب تعليمهم حتّى يعلموا ويدركوا. ولا ينبغي أن نعتبر هؤلاء أشرارًا وننفر منهم بل يجب علينا أن نكون أشدّ رأفة بهم لأنّهم أطفال أو مرضى أو جهلاء.[3] وليس هناك في البهائية مسألة تم التشديد عليها بكل صراحة أكثر من نهي المؤمن عن تصيد أخطاء الغير واغتيابهم: **"يَا ابْنَ الإِنْسانِ: لا تَنَفَّسْ بِخَطَأِ أَحَدٍ ما دُمْتَ خاطِئاً، وَإِنْ تَفْعَلْ بِغَيْرِ ذلِكَ مَلْعُونٌ أَنْتَ، وَأَنَا شاهِدٌ بِذلِكَ."**[4] فالمعتدّين بالنفس الواضعين أنفسهم موضع نصح الآخرين وإرشادهم – أولئك الذين يصفهم حكيم الصين كونفوشيوس بأنهم 'مفسدو الأخلاق'[5] – هم الذين يخاطبهم بهاء الله بقوله: **"يَا ابْنَ الوُجُودِ: كَيْفَ نَسِيتَ عُيوبَ نَفْسِكَ وَاشْتَغَلْتَ بِعُيُوبِ عِبادِي. مَنْ كانَ عَلى ذلِكَ فَعَلَيْهِ لَعْنَةٌ مِنِّي."**[6] وكذلك بقوله " فإن غلبت عليكم النّفس النّاريّة فاشتغلوا بذكر عيوب أنفسكم لا باغتياب خلقي لأن كلّ منكم لنفسه أبصر وأعرف منه بنفوس عبادي. "[7] وكذلك قوله أن المؤمن الصادق هو الذي "يعفو عن الخاطئين... ويطلب لهم المغفرة ويصفح عن العاصين ولا ينظر إليهم بعين الحقارة، لأنّ حسن الخاتمة مجهول. "[8]، وقوله **"فيا حبّذا لمحسن لم يستهزئ بمن عصى ويستر ما شهد منه ليستر الله عليه جريراته... "**[9]

---

[2] إنجيل متّى 11: 28

[3] كتاب [خطب عبد البهاء في أوروبا...]، ص 158

[4] الكلمات المكنونة العربية، الكلمة 27

[5] كتاب 'المقتطفات او الشذرات *The Analects*'، الطبعة الإنجليزية، الجزء السابع عشر، الفصل الثالث عشر

[6] الكلمات المكنونة العربية، الكلمة 26

[7] الكلمات المكنونة الفارسية، الترجمة العربية، الكلمة 66

[8] كتاب [الإيقان] ص 164

[9] كتاب [منتخباتي...] المقتطف 145

أما الغيبة والنّميمة في البهائية فهي 'أعظم خطيئة' إذ إنها "تطفئ سراج القلب المنير وتُميت الحياة من الفؤاد". [10] كما ينصحنا عبد البهاء بأن "نصمت عن أخطاء الآخرين وأن ندعو لهم وأن نساعدهم بشفقتنا على تصحيح أخطائهم"... وأن " ننظر دومًا إلى الحسن لا إلى القبيح"[11]، فهذا المسلك المتّصف بتقبل الآخرين والإشفاق عليهم، ذلك المسلك الذي شدّد عليه يسوع المسيح[12]، هو الضمان الوحيد لكي تسود المحبة والوفاق في مجتمع يضم أناساً من مختلف الخلفيّات والثقافات بدلاً من أن تغلب عليه الشحناء والبغضاء.

وهذه الأوامر والنصائح تنسحب على المؤمن الفرد فيما يختص بعلاقته مع أخوانه من بني البشر. أما مؤسسات المجتمع فهي المسئولة عن إعانة فرادى المؤمنين لكي يتداركوا أخطاءهم من أجل حماية المجتمع من الخارجين على القانون. كما أن على تلك المؤسسات ألا تتغاضى عن محاولة بعض المؤمنين لتقويض الصالح العام أو التطاول لتقويض دين الله من الداخل. فلقد وضع بهاء الله وعبد البهاء التدابير اللازمة لحماية العهد والميثاق الإلهيّ، الّذي وصفه شوقي أفندي بأنه 'سفينة النجاة'[13]، وقال عنه عبد البهاء إنه 'محور وحدة العالم الإنسانيّ'؛[14] ذلك لأن دعامة المجتمع ونظامه هو العدل وليس الفضل.[15]

---

[10] كتاب [الإيقان] ص 163

[11] وردت في [منتخبات من كتاب بهاء الله والعصر الجديد] ص 113

[12] راجع أيضا إنجيل متّى 7: 1 آية إلى 5

[13] كتاب [القرن البديع] ص289

[14] قول لعبد البهاء أورده شوقي أفندي في المرجع السابق، ص289

[15] راجع ما أوردناه عن العدل والإنصاف في فصلنا العاشر "الموازنة بين السلطة والحرية"، تحت بند 'في معاداة القانون'. ومن الكتابات البهائية التي تتناول العهد والميثاق راجع: كتاب عهدي، [مجموعة من ألواح...] ص 197 وما بعدها؛ كتيّب [ألواح وصايا حضرة عبد البهاء]، (أو كتيب [العهد الأوفى] المشتمل على هذه الألواح)؛ رسالة [النظام البديع لدورة حضرة بهاء الله] لشوقي أفندي، طبع المحفل الروحاني المركزي للبهائيين بمصر والسودان، (ويوصى المترجم بالرجوع إلى مجموعة [العهد والميثاق] وهي مواد قامت بترجمتها دائرة الأبحاث التّابعة لبيت العدل الأعظم في كانون الأوّل (ديسمبر) 1987، طبع دار النّشر البهائيّة في البرازيل، إبريل 1993، ويمكن تحميل هذه المجموعة على الرابط

http://bahainafeza. files. wordpress. com/2010/06/al-ahd-val-mithaq. doc

انتماء من صميم الفؤاد

ليس هناك شكّ في أن من ينضم إلى المجتمع البهائيّ – مجتمع الاسم الأعظم – عليه أن يقطع صلته بالمؤسسات الدينية التى كان ينتمي إليها في السابق. وهذا المطلب ليس دلالة على تحزّب قائم على ضيق الأفق، بل هو نتيجة منطقية لكونه منتمياً إلى مجتمعه الجديد. فلا يستطيع المرء أن يخدم سيدين في آن واحد. فما لم يكن المرء مصاباً بانفصام في الشخصية فإنه لا يتوقع مجيئاً مستقبليّاً للمسيح (كما يعتقد المسيحيون) ويؤمن في الوقت نفسه (شأنه في ذلك شأن البهائيين) بأن المسيح قد عاد في شخص بهاء الله. وتماماً كما لا يمكن لأحد أن يكون يهودياً ويكون في الوقت نفسه مسيحياً أو مسلماً، لا بل لا يمكن أن ينتمي إلى مذهبين مختلفين لنفس الديانة، كالانتماء إلى كنيسة كاثوليكية وأخرى بروتستانتية في آن واحد – كذلك لا يمكن للبهائيّ أن يكون عضواً في جماعة دينية أخرى. فترك البهائيّ للكنيسة إذن هو أمر منطقيّ. وهو أيضاً لفتة نابعة من أمانة تجاه الجماعة التى كان منتمياً إليها قبل إيمانه بالبهائية، كما يرى شوقي أفندي إذ يقول: "لا يمكننا نحن البهائيون أن يقول عنا الناس أننا منافقون أو اناس غير مخلصين فيما نقوله ونؤمن به. ولهذا السبب لا يمكننا أن نعتقد في آن واحد بصدق دين بهاء الله من ناحية والعقائد الكنسية السائدة من ناحية أخرى. فالكنائس لازالت تنتظر مجيء يسوع المسيح؛ بينما نعتقد نحن بأنه قد عاد ثانية في مجد الآب. كما أن الكنائس تعلّم عقائداً تختلف من مذهب لآخر، من النوع الذي لا نقبله نحن البهائيون من قبيل القيامة بالأجساد، والاعتراف. أي بتعبير آخر، ليست هناك اليوم كنيسة مسيحية نستطيع نحن البهائيون أن نقول بكل صدق وأمانة أننا نقبل عقائدها برمّتها. وعلى هذا

ولقراء الإنجليزية: مجموعة 'ميثاق بهاء الله *The Covenant of Bahá'u'lláh. A Compilation*' التي أصدرها المحفل الروحانيّ المركزيّ للبهائيين بالجزر البريطانية، لندن عام 1963؛ و كتاب 'الميثاق والإدارة *The Covenant and Administration*' طبع أمانة النشر البهائية بالولايات المتحدة، ويلميت 1951؛ و مجموعة كتيبات 'قوة الميثاق *The Power of the Covenant*' طبع المحفل الروحانيّ المركزيّ للبهائيين بكندا عام 1977؛

ولقراء الألمانية كتاب 'الميثاق في الديانات المنزلة *Das Bündnis in der Offenbarungsreligion*' للكاتب هيرمان جروسمان، طبع دار النشر البهائية الألمانية، هوفهايم-لانجنهاين عام 1981

فإن بقاءنا في عضوية الكنيسة هو أمر غير لائق بالنسبة لنا، لأن تصرفنا هذا في تلك الحالة يكون من باب التظاهر الزائف. فمن واجبنا إذن ترك الكنائس التي كنا ننتمي إليها في السابق، ولكن مع الاستمرار في التعاشر مع أعضاء تلك الكنيسة وقساوستها إن شئنا ذلك. إن إيماننا بالمسيح بوصفنا بهائيين هو إيمان جدّ راسخ ومتين وسامٍ في طبيعته بالدرجة التي لا يوجد معها سوى أقل القليل من المسيحيين الّذين يحبونه ويمجّدونه ويؤمنون به كما نؤمن نحن. فنحن لا ننفصل هنا سوى عن الطقوس والعقائد الكنسية – لا عن روح المسيحية."[16]كما يقول شوقي أفندي أيضاً في موضع آخر: "لا يكون بوسع البهائيّ الذي يرغب في أن يكون متمسكاً بكل صدق وإخلاص بالمبادئ الفريدة للأمر المبارك أن يقبل بالعضوية الكاملة لأيّ منظّمة دينية غير بهائية. لأن مثل هذا العمل بالضرورة لن يفصح ضمنيّا إلا عن قبول جزئيّ بتعاليم الأمر المبارك وشرائعه، وعن اعتراف ناقص بطبيعته المستقلّة، بل ويرقى بذلك إلى حد عدم الوفاء للحقائق التي ينطوي عليها. ذلك لأنه لا يخفى أبداً أن معظم الفرضيات الأساسية لأمر بهاء الله تختلف تماماً عن العقائد والتقاليد والمؤسسات العتيقة البالية. فكون المرء بهائياً مع كونه عضواً في هيئة دينية أخرى في الوقت نفس ليس إلا عمل ينطوي على التناقض بما لا يمكن لأيّ إنسان مخلص منطقيّ التفكير أن يقبله. فالإيمان ببهاء الله لا يعني قبول بعض تعاليمه ورفض البعض الآخر. فالانتماء لأمره يجب أن يكون بغير تفريط في أيّ من تعاليمه وبكل إخلاص."[17]

وكما كان اليهوديّ الحقيقيّ في السابق يظهر إخلاصه لنبيّه موسى عن طريق قبوله بالمسيح[18]، كذلك يكون إظهار المسيحيّ المخلص لوفائه للمسيح عن طريق إتباع بهاء الله بغير تحفّظ وبكامل المشاعر. وكل من يجد في هذا الإقدام مخاطرة كبيرة، أو يرغب في الوفاء بهذا الواجب الجديد مع

---

[16] في رسالة كتبت نيابة عنه وردت أجزاء منها في مجموعة ‹أصول الإدارة البهائية *Principles of Bahá'í Administration*›، الطبعة الإنجليزية، ص 30

[17] مترجما عما ورد في المجموعة الإنجليزية لرسائل شوقي أفندي المعنونة ‹توجيهات وليّ الأمر *Directives from the Guardian*›، المقتطف رقم 173، ص 64-65، وللمزيد من بيانات شوقي أفندي عن هذه المسألة راجع كتيب ‹الإجراءات البهائية *Bahá'í Procedure*›، الطبعة الإنجليزية، ص 14، ومجموعة ‹رسائل شوقي أفندي إلى أمريكا *Messages to America*›، الطبعة الإنجليزية، ص 4-5

[18] مصداقا لقول المسيح «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي أَشْكُوكُمْ إِلَى الآبِ. يُوجَدُ الَّذِي يَشْكُوكُمْ وَهُوَ مُوسَى، الَّذِي عَلَيْهِ رَجَاؤُكُمْ. 46لأَنَّكُمْ لَوْ كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَ مُوسَى لَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي، لأَنَّهُ هُوَ كَتَبَ عَنِّي. 47فَإِنْ كُنْتُمْ لَسْتُمْ تُصَدِّقُونَ كُتُبَ ذَاكَ، فَكَيْفَ تُصَدِّقُونَ كَلاَمِي؟ ». إنجيل يوحنا 5: 45-47)

العزوف عن قطع علاقاته القديمة بدافع من سمعة او مصلحة تجارية أو منفعة عائلية لا يكون قد أدرك ما يعنيه الإيمان بدين جديد. وتكون العبارات التالية من الإنجيل موجهة إليه "مَنْ أَحَبَّ أَبًا أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي، وَمَنْ أَحَبَّ ابْنًا أَوِ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي"[19]... "أَنَّكَ لَسْتَ بَارِدًا وَلاَ حَارًّا. لَيْتَكَ كُنْتَ بَارِدًا أَوْ حَارًّا!"[20]، وكذلك: "لَيْسَ أَحَدٌ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْمِحْرَاثِ وَيَنْظُرُ إِلَى الْوَرَاءِ يَصْلُحُ لِمَلَكُوتِ اللهِ".[21]

الهيكل التنظيميّ للمجتمع البهائيّ – ضرورته والغرض منه

إن المجتمع البهائيّ بصفة جوهرية هو أكثر من مجرد دعوة إلى وحدة دينية، أو منتدى يتسنّى فيه لأديان العالم القديمة أن تتلاقى، أو مبادرة غير مسبوقة لتشكيل أحد برلمانات الأديان العالمية. كما أنه ليس مجرد رابطة مكوّنة من مصلحي العالم المتشابهين في الأفكار، وإنما هو خلق الله الجديد، وأصحاب ميثاق إلهيّ جديد. ولذا لا يكون المجتمع البهائيّ بمثابة حركة مهلهلة فضفاضة لا تنظيم لها، أو روحانية النزعة، أو زمرة تسودها نزعة إستلهامية حرّة *pneumatic anarchy* أو ثلّة تحكمها نفس تلك النزعة *pneumatocracy* (بمعنى أن يكون مجتمعاً لا يرشده ولا يحكمه سوى إلهامات أشبه بالخواطر التنبؤية *pseudo-prophetic inspirations* من جانب أفراد من مؤمنين يفترض فيهم أنهم يتلقون إلهاماً من الروح القدس)[22]،

---

[19] إنجيل متّى 10: 37، وكذلك جاء في القرآن الكريم "يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ". سورة عبس: 33-37

[20] سفر الرؤيا 3: 15-16

[21] إنجيل لوقا 9: 62

[22] راجع كتاب رودلف سوم Rudolf Sohm ‘قانون الكنيسة *Kirchenrecht*’ المجلد الأول ص 20 وما بعدها، وكتابه الثاني المعنون ‘روح الكاثوليكية ومنبعها *Wesen und Ursprung des Kkatholizismus*’ وكذلك المؤلفات التي تناولت أعماله بالشرح والنقد، مثل كتاب المؤلف هانز باريون Hans Barion، وعنوانه ‘رودلف سوم، والإطاحة بالقانون الكنسيّ *Rudolf Sohm und die Grundlegung des Kirchenrechts*’، ص 9، وكتاب المؤلف ويلهلم ألبرت هوك: ‘رودلف سوم وليو تولستوي *Rudolf Sohm und Leo Tolstoi*’ ص 78. ولقد انتقد رودلف سوم بشدة حقيقة أن الكنيسة اتخذت لنفسها عبر تاريخها هيكلاً مبنيّاً على القانون، وذلك في إشارة منه إلى قول المسيح في الآية العشرين من الإصحاح الثامن عشر من إنجيل متى "لأَنَّهُ حَيْثُمَا اجْتَمَعَ اثْنَانِ أَوْ ثَلاَثَةٌ بِاسْمِي فَهُنَاكَ أَكُونُ فِي وَسْطِهِمْ" وقول المسيح في الآية الثامنة من الإصحاح الثالث من إنجيل يوحنا "اَلرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاءُ، وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا، لكِنَّكَ لاَ تَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ. هكَذَا كُلُّ مَنْ وُلِدَ مِنَ الرُّوحِ"

فالمجتمع البهائيّ هو، على النقيض من ذلك، مجتمع تدير شؤونه مؤسسات تنظمها الشريعة البهائية. فلا يكون اتحاد المؤمنين وتآلفهم مرتبطاً فقط برباط الإيمان والمحبة، ولكنه يكون أيضاً مرتبطاً برابطة الشريعة والأحكام، وهي حقيقة قد تغيب عن الأعين أحياناً. فمن المهم أن يعرف كل من يحيا ويعمل في هذا المجتمع أن يعرف بنيته الهيكلية. ووصف هذه البنية بالتفصيل يخرج عن الهدف من كتابنا هذا، إلا أن من الممكن هنا أن نتناول بإيجاز ضرورة هذه البنية وغرضها، ومغزاها بالنسبة للمؤمن الفرد.

إن هذه البنية التشريعية لم تظهر نتيجة لضرورة فرضتها ظروف خارجية، وإنما هي هيكل أتى به بهاء الله كجزء لا يتجزأ من تعاليمه. فقضى بأن يكون مجتمعه مبنياً على التشريع ترشده مؤسسات وصفها شوقي أفندي بأنها "قنوات تسري من خلالها الفيوضات والبركات التي وعدنا بها (بهاء الله)".[23] وهذه هي المرة الأولى في تاريخ الدين أن تكون البنية التشريعية لمجتمع المؤمنين منصوص عليها صراحة من قبل مظهر أمر الله بدلاً من تركها بكاملها لما يراه أتباعه. فبهاء الله هنا هو "قاضي الجنس البشريّ ومشرّعه ومخلّصه... وموحّد بني الإنسان كلهم"[24] فمنح مجتمع المؤمنين به قالبه التشريعيّ النهائيّ الذي لا يتغيّر، ضامناً بذلك ألاّ يتسبب الاختلاف على الطبيعة الصحيحة لبنية هذا المجتمع في حدوث شق في زمرة المؤمنين، كما حدث في تاريخ الأديان مراراً وتكراراً.

والضرورة من النظم التشريعيّ مفهومة. فعلى مجتمع المؤمنين لكي يتسنى له الإعلان عن نفسه والمطالبة بالاعتراف بحقوقه والانخراط الفاعل في شؤون هذا العالم- الذي هو عالم قائم على النظام - أن يكون له هيكل تنظيميّ قانوني. وما يضمن وحدة المؤمنين هنا ودرء خطر الانقسام

ويعتبر هذا المسار 'سقطة الكنيسة' من وجهة نظره. وشدّد على ضرورة تأسيس المجتمع المسيحيّ على الإيمان والمحبة وأن يتلمس الهداية من الروح القدس دون سواها. ويرى سوم أيضا أن النظام المقدّر للكنيسة أن تتبعه هو 'الإستلهامية الحرّة 'pneumatic anarchy'. وبنى سوم فكرته على اعتقاد منه بأن الروح والقانون هما ضدّان لا يجتمعان. (كما جاء في مؤلّفه 'قانون الكنيسة *Kirchenrecht*' المجلد الأول ص 1 وص 700). ويشارك من ينتقدون الإدارة البهائية 'سوم' هذا في مفاهيمه الخاطئة هذه، سيّما مفهومه في أن الدين والمجتمعات الدينية يجب أن توجهها روحانيات استلهامية لا تخضع لأيّ نظام أو قانون، وكذلك يشاركونه الرأي بأن الروح والقانون ضدّان متخاصمان.

[23] شوقي أفندي، مجموعة رسائله المعنونة 'نظام بهاء الله العالميّ The World Order of Bahá'u'lláh'، الطبعة الإنجليزية، ص 9

[24] شوقي افندي، كتاب [القرن البديع]، ص120

والانحلال هو روح الإيمان جنباً إلى جنب مع الهيكل التشريعيّ لمجتمعهم. ولولا تلك الوحدة لتشتت النبض الروحيّ الدافق الذي أنعمت به رسالة بهاء الله على البشرية، وتلاشت القوى الروحية الكامنة في الكلمة الإلهية حتى من قبل أن تبدأ في العمل وتحدث أثرها. وهذا الدرع الواقي من الانقسام والجنوح إلى المذهبية هو دستور المجتمع البهائيّ الذي استمدّت نصوصه بكاملها من الشريعة البهائية.

فالمؤسسات الإدارية التي نص بهاء الله على تأسيسها في تشريعاته تضمن استمرار السلطة والهداية الربانية. فلا تنقطع الهداية بصعود المظهر الإلهيّ إلى الرفيق الأعلى. وفي النصوص المقدّسة التي تركها تكمن الهداية الربانية، بيد أن تلك النصوص قد نزلت بالكيفية التى تجعلها سارية لفترة طويلة من الزمان، ولذا فإنها لا تقدم سوى إطار (يشمل الكلّيات الشرعية ولا يتطرّق إلى الفرعيات) فيما يتعلق برسم المعايير الاجتماعية. وبتغير الأزمنة والظروف يكون من اللازم وضع قوانين تكميلية. وصياغة مثل هذه القوانين التكميلية لا يمكن أن تترك لآراء فرادى المؤمنين التي هي بطبيعتها آراء تقل كمالا عن الكلّيات المنزلة، بل وفضلاً عن هذا وذاك تكون أراء يصعب التحكم فيها وضمان نزاهتها، في حين أنه من الواجب أن تكون الهداية الربّانية التي تنظّم شئون المجتمع واضحة بغير تحيّز أو لبس. ولذا فإن الهداية الربّانية في البهائية تبقى مستمرّة لا انقطاع فيها بشكل نزيه لا تشوبه أية أغراض شخصية، على يد مؤسسة أسبغ عليها بهاء الله هالة العصمة، ألا وهي مؤسسة بيت العدل الأعظم، وهي مؤسسة تتولّى مقدّرات الدعوة في العالم كلّه. فيكون النظام الموجّه لشئون زمرة المؤمنين ببهاء الله ذا طبيعة إيمانيّة: نظام يحكم فيه الله نفسه على شعبه من خلال رسوله وشرائعه ومؤسساته.

وهذا النظم الذي جاء به بهاء الله ليس غاية في حد ذاته ولا بديلاً يلجأ المؤمنون إليه إذا ما ضعفت روح الإيمان فيهم، وإنما هو أداة لحماية أمر الله وترويجه، وهو أيضاً كما يصفه شوقي أفندي "نموذج المجتمع البشريّ في المستقبل"، و"الأداة العليا لتأسيس السلام الأعظم".[25]

---

[25] راجع لشوقي أفندي مجموعة رسائله المعنونة 'نظام بهاء الله العالميّ *The World Order of Bahá'u'lláh*' الطبعة الإنجليزية ص 19، ومجموعة رسائله المعنونة 'رسائل وليّ أمر الله إلى أمريكا *Messages to America*' ص 96 ومجموعة رسائله المتضمنة في كتاب 'الإدارة البهائية *Bahá'í Administration*' ص 80. وللمزيد عن هذه المسألة، راجع رسالة الدكتوراه التي قدمها المؤلف لجامعة هايدلبرج عام 1957، المعنونة 'أسس النظم الإداريّ في البهائية Die Grundlagen der Verwaltungsordnung der Bahá'í'، ومقالة الكاتب البهائيّ أ. ل. لنكولن A.

ولهذا النظم أيضاً دستور ديمقراطيّ، تؤخذ الديمقراطية من خلاله مأخذ الجد. إذ إن بهاء الله يشدّد على أهمية بلوغ البشرية مرحلة نضجها التاريخي، مؤكّدا بذلك على مسئولية الإنسان. فلا تمييز إذن في البهائية بين رجل دين وعامة الشعب. أي ليس هناك كهنوت في البهائية[26]، وليس فيها سُلطة متحكّمة متعالية تتدخل ما بين العباد وربّهم وتدّعي القدرة على منح البركة، وكذلك تخلو البهائية من أيّ طقس من الطقوس أو الأسرار الكهنوتية. كما أنها رفعت يد السلطة عن التدخّل في وجدان المؤمن الفرد وضميره. إذ إن بهاء الله قد نهى عن الاعتراف بالذنوب لدى أيّ من البشر نهياً عظيماً في الكتاب.[27] ولهذه الأسباب يكون من الخطأ القول بأن البهائية قد جاءت بنموذج هيكل كنسيّ - أي *Verkirchlichung* بالألمانية[28]. فالمجتمع البهائيّ بالطبيعة ليس ‘كنيسة’. وفضلاً عن ذلك فإن فرادى المؤمنين فيه ليس لهم سلطة تشريعية أو تنفيذية من أيّ نوع كان، وما يقبل فقط هو مبادئ الاسترشاد الجماعيّ، إذ أوكلت وظيفة إرشاد المجتمع وإدارة شئونه على مستوى المدن والقرى والدول، وكذلك على مستوى العالم،

L. Lincoln ‘السياسات الإيمانية The Politics of Faith’ التي نشرت في ‘المجلة البهائية: النظام العالميّ *World Order, A Bahá’í Magazine*’عدد الشتاء 1970\1971، طبع Wilmette، Illinois، بالولايات المتحدة.

[26] من بين العديد من آثار بهاء الله عن الكهنوت وعلماء الدين (مثلما جاء بكتاب الإيقان، وما ساقه شوقي أفندي في توقيعه ‘جاء اليوم الموعود *The Promised Day is Come*’) تطالعنا هذه العبارات "قد أُخِذَت العزة عن طائفتين هما الملوك والعلماء" [مترجما عن الفارسية]، (وردت في توقيع ‘جاء اليوم الموعود’ الطبعة الإنجليزية ص 72)، وكذلك قوله "يا معشر العلماء، لا تحسبنّ أن لكم سطوة بعد الآن، إذ أخذناها منكم وقدّرناها لمن آمن بالله الأحد المقتدر العليّ القدير"، مترجما عن الإنجليزية، (وردت في كتاب ‘إعلان بهاء الله *The Proclamation of Bahá’u’lláh*’ الطبعة الإنجليزية ص 80)

[27] بقوله: "يَجِبُ عَلَى العَاصِي أَنْ يَطْلُبَ الْعَفْوَ وَالْمَغْفِرَةَ حِينَمَا يَجِدُ نَفْسَهُ مُنْقَطِعَاً عَمَّا سِوَى اللهِ. وَلاَ يَجُوزُ الاعْتِرَافُ بِالْخَطَايَا وَالْمَعَاصِي عِنْدَ الْعِبَادِ لأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ وَلَنْ يَكُونَ سببا للغفران أَوْ الْعَفْوِ الإِلَهِيِّ بَلْ الاعْتِرَافُ لَدَى الْخَلْقِ سَبَبٌ لِلذِّلَّةِ وَالْهَوَانِ. وَلاَ يُحِبُّ الْحَقُّ جَلَّ جَلاَلُهُ ذِلَّةَ عِبَادِهِ." (كتاب [مجموعة من ألواح...] لوح البشارات، البشارة التاسعة، ص 41)

[28] أنظر كتاب ‘البهائية *Die Bahá’í*’ لجيرهارد روزنكرانتس Gerhard Rosenkranz، الطبعة الألمانية ص 56، وكتاب ‘عرفاء، ومتأملون، ومتحمسون *Seher, Grübler, Enthusiasten*’ لكورت هوتين Kurt Hutten، ص 319

وذلك للهيئات التي شَرَعها بهاء الله وأسماها ‘بيوت العدل’، وهي التي شرح واجباتها واختصاصاتها عبد البهاء وأوكل لمجموع المؤمنين مهمة انتخابها.[29] وفي هذه الفترة التي لازالت فيها بيوت العدل في المرحلة الجنينية من مراحل تطوّرها تسمّى بالمحافل الروحانية، على مستوى المدن والقرى (المحلّيات) وكذلك على مستوى الدولةّ. وعلى أعضائها أن يكونوا **"أمناء الرّحمن بين الامكان ووكلاء الله لمن على الارض كلّها".**[30] غير أن هذه المحافل لا تمثل نظاماً مجلسياً بالمعنى الفوضويّ الواسع لما يسمّى ‘ديمقراطية القاعدة الشعبية’، وهو نوع من ديمقراطية الحكم المباشر التي لا يكون فيها عضو المؤسسات المنتخبة سوى متحدثاً باسم الجماهير الذين يمكنهم استدعاءه للمثول أمامهم وقتما يشاؤون. فلا المؤسسات في البهائية ولا فرادى أعضائها مسئولون أمام ناخبيهم. كما أنه ليس لهم برنامج انتخابي ملزِم، ذلك لأن برنامجهم قد حددته مسبقاً تعاليم دينهم ومبادئه، كما لا يقعون تحت الإشراف الدائم لجمهور الناخبين، (وتدخّلهم في كلّ صغيرة وكبيرة، وإنما يكون اتصال المحافل كمؤسسات بالناخبين عبر قنوات محددة، مثل الضيافة التسع عشرية [وهي اجتماع المؤمنين في كل مدينة وقرية للاحتفال كل تسعة عشر يوماً بأول الشهر البهائيّ]، وكذلك المؤتمرات السنوية التي يقدّم فيها المحفل المنتهى مدّته تقاريره لمن جاؤوا لينتخبوا محفل العام الجديد، أو عندما يتلقّى المحفل طلباً من أحد المؤمنين بمقابلة محفله).

الانتخابات البهائية

تتحقق الديمقراطية في ظل الانتخابات البهائية بدرجة من الاتساق تعلو كثيراً عما عليه الحال في الانتخابات البرلمانية المعتادة، إذ إنه ليس من حق كل مؤمن بالغ أن يَنتخب فحسب بل من حقه الفعليّ - لا النظريّ - أن يتم انتخابه أيضاً. أما الإدلاء بالأصوات لانتخاب المؤسسات البهائية وكذلك ما يجرى فيها من مداولات فهو عمل من أعمال الممارسات الإيمانية، لأن من المحتّم أن تجري جميعها بروح من الدّعاء والتأمّل. فعلى الناخب أن

---

[29] على البهائيّ بطبيعة الحال أن يظهر الطاعة لهذه المؤسسات القانونية. والجديد هو أن هذه المؤسسات هي هيئات وليست أفرادا. فلا يكون لفرادى المؤمنين أية سلطة حتى ولو كانوا أعضاء الهيئات الإرشادية، ولا يمكنهم أن يطلبوا الولاء من باقي زمرة المؤمنين لهم كأفراد. وبما أن نظام بهاء الله هو مثال ونموذج للنظام العالميّ المرتقب، فمن المفترض أن أشكال الحكم الفردي في العالم ستتلاشى تدريجيا.

[30] بهاء الله، [الكتاب الأقدس]، فقرة 30

يتوجه بقلبه إلى الله، ويلتمس عونه وتوجيهه منقطعاً عمّا سواه.[31] ثم، وفي ذلك "الجو الانتخابي الذي يجب أن يسوده الهدوء والدعاء"[32]، "وبصرف النظر عن أية اعتبارات مادية"[33]، "ودون أدنى شائبة من شوائب التعصّب والعاطفية" فهو "مدعوّ ليدلي بصوته فقط لأولئك الذين قد ألهمه التأمل والدعاء لانتخابهم"[34]، من بين "أولئك الذين تندمج فيهم على أتم وجه" صفات ضرورية منها "ولاء لا شك فيه، إخلاص يتّصف بالتفاني، عقل راجح، مقدرة معترف بها، خبرة ناضجة"[35]. فكل أنواع الدعاية الانتخابية واستمالة الناخبين والقوائم المختارة والإيحاءات الانتقائية وتأييد ناخب بعينه، والترشيحات، وتشكيل الأحزاب، والبرامج الانتخابية الحزبية، والتصويت بتعليمات من حزب – وبالاختصار كل محاولة للتأثير على الناخب واستغلال العملية الانتخابية التى تعوّدت عليها الناس وتفسد الحياة السياسية – كلها محرّمة تحريماً قاطعاً. فهي ممارسات تناقض روح المناجاة والدّعاء، وجوّ الصفاء الروحيّ، والتواضع والتجرّد الذي يجب أن يتم فيه كل من انتخابات المؤسسات البهائية ومداولاتها، وهي أيضاً ممارسات قد ينتج عن السّماح بها تقليد ما يجري في الأوساط السياسية من "أساليب خبيثة مثل المؤامرات والسياسات الحزبية والبروباجاندا"،[36] مقوضة بذلك كل شكل من أشكال الروحانية. وفضلاً عن هذا وذاك، فكل أساليب التلاعب بالانتخابات تعدّ من المضارّ ولذا فهي غير مسموح بها في الشرع البهائيّ نظراً لأن حق المؤمن في أن يفعل فقط ما يلهمه به دعاؤه

---

[31] من رسالة لشوقي أفندي بتاريخ 27 فبراير 1923 إلى البهائيين في إيران، مترجما عن الإنجليزية

[32] شوقي أفندي، في مجموعة رسائله المدرجة في كتاب 'الإدارة البهائية *Bahá'í Administration*'، الطبعة الإنجليزية، ص 65 (وهذا المقتطف، وكذلك المقتطفات الثلاث التالية يجدها قارئ العربيّة في كتيب [المحفل الروحاني المحلّي] إعداد الدكتور سهيل بشروئي، طبع مؤسسة دار الريحاني، بيروت 1971، ص 15)

[33] شوقي أفندي، في مجموعة رسائله المدرجة في كتاب 'الإدارة البهائية *Bahá'í Administration*' الطبعة الإنجليزية ص 88

[34] المرجع السابق، ص 136

[35] المرجع السابق، ص 88

[36] من رسالة لشوقي أفندي بتاريخ 30 كانون الثاني(يناير) 1923 إلى البهائيين في إيران، مترجما عن الإنجليزية

يصيبه الخلل، ويصاب مبدأ الحكم الروحيّ الذي يستحكم عليه صرح النظم البهائيّ بالشلل، ذلك لأن "التأييد الإلهيّ ينقطع".[37]

كما يتم أيضاً تحاشي خطر متفش في السياسات المعاصرة، ألا وهو أن أولئك الذين يهمهم تحقيق مآربهم الشخصية بدلاً من تحقيق الصالح العام يزجّون بأنفسهم في مقدمة المشهد السياسيّ. ولا شيء يفسد الأخلاقيات السياسية بل ويضر بالصالح العام أكثر من الطموح السياسيّ والتلهّف على السلطة من جانب الذين ينتخبون لعضوية المجالس والمؤسسات الديمقراطية. فكل من يبغي الفوز بمنصب سياسيّ أو يختار السياسة مهنة له مدفوع بأنانيته الفطرية أن يضع نفسه موضع الأسبقية. ولا يمكنه أن يفوّت فرصة وضع اصبعه في أكبر عدد ممكن من الطبخات، وأن يرْبت على كتف كل لاعب كرة شهير، وأن يَعِدَ كل فئة انتخابية بإيلائها اهتمامه الشخصيّ. وعليه دائماً أبداً أن يمتدح نفسه، وألا يتوقّف عن استمالة الناخبين، ومساندة جوقة تابعيه سواء كانوا ظالمين أو مظلومين. وعليه – وهو بصدد اتخاذ أيّ قرار حتى إذا كان قراراً يعتمد عليه مستقبل البشرية كلها – أن يضع شعبيته نصب عينيه، وألا يفتأ التفكير في الانتخابات القادمة. كما أن النقلة ليست بعيدة بين التحوّل من مدح الذات إلى الاستهزاء بالمنافسين، بل وبتحقيرهم والتشهير بهم. ومن شأن هذا أن يفسد الأخلاق على المدى الطويل ويشجع الأساليب الغوغائية – وهو خطر قد فطن إليه الفيلسوف الإغريقيّ أرسطو وتكلم عنه.[38] وبدلاً من أن يتوفر لدى الحكام والساسة وقتٌ للتأمّل والتدبّر هم في أمس الحاجة إليه، يفرز هذا النظام نشاطاً محموماً مفعماً بالقلق. فينطلق المرشحون أو الوكلاء من اجتماع لآخر راضخين لإغراء "سلق كل شيء على عجل ودون إتقان بالشكل الذي يسهل على العامة فهمه، من أجل لا شيء سوى استثارة التصفيق المناسب في الوقت المناسب" وكذلك "الإتيان بجواب فوريّ لكل سؤال كما يفعل

---

[37] من رسالة لشوقي أفندي بتاريخ 1932/1/16 موجهة إلى البهائيين في إيران، مترجما عن الإنجليزية

[38] قوله "ليس من اللائق أن يطلب ممن تنطبق عليه الشروط أن يطلب من الآخرين صراحة أن ينتخبوه. ومن يستحق منصبا يجب أن يشغله سواء أراد ذلك أم لا...ولا يصح لأحد أن يسعى إلى أن تنتخبه الناس كمستشار مالم يكن لديه مثل هذا التطلّع. بيد أن كلاً من التطلّع والجشع هما بالتحديد ما يدفعان الناس لارتكاب كل الجرائم المتعمّدة تقريبا". عن: 'السياسة' الكتاب الثاني، الجزء التاسع، الفقرتين 27 و28.

الحواة الذين يخرجون كل شيء من أكمامهم ببرود فائق"،[39] فتنحدر السياسة بذلك لتصبح مشهداً كاريكاتيرياً. فتتحول الانتخابات البرلمانية إلى مسلسلات تليفزيونية *soap opera* مشوّقة، تتمحور حول أمال المرشحين وتطلعاتهم بدلاً من القضايا السياسية. وتقلب أساليب الدعاية الإيحائية، وتقنيات الحملات الانتخابية التي تشبه التنويم المغناطيسيّ في أثرها على الناخبين، ومخاطبة الانفعالات (بدلاً من العقل) والأهمّية التي تولى للشخصيات الأبويّة الجذابة هي وعشيرتها – تقلب كلها الانتخابات إلى "حلبة مصارعة رومانية حديثة يتصارع فيها الساسة بدلاً من المصارعين"[40]، ويكمن أحد الأسباب الجوهرية في تدهور الديمقراطية البرلمانية وانحلالها[41]، في هذه المنظومة الانتخابية بعينها، وهي التي

---

[39] هانز هايجرت Hans Heigert ، في مقالة له بعنوان ‘كيف يهزأ الساسة من أنفسهم Wie Politiker sich selbst entmündigen’ نشرت في جريدة ‘جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung*’ عدد 11 ديسمبر 1978

[40] إريك فروم، في كتابه ‘تملك أو تكون *To Have or to Be?*’، ص 183 وما بعدها. وغالبا ما تؤخذ التشبيهات والاستعارات السياسية من مجال الرياضة. فعندما أعلن السناتور الديمقراطيّ إدوارد كينيدي أنه يعتزم ترشيح نفسه للرئاسة، ظهر مانشيت رئيسيّ فى إحدى الصحف الألمانية يقول ‘إدوارد كينيدي يدخل الحلبة’، صحيفة ‘جنوب ألمانيا *Süddeutsche Zeitung*’ عدد 8 نوفمبر 1979.

(وليس هناك ما يدلّ على خطر الممارسات الانتخابية التي يتبعها ساسة أمريكا هذه الأيام من ‘سرك’ انتخابات الرئاسة الأمريكية الذي يتكرر كل أربعة أعوام ويجعل كل مراقب منصف يتساءل: أية ديمقراطية هذه؟ [المترجم]).

[41] يُظهر النقد الذي وجهه أليكسيس التوشكيفيللي Alexis de Tocqueville لهذه المسألة في مؤلفه ‘عن الديمقراطية في أمريكا *De la Démocratie en Amerique*’ (طبع باريس عام 1835)، والذي كتبه على خلفية الظروف التي استقصاها في الولايات المتحدة، يظهر أنها ليست من أعراض التداعي التي ظهرت على السطح في أيامنا فحسب، ولكنها من أحد الملامح المتأصّلة في النظام البرلماني. إذ كتب يقول ‘قبل أن يحين أوانها بوقت طويل تصبح الانتخابات هي موضوع الساعة في كل المناقشات. ويتضاعف الحماس الحزبيّ وتثور كافة العواطف الجياشة المصطنعة التي يمكن أن يبتكرها الخيال في وطن سعيد مسالم. غير أن رئيس الجمهورية يكون مشغولا بالإضافة إلى ذلك بأمور الدفاع عن النفس. فلا يعود يحكم لصالح البلاد وإنما من أجل إعادة انتخابه فترة ثانية، فيطرى على آراء الأغلبية ويثني عليها، بدلا من أن يكبح جماحها كما يستدعي منصبه، بل ويمتدح أسوأ نزواتها من آن لآخر. وكلما اقتربت الانتخابات تزداد حمّى التآمر ويزداد إلهاب مشاعر الجماهير، وينقسم المواطنون إلى معسكرات متناحرة، يتسمى كل معسكر منها باسم مرشحه، وتلتهب الأمة بأسرها بتوتّر محموم، ويصبح الانتخاب هو موضوع الصحافة اليومي، ومحور كل الأحاديث في المنتديات الخاصة، ومنتهى كل فكر وعمل، واهتمام

تناقض[42] من حيث المبدأ نموذج الحكم العقلانيّ. ولهذا فإن النظام البرلمانيّ للانتخابات يراه البهائيون نظاما أبعد كثيراً عن أن يكون نظاماً مثالياً.

المشورة في البهائية

يمتدح بهاء الله المشورة بوصفها أفضل أسلوب لاتخاذ القرارات، إذ يقول: "إِنَّ سَمَاءَ الْحِكْمَةِ الإِلَهِيَّةِ مُسْتَضِيئَةٌ وَمُسْتَنِيرَةٌ بِنَيِّرَيْنِ: الْمَشُورَةِ وَالشَّفَقَةِ. تَمَسَّكُوا بِالْمَشُورَةِ فِي جَمِيعِ الأُمُورِ فَهِيَ سِرَاجُ الْهِدَايَةِ إِنَّهَا تَهْدِي السَّبِيلَ وَتَهِبُ الْمَعْرِفَةَ. "[43]

بيد أن المشورة ليست أمراً جديداً. فعندما يتعيّن على مجلس من المجالس اتخاذ قرار ما، على أعضائه التشاور قبل القرار. كذلك تشاور أعضاء هيئة المحكمة قبل إصدار حكم من الأحكام، كما تتشاور البرلمانات ولجانها الفرعية بشأن مشاريع القوانين المعروضة عليها، وتحدث مشاورات في اجتماعات الجمعيات العمومية للشركات والهيئات قبل اتخاذ قراراتها. فأيّ شيء يا ترى يميز المشورة في البهائية عما سواها؟

تختلف المشورة في البهائية من حيث الموقف والتوجّه، والروح والأسلوب الذي تتم به. فهي - كما هو الحال في الانتخابات البهائية – من قبيل العبادة. إذ يسعى المتشاورون سويّا للتوصل إلى الحقيقة والتوصل إلى حلول للمشاكل بأفضل طريقة ممكنة بالتوجّه إلى الله.

"إن أول فريضة لأصحاب الشورى" كما يقول عبد البهاء، "هي اتصافهم بخلوص النية وبهاء الروح والانقطاع عما سوى الله والانجذاب بنفحات الله والخضوع والخشوع بين أيدي أحباء الله والصبر والجلد في تحمّل البلايا وعبودية العتبة الإلهية السامية، فإذا نالوا هذه الصفات أحاطهم نصر الملكوت الإلهي الغيبيّ".[44] وعلى أعضاء المؤسسات البهائية أن

الحاضر الوحيد الأوحد. ' كتاب 'الديمقراطية في أمريكا *Democracy in America*' المجلد الأول ص 135-136

[42] هلموت شيلسكي في كتاب 'آخرون يقومون بالعمل'، مرجع سبقت الإشارة إليه، ص 203

[43] لوح مقصود، في [مجموعة من ألواح...] ص 149، راجع أيضا الإشراق الثالث ص 24-25 من نفس المرجع

[44] كتاب [منتخبات من مكاتيب عبد البهاء *Selections from the Writings of Abdu'l-Bahá*] المقتطف 43، والترجمة مأخوذة عن كتيّب [المحفل الروحانيّ المحلّي] مرجع سابق، ص 19-20

يتشاوروا بكيفية لا تكون معها "المناقشات والمشاورات سبباً للاختلاف. فعندما تُعقد الجلسة يحق لكل واحد من الأعضاء الإدلاء برأيه بمطلق الحرية واقامة الحجة والبرهان وعليه ألا يتكدر مهما كان السبب الذي عارضه عضو آخر، لأن صواب الرأي لا ينبلج إلا عند بحث الأمور".[45] كما يقول "إن أول شرط لأعضاء ذلك الاجتماع هو وجود المحبة والألفة المطلقة بينهم... أما الشرط الثاني فهو أنه يجب عليهم أن يتوجهوا إلى الملكوت الإلهيّ حين حضورهم إلى مكان الاجتماع ويسألوا العون من الأفق الأبهى، وأن يباشروا أعمالهم بمنتهى الإخلاص والأدب والوقار والطمأنينة ويخاطبوا المحفل معبّرين عن آرائهم بمحض الأدب والهدوء، وعليهم أن يتحرّوا الحقيقة في كل مسألة دون أن يتشبّثوا بآرائهم، ذلك لأن التشبث بالرأي يؤدّي إلى النزاع والخصام فتبقى الحقيقة مستورة"[46]، كما يضيف "لا يجوز أبدا أن يحقّر أحدٌ رأي الآخر، بل ينبغي له أن يوضّح حقيقة رأيه بمنتهى اللطف."[47] ومن قبل قال الرسول محمد "إن اختلاف أمّتي رحمة"[48]، ويعطي عبد البهاء السبب في ذلك بقوله "تسطع بارقة الحقيقة عند احتكاك الآراء".[49]

ومن المؤكد أن مثل هذه المشورة، كما يقول بيت العدل الأعظم "ليست من المهارات التى يتعلمها الإنسان بسهولة، ذلك لأنها تقتضي أموراً عديدة من بينها الابتعاد عن كل أشكال الأنانية وتحاشي العواطف الجامحة، والتحلّي بالصراحة وتحرّر الفكر، فضلاً عن الآدب وسعة الأفق وقبول

---

45 المرجع السابق، المقتطف 44، نقلا عن كتيّب [المحفل الروحاني المحلّي] مرجع سابق، ص 18- 20

46 المرجع السابق، المقتطف 45، نقلا عن كتيّب [المحفل الروحاني المحلّي] مرجع سابق، ص 17- 18

47 المرجع السابق، المقتطف 44، نقلا عن كتيّب [المحفل الروحاني المحلّي] مرجع سابق، ص 18-20

48 حديث نبويّ، ساقه جولدت سيهر في مؤلّفه الألماني ‘محاضرات في الإسلام *Vorlesungen über den Islám*’ ص 48. (وهو حديث انقلب إلى قول مأثور يستشهد به فقهاء الإسلام دون إسناد، بصيغ مختلفة منها "اختلاف العلماء رحمة"، و"اختلاف أصحابي رحمة". [المترجم])

49 كتاب [منتخبات من مكاتيب عبد البهاء *Selections from the Writings of Abdu'l-Bahá*]، المقتطف 44، فارسي الأصل، والترجمة هنا نقلا عن كتيّب [المحفل الروحاني المحلّي] مرجع سابق، ص 18

قرار الأغلبية برحابة صدر كاملة"[50]. فالتشاور في البهائية إذن ليس مناظرة، أو مساجلة من آراء فردية لا طائل منها سوى تحسين صورة المتكلم الشخصية، وإنما هي تَواصُل؛ فهي تَحَرٍّ للحقيقة يتم بواسطة الحوار وبروح من التآزر والتضافر. ومن يتشاورون بهذه الكيفية يطبّقون في مجال الشئون الاجتماعية نفس الأسلوب الذي يتبعه العلماء في أبحاثهم في مجال الطبيعة. فمن يصاب بالتحيّز والاستهزاء بآراء الغير في مجال البحث العلميّ يتحتم عليه أن يتحمّل تبعات ذلك. أما في مضمار السياسة فلا يزال الناس يعتقدون أنهم من الممكن أن ينجوا بأنفسهم بمثل هذا التصرف.

وإذا ما قارنا المشورة في البهائية بتلك التي اعتادت عليها المجالس والهيئات السياسية، نرى على الفور تلك الهوّة السحيقة التي تفصل ما بين المشورتين. ففي الحالات الاستثنائية النادرة يمكننا أن نجد [في المجالس والهيئات السياسية] مشورة حقيقية يجتهد بها الناس لكي يكتشفوا السبيل الصحيح والهدف الحقيقيّ دونما أيّ تعصّب أو تمسّك بالرأي. وفيما عدا ذلك من الأحوال نجد المتشاورين قد اتخذوا أراء مسبقة وتمسّكوا بها دون أيّ استعداد لتعديلها إو التنازل عنها، وأن من كوّن تلك الآراء وتشبّث بها يسعى لفرضها بكسب أصوات الأغلبية. فلا يكون المقصود بالمداولات البرلمانية إلقاء الضوء على المسائل قيد البحث، وإنما لتمكين الساسة من استعراض شخصياتهم، واصطياد أخطاء المنافسين، والدعاية لأنفسهم، والسعي للمواجهات. فتبقى تلك المداولات والمساجلات في معظمها طقوساً جوفاء. وتتمّ عملية الإدلاء بالأصوات على خلفيّة الانتماءات الحزبية، بل ويمكن توقع نتيجتها مسبقاً، فلا تكون إذن سوى مهزلة ونسخة مشوّهة من المشورة الحقيقية.

كما أن التشريع البهائيّ قد خلّص المجتمع البهائيّ من كل صنوف المعارضة المانعة المعيقة بما في ذلك تشكيل الأحزاب السياسية ومجموعات الضغط، ذلك لأن مثل هذه الأوساط تسعى لانتزاع النتائج بأية وسيلة. وبنفس الطريقة ولنفس سبب استبعاد كل تأثير على الانتخاب والتلاعب بالأصوات، فإن أيّ شكل من أشكال التلاعب بالمشورة والاقتراع محرّمة بشكل قاطع. فالقرار الذي يتم التوصل إليه بأغلبية الآراء هو قرار ملزم

---

[50] بيت العدل الأعظم، في مجموعة رسائله المعنونة 'ينبوع الهداية *Wellspring of Guidance*'، الطبعة الإنجليزية، ص 96

للجميع. وليس هناك إعلان بالأصوات المعارضة[51]، وهو تقليد سياسيّ من شأنه أن يعرض للخطر مقدرة المؤسسات على العمل ويقوّض سلطتها. فليس هناك في الإدارة البهائية ما يسمّى برأي أو موقف الأقلّية، كما لا يسمح بالمعارضات والاحتجاجات الصاخبة على أيّ قرار يتخذ، أو حتى محاولة إعاقة اتخاذه، "إذ إن من شأن الانتقاد،" كما يقول عبد البهاء، "أن يحول دون تنفيذ أيّ قرار يتّخذ."[52] والقرار المتخذ في ضوء المشورة المتبادلة يمكن إعادة النظر فيه أو تغييره. ولكن يتحتم قبل الوصول إلى قرار إعادة النظر أن يحترم القرار وينفّذ بكل إخلاص ورضاء. وفي الحالات التي يحدث فيها تضارب فيما بين مسألة كون القرار سليماً من جميع النواحي من جهة، ووحدة الهيئة التي تشاورت بشأن القرار واتخذته من الجهة الأخرى فإن المقولة اللاتينية اللاهوتية: ‘من الأفضل أن تنتشر الفضيحة على أن نتخلّى عن تلك الحقيقة’[53] لا يفسح لها هنا أي مجال على الإطلاق. إذ إن عبد البهاء بكل وضوح وجلاء يعطي لوحدة صف المتشاورين أسبقية على صحة القرار، إذ يقول "إن اتّحاد الجمع على موضوع خاطئ أفضل من خلافهم ونزاعهم على موضوع صحيح وصائب. لان هذا الخلاف والنزاع... يكون مصدر اخطاء كثيرة. ولكن إن اتحدوا... فان الحقيقة ستظهر يوماً ما ويتبدل الخطأ إلى صواب."[54]

---

[51] أخذ الألمان الإعلان عن الأصوات المعارضة تقليدا عن التشريع الأمريكي، وصار أجراء متفقاً عليه في الإعلان عن أحكام المحكمة الدستورية الفيدرالية بألمانيا (طبقا لنص المادة 30، فقرة 2، من قانون المحكمة الدستورية الفيديرالية).

[52] كتاب ‘منتخبات من مكاتيب عبد البهاء *Selections from the Writings of Abdu'l-Bahá*’، المقتطف 45، مترجما عن الإنجليزية

[53] ونصها باللاتينية *Melius est, ut scandalum orator, quam ut veritas relinquatur*، وهي مأخوذة من تصريح للبابا جريجوري الأكبر (الذي اعتلى كرسيّ البابوية من عام 590 إلى عام 604 الميلادي) ولها مثيل في أقوال القديس أوغسطين

[54] ورد في مجموعة ‘مبادئ الإدارة البهائية *Principles of Bahá'í Administration*’ ص 48-49، وأخذت الترجمة عن كتاب [الكنوز الإلهية]، فصل المشورة، ص 422

ويوصي المترجم قارئ العربية أن يطالع كتابا كاملا ترجم حديثا إلى لغة الضاد عن فن المشورة في الدين البهائي، وهو للمؤلف John E Kolstoe وعنوانه [المشورة – سراج الهداية للعالم *Consultation - a Universal Lamp of Guidance*] عن منشورات دار النشر البهائية بالبرازيل عام 2003، ويمكن تحميل هذا الكتاب من الموقع التالي:

وهذا التوجّه والأسلوب في التشاور، الذي لا يجب أن يمارس داخل مؤسسات الدين البهائيّ فحسب، وإنما أيضاً بين فرادى المؤمنين في حياتهم اليومية، يمثّل أداة ممتازة للتعامل مع أوجه الخلاف والنزاع. وهو أفضل وسيلة ممكنة للتوصّل إلى قرار صحيح. ويتضح هنا أيضاً مبدأ إيمانيّ آخر، وهو أن نتيجة التشاور تكون موفّقة عندما يكون كل من يشارك فيها واسع الأفق غير متمسك بأن تكون النتيجة مطابقة لرأي قد تشبث به مسبقاً.

الوسائط المادية اللازمة لعمل المؤسسات البهائية

من الواضح أن أية مجموعة من البشر لها مثل هذه الأهداف سامية المرامي لا يمكنها أن تستمر أو تحقق هذه الأهداف بغير وسائل وموارد مادية. فبغير بعض الإيرادات المالية لا يمكن صيانة المجتمع، أو القيام بالأنشطة التبليغيّة، أو بناء المؤسسات التربوية وتشييد دور العبادة، أو إدارة شؤون ذلك المجتمع على مستوى المحلّيات، والدولة، وكذلك على الصعيد العالميّ. فكيف يتم تدبير هذه الموارد المالية؟ فمن ذا الّذي يقدّم التمويل من أجل الجهود التي تجري في كل أرجاء المعمورة لنشر رسالة بهاء الله، أو يوفّر المطبوعات البهائية بأكثر من ستمائة لغة، أو يبني دور العبادة[55]، أو الأموال التي تلزم لتسيير عمل المؤسسات الإدارية في المركز البهائي العالمي، ولصيانة المقامات المقدسة، أو لدفع رواتب مندوبي الجامعة البهائية العالمية لدى الأمم المتحدة؟

يقوم التشريع البهائيّ المتعلق بالوسائل المالية على مبدأين رئيسيين- أولهما هو أن على المؤسسات الإدارية التي تدير شؤون المجمع البهائيّ على المستويين المحلّيّ والقوميّ وكذلك المركز البهائيّ العالميّ - عليها أن تتلقّى العون المادّيّ فقط من التبرّعات الطوعية للمؤمنين المسجّلين دون

---

http://bahainafeza. files. wordpress. com/2010/06/mashura-book1. pdf

[55] مشارق الأذكار هي دور العبادة المزمع أن تقام في كل قرية ومدينة يقيم فيها بهائيون.

(وباكتمال بناء مشرق أذكار سانتياجو بجمهورية شيلي بأمريكا الجنوبية يكون قد اكتمل بناء مشارق الأذكار على المستوى القاري، حيث أقيمت هذه المعابد في شيكاغو بالولايات المتحدة قارة أمريكا الشمالية، وهوفهايم-لانجنهاين بالقرب من فرانكفورت بألمانيا، القارة الأوروبية، وسيدني عن قارة أستراليا، وكمبالا بأوغندة عن القارة الإفريقية، ونيودلهي بالهند عن القارة الأسيوية، وبنما سيتي بجمهورية بنما، عن أمريكا الوسطى، وآبيا عاصمة جزيرة ساموا، عن أقيانوسات المحيط الهادئ. واعتبارا من عام 2014، بدأ الإعداد لتشييد أولى هذه المعابد على مستوى الدولة والمدينة والقرية في خمسة مواقع جديدة في العالم. [المترجم])

سواهم. فالأساس الماليّ في هذه الحالة هو روح التضحية عند المؤمن الفرد، لأن ذلك، كما يقول شوقي أفندي، "الأسلوب الوحيد الذي يمكن به أن يتقدّم الأمر وتعمّ رسالته أرجاء المعمورة".[56] والتبرّع بكل سخاء وكرم "هو الواجب المقدّس لكل خادم واع ومخلص لدين بهاء الله يرغب في أن يرى دين الله يزدهر ويتقدّم".[57] غير أنه واجب لا ينظمه التشريع لأنه مسئولية أخلاقيّة وليس التزاماً قانونياً. والمؤمن الفرد حرّ تماماً في أن يحدد المبلغ الذي يتبرّع به والوتيرة التي يرغب في أن يقدم بها تبرّعه. بل وله الحق في أن يحدد الغرض الذي يصرف فيه تبرّعه. بيد أن التبرع للخيريات البهائية ليس مسئولية أخلاقيّة فحسب، وإنما هو أيضاً فضل وامتياز، ونتيجة طبيعية للممارسة النشطة من جانب المؤمن لحقوقه.[58]

وما يضمن مبدأ التبرّع الطوعيّ هو تحريم كل صنوف الضغوط النفسية سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة، إذ يقول شوقي أفندي "يجب أن يكون من الواضح اللآئح لكل نفس أن أي نوع من الضغط مهما كان ضئيلاً أو غير مباشر، يضرب معولاً في جذع الدعامة القائم عليها الصناديق البهائية منذ تأسيسها"[59]، ولا يسمح إلا بالمناشدات ذات الصبغة العمومية "التي تصاغ بكل عناية وتتسم نبرتها بالحفز الروحيّ المترفّع". [60] فأيّ مناشدة مباشرة بالتبرّع وأيّ شكل من أشكال التحصيل مما يفسر على أنه ضغط نفسيّ للتبرّع هي أمور محظورة تماماً.[61] وكذلك فإن هناك ضمانة دقيقة بعدم الكشف عن اسم المتبرع أو المبلغ المتبرّع به. فالأسلوب المتّبع في الكنائس لجمع التبرعات بالمرور بالصناديق أو السلال أمام الجالسين لا

---

[56] شوقي أفندي، في مجموعة 'مقتطفات من رسائل وليّ الأمر عن الماليات البهائية والتبرّعات *Extracts from the Guardian's Letters on Bahá'í Funds and Contributions*'، الطبعة الإنجليزية، ص 8، مترجما.

[57] شوقي أفندي، رسائله في مجموعة 'الإدارة البهائية *Bahá'í Administration*'، الطبعة الإنجليزية، ص 41-42

[58] ويترتب على هذا المبدأ أن البهائيّ الذي يُحرم من حقوقه الإدارية لا يسمح له بالتبرع للماليات البهائية

[59] شوقي أفندي، رسائله في مجموعة 'الإدارة البهائية *Bahá'í Administration*'، الطبعة الإنجليزية، ص 101

[60] المرجع السابق

[61] شوقي أفندي، في مجموعة 'مقتطفات من رسائل وليّ الأمر عن الماليات البهائية والتبرّعات *Extracts from the Guardian's Letters on Bahá'í Funds and Contributions*'، الطبعة الإنجليزية، ص 9

وجود له في البهائية. وكذلك تؤدي المؤسسات البهائية خدماتها مثل عقد الزيجات وإقامة مراسم الدفن، بل وطبع وتوزيع النشرات الإخبارية تقدم جميعها بالمجان. وهناك مثال آخر عمليّ يشاهده غير البهائيين ممن يزورون الأماكن البهائية المقدسة في حيفا بحدائقها الساحرة المفتوحة للجمهور، إذ لا يطلب منهم دفع رسم دخول أو تقديم أية تبرّعات.

أما القاعدة التشريعية الثانية غير القابلة للإلغاء فيما يتعلّق بالماليات البهائية، فهي أنه لا يُقبل من "الذين لم يسجّلوا أنفسهم كبهائيين"[62] أية مساعدة مالية بأيّ شكل من الأشكال.[63] والسبب الإجرائيّ في ذلك واضح لا يخفى. فرفض الأموال أو أية تبرعات مالية من غير المنتسبين للأمر المبارك هو أكبر حائل يقي الدّين من أضرار اعتماده ماليّاً على تبرعات غير المؤمنين به، بل ولاحتمال إفساده من قبل من يريدون دعمه بالأموال. ويشدد شوقي أفندي على أن المؤسسات البهائية "لا يمكنها أن تعمل بصورة أفضل، أو أن تؤثّر في العالم بنفوذ أشدّ إلاّ إذا تأسست وتمت صيانتها بدعم من الذين هم على وعي تام بالمطالب الجوهرية لدين بهاء الله والمذعنين لأمره دون أيّ تحفّظ".[64] فلا يكون بمقدور أيّ شخص في مستقبل الأيام أن يدّعي بأن "مثل هذا الصرح الفخيم المشيد قد شيده شيء سوى النضال المتفاني الفريد الجماعيّ لتلك الزمرة القليلة ذات الإرادة الصلبة من أنصار دين بهاء الله".[65]

ترويج الدعوة ونشرها

من الواجبات المفروضة على كل بهائيّ أن يُطلع الناس على تعاليم بهاء الله. وكل مؤمن مدعوّ اليوم – في هذا الوقت الذي تقف فيه البشرية على شفا هوّة تدمير نفسها بنفسها – لنشر واسع للدرياق الربّانيّ الشافي للعلل والأسقام العديدة لبشرية معذّبة، وما ذلك الدرياق سوى الرسالة التي أتى بها بهاء الله. فلن يستيقظ البشر من سباتهم ويترقوا بولادة روحية جديدة إلا إذا وصلتهم الكلمة الإلهيّة الخلاّقة. وما يلهم البهائيّ للقيام بهذا العمل

---

[62] شوقي أفندي، رسائله في مجموعة 'الإدارة البهائية *Bahá'í Administration*'، الطبعة الإنجليزية، ص 182

[63] حتى ولو كان المتبرع قد حدد أنّ تبرّعه هذا هو لصالح للدين البهائي

[64] شوقي أفندي، رسائله في مجموعة 'الإدارة البهائية *Bahá'í Administration*'، الطبعة الإنجليزية، ص 182

[65] المرجع السابق، ص 183

الشاق في كرم الله هو حبه للبشر وعطفه وحنوّه على جاره. وهو نفس الحب والحنوّ الذي جعل أنبياء الله ورسله يأخذون مهمتهم الشاقة على عاتقهم، كما يقصّ علينا الإنجيل: "وَلَمَّا رَأَى الْجُمُوعَ تَحَنَّنَ عَلَيْهِمْ، إِذْ كَانُوا مُنْزَعِجِينَ وَمُنْطَرِحِينَ كَغَنَمٍ لاَ رَاعِيَ لَهَا. حِينَئِذٍ قَالَ لِتَلاَمِيذِهِ: «الْحَصَادُ كَثِيرٌ وَلكِنَّ الْفَعَلَةَ قَلِيلُونَ. فَاطْلُبُوا مِنْ رَبِّ الْحَصَادِ أَنْ يُرْسِلَ فَعَلَةً إِلَى حَصَادِهِ». [66]
أوليس العالم اليوم معذّباً ومشتتاً كأغنام لا راعي لها؟ وها هو الراعي قد أتى – ألا وهو بهاء الله، وعلى حوارييه أن يجمعوا الحصاد، في هذا الزمان الذي وصفه شوقي أفندي قائلاً: "إن الحقلَ جدّ شاسعٌ، والآونةَ حرجةٌ، والأمرَ الإلهيّ عظيمٌ، والعاملين قليلون، والوقتَ قصيرٌ، والثواب عظيم، فلا يسع أيّ مؤمن بدين بهاء الله يستحق أن يحمل اسمه أن يتحمّل لحظة تردد واحدة."[67]

ولا يوجد في البهائية فئة خاصة لنشر تعاليمها. فمن المفروض على كلّ مؤمن بها أن يبلّغ الكلمة الإلهية، كل على قدر طاقته وفرصه، كما أمر بهاء الله إذ يقول: **"أن يا أحباء الله لا تستقروا على فراش الراحة واذا عرفتم بارئكم وسمعتم ما ورد عليه، قوموا على النصر ثم انطقوا ولا تصمتوا أقل من آن"**[68]، كما يقول: **" قل يا ملأ البهاء بلّغوا أمر الله لأن الله كتب لكل نفس تبليغ أمره وجعله أفضل الاعمال".** [69] كما أكد حضرة عبد البهاء بدوره على الأهمية الفائقة للخدمات التي يقوم بها المبلّغون فيقول: "ان التبليغ هو أعظم موهبة إلهية، وهو سبب للتأييد، وهو أول تكليف لنا، فكيف يمكن أن نحرم أنفسنا من هذه الموهبة؟ بل أننا نفدي نفوسنا وأموالنا وراحتنا ورخاءنا من أجل الجمال الأبهى (بهاء الله) ونبلّغ أمر الله، ... ". [70]

وأعظم البركات يختصها بهاء الله لأولئك الذين "هاجروا من أوطانهم لتبليغ أمره"، ويقول إن عملهم هذا **"لا يقابله عمل من الأعمال الا**

---

[66] إنجيل متى 9: 36 إلى 38

[67] توقيع 'مجيء العدل الإلهيّ *The Advent of Divine Justice*' الطبعة الإنجليزية ص 39

[68] كتاب [منتخباتي...] المقتطف رقم 154

[69] كتاب [منتخباتي...] المقتطف رقم 128

[70] من كتاب "كتاب عهدي والواح وصايا حضرة عبد البهاء"، الطبعة الاولى 2014 ص 52

ما شاء ربك المقتدر القدير، إنه لسيّد الأعمال وطرازها". [71] ويوصي كل من يخرج من وطنه من أجل أمر الله أن **"يجعل زاده التوكل على الله ولباسه التقوى".** [72]

وفضلاً عن فرض واجب التبليغ على كل مؤمن بقوله: **"قد كتب الله لكل نفس تبليغ أمره"**[73]، فإن بهاء الله يوضح شروط التبليغ الناجح قائلاً: **"والذي أراد ما أمِر به ينبغي له أن يتّصف بالصفات الحسنة أولا ثم يبلّغ الناس لتنجذب بقوله قلوب المقبلين. ومن دون ذلك لا يؤثر ذكره في أفئدة العباد".** [74] وفي مقام آخر يقول إن التبليغ عمل **"لن يقبل إلا بعد عرفان الله المهيمن العزيز القدير"**[75]، ثم يضيف **"ومنكم من أراد أن يبّلغ أمر مولاه فلينبغي له بأن يبّلغ أولاً نفسه ثم يبّلغ الناس ليجذب قوله قلوب السامعين، ومن دون ذلك لن يؤثر قوله في أفئدة الطالبين. إياكم يا قوم لا تكوننّ من الذين يأمرون الناس بالبّر وينسون أنفسهم أولئك يكذبّهم كلّ ما يخرج من أفواههم ثم حقائق الأشياء ثم ملائكة المقربين. "**[76]

ويقول أيضاً إن على المؤمن أن يبلّغ الأمر لوجه الله دون سواه منطلقاً "كالأرياح في أمر فالق الأصباح" وينصحه بقوله: "استقم على أمر الله على شأن لا يمنعك أيّ شيء"، و "ابذل الجهد علّك تهدي نفساً الى شريعة الرحمن".[77]

---

[71] كتاب [منتخباتي...] المقتطف رقم 157، وأخذت الترجمة عن كتاب [الكنوز الإلهية]، فصل تبليغ أمر الله، ص 117

[72] المرجع السابق، ونفس مصدر الترجمة

[73] المرجع السابق، المقتطف 158. ويقول بهاء الله أيضا في المقتطف رقم 96 من نفس المرجع، لمن لا يستطيع ترك وطنه للتبليغ أن ينفق على من يستطيع ذلك نيابة عنه " ابذلوا كل جهدكم في تبليغ أمر الله. على كل من يجد نفسه لائقاً بهذا المقام الأعلى ان يقوم بذلك **وإلاّ أن يأخذ وكيلاً لنفسه في اظهار هذا الامر الذي به تزعزع كل بنيان مرصوص واندكت الجبال وانصعقت النفوس".**

[74] كتاب [منتخباتي...] المقتطف رقم 158

[75] المرجع السابق، المقتطف رقم 128

[76] المرجع السابق، نفس المقتطف

[77] المرجع السابق، المقتطف رقم 161

التبليغ بالاعتدال والحكمة

لا يجمُل بأن يعتقد المرء بأن الأهمية التي أولاها بهاء الله لمهمة التبليغ على وجه العموم تعني أن التبليغ هو عملية استمالة ملحّة، إذ إنه ينصح المؤمنين قائلاً "أنظروا إلى الحكمة في جميع الأمور وتشبثوا وتمسكوا بها"[78]، ويوصيهم بأن يعاملوا الناس بالصبر والرّوح والرَّيحان والنيّة الخالصة، ويقول: "وان كانت لديكم كلمة او جوهرة حرم منها غيركم فأعطوها وألقوها على الآخرين بلسان المحبة والشفقة، ان قُبلت وأثّرت فقد حققتم الهدف، والا دعوه وشأنه وادعو له ولا تجافوه. لسان الشفقة جذاب للقلوب ومائدة للروح وهو بمثابة معان للألفاظ وكأفق لإشراق شمس الحكمة والمعرفة".[79] ويشرح بهاء الله أيضاً في لوح مقصود أثر البيان وضرورة اتصافه بالاعتدال: **"إنَّ الْبَيَانَ جَوْهَرٌ يَطْلُبُ النُّفُوذَ وَالاعْتِدَالَ... وَأَمَّا الاعْتِدَالُ امْتِزَاجُهُ بِالْحِكْمَةِ الَّتِي نزّلناها فِي الزّبُر والأَلْوَاحِ"**.[80] كما يذكّرنا عبد البهاء بأن تبليغ أمر الله يكون "بالحكمة المذكورة في الكتاب وليس بخرق الأستار"[81]، فتحيّن الفرصة المواتية واختيار العبارة المناسبة كلاهما مهمّان. ذلك لأن "كَلِمَةٌ هِيَ بِمَثَابَةِ الرَّبِيعِ تَخْضَرُّ أَغْرَاسُ بُسْتَانِ الْمَعْرِفَةِ وَتَنْتَعِشُ وَكَلِمَةٌ أُخْرَى كَالسُّمُومِ. عَلَى الْحَكِيمِ الْعَارِفِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَمَالِ الْمُدَارَاةِ كَيْ يَفُوزَ الْكُلُّ مِنْ حَلاوَةِ الْبَيَانِ بِمَا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ".[82]

فدفْع الناس دفعاً إلى سبيل الله عمل أحمق يخالف مقتضيات الحكمة. أما الصبر على الآخر وتفهّمه فلا غنى عنهما، أما الإستمالة فمن الواجب تجنبها هي وكل أسلوب آخر غير كريم أو يتسم بالتفاخر والتعالي عند عرض الحقيقة الجديدة على الناس. ويقول بهاء الله في الكلمات المكنونة "يا ابن التّراب! حكماء العباد هم الذين لا ينبسون ببنت شفة إلا إذا وجدوا

---

[78] المرجع السابق، المقتطف رقم 96، راجع أيضا المقتطف 136، وكتاب 'مختارات من مكاتيب عبد البهاء *Selections from the Writings of Abdu'l-Bahá*'، المقتطف 213

[79] لوح ابن الذئب، وهو أيضا المقتطف رقم 132 من كتاب [منتخباتي...]

[80] كتاب [مجموعة من ألواح...] ص 123

[81] من كتاب [كتاب عهدي والواح وصايا حضرة عبد البهاء]، الطبعة الاولى 2014، ص 52

[82] بهاء الله [مجموعة من ألواح...]، ص153

سميعاً".[83] وكما يؤنّب بهاء الله خشية من يخاف في تبليغ الكلمة الإلهية فهو لا يرضى أيضاً عمن يفتقرون إلى الحكمة في ذلك، إذ يقول: "اليوم ليس الخائف المستور محبوبا ولا الظاهر المشهور، بل يجب العمل بالحكمة والاشتغال بخدمة الامر".[84]

ويحضّ بهاء الله المؤمنين مراراً وتكراراً على احترام أولئك الذين يتمسكون بآرائهم وأفكارهم، ومنها ما جاء في لوح أحمد **"فمن شاء فليعرض عن هذا النصح ومن شاء فليتخذ إلى ربه سبيلا"**، كما يقول في موضع آخر **"فمن شاء فليقبل قولي ومن شاء فليُعرض"**.[85] وكذلك: **"إن وجدت مقبلاً فاظهر عليه لآلئ حكمة الله ربك فيما ألقاك الروح وكن من المقبلين. وإن وجدت معرضاً فاعرِض عنه فتوكل على الله ربك ورب العالمين".**[86] فجَعْل الناس يؤمنون بدين جديد باستخدام قُمْع[87] لِصبّ المعلومات في أذهانهم، أمر لا يستقيم ولا يمكن أن نسمّيه 'صحوة' أو 'ولادة ثانية' – إذا ما شئنا استخدام التعبير المفضّل لدى من يسموّن أنفسهم 'شعب المسيح'، أو الحركات الصّحوية الأخرى التي تستخدم كاريزمية قساوستها سلاحاً لنشر معتقداتها. فهناك مثل ألمانيّ يقول "لا يأتي من التعصّب الأعمى شيء سوى الضرر". فالاستمالة المذهبية أمر خاطئ إذ إنها مبنية على فرضية غير سليمة تعتقد أن بمقدور المرء أن يقنع الآخرين بالحقيقة طالما كان يستخدم الأسلوب المناسب مصحوباً بالإلحاح الكافي. هذا مع أن الحقائق الدينية لا يمكن إثباتها كما يتمّ إثبات النظريات الرياضية. فضلاً عن أن من يشْرع في جعل شخص آخر يتحوّل عن دينه يكون مستهينا بذلك الشخص. فإذا ما كان للناس أن تؤمن بالبهائية فلا يمكن أن يكون ذلك عن طريق 'تحويلهم' – بمعنى تبشيرهم تحت ضغط، كما لا يمكن أن نحدث لديهم 'صحوة' – بمعنى التلاعب بمشاعرهم بالدرجة التي تشوّش على حكمهم السليم على الأمور. وإنما يكون ذلك بجعلهم على علم برسالة بهاء الله، وأن يقتدوا بالتعاليم البهائية طالما كانت لديهم رغبة لذلك. ومن نقطة البداية هذه يكون قرارهم بأن يصبحوا بهائيين أمراً مقصوراً عليهم وحدهم.

---

[83] الكلمات المكنونة الفارسية، الترجمة العربية، الكلمة رقم 36

[84] كتاب [منتخباتي...] المقتطف رقم 164

[85] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 66

[86] المرجع السابق، المقتطف رقم 129

[87] تشبيه يستخدمه الألمان بقُمْع يطلقون عليه اسم 'قمع نورنبرج'، وهو رمز لعملية حشر المعلومات بنجاح في عقل أشد المتعلّمين بلادة

ولا شيء يضمن عدم تأسف أيّ شخص بعد أن يقبل على دين جديد سوى أنه قد اتخذ هذا القرار بإرادته الحرة. وينهى بهاء الله من آمنوا بدعوته عن الجدال العقيم نهياً قاطعا. **"عَرّ نفسك عن كلّ الاشارات ودَعْ عن ورائك كلّ الدّلالات من اهل الحجبات ثمّ انطق بما يلهمك روح الأعظم فى امر ربّك"،** [88]كما يقول في مقام آخر: **"ايّاكم ان لا تحاربوا مع نفس بل ذكّروها بالبيان الحسنة والموعظة البالغة ان كانت متذكّرة فلها وإلّا فاعرضوا عنها ثمّ اقبلوا الى شطر القدس مقرّ قدس منير".**[89]

فالصفات التي يتّصف بها المبلّغ البهائيّ الحقيقيّ ليست هي الغرور والتعالي وإنما التجرّد والتواضع، كما يقول بهاء الله: "على الكل أن يسلكوا مع بعضهم البعض بكل رفقٍ ومداراة ومحبة، وإذا عجز أيّ شخص عن إدراك بعض المراتب أو لم يصل إليها، علينا أن نكلمه بكل لطف وشفقة ونذكّره من دون أن نرى في أنفسنا فضلاً أو علّواً". [90]كما أن نجاح المبلّغ في إيصال الكلمة الإلهية للآخرين لا يكون مبرّراً أيضا لروح الاعتداد بالنفس أو الغرور، إذ يقول: **"وإن يؤثّر قول هؤلاء في أحد هذا لم يكن منهم بل بما قدّر في الكلمات من لدن مقتدر حكيم. ومَثَلهم عند الله كمَثَل السراج يستضئ منه العباد وهو يحترق في نفسه ويكون من المحترقين".** [91]

وكل مبلّغ لأمر الله موعود بالعون الإلهي، إذ يقول بهاء الله:**"تالله الحق من يفتح اليوم شفتاه في ذكر اسم ربه لَينزل عليه جنود الوحي عن مشرق اسمي الحكيم العليم."**[92] وأنه عندما يقوم بهائي على نشر أمر الله سوف "يُجري (الله) من صدره أنهار الحكمة والبيان". [93]

وللبهائيّ الحق في أن يعبر عن اعتقاده الشخصيّ وفهمه للكلمة المنزلة، كما يقول شوقي أفندي[94]، ويزيد هذه المسألة شرحاً فيقول "لا

---

[88] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 139

[89] المرجع السابق، المقتطف 128

[90] المرجع السابق، المقتطف 5

[91] المرجع السابق، المقتطف 128

[92] المرجع السابق، المقتطف 129

[93] المرجع السابق، المقتطف 144، مترجما عن الإنجليزية

[94] كما ورد في مجموعة 'مبادئ الإدارة البهائية *Principles of Bahá'í Administration*' الطبعة الإنجليزية ص 44

يجمل بنا أن نقيّد حرية الفرد في التعبير عن أرائه الخاصة طالما أوضح بغير لبس أن هذه هي آراؤه الخاصة... بيد أن هذا لا يعني أن السلطة المطلقة لا تبقى للكلمة المنزلة. فعلينا أن نجهد لأن نظل قريبين من تلك السلطة بقدر طاقتنا ونبرهن أننا مخلصون لها بالاستشهاد بكلمات بهاء الله لإثبات صحة ما نقوله.[95] وإذا ما ألقينا جانباً بسلطان الكلمة المنزّلة يكون هذا خروج على مبادئ الدين، بينما يكون الكبت التام للمفهوم الفرديّ للكلمة أمراً سيّئاً هو الآخر".[96] ويعني قول شوقي أفندي هذا أن على البهائيين أن يتوصّلوا إلى توازن يُسعد الجميع ما بين "التزمّت المبالغ فيه من طرف والحرّية الجامحة من الطرف الآخر"[97]، وعليهم بتعميق مفهومهم ومعرفتهم ببيانات بهاء الله من خلال الاطلاع المستفيض، حتى يكونوا قادرين على "تقديمها للآخرين بصورتها النّقية".[98] بيد أنّ من يبلّغ الأمر الإلهيّ من بين البهائيين لا يحوز على أية مكانة فريدة أو نفوذ خاص، سيّما فيما يتعلّق بسريان مفهومه الخاص للنصوص المباركة، ويبقى النّفوذ للتفسير المعتمد لهذه النصوص.

وليس من الصعب أن نفهم لماذا وصف بهاء الله التبليغ بأنّه 'أفضل الأعمال'[99]، ذلك لأن سعادة البشرية أو شقاءها يعتمدان على وصول الرسالة الإلهية لكل نفس بغير استثناء من عدمه. وتقول السيدة روحية ربّاني "أيستطيع أحدنا أن يتلقّى كل هذه الموهبة ويضنّ بها على غيره، ويقف مكتوف اليدين ينعم بالهدوء في دخيلته، ويترك غيره جاهلاً عاجزاً في هذه الأيام العصيبة التي نجتازها الآن؟ اليوم – أكثر من أيّ وقت آخر - يجب أن تدوّي في آذاننا صيحة الملاّ حسين[100]: 'امتطوا خيولكم يا فرسان الله!'"[101]

---

[95] يصف حضرة بهاء الله آيات الله على أنها "الإكسير الأعظم" (لوح مهدي الدّهَجي، كتاب [مجموعة من ألواح...]، ص 167

[96] كتاب 'الإجراءات البهائية *Bahá'í Procedure*' الطبعة الإنجليزية، ص 17-18

[97] مجموعة رسائل شوقي أفندي المضمّنة في كتاب 'الإدارة البهائية *Bahá'í Administration*'، الطبعة الإنجليزية، ص 42

[98] مجموعة 'مبادئ الإدارة البهائية *Principles of Bahá'í Administration*'، الطبعة الإنجليزية، ص 11

[99] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 128

[100] المُلّا حسين هو أول من آمن بدعوة 'الباب'، ويشار إليه أيضا على أنه 'باب الباب'، وقد استشهد في أحداث قلعة طبرسي المأسويّة مع عدد كبير من المؤمنين، وكانت هذه

هي عبارته الشهيرة عندما كان يقودهم لصد هجوم الجيش الذي أرسلته الحكومة لقتلهم (للمزيد: راجع كتاب [مطالع الأنوار، تاريخ النبيل])

[101] من مقالة للسيدة روحية رباني ترجمت إلى العربية في كتيب بعنوان[مشاكل التبليغ]، مرجع أشرنا إليه آنفاً، ص 14

الخاتمة

إستشرافات المستقبل

"وهكذا يكون العالم كمعصرة زيت – أي تحت ضغط. فإن كنت مثل نفاية الزيت يكون مصيرك أن تتسرب إلى الخارج عبر البالوعة، وإن كنت زيتاً أصيلاً ستبقى في الوعاء. أما بقاؤك تحت الضغط في حالة بقائك داخل المعصرة فهو أمر لا مناص منه. فأين مآل النفاية من مآل الزيت. والضغط يحدث في العالم دائماً ابداً – على صورة مجاعة – مثلاً – أو حرب، أو فقر، أو غلاء، او عوز، أو حوادث مميته، أو اغتصاب، أو طمع – فهذه هي ضغوط الفقير وهواجس الأمم – ولدينا أمثلة منها... فلقد رأينا أناساً يضجون ويسخطون تحت هذه الضغوط، أولئك الذين يقولون 'ما أسوأ هذه العصور المسيحية!'... فهكذا تتكلم نفاية الزيت التى تتسرب خارجاً عن طريق فتحات التصريف، ولونهم أسود لأنهم يجدّفون، ولا بهاء لديهم. أما الزيت فهو بهيّ المنظر. إذ أن ما لدينا هنا هو نوع آخر من البشر يتعرّض لنفس الضغط والاحتكاك فيصقله هذا الاحتكاك، أليس الاحتكاك نفسه هو الذي يصقله ويهذّبه؟"

تلك كانت كلمات القديس أوغسطين[1] عندما كان يراقب أفول النَّظم القديم، أي الإمبراطورية الرومانية التي عاصرها وعاشها. ونحن اليوم بدورنا نشهد عاصفة تحويل وتبديل تُرْعِد من فوقنا. فالعالم قد انفلت زمامه[2] فأصبح النّظْم القديم يهتزّ بعنف من أساسه وصارت الهاوية السحيقة التي تنحدر نحوها البشرية على المشارف. ولقد شرحنا مغبّة إقصاء الدين عن حياة البشر وقلوبهم وقيّمناها على أنها عملية عطب وتفسّخ. والعلامات التي تتسم بها حالة العالم اليوم هي دلائل هدم وتداعٍ، وتحلل وتفسّخ وعطب.

ومع ذلك فإن التغيّرات التي تواجهنا هي في النهاية أحداث لا مناص منها، بل هي ضرورية ومفيدة. فالنظام الاقتصادي الذي تصبح فيه

---

[1] مواعظ القديس أوغسطين، الإصحاح الرابع والعشرين، فقرة 11

[2] كما يصفه بهاء الله بقوله: **"قد اضطرب النَّظْم من هذا النَّظْم الأعظم واختلف الترتيب بهذا البديع الذي ما شهدت عين الإبداع شِبْهَه"** (كتاب [منتخباتي...]، المقتطف رقم 70

الدول الغنية أكثر ثراء والدول الفقيرة أفقر، يوماً بعد يوم، هو نظام لا أخلاقيّ لا يمكنه البقاء والاستمرار، وعملية تحرير مختلف الشعوب من الاعتماد على الدول التي استعمرتها بالأمس القريب هي من لوازم تأسيس هيئة رابطة الشعوب في المستقبل. وطالما بقيت صور القمع الاستعماري بشكليه القديم والحديث، وطالما لا يتم الاعتراف بمختلف الدول كأعضاء في أسرة الأمم لهم من الحقوق والواجبات ما لغيرهم، فلن يعرف العالم طعم السلام. وقَمْع نصف البشر على يد النصف الآخر: أي قمع الرجال للنساء، هو مسألة سيتم التغلّب عليها في المستقبل المنظور. وتحرير النساء من رِقّية الرجال، وهي العملية التي بدأها بالفعل 'الباب'[§] الذي بشّر بظهور بهاء الله ومهّد له في القرن التاسع عشر، وهي عملية لا صادّ لها ولا رادّ. كما أن التفرقة العنصرية التي أطلّت برأسها القبيح على هيئة أحداث مشينة مصحوبة بصمت زماننا صارت محل تنديد واستنكار يزداد يوماً بعد يوم. وصارت المشاكل الاقتصادية والبيئية والسكانية المتزايدة، مضافاً إليها مشاكل الطاقة وتوفير الغذاء، تدفع شعوب العالم دفعاً للتخلّي عن العبث المسمّى بالسيادة الوطنية المطلقة، فصارت هذه الشعوب تتعاون على نطاق عالميّ[3]، لأن اعتماد الدول اقتصاديا على بعضها البعض قد جعل من حلّ المشاكل على مستوى الدولة أمراً مستحيلاً. والأمثلة على المحاولات الأولية

[§] كانت الشاعرة الإيرانية 'زَرِين تاج' أو 'قُرّة العين' الملقّبة بالطاهرة، من بين حواريّي الباب الثمانية عشر المعروفين بحروف "حي". وقد ظهرت بغير حجاب أثناء أول مؤتمر للمؤمنين بالرسالة الجديدة في قرية بدشت عام 1848 بإيران، وهو عمل كان يعتبر آنذاك خروجا على العادات والتقاليد يستحق العقاب. ولقد ورد الكثير عن حياتها وبطولاتها التي انتهت باستشهادها في مواضع عديدة من مراجع التاريخ البهائي، مثل كتاب مطالع الأنوار في تاريخ النبيل، وكتاب القرن البديع لشوقي أفندي. وهناك كتاب كامل عن سيرتها، ويحمل هذا الكتاب لقبها- أي 'الطاهرة'، وهو من تأليف الصحفية البهائية الرحّالة الشهيرة مارتا روت Martha Root التي زارت منزلها في مدينة قزوين وتحدثت إلى أقاربها، ونقلت الكثير من أشعارها، ودوّنت أراء المعجبين بها مثل الشاعر الإسلاميّ الشهير محمد إقبال، وذلك بعد ما يزيد على ثمانين عاماً من استشهاد الطّاهرة، ولهذا الكتاب الفريد ترجمة عربية منشورة على الإنترنت على الرابط التالي:

http://bahainafeza. files. wordpress. com/2010/05/tahera-martha-routh. Doc

[المترجم]

[3] هناك وصف رائع عن تحوّل العالم من قانون الدّول إلى قانون تعاون الشعوب للكاتب ولفجانج فرايدمان Wolfgang Friedmann في مؤلّفه 'الهيكل المتغيّر للقانون الدوليّ *The Changing Structure of International Law*'، طبع نيويورك عام 1964

على هذا التعاون الدوليّ الواسع هو عقد مؤتمرات عالمية مثل مؤتمر الشؤون البيئية الذي عقد في ستوكهولم، ومؤتمر الغذاء والزراعة الذي عقد في بوخارست، ومؤتمر القانون البحريّ الدوليّ في كاراكاس، ومؤتمر مكافحة الجريمة في جنيف، ومؤمر حقوق المرأة في كوبنهاجن، ومؤتمر حوار الشمال والجنوب في كانكون بالمكسيك – حتى ولو كانت نتائجها قليلة بما يخيّب الآمال من جرّاء قصر نظر الساسة. وبغير أن تشعر الناس بشكل واضح[β]، فإن القارات والدول صارت تخفف شيئاً فشيئا من انعزالها وعزلتها عن بعضها البعض متجهة إلى مستقبل تتضافر جميعها فيه لتكون مجتمعاً عالمياً يصهره ويضمّه مصير واحد.

وفي ختام هذا المشهد، فإنّ هَجْر الدين والانصراف عنه، وانهيار القيم وعلامات الانحلال الاجتماعي والثقافيّ بما لها من تبعات مدمّرة بالغة الخطورة، هي أيضاً جزء لا يتجزأ من هذه العملية الضرورية التي لا يمكن تفاديها – ذلك لأن الإنسان في معرض شغفه لاستكشاف كل شيء وتجربته لا يمكن إقناعه بمغبّة "الانفكاك عن رباط الهداية الإلهيّة المنزلة" إلا إذا "غابت عنه منافع تلك الهداية"[4]. فما لم تخفق التبشيرية العلمانية التي تتنبأ بهناء علمانيّ دائم (وهي لون شديد الشطط من الحركات المنادية بأخذ الإنسان لزمام نفسه والتي تعتقد بقدرة الإنسان على الاكتفاء بذاته)، ومالم يخِب الأمل في تحقق المدن الفاضلة التي تدعو إليها هذه الحركات، وما لم تضِع كل محاولات البشر لخلاص نفسها بنفسها، وما لم يثبت عجز أصنام عبادة الذات عن الإتيان بأية معجزة، فلن يتجلّى الغرض الجوهريّ من وجود الإنسان بكماله وتدرك البشرية جوهر الحضارة الإنسانية – أو كما

[β] عندما كتب المؤلف هذا الانطباع لم تكن الوحدة الأوروبية قد تمت، ولم يكن 'الستار الحديدي' الذي فرضه الإتحاد السوفييتي حول الدول الشيوعية الداخلة في فلكه قد انهار، وكان هذا هو حال الصين وباقي دول الهند الصينية الواقعة تحت نفوذها، فكانت تلك الشعوب في عزلة شديدة لم تكن تمكّنها آنذاك من تبيّن تزايد اعتماد شعوب العالم على بعضها البعض في مجالات كثيرة. بل ولم يكن عصر الإنترنت قد بدأ، أما اليوم فقد أصبح الطّفل في عالم اليوم يأنس بصداقة غيره من الأطفال من مختلف بقاع العالم بالصوت والصورة عبر مواقع التواصل الإجتماعي، أما ارتباط دول العالم بعضها ببعض فقد صار حقيقة واقعة بتعاونها الاقتصادي الذي يتخذ أشكالا عديدة، فضلا عن جهودها المتضافرة في مجالات مثل محاربة الإرهاب والجريمة المنظّمة ومقاومة انتشار الأمراض العابرة للحدود. وبالاختصار، فإن الجنس البشريّ قد صار مع كل يوم يمرّ يقترب أكثر فأكثر من مساره الذي رسمته له البهائية منذ ما يزيد على قرن ونصف من الزمان. [المترجم]

[4] رومانو جارديني Romano Guardini، في كتابه 'نهاية العالم الحديث *The End of the Modern World*'، ص 125

قال كونفوشيوس حكيم الصين "لا ندرك أن أشجار البلّوط والسّرو هي آخر ما يذبل من الأشجار إلا عندما يدخل علينا فصل الشتاء بتمامه".[5]

وما الشواهد العديدة (التي وصفناها في الفصول الأولى من كتابنا هذا) على حدوث نزعة إلى وعي دينيّ جديد، واعادة اكتشاف الدين بوصفه 'جزءاً مكوّناً لوعي الإنسان' و 'أرضية لمنظومة أخلاقية واحدة'[6]، وإدراك العديد من مشاهير المفكّرين أن مرض التلذّذية الهدّام لا يمكن شفاؤُه إلاّ بعقيدة دينية جديدة – ما هي إلاّ حافزٌ لآمالنا في أن يظهر وعي جديد، وقابلية جديدة لسمات العصر، ولأمر جديد.

وبينما نجد المفكّر إريك فروم Erich Fromm يتطلع للمستقبل، فيتوقع ظهور ما أسماه 'المعبود'[7]، إلا أنه يتمنى أن يكون نوال روح الإيمان في المستقبل ممكناً بغير الدين الذي تُوجّهه وتديره المؤسسات. فها نحن على الجانب المقابل نجد المفكر دانيال بيل Daniel Bell يتوق إلى الماضي ويأمل في إحياء الدين القديم.

بيد أنه مهما كانت استقراءات كل من 'فروم' و 'بيل' مقنعة ومهما كانت نظرتهما مؤثّرة، فإن البشرية ستضلّ الطريق حتماً إذا ما كان استمرار بقائها منوطاً بتحقيق أيّ من هاتين النظرتين، لأن كلتيهما من ضُرُب المستحيل. إذ إن 'فروم' على علم تام بأن التغلّب على نزعات الأنانية والجشع والنرجسية هو من الأهداف الأساسية الأولية للدين. ولكن ما استعصى عليه فهمه هو أن الدين أكبر بكثير من هذا الهدف اليتيم، بل وأن هذا الهدف ليس هو جوهر الدين، وأنه هدف من المستحيل تحقيقه بمعزل عن الله. فالغايات الإيمانية المنسلخة عن أية علاقة حيّة نباضة بالخالق والمحرومة من قوة حافزة محوّلة لا تخرج عن كونها معرفة بحتة، فلا تكون حقيقة واقعة نحياها. كما أن 'فروم' لم ينبئنا من أين ستأتي تلك الرؤية وذلك المعبود الجديد، أو عن ماهيّة تلك الشخصية الكاريزمية التي ستوقظ البشرية من سباتها وتَرسى بمركبها على برّ أمان جديد. فما يتمناه 'فروم' ليس سوى رغبة أو حلم، لأنه لا يوجد برهان على أن تعاليم من أسماهم بعظماء المعلّمين تعود للحياة من جديد وهي مقتلَعة من جذورها القديمة، وكأنها (طائر) عنقاء تتولّد من رماد احتراقها. فليس بمقدور ما يبتكره البشر

---

[5] كتاب 'الشذرات *The Analects*'، الفصل التاسع، الفقرة السابعة والعشرين

[6] دانييل بلّ، كتاب 'المتناقضات الحضارية للرأسمالية'، مرجع سبق ذكره، ص 169، ثم ص 154

[7] كتابُه 'تملك أو تكون؟ *To Have or to Be?*'، ص 137

من وسائل أو وسائط أن يعوّضنا عن فقدان ما هو قطب حياتنا و ‘محور العمق’ (إذا استعرنا مصطلح بول تيليتش Paul Tillich)، ولا تستطيع البشرية – على عكس ما فعل البارون مينشهاوزن[8] في الرواية المشهورة، أن تمسك بشعرها وتنتشل نفسها من مستنقع العدميّة والمادية والتلذذية واللادينية التي أوقعت نفسها فيه.

وعلى النقيض الاخر لا نجد لأمنية ‘دانييل بيل’ – التي يشاركه فيها الملايين – في إعادة بعث الأديان العتيقة أية دلائل قويّة تدعّمها وتوحي بإمكان تحققها، فيما خلا ذلك الاشتياق العام للروحانية والرّغبة في منح الحياة معنى لها. فالعقائد الموروثة قد عفا عليها الدّهر وبَلِيَتْ وتقوّضت، ولم يعد أحد يعيش بمقتضى القيم القديمة - ولا نقصد هنا هجرها من قبل معظم الناس، بل نقصد أنها لا تُنفّذ أبداً كما يجب. وستبوء بالفشل الذريع كل محاولات بعث الأديان القديمة من جديد أو نفخ الروح فيها أو دمجها في عالمنا الحديث بمحاولات من يسمّون بالمجددين والمصلحين. فالحقيقة التي لا شك فيها هو أن الكلمة المنزلة قديماً قد ‘أفرغت من مضمونها وتفككت’، وخبا فيها الدافع الأوّليّ والروح التحويلية الثورية (التي صاحبت أيامها الأولى)، ولا يمكن أن تدور عقارب الساعة إلى الوراء. فلقد تنبأ بهاء الله "بضعف قوّة الإيمان وبنيانه"، ويقول إنه لا يمكن إحياء الدين إلاّ بوحي سماويّ جديد، وأننا "نحتاج إلى الإكسير الأعظم" ألا وهو "كلمة الله".[9]

إننا نقف الآن عند منعطف تاريخيّ، وكل نقطة تحوّل هامة في تاريخ البشرية كانت مرتبطة بتجلّي الأزل الأبد الصمد – أي "الله" سبحانه وتعالى – في واحد من مظاهر أمره يأتينا على هيئة إنسان، ودائماً ما كانت كل بداية جديدة تنطوي على تحوّل في طبيعة الإنسان والمجتمع نتاجاً للدفع الخلاّق النابع من كلمة إلهية جديدة.

---

[8] البارون كارل فريدريك فون مونشهاوزن Karl Friedrich von Münchhausen (1720-1797) كان ضابطا عسكريا مولعا بالصيد، وكان يحلو له في خريف حياته التي حفلت بالمغامرات أن يسلّي أصدقاءه بأغرب قصص الحرب والصيد والأسفار. وقد نشرت تلك القصص بعد مماته على هيئة قصص مختارة طبعت مع غيرها من القصص الشعبيّ لغيره من رواة الفولكلور الغربيّ ‘*tall tale folk literature*’ مثل لوكيان Lukian، ورابيليه Rabelais، وسويفت Swift، وهولبرج Holberg. وفي إحدى قصصه الفولكلورية حكى ‘مونشهاوزن’ هذا أنه سقط ذات مرة من على جواده في مستنقع، ووصف كيف أنقذ نفسه في آخر لحظة بأن جذب شعره بشدّة أنقذته من الغرق.

[9] كتاب [منتخباتي...]، المقتطف 99

وليس بمقدور الإنسان أن يفعل بالله كما يحلو له. فلا هو قادر، كما قال مارتن هايديجير Martin Heidegger ذات مرّة، على أن "يخلق ربّا من بنات أفكاره"[10]. ولا هو محتاج لذلك، ذلك لأن الله قد كلّم البشرية من جديد على لسان رسوله لهذا العصر – بهاء الله. وبما أن الله قد خاطب عباده فيما مضى من الأزمان على لسان رسله وسفرائه فهداهم وأرشدهم، فهل يكون من غير المحتمل ألا يعيد الكرّة تارة أخرى في هذه المرحلة الحرجة العصيبة في تاريخ البشرية؟ وهل يجمل بنا أن نعتقد بأن التدخّل الإلهيّ المُصلح للنفوس والأرواح قد انقطع بظهور رسله موسى وعيسى ومحمد، وأن على البشرية أن تحيا محرومة من الهداية الربّانية فيما سيلى من أيام؟ وهل من الممكن اعتبار فكرة احتكار أو انفراد رسالة سماوية سابقة بالوحي أكثر تصديقاً وأشد إقناعاً من العَوْد المتواتر لنزول الكلمة الإلهية؟ ألا تشير كافة الكتب المقدّسة للأديان السابقة إلى فجر يوم جديد؟ وها هو الفيلسوف اليهوديّ مارتن بوبر Martin Buber في كتاب صدر له عام 1949 بعنوان 'من أجل الملكوت *For the Sake of Heaven*' في انتظار منه لهذا العَوْد – يقول: "لقد ضاعت منا كل السُّبل في ليل الصحارى هذا. ولا يكون أمام الإنسان من هدف سوى إعانة البشر في هذا اليوم على الثبات والاستعداد بالنفوس والأرواح إلى أن يطلع الفجر وتظهر لنا معالم الطريق من حيث لا نحتسِب."[11]

ومن يتطلّع اليوم إلى رؤية جديدة، ووِجهة جديدة لا يجمُل به أن يغمض عينيه عما تراه الملايين اليوم أنه رؤية جديدة و"محور جديد لكل اجتهاداتنا وأساسا لكل ما هو ناجع وفاعل من بين... القيم"[12] – ألا وهو رسالة بهاء الله، ولا أن يغفل أيضاً عن نصح بولس الرسول: "امتحنوا كل شيء، تمسّكوا بالحَسَن"[13]. ورسالة بهاء الله هي حقاً ذلك الشيء الجديد الوحيد في هذا العالم الذي يأخذ بيد البشرية نحو المستقبل دونما أن يقطع الصلة مع الماضي بكاملها. فالماضي في ظل هذه الرسالة جزء يدخل في تركيب المستقبل. وبموجبها "لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة"[14] مما

---

[10] في حديث له مع مجلة دير شبيجل، العدد العاشر عام 1977 ص 236 وما بعدها

[11] الصفحة الثالثة عشر من مقدمة هذا المرجع

[12] إريك فروم، كتاب 'تملك أو تكون؟ *To Have or to Be?*'، ص 138

[13] الرسالة الأولى لأهل تسالونيكي 5: 21

[14] إنجيل متّى 5: 18

جاء به أنبياء القبل. وفيها يتجلّى استمرار التدخّل الربّانيّ الشافي وانسياب الحضارة الإنسانية بغير قطع أو فصل.

وليست هذه أول مرة في التاريخ تشير فيها "أقلية إلى الوجهة التي سيتخذها التطوّر التاريخيّ اللاحق"[15]، ويتأكد صدق ما جاء في القرآن الكريم "كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً"[16] ويمضي المنعطف بغير صخب وجلبة مصداقاً للمثل الفرنسيّ القائل 'كل ما هو عظيم يمضي في صمت *Tout ce qui est grand se passe en silence*' – وهو استنتاج يجد صدى له في كلمات نيتشة التي لمست كبد الحقيقة "إن أكثر الكلمات هدوءً هي التي تثير العاصفة. والأفكار التي تأتي على خطى أقدام الحمام هي التي ترشد العالم وتهديه."[17] فتجديد العالم قادم لامحالة على أقدام الحمام.

وعلى كل كائن من كان أن يتخذ قراره ويحدد موقفه، لأن الكل مدعوٌّ للمشاركة في بناء عالم جديد. بيد أن الأمر الإلهيّ غير معلّق بقبول الناس أو رفضها له. كما يقول بهاء الله "لَمْ تَحْتَجِبْ شَمْسُ أَمْرِهِ وَلَمْ يَتَطَرَّقِ الْمَحْوُ إِلَى ثُبُوتِ كَلِمَتِهِ"[18]، وكما حدث في أيام رُسُل القبل، فإن من سيبني 'مدينة الله' هم الذين يلبّون النداء الإلهيّ.

وفي هذا الزمان الذي اظْلمّ من جرّاء غياب الإيمان، يستمدّ البهائيون طمأنينتهم وقوّتهم على المناداة بالرسالة الإلهية من منظورهم التاريخيّ وإيمانهم الراسخ بأن ما يبدو مستحيلاً تماماً قد يتحقق[19] إذا ما ساندته إرادة الله وقدرته، معطية إياه ما يحتاجه من دفع ودافع – كما يقول القرآن: "وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ"[20].

ألم يُعْط 'الباب' – المبشّر ببهاء الله – حوارييه المعروفين بـ "حروف الحيّ" وعداً ناصعاً بالنصر عندما أرسلهم للمناداة بالحقيقة الجديدة؟ ألم يخاطبهم بقوله "... لا تنظروا إلى ضعفكم واستكانتكم بل

---

[15] إريك فروم، مرجع سابق ص 76

[16] سورة البقرة: 250

[17] كتابه 'هكذا تكلم زرادشت *Thus spake Zarathustra*'، فصل 'أكثر الساعات صمتا The stillest Hour' الفقرة الثالثة، ص 162

[18] كتاب [مجموعة من ألواح...]، لوح الطرازات - ص 49

[19] مثل ذلك النجار الذي جاء من الناصرة (المسيح) أو ذلك التاجر الأمّيّ الذي ظهر من مكة (النبيّ محمد) اللذان قدّر لهما أن يغيّرا العالم ويبدّلا أحواله

[20] سورة الصافّات: 173

اجعلوا أنظاركم دائمًا متوجهة إلى القوة القاهرة من ربكم وإلهكم القدير. ألم يجعل إبراهيم منصورًا على جيوش نمرود رغمًا عن ضعفه الظاهر؟ ألم يجعل موسى غالبًا على فرعون وجنوده مع أنه لم يكن له رفيق سوى عصاه؟ ألم يؤسس المسيح عزته ومجده ورِفعَته فوق جميع قوى اليهود مع أنه كان بحسب الظاهر فقيرًا وحيدًا؟ ألم يُخضِع نبيُّه محمد قبائل العربِ المتوحشة الثائرة للنظام القدسيّ الذي أتى به حتى قلّبهم وغيّر أحوالهم؟ إذًا قوموا على اسم الله وضعوا ثقتكم فيه وتوكلوا عليه وأيقنوا بالنصر والفوز في النهاية."[21]

[21] من كتاب [مطالع الأنوار – تاريخ النبيل]، ص84

قائمة ببعض الأعمال الرئيسية الأخرى للمؤلف

– كتاب 'النور يلمع في الظلام – خمس دراسات في الوحي السماوي بعد المسيحيّة'

The Light Shineth in Darkness. Five Studies in Revelation after Christ, Oxford: George Ronald, 1977

– كتاب 'تقويم الأعوج، مساهمة في الدفاع عن البهائية' (كتاب وضع تفنيدا لافتراءات عن البهائية انتشرت سنينا طويلة في مراجع كنسيّة ألمانية نقلا عن أحد أعداء البهائية) كتب بالاشتراك مع الكاتبين البهائيين نيقولا توفيق وأولريك جولمر

Making the Crooked Straight. A Contribution to Baha'i Apologetics, Oxford: Schaefer, Udo, Nicola Towfigh and Ulrich Gollmer, George Ronald 2000

– 'مقدمة في القانون البهائي – الأسس العقائدية والمبادئ والهياكل' - بحث منشور في دورية 'القانون والدين' التي تصدرها كلية الحقوق بجامعة هاملاين بولاية مينيسوتا الأمريكية

An Introduction to *Baha'i* Law: Doctrinal Foundations, Principles and Structures, in: *Journal of Law and Religion*, vol. XVIII, No, 2 (2002-2003), Saint Paul, Minnesota, Hamline University School of Law

– كتاب 'في سحاب أزرق، موقف النصوص البهائية الأخلاقية من التدخين'

In a Blue Haze. Smoking and Baha'i Ethics, Hofheim: *Baha'i* Verlag, 2004

– كتاب 'عصر ما بعد تصادم الأديان – ظهور مفهوم جديد'

Beyond the Clash of Religions. The Emergence of a New Paradigm, Hofheim: *Baha'i* -Verlag 2004

– كتاب 'مقدّمة عن الأخلاق في الدين البهائي على ضوء نصوصه المقدسة'

المجلد الأول: المفاهيم الأساسية (409 صفحة)
المجلد الثاني: الفضائل والأوامر الإلهية (775 صفحة)

Baha'i Ethics in Light of Scripture. An Introduction,
vol. 1 "Doctrinal Fundamentals", Oxford: George Ronald 2007;
vol. 2 "Virtues and Divine Commandments", Oxford: George Ronald 2009